مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

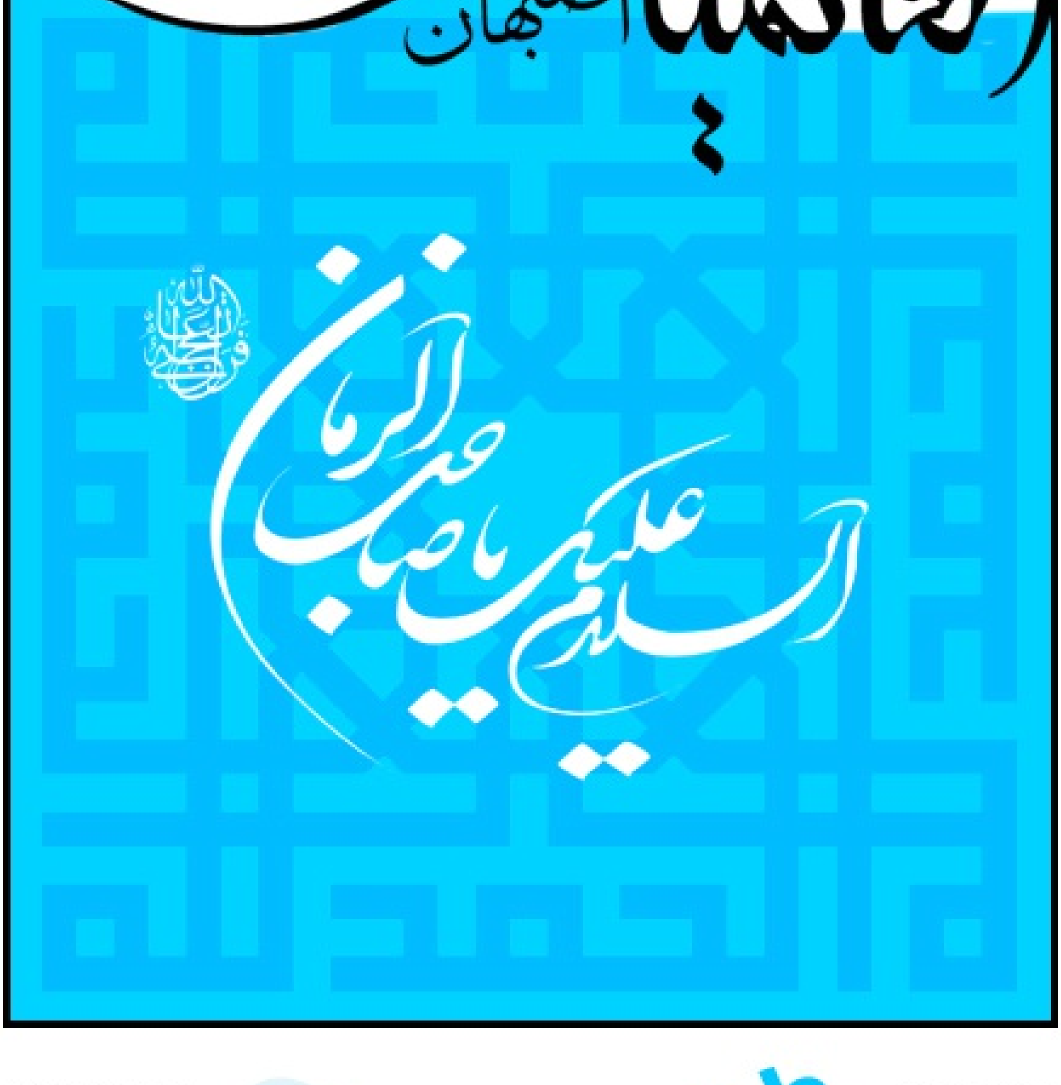

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كتاب المواعظ والاعتبار

بذكر الخطط والآثار

المعروف بالخطط المقريزية

تأليف

تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر

العبيدي المقريزي

المتوفى سنة ٨٤٥ هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الرابع

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

كاتب:

احمد بن على مقريزى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، المجلد ۴ ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
الجزء الرابع ----- ۲۰
ذكر المساجد الجامعة ----- ۲۰
ذكر الجوامع ----- ۲۲
اشارة ----- ۲۲
الجامع العتيق ----- ۲۲
اشارة ----- ۲۲
ذكر المحاريب التى بديار مصر و سبب اختلافها و تعيين الصواب فيها و تبيين الخطأ منها ----- ۳۴
جامع العسكر ----- ۴۳
اشارة ----- ۴۳
ذكر العسكر ----- ۴۴
جامع ابن طولون ----- ۴۵
اشارة ----- ۴۵
ذكر دار الإمارة ----- ۵۰
ذكر الأذان بمصر و ما كان فيه من الاختلاف ----- ۵۰
الجامع الأزهر ----- ۵۴
جامع الحاكم ----- ۵۹
جامع راشدة ----- ۶۴
جامع المقس ----- ۶۶
جامع الفيلة ----- ۷۲
جامع المقياس ----- ۷۳

الجامع الأقمر ۷۳
جامع الظافر ۷۷
جامع الصالح ۷۷
اشارة ۷۷
ذكر الأحباس و ما كان يعمل فيها ۷۹
الجامع بجوار تربة الشافعيّ بالقرافة ۸۱
جامع محمود بالقرافة ۸۱
جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط ۸۲
جامع غين بالروضة ۸۲
جامع الأفرم ۸۳
الجامع بمنشأة المهرانيّ ۸۳
جامع دير الطين ۸۴
جامع الظاهر ۸۵
جامع ابن اللبان ۸۹
الجامع الطيبرسيّ ۸۹
الجامع الجديد الناصريّ ۹۰
الجامع بالمشهد النفيسيّ ۹۳
جامع الأمير حسين ۹۳
جامع الماس ۹۳
جامع قوصون ۹۴
جامع الماردانيّ ۹۵
جامع أصلم ۹۵
جامع بشتاک ۹۶
جامع آق سنقر ۹۶

جامع آق سنقر ----- ۹۶
جامع آل ملک ----- ۹۷
جامع الفخر ----- ۹۸
جامع نائب الکرک ----- ۹۹
جامع الخطیریّ ببولاق ----- ۹۹
جامع قیدان ----- ۱۰۰
جامع الست حدق ----- ۱۰۰
جامع ابن غازی ----- ۱۰۰
جامع الترکمانیّ ----- ۱۰۰
جامع شیخو ----- ۱۰۱
جامع الجاکیّ ----- ۱۰۲
جامع التوبة ----- ۱۰۲
جامع صاروجا ----- ۱۰۲
جامع الطباخ ----- ۱۰۳
جامع الأسیوطیّ ----- ۱۰۳
جامع الملک الناصر حسن ----- ۱۰۳
جامع القرافة ----- ۱۰۶
جامع الجیزة ----- ۱۰۸
جامع منجک ----- ۱۰۹
الجامع الأخضر ----- ۱۱۳
جامع البکجریّ ----- ۱۱۳
جامع السروجیّ ----- ۱۱۳
جامع کرجی ----- ۱۱۳
جامع الفاخریّ ----- ۱۱۳

جامع ابن عبد الظاهر ----- ۱۱۳

جامع بساتین الوزیر التی علی برکة الحبس جامع الخندق ----- ۱۱۴

جامع جزیرة الفیل جامع الطواشی ----- ۱۱۴

جامع کرای ----- ۱۱۴

جامع القلعة ----- ۱۱۴

جامع قوصون ----- ۱۱۵

جامع کوم الریش ----- ۱۱۵

جامع الجزیرة الوسطی ----- ۱۱۵

جامع ابن صارم ----- ۱۱۵

جامع الکیمختی ----- ۱۱۵

جامع الست مسکة ----- ۱۱۵

جامع ابن الفلک ----- ۱۱۵

جامع التکروریّ ----- ۱۱۶

جامع البرقیة ----- ۱۱۶

جامع الحرّانیّ ----- ۱۱۶

جامع برکة ----- ۱۱۶

جامع برکة الرطلیّ ----- ۱۱۶

جامع الضوة ----- ۱۱۷

جامع الحوش ----- ۱۱۷

جامع الاصطبل ----- ۱۱۷

جامع ابن الترکمانیّ ----- ۱۱۷

جامع ... ----- ۱۱۷

جامع الباسطیّ ----- ۱۱۷

جامع الحنفیّ ----- ۱۱۷

جامع ابن الرفعة ----- ۱۱۷
جامع الإسماعيلىّ ----- ۱۱۸
جامع الزاهد ----- ۱۱۸
جامع ابن المغربىّ ----- ۱۱۸
جامع الفخرىّ ----- ۱۱۸
الجامع المؤيدى ----- ۱۱۸
الجامع الأشرفىّ ----- ۱۲۱
الجامع الباسطىّ ----- ۱۲۱
ذكر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى اللّه عنه أرض مصر إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم اللّه تعالى، و ما كان
ذكر فرق الخليقة و اختلاف عقائدها و تباينها ----- ۱۳۶
ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام، منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية ----- ۱۵۰
ذكر المدارس ----- ۱۵۸
اشارة ----- ۱۵۸
المدرسة الناصرية ----- ۱۵۹
المدرسة القمحية ----- ۱۵۹
مدرسة يازكوج ----- ۱۶۰
مدرسة ابن الأرسوفىّ ----- ۱۶۰
مدرسة منازل العز ----- ۱۶۰
مدرسة العادل ----- ۱۶۱
مدرسة ابن رشيق ----- ۱۶۱
المدرسة الفائزية ----- ۱۶۱
المدرسة القطبية ----- ۱۶۱
المدرسة السيوفية ----- ۱۶۱
المدرسة الفاضلية ----- ۱۶۲

المدرسة الأزكشية ----- ۱۶۳
المدرسة الفخرية ----- ۱۶۴
المدرسة السيفية ----- ۱۶۴
المدرسة العاشورية ----- ۱۶۴
المدرسة القطبية ----- ۱۶۵
المدرسة الخرّوبية ----- ۱۶۵
مدرسة المحلىّ ----- ۱۶۵
المدرسة الفارقانية ----- ۱۶۵
المدرسة المهذبية ----- ۱۶۶
المدرسة الخرّوبية ----- ۱۶۶
المدرسة الخروبية ----- ۱۶۶
المدرسة الصاحبية البهائية ----- ۱۶۷
المدرسة الصاحبية ----- ۱۶۸
المدرسة الشريفية ----- ۱۷۰
المدرسة الصالحية ----- ۱۷۱
المدرسة الكاملية ----- ۱۷۲
المدرسة الصيرمية ----- ۱۷۶
المدرسة المسرورية ----- ۱۷۶
المدرسة القوصية ----- ۱۷۶
مدرسة بحارة الديلم المدرسة الظاهرية ----- ۱۷۶
المدرسة المنصورية ----- ۱۷۸
المدرسة الحجازية ----- ۱۸۱
المدرسة الطيبرسية ----- ۱۸۱
المدرسة الأقبغاوية ----- ۱۸۲

المدرسة الحسامية ----- ۱۸۵
المدرسة المنكوتمرية ----- ۱۸۶
المدرسة القراسنقرية ----- ۱۸۷
المدرسة الغزنوية ----- ۱۹۰
المدرسة البوبكرية ----- ۱۹۰
المدرسة البقرية ----- ۱۹۰
المدرسة القطبية ----- ۱۹۱
مدرسة ابن المغربيّ ----- ۱۹۱
المدرسة البيدرية ----- ۱۹۱
المدرسة البديرية ----- ۱۹۱
المدرسة الملكية ----- ۱۹۲
المدرسة الجمالية ----- ۱۹۲
المدرسة الفارسية ----- ۱۹۳
المدرسة السابقية ----- ۱۹۴
المدرسة القيسرانية ----- ۱۹۴
المدرسة الزمامية ----- ۱۹۴
المدرسة الصغيرة ----- ۱۹۴
مدرسة تربة أمّ الصالح ----- ۱۹۵
مدرسة ابن عرّام ----- ۱۹۵
المدرسة المحمودية ----- ۱۹۵
المدرسة المهذبية ----- ۱۹۷
المدرسة السعدية ----- ۱۹۸
المدرسة الطفجية ----- ۱۹۸
المدرسة الجاولية ----- ۱۹۸

المدرسة الفارقانية ----- ۱۹۹

المدرسة البشيرية ----- ۲۰۰

المدرسة المهمندارية ----- ۲۰۰

مدرسة ألجاى ----- ۲۰۰

مدرسة أمّ السلطان ----- ۲۰۱

المدرسة الأيتمشية ----- ۲۰۱

المدرسة المجدية الخليلية ----- ۲۰۱

المدرسة الناصرية بالقرافة ----- ۲۰۲

المدرسة المسلمية ----- ۲۰۲

مدرسة اينال ----- ۲۰۲

مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار ----- ۲۰۳

المدرسة الصرغتمشية ----- ۲۰۵

ذكر المارستانات ----- ۲۰۷

اشارة ----- ۲۰۷

مارستان ابن طولون ----- ۲۰۷

مارستان كافور ----- ۲۰۸

مارستان المغافر ----- ۲۰۸

المارستان الكبير المنصورىّ ----- ۲۰۸

المارستان المؤيدى ----- ۲۱۱

ذكر المساجد ----- ۲۱۱

اشارة ----- ۲۱۱

المسجد بجوار دير البعل ----- ۲۱۱

مسجد ابن الجباس ----- ۲۱۲

مسجد ابن البناء ----- ۲۱۲

مسجد الحلبيين ----- ۲۱۲
مسجد الكافوريّ ----- ۲۱۳
مسجد رشيد ----- ۲۱۳
المسجد المعروف بزرع النوى ----- ۲۱۳
مسجد الذخيرة ----- ۲۱۴
مسجد رسلان ----- ۲۱۴
مسجد ابن الشيخيّ ----- ۲۱۴
مسجد يانس ----- ۲۱۵
مسجد باب الخوخة ----- ۲۱۵
المسجد المعروف بمعبد موسى ----- ۲۱۵
مسجد نجم الدين ----- ۲۱۵
مسجد صواب ----- ۲۱۶
المسجد بجوار المشهد الحسينيّ ----- ۲۱۶
مسجد الفجل ----- ۲۱۶
مسجد تبر ----- ۲۱۶
مسجد القطبية ----- ۲۱۷
ذكر الخوانك ----- ۲۱۷
اشارة ----- ۲۱۷
الخانكاه الصلاحية، دار سعيد السعداء، دويرة الصوفية ----- ۲۱۸
خانقاه ركن الدين بيبرس ----- ۲۲۰
الخانقاه الجمالية ----- ۲۲۲
الخانقاه الظاهرية ----- ۲۲۲
الخانقاه الشرابيشية ----- ۲۲۲
الخانقاه المهمندارية ----- ۲۲۳

خانقاه بشتاک ----- ۲۲۳

خانقاه ابن غراب ----- ۲۲۳

الخانقاه البندقدارية ----- ۲۲۵

خانقاه شيخو ----- ۲۲۵

الخانقاه الجاولية ----- ۲۲۶

خانقاه الجيبغا المظفرى ----- ۲۲۶

خانقاه سرياقوس ----- ۲۲۷

خانقاه أرسلان ----- ۲۲۸

خانقاه بكتمر ----- ۲۲۸

خانقاه قوصون ----- ۲۳۰

خانقاه طغاى النجمىّ ----- ۲۳۰

خانقاه أمّ أنوک ----- ۲۳۱

خانقاه يونس ----- ۲۳۱

خانقاه طيبرس ----- ۲۳۲

خانقاه أقبغا ----- ۲۳۲

الخانقاه الخروبية ----- ۲۳۲

ذكر الربط ----- ۲۳۲

اشارة ----- ۲۳۲

رباط الصاحب ----- ۲۳۳

رباط الفخرى ----- ۲۳۳

رباط البغدادية ----- ۲۳۳

رباط الست كليلة ----- ۲۳۴

رباط الخازن ----- ۲۳۴

الرباط المعروف برواق ابن سليمان ----- ۲۳۴

رباط داود بن إبراهيم ----- ۲۳۴
رباط ابن أبى المنصور ----- ۲۳۴
رباط المشتهى ----- ۲۳۵
رباط الآثار ----- ۲۳۵
رباط الأفرم ----- ۲۳۶
الرباط العلائى ----- ۲۳۶
ذكر الزوايا ----- ۲۳۷
زاوية الدمياطىّ ----- ۲۳۷
زاوية الشيخ خضر ----- ۲۳۷
زاوية ابن منظور ----- ۲۳۸
زاوية الظاهرى ----- ۲۳۸
زاوية الجميزة ----- ۲۳۸
زاوية الحلاوى ----- ۲۳۸
زاوية نصر ----- ۲۳۹
زاوية الخدّام ----- ۲۳۹
زاوية تقى الدين ----- ۲۳۹
زاوية الشريف مهدى ----- ۲۳۹
زاوية الطراطرية ----- ۲۳۹
زاوية القلندرية ----- ۲۳۹
قبة النصر ----- ۲۴۰
زاوية الركراكى ----- ۲۴۰
زاوية إبراهيم الصائغ ----- ۲۴۱
زاوية الجعبرى ----- ۲۴۱
زاوية أبى السعود ----- ۲۴۱

زاویة الحمصی ۲۴۱

زاویة المغربل ۲۴۲

زاویة القصری ۲۴۲

زاویة الجاکی ۲۴۲

زاویة الأبناسیّ ۲۴۲

زاویة الیونسیة ۲۴۲

زاویة الخلاطی ۲۴۳

الزاویة العدویة ۲۴۳

زاویة السدّار ۲۴۳

ذکر المشاهد التی یتبرّک الناس بزیارتها مشهد زین العابدین ۲۴۴

اشارة ۲۴۴

مشهد السیدة نفیسة ۲۴۹

مشهد السیدة کلثوم ۲۵۱

سنا و ثنا ۲۵۱

ذکر مقابر مصر و القاهرة المشهورة ۲۵۲

ذکر القرافة ۲۵۲

ذکر المساجد الشهیرة بالقرافة الکبیرة ۲۵۴

اشارة ۲۵۴

مسجد الأقدام ۲۵۵

مسجد الرصد ۲۵۵

مسجد شقیق الملک ۲۵۵

مسجد الانطاکیّ ۲۵۵

مسجد النارنج ۲۵۶

مسجد الأندلس ۲۵۶

مسجد البقعة ---- ۲۵۷
مسجد الفتح ---- ۲۵۷
مسجد أمّ عباس جهة العادل بن السلار ---- ۲۵۷
مسجد الصالح ---- ۲۵۷
مسجد ولیّ عهد أمیر المؤمنین ---- ۲۵۷
مسجد الرحمة ---- ۲۵۸
مسجد مکنون ---- ۲۵۸
مسجد جهة ریحان ---- ۲۵۸
مسجد جهة بیان ---- ۲۵۸
مسجد توبة ---- ۲۵۹
مسجد دری ---- ۲۵۹
مسجد ست غزال ---- ۲۵۹
مسجد ریاض ---- ۲۵۹
مسجد عظیم الدولة ---- ۲۶۰
مسجد أبی صادق ---- ۲۶۰
مسجد الفرّاش ---- ۲۶۰
مسجد تاج الملوک ---- ۲۶۰
مسجد الثمار ---- ۲۶۱
مسجد الحجر ---- ۲۶۱
مسجد القاضی یونس ---- ۲۶۱
مسجد الوزیریة ---- ۲۶۱
مسجد ابن العکر ---- ۲۶۱
مسجد ابن کباس ---- ۲۶۱
مسجد الشهمیة ---- ۲۶۲

مسجد زنکادة ----- ۲۶۲

جامع القرافة ----- ۲۶۲

مسجد الأطفیحیّ ----- ۲۶۲

مسجد الزیات ----- ۲۶۳

ذکر الجواسیق التی بالقرافة ----- ۲۶۳

اشارة ----- ۲۶۴

ذکر الرباطات التی کانت بالقرافة ----- ۲۶۵

ذکر المصلّیات و المحاریب التی بالقرافة ----- ۲۶۵

ذکر المساجد و المعابد التی بالجبل و الصحراء ----- ۲۶۶

ذکر الأحواض و الآبار التی بالقرافة ----- ۲۷۱

ذکر الآبار التی ببرکة الحبش و القرافة ----- ۲۷۲

ذکر السبعة التی تزار بالقرافة ----- ۲۷۲

ذکر المقابر خارج باب النصر ----- ۲۷۵

ذکر کنائس الیهود ----- ۲۷۷

اشارة ----- ۲۷۷

ذکر تاریخ الیهود و أعیادهم ----- ۲۸۵

ذکر معنی قولهم یهودی ----- ۲۸۸

ذکر معتقد الیهود و کیف وقع عندهم التبدیل ----- ۲۸۸

ذکر فرق الیهود الآن ----- ۲۹۰

ذکر قبط مصر و دیاناتهم القدیمة، و کیف تنصروا ثم صاروا ذمّة للمسلمین، و ما کان لهم فی ذلک من القصص و الأنباء، و ذکر الخبر عن کنائسهم و دی

اشارة ----- ۲۹۴

ذکر دیانة القبط قبل تنصرهم ----- ۲۹۵

ذکر دخول قبط مصر فی دین النصرانیة ----- ۲۹۶

ذکر دخول النصاری من قبط مصر فی طاعة المسلمین و أدائهم الجزیة، و اتخاذهم ذمّة لهم، و ما کان فی ذلک من الحوادث و الأنباء ----- ۳۰۷

ذکر دیارات النصاری ---- ۳۱۸

اشارة ---- ۳۱۸

أدیرة أدرنکة ---- ۳۲۳

ذکر کنائس النصاری ---- ۳۲۹

اشارة ---- ۳۲۹

و أما الوجه البحریّ: ---- ۳۳۸

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۳۴۰

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، المجلد ۴

اشارة

نام كتاب: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

نويسنده: مقريزى، احمد بن على

تاريخ وفات مؤلف: ۸۴۵ ه. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

رده بندى كنگره:

DT۷۷/ م۷م۸۱۳۷۶

almwaa'th walaa'tbar bthkr alkhtt wala'thar alma'rouf balkhtt almkriziah

تأليف: تقدى الدين العبيدى المقريزى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۸

ترجمة، تحقيق: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۱۸۳۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۴

الجزء الرابع

ذكر المساجد الجامعة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم اعلم أن أرض مصر لما فتحت فى سنة عشرين من الهجرة، و اختط الصحابة رضى اللّه عنهم فسطاط مصر كما تقدّم، لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد، و هو الجامع الذى يقال له فى مدينة مصر الجامع العتيق، و جامع عمرو بن العاص. و ما برح الأمر على هذا إلى أن قدم عبد اللّه بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما من العراق، فى طلب مروان بن محمد فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، فنزل عسكره فى شمالىّ الفسطاط، و بنوا هناك الأبنية، فسمى ذلك الموضع بالعسكر، و أقيمت هناك الجمعة فى مسجد، فصارت الجمعة تقام بمسجد عمرو بن العاص و بجامع العسكر، إلى أن بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه على جبل يشكر، فى سنة تسع و خمسين و مائتين، حين بنى القطائع، فتلاشى من حينئذ جامع العسكر، و صارت الجمعة تقام بجامع عمرو و بجامع ابن طولون، إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد القيروان بالمغرب، و معه عساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فبنى القاهرة و بنى الجامع الذى يعرف بالجامع الأزهر فى سنة ستين و ثلاثمائة، فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو، و جامع ابن طولون، و الجامع الأزهر، و جامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء. ثم إنّ العزيز باللّه أبا منصور نزار بن المعز لدين اللّه، بنى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الجامع الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم، فى سنة ثمانين و ثلاثمائة، و أكمله ابنه الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ

منصور، و بنى جامع المقس، و جامع راشدة، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين، فى سنة سبع و ستين و خمسمائة، فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر، و استمرّت فيما عداه.

فلما كانت الدولة التركية حدث بالقاهرة و القرافة و مصر و ما بين ذلك عدّة جوامع، أقيمت فيها الجمعة، و ما برح الأمر يزداد حتى بلغ عدد المواضع التى تقام بها الجمعة، فيما بين مسجد تبر خارج القاهرة من بحريها إلى دير الطين قبلىّ مدينة مصر، زيادة على مائة موضع. و سيأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

و قد بلغت عدّة المساجدة التى تقام بها الجمعة مائة و ثلاثين مسجدا. منها: بمدينة مصر: جامع عمرو بن العاص، و الجامع الجديد، و المدرسة المعزية، و جامع ابن اللبان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴

و جامع القرّاء، و جامع تقىّ الثمار، و جامع راشدة، و جامع الفيلة، و جامع دير الطين، و جامع بساتين الوزير.

و منها بالقرافة: جامع الأولياء، و جامع الأفرم، و خانكاه بكتمر، و جامع ابن عبد الظاهر، و جامع الجوّانى، و جامع الضراب، و جامع قوصون، و جامع الشافعىّ، و جامع الديلىّ، و جامع محمود، و جامع بقرب تربة الست.

و منها بالروضة: جامع المقياس، و جامع عين، و جامع الرئيس، و جامع الأباريقىّ، و جامع المقسىّ.

و منها بالحسينية خارج القاهرة: جامع أحمد الزاهد، و جامع آل ملك، و جامع كزاى، و جامع الكافورىّ، بالقرب من السميساطية، و جامع الخندق، و جامع نائب الكرك، و جامع سويقة الجميزة، و جامع قيدار، و جامع ابن شرف الدين، و جامع الظاهر، و جامع الحاج كمال التاجر، تجدّد هو و جامع سويقة الجميزة فى أيام الظاهر برقوق.

و منها خارج القاهرة مما يلى النيل: جامع كوم الريش، جامع جزيرة الفيل، جامع أمين الدين بن تاج الدين موسى، جامع الفخر على النيل، جامع الأسيوطى، جامع الواسطىّ، جامع ابن بدر، جامع الخطيرى، جامع ابن غازى، جامع المقس، جامع ابن التركمانىّ، جامع بنت التركمانىّ، جامع الطواشى، جامع باب الرخاء، جامع الزاهد، جامع ميدان القمح، جامع صاروجا، جامع ابن زيد، جامع بركة الرطلىّ، جامع الكيمختى، جامع باب الشعرية، جامع ابن مياله، جامع ابن المغربىّ، جامع العجمىّ بقنطرة الموسكى، الجامع المعلق بقنطرة الموسكى أيضا، جامع الجاكى بسويقة الريش، جامع السروجىّ بسويقة الريش أيضا، جامع البكجرىّ، جامع ابن حسون بالدكة، جامع ابن المغربىّ على الخليج، جامع الطباخ بخط اللوق، جامع الست نصيرة بخط باب اللوق حيث كان الكوم، فحفر فإذا بقبر عرف بالست نصيرة، و عمل عليه مسجد و أقيمت به الجمعة فى أيام الظاهر برقوق. جامع شاكر بجوار قنطرة قدادار عمّر سنة ست و عشرين و ثمانمائة، جامع غيط القاصد خلف قنطرة قدادار، جامع الجزيرة الوسطى، جامع كريم الدين بخط الزريبة، جامع ابن غلامها بخط الزريبة أيضا، الجامع الأخضر، جامع سويقة الموفق، جامع سلطان شاه بباب الخرق، جامع زين الدين الخشاب خارج باب الروق، كان زاوية للفقراء فأقيمت به الجمعة بعد سنة ثمانمائة، جامع منكلى بسويقة القيمرى.

و منها فيما بين القاهرة و مصر: جامع بشتاك، جامع الإسماعيلىّ على البركة الناصرية، جامع الست مسكة، جامع آق سنقر بمجرى السقائين، جامع الشيخ محمد بن حسن الحنفىّ، جامع ست حدق بالمريس، جامع الطيبرسىّ، جامع الرحمة عمارة الصاحب أمين الدين عبد اللّه بن غنام، جامع منشأة المهرانىّ، جامع يونس بالسبع سقايات على البركة، جامع بركة الاستادار بحدرة ابن قيحة، جامع ابن طولون، جامع المشهد النفيسىّ، جامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵

البقلىّ بالقبيبات، جامع شيخو، جامع قانباى برلس، سويقة منعم، جامع الماس، جامع قوصون، جامع الصالح بمدرسة الناصر حسن بسوق الخيل، جامع الجاى، جامع الماردينىّ، جامع أصلم.

و منها بقلعة الجبل: الجامع الناصرىّ، جامع التوبة، جامع الإصطبل، الجامع المؤيدى.

و منها: خارج القاهرة بالترب و ما قرب من القلعة: تربة جوش، و تربة الظاهر برقوق، و تربة طشتمر حمص أخضر بالصحراء، جامع الخضرى، جامع التوبة، الجامع المؤيدى.

و منها بالقاهرة: الجامع الأزهر، و الجامع الحاكميّ، و الجامع الأقمر، و مدرسة الظاهر برقوق، و المدرسة الصالحية، و الحجازية، و المشهد الحسينيّ، و جامع الفاكهانى، و الزمامية، و الصاحبية، و البوبكرية، و الجامع المؤيديّ، و الأشرفية، و جامع الدوادارى قريبا من البرقية، و جامع التوبة بالبرقية، مدرسة ابن البقريّ، و الباسطية.

ذكر الجوامع

اشارة

اعلم أنه لما اتصلت مبانى القاهرة المعزية بمبانى مدينة فسطاط مصر، بحيث صارتا كأنهما مدينة واحدة، و اتخذ أهل القاهرة و أهل مصر القرافتين لدفن أمواتهم، ذكرت ما فى هذه المواضع الأربع من المساجد الجامعة، و أضفت إليها ما فى جزيرة فسطاط مصر التى يقال لها الروضة من الجوامع أيضا، فإنها منتزه أهل البلدين، و جمعت إلى ذلك ما فى ظواهر القاهرة و مصر من الجوامع، مع التعريف بحال من أسسها. و بالله التوفيق.

الجامع العتيق

اشارة

هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر، و يقال له تاج الجوامع، و جامع عمرو بن العاص، و هو أوّل مسجد أسس بديار مصر فى الملة الإسلامية بعد الفتح.

خرّج الحافظ أبو القاسم بن عساكر من حديث معاوية بن قرّة قال: قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: من صلّى صلاة مكتوبة فى مسجد مصر من الأمصار، كانت له كحجة متقبلة، فإن صلّى تطوّعا كانت له كعمرة مبرورة.

و عن كعب: من صلّى فى مسجد مصر من الأمصار صلاة فريضة، عدلت حجة متقبلة، و من صلّى صلاة تطوع عدلت عمرة متقبلة، فإن أصيب فى وجهه ذلك، حرّم لحمه و دمه على النار أن تطعمه، و ذنبه على من قتله.

و أول مسجد بنى فى الإسلام مسجد قبا، ثم مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. قال هشام بن عمار: حدّثنا المغيرة بن المغيرة، حدّثنا يحيى بن عطاء الخراسانيّ عن أبيه. قال: لما افتتح عمر البلدان، كتب إلى أبى موسى و هو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة، و يتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة. و كتب إلى سعد بن أبى وقاص و هو على الكوفة بمثل ذلك، و كتب إلى عمرو بن العاص و هو على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶

مصر بمثل ذلك، و كتب إلى أمراء أجناد الشام أن لا يتبدّدوا إلى القرى، و أن ينزلوا المدائن، و أن يتخذوا فى كلّ مدينة مسجدا واحدا، و لا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر و عهده.

و قال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص الكندىّ، فى كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم: و أوّل أمره و بنائه و زيادة الأمراء فيه و غيرهم، و مجالس الحكام و الفقهاء منه و غير ذلك، قال هبيرة بن أبيض عن شيخه تجيب: أن قيسبة بن كلثوم التجيبيّ أحد بنى سوم، سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص، فدخلها فى مائة راحلة و خمسين عبدا و ثلاثين فرسا، فلما أجمع المسلمون و عمرو بن العاص على حصار الحصن، نظر قيسبة بن كلثوم فرأى جنانا تقرب من الحصن، فعرّج إليها فى أهله و عبيده،

فنزل و ضرب فيها فسطاطه و أقام فيها طول حصارهم الحصن حتى فتحه اللّه عليهم ثم خرج قيسبة مع عمرو إلى الإسكندرية و خلف أهله فيها، ثم فتح اللّه عليهم الإسكندرية، و عاد قيسبة إلى منزله هذا فنزله، و اختط عمرو بن العاص داره مقابل تلك الجنان التى نزلها قيسبة، و تشاور المسلمون أين يكون المسجد الجامع، فرأوا أن يكون منزل قيسبة، فسأله عمرو فيه و قال: أنا أختط لك يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت. فقال قيسبة: لقد علمتم يا معاشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل و ملكته، و إنى أتصدّق به على المسلمين و ارتحل، فنزل مع قومه بنى سوم و اختط فيهم، فبنى مسجدا فى سنة إحدى و عشرين من الهجرة، و فى ذلك يقول أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبى:

و بابليون قد سعدنا بفتحهاو حزنا لعمر اللّه فيأ و مغنما

و قيسبة الخير بن كلثوم داره‌أباح حماها للصلاة و سلّما

فكلّ مصلّ فى فنانا صلاته‌تعارف أهل المصر ما قلت فاعلما

و قال أبو مصعب قيس بن سلمة الشاعر فى قصيدته التى امتدح فيها عبد الرحمن بن قيسبة:

و أبوك سلّم داره و أباحهالجباه قوم ركّع و سجود

و قال الليث بن سعد: كان مسجدنا هذا حدائق و أعنابا. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ: و من جملة مزارعها جامع مصر، و قد بقى إلى الآن من جملة الأنشاب التى كانت فى البستان فى موضع الجامع، شجرة زنزلخت، و هى باقية إلى الآن خلف المحراب الكبير و الحائط الذى به المنبر، و من العلماء من قال: إنّ هذه الشجرة باقية من عهد موسى عليه السلام، و كان لها نظير شجرة أخرى فى الورّاقين، احترقت فى حريق مصر سنة أربع و ستين و خمسمائة، و ظهر بالجامع العتيق بئر البستان التى كانت به، و هى اليوم يستقى منها الناس الماء بموضع حلة الفقيه ابن الجيزىّ المالكىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷

قال الكندىّ: و قال يزيد بن أبى حبيب: سمعت أشياخنا ممن حضر مسجد الفتح يقولون: وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فيهم الزبير بن العوام، و المقداد، و عبادة بن الصامت، و أبو الدرداء، و فضالة بن عبيد، و عقبة بن عامر، رضى اللّه عنهم. و فى رواية أسس مسجدنا هذا أربعة من الصحابة، أبو ذر، و أبو بصيرة، و محمئة بن جزء الزبيدىّ و نبيه بن صواب.

و قال عبد اللّه بن أبى جعفر: أقام محرابنا هذا عبادة بن الصامت، و رافع بن مالك، و هما نقيبان. و قال داود بن عقبة: أن عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة، و عمرو بن علقمة القرشىّ، ثم العدوىّ، يقيمان القبلة، و قال لهما: قوما إذا زالت الشمس.

أو قال: انتصفت الشمس، فاجعلاها على حاجبيكما ففعلا.

و قال الليث: إنّ عمرو بن العاص كان يمدّ الحبال حتى أقيمت قبلة المسجد. و قال عمرو بن العاص: شرّقوا القبلة تصيبوا الحرم. قال: فشرّقت جدّا، فلما كان قرّة بن شريك تيامن بها قليلا، و كان عمرو بن العاص إذا صلّى فى مسجد الجامع يصلى ناحية الشرق إلّا الشىء اليسير، و قال رجل من تجيب: رأيت عمرو بن العاص دخل كنيسة فصلّى فيها و لم ينصرف عن قبلتهم إلّا قليلا، و كان الليث و ابن لهيعة إذا صليا تيامنا، و كان عمر بن مروان عمّ الخلفاء إذا صلّى فى المسجد الجامع تيامن. و قال يزيد بن حبيب فى قوله تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، هى قبلة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم التى نصبها اللّه عز و جل مقابل الميزاب، و هى قبلة أهل مصر و أهل الغرب، و كان يقرأها فلنولينك قبلة نرضاها بالنون. و قال هكذا أقرأناها أبو الخير.

و قال الخليل بن عبد اللّه الأزدىّ: حدّثنى رجل من الأنصار أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أتاه جبريل فقال: ضع القبلة و أنت تنظر إلى الكعبة، ثم قال بيده، فأماط كلّ جبل بينه و بين الكعبة، فوضع المسجد و هو ينظر إلى الكعبة، و صارت قبلته إلى الميزاب.

و قال ابن لهيعة: سمعت أشياخنا يقولون: لم يكن لمسجد عمرو بن العاص محراب مجوّف، و لا أدرى بناه مسلمة أو بناه عبد العزيز. و

أوّل من جعل المحراب قرّة بن شريك.

و قال الواقدىّ: حدّثنا محمد بن هلال قال: أوّل من أحدث المحراب المجوّف عمر بن عبد العزيز، ليالى بنى مسجد النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و ذكر عمر بن شيبة أن عثمان بن مظعون تفل فى القبلة فأصبح مكتئبا، فقالت له امرأته: ما لى أراك مكتئبا؟ قال: لا شىء إلّا أنى تفلت فى القبلة و أنا أصلى، فعمدت الى القبلة فغسلتها، ثم عملت خلوقا فخلقتها، فكانت أوّل من خلق القبلة.

و قال أبو سعيد سلف الحميرىّ: أدركت مسجد عمرو بن العاص طوله خمسون ذراعا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸

فى عرض ثلاثين ذراعا، و جعل الطريق يطيف به من كلّ جهة، و جعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، و جعل له بابان فى بحريه، و بابان فى غربيه، و كان الخارج إذا خرج من زقاق القناديل وجد ركن المسجد الشرقىّ محاذيا لركن دار عمرو بن العاص الغربىّ، و ذلك قبل أن أخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، و كان طوله من القبلة إلى البحرى مثل طول دار عمرو بن العاص، و كان سقفه مطاطأ جدّا و لا صحن له، فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كلّ ناحية، و بينه و بين دار عمرو سبع أذرع.

قلت: و أوّل من جلس على منبر أو سرير ذى أعواد ربيعة بن محاسن. و قال القضاعىّ فى كتاب الخطط: و كان عمرو بن العاص قد اتخذ منبرا، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يعزم عليه فى كسره و يقول: أما يحسبك أن تقوم قائما و المسلمون جلوس تحت عقبيك، فكسره. قال مؤلفه رحمه اللّه: و فى سنة إحدى و ستين و مائة، أمر المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور بتقصير المنابر و جعلها بقدر منبر النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم. قال القضاعىّ: و أوّل من صلّى عليه من الموتى داخل الجامع، أبو الحسين سعيد بن عثمان صاحب الشرط، فى النصف من صفر، و كانت وفاته فجأة، فأخرج ضحوة يوم الأحد السادس عشر من صفر، و صلّى عليه خلف المقصورة و كبّر عليه خمسا، و لم يعلم أحد قبله صلّى عليه فى الجامع. و ذكر عمر بن شيبة فى تاريخ المدينة، أنّ أوّل من عمل مقصورة بلبن، عثمان بن عفان، و كانت فيها كوى تنظر الناس منها إلى الإمام، و أن عمر بن عبد العزيز عملها بالساج. قال القضاعىّ: و لم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاص بشىء من أرض مصر إلّا فى هذا الجامع. قال أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس: جاء نفر من بحافق إلى عمرو بن العاص فقالوا: إنا نكون فى الريف، أفنجمع فى العيدين الفطر و الأضحى و يؤمّنا رجل منا؟ قال: نعم. قالوا: فالجمعة؟ قال: لا، و لا يصلى الجمعة بالناس إلّا من أقام الحدود و آخذ بالذنوب و أعطى الحقوق.

و أوّل من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأنصارىّ سنة ثلاث و خمسين و هو يومئذ أمير مصر من قبل معاوية. قال الكندىّ فى كتاب أخبار مسجد أهل الراية: و لما ضاق المسجد بأهله شكى ذلك إلى مسلمة بن مخلد، و هو الأمير يومئذ، فكتب فيه إلى معاوية بن أبى سفيان، فكتب إليه يأمره بالزيادة فيه، فزاد فيه من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص، و زاد فيه من بحريه، و لم يحدث فيه حدثا من القبلىّ و لا من الغربىّ، و ذلك فى سنة ثلاث و خمسين، و جعل له رحبة فى البحرىّ منه كان الناس يصيفون فيها، و لا طه بالنورة و زخرف جدرانه و سقوفه، و لم يكن المسجد الذى لعمر، و جعل فيه نورة و لا زخرف، و أمر بابتناء منار المسجد الذى فى الفسطاط، و أمر أن يؤذنوا فى وقت واحد، و أمر مؤذنى الجامع أن يؤذنوا للفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من أذانهم أذن كلّ مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد. قال ابن لهيعة فكان لأذانهم دوىّ شديد، فقال عابد بن هشام الأزدىّ: ثم السلامانىّ لمسلمة بن مخلد:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹ لقد مدّت لمسلمة الليالىعلى رغم العداة من الأمان

و ساعده الزمان بكلّ سعدو بلغه البعيد من الأمانى

أ مسلم فارتقى لا زلت تعلوعلى الأيام مسلم و الزمان

لقد أحكمت مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المبانى

فتاه به البلاد و ساكنوهاكما تاهت بزينتها الغوانى

و كم لك من مناقب صالحاتو أجدل بالصوامع للأذان

كأنّ تجاوب الأصوات فيهاإذا ما الليل ألقى بالجران

كصوت الرعد خالطه دوىّو أرعب كلّ مختطف الجنان

و قيل أنّ معاوية أمره ببناء الصوامع للأذان، قال: و جعل مسلمة للمسجد الجامع أربع صوامع فى أركانه الأربع، و هو أوّل من جعلها فيه، و لم تكن قبل ذلك. قال: و هو أوّل من جعل فيه الحصر، و إنما كان قبل ذلك مفروضا بالحصباء، و أمر أن لا يضرب بناقوس عند الأذان يعنى الفجر، و كان السلّم الذى يصعد منه المؤذنون فى الطريق، حتى كان خالد بن سعيد، فحوّله داخل المسجد.

قال القاضى القضاعىّ: ثم إن عبد العزيز بن مروان هدمه فى سنة تسع و سبعين من الهجرة، و هو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، و زاد فيه من ناحية الغرب، و أدخل فيه الرحبة التى كانت فى بحريه، و لم يجد فى شرقيه موضعا يوسعه به. و ذكر أبو عمر الكندىّ فى كتاب الأمراء أنه زاد فيه من جوانبه كلها، و يقال أنّ عبد العزيز بن مروان لما أكمل بناء المسجد خرج من دار الذهب عند طلوع الفجر، فدخل المسجد فرأى فى أهله خفة، فأمر بأخذ الأبواب على من فيه، ثم دعا بهم رجلا رجلا، فيقول للرجل: أ لك زوجة؟ فيقول لا، فيقول زوّجوه، أ لك خادم؟ فيقول لا، فيقول أخدموه. أ حججت؟ فيقول: لا. فيقول أحجوه. أ عليك دين؟ فيقول: نعم. فيقول إقضوا دينه. فأقام المسجد بعد ذلك دهرا عامرا و لم يزل إلى اليوم. و ذكر أن عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان فى ولايته على مصر، من قبل أخيه الوليد، أمر برفع سقف المسجد الجامع، و كان مطاطأ، و ذلك فى سنة تسع و ثمانين. ثم إن قرّة بن شريك العبسىّ هدمه مستهلّ سنة اثنتين و تسعين بأمر الوليد بن عبد الملك، و هو يومئذ أمير مصر من قبله، و ابتدأ فى بنيانه فى شعبان من السنة المذكورة، و جعل على بنائه يحيى بن حنظلة، مولى بنى عامر بن لؤىّ، و كانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه، و ذلك فى شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين، و نصب المنبر الجديد فى سنة أربع و تسعين، و نزع المنبر الذى كان فى المسجد، و ذكر أنّ عمرو بن العاص كان جعله فيه، فلعله بعد وفاة عمر بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰

الخطاب رضى اللّه عنه. و قيل هو منبر عبد العزيز بن مروان، و ذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر، و قيل أنّ زكريا بن برقنى ملك النوبة أهداه إلى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، و بعث معه نجاره حتى ركبه، و اسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة، و لم يزل هذا المنبر فى المسجد حتى زاد قرّة بن شريك فى الجامع، فنصب منبرا سواه على ما تقدّم شرحه، و لم يكن يخطب فى القرى إلّا على العصا إلى أن ولى عبد الملك بن موسى بن نصير اللخمى مصر، من قبل مروان بن محمد، فأمر باتخاذ المنابر فى القرى، و ذلك فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و ذكر أنه لا يعرف منبرا أقدم منه، يعنى من منبر قرّة بن شريك بعد منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فلم يزل كذلك إلى أن قلع و كسر فى أيام العزيز باللّه بنظر الوزير يعقوب بن كلس، فى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الأوّل سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة و جعل مكانه منبر مذهب، ثم أخرج هذا المنبر إلى الإسكندرية و جعل فى جامع عمرو بها، و أنزل إلى الجامع المنبر الكبير الذى هو به الآن، و ذلك فى أيام الحاكم بأمر اللّه فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و أربعمائة، و صرف بنو عبد السميع عن الخطابة، و جعلت خطابة الجامع العتيق لجعفر بن الحسن بن خداع الحسينىّ، و جعل إلى أخيه الخطابة بالجامع الأزهر، و صرف بنو عبد السميع بن عمر بن الحسين بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن العباس من جميع المنابر بعد أن أقاموا هم، و سلفهم فيها ستين سنة. و فى شهر ربيع الأوّل من هذه السنة وجد المنبر الجديد الذى نصب فى الجامع قد لطخ بعذرة، فوكّل به من يحفظه و عمل له غشاء من أدم مذهب فى شعبان من هذه السنة، و خطب عليه ابن خداع و هو مغشى، و زيادة قرّة من القبلىّ و الشرقىّ، و أخذ بعض دار عمرو و ابنه عبد اللّه بن عمرو فأدخله فى المسجد، و أخذ منهما الطريق الذى بين المسجد و بينهما، و عوّض ولد عمرو ما هو فى أيديهم اليوم من الرباع، و أمر قرّة بعمل المحراب المجوّف على ما تقدّم شرحه، و هو المحراب المعروف بعمرو، لأنه فى سمت محراب المسجد القديم الذى بناه عمرو، و كانت قبلة المسجد القديم عند العمد المذهبة فى صف التوابيت اليوم، و

هى أربعة عمد، اثنان فى مقابلة اثنين، و كان قرّة أذهب رؤوسها، و كانت مجالس قيس، و لم يكن فى المسجد عمد مذهبة غيرها، و كانت قديما حلقة أهل المدينة، ثم روق أكثر العمد و طوّق فى أيام الإخشيد سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة، و لم يكن للجامع أيام قرّة بن شريك غير هذا المحراب، فأمّا المحراب الأوسط الموجود اليوم فعرف بمحراب عمر بن مروان عمّ الخلفاء، و هو أخو عبد الملك و عبد العزيز، و لعله أحدثه فى الجدار بعد قرّة، و قد ذكر قوم أن قرة عمل هذين المحرابين، و صار للجامع أربعة أبواب، و هى الأبواب الموجودة فى شرقيه الآن، آخرها باب إسرائيل و هو باب النحاسين، و فى غربيه أربعة أبواب شارعة فى زقاق كان يعرف بزقاق البلاط، و فى بحريه ثلاثة أبواب، و بيت المال الذى فى علو الفوّارة بالجامع بناه أسامة بن زيد التنوخيّ متولى الخراج بمصر، سنة سبع و تسعين فى أيام سليمان بن عبد الملك، و أمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱

مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهميّ، و كان مال المسلمين فيه، و طرق المسجد فى ليلة سنة خمس و أربعين و مائة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبيّ من قبل المنصور، طرقه قوم ممن كان بايع علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن حسن بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و كان أوّل علوىّ قدم مصر، فنهبوا بيت المال ثم تضاربوا عليه بسيوفهم، فلم يصل إليهم منه إلّا اليسير، فأنفذ إليهم يزيد من قتل منهم جماعة و انهزموا، فنهبوا بيت المال ثم تضاربوا عليه بسيوفهم، فلم يصل إليهم منه إلّا اليسير، فأنفذ إليهم يزيد من قتل منهم جماعة و انهزموا، و ذكر أن هذا المكان تسوّر عليه لص فى إمارة أحمد بن طولون و سرق منه بدرتى دنانير، فظفر به أحمد بن طولون و اصطنعه و عفا عنه.

و فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة أمر العزيز باللّه بعمل الفوّارة تحت قبة بيت المال، فعملت و فرغ منها فى شهر رجب سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة، ثم زاد فيه صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و هو يومئذ أمير مصر من قبل أبى العباس السفاح، فى مؤخرة أربع أساطين، و ذلك فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و هو أوّل من ولى مصر لبنى العباس. فيقال أنه أدخل فى الجامع دار الزبير بن العوّام رضى اللّه عنه، و كانت غربىّ دار النحاس، و كان الزبير تخلى عنها و وهبها لمواليه، لخصومة جرت بين غلمانه و غلمان عمرو بن العاص، و اختط الزبير فيما يلى الدار المعروفة به الآن، ثم اشترى عبد العزيز بن مروان دار الزبير من مواليه، فقسّمها بين ابنه الأصبغ و أبى بكر، فلما قدم صالح بن علىّ أخذها عن أمّ عاصم بنت عاصم بن أبى بكر، و عن طفل يتيم و هو حسان بن الأصبغ فأدخلها فى المسجد، و باب الكحل من هذه الزيادة، و هو الباب الخامس من أبواب الجامع الشرقية الآن، و عمر صالح بن علىّ أيضا مقدّم المسجد الجامع عند الباب الأوّل موضع البلاطة الحمراء، ثم زاد فيه موسى بن عيسى الهاشميّ، و هو يومئذ أمير مصر من قبل الرشيد فى شعبان سنة خمس و سبعين و مائة، الرحبة التى فى مؤخره، و هى نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب، و لما ضاق الطريق بهذه الزيادة أخذ موسى بن عيسى دار الربيع بن سليمان الزهرىّ شركة بنى مسكين بغير عوض للربيع، و وسع بها الطريق و عوّض بنى مسكين، و وصل عبد اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خراعة أميرا من قبل المأمون فى شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و مائتين، و توجه إلى الإسكندرية مستهلّ صفر سنة اثنتى عشرة و مائتين، و رجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و أمر بالزيادة فى المسجد الجامع، فزيد فيه مثله من غربيه، و عاد ابن طاهر إلى بغداد لخمس بقين من رجب من السنة المذكورة، و كانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير و ما فى غربيه إلى حدّ زيادة الخازن، فأدخل فيه الزقاق المعروف أوّلا بزقاق البلاط، و قطعة كبيرة من دار الرمل، و رحبة كانت بين يدى دار الرمل، و دورا ذكرها القضاعىّ.

و ذكر بعضهم أن موضع فسطاط عمرو بن العاص حيث المحراب و المنبر، قال: و كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲

الذى تمم زيادة عبد اللّه بن طاهر بعد مسيره إلى بغداد، عيسى بن يزيد الجلودىّ، و تكامل ذرع الجامع، سوى الزيادتين، مائة و تسعين ذراعا بذراع العمل طولا، فى مائة و خمسين ذراعا عرضا. و يقال أنّ ذرع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الرواق المحيط بجوانبه

الثلاثة.

و نصب عبد اللّه بن طاهر اللوح الأخضر، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح، فجعل أحمد بن محمد العجيفيّ هذا اللوح مكان ذلك، و هو هذا اللوح الأخضر الباقى إلى اليوم، و رحبة الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن، و كانت رحبة يتبايع الناس فيها يوم الجمعة، و ذكر أبو عمر الكندىّ فى كتاب الموالى: أن أبا عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف مولى محمد بن ريان بن عبد العزيز بن مروان، لما ولى القضاء من قبل المتوكل على اللّه فى سنة سبع و ثلاثين و مائتين، أمر ببناء هذه الرحبة ليتسع الناس بها، و حوّل سلّم المؤذنين إلى غربىّ المسجد، و كان عند باب إسرائيل، و بلّط زيادة بن طاهر، و أصلح بنيان السقف، و بنى سقاية فى الحذائين، و أمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب ليتسع الناس بها، و زيادة أبى أيوب أحمد بن محمد بن شجاع ابن أخت أبى الوزير أحمد بن خالد، صاحب الخراج فى أيام المعتصم، كان أبو أيوب هذا أحد عمال الخراج زمن أحمد بن طولون، و زيادته فى بقية الرحبة المعروفة برحبة أبى أيوب. و المحراب المنسوب إلى أبى أيوب هو الغربىّ من هذه الزيادة عند شباك الحذائين، و كان بناؤها فى سنة ثمان و خمسين و مائتين، و يقال أن أبا أيوب مات فى سجن أحمد بن طولون بعد أن نكبه و اصطفى أمواله، و ذلك فى سنة ست و ستين و مائتين، و أدخل أبو أيوب فى هذه الزيادة أماكن ذكرها. قال:

و كان قد وقع فى مؤخر المسجد الجامع حريق، فعمر و زيدت هذه الزيادة فى أيام أحمد بن طولون، و وقع فى الجامع فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنة خمس و سبعين و مائتين، حريق أخذ من بعد ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث بن مسكين، فهلك فيه أكثر زيادة عبد اللّه بن طاهر و الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته على يد أحمد بن محمد العجيفىّ، فأعيد على ما كان عليه، و أنفق فيه ستة آلاف و أربعمائة دينار، و كتب اسم خمارويه فى دائر الرواق الذى عليه اللوح الأخضر، و هى موجودة الآن، و كانت عمارته فى السنة المذكورة. و أمر عيسى النوشرى فى ولايته الثانية على مصر، فى سنة أربع و تسعين و مائتين، بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات، فكان يفتح للصلاة فقط، و أقام على ذلك أياما، فضجّ أهل المسجد ففتح لهم.

و زاد أبو حفص العباسىّ فى أيام نظره فى قضاء مصر، خلافة لأخيه محمد، الغرفة التى يؤذن فيها المؤذنون فى السطح، و كانت ولايته فى رجب من سنة ست و ثلاثين و ثلاثمائة و كان إمام مصر و الحرمين، و إليه إقامة الحج، و لم يزل قاضيا بمصر خلافة لأخيه إلى أن صرف من القضاء بالخصيبىّ، فى ذى الحجة سنة تسع و ثلاثين و ثلاثمائة و توفى فى سنة اثنتين و أربعين و ثلاثمائة بعد قدومه من الحج، ثم زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد اللّه الخازن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳

رواقا واحدا من دار الضرب، و هو الرواق ذو المحراب و الشباكين المتصل برحبة الحارث، و مقداره تسع أذرع، و كان ابتداء ذلك فى رجب سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة و مات قبل تمام هذه الزيادة، و تممها ابنه علىّ بن محمد، و فرغت فى العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة. و زاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس بأمر العزيز بالله، الفوّارة التى تحت قبة بيت المال، و هو أوّل من عمل فيه فوّارة، و زاد فيه أيضا مساقف الخشب المحيطة بها على يد المعروف بالمقدسىّ الأطروش، متولى مسجد بيت المقدس، و ذلك فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة و نصب فيها حباب الرخام التى للماء. و فى سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة جدّد بياض المسجد الجامع و قلع شىء كثير من الفسيفساء الذى كان فى أروقته، و بيض مواضعه، و نقشت خمسة ألواح و ذهّبت و نصبت على أبوابه الخمسة الشرقية، و هى التى عليها الآن، و كان ذلك على يد برجوان الخادم، و كان اسمه ثابتا فى الألواح فقلع بعد قتله.

و قال المسبحىّ فى تاريخه، و فى سنة ثلاث و أربعمائة أنزل من القصر إلى الجامع العتيق بألف و مائتين و ثمانية و تسعين مصحفا، ما بين ختمات و ربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، و مكن الناس من القراءة فيها، و أنزل إليه أيضا بتور من فضة عمله الحاكم بأمر

اللّه برسم الجامع، فيه مائة ألف درهم فضة، فاجتمع الناس و علّق بالجامع بعد أن قلعت عتبتا الباب حتى أدخل به، و كان من اجتماع الناس لذلك ما يتجاوز الوصف.

قال القضاعيّ: و أمر الحاكم بأمر اللّه بعمل الرواقين اللذين فى صحن المسجد الجامع، و قلع عمد الخشب و جسر الخشب التى كانت هناك، و ذلك فى شعبان سنة ست و أربعمائة، و كانت العمد و الجسر قد نصبها أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، فى سنة سبع و خمسين و مائتين، زمن أحمد بن طولون، لأنّ الحرّ اشتدّ على الناس فشكوا ذلك إلى ابن طولون، فأمر بنصب عمد الخشب و جعل عليها الستائر فى السنة المذكورة، و كان الحاكم قد أمر بأن تدهن هذه العمد الخشب بدهن أحمر و أخضر، فلم يثبت عليها، ثم أمر بقلعها و جعلها بين الرواقين. و أوّل ما عملت المقاصير فى الجوامع فى أيام معاوية بن أبى سفيان، سنة أربع و أربعين، و لعل قرّة بن شريك لما بنى الجامع بمصر عمل المقصورة. و فى سنة إحدى و ستين و مائة، أمر المهدىّ بنزع المقاصير من مساجد الأمصار، و بتقصير المنابر، فجعلت على مقدار منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ثم أعيدت بعد ذلك. و لما ولى مصر موسى بن أبى العباس من أهل الشاش، من قبل أبى جعفر اشناس، أمر المعتصم أن يخرج المؤذنون إلى خارج المقصورة، و هو أوّل من أخرجهم، و كانوا قبل ذلك يؤذنون داخلها، ثم أمر الإمام المستنصر بالله بن الظاهر بعمل الحجر المقابل للمحراب، و بالزيادة فى المقصورة فى شرقيها و غربيها، حتى اتصلت بالحذائين من جانبيها، و بعمل منطقة فضة فى صدر المحراب الكبير أثبت عليها اسم أمير المؤمنين، و جعل لعمودى المحراب أطواق فضة، و جرى ذلك على يد عبد اللّه بن محمد بن عبدون، فى شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و أربعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴

قال مؤلفه رحمه اللّه: و لم تزل هذه المنطقة الفضة إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، بعد موت الخليفة العاضد لدين اللّه، فى محرّم سنة سبع و ستين و خمسمائة، فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة، و من جامع عمرو بن العاص بمصر، و ذلك فى حادى عشر شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة.

قال القضاعيّ: و فى شهر رمضان من سنة أربعين و أربعمائة جدّدت الخزانة التى فى ظهر دار الضرب فى طريق الشرطة، مقابلة لظهر المحراب الكبير، و فى شعبان من سنة إحدى و أربعين و أربعمائة أذهب بقية الجدار القبلىّ حتى اتصل الإذهاب من جدار زيادة الخازن إلى المنبر، و جرى ذلك على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن يحيى بن أبى زكريا.

و فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة، عملت لموقف الإمام فى زمن الصيف مقصورة خشب و محراب ساج منقوش بعمودى صندل، و تقلع هذه المقصورة فى الشتاء إذا صلّى الإمام فى المقصورة الكبيرة.

و فى شعبان سنة أربع و أربعين و أربعمائة، زيد فى الخزانة مجلس من دار الضرب، و طريق المستحم، و زخرف هذا المجلس و حسّن، و جعل فيه محراب و رخّم بالرخام الذى قلع من المحراب الكبير حين نصب عبد اللّه بن محمد بن عبدون منطقة الفضة فى صدر المحراب الكبير، و جرت هذه الزيادة على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن يحيى.

و فى ذى الحجة من سنة اثنتين و أربعين و أربعمائة، عمر القاضى أبو عبد اللّه أحمد بن محمد بن أبى زكريا غرفة المؤذنين بالسطح، و حسّنها و جعل لها روشنا على صحن الجامع، و جعل بعدها ممرقا ينزل منه إلى بيت المال، و جعل للسطح مطلعا من الخزانة المستجدّة فى ظهر المحراب الكبير، و جعل له مطلعا آخر من الديوان الذى فى رحبة أبى أيوب.

و فى شعبان من سنة خمس و أربعين و أربعمائة، بنيت المئذنة التى فيما بين مئذنة غرفة و المئذنة الكبيرة، على يد القاضى أبى عبد اللّه أحمد بن زكريا. انتهى ما ذكره القضاعيّ.

و فى سنة أربع و ستين و خمسمائة تمكن الفرنج من ديار مصر و حكموا فى القاهرة حكما جائرا، و ركبوا المسلمين بالأذى العظيم، و تيقنوا أنه لا حامى للبلاد من أجل ضعف الدولة، و انكشفت لهم عورات الناس، فجمع مرى ملك الفرنج بالساحل جموعه، و استجدّ قوما قوّى بهم عساكره، و سار إلى القاهرة من بلبيس بعد أن أخذها و قتل كثيرا من أهلها، فأمر شاور بن مجير السعدىّ و هو يومئذ

مستول على ديار مصر وزارة للعاضد بإحراق مدينة مصر، فخرج إليها في اليوم التاسع من صفر من السنة المذكورة عشرون ألف قارورة نفط،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵

و عشرة آلاف مشعل مضرمة بالنيران، و فرّقت فيها. و نزل مرى بجموع الفرنج على بركة الحبش، فلما رأى دخان الحريق تحوّل من بركة الحبش و نزل على القاهرة مما يلى باب البرقية، و قاتل أهل القاهرة و قد انحشر الناس فيها، و استمرّت النار في مصر أربعة و خمسين يوما، و النهابة تهدم ما بها من المباني و تحفر لأخذ الخبايا إلى أن بلغ مرى قدوم أسد الدين شيركوه بعسكر من جهة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، فرحل في سابع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، و تراجع المصريون شيئا بعد شيء إلى مصر، و تشعث الجامع، فلما استبدّ السلطان صلاح الدين بمملكة مصر بعد موت العاضد، جدّد الجامع العتيق بمصر في سنة ثمان و ستين و خمسمائة، و أعاد صدر الجامع و المحراب الكبير و رخمه و رسم عليه اسمه، و جعل في سقاية قاعة الخطابة قصبة إلى السطح، يرتفق بها أهل السطح، و عمر المنظرة التي تحت المئذنة الكبيرة، و جعل لها سقاية، و عمر في كنف دار عمرو الصغرى البحريّ مما يلى الغربيّ، قصبة أخرى إلى محاذاة السطح، و جعل لها ممشاة من السطح إليها يرتفق بها أهل السطح، و عمر غرفة الساعات و حرّرت، فلم تزل مستمرّة إلى أثناء أيام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانيّ، أوّل من ملك من المماليك، و جدّد بياض الجامع و أزال شعثه، و جلى عمده، و أصلح رخامه، حتى صار جميعه مفروشا بالرخام و ليس في سائر أرضه شيء بغير رخام حتى تحت الحصر.

و لما تقلد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز أبى القاسم خلف بن رشيد الدين محمود بن بدر، المعروف بابن بنت الأعز العلائى الشافعيّ، قضاء القضاة بالديار المصرية، و نظر الأحباس في ولايته الثانية أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البند قداريّ، كشف الجامع بنفسه، فوجد مؤخره قد مال إلى بحريه، و وجد سوره البحريّ قد مال و انقلب علوه عن سمت سفله، و رأى في سطح الجامع غرفا كثيرة محدثة، و بعضها مزخرف، فهدم الجميع و لم يدع بالسطح سوى غرفة المؤذنين القديمة و ثلاث خزائن لرؤساء المؤذنين لا غير، و جمع أرباب الخبرة فاتفق الرأى على إبطال جريان الماء إلى فوّارة الفسقية، و كان الماء يصل إليها من بحر النيل، فأمر بإبطاله لما كان فيه من الضرر على جدر الجامع، و عمر بغلات بالزيادة البحرية تشدّ جدار الجامع البحريّ، و زاد في عمد الزيادة ما قوّى به البغلات المذكورة، و سدّ شباكين كانا في الجدار المذكور ليتقوّى بذلك، و أنفق المصروف على ذلك من مال الأحباس، و خشي أن يتداعى الجامع كله إلى السقوط، فحدّث الصاحب الوزير بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم بن حنا في مفاوضة السلطان في عمارة ذلك من بيت المال، فاجتمعا معا بالسلطان الملك الظاهر بيبرس و سألاه في ذلك، فرسم بعمارة الجامع، فهدم الجدار البحريّ من مقدّم الجامع، و هو الجدار الذى فيه اللوح الأخضر، و حط اللوح و أزيلت العمد و القواصر العشر، و عمر الجدار المذكور و أعيدت العمد و القواصر كما كانت، و زيد في العمد أربعة قرن، بها أربعة مما هو تحت اللوح الأخضر، و الصف الثاني منه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶

و فصل اللوح الأخضر أجزاء و جدّد غيره و أذهب و كتب عليه اسم السلطان الملك الظاهر، و جليت العمد كلها و بيض الجامع بأسره، و ذلك في شهر رجب سنة ست و ستين و ستمائة، و صلّى فيه شهر رمضان بعد فراغه، و لم تتعطل الصلاة فيه لأجل العمارة.

و لما كان في شهور سنة سبع و ثمانين و ستمائة، شكا قاضى القضاة تقيّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز للسلطان الملك المنصور قلاون، سوء حال جامع عمرو بمصر، و سوء حال الجامع الأزهر بالقاهرة، و أن الأحباس على أسوأ الأحوال، و أن مجد الدين بن الحباب أخرب هذه الجهة لما كان يتحدّث فيها، و تقرّب بجزيرة الفيل الوقف الصلاحيّ على مدرسة الشافعية إلى الأمير علم الدين الشجاعيّ، و ذكر له بأن في أطيانها زيادة، فقاسوا ما تجدّد بها من الرمال و جعلوه للوقف، و أقطعوا الأطيان القديمة الجارية في الوقف، و تقرّب أيضا إليه بأن في الأحباس زيادة، من جملتها بالأعمال الغربية ما مبلغه في السنة ثلاثون ألف درهم، و أن

ذلك لجهة عمارة الجامعين، و سأل السلطان فى إعادة ذلك و إبطال ما أقطع منه، فلم يجب إلى ذلك، و أمر الأمير حسام الدين طرنطاى بعمارة الجامع الأزهر، و الأمير عز الدين الأفرم بعمارة جامع عمرو، فحضر الأفرم إلى الجامع بمصر و رسم على مباشرى الأحباس، و كشف المساجد لغرض كان فى نفسه، و بيض الجامع و جرّد نصف العمد التى فيه، فصار العمود نصفه الأسفل أبيض و باقيه بحاله، و دهن واجهة غرفة الساعات بالسيلقون، و أجرى الماء من البئر التى بزقاق الأقفال إلى فسقية الجامع، ورمى ما كان بالزيادات من الأتربة، و بطر العوام به فيما فعله بالجامع، فصاروا يقولون نقل الديماس من البحر إلى الجامع، لكونه دهن الغرفة بالسيلقون، و ألبس العواميد للشيخ العريان، لكونه جرّد نصفها التحتانىّ، فصار أبيض الأسفل أسمر الأعلى، كما كان الشيخ العريان، فإن نصفه الأسفل كان مستورا بمئزر أبيض، و أعلاه عريان، و لم يفعل بالجامع سوى ما ذكر.

و لما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين و سبعمائة، تشعث الجامع، فاتفق الأمير أن بيبرس الجاشنكير، و هو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاون، و الأمير سلار، و هو نائب السلطنة، و إليهما تدبير الدولة، على عمارة الجامعين بمصر و القاهرة، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس عمارة الجامع الحاكمىّ بالقاهرة، و تولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين بن الخطاب، فهدم الحدّ البحرىّ من سلّم السطح إلى باب الزيادة البحرية و الشرقية، و أعاده على ما كان عليه، و عمل بابين جديدين للزيادة البحرية و الغربية، و أضاف إلى كلّ عمود من الصف الأخير المقابل للجدار الذى هدمه عمودا آخر تقوية له، و جرّد عمد الجامع كلها و بيض الجامع بأسره، و زاد فى سقف الزيادة الغربية رواقين، و بلط سفل ما أسقف منها، و خرّب بظاهر مصر و بالقرافتين عدّة مساجد و أخذ عمدها ليرخم بها صحن الجامع، و قلع من رخام الجامع الذى كان تحت الحصر كثيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷

من الألواح الطوال، ورص الجميع عند باب الجامع المعروف بباب الشرابيين، فنقل من هناك إلى حيث شاء، و لم يعمل منه فى صحن الجامع شىء البتة، و كان فيما نقل من ألواح الرخام ما طوله أربعة أذرع فى عرض ذراع و سدس، ذهب بجميع ذلك. و لما ولى علاء الدين بن مروانة نيابة دار العدل، قسم جامعى مصر و القاهرة، فجعل جامع القاهرة مع نبيه الدين بن السعرتىّ، و جامع عمرو مع بهاء الدين بن السكرىّ، فسقفت الزيادة البحرية الشرقية، و كانت قد جعلت حاصلا للحصر، و جعل لها دار بزين بين البابين يمنع الجانبين من المارّ، من باب الجامع إلى باب الزيادة المسلوك منه إلى سوق النحاسين، و بلط أرضها، و رقع بعض رخام صحن الجامع، و بلط المجازات، و عمل عضائد أعتاب تحوز الصحن عن مواضع الصلاة. و لما كان فى شهور سنة ست و تسعين و ستمائة، اشترى الصاحب تاج الدين دارا بسوق الأكفانيين و هدمها، و جعل مكانها سقاية كبيرة، و رفعها إلى محاذاة سطح الجامع، و جعل لها ممشى يتوصل إليها من سطح الجامع، و عمل فى أعلاها أربعة بيوت يرتفق بهم فى الخلاء، و مكانا برسم أزيار الماء العذب، و هدم سقاية الغرفة التى تحت المئذنة المعروفة بالمنظرة، و بناها برجا كبيرا من الأرض إلى العلوّ، حيث كان أوّلا، و جعل بأعلى هذا البرج بيتا مرتفقا يختص بالغرفة المذكورة، كما كان أوّلا، و بيتا ثانيا من خارج الغرفة يرتفق به من هو خارج الغرفة ممن يقرب منها. و عمر القاضى صدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن البارنبارىّ، سقاية فى ركن دار عمرو البحرىّ الغربىّ من داره الصغرى، بعد ما كانت قد تهدّمت، فأعادها كأحسن ما كانت، ثم إن الجامع تشعث و مالت قواصره و لم يبق إلا أن يسقط، و أهل الدولة بعد موت الملك الظاهر برقوقا فى شغل من اللهو عن عمل ذلك، فانتدب الرئيس برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علىّ المحلىّ رئيس التجار يومئذ بديار مصر، لعمارة الجامع بنفسه و ذويه، و هدم صدر الجامع بأسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولا و عرضا و أزال اللوح الأخضر و أعاد البناء كما كان أوّلا، و جدّد لوحا أخضر بدل الأوّل و نصبه كما كان، و هو الموجود الآن، و جرّد العمد كلها، و تتبع جدار الجامع فرمّ شعثها كله، و أصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد، و من السقوف ما كان قد و هى، و بيض الجامع كله، فجاء كما كان و عاد جديدا بعد ما كاد أن يسقط، و لا أقام اللّه عز و جل هذا الرجل مع ما عرف من شحه و كثرة ضنته بالمال، حتى عمره. فشكر اللّه سعيه و بيض محياه، و كان انتهاء هذا العمل فى سنة أربع و ثمانمائة، و لم يتعطل منه صلاة جمعة و لا جماعة فى مدّة

عمارته.

قال ابن المتوج إن ذرع هذا الجامع اثنان و أربعون ألف ذراع بذراع البز المصرىّ القديم، و هو ذراع الحصر المستمرّ إلى الآن، فمن ذلك مقدّمة ثلاثة عشر ألف ذراع و أربعمائة و خمسة و عشرون ذراعا، و مؤخره مثل ذلك، و صحنه سبعة آلاف و خمسمائة ذراع، و كلّ من جانبيه الشرقىّ و الغربىّ ثلاثة آلاف و ثمانمائة و خمسة و عشرون ذراعا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸

و ذرعه كله بذراع العمل ثمانية و عشرون ألف ذراع، و عدد أبوابه ثلاثة عشر بابا، منها فى القبلىّ باب الزيز لخته الذى يدخل منه الخطيب، كان به شجرة زيزلخت عظيمة، قطعت فى سنة ست و ستين و سبعمائة، و فى البحرى ثلاثة أبواب، و فى الشرقىّ خمسة، و فى الغربىّ أربعة، و عدد عمده ثلاثمائة و ثمانية و سبعون عمودا، و عدد مآذنه خمس، و به ثلاث زيادات، فالبحرية الشرقية كانت لجلوس قاضى القضاة بها فى كل أسبوع يومين، و كان بهذا الجامع القصص.

قال القضاعىّ: روى نافع عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال: لم يقص فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا أبى بكر و لا عمر و لا عثمان رضى اللّه عنهم، و إنما كان القصص فى زمن معاوية رضى اللّه عنه. و ذكر عمر بن شيبة قال: قيل للحسن متى أحدث القصص؟ قال: فى خلافة عثمان بن عفان. قيل: من أوّل من قص؟ قال: تميم الدارى.

و ذكر عن ابن شهاب قال: أوّل من قص فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم تميم الدارى، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته، فاذن له أن يذكر فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر، فاستأذن تميم عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فى ذلك فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة، فكان تميم يفعل ذلك.

و روى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أنّ عليا رضى اللّه عنه قنت، فدعا على قوم من أهل حربه، فبلغ ذلك معاوية، فأمر رجلا يقص بعد الصبح و بعد المغرب يدعو له و لأهل الشام، قال يزيد: و كان ذلك أول القصص.

و روى عن عبد اللّه بن مغفل قال: أمّنا علىّ رضى اللّه عنه فى المغرب، فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أوّلا، و عمرو بن العاص ثانيا، و أبا الأعور، يعنى السلمىّ ثالثا، و كان أبو موسى الرابع.

و قال الليث بن سعد: هما قصصان، قصص العامّة، و قصص الخاصة، فأما قصص العامّة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس يعظهم و يذكرهم، فذلك مكروه و لمن فعله و لمن استمعه، و أما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية، ولّى رجلا على القصص، فإذا سلّم من صلاة الصبح جلس و ذكر اللّه عز و جل و حمده و مجده و صلّى على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و دعا للخليفة و لأهل ولايته و لحشمه و جنوده، و دعا على أهل حربه و على المشركين كافة.

و يقال أن أوّل من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبى، فى سنة ثمان و ثلاثين، و جمع له القضاء إلى القصص، ثم عزل عن القضاء و أفرد بالقصص، و كانت ولايته على القصص و القضاء سبعا و ثلاثين سنة، منها سنتان قبل القضاء. و يقال أنه كان يختم القرآن فى كلّ ليلة ثلاث مرّات، و كان يجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم، و يسجد فى المفصل، و يسلّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹

تسليمة واحدة، و يقرأ فى الركعة الأولى بالبقرة، و فى الثانية بقل هو اللّه أحد، و يرفع يديه فى القصص إذا دعا. و كان عبد الملك بن مروان شكا إلى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته و تخوّفه من كلّ وجه. فأشار عليه أبو حبيب الحمصىّ القاضى بأن يستنصر عليهم برفع يديه إلى اللّه تعالى، فكان عبد الملك يدعو و يرفع يديه، و كتب بذلك إلى القصاص فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة و العشى.

و فى هذا الجامع مصحف أسماء، و هو الذى تجاه المحراب الكبير. قال القضاعىّ:

كان السبب فى كتب هذا المصحف، أنّ الحجاج بن يوسف الثقفىّ كتب مصاحف و بعث بها إلى الأمصار، و وجه إلى مصر بمصحف منها، فغضب عبد العزيز بن مروان من ذلك، و كان الوالى يومئذ من قبل أخيه عبد الملك و قال: يبعث إلى جند أنا فيه

بمصحف؟ فأمر فكتب له هذا المصحف الذى فى المسجد الجامع اليوم، فلما فرغ منه قال: من وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر و ثلاثون دينارا، فتداوله القرّاء، فأتى رجل من قراء الكوفة اسمه زرعة بن سهل الثقفىّ فقرآه تهجيا، ثم جاء إلى عبد العزيز بن مروان فقال له: إنى قد وجدت فى المصحف حرفا خطأ. فقال: مصحفى؟ قال نعم. فنظر فإذا فيه إنّ هذا أخى له تسع و تسعون نعجة. فإذا هى مكتوبة نجعة، قد قدّمت الجيم قبل العين، فأمر بالمصحف فأصلح ما كان فيه، و أبدلت الورقة، ثم أمر له بثلاثين دينارا و برأس أحمر، و لما فرغ من هذا المصحف كان يحمل إلى المسجد الجامع غداة كلّ جمعة، من دار عبد العزيز، فيقرأ فيه ثم يقص ثم يردّ إلى موضعه. فكان أوّل من قرأ فيه عبد الرحمن بن حجيرة الخولانىّ، لأنه كان يتولى القصص و القضاء يومئذ، و ذلك فى سنة ست و سبعين، ثم تولى بعده القصص أبو الخير مرثد بن عبد اللّه اليزنىّ، و كان قاضيا بالاسكندرية قبل ذلك، ثم توفى عبد العزيز فى سنة ست و ثمانين، فبيع هذا المصحف فى ميراثه، فاشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم توفى أبو بكر فاشترته أسماء ابنة أبى بكر بن عبد العزيز بسبعمائة دينار، فأمكنت الناس منه و شهرته، فنسب إليها. فلما توفيت أسماء اشتراه أخوها الحكم بن عبد العزيز بن مروان من ميراثها بخمسمائة دينار، فأشار عليه توبة بن نمر الحضرمىّ القاضى، و هو متولى القصص يومئذ بالمسجد الجامع، بعد عقبة بن مسلم الهمدانىّ، و إليه القضاء. و ذلك فى سنة ثمان عشرة و مائة، فجعله فى المسجد الجامع، و أجرى على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من غلة الإصطبل، فكان توبة أوّل من قرأ فيه بعد أن أقرّ فى الجامع، و تولى القصص بعد توبة أبو اسماعيل خير بن نعيم الحضرمىّ القاضى، فى سنة عشرين و مائة، و جمع له القضاء و القصص، فكان يقرأ فى المصحف قائما، ثم يقص و هو جالس، فهو أوّل من قرأ فى المصحف قائما، و لم تزل الأئمة يقرءون فى المسجد الجامع فى هذا المصحف فى كلّ يوم جمعة، إلى أن ولى القصص أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانىّ، فى سنة اثنتين و ثمانين و مائة فقرأ فيه يوم الاثنين، و كان قد جعل المطلب الخزاعىّ أمير مصر، من قبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰

المأمون، رزق أبى رجب العلاء عشرة دنانير على القصص، و هو أوّل من سلّم فى الجامع تسليمتين بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه بذلك، و صلّى خلفه محمد بن إدريس الشافعىّ حين قدم إلى مصر، فقال: هكذا تكون الصلاة، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب و لا أحسن.

و لما ولى القصص حسن بن الربيع بن سليمان، من قبل عنبسة بن إسحاق أمير مصر، من قبل المتوكل فى سنة أربعين و مائتين، أمر أن تترك قراءة بسم اللّه الرحمن الرحيم فى الصلاة، فتركها الناس. و أمر أن تصلّى التراويح خمس تراويح، و كانت تصلّى قبل ذلك ست تراويح، و زاد فى قراءة المصحف يوما، فكان يقرأ يوم الاثنين و يوم الخميس و يوم الجمعة.

و لما ولى حمزة بن أيوب بن إبراهيم الهاشمىّ القصص بكتاب من المكتفى، فى سنة اثنتين و تسعين و مائتين، صلّى فى مؤخر المسجد حين نكس، و أمر أن يحمل إليه المصحف ليقرأ فيه، فقيل له انه لم يحمل المصحف إلى أحد قبلك، فلو قمت و قرأت فيه فى مكانه.

فقال: لا ـ أفعل، و لكن ائتونى به فإن القرآن علينا أنزل، و إلينا أتى. فأتى به، فقرأ فيه فى المؤخر و هو أوّل من قرأ فى المصحف فى المؤخر، و لم يقرأ فى المصحف بعد ذلك فى المؤخر إلى أن تولى أبو بكر محمد بن الحسن السوسىّ الصلاة و القصص، فى اليوم العشرين من شعبان، سنة ثلاث و أربعمائة، فنصب المصحف فى مؤخر الجامع حيال الفوّارة و قرأ فيه أيام نكس الجامع، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى الآن.

و لما تولى القصص أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن مسلم الملطىّ، فى سنة إحدى و ثلاثمائة عزم على القراءة فى المصحف فى كلّ يوم، فتكلم علىّ بن قديد فى ذلك و منع منه و قال: أعزم على أن يخلق المصحف و يقطعه، أيرى عبد العزيز بن مروان حيا فيكتب له مثله، فرجع إلى القراءة ثلاثة أيام.

و كان قد حضر إلى مصر رجل من أهل العراق و أحضر مصحفا ذكر أنه مصحف عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و أنه الذى كان بين يديه يوم الدار، و كان فيه أثر الدم، و ذكر أنه استخرج من خزائن المقتدر، و دفع المصحف إلى عبد اللّه بن شعيب المعروف بابن بنت وليد القاضى، فأخذه أبو بكر الخازن و جعله فى الجامع، و شهره و جعل عليه خشبا منقوشا، و كان الإمام يقرأ فيه يوما، و فى مصحف أسماء يوما، و لم يزل على ذلك إلى أن رفع هذا المصحف و اقتصر على القراءة فى مصحف أسماء، و ذلك فى أيام العزيز باللّه، لخمس خلون من المحرّم سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة. و قد أنكر قوم أن يكون هذا المصحف مصحف عثمان رضى اللّه عنه، لأن نقله لم يصح، و لم يثبت بحكاية رجل واحد. و رأيت أنا هذا المصحف و على ظهر مما نسخته: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين، هذا المصحف الجامع لكتاب اللّه جل ثناؤه و تقدّست أسماؤه، حمله المبارك مسعود بن سعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱

الهيتيّ لجماعة المسلمين القرّاء للقرآن التالين له، المتقرّبين إلى اللّه جلّ ذكره بقراءته، و المتعلمين له، ليكون محفوظا أبدا ما بقى ورقه، و لم يذهب اسمه ابتغاء ثواب اللّه عز و جلّ، و رجاء غفرانه، و جعله عدّة ليوم فقره و فاقته و حاجته إليه، أنا له اللّه ذلك برأفته، و جعل ثوابه بينه و بين جماعة من نظر فيه، و قد درس ما بعد هذا الكلام من ظهر المصحف، و المندرس يشبه أن يكون: و تبصر فى ورقه، و قصد بابداعه فسطاط مصر فى المسجد الجامع، جامع المسلمين العتيق، ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين، فرحم اللّه من حفظه و من قرأ فيه و من عنى به، و كان ذلك فى يوم الثلاثاء مستهل ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ثلاثمائة و صلّى اللّه على محمد سيد المرسلين و على آله و سلّم تسليما كثيرا، و حسبنا اللّه و نعم الوكيل.

قال ابن المتوّج: و دليل بطلان ما قاله هذا المعترض، ظهور التعصب على عثمان رضى اللّه عنه من تجيب و خلفائهم، أن الناس قد جرّبوا هذا المصحف، و هو الذى على الكرسيّ الغربيّ من مصحف أسماء، أنه ما فتح قط إلّا و حدث حادث فى الوجود لتحقيق ما حدث أوّلا. و اللّه أعلم.

قال القضاعيّ: ذكر المواضع المعروفة بالبركة من الجامع يستحبّ الصلاة و الدعاء عندها. منها البلاطة التى خلف الباب الأوّل فى مجلس ابن عبد الحكم، و منها باب البرادع، روى عن رجل من صلحاء المصريين يقال له أبو هارون الخرقىّ قال: رأيت اللّه عز و جلّ فى منامى، فقلت له يا رب أنت ترانى و تسمع كلامى؟ قال: نعم. ثم قال أ تريد أن أريك بابا من أبواب الجنة؟ قلت نعم. يا رب، فأشار إلى باب أصحاب البرادع أو الباب الأقصى مما يلى رحبة حارث، و كان أبو هارون هذا يصلى الظهر و العصر فيما بينهما.

و قال ابن المتوّج: و عند المحراب الصغير الذى فى جدار الجامع الغربيّ، ظاهر المقصورة، فيما بين بابى الزيادة الغربية الدعاء عنده مستجاب. قال: من ذلك باب مقصورة عرفة، و منها عند خرزة البئر التى بالجامع، و منها قبال اللوح الأخضر، و منها زاوية فاطمة، و يقال أنها فاطمة ابنة عفان، لمّا وصى والدها أن تترك للّه فى الجامع فتركت فى هذا المكان فعرف بها، و منها سطح الجامع و الطواف به سبع مرّات، يبدأ بالأولى من باب الخزانة الأولى التى يستقبلها الداخل من باب السطح، و هو يتلو إلى أن يصل إلى زاوية السطح التى عند المئذنة المعروفة بعرفة، يقف عندها ثم يدعو بما أراد، ثم يمرّ و هو يتلو إلى أن يصل إلى الركن الشرقيّ عند المئذنة المشهورة بالكبيرة، ثم يدعو بما أراد و يمرّ إلى الركن البحرىّ الشرقىّ، فيقف محاذيا لغرفة المؤذنين و يدعو، ثم يمرّ و هو يتلو إلى المكان الذى ابتدأ منه. يفعل ذلك سبع مرّات، فإنّ حاجته تقضى.

قال القضاعىّ: و لم يكن الناس يصلّون بالجامع بمصر صلاة العيد، حتى كانت سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲

ست، و يقال سنة ثمان و ثلاثمائة. فصلّى فيه رجل يعرف بعلىّ بن أحمد بن عبد الملك الفهمىّ، يعرف بابن أبى شيخة صلاة الفطر، و يقال أنه خطب من دفتر نظرا، و حفظ عنه اتقوا اللّه حق تقاته و لا تموتن إلّا و أنتم مشركون. فقال بعض الشعراء:

و قام فى العيد لنا خاطبفحرّض الناس على الكفر

و توفى سنة تسع و ثلاثمائة.

و بالجامع زوايا يدرّس فيها الفقه: منها زاوية الإمام الشافعيّ رضى اللّه عنه، يقال أنه درّس بها الشافعيّ فعرفت به، و عليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و لم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء و جلة العلماء. و منها الزاوية المجدية بصدر الجامع، فيما بين المحراب الكبير و محراب الخمس، داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير، رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن مهلب بن حسن بن بركات بن علىّ بن غياث المهلبىّ الأزدىّ البهنسىّ الشافعىّ، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب بحرّان، و قرّر فى تدريسها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسىّ، و عمل على هذه الزاوية عدّة أوقاف بمصر و القاهرة، و يعدّ تدريسها من المناصب الجليلة، و توفى المجد فى صفر سنة ثمان و عشرين و ستمائة بدمشق، عن ثلاث و ستين سنة. و منها الزاوية الصاحبية، حول عرفة رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد بن بهاء الدين بن حنا، و جعل لها مدرّسين أحدهما مالكىّ و الآخر شافعىّ، و جعل عليها وقفا بظاهر القاهرة بخط البراذعيين. و منها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع الذى يدخل إليه من سوق الغزل، رتبها كمال الدين السمنودىّ، و عليها فندق بمصر موقوف عليها. و منا الزاوية التاجية، أمام المحراب الخشب، رتبها تاج الدين السطحىّ، و جعل عليها دورا بمصر موقوفة عليها. و منها الزاوية المعينية فى الجانب الشرقىّ من الجامع، رتبها معين الدين الدهر و طىّ، و عليها وقف بمصر. و منها الزاوية العلائية، تنسب لعلاء الدين الضرير، و هى فى صحن الجامع، و هى لقراءة ميعاد. و منها الزاوية الزينية، رتبها الصاحب زين الدين بقراءة ميعاد أيضا، ذكر ذلك ابن المتوّج. و أخبرنى المقرئ الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد اللّه بن الحسن الأوحدىّ رحمه اللّه قال:

أخبرنى المؤرّخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، قال: أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفىّ، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء، الكائن فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، بضعا و أربعين حلقة لإقراء العلم، لا تكاد تبرح منه. قال ابن المأمون: حدّثنى القاضى المكين بن حيدرة و هو من أعيان الشهود بمصر، أن من جملة الخدم التى كانت بيد والده مشارفة الجامع العتيق، و أنّ القومة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳

بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود عنده، إلى أن يعملوا ثمانية عشر ألف فتيلة، و أن المطلق برسمه خاصة فى كلّ ليلة ترسم وقوده أحد عشر قنطار أو نصف زيتا طيبا.

ذكر المحاريب التى بديار مصر و سبب اختلافها و تعيين الصواب فيها و تبيين الخطأ منها

اعلم أن محاريب ديار مصر التى يستقبلها المسلمون فى صلواتهم أربعة محاريب.

أحدها

محراب الصحابة رضى اللّه عنهم، الذى أسسوه فى البلاد التى استوطنوها، و البلاد التى كثر ممرّهم بها من إقليم مصر، و هو محراب المسجد الجامع بمصر، المعروف بجامع عمرو، و محراب المسجد الجامع بالجيزة، و بمدينة بلبيس، و بالإسكندرية، و قوص، و أسوان، و هذه المحاريب المذكورة على سمت واحد، غير أن محاريب ثغر أسوان أشدّ تشريقا من غيرها، و ذلك أن أسوان مع مكة شرّفها اللّه تعالى فى الإقليم الثانى، و هو الحدّ الغربىّ من مكة بغير ميل إلى الشمال، و محراب بلبيس مغرّب قليلا.

و المحراب الثانى محراب مسجد أحمد بن طولون، و هو منحرف عن سمت محراب الصحابة، و قد ذكر فى سبب انحرافه أقوال منها: أنّ أحمد بن طولون لما عزم على بناء هذا المسجد، بعث إلى محراب مدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج إلى جهة الجنوب، فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط

سمت القبلة إلى جهة الجنوب بنحو ذلك، اقتداء منه بمحراب مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و قيل: أنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى منامه، و خط له المحراب، فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المنام. و قيل غير ذلك.

و أنت إن صعدت إلى سطح جامع ابن طولون، رأيت محرابه مائلا عن محراب جامع عمرو بن العاص إلى الجنوب، و رأيت محراب المدارس التى حدثت إلى جانبه قد انحرفت عن محرابه إلى جهة الشرق، و صار محراب جامع عمرو فيما بين محراب ابن طولون و المحاريب الأخر، و قد عقد مجلس بجامع ابن طولون فى ولاية قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة، حضره علماء الميقات، منهم الشيخ تقىّ الدين محمد بن محمد بن موسى الغزولىّ، و الشيخ أبو الطاهر محمد بن محمد، و نظروا فى محرابه، فأجمعوا على أنه منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب مغربا بقدر أربع عشرة درجة، و كتب بذلك محضر و أثبت على ابن جماعة.

و المحراب الثالث: محراب جامع القاهرة، المعروف بالجامع الأزهر، و ما فى سمته من بقية محاريب القاهرة، و هى محاريب يشهد الامتحان بتقدّم واضعها فى معرفة استخراج القبلة، فإنها على خط سمت القبلة من غير ميل عنه و لا انحراف البتة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴

و المحراب الرابع: محاريب المساجد التى فى قرى بلاد الساحل، فإنها تخالف محاريب الصحابة، إلّا أنّ محراب جامع منية غمر قريب من سمت محاريب الصحابة، فإن الوزير أبا عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالمأمون البطائحىّ، وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبى علىّ منصور بن المستعلى بالله، أنشأ جامعا بمنية زفتا فى سنة ست عشرة و خمسمائة، فجعل محرابه على سمت المحاريب الصحيحة. و فى قرافة مصر بجوار مسجد الفتح عدّة مساجد تخالف محاريب الصحابة مخالفة فاحشة، و كذلك بمدينة مصر الفسطاط غير مسجد على هذا الحكم. فأما محاريب الصحابة التى بفسطاط مصر و الإسكندرية، فإن سمتها يقابل مشرق الشتاء، و هو مطالع برج العقرب مع ميل قليل إلى ناحية الجنوب، و محاريب مساجد القرى و ما حول مسجد الفتح بالقرافة، فإنها تستقبل خط نصف النهار الذى يقال له خط الزوال، و تميل عنه إلى جهة المغرب، و هذا الاختلاف بين هذين المحرابين اختلاف فاحش يفضى إلى إبطال الصلاة. و قد قال ابن عبد الحكم: قبلة أهل مصر أن يكون القطب الشمالىّ على الكتف الأيسر، و هذا سمت محاريب الصحابة. قال:

و إذا طلعت منازل العقرب و تكملت صورته، فمحاذاته سمت القبلة لديار مصر و برقة و إفريقية و ما والاها، و فى الفرقدين و القطب الشمالىّ كفاية للمستدلين، فإنهم إن كانوا مستقبلين فى مسيرهم من الجنوب جهة الشمال، استقبلوا القطب و الفرقدين، و إن كانوا سائرين إلى الجنوب من الشمال استدبروها، و إن كانوا سائرين إلى الشرق من المغرب جعلوها على الأذن اليسرى، و إن كانوا سائرين من الشرق إلى المغرب جعلوها على الأذن اليمنى، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب و الصبا جعلوها على الكتف الأيسر، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الجنوب و الدبور جعلوها على الكتف الأيمن، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الشمال و الدبور جعلوها على الحاجب الأيمن، و إن كان مسيرهم إلى النكباء التى بين الشمال و الصبا جعلوها على الحاجب الأيسر. و إذا عرف ذلك فإنه يستحيل تصويب محرابين مختلفين فى قطر واحد إذا زاد اختلافهما على مقدار ما يتسامح به فى التيامن و التياسر، و بيان ذلك أن كلّ قطر من أقطار الأرض كبلاد الشام و ديار مصر و نحوهما من الأقطار، قطعة من الأرض واقعة فى مقابلة جزء من الكعبة، و الكعبة تكون فى جهة من جهات ذلك القطر، فإذا اختلف محرابان فى قطر واحد، فإنا نتيقن أن أحدهما صواب و الآخر خطأ، إلّا أن يكون القطر قريبا من مكّة، و خطته التى هو محدود بها متسعة اتساعا كثيرا يزيد على الجزء الذى يخصه لو وزعت الكعبة أجزاء متماثلة، فإنه حينئذ يجوز التيامن و التياسر فى محاريبه، و ذلك مثل بلاد البجة، فإنها على الساحل الغربىّ من بحر القلزم، و مكة واقعة فى شرقيها ليس بينهما إلّا مسافة البحر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵

فقط و ما بين جدّة و مكة من البرّ، و خطة بلاد الجبة مع ذلك واسعة مستطيلة على الساحل، أوّلها عيذاب، و هى محاذية لمدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و تميل عنها فى الجنوب ميلا قليلا، و المدينة شامية عن مكة بنحو عشرة أيام، و آخر بلاد البجة من ناحية الجنوب سواكن، و هى مائلة فى ناحية الجنوب عن مكة ميلا كثيرا، و هذا المقدار من طول بلاد البجة يزيد على الجزء الذى يخص هذه الخطة من الأرض لو وزعت الأرض أجزاء متساوية إلى الكعبة، فيتعين و الحالة هذه التيامن أو التياسر فى طرفى هذه البلاد لطلب جهة الكعبة.

و أما إذا بعد القطر عن الكعبة بعدا كثيرا، فإنه لا يضرّ اتساع خطته، و لا يحتاج فيه إلى تيامن و لا تياسر، لاتساع الجزء الذى يخصه من الأرض، فإن كلّ قطر منها له جزء يخصه من الكعبة، من أجل أن الكعبة من البلاد المعمورة كالكرة من الدائرة، فالأقطار كلها فى استقبال الكعبة، محيطة بها كاحاطة الدائرة بمركزها، و كل قطر فإنه يتوجه إلى الكعبة فى جزء يخصه، و الأجزاء المنقسمة إذا قدّرت الأرض كالدائرة فإنها تتسع عند المحيط و تتضايق عند المركز، فإذا كان القطر بعيدا عن الكعبة فإنه يقع فى متسع الحدّ و لا يحتاج فيه إلى تيامن و لا تياسر، و بخلاف ما إذا قرب القطر من الكعبة، فإنه يقع فى متضايق الجزء و يحتاج عند ذلك إلى تيامن أو تياسر، فإنّ فرضنا أن الواجب إصابة عين الكعبة فى استقبال الصلاة لمن بعد عن مكة، و قد علمت ما فى هذه المسألة من الاختلاف بين العلماء، فإنه لا يتسامح فى اختلاف المحاريب بأكثر من قدر التيامن و التياسر الذى لا يخرج عن حدّ الجهة، فلو زاد الاختلاف حكم ببطلان أحد المحرابين، و لا بدّ اللهمّ إلّا أن يكونا فى قطرين بعيدين بعضهما من بعض، و ليسا على خط واحد من مسامته الكعبة، و ذلك كبلاد الشام و ديار مصر، فإن البلاد الشامية لها جانبان و خطتها متسعة مستطيلة فى شمال مكة، و تمتدّ أكثر من الجزء الخاص بها بالنسبة إلى مقدار بعدها عن الكعبة، و وفى هذين القطرين يجرى ما تقدّم ذكره فى أرض البجة، إلّا أنّ التيامن و التياسر ظهوره فى البلاد الشامية أقل من ظهوره فى أرض البجة، من أجل بعد البلاد الشامية عن الكعبة، و قرب أرض البجة، و ذلك أن البلاد الشامية وقعت فى متسع الجزء الخاص بها، فلم يظهر أثر التيامن و التياسر ظهورا كثيرا كظهوره فى أرض البجة، لأنّ البلاد الشامية لها جانب شرقىّ و جانب غربىّ و وسط، فجانبها الغربىّ هو أرض بيت المقدس و فلسطين إلى العريش، أوّل حدّ مصر، و هذا الجانب من البلاد الشامية يقابل الكعبة على حدّ مهب النكباء التى بين الجنوب و الصبا، و أمّا جانب البلاد الشامية الشرقىّ، فإنه ما كان مشرّقا عن مدينة دمشق إلى حلب و الفرات، و ما يسامت ذلك من بلاد الساحل، و هذه الجهة تقابل الكعبة مشرقا عن أوسط مهب الجنوب قليلا، و أما وسط بلاد الشام فإنها دمشق و ما قاربها، و تقابل الكعبة على وسط مهب الجنوب، و هذا هو سمت مدينة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم مع ميل يسير عنه إلى ناحية المشرق.

و أما مصر فإنها تقابل الكعبة فيما بين الصبا و مهب النكباء التى بين الصبا و الجنوب،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶

و لذلك لما اختلف هذان القطران، أعنى مصر و الشام فى محاذاة الكعبة، اختلفت محاريبهما، و على ذلك وضع الصحابة رضى اللّه عنهم محاريب الشام و مصر على اختلاف السمتين، فأما مصر بعينها و ضواحيها و ما هو فى حدّها أو على سمتها أو فى البلاد الشامية و ما فى حدّها أو على سمتها، فإنه لا يجوز فيها تصويب محرابين مختلفين اختلافا بينا، فإن تباعد القطر عن القطر بمسافة قريبة أو بعيدة، و كان القطران على سمت واحد فى محاذاة الكعبة لم يضرّ حينئذ تباعدهما، و لا تختلف محاريبهما، بل تكون محاريب كلّ قطر منهما على حدّ واحد و سمت واحد، و ذلك كمصر و برقة و أفريقية و صقلية و الأندلس، فإن هذه البلاد و ان تباعد بعضها عن بعض فإنها كلها تقابل الكعبة على حدّ واحد، و سمتها جميعها سمت مصر من غير اختلاف البتة، و قد تبين بما تقرّر حال الأقطار المختلفة من الكعبة فى وقوعها منها.

و أما اختلاف محاريب مصر فإن له أسبابا، أحدها حمل كثير من الناس قوله صلّى اللّه عليه و سلّم، الذى رواه الحافظ أبو عيسى الترمذىّ، من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه «ما بين المشرق و المغرب قبلة على العموم» و هذا الحديث قد روى موقوفا على عمر و

عثمان و علىّ و ابن عباس و محمد ابن الحنفية رضى اللّه عنهم، و روى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه مرفوعا. قال أحمد بن حنبل: هذا فى كلّ البلدان. قال: هذا المشرق و هذا المغرب و ما بينهما قبلة، قيل له: فصلاة من صلّى بينهما جائزة؟ قال: نعم، و ينبغى أن يتحرّى الوسط، و قال أحمد بن خالد قول عمر: ما بين المشرق و المغرب قبلة، قاله: بالمدينة فمن كانت قبلته مثل قبلة المدينة فهو فى سعة مما بين المشرق و المغرب، و لسائر البلدان من السعة فى القبلة مثل ذلك بين الجنوب و الشمال. و قال أبو عمر بن عبد البرّ: لاختلاف بين أهل العلم فيه. قال مؤلفه رحمه اللّه: إذا تأمّلت وجدت هذا الحديث يختص بأهل الشام و المدينة. و ما على سمت تلك البلاد شمالا و جنوبا فقط، و الدليل على ذلك أنه يلزم من حمله على العموم إبطال التوجه إلى الكعبة فى بعض الأقطار، و اللّه سبحانه قد افترض على الكافة أن يتوجهوا إلى الكعبة فى الصلاة حيثما كانوا بقوله تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة/ ۱۴۴] و قد عرفت إن كنت تمهرت فى معرفة البلدان و حدود الأقاليم أن الناس فى توجههم إلى الكعبة كالدائرة حول المركز، فمن كان فى الجهة الغربية من الكعبة فإن جهة قبلة صلاته إلى المشرق، و من كان فى الجهة الشرقية من الكعبة فإنه يستقبل فى صلاته جهة المغرب، و من كان فى الجهة الشمالية من الكعبة فإنه يتوجه فى صلاته إلى جهة الجنوب، و من كان فى الجهة الجنوبية من الكعبة كانت صلاته إلى جهة الشمال، و من كان من الكعبة فيما بين المشرق و الجنوب فإن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷

قبلته فيما بين الشمال و المغرب، و من كان من الكعبة فيما بين الجنوب و المغرب فإن قبلته فيما بين الشمال و المشرق، و من كان من الكعبة فيما بين المشرق و الشمال فقبلته فيما بين الجنوب و المغرب، و من كان من الكعبة فيما بين الشمال و المغرب فقبلته فيما بين الجنوب و المشرق. فقد ظهر ما يلزم من القول بعموم هذا الحديث من خروج أهل المشرق الساكنين به، و أهل المغرب أيضا عن التوجه إلى الكعبة فى الصلاة عينا وجهة، لأنّ من كان مسكنه من البلاد ما هو فى أقصى المشرق من الكعبة، لو جعل المشرق عن يساره و المغرب عن يمينه لكان إنما يستقبل حينئذ جنوب أرضه و لم يستقبل قط عين الكعبة و لا- جهتها، فوجب و لا بدّ حمل الحديث على أنه خاص بأهل المدينة و الشام، و ما على سمت ذلك من البلاد، بدليل أن المدينة النبوية واقعة بين مكة و بين أوسط الشام على خط مستقيم، و الجانب الغربىّ من بلاد الشام التى هى أرض المقدس و فلسطين يكون عن يمين من يستقبل بالمدينة الكعبة، و الجانب الشرقىّ الذى هو حمص و حلب و ماو إلى ذلك واقع عن يسار من استقبل الكعبة بالمدينة، و المدينة واقعة فى أواسط جهة الشام على جهة مستقيمة، بحيث لو خرج خط من الكعبة و مرّ على استقامة إلى المدينة النبوية لنفذ منها إلى أوسط جهة الشام سواء، و كذلك لو خرج خط من مصلّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و توجه على استقامة، لوقع فيما بين الميزاب من الكعبة و بين الركن الشامىّ، فلو فرضنا أن هذا الخط خرق الموضع الذى وقع فيه من الكعبة و مرّ لنفذ إلى بيت المقدس على استواء من غير ميل و لا انحراف البتة، و صار موقع هذا الخط فيما بين نكباء الشمال و الدبور، و بين القطب الشمالى. و هو إلى القطب الشمالىّ أقرب و أميل، و مقابلته ما بين أوسط الجنوب و نكباء الصبا و الجنوب، و هو إلى الجنوب أقرب، و المدينة النبوية، مشرّقة عن هذا السمت، و مغرّبة عن سمت الجانب الآخر من بلاد الشام، و هو الجانب الغربىّ تغريبا يسيرا، فمن يستقبل مكة بالمدينة يصير المشرق عن يساره و المغرب عن يمينه، و ما بينهما فهو قبلته، و تكون حينئذ الشام بأسرها و جملة بلادها خلفه، فالمدينة على هذا فى أوسط جهات البلاد الشامية.

و يشهد بصدق ذلك ما رويناه من طريق مسلم رحمه اللّه عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال: رقيت على بيت أختى حفصة، فرأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قاعدا لحاجته، مستقبل الشام مستدبر القبلة، و له أيضا من حديث ابن عمر بينا الناس فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قد أنزل عليه الليلة و قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستدار إلى الكعبة.

فهذا أعزك اللّه أوضح دليل أنّ المدينة بين مكة و الشام على حدّ واحد، و أنها فى أوسط جهة بلاد الشام، فمن استقبل بالمدينة الكعبة فقد استدبر الشام، و من استدبر بالمدينة الكعبة فقد استقبل الشام، و يكون حينئذ الجانب الغربىّ من بلاد الشام و ما على سمته

من البلاد جهة القبلة عندهم أن يجعل الواقف مشرق الصيف عن يساره، و مغرب الشتاء عن يمينه، فيكون ما بين ذلك قبلته. و تكون قبلة الجانب الشرقى من بلاد الشام و ما على سمت ذلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸

البلدان، أن يجعل المصلى مغرب الصيف عن يمينه، و مشرق الشتاء عن يساره، و ما بينهما قبلته. و يكون أوسط البلاد الشامية التى هى حدّ المدينة النبوية قبلة المصلى بها، أن يجعل مشرق الاعتدال عن يساره، و مغرب الاعتدال عن يمينه، و ما بينهما قبلة له، فهذا أوضح استدلال على أن الحديث خاص بأهل المدينة، و ما على سمتها من البلاد الشامية، و ما وراءها من البلدان المسامتة لها.

و هكذا أهل اليمن و ما على سمت اليمن من البلاد، فإن القبلة واقعة فيما هنالك بين المشرق و المغرب لكن على عكس وقوعها فى البلاد الشامية، فإنه تصير مشارق الكواكب فى البلاد الشامية التى على يسار المصلى، واقعة عن يمين المصلى فى بلاد اليمن، و كذلك كل ما كان من المغرب عن يمين المصلى بالشام، فإنه ينقلب عن يسار المصلى باليمن، و كلّ من قام ببلاد اليمن مستقبلا الكعبة فإنه يتوجه إلى بلاد الشام فيما بين المشرق و المغرب، و هذه الأقطار سكانها هم المخاطبون بهذا الحديث، و حكمه لازم لهم، و هو خاص بهم دون من سواهم من أهل الأقطار الأخر، و من أجل حمل هذا الحديث على العموم كان السبب فى اختلاف محاريب مصر.

السبب الثانى: فى اختلاف محاريب مصر، أن الديار المصرية افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط و الروم مشحونة بهم، و نزل الصحابة رضى اللّه عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط الذى يعرف اليوم بمدينة مصر و بالإسكندرية، و تركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط، كما تقدّم فى موضعه من هذا الكتاب، و لم يسكن أحد من المسلمين بالقرى، و إنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب، و معهم طوائف من السادات، و مع ذلك فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ينهى الجند عن الزرع، و يبعث إلى أمراء الأجناد بإعطاء الرعية أعطياتهم و أرزاق عيالهم، و ينهاهم عن الزرع. روى الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الحكم فى كتاب فتوح مصر، من طريق ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن بكر بن عمر، و عن عبد اللّه بن هبيرة: أن عمر بن الخطاب أمر بناذره أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدّمون إلى الرعية، أنّ عطاءهم قائم، و أنّ أرزاق عيالهم سابل، فلا يزرعون و لا يزارعون. قال ابن وهب: و أخبرنى شريك بن عبد الرحمن المرادىّ قال: بلغنا أن شريك بن سمىّ الغطفانىّ أتى إلى عمرو بن العاص فقال: إنكم لا تعطونا ما يحسبنا، أفتأذن لى بالزرع؟ فقال له عمرو: ما أقدر على ذلك. فزرع شريك من غير إذن عمرو، فلما بلغ ذلك عمرا كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمىّ الغطفانىّ حرث بأرض مصر، فكتب إليه عمر أن ابعث إلىّ به، فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو، أقرأه شريكا. فقال شريك لعمرو: و قتلتنى يا عمرو. فقال عمرو: ما أنا بالذى قتلتك، أنت صنعت هذا بنفسك. فقال له: إذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج من غير كتاب، و لك علىّ عهد اللّه أن أجعل يدى فى يده، فأذن له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹

بالخروج، فلما وقف على عمر قال: تؤمننى يا أمير المؤمنين؟ قال: و من أىّ الأجناد أنت؟

قال: من جند مصر، قال: فلعلك شريك بن سمىّ الغطفانىّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: لأجعلنك نكالا لمن خلفك. قال: أو تقبل منى ما قبل اللّه تعالى من العباد؟ قال:

و تفعل؟ قال: فكتب إلى عمرو بن العاص أن شريك بن سمىّ جاءنى تائبا فقبلت منه.

قال: و حدّثنا عبد اللّه بن صالح بن عبد الرحمن بن شريح عن أبى قبيل، قال: كان الناس يجتمعون بالفسطاط إذا قفلوا، فإذا حضر مرافق الريف خطب عمرو بن العاص الناس فقال: قد حضر مرافق الريف ربيعكم فانصرفوا، فإذا حمض اللبن و اشتدّ العود و كثر الذباب فحىّ على فسطاطكم، و لا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه و أهزل جواده.

و قال ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال: كان عمرو يقول للناس إذا قفلوا من غزوهم: أنه قد حضر الربيع، فمن أحبّ منكم أن يخرج بفرسه يربعه فليفعل، و لا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه و أهزل فرسه، فإذا حمض اللبن و كثر الذباب و لوى العود فارجعوا إلى قيروانكم.

و عن ابن لهيعة عن الأسود بن مالك الحميرىّ عن بجير بن ذاخر المعافرىّ قال: رحت أنا و والدى إلى صلاة الجمعة تهجيرا، و ذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس، فذعرت فقلت: يا أبت من هؤلاء؟ فقال: يا بنىّ هؤلاء الشرط فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة قصير القامة، وافر الهامة، أدعج أبلج، عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تأتلق، عليه حلة و عمامة وجبة، فحمد اللّه و أثنى عليه حمدا موجزا، و صلّى على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و وعظ الناس و أمرهم و نهاهم، فسمعته يحض على الزكاة و صلة الأرحام، و يأمر بالاقتصاد و ينهى عن الفضول و كثرة العيال، و إخفاض الحال فى ذلك فقال: يا معشر الناس إيّاكم و خلالا أربعا، فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة، و إلى الضيق بعد السعة، و إلى الذلة بعد العزة، إياكم و كثرة العيال، و إخفاض الحال، و تضييع المال، و القيل بعد القال، فى غير درك و لا نوال. ثم أنه لا-بدّ من فراغ يؤول إليه المرء فى توديع جسمه و التدبير لشأنه و تخليته بين نفسه و بين شهواتها، و من صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد و النصيب الأقل، و لا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه، فيجوز من الخير عاطلا، و عن حلال اللّه و حرامه غافلا. يا معشر الناس: إنه قد تدلت الجوزاء و ذلت الشعرى، و أقلعت السماء و ارتفع الوباء، و قلّ الندى و طاب المرعى، و وضعت الحوامل و درجت السخائل، و على الراعى بحسن رعيته حسن النظر، فحىّ لكم على بركة اللّه تعالى إلى ريفكم، فنالوا من خيره و لبنه و خرافه و صيده، و اربعوا خيلكم و أسمنوها و صونوها و أكرموها، فإنها جنتكم من عدوّكم، و بها مغانمكم و أنفالكم، و استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا، و إياكم و المومسات

المعسولات، فإنهنّ يفسدن الدين و يقصرن الهمم. حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إنّ اللّه سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم فيكم صهرا و ذمّة، فكفوا أيديكم، و عفوا فروجكم، و غضوا أبصاركم» و لا-أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه و أهزل فرسه، و اعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، و اعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، و تشوّق قلوبهم إليكم، و إلى داركم معدن الزرع و المال و الخير الواسع و البركة النامية، و حدّثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: «إذا فتح اللّه عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال له أبو بكر رضى اللّه عنه: و لم يا رسول اللّه؟ قال: «لأنهم و أزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة» فاحمدوا اللّه معشر الناس على ما أولاكم، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس العود و سخن الماء و كثرت الذباب و حمض اللبن و صوّح البقل و انقطع الورد من الشجر، فحىّ إلى فسطاطكم، على بركة اللّه، و لا يقدمن أحد منكم ذو عيال إلا و معه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته، أقول قولى هذا و استحفظ اللّه عليكم.

قال فحفظت ذلك عنه. فقال والدى بعد انصرافنا إلى المنزل لما حكيت له خطبته أنه يا بنىّ يحذر الناس إذا انصرفوا إليه على الرباط كما حذرهم على الريف و الدعة. قال: و كان إذا جاء وقت الربيع كتب لكلّ قوم بربيعهم و لبنهم إلى حيث أحبوا، و كانت القرى التى يأخذ فيها معظمهم منوف و سمنود و أهناس و طحا، و كان أهل الراية متفرّقين، فكان آل عمرو بن العاص و آل عبد اللّه بن سعد يأخذون فى منوف و وسيم، و كانت هذيل تأخذ فى ببا و بوصير، و كانت عدوان تأخذ فى بوصير و قرى عك، و الذى يأخذ فيه معظمهم بوصير و منوف و سنديس و اتريب، و كانت بلى تأخذ فى منف و طرّانية، و كانت فهم تأخذ فى اتريب و عين شمس و منوف، و كانت مهرة جذام تأخذ فى مناونمى و بسطة و وسيم، و كانت لخم تأخذ فى الفيوم و طرّانية و قربيط، و كانت جذام تأخذ فى قربيط و طرّانية، و كانت حضر موت تأخذ فى ببا و عين شمس و اتريب، و كانت مراد تأخذ فى منف و الفيوم و معهم عبس بن

زوف، و كانت حمير تأخذ فى بوصير و قرى أهناس، و كانت خولان تأخذ فى قرى أهناس و القيس و البهنسا، و آل وعلة يأخذون فى سفط من بوصير، و آل ابرهة يأخذون فى منف و غفار، و أسلم يأخذون مع وائل من جذام و سعد فى بسطة و قربيط و طرّانية، و آل يسار بن ضبة فى أتريب، و كانت المعافر. تأخذ فى أتريب و سخا و منوف، و كانت طائفة من تجيب و مراد يأخذون باليدقون، و كان بعض هذه القبائل ربما جاور بعضا فى الربيع، و لا يوقف فى معرفة ذلك على أحد إلا أن معظم القبائل كانوا يأخذون حيث وصفنا، و كان يكتب لهم بالربيع فيربعون ما أقاموا و باللبن، و كان لغفار و ليث أيضا مربع باتريب. قال: و أقامت مدلج بخربتا فاتخذوها منزلا، و كان معهم نفر من حمير حالفوهم فيها، فهى منازلهم. و رجعت خشين و طائفة من لخم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱

و جذام فنزلوا أكناف ضان و أبليل و طرانية، و لم تكن قيس بالحوف الشرقىّ قديما، و إنما أنزلهم به ابن الحبحاب، و ذلك أنه وفد إلى هشام بن عبد الملك فأمر له بفريضة خمسة آلاف رجل، فجعل ابن الحبحاب الفريضة فى قيس، و قدم بهم فأنزلهم الجوف الشرقىّ بمصر، فانظر أعزك اللّه ما كان عليه الصحابة و تابعوهم عند فتح مصر من قلة السكنى بالريف، و مع ذلك فكانت القرى كلها فى جميع الإقليم أعلاه و أسفله مملوءة بالقبط و الروم، و لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، و عند ما أنزل عبيد اللّه بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقىّ، فلما كان فى المائة الثانية من سنى الهجرة، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر و نواحيها، و ما برحت القبط تنقض و تحارب المسلمين إلى ما بعد المائتين من سنى الهجرة.

قال أبو عمرو محمد بن يوسف الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و فى امرة الحرّ بن يوسف أمير مصر، كتب عبيد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصر إلى هشام بن عبد الملك، بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كلّ دينار قيراطا، فنقضت كورة تنو و نمى و قريط و طرانية و عامّة الحوف الشرقىّ، فبعث إليهم الحرّ بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم خلق كثير، و ذلك أوّل نقض القبط بمصر، و كان نقضهم فى سنة تسع و مائة، و رابط الحرّ بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم نقض أهل الصعيد و حارب القبط عمالهم فى سنة إحدى و عشرين و مائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسا كثيرا، فظفر بهم و خرج بحنس، و هو رجل من القبط من سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير أمير مصر فقتل بحنس فى كثير من أصحابه، و ذلك فى سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، و خالفت القبط أيضا برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد الحمار لما دخل مصر، فارّا من بنى العباس، عثمان بن أبى سبعة، فهزمهم و خرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا، و نابذوا العمال و أخرجوهم فى سنة خمسين و مائة، و صاروا إلى شبراسنباط، و انضم إليهم أهل البشرود و الأوسية و النخوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبىّ على أهل الديوان و وجوه أهل مصر، فخرجوا إليهم و لقيهم القبط و قتلوا من المسلمين، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط و انصرف العسكر إلى مصر منهزما.

و فى ولاية موسى بن علىّ بن رباح على مصر، خرج القبط ببلهيت فى سنة ست و خمسين و مائة، فخرج إليهم عسكر فهزمهم، ثم نقضت القبط فى جمادى الأولى سنة ست عشرة و مائتين مع من نقض من أهل أسفل الأرض من العرب، و أخرجوا العمال و خلعوا الطاعة لسوء سيرة العمال فيهم، فكانت بينهم و بين الجيوش حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون إلى مصر، لعشر خلون من المحرّم، سنة سبع عشرة و مائتين، فعقد على جيش بعث به إلى الصعيد و ارتحل هو إلى سخا، و أوقع الأفشين بالقبط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲

فى ناحية البشرود حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال و بيع النساء و الأطفال، فبيعوا و سبى أكثرهم، و تتبع كلّ من يومأ إليه بخلاف، فقتل ناسا كثيرا، و رجع إلى الفسطاط فى صفر، و مضى إلى حلوان، و عاد لثمان عشرة خلت من صفر فكان مقامه بالفسطاط و سخا و حلوان تسعة و أربعين يوما. فانظر أعزك اللّه كيف كانت إقامة الصحابة، إنما هى بالفسطاط و الإسكندرية،

و أنه لم يكن لهم كثير إقامة بالقرى، و أن النصارى كانوا متمكنين من القرى، و المسلمون بها قليل، و أنهم لم ينتشروا بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة و التابعين، يتبين لك أنهم لم يؤسسوا فى القرى و النواحى مساجد، و تفطن لشىء آخر، و هو أن القبط ما برحوا كما تقدّم يثبتون لمحاربة المسلمين، دالة منهم بما هم عليه من القوة و الكثرة، فلما أوقع بهم المأمون الوقعة التى قلنا غلب المسلمون على أماكنهم من القرى لما قتلوا منهم و سبوا، و جعلوا عدّة من كنائس النصارى مساجد، و كنائس النصارى مؤسسة على استقبال المشرق و استدبار المغرب، زعما منهم أنهم أمروا باستقبال مشرق الاعتدال، و أنه الجنة، لطلوع الشمس منه، فجعل المسلمون أبواب الكنائس محاريب عند ما غلبوا عليها.

و صيروها مساجد، فجاءت موازية لخط نصف النهار، و صارت منحرفة عن محاربى الصحابة انحرافا كثيرا يحكم بخطئها و بعدها عن الصواب كما تقدّم.

السبب الثالث: تساهل كثير من الناس فى معرفة أدلة القبلة، حتى أنك لتجد كثيرا من الفقهاء لا يعرفون منازل القمر صورة و حسابا، و قد علم من له ممارسة بالرياضيات أن بمنازل القمر يعرف وقت الحسر و انتقال الفجر فى المنازل، و ناهيك بما يترتب على معرفة ذلك من أحكام الصلاة و الصيام، و هذه المنازل التى للقمر من بعض ما يستدل به على القبلة، و الطرقات، و هى من مبادى العلم، و قد جهلوه، فمن أعوزه الأدنى فحرىّ به أن يجهل ما هو أعلى منه و أدق.

السبب الرابع: الاعتذار بنجم سهيل، فإن كثيرا ما يقع الاعتذار عن مخالفة محاريب المتأخرين بأنها بنيت على مقابلة سهيل، و من هناك يقع الخطأ، فإن هذا أمر يحتاج فيه إلى تحرير، و هو أن دائرة سهيل مطلعها جنوب مشرق الشتاء قليلا، و توسطها فى أوسط الجنوب، و غروبها يميل عن أوسط الجنوب قليلا، فلعل من تقدّم من السلف أمر ببناء المساجد فى القرى على مقابلة مطالع سهيل، و مطلعه فى سمت قبلة مصر تقريبا، فجهل من قام بأمر البنيان فرق ما بين مطالع سهيل و توسطه و غروبه، و تساهل فوضع المحراب على مقابلة توسط سهيل، و هو أوسط الجنوب، فجاء المحراب حينئذ منحرفا عن السمت الصحيح انحرافا لا يسوغ التوجه إليه البتة.

السبب الخامس: أن المحاريب الفاسدة بديار مصر أكثرها فى البلاد الشمالية التى تعرف بالوجه البحرىّ، و الذى يظهر أن الغلط دخل على من وضعها من جهة ظنه أن هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳

البلاد لها حكم بلاد الشام، و ذلك أن بلاد مصر التى فى الساحل كثيرة الشبه ببلاد الشام فى كثرة أمطارها و شدّة بردها، و حسن فواكهها، فاستطرد الشبه حتى فى المحاريب و وضعها على سمت المحاريب الشامية، فجاء شيئا خطأ، و بيان ذلك أن هذه البلاد ليست بشمالية عن الشام حتى يكون حكمها فى استقبال الكعبة كالحكم فى البلاد الشامية، بل هى مغرّبة عن الجانب الغربىّ من الشام بعدّة أيام، و سمتاهما مختلفان فى استقبال الكعبة، لاختلاف القطرين، فإن الجانب الغربىّ من الشام كما تقدّم يقابل ميزاب الكعبة على خط مستقيم، و هو حيث مهب النكباء التى بين الشمال و الدبور، و وسط الشام كدمشق و ما والاها شمال مكة من غير ميل، و هم يستقبلون أوسط الجنوب فى صلاتهم، بحيث يكون القطب الشمالىّ المسمى بالجدى وراء ظهورهم، و المدينة النبوية بين هذا الحدّ من الشام و بين مكة مشرّقة عن هذا الحدّ قليلا، فإذا كانت مصر مغرّبة عن الجانب الغربىّ من الشام بأيام عديدة، تعين و وجب أن تكون محاريبها و لا بدّ مائلة إلى جهة المرق بقدر بعد مصر و تغريبها عن أوسط الشام، و هذا أمر يدركه الحس و يشهد لصحته العيان، و على ذلك أسس الصحابة رضى اللّه عنهم المحاريب بدمشق و بيت المقدس مستقبلة ناحية الجنوب، و أسسوا المحاريب بمصر مستقبلة المشرق مع ميل يسير عنه إلى ناحية الجنوب، فرض- رحمه اللّه- نفسك فى التمييز، و عوّد نظرك التأمّل، و اربأ بنفسك أن تقاد كما تقاد البهيمة بتقليدك من لا يؤمن عليه الخطأ. فقد نهجت لك السبيل فى هذه المسألة، و ألنت لك من القول، و قرّبت لك حتى كأنك تعاين الأقطار، و كيف موقعها من مكة. ولى هنا مزيد بيان، فيه الفرق بين إصابة العين و إصابة الجهة، و هو أن المكلف لو وقف و فرضنا أنه خرج خط مستقيم من بين عينيه و مرّ حتى اتصل بجدار الكعبة من غير ميل عنها إلى جهة من الجهات،

فإنه لا بدّ أن ينكشف لبصره مدى عن يمينه و شماله، ينتهى بصره إلى غيره إن كان لا ينحرف عن مقابلته، فلو فرضنا امتداد خطين من كلا عينى الواقف، بحيث يلتقيان فى باطن الرأس على زاوية مثلثة، و يتصلان بما انتهى إليه البصر من كلا الجانبين، لكان ذلك شكلا مثلثا يقسمه الخط الخارج من بين العينين إلى الكعبة بنصفين، حتى يصير ذلك الشكل بين مثلثين متساويين، فالخط الخارج من بين عينى مستقبل الكعبة الذى فرق بين الزاويتين، هو مقابلة العين التى اشترط الشافعيّ رحمه اللّه وجوب استقباله من الكعبة عند الصلاة، و منتهى ما يكشف بصر المستقبل من الجانبين، هو حدّ مقابلة الجهة التى قال جماعة من علماء الشريعة بصحة استقباله فى الصلاة، و الخطان الخارجان من العينين إلى طرفيه هما آخر الجهة من اليمين و الشمال، فمهما وقعت صلاة المستقبل على الخط الفاصل بين الزاويتين، كان قد استقبل عين الكعبة، و مهما وقعت صلاته منحرفة عن يمين الخط أو يساره بحيث لا يخرج استقباله عن منتهى حدّ الزاويتين المحدودتين بما يكشف بصره من الجانبين، فإنه مستقبل جهة الكعبة، و إن خرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴

استقباله عن حدّ الزاويتين من أحد الجانبين، فإنه يخرج فى استقباله عن حدّ جهة الكعبة، و هذا الحدّ فى الجهة يتسع ببعد المدى، و يضيق بقربه، فأقصى ما ينتهى إليه اتساعه ربع دائرة الأفق، و ذلك أن الجهات المعتبرة فى الاستقبال أربع، المشرق و المغرب و الجنوب و الشمال، فمن استقبل جهة من هذه الجهات كان أقصى ما ينتهى إليه سعة تلك الجهة ربع دائرة الأفق، و إن انكشف لبصره أكثر من ذلك فلا عبرة به من أجل ضرورة تساوى الجهات، فإنا لو فرضنا إنسانا وقف فى مركز دائرة و استقبل جزأ من محيط الدائرة، لكانت كلّ جهة من جهاته الأربع التى هى وراءه و أمامه و يمينه و شماله، تقابل ربعا من أرباع الدائرة، فتبين بما قلنا أن أقصى ما ينتهى إليه اتساع الجهة قدر ربع دائرة الأفق، فأىّ جزء من أجزاء دائرة الأفق، قصده الواقف بالاستقبال فى بلد من البلدان، كانت جهة ذلك الجزء المستقبل ربع دائرة الأفق، و كان الخط الخارج من بين عينى الواقف إلى وسط تلك الجهة هو مقابلة العين، و منتهى الربع من جانبيه يمنة و يسرة هو منتهى الجهة التى قد استقبلها، فما خرج من محاريب بلد من البلدان عن حدّ جهة الكعبة لا تصح الصلاة لذلك المحراب بوجه من الوجوه، و ما وقع فى جهة الكعبة صحت الصلاة إليه عند من يرى أنّ الفرض فى استقبال الكعبة إصابة جهتها، و ما وقع فى مقابلة عين الكعبة فهو الأسدّ الأفضل الأولى عند الجمهور.

و إن أنصفت علمت أنه مهما وقع الاستقبال فى مقابلة جهة الكعبة، فإنه يكون سديدا، و أقرب منه إلى الصواب ما وقع قريبا من مقابلة العين يمنة أو يسرة، بخلاف ما وقع بعيدا عن مقابلة العين، فإنه بعيد من الصواب، و لعله هو الذى يجرى فيه الخلاف بين علماء الشريعة و اللّه أعلم.

و حيث تقرّر الحكم الشرعىّ بالأدلة السمعية و البراهين العقلية فى هذه المسألة، فاعلم أن المحاريب المخالفة لمحاريب الصحابة التى بقرافة مصر و بالوجه البحرىّ من ديار مصر، واقعة فى آخر جهة الكعبة من مصر، و خارجة عن حدّ الجهة، و هى مع ذلك فى مقابلة ما بين البجة و النوبة، لا فى مقابلة الكعبة، فإنها منصوبة على موازاة خط نصف النهار، و محاريب الصحابة على موازاة مشرق الشتاء تجاه مطالع العقرب مع ميل يسير عنها إلى ناحية الجنوب، فإذا جعلنا مشرق الشتاء المذكور مقابلة عين الكعبة لأهل مصر، و فرضنا جهة ذلك الجزء ربع دائرة الأفق، صار سمت المحاريب التى هى موازية لخط نصف النهار خارجا عن جهة الكعبة، و الذى يستقبلها فى الصلاة يصلى إلى غير شطر المسجد الحرام، و هو خطر عظيم فاحذره.

و اعلم أن صعيد مصر واقع فى جنوب مدينة مصر، وقوص واقعة فى شرقىّ الصعيد، و فيما بين مهب ريح الجنوب و الصبا من ديار مصر، فالمتوجه من مدينة قوص إلى عيذاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵

يستقبل مشرق الشتاء، سواء إلى أن يصل إلى عيذاب و لا يزال كذلك إذا سار من عيذاب حتى ينتهى فى البحر إلى جدّة، فإذا سار من جدّة فى البرّ استقبل المشرق كذلك حتى يحل بمكة، فإذا عاد من مكة استقبل المغرب، فاعرف من هذا أن مكة واقعة فى

النصف الشرقىّ من الربع الجنوبىّ بالنسبة إلى أرض مصر، و هذا هو سمت محاريب الصحابة التى بديار مصر و الإسكندرية، و هو الذى يجب أن يكون سمت جميع محاريب إقليم مصر.

برهان آخر: و هو أن من سار من مكة يريد مصر على الجادّة، فإنه يستقبل ما بين القطب الشمالىّ الذى هو الجدى، و بين مغرب الصيف مدّة يومين، و بعض اليوم الثالث، و فى هذه المدّة يكون مهب النكباء التى بين الشمال و المغرب تلقاء وجهه، ثم يستقبل بعد ذلك فى مدّة ثلاثة أيام أوسط الشمال، بحيث يبقى الجدى تلقاء وجهه إلى أن يصل إلى بدر، فإذا سار من بدر إلى المدينة النبوية صار مشرق الصيف تلقاء وجهه تارة و مشرق الاعتدال تارة إلى أن ينتهى إلى المدينة، فإذا رجع من المدينة إلى الصفراء، استقبل مغرب الشتاء إلى أن يعدل إلى ينبع، فيصير تارة يسير شمالا و تارة يسير مغربا، و يكون ينبع من مكة على حد النكباء التى بين الشمال و مغرب الصيف، فإذا سار من ينبع استقبل ما بين الجدى و مغرب الثريا، و هو مغرب الصيف، و هبت النكباء تلقاء وجهه إلى أن يصل إلى مدين، فإذا سار من مدين استقبل تارة الشمال و أخرى مغرب الصيف حتى يدخل إيلة، و من إيلة لا يزال يستقبل مغرب الاعتدال تارة و يميل عنه إلى جهة الجنوب مع استقبال مغرب الشتاء أخرى، إلى أن يصل إلى القاهرة و مصر، فلو فرضنا خطا خرج من محاريب مصر الصحيحة التى وضعها الصحابة، و مرّ على استقامة من غير ميل و لا انحراف لا تصل بالكعبة و لصق بها.

و اعلم أن أهل مصر و الإسكندرية و بلاد الصعيد و أسفل الأرض و برقة و إفريقية و طرابلس المغرب و صقلية و الأندلس و سواحل المغرب إلى السوس الأقصى و البحر المحيط و ما على سمت هذه البلاد، يستقبلون فى صلاتهم من الكعبة ما بين الركن الغربىّ إلى الميزاب، فمن أراد أن يستقبل الكعبة فى شىء من هذه البلاد فليجعل بنات نعش إذا غربت خلف كتفه الأيسر، و إذا طلعت على صدغه الأيسر، و يكون الجدى على أذنه اليسرى، و مشرق الشمس تلقاء وجهه أو ريح الشمال خلف أذنه اليسرى، أو ريح الدبور خلف كتفه الأيمن، أو ريح الجنوب التى تهب من ناحية الصعيد على عينه اليمنى، فإنه حينئذ يستقبل من الكعبة سمت محاريب الصحابة الذين أمرنا اللّه باتباع سبيلهم، و نهانا عن مخالفتهم بقوله عز و جل:

وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً [النساء/ ۱۵۵]

ألهمنا اللّه بمنه اتباع طريقهم، و صيرنا بكرمه من حزبهم و فريقهم إنه على كلّ شىء قدير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶

جامع العسكر

اشارة

هذا الجامع بظاهر مصر، و هو حيث الفضاء الذى هو اليوم فيما بين جامع أحمد بن طولون و كوم الجارح بظاهر مدينة مصر، و كان إلى جانب الشرطة و الدار التى يسكنها أمراء مصر، و من هذه الدار إلى الجامع باب، و كان يجمع فيه الجمعة، و فيه منبر و مقصورة، و هذا الجامع بناه الفضل بن صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس فى ولايته إمارة مصر، ملاصقا لشرطة العسكر التى كانت يقال لها الشرطة العليا، فى سنة تسع و ستين و مائة، فكانوا يجمعون فيه، و كانت ولاية الفضل إمارة مصر من قبل المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور على الصلاة و الخراج، فدخلها سلخ المحرّم سنة تسع و ستين و مائة، فى عسكر من الجند عظيم أتى بهم من الشام، و مصر تضطرم لما كان فى الحوف، و لخروج دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، فقام فى ذلك و جهز الجنود حتى أسر دحية و ضرب عنقه فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و كان يقول أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى فى أمر دحية، و قد عجز عنه غيرى، حتى كفيت أهل مصر أمره، فعزله موسى الهادى لما استخلف بعد موت أبيه المهدىّ، بعد ما أقرّه فندم الفضل على قتل دحية و أظهر توبة و سار إلى بغداد، فمات عن خمسين سنة، فى سنة اثنتين و سبعين و مائة، و لم يزل الجامع بالعسكر إلى أن ولى عبد

اللّه بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة على صلاة مصر و خراجها، من قبل عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون فى ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و مائتين، فزاد فى عمارته، و كان الناس يصلون فيه الجمعة قبل بناء جامع أحمد بن طولون، و لم يزل هذا الجامع إلى ما بعد الخمسمائة من سنى الهجرة. قال ابن المأمون فى تاريخه من حوادث سنة سبع عشرة و خمسمائة، و كان يطلق فى الأربع ليالى الوقود، و هى مستهلّ رجب و نصفه، و مستهلّ شعبان و نصفه، برسم الجوامع الستة، الأزهر و الأنور و الأقمر بالقاهرة، و الطولونىّ و العتيق بمصر، و جامع القرافة و المشاهد التى تتضمن الأعضاء الشريفة، و بعض المساجد التى يكون لأربابها و جاهة جملة كثيرة من الزيت الطيب، و يختص بجامع راشدة و جامع ساحل الغلة بمصر، و الجامع بالمقس يسير، و يعنى بجامع ساحل الغلة جامع العسكر، فإنّ العسكر حينئذ كان قد خرب و حملت أنقاضه، و صار الجامع بساحل مصر، و هو الساحل القديم المذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر العسكر

كان مكان العسكر فى صدر الإسلام يعرف بعد الفتح بالحمراء القصوى، و هى كما تقدّم خطة بنى الأزرق و خطة بنى روبيل و خطة بنى يشكر بن جزيلة من لخم، ثم دثرت هذه الحمراء و صارت صحراء، فلما زالت دولة بنى أمية و دخلت المسودة إلى مصر فى طلب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷

مروان بن محمد الجعدىّ، فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، و هى خراب فضاء يعرف بعضه بجبل يشكر، نزل صالح بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، و أبو عون عبد الملك بن يزيد بعسكرهما فى هذا الفضاء، و أمر عبد الملك أبو عون أصحابه بالبناء فيه، فبنوا. و سمى من يومئذ بالعسكر، و صار أمراء مصر إذا قدموا ينزلون فيه من بعد أبى عون. و قال الناس من عهده كنا بالعسكر، خرجنا إلى العسكر، و كنت فى العسكر. فصارت مدينة الفسطاط و العسكر. و نزل الأمراء من عهد أبى عون بالعسكر، فلما ولى يزيد بن حاتم إمارة مصر، و قام علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن حسن و طرق المسجد، كتب أبو جعفر المنصور إلى يزيد بن حاتم يأمره أن يتحوّل من العسكر إلى الفسطاط، و أن يجعل الديوان فى كنائس القصر، و ذلك فى سنة ست و أربعين و مائة، إلى أن قدم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون من العراق أميرا على مصر، فنزل بالعسكر بدار الإمارة التى بناها صالح بن علىّ بعد هزيمة مروان و قتله، و كان لها باب إلى الجامع الذى بالعسكر، و كان الأمراء ينزلون بهذه الدار إلى أن نزلها أحمد بن طولون، ثم تحوّل منها إلى القطائع، و جعلها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون عند إمارته على مصر ديوانا للخراج، ثم فرّقت حجرا حجرا بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر، و زوال دولة بنى طولون، و سكن محمد بن سليمان أيضا بدار فى العسكر عند المصلّى القديم، و نزلها الأمراء من بعده إلى أن ولى الإخشيد محمد بن طغج فنزل بالعسكر أيضا، و لما بنى أحمد بن طولون القطائع اتصلت مبانيها بالعسكر، و بنى الجامع على جبل يشكر، فعمر ما هناك عمارة عظيمة، بحيث كانت هناك دار على بركة قارون أنفق عليها كافور الإخشيدىّ مائة ألف دينار، و سكنها. و كان هناك مارستان أحمد بن طولون أنفق عليه و على مستغله ستين ألف دينار.

و قدمت عساكر المعز لدين اللّه مع كاتبه و غلامه جوهر القائد فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و العسكر عامر، غير أنه منذ بنى أحمد بن طولون القطائع هجر اسم العسكر، و صار يقال مدينة الفسطاط و القطائع، فلما خرّب محمد بن سليمان الكاتب قصر ابن طولون و ميدانه، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، صارت القطائع فيها المساكن الجليلة، حيث كان العسكر، و أنزل المعز لدين اللّه عمه أبا علىّ فى دار الإمارة، فلم يزل أهله بها إلى أن خربت القطائع فى الغلاء الكائن بمصر فى خلافة المستنصر، أعوام بضع و خمسين و أربعمائة. فيقال أنه كان هنالك ما ينيف على مائة ألف دار، و لا ينكر ذلك. فانظر ما بين سفح الجبل حيث القلعة الآن، و بين ساحل مصر القديم الذى يعرف اليوم بالكبارة، و ما بين كوم الجارح من مصر، و قناطر السباع، فهناك كانت القطائع و العسكر، و يخص العسكر من ذلك ما بين قناطر السباع و حدرة ابن قميحة إلى كوم الجارح، حيث الفضاء الذى يتوسط فيما بين قنطرة السدّ و

باب المخدم من جهة القرافة، فهناك كان العسكر. و لما استولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸

الخراب فى المحنة زمن المستنصر، أمر الوزير الناصر للدين عبد الرحمن البازورىّ ببناء حائط يستر الخراب إذا توجه الخليفة إلى مصر، فيما بين العسكر و القطائع و بين الطريق، و أمر فبنى حائط آخر عند جامع ابن طولون. فلما كان فى خلافة الآمر بأحكام اللّه أبى علىّ منصور بن المستعلى بالله، أمر وزيره أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالمأمون البطائحىّ، فنودى مدّة ثلاثة أيام فى القاهرة و مصر، بأن من كان له دار فى الخراب أو مكان يعمره، و من عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره، من غير نقل شيء من أنقاضه، و من تأخر بعد ذلك فلا حق له و لا حكر يلزمه، و أباح تعمير جميع ذلك بغير طلب حق، فعمر الناس ما كان منه مما يلى القاهرة، من حيث مشهد السيدة نفيسة إلى ظاهر باب زويلة، و نقلت أنقاض العسكر، فصار الفضاء الذى يوصل إليه من مشهد السيدة نفيسة، و من الجامع الطولونىّ، و من قنطرة السدّ، و يسلك فيه إلى حيث كوم الجارح. و العامر الآن من العسكر جبل يشكر الذى فيه جامع ابن طولون و ما حوله إلى قناطر السباع. كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى.

جامع ابن طولون

اشارة

هذا الجامع موضعه يعرف بجبل يشكر. قال ابن عبد الظاهر: و هو مكان مشهور بإجابة الدعاء، و قيل أنّ موسى عليه السّلام ناجى ربه عليه بكلمات. و ابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بناء القطائع، فى سنة ثلاث و ستين و مائتين.

قال جامع السيرة الطولونية: كان أحمد بن طولون يصلّى الجمعة فى المسجد القديم الملاصق للشرطة، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد، مما أفاء اللّه عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون، و منه بنى العين. فلما أراد بناء الجامع قدّر له ثلاثمائة عمود، فقيل له: ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف و الضياع الخراب، فتحمل ذلك، فأنكر ذلك و لم يختره، و تعذب قلبه بالفكر فى أمره، و بلغ النصرانىّ الذى تولى له بناء العين، و كان قد غضب عليه و ضربه و رماه فى المطبق الخبر.

فكتب إليه يقول: أنا أبنيه لك كما تحب و تختار بلا عمد إلّا عمودى القبلة، فأحضره و قد طال شعره حتى نزل على وجهه، فقال له: ويحك ما تقول فى بناء الجامع؟ فقال: أنا أصوّره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلّا عمودى القبلة. فأمر بأن تحضر له الجلود، فأحضرت، و صوّره له فأعجبه و استحسنه، و أطلقه و خلع عليه، و أطلق له للنفقة عليه مأئة ألف دينار. فقال له: أنفق، و ما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك. فوضع النصرانىّ يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه، و هو جبل يشكر، فكان ينشر منه و يعمل الجيرو يبنى إلى أن فرغ من جميعه، و بيّضه و خلّقه و علّق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال، و فرش فيه الحصر، و حمل إليه صناديق المصاحف، و نقل إليه القرّاء و الفقهاء، و صلّى فيه بكار بن قتيبة القاضى، و عمل الربيع بن سليمان بابا فيما روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أنه قال: «من بنى للّه مسجدا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹

و لو كمفحص قطاة، بنى اللّه له بيتا فى الجنة». فلما كان أوّل جمعة صلاها فيه أحمد بن طولون و فرغت الصلاة، جلس محمد بن الربيع خارج المقصورة، و قام المستملى و فتح باب المقصورة، و جلس أحمد بن طولون، و لم ينصرف و الغلمان قيام و سائر الحجاب حتى فرغ المجلس، فلما فرغ المجلس خرج إليه غلام بكيس فيه ألف دينار و قال: يقول لك الأمير نفعك اللّه بما علّمك، و هذه لأبى طاهر، يعنى ابنه، و تصدّق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه، و عمل طعاما عظيما للفقراء و المساكين، و كان يوما عظيما حسنا.

وراح أحمد بن طولون و نزل فى الدار التى عملها فيه للإمارة، و قد فرشت و علّقت و حملت إليها الآلات و الأوانى و صناديق الأشربة و ما شاكلها، فنزل بها أحمد و جدّد طهره و غير ثيابه و خرج من بابها إلى المقصورة، فركع و سجد شكرا للّه تعالى على ما أعانه عليه من ذلك و يسره له. فلما أراد الانصراف، خرج من المقصورة حتى أشرف على الفوّارة، و خرج إلى باب الريح. فصعد النصرانىّ الذى بنى الجامع و وقف إلى جانب المركب النحاس و صاح: يا أحمد بن طولون، يا أمير الأمان، عبدك يريد الجائزة و يسأل الأمان، أن لا يجرى عليه مثل ما جرى فى المرّة الأولى. فقال له أحمد بن طولون: انزل فقد أمّنك اللّه، و لك الجائزة. فنزل و خلع عليه و أمر له بعشرة آلاف دينار، و أجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مات. وراح أحمد بن طولون فى يوم الجمعة إلى الجامع، فلما رقى الخطيب المنبر و خطب، و هو أبو يعقوب البلخىّ، دعا للمعتمد و لولده، و نسى أن يدعو لأحمد بن طولون، و نزل عن المنبر، فأشار أحمد إلى نسيم الخادم أن أضربه خمسمائة سوط. فذكر الخطيب سهوه و هو على مراقى المنبر، فعاد و قال: الحمد للّه، و صلّى اللّه على محمد وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [طه/ ۱۱۵] اللهمّ و أصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين. و زاد فى الشكر و الدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل، فنظر أحمد إلى نسيم أن أجعلها دنانير، و وقف الخطيب على ما كان منه، فحمد اللّه تعالى على سلامته و هنأه الناس بالسلامة.

و رأى أحمد بن طولون الصنّاع يبنون فى الجامع عند العشاء، و كان فى شهر رمضان فقال: متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم و أولادهم، اصرفوهم العصر. فصارت سنّة إلى اليوم بمصر. فلما فرغ شهر رمضان، قيل له: قد انقضى شهر رمضان فيعودون إلى رسمهم. فقال: قد بلغنى دعاؤهم، و قد تبرّكت به، و ليس هذا مما يوفر العمل علينا. و فرغ منه فى شهر رمضان سنة خمس و ستين و مائتين، و تقرّب الناس إلى ابن طولون بالصلاة فيه، و ألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة فى فوّارة الجامع، ثم يخرجون بعد الصلاة إلى مجلس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰

الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم، مع كلّ واحد منهم ورّاق و عدّة غلمان. و بلغت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار. و يقال أنّ أحمد بن طولون رأى فى منامه كأنّ اللّه تعالى قد تجلّى و وقع نوره على المدينة التى حول الجامع، إلّا الجامع فإنه لم يقع عليه من النور شىء، فتألم و قال: و اللّه ما بنيته إلّا للّه خالصا، و من المال الحلال الذى لا شبهة فيه. فقال له معبّر حاذق: هذا الجامع يبقى و يخرب كل ما حوله، لأنّ اللّه تعالى قال: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا [الأعراف/ ۱۴۳] فكل شىء يقع عليه جلال اللّه عز و جل لا يثبت. و قد صحّ تعبير هذه الرؤيا، فإن جميع ما حول الجامع خرب دهرا طويلا، كما تقدّم فى موضعه من هذا الكتاب، و بقى الجامع عامرا، ثم عادت العمارة لما حوله كما هى الآن.

قال القضاعىّ رحمه اللّه، و ذكر أن السبب فى بنائه، أنّ أهل مصر شكوا إليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده و سودانه، فأمر بإنشاء المسجد الجامع بجبل يشكر بن جديلة من لخم، فابتدأ بنيانه فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و فرغ منه سنة خمس و ستين و مائتين، و قيل أنّ أحمد بن طولون قال: أريد أن أبنى بناء، إن احترقت مصر بقى، و إن غرقت بقى.

فقيل له: يبنى بالجير و الرماد و الآجر الأحمر القوىّ النار إلى السقف، و لا يجعل فيه أساطين رخام، فإنه لا صبر لها على النار، فبناه هذا البناء و عمل فى مؤخره ميضأة و خزانة شراب فيها جميع الشرابات و الأدوية، و عليها خدم و فيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة، و بناه على بناء جامع سامراء، و كذلك المنارة، و علّق فيه سلاسل النحاس المفرغة، و القناديل المحكمة، و فرشه بالحصر العبدانية و السامانية.

حديث الكنز: قال جامع السيرة: لما ورد على أحمد بن طولون كتاب المعتمد بما استدعاه من ردّ الخراج بمصر إليه، و زاده المعتمد مع ما طلب الثغور الشامية، رغب بنفسه عن المعادن و مرافقها، فأمر بتركها، و كتب بإسقاطها فى سائر الأعمال، و منع المتقبلين من الفسخ على المزارعين، و خطر الارتفاق على العمال، و كان قبل إسقاط المرافق بمصر، قد شاور عبد اللّه بن دسومة فى ذلك، و هو يومئذ أمين على أبى أيوب متولى الخراج. فقال:

إن أمننى الأمير تكلمت بما عندى. فقال له: قد أمنك اللّه عز و جلّ. فقال: أيها الأمير، إنّ الدنيا و الآخرة ضرّتان و الحازم من لم يخلط إحداهما مع الأخرى، و المفرّط من خلط بينهما، فيتلف أعماله و يبطل سعيه، و أفعال الأمير أيّده اللّه الخير و توكله توكل الزهاد، و ليس مثله من ركب خطة لم يحكمها، و لو كنا نثق بالنصر دائما طول العمر، لما كان شيء عندنا آثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل بعمارة الآجل، و لكن الإنسان قصير العمر، كثير المصائب، مدفوع إلى الآفات، و ترك الإنسان ما قد أمكنه و صار فى يده تضييع، و لعل الذى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱

حماه، نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده، فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو، و يجتمع للأمير أيده اللّه بما قد عزم على إسقاطه من المرافق فى السنة بمصر دون غيرها مائة ألف دينار، و إنّ فسخ ضياع الأمراء و المتقبلين فى هذه السنة، لأنها سنة ظمأ توجب الفسيخ، زاد مال البلد و توفر توفرا عظيما ينضاف إلى مال المرافق، فيضبط به الأمير أيّده اللّه أمر دنياه، و هذه طريقة أمور الدنيا و أحكام أمور الرياسة و السياسة، و كلّ ما عدل الأمير أيده اللّه إليه من أمر غير هذا، فهو مفسد لدنياه، و هذا رأيى، و الأمير أيده اللّه على ما عساه يراه.

فقال له: ننظر فى هذا إن شاء اللّه. و شغل قلبه كلامه، فبات تلك الليلة بعد أن مضى أكثر الليل يفكر فى كلام ابن دسومة، فرأى فى منامه رجلا- من إخوانه الزهاد بطرسوس و هو يقول له: ليس ما أشار به عليك من استشرته فى أمر الارتفاق و الفسخ برأى تحمد عاقبته، فلا تقبله. و من ترك شيئا للّه عز و جلّ عوّضه اللّه عنه، فأمض ما كنت عزمت عليه.

فلما أصبح أنفذ الكتب إلى سائر الأعمال بذلك، و تقدّم به فى سائر الدواوين بإمضائه، و دعا بابن دسومة فعرّفه بذلك، فقال له: قد أشار عليك رجلان، الواحد فى اليقظة و الآخر ميت فى النوم، و أنت إلى الحىّ أقرب و بضمانه أوثق. فقال: دعنا من هذا، فلست أقبل منك.

و ركب فى غد ذلك اليوم إلى نحو الصعيد، فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه، و هو رمل، فسقط الغلام- فى الرمل، فإذا بفتق، ففتح فأصيب فيه من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار، و هو الكنز الذى شاع خبره، و كتب به إلى العراق أحمد بن طولون بخير المعتمد به و يستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البرّ و غيرها، فبنى منه المارستان، ثم أصاب بعده فى الجبل مالا- عظيما، فبنى منه الجامع و وقف جميع ما بقى من المال فى الصدقات، و كانت صدقاته و معروفه لا تحصى كثرة. و لما انصرف من الصحراء و حمل المال أحضر ابن دسومة و أراه المال و قال له: بئس الصاحب و المستشار أنت، هذا أوّل بركة مشورة الميت فى النوم، و لو لا أننى أمنتك لضربت عنقك، و تغيّر عليه و سقط محله عنده، و رفع إليه بعد ذلك أنه قد أجحف بالناس و ألزمهم أشياء ضجوا منها، فقبض عليه و أخذ ماله و حبسه، فمات فى حبسه. و كان ابن دسومة واسع الحيلة بخيل الكف زاهدا فى شكر الشاكرين، لا يهش إلى شىء من أعمال البرّ. و كان أحمد بن طولون من أهل القرآن، إذا جرت منه إساءة استغفر و تضرّع.

و قال ابن عبد الظاهر: سمعت غير واحد يقول إنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع، أسرّ للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب. فقال رجل: محرابه صغير،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲

و قال آخر: ما فيه عمود. و قال آخر: ليست له ميضأة. فجمع الناس و قال: أما المحراب فإنى رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قد خطه لى، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لى، و أما العمد فإنى بنيت هذا الجامع من مال حلال و هو الكنز، و ما كنت لأشوبه بغيره، و هذه العمد إمّا أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها، و أما الميضأة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها، و ها أنا أبنيها خلفه، ثم أمر ببنائها. و قيل أنه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه كأن نارا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله، فلما أصبح قص رؤياه، فقيل له: أبشر بقبول الجامع، لأنّ النار كانت فى الزمان الماضى إذا قبل اللّه قربانا نزلت

نار من السماء أخذته، و دليله قصة قابيل و هابيل. قال: و رأيت من يقول أنه عمّر ما حوله حتى كان خلفه مسطبة ذراع فى ذراع، أجرتها فى كلّ يوم اثنا عشر درهما، فى بكرة النهار، لشخص يبيع الغزل و يشتريه، و الظهر لخباز، و العصر لشيخ يبيع الحمص و الفول. و قيل عن أحمد بن طولون أنه كان لا يعبث بشىء قط، فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده و أخرجه و مدّه و استيقظ لنفسه و علم أنه قد فطن به، و أخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع و قال: تبنى المنارة التى للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة، و العامّة يقولون أن العشارى الذى على المنارة المذكورة يدور مع الشمس، و ليس صحيحا و إنما يدور مع دوران الرياح، و كان الملك الكامل قد اعتنى بوقودها ليلة النصف من شعبان، ثم أبطلها. و قال المسبحىّ: إن الحاكم أنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف و أربعة عشر مصحفا. و فى سنة ست و سبعين و ثلاثمائة فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى، احترقت الفوّارة التى كانت بجامع ابن طولون فلم يبق منها شيء، و كانت فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها، و هى مذهبة على عشر عمد رخام و ستة عشر عمود رخام فى جوانبها، مفروشة كلها بالرخام، و تحت القبة قصعة رخام فسحتها أربعة أذرع، فى وسطها فوّارة تفور بالماء، و فى وسطها قبة مزوّقة يؤذن فيها، و فى أخرى على سلمها، و فى السطح علامات الزوال، و السطح بدرابزين ساج، فاحترق جميع هذا فى ساعة واحدة. و فى المحرّم سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة أمر العزيز باللّه بن المعز ببناء فوّارة عوضا عن التى احترقت، فعمل ذلك على يد راشد الحنفىّ، و تولى عمارتها ابن الرومية و ابن البناء، و ماتت أمّ العزيز فى سلخ ذى القعدة من السنة و اللّه أعلم.

تجديد الجامع: و كان من خبر جامع ابن طولون أنه لما كان غلاء مصر فى زمان المستنصر، و خربت القطائع و العسكر، عدم الساكن هناك و صار ما حول الجامع خرابا، و توالت الأيام على ذلك و تشعث الجامع و خرب أكثره، و صار أخيرا ينزل فيه المغاربة بأباعرها و متاعها عند ما تمرّ بمصر أيام الحج، فهيأ اللّه جلّ جلاله لعمارة هذا الجامع، أن كان بين الملك الأشرف خليل بن قلاون و بين الأمير بيدر أمور موحشة تزايدت و تأكدت،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳

إلى أن جمع بيدر من يثق به و قتل الأشرف بناحية تروجه فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر مدرسته، و كان ممن وافق الأمير بيدرا على قتل الأشرف، الأمير حسام الدين لاجين المنصورىّ، و الأمير قراسنقر، فلما قتل بيدر فى محاربة مماليك الأشرف له، فرّ لاجين و قراسنقر من المعركة، فاختفى لاجين بالجامع الطولونىّ، و قراسنقر فى داره بالقاهرة، و صار لاجين يتردّد بمفرده من غير أحد معه فى الجامع و هو حينئذ خراب لا ساكن فيه، و أعطى اللّه عهدا إن سلّمه اللّه من هذه المحنة و مكنه من الأرض أن يجدّد عمارة هذا الجامع و يجعل له ما يقوم به، ثم إنه خرج منه فى خفية إلى القرافة فأقام بها مدّة، و راسل قراسنقر فتحيل فى لحاقه به، و عملا أعمالا إلى أن اجتمعا بالأمير زين الدين كتبغا المنصورى، و هو إذ ذاك نائب السلطنة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و القائم بأمور الدولة كلها، فأحضرهما إلى مجلس السلطان بقلعة الجبل بعد أن أتقن أمرهما مع الأمراء و مماليك السلطان، فخلع عليهما و صار كلّ منهما إلى داره و هو آمن، فلم تطل أيام الملك الناصر فى هذه الولاية حتى خلعه الأمير كتبغا و جلس على تخت الملك، و تلقب بالملك العادل، فجعل لاجين نائب السلطنة بديار مصر، و جرت أمور اقتضت قيام لاجين على كتبغا و هم بطريق الشام، ففرّ كتبغا إلى دمشق و استولى لاجين على دست المملكة، و سار إلى مصر و جلس على سرير الملك بقلعة الجبل، و تلقب بالملك المنصور فى المحرّم من سنة ست و تسعين و ستمائة، فأقام قراسنقر فى نيابة السلطنة بديار مصر، و أخرج الناصر محمد بن قلاون من قلعة الجبل إلى كرك الشوبك، فجعله فى قلعتها، و أعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه و جعله نائب حماه، فأقام بها مدّة سنين بعد سلطنة مصر و الشام و خلع على الأمير علم الدين سنجر الدوادارىّ و أقامه فى نيابة دار العدل، و جعل إليه شراء الأوقاف على الجامع الطولونىّ، و صرف إليه كلّ ما يحتاج إليه فى العمارة، و أكد عليه فى أن لا يسخّر فيه فاعلا و لا صانعا، و أن لا يقيم مستحثا للصناع، و لا يشترى لعمارته شيئا مما يحتاج إليه من سائر الأصناف إلّا بالقيمة التامة، و أن

يكون ما ينفق على ذلك من ماله، و أشهد عليه بوكالته، فابتاع منية أندونة من أراضى الجيزة، و عرفت هذه القرية بأندونة، كاتب بمصر كان نصرانيا فى زمن أحمد بن طولون، و ممن نكبه و أخذ منه خمسين ألف دينار، و اشترى أيضا ساحة بجوار جامع أحمد بن طولون مما كان فى القديم عامرا ثم خرب، و حكرها و عمر الجامع، و أزال كلّ ما كان فيه من تخريب، و بلطه و بيضه و رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التى عمل أهل مصر عليها الآن، و درسا يلقى فيه تفسير القرآن الكريم، و درسا لحديث النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و درسا للطب، و قرّر للخطيب معلوما، و جعل له إماما راتبا، و مؤذنين و فرّاشين و قومة، و عمل بجواره مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و غير ذلك من أنواع القربات و وجوه البرّ، فبلغت النفقة على عمارة الجامع و ثمن مستغلاته عشرين ألف دينار، فلما شاء اللّه سبحانه أن يهلك لاجين، زيّن له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴

سوء عمله، عزل الأمير قراسنقر من نيابة السلطنة، فعزله و ولى مملوكه منكوتمر، و كان عسوفا عجولا حادّا، و لاجين مع ذلك يركن إليه و يعوّل فى جميع أموره عليه و لا يخالف قوله و لا ينقض فعله، فشرع منكوتمر فى تأخير أمراء الدولة من الصالحية و المنصورية، و أعجل فى إظهار التهجم لهم و الإعلان بما يريده من القبض عليهم و إقامة أمراء غيرهم، فتوحشت القلوب منه و تمالأت على بغضه، و مشى القوم بعضهم إلى بعض و كاتبوا إخوانهم من أهل البلاد الشامية، حتى تمّ لهم ما يريدون، فواعد جماعة منهم إخوانهم على قتل السلطان لاجين و نائبه منكوتمر، فما هو إلّا أن صلّى السلطان العشاء الآخرة من ليلة الجمعة العاشر من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و إذا بالأمير كرجى و كان ممن هو قائم بين يديه، تقدّم ليصلح الشمعة، فضربه بسيف قد أخفاه معه أطار به زنده، و انقض عليه البقية ممن واعدوهم بالسيوف و الخناجر، فقطعوه قطعا، و هو يقول اللّه اللّه، و خرجوا من فورهم إلى باب القلة من قلعة الجبل، فإذا بالأمير طفج قد جلس فى انتظارهم و معه عدّة من الأمراء، و كانوا إذ ذاك يبيتون بالقلعة دائما، فأمروا بإحضار منكوتمر من دار النيابة بالقلعة و قتلوه بعد مضىّ نصف ساعة من قتل أستاذه الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورىّ رحمه اللّه. فلقد كان مشكور السيرة.

و فى سنة سبعة و ستين و سبعمائة جدّد الأمير يلبغا العمرىّ الخاصكىّ درسا بجامع ابن طولون، فيه سبعا مدرّسين للحنفية، و قرّر لكلّ فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهما و أردب قمح، فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية. و أوّل من ولّى نظره بعد تجديده الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ و هو إذ ذاك دوادار السلطان الملك المنصور لاجين، ثم ولّى نظره قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، ثم من بعده الأمير مكين فى أيام الناصر محمد بن قلاون، فجدّد فى أوقافه طاحونا و فرنا و حوانيت. فلما مات وليه قاضى القضاة عز الدين بن جماعة، ثم ولّاه الناصر للقاضى كريم الدين الكبير، فحدّد فيه مئذنتين، فلما نكبه السلطان عاد نظره إلى قاضى القضاة الشافعىّ، و ما برح إلى أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاون، فولّاه للأمير صرغتمش، و توفر فى مدّة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضة، و قبض عليه و هى حاصلة، فباشره قاضى القضاة إلى أيام الأشرف شعبان بن حسين، ففوّض نظره إلى الأمير الجاى اليوسفىّ إلى أن غرق، فتحدّث فيه قاضى القضاة الشافعىّ إلى أن فوّض السلطان الملك الظاهر برقوق نظره إلى الأمير قطلو بغا الصفوىّ، فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، و كان الأمير منطاش مدّة تحكمه فى الدولة فوّضه إلى المذكور فى أواخر شوّال سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، ثم عاد نظره إلى القضاة بعد الصفوىّ و هو بأيديهم إلى اليوم. و فى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة جدّد الرواق البحرىّ الملاصق للمئذنة، الحاج عبيد اللّه محمد بن عبد الهادى الهويدىّ البازدار مقدّم الدولة. و جدّد ميضأة بجانب الميضأة القديمة، و كان عبيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵

هذا بازدارا، ثم ترقّى حتى صار مقدّم الدولة، فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، ثم ترك زىّ المقدّمين و تزيّا بزىّ الأمراء، و حاز نعمة جليلة و سعادة طائلة حتى مات يوم السبت رابع عشر صفر سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة.

ذكر دار الإمارة

و كان بجوار الجامع الطولونيّ دار أنشأها الأمير أحمد بن طولون عندما بنى الجامع، و جعلها في الجهة القبلية، و لها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بجوار المحراب و المنبر، و جعل في هذه الدار جميع ما يحتاج إليه من الفرش و الستور و الآلات، فكان ينزل بها إذا راح إلى صلاة الجمعة، فإنها كانت تجاه القصر و الميدان، فيجلس فيها و يجدّد وضوءه و يغير ثيابه، و كان يقال لها دار الإمارة، و موضعها الآن سوق الجامع حيث البزازين و غيرهم، و لم تزل هذه الدار باقية إلى أن قدم الإمام المعز لدين اللّه أبو تميم معدّ من بلاد المغرب، فكان يستخرج فيها أموال الخراج. قال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق في كتاب سيرة المعز: و لست عشرة بقيت من المحرّم، يعني من سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة قلّد المعز لدين اللّه الخراج و جميع وجوه الأعمال و الحسبة و السواحل و الأعشار و الجوالي و الأحباس و المواريث و الشرطيين، و جميع ما ينضاف إلى ذلك، و ما يطرأ في مصر و سائر الأعمال، أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس، و عسلوج بن الحسن، و كتب لهما سجلا بذلك قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون، و جلسا غد هذا اليوم في دار الإمارة في جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع و سائر وجوه الأعمال، ثم خربت هذه الدار فيما خرب من القطائع و العسكر، و صار موضعها ساحة إلى أن حكرها الدويداريّ عند تجديد عمارة الجامع كما تقدّم، و قد ذكر بناء القيسارية في موضعه من هذا الكتاب عند ذكر الأسواق.

ذكر الأذان بمصر و ما كان فيه من الاختلاف

اعلم أن أوّل من أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلال بن رباح، مولى أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنهما، بالمدينة الشريفة و في الأسفار، و كان ابن أمّ مكتوم و اسمه عمرو بن قيس بن شريح من بني عامر بن لؤيّ، و قيل اسمه عبد اللّه، و أمّه أمّ مكتوم، و اسمها عاتكة بنت عبد اللّه بن عنكثة من بني مخزوم، ربما أذن بالمدينة، و أذن أبو محذورة، و اسمه أوس، و قيل سمرة بن معير بن لوذان بن ربيعة بن معير بن عريج بن سعد بن جمح، و كان استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في أن يؤذن مع بلال، فأذن له و كان يؤذن في المسجد الحرام، و أقام بمكة و مات بها و لم يأت المدينة.

قال ابن الكلبيّ: كان أبو محذورة لا يؤذن للنبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم بمكة إلّا في الفجر، و لم يهاجر و أقام بمكة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۶

و قال ابن جريج: علّم النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم أبا محذورة الأذان بالجعرانة حين قسم غنائم حنين، ثم جعله مؤذنا في المسجد الحرام.

و قال الشعبيّ: أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بلال و أبو محذورة و ابن أمّ مكتوم، و قد جاء أن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه كان يؤذن بين يدي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عند المنبر، و قال محمد بن سعد عن الشعبيّ: كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثة مؤذنين، بلال و أبو محذورة و عمرو بن أمّ مكتوم، فإذا غاب بلال أذن أبو محذورة، و إذا غاب أبو محذورة أذن ابن أمّ مكتوم.

قلت: لعلّ هذا كان بمكة. و ذكر ابن سعد أنّ بلالا أذن بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأبي بكر رضي اللّه عنه، و أن عمر رضي اللّه عنه أراده أن يؤذن له فأبى عليه فقال له: إلى من ترى أن أجعل النداء؟ فقال: إلى سعد القرظ فإنه قد أذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فدعاه عمر رضي اللّه عنه فجعل النداء إليه و إلى عقبه من بعده، و قد ذكر أن سعد القرظ كان يؤذن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بقباء.

و ذكر أبو داود في «مراسيله» و الدار قطنيّ في «سننه»، قال بكير بن عبد اللّه الأشج:

كانت مساجد المدينة تسعة سوى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، كلهم يصلون بأذان بلال رضى اللّه عنه. و قد كان عند فتح مصر الأذان إنما هو بالمسجد الجامع المعروف بجامع عمرو، و به صلاة الناس بأسرهم، و كان من هدى الصحابة و التابعين رضى اللّه عنهم المحافظة على الجماعة و تشديد النكير على من تخلف عن صلاة الجماعة. قال أبو عمرو الكندى فى ذكر من عرّف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر، و كان أوّل من عرّف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادىّ، و هو من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و قد أذن لعمر بن الخطاب، سار إلى مصر مع عمرو بن العاص يؤذن له حتى افتتحت مصر، فأقام على الأذان و ضمّ إليه عمرو بن العاص تسعة رجال يؤذنون هو عاشرهم، و كان الأذان فى ولده حتى انقرضوا.

قال أبو الخير: حدّثنى أبو مسلم و كان مؤذنا لعمرو بن العاص، أن الأذان كان أوّله لا إله إلا اللّه، و آخره لا إله إلّا اللّه، و كان أبو مسلم يوصى بذلك حتى مات و يقول: هكذا كان الأذان. ثم عرّف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر و كانت له صحبة، و فى عرافته زاد مسلمة بن مخلد فى المسجد الجامع و جعل له المنار، و لم يكن قبل ذلك، و كان شرحبيل أوّل من رقى منارة مصر للأذان، و أن مسلمة بن مخلد اعتكف فى منارة الجامع، فسمع أصوات النواقيس عالية بالفسطاط فدعا شرحبيل بن عامر، فأخبره بما ساءه من ذلك. فقال شرحبيل: فإنى أمدّد بالأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر، فإنهم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت، فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان، و مدّد شرحبيل و مطط أكثر الليل إلى أن مات شرحبيل سنة خمس و ستين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۷

و ذكر عن عثمان رضى اللّه عنه أنه أوّل من رزق المؤذنين، فلما كثرت مساجد الخطبة أمر مسلمة بن مخلد الأنصارىّ فى إمارته على مصر ببناء المنار فى جميع المساجد خلا مساجد تجيب و خولان، فكانوا يؤذنون فى الجامع أوّلا فإذا فرغوا أذن كلّ مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد، فكان لأذانهم دوىّ شديد. و كان الأذان أوّلا بمصر كأذان أهل المدينة، و هو اللّه أكبر اللّه أكبر و باقيه كما هو اليوم، فلم يزل الأمر بمصر على ذلك فى جامع عمرو بالفسطاط، و فى جامع العسكر، و فى جامع أحمد بن طولون و بقية المساجد إلى أن قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين اللّه و بنى القاهرة، فلما كان فى يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و ثلاثمائة، صلّى القائد جوهر الجمعة فى جامع أحمد بن طولون، و خطب به عبد السميع بن عمر العباسىّ بقلنسوة و سبنى و طيلسان دبسىّ، و أذن المؤذنون حىّ على خير العمل، و هو أوّل ما أذن به بمصر، و صلّى به عبد السميع الجمعة فقرأ سورة الجمعة إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ و قنت فى الركعة الثانية و انحط إلى السجود و نسى الركوع، فصاح به علىّ بن الوليد قاضى عسكر جوهر بطلت الصلاة أعد ظهرا أربع ركعات، ثم أذن بحىّ على خير العمل فى سائر مساجد العسكر إلى حدود مسجد عبد اللّه، و أنكر جوهر على عبد السميع أنه لم يقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم فى كلّ سورة، و لا قرأها فى الخطبة، فأنكره جوهر و منعه من ذلك.

و لأربع بقين من جمادى الأولى المذكور، أذّن فى الجامع العتيق بحىّ على خير العمل، و جهروا فى الجامع بالبسملة فى الصلاة، فلم يزل الأمر على ذلك طول مدّة الخلفاء الفاطميين، إلّا أن الحاكم بأمر اللّه فى سنة أربعمائة أمر بجمع مؤذنى القصر و سائر الجوامع، و حضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقىّ، و قرأ أبو علىّ العباسىّ سجلا فيه الأمر بترك حىّ على خير العمل فى الأذان، و أن يقال فى صلاة الصبح الصلاة خير من النوم، و أن يكون ذلك من مؤذنى القصر عند قولهم السلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه، فامتثل ذلك. ثم عاد المؤذنون إلى قول حىّ على خير العمل فى ربيع الآخر سنة إحدى و أربعمائة، و منع فى سنة خمس و أربعمائة مؤذنى جامع القاهرة و مؤذنى القصر من قولهم بعد الأذان السلام على أمير المؤمنين، و أمرهم أن يقولوا بعد الأذان، الصلاة رحمك اللّه. و لهذا الفعل أصل. قال الواقدىّ: كان بلال رضى اللّه عنه يقف على باب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيقول: السلام عليك يا رسول اللّه، و ربما قال: السلام عليك بأبى أنت و أمى يا رسول اللّه، حىّ على الصلاة حىّ على الصلاة، السلام عليك يا رسول اللّه.

قال البلاذرىّ و قال غيره: كان يقول السلام عليك يا رسول اللّه و رحمة اللّه و بركاته، حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح، الصلاة يا رسول اللّه. فلما ولى أبو بكر رضى اللّه عنه الخلافة كان سعد القرظ يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول اللّه و رحمة

اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۸

و بركاته، حى على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة رسول اللّه. فلما استخلف عمر رضى اللّه عنه كان سعد يقف على بابه فيقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول اللّه و رحمة اللّه، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا خليفة خليفة رسول اللّه. فلما قال عمر رضى اللّه عنه للناس: أنتم المؤمنين و أنا أميركم. فدعى أمير المؤمنين، استطالة لقول القائل يا خليفة خليفة رسول اللّه، و لمن بعده خليفة خليفة رسول اللّه. كان المؤذن يقول:

السلام عليك أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، الصلاة يا أمير المؤمنين. ثم إن عمر رضى اللّه عنه أمر المؤذن فزاد فيها رحمك اللّه. و يقال أنّ عثمان رضى اللّه عنه زادها، و ما زال المؤذنون إذا أذنوا سلموا على الخلفاء و أمراء الأعمال، ثم يقيمون الصلاة بعد السلام، فيخرج الخليفة أو الأمير فيصلى بالناس. هكذا كان العمل مدّة أيام بنى أمية، ثم مدّة خلافة بنى العباس أيام كانت الخلفاء و أمراء الأعمال تصلى بالناس.

فلما استولى العجم و ترك خلفاء بنى العباس الصلاة بالناس، ترك ذلك كما ترك غيره من سنن الإسلام، و لم يكن أحد من الخلفاء الفاطميين يصلى بالناس الصلوات الخمس فى كل يوم، فسلم المؤذنون فى أيامهم على الخليفة بعد الأذان للفجر فوق المنارات، فلمّا انقضت أيامهم و غير السلطان صلاح الدين رسومهم لم يتجاسر المؤذنون على السلام عليه احتراما للخليفة العباسيّ ببغداد، فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و استمرّ ذلك قبل الأذان للفجر فى كلّ ليلة بمصر و الشام و الحجاز، و زيد فيه بأمر المحتسب صلاح الدين عبد اللّه البرلسيّ، الصلاة و السلام عليك يا رسول اللّه، و كان ذلك بعد سنة ستين و سبعمائة، فاستمرّ ذلك.

و لمّا تغلب أبو عليّ بن كتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجماليّ على رتبة الوزارة فى أيام الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله، فى سادس عشر ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سجن الحافظ و قيده و استولى على سائر ما فى القصر من الأموال و الذخائر، و حملها إلى دار الوزارة، و كان إماميا متشدّدا فى ذلك، خالف ما عليه الدولة من مذهب الإسماعيلية، و أظهر الدعاء للإمام المنتظر، و أزال من الأذان حيّ على خير العمل، و قولهم محمد و عليّ خير البشر، و أسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الذى تنتسب إليه الإسماعيلية، فلما قتل فى سادس عشر المحرّم سنة ست و عشرين و خمسمائة، عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ و أعيد إلى الأذان ما كان أسقط منه.

و أوّل من قال فى الأذان بالليل محمد و عليّ خير البشر، الحسين المعروف بأمير كابن شكنبه، و يقال أشكنبه، و هو اسم أعجميّ معناه الكرش، و هو عليّ بن محمد بن عليّ بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۹

إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بن أبى طالب، و كان أوّل تأذينه بذلك فى أيام سيف الدولة بن حمدان بحلب فى سنة سبع و أربعين و ثلاثمائة. قاله الشريف محمد بن أسعد الجوّانيّ النسابة، و لم يزل الأذان بحلب يزاد فيه حيّ على خير العمل، و محمد و عليّ خير البشر إلى أيام نور الدين محمود. فلما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية، استدعى أبا الحسن عليّ بن الحسن بن محمد البلخيّ الحنفيّ إليها، فجاء و معه جماعة من الفقهاء و ألقى بها الدروس، فلما سمع الأذان أمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان و قال لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع، و من امتنع كبوه على رأسه. فصعدوا و فعلوا ما أمرهم به، و استمرّ الأمر على ذلك.

و أمّا مصر فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بسلطنة ديار مصر، و أزال الدولة الفاطمية فى سنة سبع و ستين و خمسمائة، و كان ينتحل مذهب الإمام الشافعيّ رضى اللّه عنه، و عقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه اللّه، فأبطل من الأذان قول حيّ على خير العمل، و صار يؤذن فى سائر إقليم مصر و الشام بأذان أهل مكة، و فيه تربيع التكبير و

ترجيع الشهادتين، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى أن بنت الأتراك المدارس بديار مصر و انتشر مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه فى مصر، فصار يؤذن فى بعض المدارس التى للحنيفة بأذان أهل الكوفة، و تقام الصلاة أيضا على رأيهم، و ما عدا ذلك فعلى ما قلنا، إلّا أنه فى ليلة الجمعة إذا فرغ المؤذنون من التأذين سلموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو شىء أحدثه محتسب القاهرة صلاح الدين عبد اللّه بن عبد اللّه البرلسىّ بعد سنة ستين و سبعمائة، فاستمرّ إلى أن كان فى شعبان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و متولى الأمر بديار مصر الأمير منطاش، القائم بدولة الملك الصالح المنصور، أمير حاج المعروف بحاجى بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون. فسمع بعض الفقراء الخلاطين سلام المؤذنين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى ليلة جمعة، و قد استحسن ذلك طائفة من إخوانه فقال لهم: أ تحبون أن يكون هذا السلام فى كلّ أذان؟ قالوا: نعم. فبات تلك الليلة و أصبح متواجدا يزعم أنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى منامه، و أنه أمره أن يذهب إلى المحتسب فيبلغه عنه أن يأمر المؤذنين بالسلام على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كلّ أذان، فمضى إلى محتسب القاهرة و هو يومئذ نجم الدين محمد الطنبدىّ و كان شيخا جهولا و بلهانا مهولا سىء السيرة فى الحسبة و القضاء، متهافتا على الدرهم و لو قاده إلى البلاء، لا يحتشم من أخذ البرطيل و الرشوة، و لا يراعى فى مؤمن إلّا و لا ذمّة قد ضرى على الآثام، و تجسد من أكل الحرام، يرى أن العلم إرخاء العذبة و لبس الجبة، و يحسب أنّ رضى اللّه سبحانه فى ضرب العباد بالدرة و ولاية الحسبة، لم تحمد الناس قط أياديه، و لا شكرت أبدا مساعيه، بل جهالاته شائعة و قبائح أفعاله ذائعة، أشخص غير مرّة إلى مجلس المظالم، و أوقف مع من أوقف للمحاكمة بين يدى السلطان من أجل عيوب فوادح، حقق فيها شكاته عليه القوادح، و ما زال فى السيرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۰

مذموما و من العامّة و الخاصة ملوما. و قال له: رسول اللّه يأمرك أن تتقدّم لسائر المؤذنين بأن يزيدوا فى كل أذان قولهم الصلاة و السلام عليك يا رسول اللّه، كما يفعل فى ليالى الجمع، فأعجب الجاهل هذا القول، و جهل أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لا يأمر بعد وفاته إلّا بما يوافق ما شرّعه اللّه على لسانه فى حياته، و قد نهى اللّه سبحانه و تعالى فى كتابه العزيز عن الزيادة فيما شرعه حيث يقول: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ [الشورى/ ۲۱] و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «إياكم و محدثات الأمور» فأمر بذلك فى شعبان من السنة المذكورة، و تمت هذه البدعة و استمرّت إلى يومنا هذا فى جميع ديار مصر و بلاد الشام، و صارت العامّة و أهل الجهالة ترى أن ذلك من جملة الأذان الذى لا يحلّ تركه، و أدّى ذلك إلى أن زاد بعض أهل الإلحاد فى الأذان ببعض القرى السلام بعد الأذان على شخص من المعتقدين الذين ماتوا، فلا حول و لا قوّة إلّا باللّه، و إنّا للّه و إنّا إليه راجعون.

و أما التسبيح فى الليل على المآذن، فإنه لم يكن من فعل سلف الأمّة، و أوّل ما عرف من ذلك أن موسى بن عمران صلوات اللّه عليه، لما كان ببنى إسرائيل فى التيه بعد غرق فرعون و قومه، اتخذ بوقين من فضة مع رجلين من بنى إسرائيل، ينفخان فيهما وقت الرحيل و وقت النزول، و فى أيام الأعياد، و عند ثلث الليل الأخير من كلّ ليلة، فتقوم عند ذلك طائفة من بنى لاوى سبط موسى عليه السّلام و يقولون نشيدا منزلا بالوحى، فيه تخويف و تحذير و تعظيم للّه تعالى، و تنزيله له تعالى، إلى وقت طلوع الفجر، و استمر الحال على هذا كلّ ليلة مدّة حياة موسى عليه السّلام، و بعده أيام يوشع بن نون، و من قام فى بنى إسرائيل من القضاة إلى أن قام بأمرهم داود عليه السّلام و شرع فى عمارة بيت المقدس، فرتّب فى كلّ ليلة عدّة من بنى لاوى يقومون عند ثلث الليل الآخر، فمنهم من يضرب بالآلات كالعود و السطير و البربط و الدف و المزمار. و نحو ذلك، و منهم من يرفع عقيرته بالنشائد المنزلة بالوحى على نبىّ اللّه موسى عليه السّلام، و النشائد المنزلة بالوحى على داود عليه السّلام. و يقال أنّ عدد بنى لاوى هذا كان ثمانين و ثلاثين ألف رجل، قد ذكر تفصيلهم فى كتاب الزبور، فإذا قام هؤلاء ببيت المقدس، قام فى كلّ محلة من محال بيت المقدس رجال يرفعون أصواتهم بذكر اللّه سبحانه من غير آلات، فإنّ الآلات كانت مما يختص ببيت المقدس فقط، و قد نهوا عن ضربها فى غير البيت، فيتسامع من قرية بيت المقدس، فيقوم فى كلّ قرية رجال يرفعون أصواتهم بذكر اللّه تعالى حتى يهمّ الصوت بالذكر جميع قرى بنى إسرائيل و مدنهم، و ما

زال الأمر على ذلك فى كلّ ليلة إلى أن خرّب بخت نصر بيت المقدس و جلا بنى إسرائيل إلى بابل، فبطل هذا العمل و غيره من بلاد بنى إسرائيل مدّة جلائهم فى بابل سبعين سنة، فلما اعاد بنو إسرائيل من بابل و عمروا البيت العمارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۱

الثانية، أقاموا شرائعهم و عاد قيام بنى لاوى بالبيت فى الليل، و قيام أهل محال القدس و أهل القرى و المدن على ما كان العمل عليه أيام عمارة البيت الأولى، و استمرّ ذلك إلى أن خرب القدس بعد قتل نبىّ اللّه يحيى بن زكريا، و قيام اليهود على روح اللّه و رسوله عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليهم على يد طيطش، فبطلت شرائع بنى إسرائيل من حينئذ و بطل هذا القيام فيما بطل من بلاد بنى إسرائيل.

و أما فى الملة الإسلامية فكان ابتداء هذا العمل بمصر، و سببه أن مسلمة بن مخلد أمير مصر بنى منارا لجامع عمرو بن العاص، و اعتكف فيه فسمع أصوات النواقيس عالية، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر عريف المؤذنين فقال: إنى أمدّد الأذان من نصف الليل إلى قرب الفجر، فإنههم أيها الأمير أن ينقسوا إذا أذنت. فنهاهم مسلمة عن ضرب النواقيس وقت الأذان، و مدّد شرحبيل و مطط أكثر الليل، ثم إن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون كان قد جعل فى حجرة تقرب منه رجالا تعرف بالمكبرين، عدّتهم اثنا عشر رجلا، يبيت فى هذه الحجرة كلّ ليلة أربعة يجعلون الليل بينهم عقبا، فكانوا يكبرون و يسبحون و يحمدون اللّه سبحانه فى كلّ وقت و يقرءون القرآن بألحان، و يتوسلون و يقولون قصائد زهية، و يؤذنون فى أوقات الأذان، و جعل لهم أرزاقا واسعة تجرى عليهم. فلما مات أحمد بن طولون و قام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، أقرّهم بحالهم و أجراهم على رسمهم مع أبيه، و من حينئذ اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن، و صار يعرف ذلك بالتسبيح. فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر و ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدبانىّ المارانىّ الشافعىّ، كان من رأيه و رأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرىّ فى الأصول، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده، حتى يكفّر من خالفه، و تقدّم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كلّ ليلة بسائر جوامع مصر و القاهرة إلى وقتنا هذا. و مما أحدث أيضا، التذكير فى يوم الجمعة من أثناء النهار بأنواع من الذكر على المآذن، ليتهيأ الناس لصلاة الجمعة، و كان ذلك بعد السبعمائة من سنى الهجرة. قال ابن كثير رحمه اللّه فى يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة أربع و أربعين و سبعمائة، رسم بأن يذكر بالصلاة يوم الجمعة فى سائر مآذن دمشق كما يذكر فى مآذن الجامع الأموىّ، ففعل ذلك.

الجامع الأزهر

هذا الجامع أوّل مسجد أسس بالقاهرة، و الذى أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلىّ، مولى الإمام أبى تميم معدّ الخليفة أمير المؤمنين المعز لدين اللّه لما اختط القاهرة، و شرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۲

و ثلاثمائة، و كمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة و جمع فيه، و كتب بدائر القبة التى فى الرواق الأوّل، و هى على يمنة المحراب و المنبر، ما نصه بعد البسملة: مما أمر ببنائه عبد اللّه و وليه أبو تميم معدّ الإمام المعز لدين اللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه و على آبائه و أبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلىّ، و ذلك فى سنة ستين و ثلاثمائة. و أوّل جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون منه سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة. ثم إن العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز لدين اللّه جدّد فيه أشياء، و فى سنة ثمان و سبعين و ثلاثمائة سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز بالله فى صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأطلق لهم ما يكفى كلّ واحد منهم من الرزق الناض، و أمر لهم بشراء دار و بنائها، فبنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع و تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلّى العصر، و كان لهم أيضا من مال الوزير صلة

فى كلّ سنة، و كانت عدتهم خمسة و ثلاثين رجلا، و خلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر، و حملهم على بغلات. و يقال أنّ بهذا الجامع طلسما، فلا يسكنه عصفور، و لا يفرّخ به، و كذا سائر الطيور من الحمام و اليمام و غيره، و هو صورة ثلاثة طيور منقوشة، كلّ صورة على رأس عمود، فمنها صورتان فى مقدّم الجامع بالرواق الخامس، منهما صورة فى الجهة الغربية فى العمود، و صورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدّة المؤذنين، و الصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية، ثم إن الحاكم بأمر اللّه جدّده و وقف على الجامع الأزهر و جامع المقس و الجامع الحاكمىّ و دار العلم بالقاهرة رباعا بمصر، و ضمّن ذلك كتابا نسخته: هذا كتاب، أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقىّ، على جميع ما نسب إليه مما ذكر و وصف فيه، من حضر من الشهود فى مجلس حكمه و قضائه بفسطاط مصر، فى شهر رمضان سنة أربعمائة، أشهدهم و هو يومئذ قاضى، عبد اللّه و وليه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر اللّه المؤمنين بن الإمام العزيز باللّه صلوات اللّه عليهما على القاهرة المعزية و مصر و الإسكندرية و الحرمين حرسهما اللّه، و أجناد الشام و الرقة و الرحبة و نواحى المغرب، و سائر أعمالهنّ و ما فتحه اللّه و يفتحه لأمير المؤمنين من بلاد الشرق و الغرب، بمحضر رجل متكلم أنّه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة، و الحصص الشائعة، التى يذكر جميع ذلك، و يحدد فى هذا الكتاب، و أنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة، و الجامع بالمقس، اللذين أمر بإنشائهما و تأسيس بنائهما، و على دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها، و الكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب، و منها ما يخص الجامع الأزهر و الجامع براشدة و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة. مشاعا، جميع ذلك غير مقسوم، و منها ما يخص الجامع بالمقس، على شرائط يجرى ذكرها، فمن ذلك ما تصدّق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة، و الجامع براشدة، و دار الحكمة بالقاهرة المحروسة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۳

جميع الدار المعروفة بدار الضرب، و جميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف، و جميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة، الذى كله بفسطاط مصر، و من ذلك ما تصدّق به على جامع المقس، جميع أربعة الحوانيت و المنازل التى علوها و المخزنين الذى ذلك كله بفسطاط مصر بالراية فى جانب المغرب من الدار المعروفة كانت بدار الخرق، و هاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار، و من ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية، أيضا بالموضع المعروف بحمام الفار، و تعرف هذه الحوانيت بحصص القيسىّ، بحدود ذلك كله، و أرضه و بنائه و سفله و علوه و غرفه و مرتفقاته و حوانيته و ساحاته و طرقه و ممرّاته و مجارى مياهه، و كل حق هو له داخل فيه و خارج عنه، و جعل ذلك كله صدقة موقوفة محرّمة محبسة بتة بتلة، لا يجوز بيعها و لا هبتها و لا تمليكها، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب، لا يوهنها تقادم السنين، و لا تغير بحدوث حدث، و لا يستثنى فيها و لا يتأوّل، و لا يستفتى بتجدّد تحبيسها مدى الأوقات، و تستمرّ شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث اللّه الأرض و السماوات، على أن يؤجر ذلك فى كلّ عصر من ينتهى إليه ولايتها و يرجع إليه أمرها، بعد مراقبة اللّه و اجتلاب ما يوفر منفعتها من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها، فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة و بقاء العين و مرمّته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه.

و ما فضل كان مقصوما على ستين سهما فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد، الخمس، و الثمن، و نصف السدس، و نصف التسع، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له و مصلحة، و هو من العين المعزىّ الوازن ألف دينار واحدة و سبعة و ستون دينارا و نصف دينار و ثمن دينار، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة و ثمانون دينارا، و من ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانيّة تكون عدّة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك، و من ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كلّ سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة و ثمانية دنانير، و من ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج و فراخها اثنا عشر دينارا و نصف و ربع دينار، و من ذلك لثمن عود هندىّ للبخور فى شهر رمضان و أيام الجمع مع ثمن الكافور و المسك، و أجرة

الصانع خمسة عشر دينارا، و من ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفليّ سبعة دنانير، و من ذلك لكنس هذا الجامع و نقل التراب و خياطة الحصر و ثمن الخيط و أجرة الخياطة خمسة دنانير، و من ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة و عشرين رطلا بالرطل الفلفليّ دينار واحد، و من ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفليّ نصف دينار، و من ذلك لثمن أردبين ملحقا للقناديل ربع دينار، و من ذلك ما قدّر لمؤنة النحاس و السلاسل و التنانير و القباب التى فوق سطح الجامع أربعة و عشرون دينارا، و من ذلك لثمن سلب ليف و أربعة أحبل و ست دلاء أدم نصف دينار، و من ذلك لثمن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۴

قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار، و من ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة و عشرة أرطال قنب لتعليق القناديل و لثمن مائتين مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد و ربع دينار، و من ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع و يصبّ فيها الماء مع الجرة حملها ثلاثة دنانير، و من ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل و مائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة و ثلاثون دينارا و نصف، و من ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة و هم ثلاثة و أربعة قومة و مسة عشر مؤذنا خمسمائة دينار و ستة و خمسون دينارا و نصف، منها للمصلين لكلّ رجل منهم ديناران و ثلثا دينار و ثمن دينار فى كلّ شهر من شهور السنة، و المؤذنون و القومة لكلّ رجل منهم ديناران فى كلّ شهر، و من ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كلّ سنة أربعة و عشرون دينارا، و من ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع و نقل ما يخرج منه من الطين و الوسخ دينار واحد، و من ذلك لمرمّة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه و أترابه و حياطته و غير ذلك مما قدّر لكلّ سنة ستون دينارا، و من ذلك لثمن مائة و ثمانين حمل تبن و نصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير و نصف و ثلث دينار، و من ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير، و من ذلك لثمن فدّانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى النة سبعة دنانير، و من ذلك لأجرة متولى العلف و أجرة السقاء و الحبال و القواديس و ما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينارا و نصف، و من ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر دينارا. و إلى هنا انقضى حديث الجامع الأزهر، و أخذ فى ذكر جامع راشدة و دار العلم و جامع المقس، ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير، و تسعة و ثلاثون قنديلا فضة، فللجامع الأزهر تنوران و سبعة و عشرون قنديلا، و منها لجامع راشدة تنور و اثنا عشر قنديلا، و شرط أن تعلق فى شهر رمضان و تعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به، و شرط شروطا كثيرة فى الأوقاف منها: أنه إذا فضل شىء و اجتمع يشترى به ملك، فإن عاز شيئا و استهدم و لم يف الريع بعمارته بيع و عمر به، و أشياء كثيرة، و حبس فيه أيضا عدّة آدر و قياسر لا فائدة فى ذكرها، فإنها مما خربت بمصر.

قال ابن عبد الظاهر عن هذا الكتاب: و رأيت منه نسخة، و انتقلت إلى قاضى القضاة تقىّ الدين بن رزين، و كان بصدر هذا الجامع فى محرابه منطقة فضة، كما كان فى محراب جامع عمرو بن العاص بمصر، قلع ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب فى حادى عشر ربيع الأوّل سنة تسع و ستين و خمسمائة، لأنه كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نقرة، و قلع أيضا المناطق من بقية الجوامع. ثم أن المستنصر جدّد هذا الجامع أيضا، و جدّده الحافظ لدين اللّه، و أنشأ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربىّ الذى فى مقدّم الجامع بداخل الرواقات، عرفت بمقصورة فاطمة، من أجل أن فاطمة الزهراء رضى اللّه تعالى عنها رؤيت بها فى المنام، ثم أنه جدّد فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۵

قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى كتاب سيرة الملك الظاهر: لما كان يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الأوّل سنة خمس و ستين و ستمائة، أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة، و سبب ذلك أن الأمير عز الدين أيدمر الحلىّ كان جار هذا الجامع من مدّة سنين، فرعى وفقه اللّه حرمة الجار، و رأى أن يكون كما هو جاره فى دار الدنيا، أنه غدا يكون ثوابه جاره فى تلك الدار، و رسم بالنظر فى أمره و انتزع له أشياء مغصوبة كان شىء منها فى أيدى جماعة، و حاط أموره حتى جمع له شيئا صالحا، و جرى الحديث فى

ذلك، فتبرّع الأمير عز الدين له بجملة مستكثرة من المال الجزيل، و أطلق له من السلطان جملة من المال، و شرع فى عمارته فعمّر الواهى من أركانه و جدرانه و بيّضه و أصلح سقوفه و بلطه و فرشه و كساه، حتى عاد حرما فى وسط المدينة، و استجدّ به مقصورة حسنة، و آثر فيه آثارا صالحة يثيبه اللّه عليها، و عمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رحمه اللّه، و رتب فى هذه المقصورة محدّثا يسمع الحديث النبوىّ و الرقائق، و وقف على ذلك الأوقاف الدارّ، و رتب به سبعة لقراءة القرآن، و رتب به مدرّسا أثابه اللّه على ذلك. و لما تكمّل تجديده تحدّث فى إقامة جمعة فيه، فنودى فى المدينة بذلك، و استخدم له الفقيه زين الدين خطيبا، و أقيمت الجمعة فيه فى اليوم المذكور، و حضر الأتابك فارس الدين، و الصاحب بها الدين علىّ بن حنا، و ولده الصاحب فخر الدين محمد، و جماعة من الأمراء و الكبراء، و أصناف العالم على اختلافهم، و كان يوم جمعة مشهودا، و لما فرغ من الجمعة جلس الأمير عز الدين الحلىّ و الأتابك و الصاحب و قرىء القرآن و دعى للسلطان، و قام الأمير عز الدين و دخل إلى داره و دخل معه الأمراء، فقدّم لهم كلّ ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين، و انفصلوا، و كان قد جرى الحديث فى أمر جواز الجمعة فى الجامع و ما ورد فيه. من أقاويل العلماء، و كتب فيها فتيا أخذ فيها خطوط العلماء بجواز الجمعة فى هذا الجامع و إقامتها، فكتب جماعة خطوطهم فيها، و أقيمت صلاة الجمعة به و استمرّت، و وجد الناس به رفقا و راحة لقربه من الحارات البعيدة من الجامع الحاكمىّ.

قال و كان سقف هذا الجامع قد بنى قصيرا فزيد فيه بعد ذلك و على ذراعا، و استمرّت الخطبة فيه حتى بنى الجامع الحاكمىّ، فانتقلت الخطبة إليه، فإن الخليفة كان يخطب فيه خطبة و فى الجامع الأزهر خطبة، و فى جامع ابن طولون خطبة، و فى جامع مصر خطبة، و انقطعت الخطبة من الجامع الأزهر لما استبدّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالسلطنة، فإنه قلد وظيفة القضاء لقاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، و هو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة فى بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعىّ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر و أقرّ الخطبة بالجامع الحاكمىّ من أجل أنه أوسع. فلم يزل الجامع الأزهر معطلا من إقامة الجمعة فيه مائة عام، من حين استولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۶

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى أن أعيدت الخطبة فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم ذكره. ثم لما كانت الزلزلة بديار مصر فى ذى الحجة سنة اثنتين و سبعمائة، سقط الجامع الأزهر و الجامع الحاكمىّ و جامع مصر و غيره، فتقاسم أمراء الدولة عمارة الجوامع، فتولى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عمارة الجامع الحاكمىّ، و تولى الأمير سلار عمارة الجامع الأزهر، و تولى الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار عمارة جامع الصالح، فجدّدوا مبانيها و أعادوا ما تهدّم منها. ثم جدّدت عمارة الجامع الأزهر على يد القاضى نجم الدين محمد بن حسين بن علىّ الأسعردىّ، محتسب القاهرة، فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة. ثم جدّدت عمارته فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، عند ما سكن الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرىّ، فى دار الأمير فخر الدين أبان الزاهدىّ الصالحىّ النجمىّ بخط الأبارين بجوار الجامع الأزهر، بعد ما هدمها و عمرها داره التى تعرف هناك إلى اليوم بدار بشير الجامدار، فأحب لقربه من الجامع أن يؤثر فيه أثرا صالحا، فاستأذن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى عمارة الجامع، و كان أثيرا عنده خصيصا به، فأذن له فى ذلك.

و كان قد استجدّ بالجامع عدّة مقاصير و وضعت فيه صناديق و خزائن حتى ضيقته، فأخرج الخزائن و الصناديق و نزع تلك المقاصير، و تتبع جدرانه و سقوفه بالإصلاح حتى عادت كأنها جديدة، و بيّض الجامع كله و بلطه، و منع الناس من المرور فيه، و رتب فيه مصحفا و جعل له قارئا، و أنشأ على باب الجامع القبلىّ حانوتا لتسبيل الماء العذب فى كلّ يوم، و عمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه العزيز، و رتب للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كلّ يوم، و أنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه، و رتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرّسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير، و وقف على ذلك أوقافا جليلة باقية إلى يومنا هذا، و مؤذنو

الجامع يدعون فى كلّ جمعة و بعد كلّ صلاة للسلطان حسن إلى هذا الوقت الذى نحن فيه.

و فى سنة أربع و ثمانين و سبعمائة ولى الأمير الطواشى بهادر المقدّم على المماليك السلطانية نظر الجامع الأزهر، فتنجز مرسوم السلطان الملك الظاهر برقوق بأنّ من مات من مجاورى الجامع الأزهر عن غير وارث شرعىّ و ترك موجودا فإنه يأخذه المجاورون بالجامع، و نقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحرىّ. و فى سنة ثمانمائة هدمت منارة الجامع، و كانت قصيرة، و عمّرت أطول منها، فبلغت النفقة عليها من مال السلطان خمسة عشر ألف درهم نقرة، و كملت فى ربيع الآخر من السنة المذكورة، فعلّقت القناديل فيها ليلة الجمعة من هذا الشهر، و أوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، و اجتمع القرّاء و الوعاظ بالجامع و تلوا ختمة شريفة، و دعوا للسلطان فلم تزل هذه المئذنة إلى شوّال سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فهدمت لميل ظهر فيها، و عمل بدلها منارة من حجر على باب الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۷

البحرىّ، بعد ما هدم الباب و أعيد بناؤه بالحجر، و ركبت المنارة فوق عقده، و أخذ الحجر لها من مدرسة الملك الأشرف خليل التى كانت تجاه قلعة الجبل، و هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق، و قام بعمارة ذلك الأمير تاج الدين التاج الشوبكىّ والى القاهرة و محتسبها، إلى أن تمت فى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، فلم تقم غير قليل و مالت حتى كادت تسقط، فهدمت فى صفر سنة سبع و عشرين، و أعيدت. و فى شوّال منها ابتدئ بعمل الصهريج الذى بوسط الجامع، فوجد هناك آثار فسقية ماء، و وجد أيضا رمم أموات، و تمّ بناؤه فى ربيع الأوّل، و عمل بأعلاه مكان مرتفع له قبة يسبل فيه الماء، و غرس بصحن الجامع أربع شجرات، فلم تفلح و ماتت، و لم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بنى، ثم عملت ميضأته حيث المدرسة الأقبغاوية إلى أن بنى الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسته المعروفة بالمدرسة الأقبغاوية هناك، و أما هذه الميضأة التى بالجامع الآن فإن الأمير بدر الدين جنكل بن البابا بناها، ثم زيد فيها بعد سنة عشر و ثمانمائة ميضأة المدرسة الأقبغاوية.

و فى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة ولى نظر هذا الجامع الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب، فجرت فى أيام نظره حوادث لم يتفق مثلها، و ذلك أنه لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدّة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، و بلغت عدّتهم فى هذه الأيام سبعمائة و خمسين رجلا ما بين عجم و زيالعة، و من أهل ريف مصر و مغاربة، و لكلّ طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرا بتلاوة القرآن و دراسته و تلقينه و الاشتغال بأنواع العلوم الفقه و الحديث و التفسير و النحو، و مجالس الوعظ و حلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الإنس بالله و الارتياح و ترويح النفس ما لا يجده فى غيره، و صار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البرّ من الذهب و الفضة و الفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة اللّه تعالى، و كلّ قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة و الخبز و الحلاوات، لا سيما فى المواسم. فأمر فى جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين من الجامع و منعهم من الإقامة فيه، و إخراج ما كان لهم فيه من صناديق و خزائن و كراسى المصاحف، زعما منه أن هذا العمل مما يثاب عليه، و ما كان إلّا من أعظم الذنوب و أكثرها ضررا، فإنه حلّ بالفقراء بلاء كبير من تشتت شملهم و تعذر الأماكن عليهم، فساروا فى القرى و تبذلوا بعد الصيانة، و فقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن و دراسة العلم و ذكر اللّه، ثم لم يرضه ذلك حتى زاد فى التعدّى، و أشاع أن أناسا يبيتون بالجامع و يفعلون فيه منكرات، و كانت العادة قد جرت بمبيت كثير من الناس فى الجامع ما بين تاجر و فقيه و جندىّ و غيرهم، منهم من يقصد بمبيته البركة، و منهم من لا يجد مكانا يأويه، و منهم من يستروح بمبيته هناك خصوصا فى ليالى الصيف و ليالى شهر رمضان، فإنه يمتلئ صحنه و أكثر رواقاته. فلما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من جمادى الآخرة، طرق الأمير سودوب الجامع بعد العشاء الآخرة و الوقت صيف، و قبض على جماعة و ضربهم فى الجامع، و كان قد جاء معه من الأعوان و الغلمان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۸

و غوغاء العامّة و من يريد النهب جماعة، فحلّ بمن كان فى الجامع أنواع البلاء، و وقع فيهم النهب، فأخذت فرشهم و عمائمهم، و

فتشت أوساطهم و سلبوا ما كان مربوطا عليها من ذهب و فضة، و عمل ثوبا أسود للمنبر و علمين مزوّقين، بلغت النفقة على ذلك خمسة عشر ألف درهم، على ما بلغنى، فعاجل اللّه الأمير سودوب و قبض عليه السلطان فى شهر رمضان و سجنه بدمشق.

جامع الحاكم

هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح، أحد أبواب القاهرة، و أوّل من أسسه أمير المؤمنين العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه معدّ، و خطب فيه و صلّى بالناس الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر اللّه. فما وسّع أمير الجيوش بدر الجمالىّ القاهرة و جعل أبوابها حيث هى اليوم، صار جامع الحاكم داخل القاهرة، و كان يعرف أوّلا بجامع الخطبة، و يعرف اليوم بجامع الحاكم، و يقال له الجامع الأنور.

قال الأمير مختار عز الملك محمد بن عبيد اللّه بن أحمد المسبحىّ فى تاريخ مصر:

و فيه يعنى شهر رمضان، سنة ثمانين و ثلاثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة مما يلى باب الفتوح من خارجه، و بدىء بالبناء فيه، و تحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون فى جامع القاهرة، يعنى الجامع الأزهر، و خطب فيه العزيز بالله. و قال فى حوادث سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة لأربع خلون من شهر رمضان، صلّى العزيز بالله فى جامعه صلاة الجمعة، و خطب، و كان فى مسيره بين يديه أكثر من ثلاثة آلاف، و عليه طيلسان و بيده القضيب، و فى رجله الحذاء. و ركب لصلاة الجمعة فى رمضان سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة إلى جامعه و معه ابنه منصور، فجعلت المظلة على منصور و سار العزيز بغير مظلة.

و قال فى حوادث سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة: و أمر الحاكم بأمر اللّه أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كلس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح، فقدّر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، فابتدىء فى العمل فيه. و فى صفر سنة إحدى و أربعمائة زيد فى منارة جامع باب الفتوح، و عمل لها أركان طول كلّ ركن مائة ذراع، و فى سنة ثلاث و أربعمائة أمر الحاكم بأمر اللّه بعمل تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من الحصر و القناديل و السلاسل، فكان تكسير ما ذرع للحصر ستة و ثلاثين ألف ذراع، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار.

قال: و تمّ بناء الجامع الجديد بباب الفتوح، و علّق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له، و علّق فيه تنانير فضة عدّتها أربع، و كثير من قناديل فضة، و فرش جميعه بالحصر التى عملت له، و نصب فيه المنبر و تكامل فرشه و تعليقه، و أذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث و أربعمائة لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا إليه، فمضوا. و صار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۵۹

الناس طول ليلتهم يمشون من كلّ واحد من الجامعين إلى الآخر بغير مانع لهم، و لا اعتراض من أحد من عسس القصر، و لا أصحاب الطوف إلى الصبح. و صلّى فيه الحاكم بأمر اللّه بالناس صلاة الجمعة، و هى أوّل صلاة أقيمت فيه بعد فراغه. و فى ذى القعدة سنة أربع و أربعمائة حبس الحاكم عدّة قياسر و أملاك على الجامع الحاكمىّ بباب الفتوح. قال ابن عبد الظاهر: و على باب الجامع الحاكمىّ مكتوب أنّه أمر بعمله الحاكم أبو علىّ المنصور فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة، و على منبره مكتوب أنه أمر بعمل هذا المنبر للجامع الحاكمىّ المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ثلاث و أربعمائة، و رأيت فى سيرة الحاكم، و فى يوم الجمعة أقيمت الجمعة فى الجامع الذى كان الوزير أنشأه بباب الفتوح. و رأيت فى سيرة الوزير المذكور، فى يوم الأحد عاشر رمضان سنة تسع و سبعين و ثلاثمائة خط أساس الجامع الجديد بالقاهرة خارج الطابية مما يلى باب الفتوح. قال: و كان هذا الجامع خارج القاهرة، فجدّد بعد ذلك باب الفتوح، و على البدنة التى تجاور باب الفتوح و بعض البرج مكتوب: إنّ ذلك بنى سنة ثلاثين و أربعمائة فى زمن المستنصر بالله، و وزارة أمير الجيوش، فيكون بينهما سبع و ثمانون سنة. قال: و الفسقية وسط الجامع بناها الصاحب عبد اللّه بن علىّ بن شكر و أجرى الماء إليها، و أزالها القاضى تاج الدين بن شكر، و هو قاضى القضاة فى سنة ستين و ستمائة، و الزيادة التى إلى جانبه قيل إنها بناء ولده الظاهر علىّ و لم يكملها، و كان قد حبس فيها الفرنج فعملوا فيها كنائس، هدمها الملك الناصر صلاح الدين، و

كان قد تغلب عليها و بنيت إصطبلات. و بلغنى أنها كانت فى الأيام المتقدّمة قد جعلت أهراء للغلال.

فلما كان فى الأيام الصالحيۀ و وزارة معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ للملك الصالح أيوب ولد الكامل، ثبت عند الحاكم أنها من الجامع، و أن بها محرابا، فانتزعت و أخرج الخيل منها و بنى فيها ما هو الآن فى الأيام المعزيۀ على يد الركن الصيرفىّ، و لم يسقف. ثم جدّد هذا الجامع فى سنۀ ثلاث و سبعمائۀ. و ذلك أنه لما كان يوم الخميس ثالث عشرى ذى الحجۀ سنۀ اثنتين و سبعمائۀ، تزلزلت أرض مصر و القاهرة و أعمالهما و رجل كلّ ما عليهما و اهتز، و سمع للحيطان قعقعۀ، و للسقوف قرقعۀ، و مارت الأرض بما عليها و خرجت عن مكانها، و تخيل الناس أن السماء قد انطبقت على الأرض، فهربوا من أماكنهم و خرجوا عن مساكنهم، و برزت النساء حاسرات، و كثر الصراخ و العويل، و انتشرت الخلائق فلم يقدر أحد على السكون و القرار لكثرة ما سقط من الحيطان، و خرّ من السقوف و المآذن و غير ذلك من الأبنيۀ، و فاض ماء النيل فيضا غير المعتاد، و ألقى ما كان عليه من المراكب التى بالساحل قدر رميۀ سهم، و انحسر عنها فصارت على الأرض بغير ماء، و اجتمع العالم فى الصحراء خارج القاهرة و باتوا ظاهر باب البحر بحرمهم و أولادهم فى الخيم، و خلت المدينۀ و تشعثت جميع البيوت حتى لم يسلم و لا بيت من سقوط أو تسقط أو ميل، و قام الناس فى الجوامع يبتهلون و يسألون اللّه سبحانه طول يوم الخميس و ليلۀ الجمعۀ و يوم الجمعۀ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۰

فكان مما تهدّم فى هذه الزلزلۀ: الجامع الحاكمىّ، فإنه سقط كثير من البدنات التى فيه، و خرب أعالى المئذنتين، و تشعثت سقوفه و جدرانه، فانتدب لذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير و نزل إليه و معه القضاة و الأمراء، فكشفه بنفسه و أمر برمّ ما تهدّم منه، و إعادة ما سقط من البدنات. فأعيدت و فى كلّ بدنۀ منها طاق، و أقام سقوف الجامع و بيّضه حتى عاد جديدا، و جعل له عدّة أوقاف بناحيۀ الجيزة و فى الصعيد و فى الإسكندريۀ، تغلّ كلّ سنۀ شيئا كثيرا، و رتب فيه دروسا أربعۀ لإقراء الفقه على مذاهب الأئمۀ الأربعۀ، و درسا لإقراء الحديث النبوىّ، و جعل لكل درس مدرّسا و عدة كثيرة من الطلبۀ، فرتّب فى تدريس الشافعيۀ قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعۀ الشافعىّ، و فى تدريس الحنفيۀ قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجىّ الحنفىّ، و فى تدريس المالكيۀ قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، و فى تدريس الحنابلۀ قاضى القضاة شرف الدين الجوّانىّ، و فى درس الحديث الشيخ سعد الدين مسعودا الحارثىّ، و فى درس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان، و فى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفىّ، و فى التصدير لإفادة العلوم علاء الدين علىّ بن إسماعيل القونوىّ، و فى مشيخۀ الميعاد المجد عيسى بن الخشاب، و عمل فيه خزانۀ كتب جليلۀ، و جعل فيه عدّة متصدّرين لتلقين القرآن الكريم، و عدّة قرّاء يتناوبون قراءة القرآن، و معلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و حفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ فى كل سنۀ من ماء النيل، و يسبل منه الماء فى كلّ يوم و يستقى منه الناس يوم الجمعۀ، و أجرى على جميع من قرّره فيه معاليم داره، و هذه الأوقاف باقيۀ إلى اليوم، إلّا أن أحوالها اختلت كما اختلّ غيرها، فكان ما أنفق عليه زيادة على أربعين ألف دينار.

و جرى فى بنائه لهذا الجامع أمر يتعجب منه، و هو ما حدّثنى به شيخنا الشيخ المعروف المسند المعمر أبو عبد اللّه محمد بن ضرغام بن شكر المقرى بمكۀ، فى سنۀ سبع و ثمانين و سبعمائۀ قال: أخبرنى من حضر عمارة الأمير بيبرس للجامع الحاكمىّ عند سقوطه فى سنۀ الزلزلۀ، أنّه لما شرع البناة فى ترميم ما و هى من المئذنۀ التى هى من جهۀ باب الفتوح، ظهر لهم صندوق فى تضاعيف البنيان، فأخرجه الموكل بالعمارة و فتحه، فإذا فيه قطن ملفوف على كف إنسان بزنده و عليه أسطر مكتوبۀ لم يدر ما هى، و الكف طريۀ كأنها قريبۀ عهد بالقطع، ثم رأيت هذه الحكايۀ بخط مؤلف السيرة الناصريۀ موسى بن محمد بن يحيى، أحد مقدّمى الحلقۀ. ثم جدّد هذا الجامع و بلط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى ولايته الثانيۀ، على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس فى سنۀ ستين و سبعمائۀ، و وقف قطعۀ أرض على الهرماس و أولاده، و على زيادة فى معلوم الإمام بالجامع، و على ما يحتاج إليه فى زيت الوقود و مرمّۀ فى سقفه و جدرانه، و جرى فى عمارة الجامع على يد الهرماس ما حدّثنى به الشيخ المعمر شمس الدين محمد بن علىّ

إمام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۱

الجامع الطيبرسىّ بشاطئ النيل، قال: أخبرنى محمد بن عمر البوصيرىّ قال: حدّثنا قطب الدين محمد الهرماس، أنه رأى بالجامع الحاكمىّ حجرا ظهر من مكان قد سقط منقوش عليه هذه الأبيات الخمسة:

إنّ الذى أسررت مكنون اسمهو كتمته كيما أفوز بوصله

مال له جذر تساوى فى الهجاطرفاه يضرب بعضه فى مثله

فيصير ذاك المال إلّا أنّهفى النصف منه تصاب أحرف كله

و إذا نطقت بربعه متكلمامن بعد أوّله نطقت بكله

لا نقط فيه إذا تكامل عدّهفيصير منقوطا بجملة شكله

قال و هذه الأبيات لغز فى الحجر المكرّم.

و قال العلامة شمس الدين محمد بن النقاش فى كتاب العبر فى أخبار من مضى و غبر:

و فى هذه السنة، يعنى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، صودر الهرماس و هدمت داره التى بناها أمام الجامع الحاكمىّ، و ضرب و نفى هو و ولده. فلما كان يوم الثلاثاء التاسع و العشرون من ذى القعدة استفتى السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى وقف حصة طندتا، و هى الأرض التى كان قد سأله الهرماس أن يقفها على مصالح الجامع الحاكمىّ فعين له خمسمائة و ستين فدّانا من طين طندتا، و طلب الموقعين و أمرهم أن يكتبوا صورة وقفها و يحضروه ليشهدوا عليه به، و كان قد تقرّر من شروطه فى أوقافه ما قيل أنه رواية عن أبى حنيفة رحمة اللّه تعالى عليه، من أنّ للواقف أن يشترط فى وقفه التغيير و الزيادة و النقص و غير ذلك، فأحضر الكركىّ الموقع إليه الكتاب مطويا، فقرأ منه طرّته و خطبته و أوّله، ثم طواه و أعاده إليه مطويا و قال: اشهدوا بما فيه دون قراءة و تأمل، فشهدوا هم بالتفصيل الذى كتبوه و قرّروه مع الهرماس، و لما اطلع السلطان على ذلك بعد نفى الهرماس طلب الكركىّ و سأله عن هذه الواقعة فأجاب بما قد ذكرنا و اللّه أعلم بصحة ذلك. غير أن المعلوم المقرّر أن السلطان ما قصد إلّا مصالح الجامع، نعم سأله أزدمر الخازندار، هل وقفت حصة لطيفة على أولاد الهرماس فإنه قد ذكر ذلك؟ فقال: نعم أنا وقفت عليهم جزأ يسيرا لم أعلم مقداره، و أما التفصيل المذكور فى كتاب الوقف فلم أتحققه و لم أطلع عليه، فاستفتى المفتين فى هذه الواقعة، فأمّا المفتون كابن عقيل و ابن السبكىّ و البلقينىّ و البسطامىّ و الهندىّ و ابن شيخ الجبل و البغدادىّ و نحوهم، فأجابوا ببطلان الحكم المترتب على هذه الشهادة الباطلة، و بطلان التنفيذ، و كان الحنفىّ حكم و البقية نفذوا، و أما الحنفىّ فقال: إنّ الوقف إذا صدر صحيحا على الأوضاع الشرعية فإنه لا يبطل بما قاله الشاهد، و هو جواب عن نفس الواقعة، و أما الشافعىّ فكتب ما مضمونه: إنّ الحنفىّ إن اقتضى مذهبه بطلان ما صححه أوّلا نفذ بطلانه، و حاصل ذلك أن القضاة أجابوا بالصحة، و المفتين أجابوا بالبطلان. فطلب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۲

السلطان المفتين و القضاة، فلم يحضر من الحكام غير نائب الشافعىّ، و هو تاج الدين محمد بن إسحاق بن المناوىّ، و القضاة الثلاثة الشافعىّ و الحنفىّ و الحنبلىّ و جدوا مرضى لم يمكنهم الحضور إلى سرياقوس، فإن السلطان كان قد سرح إليها على العادة فى كلّ سنة، فجمعهم السلطان فى برج من القصر الذى بميدان سرياقوس عشاء الآخرة، و ذكر لهم القضية و سألهم عن حكم اللّه تعالى فى الواقعة. فأجاب الجميع بالبطلان، غير المناوى فإنه قال:

مذهب أبى حنيفة أن الشهادة الباطلة إذا اتصل بها الحكم صح و لزم. فصرخت عليه المفتون شافعيهم و حنفيهم. أمّا شافعيهم فإنه قال: ليس هذا مذهبك و لا مذهب الجمهور، و لا هو الراجح فى الدليل و النظر. و قال له ابن عقيل: هذا مما ينقض به الحكم لو حكم به حاكم و ادّعى قيام الإجماع على ذلك. و قال له سراج الدين البلقينىّ: ليس هذا مذهب أبى حنيفة، و مذهبه فى العقود و الفسوخ ما

ذكرت من أن حكم الحاكم يكون هو المعتمد فى التحليل و التحريم، و أمّا الأوقاف و نحوها فحكم الحاكم فيها لا أثر له كمذهب الشافعيّ، و ادّعوا أن الإجماع قائم على ذلك، و قاموا على المناويّ فى ذلك قومة عظيمة فقال: نحن نحكم بالظاهر. فقالوا له: ما لم يظهر الباطن بخلافه. فقال: قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم: نحن نحكم بالظاهر. قالوا هذا الحديث كذب على النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و إنما الحديث الصحيح حديث: «إنما أنا بشر، و لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض الحديث» قال المناويّ: الأحكام ما هى بالفتاوى. قالوا له: فبماذا تكون؟ أفى الوجود حكم شرعيّ بغير فتوى من اللّه و رسوله؟ و كان قد قال فى مجلس ابن الدريهم: القائم على نفيس اليهودىّ المدعوّ برأس الجالوت بين اليهود لا يلتفت لقول المفتى. فقيل له: فى هذا المجلس ها أنت قد قلت مرّتين أنّ المفتين لا يعتبر قولهم، و أنّ الفتاوى لا يعتدّ بها، و قد أخطأت فى ذلك أشدّ الخطأ، و أنبأت عن غاية الجهل، فإن منصب الفتوى أوّل من قام به ربّ العالمين إذ قال فى كتابه المبين:

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ [النساء/ ۱۷۶] و قال يوسف عليه السّلام:

قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ [يوسف/ ۴۱] و قال النبيّ صلّى اللّه عليه و سلّم لعائشة رضى اللّه عنها: «قد أفتانى اللّه ربى فيما استفتيته» و كلّ حكم جاء على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى، و القائم به مفت، فكيف تقول لا يلتفت إلى الفتوى أو إلى المفتين؟ فقال سراج الدين الهندىّ و غيره: هذا كفر، و مذهب أبى حنيفة أن من استخف بالفتوى أو المفتين فهو كافر، فاستدرك نفسه بعد ذلك و قال: لم أرد إلّا أنّ الفتوى إذا خالف المذهب فهى باطلة. قالوا له: و أخطأت فى ذلك أيضا، لأنّ الفتوى قد تخالف المذهب المعين و لا- تخالف الحق فى نفس الأمر. قال: فأردت بالفتوى التى تخالف الحقّ. قالوا: فأطلقت فى موضع التقييد و ذلك خطأ. فقال السلطان حينئذ: فإذا قدّر هذا و ادّعيت أن الفتوى لا أثر لها، فنبطل

المفتين و الفتوى من الوجود. فتلكأ و حار و قال: كيف أعمل فى هذا؟ فتبين لبعض الحاضرين أنه استشكل المسألة، و لم يتبين له وجهها. فقال: لا شك أنّ مولانا السلطان لم ينكر صدور الوقف، و إنما أنكر المصارف، و أن تكون الجهة التى عينها هى هرماس و شهوده و قضاته، و للسلطان أن يحكم فيها بعلمه، و يبطل ما قرّروه من عند أنفسهم. قال: كيف يحكم لنفسه؟ قيل له: ليس هذا حكما لنفسه، لأنه مقرّ بأصل الوقف، و هو للمستحقين ليس له فيه شيء، و إنما بطل وصف الوقف، و هو المصرف الذى قرّر على غير جهة الوقف، و له أن يوقع الشهادة على نفسه بحكم أن مصرّف هذا الوقف الجهة الفلانية دون الفلانية.

و لم يزالوا يذكرون له أوجها تبين بطلان الوقف إمّا بأصله أو بوصفه إلى أن قال: يبطل بوصفه دون أصله، و أذعن لذلك بعد إتعاب من العلماء. و إزعاج شديد من السلطان فى بيان وجوه ذكروها تبين وجه الحق، و أنه إنما وقفه على مصالح الجامع المذكور. و هذا مما لا يشك فيه عاقل و لا يرتاب. فالتفت بعد ذلك و قال للحاضرين: كيف نعمل فى إبطاله؟

فقالوا: بما قرّرناه من إشهاد السلطان على نفسه بتفصيل صحيح، و أنه لم يزل كذلك منذ صدر منه الوقف إلى هذا الحدّ، و غير ذلك من الوجوه. فجعل يوهم السلطان أن الشهود الذين شهدوا فى هذا الوقف متى بطل هذا الوقف ثبت عليهم التساهل و جرحوا بذلك، و قدح ذلك فى عدالتهم، و متى جرحوا الآن لزم بطلان شهادتهم فى الأوقاف المتقدّمة على هذا التاريخ، و خيل بذلك للسلطان حتى ذكر له إجماع المسلمين على أن جرح الشاهد لا- ينعطف على ما مضى من شهاداته السالفة و لو كفر، و العياذ باللّه، و هذا مما لا خلاف فيه.

ثم استقرّ رأيه على أن يبطله بشاهدين يشهدان أن السلطان لمّا صدر منه هذا الوقف كان قد اشترط لنفسه التغيير و التبديل و الزيادة و النقص و قام على ذلك.

قال مؤلفه رحمه اللّه: انظر تثبت القضاة، و قايس بين هذه الواقعة و ما كان من تثبت القاضى تاج الدين المناوى، و هو يومئذ خليفة الحكم و مصادمته الجبال، و بين ما ستقف عليه من التساهل و التناقض فى خبر أوقاف مدرسة جمال الدين يوسف الأستادار، و ميّز

بعقلك فرق ما بين القضيتين. و هذه الأرض التى ذكرت هى الآن بيد أولاد الهرماس بحكم الكتاب الذى حاول السلطان نقضه، فلم يوافق المناوىّ. و الجامع الآن متهدّم و سقوفه كلها ما من زمن إلّا و يسقط منها الشيء بعد الشيء فلا يعاد، و كانت ميضأة هذا الجامع صغيرة بجوار ميضأته الآن، فيما بينها و بين باب الجامع، و موضعها الآن مخزن تعلوه طبقة عمرها شخص من الباعة يعرف بابن كرسون المراحلىّ، و هذه الميضأة الموجودة الآن أحدثت و أنشأ الفسقية التى فيها ابن كرسون فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، و بيّض مئذنتى الجامع، و استجدّ المئذنة التى بأعلى الباب المجاور للمنبر رجل من الباعة، و كملت فى جمادى الآخرة سنة سبع و عشرين و ثمانمائة، و خرق سقف الجامع حتى صار المؤذنون ينزلون من السطح إلى الدكة التى يكبرون فوقها وراء الإمام.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۴

«هيئة صلاة الجمعة فى أيام الخلفاء الفاطميين» قال المسبحىّ: و فى يوم الجمعة غرّة رمضان سنة ثمانين و ثلاثمائة ركب العزيز باللّه إلى جامع القاهرة بالمظلة المذهبة و بين يديه نحو خمسة آلاف ماش، و بيده القضيب، و عليه الطيلسان و السيف. فخطب و صلّى صلاة الجمعة و انصرف، فأخذ رقاع المتظلمين بيده و قرأ منها عدّة فى الطريق، و كان يوما عظيما ذكرته الشعراء. قال ابن الطوير: إذا انقضى ركوب أوّل شهر رمضان استراح فى أوّل جمعة، فإذا كانت الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير فى هيئة المواسم بالمظلة و ما تقدّم ذكره من الآلات، و لباسه فيه ثياب الحرير البيض توقيرا للصلاة من الذهب، و المنديل و الطيلسان المقوّر الشعرىّ، فيدخل من باب الخطابة و الوزير معه بعد أن يتقدّمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال، و هو المقدّم ذكره فى الأستاذين، و بين يديه الفرش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم، و هو محمول بأيدى الفرّاشين المميزين، و هو ملفوف فى العراضى الديبقية، فيفرش فى المحراب ثلاث طرّاحات أماسامان، أو ديبقىّ أبيض، أحسن ما يكون من صنفهما، كلّ منهما منقوش بالحمرة. فتجعل الطرّاحات متطابقات، و يعلّق ستران يمنة و يسرة، و فى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة، منقوطة أوّلها البسملة و الفاتحة و سورة الجمعة، و فى الستر الأيسر مثل ذلك، و سورة إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قد أسبلا و فرشا فى التعليق بجانبى المحراب لاصقين بجسمه، ثم يصعد قاضى القضاة المنبر و فى يده مدخنة لطيفة خيزران يحضرها إليه صاحب بيت المال فيها جمرات، و يجعل فيها ندّ مثلث لا يشمّ مثله إلّا هناك، فيجز الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة، و يكرّر ذلك ثلاث دفعات، فيأتى الخليفة فى هيئة موقرة من الطبل و البوق، و حوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القرّاء، و هم قرّاء الحضرة من الجانبين يطرّبون بالقراءة نوبة بعد نوبة، يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسىّ على ما تقدّم طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع، ثم تحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب و اسفهسلار العساكر، و من داخلها إلى آخرها صبيان الخاص و غيرهم ممن يجرى مجراهم، و من داخلها من باب خروجه إلى المنبر واحد فواحد، فيجلس فى القاعة، و إن احتاج إلى تجديد وضوء فعل، و الوزير فى مكان آخر، فإذا أذّن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال له: السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى و رحمة اللّه و بركاته، الصلاة يرحمك اللّه. فيخرج ماشيا و حواليه الأستاذون المحنكون، و الوزير وراءه، و من يليهم من الخواص و بأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص، و هم أمراء و عليهم هذا الاسم، فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت تلك القبة المبخرة، فإذا استوى جالسا و الوزير على باب المنبر و وجهه إليه، فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه، فيقبل يديه و رجليه بحيث يراه الناس، ثم يزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج، ثم ينزل مستقبلا، فيقف ضابطا لباب المنبر، فإن لم يكن ثمّ وزير صاحب سيف، زرّر عليه قاضى القضاة كذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۵

و وقف صاحب الباب ضابطا للمنبر.

فيخطب خطبة قصيرة من مسطور يحضر إليه من ديوان الإنشاء، يقرأ فيها آية من القرآن الكريم، و لقد سمعته مرّة فى خطابته بالجامع الأزهر و قد قرأ فى خطبته رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَ الآية، ثم يصلى على أبيه و جدّه، يعنى بهما

محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و يعظ الناس وعظا بليغا قليل اللفظ، و تشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة، و يذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فقال: و أنا أسمعه، اللهمّ و أنا عبدك و ابن عبدك لا أملك لنفسى ضرّا و لا نفعا، و يتوسل بدعوات فخمة تليق بمثله، و يدعو للوزير إن كان، و للجيوش بالنصر و التأليف، و للعساكر بالظفر و على الكافرين، و المخالفين بالهلاك و القهر، ثم يختم بقوله اذكروا اللّه يذكركم. فيطلع إليه من زرّر عليه و يفك ذلك التزرير و ينزل القهقرى، و سبب التزرير عليهم قراءتهم من مسطور لا كعادة الخطباء، فينزل الخليفة و يصير على تلك الطرّاحات الثلاث فى المحراب وحده إماما، و يقف الوزير و قاضى القضاة صفا، و من ورائهما الأستاذون المحنكون و الأمراء المطوّقون و أرباب الرتب من أصحاب السيوف و الأقلام و المؤذنون وقوف، و ظهورهم إلى المقصورة لحفظه، فإذا سمع الوزير الخليفة أسمع القاضى المؤذنين و أسمع المؤذنون الناس، هذا و الجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه، فيقرأ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن فى الركعة الأولى، و فى الركعة الثانية ما هو مكتوب فى الستر الأيسر، و ذلك على طريق التذكار خيفة الارتجاج، فإذا فرغ خرج الناس و ركبوا أوّلا فأوّلا و عاد طالبا القصر و الوزير وراءه، و ضربت البوقات و الطبول فى العود، فإذا أتت الجمعة الثانية ركب إلى الجامع الأزهر من القشاشين على المنوال الذى ذكرناه و القالب الذى وصفناه، فإذا كانت الجمعة الثالثة أعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها، فيزين له من باب القصر أهل القاهرة إلى جامع ابن طولون، و يزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر، يرتب ذلك والى مصر، كلّ أهل معيشة فى مكان، فيظهر المختار من الآلات و الستور المثمنات و يهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليهنّ و الوالى مارّ و عائد بينهم، و قد ندب من يحفظ الناس و متاعهم، فيركب يوم الجمعة المذكور شاقا لذلك كله على الشارع الأعظم إلى مسجد عبد اللّه الخراب اليوم، إلى دار الأنماط إلى الجامع بمصر، فيدخل إليه من المعونة، و منها باب متصل بقاعة الخطيب بالزىّ الذى تقدّم ذكره فى خطبة الجامعين بالقاهرة، و على ترتيبهما. فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريقه بعينها شاقا بالزينة إلى أن يصل إلى القصر، و يعطى أرباب المساجد التى يمرّ عليها كلّ واحد دينارا.

و قال ابن المأمون: و وصل من الطراز الكسوة المختصة بغرّة شهر رمضان و جمعتيه برسم الخليفة للغرّة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة، و برسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها و طيلسانها بياض، و برسم الجامع الأنور للجمعة

الثانية بدلة منديلها و طيلسانها شعرىّ، و ما هو برسم أخى الخليفة للغرّة خاصة بدلة مذهبة، و برسم أربع جهات للخليفة أربع حلل مذهبات، و برسم الوزير للغرّة خلعة مذهبة مكملة موكبية، و برسم الجمعتين بدلتان حريرتان، و لم يكن لغير الخليفة و أخيه و الوزير فى ذلك شيء فنذكره.

جامع راشدة

هذا الجامع عرف بجامع راشدة لأنه فى خطة راشدة. قال القضاعىّ: خطة راشدة بن أدوب بن جديلة من لخم، هى متاخمة للخطة التى قبلها إلى الدير المعروف كان بأبى تكموس، ثم هدم و هو الجامع الكبير الذى براشدة، و قد دثرت هذه الخطة، و منها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، و الجنان التى كانت تعرف بكهمس بن معر، ثم عرفت بالماردانىّ، و هى اليوم تعرف بالأمير تميم.

و قال المسبحىّ فى حوادث سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة، و ابتدئ بناء جامع راشدة فى سابع عشر ربيع الآخر، و كان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود و النصارى، فبنى بالطوب ثم هدم و زيد فيه و بنى بالحجر، و أقيمت به الجمعة، و قال: فى سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة و فيه، يعنى شهر رمضان، فرش جامع راشدة و تكامل فرشه و تعليق قناديله و ما يحتاج إليه، و ركب الحاكم بأمر اللّه عشية يوم الجمعة الخامس عشر منه و أشرف عليه.

و قال: فى سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة و فيه، يعنى شهر رمضان، صلّى الحاكم بجامعه الذى أنشأه براشدة صلاة الجمعة، و خطب. و فى شهر رمضان سنة أربعمائة أنزل بقناديل و تنور من فضة زنتها ألوف كثيرة، فعلّقت بجامع راشدة. و فى سنة إحدى و أربعمائة هدم و ابتدئ فى عمارته من صفر، و فى شهر رمضان سنة ثلاث و أربعمائة صلّى الحاكم فى جامع راشدة صلاة الجمعة و عليه عمامة بغير جوهر، و سيف محلى بفضة بيضاء دقيقة، و الناس يمشون بركابه من غير أن يمنع أحد منه، و كان يأخذ قصصهم و يقف وقوفا طويلا لكلّ منهم، و اتفق يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة أربع عشرة و أربعمائة أن خطب فيه خطبتان معا على المنبر، و ذلك أنّ أبا طالب علىّ بن عبد السميع العباسىّ استقرّ فى خطابته بإذن قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد بن العوّام، بعد سفر العفيف البخارىّ إلى الشام، فتوصل ابن عصفورة إلى أن خرج له أمر أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، أن يخطب. فصعدا جميعا المنبر و وقف أحدهما دون الآخر و خطبا معا، ثم بعد ذلك استقرّ أبو طالب خطيبا، و أن يكون ابن عصفورة يخلفه. و قال ابن المتوّج: هذا الجامع فيما بين دير الطين و الفسطاط، و هو مشهور الآن بجامع راشدة، و ليس بصحيح. و إنما جامع راشدة كان جامعا قديم البناء بجوار هذا الجامع، عمر فى زمن الفتح، عمرته راشدة، و هى قبيلة من القبائل كقبيلة تجيب و مهرة نزلت فى هذا المكان، و عمروا فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۷

جامعا كبيرا أدركت أنا بعضه و محرابه، و كان فيه نخل كثير من نخل المقل، و من جملة ما رأيت فيه نخلة من المقل عددت لها سبعة رؤوس مفرّعة منها، فذاك الجامع هو المعروف بجامع راشدة، و أما هذا الموجود الآن فمن عمارة الحاكم، و لم يكن فى بناء الجوامع أحسن من بنائه، و قيل عمرته حظية الخليفة و كان اسمها راشدة و ليس بصحيح، و الأوّل هو الصحيح. و فيه الآن نخل و سدر و بئر و ساقية رجل، و هو مكان خلوة و انقطاع و محل عبادة و فراغ من تعلقات الدنيا.

قال مؤلفه: هذا و هم من ابن المتوّج فى موضعين: أولهما أن راشدة عمرت هذا الجامع فى زمن فتح مصر، و هذا قول لم يقله أحد من مؤرخى مصر، فهذا الكندىّ، ثم القضاعىّ، و عليهما يعوّل فى معرفة خطط مصر. و من قبلهما ابن عبد الحكم، لم يقل أحد منهم أن راشدة عمرت زمن الفتح مسجدا، و لا يعرف من هذا السلف رحمهم اللّه فى جند من أجناد الأمصار التى فتحتها الصحابة رضى اللّه عنهم أنهم أقاموا خطبتين فى مسجد واحد، و قد حكينا ما تقدّم عن المسبحىّ و هو مشاهد ما نقله من بناء الجامع المذكور فى موضع الكنيسة بأمر الحاكم بأمر اللّه، و تغييره لبنائه غير مرّة، و تبعه القضاعىّ على ذلك، و قد عدّ القضاعىّ و الكندىّ فى كتابيهما المذكور فيهما خطط مصر ما كان بمصر من مساجد الخطبة القديمة و المحدثة، و ذكرا مساجد راشدة، و لم يذكرا فيها جامعا اختطته راشدة، و ذكرا هذا الدير، و عين القضاعىّ اسمه، هدم و بنى فى مكانه جامع راشدة، و ناهيك بهما معرفة لآثار مصر و خططها.

و الوهم الثانى: الاستدلال على الوهم الأوّل بمشاهدة بقايا مسجد قديم و لا أدرى كيف يستدل بذلك، فمن أنكر أن يكون قد كان هناك مسجد، بل المدّعى أنه كان لراشدة مساجد، لكن كونها اختطت جامعا هذا غير صحيح. و قال ابن أبى طىّ فى أخبار سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة فى كتابه تاريخ حلب: كانت النصارى اليعقوبية قد شرعوا فى إنشاء كنيسة كانت قد اندرست لهم بظاهر مصر فى الموضع المعروف براشدة، فثار قوم من المسلمين و هدموا ما بنى النصارى و أنهى إلى الحاكم ذلك، قيل له إنّ النصارى ابتدأوا بناءها، و قال النصارى إنها كانت قبل الإسلام، فأمر الحاكم الحسين بن جوهر بالنظر فى حال الفريقين، فمال فى الحكم مع النصارى، و تبين للحاكم ذلك، فأمر أن تبنى تلك الكنيسة مسجدا جامعا، فبنى فى أسرع وقت، و هو جامع راشدة. و راشدة اسم للكنيسة، و كان بجواره كنيستان إحداهما لليعقوبية و الأخرى للنسطورية، فهدمتا أيضا و بنيتا مسجدين، كان فى حارة الروم بالقاهرة آدر للروم و كنيستان لهم، فهدمتا و جعلتا مسجدين أيضا، و حوّل الروم إلى الموضع المعروف بالحمراء و أسس الروم ثلاث كنائس عوضا عما هدم لهم، و هذا أيضا مصرّح بأن جامع راشدة أسسه الحاكم، و فيه وهم لكونه جعل راشدة اسما للكنيسة، و إنما راشدة اسم لقبيلة من العرب نزلوا عند الفتح هناك فعرفت تلك البقاع بخطة راشدة، و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۸

جدّد جامع راشدة مرارا، و أدركته عامرا تقام فيه الجمعة و يمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السكان، و إنما تعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سنة ست و ثمانمائة. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانيّ النسابة: راشدة بطن من لخم، و هم ولد راشدة بن الحارث بن أدّ بن جديلة من لخم بن عدىّ بن الحارث بن مرّة بن أدد، و قيل راشدة بن أدوب، و يقال لراشدة خالفة، و لهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد، المطلّ على بركة الحبش، و قد دثرت الخطة و لم يبق فى موضعها إلّا الجامع الحاكمىّ المعروف بجامع راشدة.

جامع المقس

هذا الجامع أنشأه الحاكم بأمر اللّه على شاطىء النيل بالمقس فى لأنّ المقس كان خطة كبيرة، و هى بلد قديم من قبل الفتح، كما تقدّم ذكر ذلك فى هذا الكتاب.

و قال فى الكتاب الذى تضمن وقف الحاكم بأمر اللّه الأماكن بمصر على الجوامع، كما ذكر فى خبر الجامع الأزهر ما نصه: و يكون جميع ما بقى مما تصدّق به على هذه المواضع، يصرف فى جميع ما يحتاج إليه فى جامع المقس المذكور، من عمارته، و من ثمن الحصر العبدانية و المظفورة، و ثمن العود للبخور، و غيره على ما شرح من الوظائف فى الذى تقدّم، و كان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية، و يركب الخليفة إلى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول فيجلس بها لمشاهدة ذلك كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر المناظر، و فى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة انشقت زريبة من هذا الجامع فى شهر رمضان لكثرة زيادة ماء النيل، و خيف على الجامع السقوط فأمر بعمارتها. و لما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب هذا السور الذى على القاهرة، و أراد أن يوصله بسور مصر من خارج باب البحر إلى الكوم الأحمر، حيث منشأة المهرانىّ اليوم، و كان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء، فلما كان فى سنة سبعين و سبعمائة جدّد بناء هذا الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد اللّه المقسىّ، و هدم القلعة و جعل مكانها جنينة، و اتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالا كثيرا، و أنه عمر منه الجامع المذكور، فصار العامّة اليوم يقولون جامع المقسىّ، و يظنّ من لا علم عنده أن هذا الجامع من إنشائه، و ليس كذلك، بل إنما جدّده و بيضه، و قد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع كما ذكر فى خبر بولاق و المقس، و صار هذا الجامع اليوم على حافة الخليج الناصرىّ، و أدركنا ما حوله فى غاية العمارة، و قد تلاشت المساكن التى هناك و بها إلى اليوم بقية يسيرة، و نظر هذا الجامع اليوم بيد أولاد الوزير المقسىّ، فإنه جدّده و جعل عليه أوقافا لمدرّس و خطيب و قومة و مؤذنين و غير ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۶۹

و قال جامع السيرة الصلاحية: و هذا المقسم على شاطىء النيل يزار، و هناك مسجد يتبرّك به الأبرار، و هو المكان الذى قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضى اللّه عنهم على مصر، فلما أمر السلطان صلاح الدين بإدارة السور على مصر و القاهرة، تولى ذلك بهاء الدين قراقوش و جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقس، و بنى فيه برجا يشرف على النبل، و بنى مسجده جامعا، و اتصلت العمارة منه إلى البلد، و صار تقام فيه الجمع و الجماعات.

العزيز بالله: أبو النصر نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ولد بالمهدية من بلاد أقريقية فى يوم الخميس الرابع عشر من المحرّم سنة أربع و أربعين و ثلاثمائة، و قدم مع أبيه إلى القاهرة، و ولى العهد. فلما مات المعز لدين اللّه أقيم من بعده فى الخلافة يوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستين و ثلاثمائة فأذعن له سائر عساكر أبيه و اجتمعوا عليه، و سيّر بذهب إلى بلاد المغرب، فرّق فى الناس، و اقرّ يوسف بن ملكين على ولاية إفريقية، و خطب له بمكة، و وافى الشام عسكر القرامطة فصاروا مع أفتكين التركىّ، و قوى

بهم و ساروا إلى الرملة و قاتلوا عساكر العزيز بيافا، فبعث العزيز جوهر القائد بعساكر كثيرة و ملك الرملة و حاصر دمشق مدّة، ثم رحل عنها بغير طائل، فأدركه القرامطة و قاتلوه بالرملة و عسقلان نحو سبعة عشر شهرا، ثم خلص من تحت سيوف افتكين و سار إلى العزيز فوافاه و قد برز من القاهرة، فسار معه و دخل العزيز إلى الرملة و أسر أفتكين فى المحرّم سنة ثمان و ستين و ثلاثمائة فأحسن إليه و أكرمه إكراما زائدا.

فكتب إليه الشريف أبو إسماعيل إبراهيم الرئيس يقول: يا مولانا لقد استحق هذا الكافر كلّ عذاب، و العجب من الإحسان إليه؟ فلما لقيه قال: يا إبراهيم قرأت كتابك فى أمر أفتكين، و أنا أخبرك. اعلم أنا قد وعدناه الإحسان و الولاية، فلما قبل و جاء إلينا نصب فازاته و خيامه حذاءنا، و أردنا منه الانصراف فلج و قاتل، فلما ولى منهزما و سرت إلى فازاته و دخلتها سجدت للّه شكرا و سألته أن يفتح لى بالظفر به، فجىء به بعد ساعة أسيرا، أ ترى يليق بى غير الوفاء.

و لما وصل العزيز إلى القاهرة اصطنع افتكين و واصله بالعطايا و الخلع، حتى قال لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز باللّه، و نظرى إليه بما غمرنى من فضله و إحسانه، فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة: يا عمّ أحبّ أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، و أرى عليهم الذهب و الفضة و الجواهر، و لهم الخيل و اللباس و الضياع و العقار، و أن يكون ذلك كله من عندى. و مات بمدينة بلبيس من مرض طويل بالقولنج و الحصاة، فى اليوم الثامن و العشرين من شهر رمضان سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة فحمل إلى القاهرة و دفن بتربة القصر مع آبائه. و كانت مدّة خلافته بعد أبيه المعز إحدى و عشرين سنة و خمسة أشهر و نصفا، و مات و عمره اثنتان و أربعون سنة و ثمانية أشهر و أربعة عشر يوما. و كان نقش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۰

خاتمة: بنصر العزيز الجبار ينتصر الإمام نزار. و لما مات و حضر الناس إلى القصر للتعزية أفحموا عن أن يوردوا فى ذلك المقام شيئا، و مكثوا مطرقين لا ينبسون، فقام صبىّ من أولاد الأمراء الكنانيين و فتح باب التعزية و أنشد:

أنظر إلى العلياء كيف تضامو مآتم الأحساب كيف تقام

خبرننى ركب الركاب و لم يدعللسفر وجه ترحل فأقاموا

فاستحسن الناس إيراده و كأنه، طرّق لهم كيف يوردون المراثى، فنهض الشعراء و الخطباء حينئذ و عزوا و أنشد كلّ واحد ما عمل فى التعزية، و خلّف من الأولاد ابنه المنصور، و ولى الخلافة من بعده، و ابنة تدعى سيدة الملك، و كان أسمر طوالا، أصهب الشعر، أعين أشهل عريض المنكبين، شجاعا كريما حسن العفو و القدرة، لا يعرف سفك الدماء البتة، مع حسن الخلق و القرب من الناس، و المعرفة بالخيل و جوارح الطير، و كان محبا للصيد مغرىّ به حريصا على صيد السباع، و وزر له يعقوب بن كلس اثنتى عشرة سنة و شهرين و تسعة عشر يوما، ثم من بعده علىّ بن عمر العدّاس سنة واحدة، ثم أبو الفضل جعفر بن الفرات سنة، ثم أبو عبد اللّه الحسين بن الحسن البازيار سنة و ثلاثة أشهر، ثم أبو محمد بن عمار شهرين، ثم الفضل بن صالح الوزيرىّ أياما، ثم عيسى بن نسطورس سنة و عشرة أشهر.

و كانت قضاته: أبو طاهر محمد بن أحمد، أبو الحسن علىّ بن النعمان، ثم أبو عبد اللّه محمد بن النعمان. و خرج إلى السفر أوّلا فى صفر سنة سبع و ستين، و عاد من العباسية و خرج ثانيا و ظفر بأفتكين، و خرج ثالثا فى صفر سنة اثنتين و سبعين، و رجع بعد شهر إلى قصره بالقاهرة، و خرج رابعا فى ربيع الأوّل سنة أربع و ستين، فنزل منية الأصبغ و عاد بعد ثمانية أشهر و اثنى عشر يوما، و خرج خامسا فى عاشر ربيع الآخر سنة خمس و ثمانين، فأقام مبرّزا أربعة عشر شهرا و عشرين يوما، و مات فى هذه الخرجة ببلبيس. و هو أوّل من اتخذ من أهل بيته وزيرا، أثبت اسمه على الطرز، و قرن اسمه باسمه، و أوّل من لبس منهم الخفين و المنطقة، و أوّل من اتخذ منهم الأتراك و اصطنعهم و جعل منهم القوّاد، و أوّل من رمى منهم بالنشاب، و أوّل من ركب منهم بالذؤابة الطويلة و الحنك و ضرب الصوالجة و لعب بالرمح، و أوّل من عمل مائدة فى الشرطة السفلى فى شهر رمضان يفطر عليها أهل الجامع العتيق، و أقام طعاما فى

جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب و شعبان و رمضان، و اتخذ الحمير لركوبه إياها، و كانت أمّه أمّ ولد اسمها درزارة، و كان يضرب بأيامه المثل فى الحسن، فإنها كانت كلها أعيادا و أعراسا لكثرة كرمه و محبته للعفو و استعماله لذلك، و لا أعلم له بمصر من الآثار غير تأسيس الجامع الحاكمىّ، و ما عدا ذلك فذهب اسمه و محى رسمه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۱

الحاكم بأمر اللّه: أبو علىّ منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ولد بالقصر من القاهرة المعزية، ليلة الخميس الثالث و العشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس و سبعين و ثلاثمائة فى الساعة التاسعة، و الطالع من برج السرطان سبع و عشرون درجة، و سلّم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة و سار إلى القاهرة فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة و العزيز فى قبة على ناقة بين يديه، و على الحاكم دراعة مصمت و عمامة فيها الجوهر، و بيده رمح و قد تقلد السيف. و لم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شىء، و دخل القصر قبل صلاة المغرب، و أخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله و دفنه، ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس، و قد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الإيوان الكبير، و خرج من قصره راكبا عليه معممة الجوهر و الناس وقوف فى صحن الإيوان، فقبلوا له الأرض و مشوا بين يديه حتى جلس على السرير، فوقف من رسمه الوقوف، و جلس من له عادة أن يجلس، و سلّم الجميع عليه بالإمامة و اللقب الذى اختير له، و هو الحاكم بأمر اللّه، و كان سنّه يومئذ إحدى عشرة سنة و خمسة أشهر و ستة أيام، فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكندىّ واسطة، و لقب بأمين الدولة، و أسقط مكوسا كانت بالساحل، و ردّ إلى الحسين بن جوهر القائد البريد و الإنشاء، فكان يخلفه ابن سورين، و أقرّ عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص، و قلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام، فخرج ينجو تكين من دمشق و سار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح، فبلغ الرملة و انضمّ إليه ابن الجرّاح الطائىّ فى كثير من العرب، و واقع ابن فلاح فانهزم و فرّ، ثم أسر فحمل إلى القاهرة و أكرم، و اختلف أهل الدولة على ابن عمار، و وقعت حروب آلت إلى صرفه عن الوساطة. و له فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام، فلزم داره و أطلقت له رسوم و جرايات، و أقيم الطواشى برجوان الصقلىّ مكانه فى الوساطة لثلاثة بقين من رمضان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة فجعل كاتبه فهد بن إبراهيم يوقع عنه، و لقبه بالرئيس، و صرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة، و قلد فحل بن إسماعيل الكتامىّ مدينة صور، و قلد يانس الخادم برقة، و ميسور الخادم طرابلس، و يمنا لخادم غزة و عسقلان، فواقع جيش الروم على فاهية و قتل منهم خمسة آلاف رجل، و غزا إلى أن دخل مرعش، و قلد وظيفة قضاء القضاء أبا عبد اللّه الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع و ثمانين و ثلاثمائة بعد موت قاضى القضاة محمد بن النعمان، و قتل الأستاذ برجوان لاربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع و ثمانين و ثلاثمائة، و له فى النظر سنتان و ثمانية أشهر غير يوم واحد، و ردّ النظر فى أمور الناس و تدبير المملكة و التوقيعات إلى الحسين بن جوهر، و لقب بقائد القوّاد، فخلفه الرئيس بن فهد، و اتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدّة من أعيان الدولة، ثم أبطله و مات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين و ثلثمائة، فوصل ابنه بتركته إلى القاهرة و معه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۲

درج بخط أبيه فيه وصية، و ثبت بما خلفه مفصلا، و أن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، لا يستحق أحد من أولاده منه درهما، و كان مبلغ ذلك نحو المأتى ألف دينار، و ما بين عين و متاع و دواب، قد أوقف جميع ذلك تحت القصر، فأخذ الحاكم الدرج و نظره ثم أعاده إلى أولاد جيش و خلع عليهم و قال لهم بحضرة وجوه الدولة: قد وقفت على وصية أبيكم رحمه اللّه و ما وصى به من عين و متاع، فخذوه هنيئا مباركا لكم فيه. فانصرفوا بجميع التركة، و ولى دمشق فحل بن تميم، و مات بعد شهور فولى علىّ بن فلاح، و ردّ النظر فى المظالم لعبد العزيز بن محمد بن النعمان، و منع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا و مولانا إلّا أمير المؤمنين وحده، و أبيح دم من خالف ذلك، و فى شوّال قتل ابن عمار.

و فى سنة إحدى و تسعين و اصل الحاكم الركوب فى الليل كل ليلة، فكان يشق الشوارع و الأزقة، و بالغ الناس فى الوقود و الزينة، و أنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل و المشارب و الغناء و اللهو، و كثر تفرّجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحدّ، فمنع النساء من الخروج فى الليل، ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت. و فى رمضان سنة اثنتين و تسعين قلّد تموصلت بن بكّار دمشق، عوضا عن ابن فلاح، و ابتدأ فى عمارة جامع راشدة فى سنة ثلاث و تسعين، و قتل فهد بن إبراهيم و له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين و تسعة أشهر و اثنا عشر يوما، فى ثامن جمادى الآخرة منها، و أقيم فى مكانه علىّ بن عمر العدّاس، و سار الأمير ما روح لإمارة طبرية، و وقع الشروع فى إتمام الجامع خارج باب الفتوح، و قطع الحاكم الركوب فى الليل، و مات تموصلت فولى دمشق بعده مفلح اللحيانىّ الخادم، و قتل علىّ بن عمر العدّاس و الأستاذ زيدان الصقلىّ و عدّة كثيرة من الناس، و قلد إمارة برقة صندل الأسود فى المحرّم سنة أربع و تسعين، و صرف الحسين بن النعمان عن القضاء فى رمضان منها، و كانت مدّة نظره فى القضاء خمس سنين و ستة أشهر و ثلاثة و عشرين يوما، و إليه كانت الدعوة أيضا، فيقال له قاضى القضاة و داعى الدعاة، و قلد عبد العزيز بن محمد بن النعمان وظيفة القضاء و الدعوة، مع ما بيده من النظر فى المظالم. و فى سنة خمس و تسعين أمر النصارى و اليهود بشدّ الزنار و لبس الغيار، و منع الناس من أكل الملوخية و الجرجير و التوكلية و الدلينس، و ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلّا فى أيام الأضحية، و منع من بيع الفقاع و عمله البتة، و أن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، و أن لا تكشف امرأة وجهها فى طريق، و لا خلف جنازة، و لا تتبرّج، و لا يباع شىء من السمك بغير قشر، و لا يصطاده أحد من الصيادين، و تتبع الناس فى ذلك كله و شدّد فيه، و ضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمروا به و نهوا عنه مما ذكر، و خرجت العساكر لقتال بنى قرّة أهل البحيرة، و كتب على أبواب المساجد و على الجوامع بمصر و على أبواب الحوانيت و الحجر و المقابر سبّ السلف و لعنهم، و أكره الناس على نقش ذلك و كتابته بالأصباغ فى سائر المواضع، و أقبل الناس من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۳

سائر النواحى فدخلوا فى الدعوة و جعل لهم يومان فى الأسبوع، و كثر الازدحام و مات فيه جماعة، و منع الناس من الخروج بعد المغرب فى الطرقات، و أن لا يظهر أحد بها لبيع و لا شراء، فخلت الطرق من المارّة و كسرت أوانى الخمور و أريقت من سائر الأماكن، و اشتدّ خوف الناس بأسرهم، و قويت الشناعات و زاد الاضطراب، فاجتمع كثير من الكتاب و غيرهم تحت القصر و ضجوا يسألون العفو، فكتب عدّة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة و غيرهم من الباعة و الرعية، و أمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا ينحصر حتى فقدت، و فتحت دار الحكمة بالقاهرة و حمل إليها الكتب و دخل إليها الناس، فاشتدّ الطلب على الركابية المستخدمين فى الركاب، و قتل منهم كثير، عفى عنهم و كتب لهم أمان، و منع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة، و منع الناس من المشى ملاصق القصر، و قتل قاضى القضاة حسين بن النعمان و أحرق بالنار، و قتل عددا كثيرا من الناس ضربت أعناقهم.

و فى سنة ست و تسعين خرج أبو ركوة يدعو إلى نفسه و ادّعى أنه من بنى أمية، فقام بأمره بنو قرّة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم و بايعوه، و استجاب له لواته و مزاته و زنادة، و أخذ برقة و هزم جيوش الحاكم غير مرّة، و غنم ما معهم، فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح فى ربيع الأوّل و واقعه، فانهزم منه فضل و اشتدّ الاضطراب بمصر، و تزايدت الأسعار و اشتدّ الاستعداد لمحاربة أبى ركوة، و نزلت العساكر بالجيزة، و سار أبو ركوة فواقعه القائد فضل و قتل عدّة ممن معه، فعظم الأمر و اشتدّ الخوف و خرج الناس فباتوا بالشوارع. خوفا من هجوم عساكر أبى ركوة، و استمرّت الحروب فانهزم أبو ركوة فى ثالث ذى الحجة إلى الفيوم، و تبعه القائد فضل بعد أن بعث إلى القاهرة بستة آلاف رأس و مائة أسير إلى أن قبض عليه ببلاد النبوة، و أحضر إلى القاهرة فقتل بها، و خلع على القائد فضل، و سيّرت البشائر بقتله إلى الأعمال.

و فى سنة سبع و تسعين أمر بمحوسبّ السلف فمحى سائر ما كتب من ذلك، و غلت الأسعار لنقص ماء النيل، فإنه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا، نقص، و مات ينجو تكين فى ذى الحجة، و اشتدّ الغلاء فى سنة ثمان و تسعين، و ولى علىّ بن فلاح دمشق، و

قبض جميع ما هو محبس على الكنائس، و جعل فى الديوان، و أحرق عدّة صلبان على باب الجامع بمصر، و كتب إلى سائر الأعمال بذلك.

و فى سادس عشر رجب قرّر مالك بن سعيد الفارقيّ فى وظيفة قضاء القضاة، و تسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء، و صرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك، و صرف قائد القوّاد الحسين بن جوهر عما كان يليه من النظر فى سابع شعبان، و قرّر مكانه صالح بن عليّ الروذباديّ، و قرّر فى ديوان الشام مكانه أبو عبد اللّه الموصليّ الكاتب، و أمر حسين بن جوهر و عبد العزيز بلزوم دورهما، و منعا من الركوب و سائر أولادهما، ثم عفا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۴

عنهما بعد أيام، و أمر بالركوب. و توقفت زيادة النيل فاستسقى الناس مرّتين، و أمر بإبطال عدّة مكوس، و تعذر وجود الخبز لغلائه و قلته، و فتح الخليج فى رابع توت، و الماء على خمسة عشر ذراعا فاشتدّ الغلاء.

و فى تاسع المحرّم و هو نصف توت نقص ماء النيل و لم يوف ستة عشر ذراعا، فمنع الناس من التظاهر بالغناء و من ركوب البحر للتفرّج، و منع من بيع المسكرات، و منع الناس كافة من الخروج قبل الفجر و بعد العشاء إلى الطرقات و اشتدّ الأمر على الكافة لشدّة ما داخلهم من الخوف مع شدّة الغلاء، و تزايد الأمراض فى الناس و الموت.

فلما كان فى رجب انحلت الأسعار، و قرىء سجل فيه يصوم الصائمون على حسابهم و يفطرون، و لا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون و مفطرون، و صلاة الخمسين للذى جاءهم فيها يصلون، و صلاة الضحى و صلاة التراويح لا مانع لهم منها و لا هم عنها يدفعون، يخمّس فى التكبير على الجنائز المخمسون، و لا يمنع من التربيع عليها المربعون، يؤذن بحيّ على خير العمل المؤذنون، و لا يؤذى من بها لا يؤذنون، لا يسب أحد من السلف، و لا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، و الحالف منهم بما حلف، لكلّ مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده. و لقب صالح بن عليّ الروذباديّ بثقة ثقات السيف و القلم، و أعيد القاضى عبد العزيز بن النعمان إلى النظر فى المظالم، و تزايدت الأمراض و كثر الموت و عزت الأدوية، و أعيدت المكوس التى رفعت، و هدمت كنائس كانت بطريق المقس، و هدمت كنيسة كانت بحارة الروم من القاهرة، و نهب ما فيها، و قتل كثير من الخدّام و من الكتاب و من الصقالبة، بعد ما قطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالشطور على الخشبة من وسط الذراع، و قتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة، و فى حادى عشر صفر صرف صالح بن عليّ الروذباديّ، و قرّر مكانه ابن عبدون النصرانيّ الكاتب فوقّع عن الحاكم، و نظر و كتب بهدم كنيسة قمامة، و جدّد ديوان يقال له الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين و غيرهم، و كثرت الأمراض و عزت الأدوية، و شهر جماعة وجد عندهم فقاع و ملوخية و دلينس و ضربوا، و عدم دائر القصر و اشتدّ الأمر على النصارى و اليهود فى إلزامهم لبس الغيار، و كتب إبطال أخذ الخمس و النجاوى و الفطرة، و فرّ الحسين بن جوهر و أولاده، و عبد العزيز بن النعمان، و فرّ أبو القاسم الحسين بن المغربىّ، و كتب عدّة أمانات لعدّة طوائف من شدّة خوفهم، و قطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر، و وقع التشديد فى المنع من المسكرات، و قتل كثير من الكتاب و الخدّام و الفرّاشين، و قتل صالح بن عليّ الروذباديّ فى شوّال.

و فى رابع المحرّم سنة إحدى و أربعمائة، صرف الكافى بن عبدون عن النظر و التوقيع، و قرّر بدله أحمد بن محمد القشوريّ الكاتب فى الوساطة و السفارة، و حصر الحسين بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۵

جوهر و عبد العزيز بن النعمان إلى القاهرة، فأكرما. ثم صرف ابن القشوريّ بعد عشرة أيام من استقراره و ضربت عنقه، و قرّر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانيّ، و لقّب بالشافى، و منع الناس من الركوب فى المراكب فى الخليج، و سدّت أبواب الدور التى على الخليج و الطاقات المطلة عليه، و أضيف إلى قاضى القضاة مالك بن سعيد النظر فى المظالم، و أعيدت مجالس الحكمة، و أخذ مال النجوى، و قتل ابن عبدون و أخذ ماله، و ضرب جماعة و شهروا من أجل بيعهم الملوخية و السمك الذى لا قشر

له، و بسبب بيع النبيذ، و قتل الحسين بن جوهر و عبد العزيز بن النعمان في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعمائة، و أحيط بأموالهما، و أبطلت عدّة مكوس، و منع الناس من الغناء و اللهو و من بيع المغنيات و من الاجتماع بالصحراء. و في هذه السنة خلع حسان بن مفرّج بن دغفل بن الجرّاح طاعة الحاكم، و أقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنيّ أمير مكة خليفة، و بايعه و دعا الناس إلى طاعته و مبايعته، و قاتل عساكر الحاكم. و في سنة اثنتين و أربعمائة منع من بيع الزبيب و كوتب بالمنع من حمله، و ألقى في بحر النيل منه شيء كثير، و أحرق شيء كثير، و منع النساء من زيارة القبور، فلم ير في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، و منع من الاجتماع على شاطىء النيل للتفرّج، و منع من بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها. و منع من عصره و طرح كثير منه و ديس في الطرقات، و غرّق كثير منه في النيل، و منع من حمله و قطعت كروم الجيزة كلها، و سيّر إلى الجهات بذلك.

و في سنة ثلاث و أربعمائة نزع السعر و ازدحم الناس على الخبز، و في ثاني ربيع الأوّل منها هلك عيسى بن نسطورس، فأمر النصارى بلبس السواد و تعلق صلبان الخشب في أعناقهم، و أن يكون الصليب ذراعا في مثله، و زنته خمسة أرطال، و أن يكون مكشوفا بحيث يراه الناس، و منعوا من ركوب الخيل، و أن يكون ركوبهم البغال و الحمير بسروج الخشب و السيور السود بغير حلية، و أن يسدّوا الزنانير و لا يستخدموا مسلما و لا يشتروا عبدا و لا أمة، و تتبعت آثارهم في ذلك، فأسلم منهم عدّة، و قرّر حسين بن طاهر الوزان في الوساطة و التوقيع عن الحاكم في تاسع عشرى ربيع الأوّل منها، و لقب أمين الأمناء، و نقش الحاكم على خاتمه: بنصر اللّه العظيم الوليّ ينتصر الإمام أبو علي. و ضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج، و هدمت الكنائس و أخذ جميع ما فيها و مالها من الرباع، و كتب بذلك إلى الأعمال فهدمت بها، و فيها لحق أبو الفتح بمكة و دعا للحاكم و ضرب السكة باسمه، و أمر الحاكم أن لا يقبّل أحد له الأرض، و لا يقبّل ركابه، و لا يده عند السلام عليه في المواكب، فإنّ الانحناء إلى الأرض لمخلوق من صنيع الروم، و أن لا يزاد على قولهم السلام على أمير المؤمنين و رحمة اللّه و بركاته، و لا يصلّي أحد عليه في مكاتبة و لا مخاطبة، و يقتصر في مكاتبته على سلام اللّه و تحياته. و نوامي بركاته على أمير المؤمنين، و يدعى له بما يتفق من الدعاء لا غير، فلم يقل الخطباء يوم الجمع سوى اللهمّ صلّ على محمد المصطفى، و سلّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۶

على أمير المؤمنين عليّ المرتضى، اللهمّ و سلّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهمّ اجعل أفضل سلامك على عبدك و خليفتك، و منع من ضرب الطبول و الأبواق حول القصر، فصاروا يطوفون بغير طبل و لا بوق، و كثرت إنعامات الحاكم فتوقف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان في إمضائها، فكتب إليه الحاكم بخطه بعد البسملة، الحمد للّه كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو و لا أتقيإلّا إلهي و له الفضل

جدّي نبيّ و إمامي أبيو ديني الإخلاص و العدل

المال مال اللّه عز و جلّ، و الخلق عباد اللّه، و نحن أمناؤه في الأرض، أطلق أرزاق الناس و لا تقطعها و السلام و ركب الحاكم يوم عيد الفطر إلى المصلى بغير زينة و لا جنائب و لا أبهة، سوى عشرة أفراس تقاد بسروج و لجم محلاة بفضة بيضاء خفيفة، و بنود ساذجة و مظلة بيضاء بغير ذهب عليه بياض، بغير طرز و لا ذهب و لا جوهر في عمامته، و لم يفرش المنبر، و منع الناس من سبّ السلف، و ضرب في ذلك و شهر و صلّى صلاة عيد النحر كما صلّى صلاة عيد الفطر من غير أبهة، و نحر عنه عبد الرحمن بن الياس بن أحمد بن المهديّ، و أكثر الحاكم من الركوب إلى الصحراء بحذاء في رجله و فوطة على رأيه.

و في سنة أربع و أربعمائة ألزم اليهود أن يكون في أعناقهم جرس إذا دخلوا الحمام، و أن يكون في أعناق النصارى صلبان، و منع الناس من الكلام في النجوم، و أقيم المنجمون من الطرقات و طلبوا فتغيبوا و نفوا، و كثرت هبات الحاكم و صدقاته و عتقه، و أمر اليهود و النصارى بالخروج من مصر إلى بلاد الروم و غيرها، و أقيم عبد الرحيم بن الياس وليّ العهد، و أمر أن يقال في السلام عليه، السلام على ابن عمّ أمير المؤمنين، و وليّ عهد المسلمين و صار يجلس بمكان في القصر، و صار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء،

و يتعمم بفوطة. و فى رجله خذاء عربىّ بقبالين، و عبد الرحيم يتولى النظر فى أمور الدولة كلها، و أفرط الحاكم فى العطاء و ردّ ما كان أخذ من الضياع و الأملاك إلى أربابها، و فى ربيع الآخر أمر بقطع يدى أبى القاسم الجرجانىّ، و كان يكتب للقائد غين، ثم قطع يد غين فصار مقطوع اليدين، و بعث إليه الحاكم بعد قطع يديه بألف من الذهب و الثياب، ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه، فقطع. و أبطل عدّة مكوس، و قتل الكلاب كلها، و أكثر من الركوب فى الليل، و منع النساء من المشى فى الطرقات، فلم تر امرأة فى طريق البتة، و أغلقت حماماتهنّ، و منع الأساكفة من على خفافهنّ، و تعطلت حوانيتهم، و اشتدّت الإشاعة بوقوع السيف فى الناس، فتهاربوا و غلقت الأسواق، فلم يبع شيء. و دعى لعبد الرحيم بن الياس على المنابر، و ضربت السكة باسمه بولاية العهد، و فى سنة خمس و أربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقىّ، فى ربيع الآخر، و كانت مدّة نظره فى قضاء القضاة ست سنين و تسعة أشهر و عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۷

أيام، و بلغ إقطاعه فى السنة خمسة عشر ألف دينار، و تزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى كلّ يوم عدّة مرّات، و اشترى الحمير و ركبها بدل الخيل.

و فى جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان، فكانت مدّة نظره فى الوساطة سنتين و شهرين و عشرين يوما، فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم، و صار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة، ثم أقام عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب و أخاه أبا عبد اللّه الحسين فى الوساطة و السفارة، و أقرّ فى وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد بن أبى العوام، و خرج الحاكم عن الحدّ فى العطاء حتى أقطع نواتية المراكب و المشاعلية، و بنى قرّة، فما أقطع الإسكندرية و البحيرة و نواحيهما، و قتل ابنى أبى السيد فكانت مدّة نظرهما اثنتين و ستين يوما، و قلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتله فى اليوم الخامس من ولايته، و غلب بنو قرّة على الإسكندرية و أعمالها، و أكثر الحاكم من الركوب فركب فى يوم ستة مرّات، مرّة على فرس، و مرّة على حمار، و مرّة فى محفة تحمل على الأعناق، و مرّة فى عشارى فى النيل بغير عمامة، و أكثر من إقطاع الجند و العبيد الإقطاعات، و أقام ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن علىّ بن جعفر بن فلاح فى الوساطة و السفارة، و ولى عبد الرحيم بن الياس دمشق، فسار إليها فى جمادى الآخرة سنة تسع و أربعمائة، فأقام فيها شهرين ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده، و أخذوه فى صندوق و حملوه إلى مصر، ثم أعيد إلى دمشق فأقام بها إلى ليلة عيد الفطر و أخرج منها. فلما كان لليلتين بقيتا من شوّال سنة عشر و أربعمائة، فقد الحاكم و قيل أن أخته قتلته و ليس بصحيح، و كان عمره ستا و ثلاثين سنة و سبعة أشهر، و كانت مدّة خلافته خمسا و عشرين سنة و شهرا، و كان جوادا سفاكا للدماء، قتل عددا لا يحصى، و كانت سيرته من أعجب السير، و خطب له على منابر مصر و الشام و أفريقية و الحجاز، و كان يشتغل بعلوم الأوائل، و ينظر فى النجوم و عمل رصدا و اتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك، و يقال أنه كان يعتريه جفاف فى دماغه، فلذلك كثر تناقضه، و ما أحسن ما قال فيه بعضهم، كانت أفعاله لا تعالى، و أحلام وساوسه لا تؤوّل، و قال المسبحىّ و فى محرّم سنة خمس عشرة و أربعمائة قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى، فأقرّ بأنه قتل الحاكم بأمر اللّه فى جملة أربعة أنفس تفرّقوا فى البلاد، و أظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم، و قطعة من الفوطة التى كانت عليه، فقيل له لم قتلته؟ فقال: غيرة للّه و للإسلام. فقيل له: كيف قتلته؟ فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده فقتل نفسه. و قال هكذا قتلته. فقطع رأسه و أنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه، و هذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم، لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته.

جامع الفيلة

هذا الجامع بسطح الجرف المطلّ على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد، بناه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۸

الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى شعبان سنة ثمان و سبعين و أربعمائة، و بلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار، و

إنما قيل له جامع الفيلة لأنّ فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر، إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدّرعين على فيلة، كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد، و عليها السرير و فوقها المدّرعون أيام الخلفاء، و لما كمل أقام فى خطابته الشريف الزكىّ أمين الدولة أبا جعفر محمد بن محمد بن هبة اللّه بن علىّ الحسينىّ الأفطسىّ النسابة الكاتب الشاعر الطرابلسىّ، بعد صرفه من قضاء الغربية، فلما رقى المنبر أوّل خطبة أقيمت فى هذا الجامع قال: بسم اللّه الحمد للّه، و أرتج عليه فلم يدر ما يقول، و كان هناك الشيخ أبو القاسم علىّ بن منجب بن الصيرفىّ الكاتب، و ولده مختص الدولة أبو المجد، و أبو عبد اللّه بن بركات النحوىّ، و وجوه الدولة. فلما أضجر من حضر نزل عن المنبر و قد حمّ، فتقدّم قيم الجامع و صلّى و مضى الشريف إلى داره فاعتلّ و مات.

و كان قد ولى قضاء عسقلان و غيرها، ثم قدم إلى مصر فولى الحكم بالمحلة، و ولى ديوان الأحباس، و كان أحد الأعيان الأدباء العارفين بالنسب، و من الشعراء المجيدين و النحاة اللغويين، ولد بطرابلس الشام فى سنة اثنتين و ستين و أربعمائة، و قدم إلى القاهرة فى سنة إحدى و خمسمائة، و مدح الأفضل، و مات فى سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة و خمسمائة، و قد ترشح للنقابة بمصر و لم ينلها مع تطلعه إليها، و ذيل كتاب أبى الغنائم الزيدىّ النسابة، و من شعره بديها، و قد نام مع جاريته على سطوح فطلع القمر عليهما فارتاعا من كشف الجيران عليهما:

و لمّا تلاقينا و غاب رقيبناورمت التشكى فى خلو و فى سرّ

بدا ضوء بدر فافترقنا لضوئهفيا من رأى بدرا ينمُّ على بدر

و أهل المطالب يذكرون أنّ الأفضل وجد بموضع الصهريج مطلبا، فختم عليه أشهرا إلى أن نقله و عمله صهريجا و بنى عليه هذا المسجد، و هذا الشرف الذى عليه جامع الفيلة منظرة فى غاية الحسن، لأنّ فى قبليه بركة الحبش و بستان الوزير المغربىّ و العدوية و دير النسطورية و بئر أبى سلامة، و هى بئر مدوّرة برسم الغنم، و بئر النعش، كان يستقى منها أصحاب الزوايا، و هى بجوار عفصة الصغرى، و هى بئر أبى موسى بن أبى خليد، و سميت بئر النعش لأنها على هيئة النعش، و ماؤها يهضم الطعام و هو أصح الأمواه، و شرقىّ هذا الجبل: جبل المقطعم و الجبانة و المغافر و القرافة و آخر الأكحول و ريحان و رعين و الكلاع و الأكسوع، و غربىّ هذا الجبل: المعشوق و النيل و بستان اليهودىّ إلى القبلة، و طموه و الأهرام و راشدة، و بحرىّ هذا الجبل بستان الأمير تميم، و قنطرة خليج بنى وائل، و دير المعدّلين، و عقبة بحصب، و محرى قسطنطين، و الشرف و غير ذلك. و هذا الجامع لا تقام فيه اليوم جمعة و لا جماعة لخراب ما حوله من القرافة و راشدة، و ينزل فيه أحيانا طائفة من العرب بإبلهم يقال لهم المسلمية، و عما قليل يدثر كما دثر غيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۷۹

جامع المقياس

هذا الجامع بجوار مقياس النيل من جزيرة الفسطاط أنشأه ... .

الجامع الأقمر

قال ابن عبد الظاهر: كان مكانه علافون، و الحوض مكان المنظرة، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطائحىّ فى إنشائه جامعا، فلم يترك قدّام القصر دكانا، و بنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين و مخازن من جهة باب الفتوح، لا من صوب القصر، و كمل الجامع المذكور فى أيامه، و ذلك فى سنة تسع عشرة و خمسمائة، و ذكر أن اسم الآمر و المأمون عليه. و قال غيره: و اشترى له حمّام شمول و دار النحاس بمصر، و حبسهما على سدنته و وقود مصابيحه و من يتولى أمره و يؤذن فيه، و ما زال اسم المأمون و الآمر على لوح فوق المحراب، و فيه تجديد الملك الظاهر بيبرس للجامع المذكور، و لم تكن فيه خطبة، لكنّه يعرف

بالجامع الأقمر. فلما كان فى شهر رجب سنة تسع و تسعين و سبعمائة، جدّده الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد اللّه السالمىّ، أحد المماليك الظاهرية، و أنشأ بظاهر بابه البحرىّ حوانيت يعلوها طباق، و جدّد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية، و جعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، و نصب فيه منبرا، فكانت أوّل جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان من السنة المذكورة، و خطب فيه شهاب الدين أحمد بن موسى الحلبىّ أحد نوّاب القضاة الحنفية، و أرتج عليه، و استمرّ إلى أن مات فى سابع عشرى شهر ربيع الأول سنة إحدى و ثمانمائة، و بنى على يمنة المحراب البحرىّ مئذنة، و بيّض الجامع كله و دهن صدره بلازورد و ذهب. فقلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع ما خلا تجديد الخطبة فيه و عمل بركة الماء. فإنّ الخطبة غير محتاج إليها هاهنا لقرب الخطب من هذا الجامع، و بركة الماء تضيق الصحن. و قد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق، فاحتجّ لعمل المنبر بأن ابن الطوير قال فيه كتاب نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة: و يقدّم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك. قال: فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية، و ما أنا بالذى أحدثته، و أما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين، و جعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أوّلا، و ذكر فيه تجديده لهذا الجامع، و رسم فيه نعوته و ألقابه، و جدّد أيضا حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب، و هو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق، و بئر هذا الجامع قديمة قبل الملة الإسلامية، كانت فى دير من ديارات النصارى بهذا الموضع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۰

فلما قدم القائد جوهر بجيوش المعز لدين اللّه فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة أدخل هذا الدير فى القصر، و هو موضع الركن المخلق تجاه الحوض المذكور، و جعل هذه البئر مما ينتفع به فى القصر، و هى تعرف ببئر العظام، و ذلك أن جوهر انقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال أنهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، و العامّة تقول إلى اليوم بئر المعظمة، و هى بئر كبيرة فى غاية السعة، و أوّل ما أعرف من إضافتها إلى الجامع الأقمر، أنّ العماد الدمياطىّ ركب على فوهتها هذه المحال التى بها الآن، و هى من جيد المحال، و كان تركيبها بعد السبعمائة فى أيام قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة الشافعىّ، و بهذا الجامع درس من قديم الزمان، و لم تزل مئذنته التى جدّدها السالمىّ و البركة إلى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فولى نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها، فهدمها و أبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره جدار الجامع القبلىّ، و الخطبة قائمة به إلى الآن.

الآمر بأحكام اللّه: أبو علىّ المنصور بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر لاعزاز دين اللّه أبى الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور، ولد يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم سنة تسعين و أربعمائة، و بويع له بالخلافة يوم مات أبوه و هو طفل له من العمر خمس سنين و أشهر و أيام، فى يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس و تسعين، أحضره الأفضل بن أمير الجيوش و بايع له و نصبه مكان أبيه، و نعته بالآمر بأحكام اللّه، و ركب الأفضل فرسا و جعل فى السرج شيئا و أركبه عليه لينمو شخص الآمر، و صار ظهره فى حجر الأفضل، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة و خمسمائة، فاستوزر بعده القائد أبا عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحىّ، و لقّبه بالمأمون، فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه فى ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة و خمسمائة، فتفرّغ الآمر لنفسه و لم يبق له ضدّ و لا مزاحم، و بقى بغير وزير، و أقام صاحبى ديوان أحدهما جعفر بن عبد المنعم، و الآخر سامرىّ يقال له أبو يعقوب إبراهيم، و معهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهبا، ثم تحكم هذا الراهب فى الناس و تمكن من الدواوين، فابتدأ فى مطالبة النصارى، و حقق فى جهاتهم الأموال و حملها أوّلا فأوّلا، ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين و المعاملين و الضمناء و العمال، و زاد إلى أن عمّ ضرره جميع الرؤساء و القضاة و الكتاب و السوقة، بحيث لم يخل أحد من ضرره.

فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر و ضرب بالنعال حتى مات بالشرطة، فجر إلى كرسىّ الجسر و سمّر على لوح و طرح فى النيل، و

حذف حتى خرج إلى البحر الملح. فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و ثب جماعة على الآمر و قتلوه، كما ذكر عند خبر الهودج، و كان كريما سمحا إلى الغاية، كثير النزهة محبا للمال و الزينة، و كانت أيامه كلها لهوا و عيشة راضية لكثرة عطائه و عطاء حواشيه، بحيث لم يوجد بمصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۱

و القاهرة إذ ذاك من يشكو زمانه البتة إلى أن نكّد بالراهب على الناس، فقبحت سيرته و كثر ظلمه و اغتصابه للأموال.

و فى أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعاقل و الحصون بسواحل الشام، فملكت عكافى شعبان سنة سبع و تسعين، و غزة فى رجب سنة اثنتين و خمسمائة، و طرابلس فى ذى الحجة منها، و بانياس و جبيل و قلعة تبنين فيها أيضا، و ملكوا صور فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة، و كثرت المرافعات فى أيامه، و أحدثت رسوم لم تكن، و عمر الهودج بالروضة، و دكة ببركة الحبش، و عمر تنيس و دمياط، و جدّد قصر القرافة، و كانت نفسه تحدّثه بالسفر و الغارة إلى بغداد، و من شعره فى ذلك:

دع اللوم عنى لست منى بموثقفلا بدّلى من صدمة المتحقق

و أسقى جيادى من فرات و دجلةو أجمع شمل الدين بعد التفرّق

و قال:

أما و الذى حجت إلى ركن بيتهجراثيم ركبان مقلدة شهبا

لاقتحمنّ الحرب حتى يقال لىملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا

و ينزل روح اللّه عيسى ابن مريمفيرضى بنا صحبا و نرضى به صحبا

و كان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن و يكتب خطا ضعيفا، و هو الذى جدّد رسوم الدولة و أعاد إليها بهجتها بعد ما كان الأفضل أبطل ذلك، و نقل الدواوين و الأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر، كما ذكر هناك. و قضاته ابن ذكا النابلسىّ، ثم نعمة اللّه بن بشير، ثم الرشيد محمد بن قاسم الصقلىّ، ثم الجليس بن نعمة اللّه بن بشير النابلسىّ، ثم صرفه ثانيا بمسلم بن الرسغىّ، و عزله بأبى الحجاج يوسف بن أيوب المغربىّ، ثم مات فولى محمد بن هبة اللّه بن ميسر، و كتاب إنشائه سنا الملك أبو محمد الزبيدىّ الحسنىّ، و الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة، و تاج الرياسة أبو القاسم بن الصيرفىّ، و ابن أبى الدم اليهودىّ. و كان نقش خاتمه: الإمام الآمر بأحكام اللّه أمير المؤمنين. و وقع فى آخر أيامه غلاء قلق الناس منه، و كان جريئا على سفك الدماء و ارتكاب المحظورات و استحسان القبائح، و قتل و عمره أربع و ثلاثون سنة و تسعة أشهر و عشرون يوما، منها مدّة خلافته تسع و عشرون سنة و ثمانية أشهر و نصف، و ما زال محجورا عليه حتى قتل الأفضل، و كان يركب للنزهة دائما عند ما استبدّ، فى يومى السبت و الثلاثاء، و يتحوّل فى أيام النيل بحرمه إلى اللؤلؤة على الخليج، و اختص بغلاميه برغش و هزار الملوك.

يلبغا السالمىّ: أبو المعالى عبد اللّه الأمير سيف الدين الحنفىّ الصوفى الظاهرىّ، كان اسمه فى بلاده يوسف، و هو حرّ الأصل، و آباؤه مسلمون. فلما جلب من بلاد المشرق سمى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۲

يلبغا، و قيل له السالمىّ نسبة إلى سالم، تاجره الذى جلبه، فترقّى فى خدم السلطان الملك الظاهر برقوق إلى أن ولّاه نظر خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فى ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع و تسعين و سبعمائة، فأخرج كتاب الوقف و قصد أن يعمل بشرط الواقف، و أخرج منها جماعة من بياض الناس، فجرت أمور ذكرت فى خبر الخانقاه. و فى سابع عشرى صفر سنة ثمانمائة، أنعم عليه الملك الظاهر بإمرة عشرة عوضا عن الأمير بهادر فطيلس، ثم نقله إلى أمرة طبلخاناه، ثم جعله ناظرا على الخانقاه الشيخونية بالصليبة، فى تاسع شعبان سنة إحدى و ثمانمائة، فعسف بمباشر بها و أراد حملهم على مرّ الحق، فنفرت منه القلوب، و لما مرض الظاهر جعله أحد الأوصياء على تركته، فقام بتحليف المماليك السلطانية للملك الناصر فرج بن برقوق، و الإنفاق عليهم بحضرة الناصر، فأنفق

عليهم كل دينار من حساب أربعة و عشرين درهما، و لما انقضت النفقة نودى فى البلدان أنّ صرف كل دينار ثلاثون درهما، و من امتنع نهب ماله و عوقب، فحصل للناس من ذلك شدّة، و كان قد كثر القبض على الأمراء بعد موت الظاهر، فتحدّث مع الأمير الكبير ايتمش القائم بتدبير دولة الناصر فرج بعد موت أبيه فى أن يكون على كلّ أمير من المقدّمين خمسون ألف درهم، و على كلّ أمير من الطبلخاناه عشرون ألف درهم، و على كلّ أمير عشرة خمسة آلاف درهم، و على كلّ أمير خمسة ألفا درهم و خمسمائة درهم. فرسم بذلك و عمل به مدّة ايام الناصر، و حصل به رفق للأمراء و مباشريهم، ثم خلع عليه و استقرّ أستادار السلطان عوضا عن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الملكيّ، فى يوم الاثنين ثالث عشرى ذى القعدة من السنة المذكورة، فأبطل تعريف منية بنى خصيب، و ضمان العرصة، و أخصاص الكيالين، و كتب بذلك مرسوما سلطانيا و بعث به إلى والى الأشمونين، و أبطل وفر الشون السلطانية، و ما كان مقرّرا على البردادار و هو فى الشهر سبعة آلاف درهم، و ما كان مقرّرا على مقدّم المستخرج، و هو فى الشهر ثلاثة آلاف درهم، و كانت سماسرة الغلال تأخذ ممن يشترى شيئا من الغلة على كلّ أردب در همين سمسرة، و كيالة و لواحة و أمانة، فألزمهم أن لا يأخذوا عن كل أردب سوى نصف درهم، و هدّد على ذلك بالغرامة و العقوبة.

و ركب فى صفر سنة ثلاث و ثمانمائة إلى ناحية المنية و شبرا الخيمة من الضواحى بالقاهرة، و كسر منها ما ينيف على أربعين ألف جرّة خمر، و خرّب بها كنيسة كانت للنصارى، و حمل عدّة جرار فكسرها تحت قلعة الجبل، و على باب زويلة، و شدّد على النصارى، فلم يمكنه أمراء الدولة من حملهم على الصغار و المذلة فى ملبسهم، و أمر فضرب الذهب كلّ دينار زنته مثقال واحدا، و أراد بذلك إبطال ما حدث من المعاملة بالذهب الإفرنجيّ، فضرب ذلك و تعامل الناس به مدّة، و صار يقال دينار سالميّ إلى أن

ضرب الناصر فرج دنانير و سماها الناصرية، و صار يحكم فى الأحكام الشرعية، فقلق منه أمراء الدولة و قاموا فى ذلك، فمنع من الحكم إلّا فيما يتعلق بالديوان المفرد و غيره مما هو من لوازم الأستادار، و أخذ فى مخاشنة الأمراء عند ما عاد الناصر فرج و قد انهزم من تيمور لنك، و شرع فى إقامة شعار المملكة و النفقة على العساكر التى رجعت منهزمة، فأخذ من بلاد الأمراء و بلاد السلطان عن كلّ ألف دينار فرسا أو خمسمائة درهم ثمنها، و جبى من أملاك القاهرة و مصر و ظواهرهما أجرة شهر، و أخذ من الرزق عن كلّ فدّان عشرة دراهم، و عن الفدّان من القصب المزروع و القلقاس و النيلة نحو مائة درهم، وجبى من البساتين عن كلّ فدّان مائة درهم، و قام بنفسه و كبس الحواصل ليلا و نهارا و معه جماعة من الفقهاء و غيرهم، و أخذ مما فيها من الذهب و الفضة و الفلوس نصف ما يجد، سواء كان صاحب المال غائبا أو حاضرا، فعمّ ذلك أموال التجار و الأيتام و غيرهم من سائر من وجد له مال، و أخذ ما كان فى الجوامع و المدارس و غيرها من الحواصل، فشمل الناس من ذلك ضرر عظيم، و صار يؤخذ من كل مائة درهم ثلاثة دراهم عن أجرة صرف، و ستة دراهم عن أجرة الرسول، و عشرة دراهم عن أجرة نقيب، فنفرت منه القلوب و انطلقت الألسن بذمّه و الدعاء عليه، و عرض مع ذلك الجند و ألزم من له قدرة على السفر بالتجهز للسفر إلى الشام لقتال تيمور لنك، و من وجده عاجزا عن السفر ألزمه بحمل نصف متحصل إقطاعه، فقبض عليه فى يوم الاثنين رابع عشر رجب سنة ثلاث و ثمانمائة، و سلّم للقاضى سعد الدين إبراهيم بن غراب، و قرّر مكانه فى الاستادارية، فلم يزل إلى يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأمر بإطلاقه بعد أن حصر و أهين إهانة كبيرة، ثم قبض عليه و ضرب ضربا مبرّحا حتى أشفى على الموت، و أطلق فى نصف ذى القعدة و هو مريض، فأخرج إلى دمياط و أقام بها مدّة، ثم أحضر إلى القاهرة و قلّد وظيفة الوزارة فى سنة خمس و ثمانمائة، و جعل مشيرا، فأبطل مكوس البحيرة و هو ما يؤخذ على ما يذبح من البقر و الغنم، و استعمل فى أموره العسف، و ترك مداراة الأمراء، و استعجل فقبض عليه و عوقب و سجن إلى أن أخرج فى رمضان سنة سبع و ثمانمائة و قلّد وظيفة الإشارة، و كانت للأمير جمال الدين يوسف الأستادار، فلم يترك عادته فى الإعجاب برأيه و الاستبداد بالأمور، و استعجال الأشياء قبل أوانها، فقبض عليه فى ذى الحجة منها و سلّم للأمير جمال الدين يوسف، فعاقبه و بعث به إلى الإسكندرية، فسجن بها إلى أن سعى جمال الدين فى قتله بمال بذله للناصر فيه حتى أذن له فى ذلك، فقتل خنقا عصر يوم

الجمعة و هو صائم السابع عشر من جمادى الآخرة، سنة إحدى عشرة و ثمانمائة رحمه اللّه، و كان كثير النسك من الصلاة و الصوم و الصدقة، لا يخلّ بشيء من نوافل العبادات، و لا يترك قيام الليل سفرا و لا حضرا، و لا يصلى قط إلّا بوضوء جديد، و كلما أحدث توضأ، و إذا توضأ صلّى ركعتين، و كان يصوم يوما و يفطر يوما، و يخرج فى كثرة الصدقات عن الحدّ، و يقرأ فيه كلّ ثلاثة أيام ختمة، و لا يترك أوراده فى حال من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۴

الأحوال مع المروءة و الهمة، و سمع كثيرا من الحديث، و قرأ بنفسه على المشايخ، و كتب الخط المليح، و قرأ القراءات السبع، و عرف التصوّف و الفقه و الحساب و النجوم، إلّا أنه كان متهوّرا فى أخذ الأموال عسوفا لجوجا مصمما لا ينقاد إلى أحد، و يستبدّ برأيه فيغلط غلطات لا تحتمل، و يستخف بغيره، و يعجب بنفسه، و يريد أن يجعل غاية الأمور بدايتها، فلذلك لم يتمّ له أمر.

جامع الظافر

هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديما بسوق السرّاجين، و يعرف اليوم بسوق الشوّايين، كان يقال له الجامع الأفخر، و يقال له اليوم جامع الفاكهيين، و هو من المساجد الفاطمية، عمره الخليفة الظافر بنصر اللّه أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبد المجيد بن الآمر بأحكام اللّه منصور، و وقف حوانيته على سدنته و من يقرأ فيه. قال ابن عبد الظاهر: بناه الظافر، و كان قبل ذلك زريبة تعرف بدار الكباش، و بناه فى سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، و سبب بنائه أن خادما رأى من مشرف عال ذباحا و قد أخذ رأسين من الغنم، فذبح أحدهما ورمى سكينته و مضى ليقضى حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر و أخذ السكين بفمه و رماها فى البالوعة، فجاء الجزّار يطوف على السكين، فلم يجدها، و أما الخادم فإنه استصرخ و خلصه منه، و طولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا، و يسمى الجامع الأفخر، و به حلقة تدريس و فقهاء و متصدّرون للقرآن، و أوّل ما أقيمت به الجمعة فى ... .

جامع الصالح

اشارة

هذا الجامع من المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين، و هو خارج باب زويلة. قال ابن عبد الظاهر: كان الصالح طلائع بن رزيك لما خيف على مشهد الإمام الحسين رضى اللّه عنه إذ كان بعسقلان من هجمة الفرنج، و عزم على نقله، قد بنى هذا الجامع ليدفنه به، فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة من ذلك و قال: لا يكون إلّا داخل القصور الزاهرة، و بنى المشهد الموجود الآن و دفن به، و تمّ الجامع المذكور، و استمرّ جلوس زين الدين الواعظ به، و حضور الصالح إليه. فيقال أنّ الصالح لما حضرته الوفاة جمع أهله و أولاده و قال لهم فى جملة وصيته: ما ندمت قط فى شيء عملته إلّا فى ثلاثة، الأوّل بنائى هذا الجامع على باب القاهرة، فإنه صار عونا لها. و الثانى: توليتى لشاور الصعيد الأعلى.

و الثالث: خروجى إلى بلبيس بالعساكر و إنفاقى الأموال الجمة، و لم أتم بهم إلى الشام و أفتح بيت المقدس و استأصل ساقة الفرنج. و كان قد أنفق فى العساكر فى تلك الدفعة مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۵

ألف دينار، و بنى فى الجامع المذكور صهريجا عظيما، و جعل ساقية على الخليج قريب باب الخرق تملأ الصهريج المذكور أيام النيل، و جعل المجارى إليه، و أقيمت الجمعة فيه فى الأيام المعزية فى سنة بضع و خمسين و ستمائة بحضور رسول بغداد الشيخ نجم

الدين عبد اللّه البادرانيّ، و خطب به أصيل الدين أبو بكر الأسعرديّ، و هى إلى الآن، و لما حدثت الزلزلة سنة اثنتين و سبعمائة تهدّم، فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار.

طلائع بن رزيك: أبو الغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، قدم فى أوّل أمره إلى زيارة مشهد الإمام علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه بأرض النجف من العراق فى جماعة من الفقراء، و كان من الشيعة الإمامية، و إمام مشهد علىّ رضى اللّه عنه يومئذ السيد ابن معصوم، فزار طلائع و أصحابه و باتوا هنالك، فرأى ابن معصوم فى منامه علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه و هو يقول له: قد ورد عليك الليلة أربعون فقيرا، من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا، قل له اذهب فقد وليناك مصر. فلما أصبح أمر أن ينادى: من فيكم طلائع بن رزيك فليقم إلى السيد ابن معصوم. فجاء طلائع و سلّم عليه، فقصّ عليه ما رأى، فسار حينئذ إلى مصر و ترقى فى الخدم حتى ولى منية بنى خصيب، فلما قتل نصر بن عباس، الخليفة الظافر، بعث نساء القصر إلى طلائع يستغثن به فى الأخذ بثار الظافر، و جعلن فى طىّ الكتب شعور النساء، فجمع طلائع عندما وردت عليه الكتب الناس، و سار يريد القاهرة لمحاربة الوزير عباس، فعندما قرب من البلد فرّ عباس و دخل طلائع إلى القاهرة، فخلع عليه خلع الوزارة و نعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، فباشر البلاد أحسن مباشرة، و استبدّ بالأمر لصغر سنّ الخليفة الفائز بنصر اللّه إلى أن مات، فأقام من بعده عبد اللّه بن محمد و لقبه بالعاضد لدين اللّه، و بايع له، و كان صغيرا لم يبلغ الحلم، فقويت حرمة طلائع و ازداد تمكنه من الدولة، فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم، و استبداده بالأمر دونهم، فوقف له رجال بدهاليز القصر و ضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه، و حمل جريحا لا يعى إلى داره، فمات يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة ست و خمسين و خمسمائة، و كان شجاعا كريما جوادا فاضلا محبا لأهل الأدب جيد الشعر، رجل وقته فضلا و عقلا و سياسة و تدبيرا، و كان مهابا فى شكله، عظيما فى سطوته، و جمع أموالا عظيمة، و كان محافظا على الصلوات فرائضها و نوافلها، شديد المغالات فى التشيع، صنف كتابا سماه الاعتماد فى الردّ على أهل العناد، جمع له الفقهاء و ناظرهم عليه، و هو يتضمن إمامة علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و الكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك، و له شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كلّ فن، فمنه فى اعتقاده:

يا أمة سلكت ضلالا بيناحتى استوى إقرارها و جحودها

ملتم إلى أنّ المعاصى لم يكن إلّا بتقدير الإله وجودها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۶ لو صح ذا كان الإله بزعمكممنع الشريعة أن تقام حدودها

حاشا و كلّا أنّ يكون إلهناينهى عن الفحشاء ثم يريدها

و له قصيدة سماها الجوهرية، فى الردّ على القدرية، و جدّد الجامع الذى بالقرافة الكبرى، و وقف ناحية بلقس على أن يكون ثلثاها على الأشراف من بنى حسن و بنى حسين ابنى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، و سبع قراريط منها على أشراف المدينة النبوية، و جعل فيها قيراطا على بنى معصوم إمام مشهد علىّ رضى اللّه عنه، و لما ولى الوزارة مال على المستخدمين بالدولة و على الأمراء، و أظهر مذهب الإمامية و هو مخالف لمذهب القوم، و باع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقرّرة، و جعل مدة كلّ متولى ستة أشهر، فتضرّر الناس من كثرة تردّد الولاة على البلاد، و تعبوا من ذلك، و كان له مجلس فى الليل يحضره أهل العلم و يدوّنون شعره، و لم يترك مدّة أيامه غزو الفرنج و تسيير الجيوش لقتالهم فى البرّ و البحر، و كان يخرج البعوث فى كل سنة مرارا، و كان يحمل فى كلّ عام إلى أهل الحرمين مكة و المدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة و غيرها، حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها، و الأقلام و المداد و آلات النساء، و يحمل كلّ سنة إلى العلويين الذين بالمشاهد جملا كبيرة، و كان أهل العلم يغدون إليه من سائر البلاد، فلا يخيب أمل قاصد منهم.

و لما كان فى الليلة التى قتل صبيحتها قال: فى هذه الليلة ضرب فى مثلها أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و أمر بقربة ممتلئة فاغتسل و صلّى على رأى الإمامية مائة و عشرين ركعة، أحيا بها ليله، و خرج ليركب فعثر و سقطت عمامته عن رأسه و

تشوّشت، فقعد فى دهليز دار الوزارة و أمر بإحضار ابن الضيف، و كان يتعمم للخلفاء و الوزراء، و له على ذلك الجارى الثقيل، فلما أخذ فى إصلاح العمامة قال رجل للصالح:

نعيذ باللّه مولانا، و يكفيه هذا الذى جرى أمرا يتطير منه، فإن رأى مولانا أن يؤخر الركوب فعل، فقال: الطيرة من الشيطان، ليس إلى تأخير الركوب سبيل، و ركب فكان من ضربه ما كان، و عاد محمولا فمات منها كما تقدّم.

ذكر الأحباس و ما كان يعمل فيها

اعلم أن الأحباس فى القديم لم تكن تعرف إلّا فى الرباع و ما يجرى مجراها من المبانى، و كلها كانت على جهات برّ. فأما المسجد الجامع العتيق بمصر، فكان يلى إمامته فى الصلوات الخمس، و الخطابة فيه يوم الجمعة، و الصلاة بالناس صلاة الجمعة أمير البلد، فتارة يجمع للأمير بين الصلاة و الخراج، و تارة يفرد الخراج عن الأمير، فيكون الأمير إليه أمر الصلاة بالناس و الحرب، و الآخر أمر الخراج، و هو دون مرتبة أمير الصلاة و الحرب، و كان الأمير يستخلف عنه فى الصلاة صاحب الشرطة إذا شغله أمر، و لم يزل الأمر على ذلك إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۷

أن ولى مصر عنبسة بن إسحاق بن شمر من قبل المستنصر بن المتوكل على الصلاة و الخراج، فقدمها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، و أقام إلى مستهل رجب سنة اثنتين و أربعين و مائتين، و صرف فكان آخر من ولى مصر من العرب، و آخر أمير صلّى بالناس فى المسجد الجامع، و صار يصلّى بالناس رجل يرزق من بيت المال، و كذلك المؤذنون و نحوهم، و أما الأراضى فلم يكن سلف الأمّة من الصحابة و التابعين يتعرّضون لها، و إنما حدث ذلك بعد عصرهم، حتى أنّ أحمد بن طولون لما بنى الجامع و المارستان و السقاية، و حبس على ذلك الأحباس الكثيرة، لم يكن فيها سوى الرباع و نحوها بمصر، و لم يتعرّض إلى شىء من أراضى مصر البتة، و حبس أبو بكر محمد بن علىّ الماردانىّ بركة الحبش و سيوط و غيرهما على الحرمين و على جهات برّ، و حبس غيره أيضا.

فلما قدمت الدولة الفاطمية من الغرب إلى مصر، بطل تحبيس البلاد، و صار قاضى القضاة يتولى أمر الأحباس من الرباع، و إليه أمر الجوامع و المشاهد، و صار للإحباس ديوان مفرد، و أوّل ما قدم المعز أمر فى ربيع الآخر سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة بحمل مال الأحباس من المودع إلى بيت المال الذى لوجوه البرّ، و طولب أصحاب الأحباس بالشرائط ليحملوا عليها. و ما يجب لهم فيها، و للنصف من شعبان ضمن الأحباس محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد بألف ألف و خمسمائة ألف درهم فى كلّ سنة، يدفع إلى المستحقين حقوقهم و يحمل ما بقى إلى بيت المال. و قال ابن الطوير: الخدمة فى ديوان الأحباس و هو أوفر الدواوين مباشرة، و لا يخدم فيه إلّا أعيان كتّاب المسلمين من الشهود المعدّلين، بحكم أنها معاملة دينية، و فيها عدّة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم فى إيجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب، و ينجزون لهم الخروج بإطلاق أرزاقهم، و لا يوجب لأحد من هؤلاء خرج إلّا بعد حضور ورقة التعريف، من جهة مشارف الجوامع و المساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه، و من تأخر تعريفه تأخر الإيجاب له، و إن تمادى ذلك استبدل به، أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى، خلا جوارى المشاهد فإنها لا توفر، لكنها تنقل من مقصر إلى ملازم، و كان يطلق لكل مشهد خمسون درهما فى الشهر برسم الماء لزوّارها، و يجرى من معاملة سواقى السبيل بالقرافة و النفقة عليها من ارتفاعه، فلا تخلو المصانع و لا الأحواض من الماء أبدا، و لا يعترض أحد من الانتفاع به، و كان فيه كاتبان و معينان.

و قال المسبحى فى حوادث سنة ثلاث و أربعمائة: و أمر الحاكم بأمر اللّه بإثبات المساجد التى لا غلة لها، و لا أحد يقوم بها، و ماله منها غلة لا تقوم بما يحتاج إليه، فأثبت فى عمل، و رفع إلى الحاكم بأمر اللّه، فكانت عدّة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة و ثلاثين مسجدا، و مبلغ ما تحتاج إليه من النفقة فى كلّ شهر تسعة آلاف و مائتان و عشرون درهما. على أنّ لكلّ مسجد فى كلّ شهر

اثنى عشر درهما. و قال فى حوادث سنة خمس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۸

و أربعمائة: و قرىء يوم الجمعة ثامن عشرى صفر سجل بتحبيس عدّة ضياع، و هى: اطفيح وصول و طوخ و ست ضياع أخر، و عدّة قياسر و غيرها على القرّاء و الفقهاء و المؤذنين بالجوامع، و على المصانع و القوّام بها، و نفقة المارستانات و أرزاق المستخدمين فيها و ثمن الأكفان.

و قال الشريف بن أسعد الجوّانىّ: كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المساجد و المشاهد بمصر و القاهرة يبدأون بجامع المقس، ثم القاهرة، ثم المشاهد، ثم القرافة، ثم جامع مصر، ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك و قناديله و عمارته و ما تشعث منه، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية. فلما استقرّت دولة بنى أيوب أضيفت الأحباس أيضا إلى القاضى، ثم تفرّقت جهات الأحباس فى الدولة التركية و صارت إلى يومنا هذا ثلاث جهات: الأولى تعرف بالأحباس، و يلى هذه الجهة دوادار السلطان، و هو أحد الأمراء و معه ناظر الأحباس، و لا يكون إلّا من أعيان الرؤساء، و بهذه الجهة ديوان فيه عدّة كتاب و مدبر، و أكثر ما فى ديوان الأحباس الرزق الإحباسية، و هى أراض من أعمال مصر على المساجد و الزوايا للقيام بمصالحها، و على غير ذلك من جهات البرّ، و بلغت الرزق الإحباسية فى سنة أربعين و سبعمائة عند ما حرّرها النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، مائة ألف و ثلاثين ألف فدّان، عمل النشو بها أوراقا، و حدّث السلطان فى إخراجها عمن هى باسمه و قال: جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل و التقرّب إلى الأمراء و الحكام، و أكثرها بأيدى أناس من فقهاء الأرياف لا يدرون الفقه، يسمون أنفسهم الخطباء، و لا يعرفون كيف يخطبون و لا يقرءون القرآن، و كثير منها بأسماء مساجد و زوايا معطلة و خراب، و حسن له أن يقيم شادّا و ديوانا يسير فى النواحى و ينظر فى المساجد التى هى عامرة، و يصرف لها من رزقها النصف، و ما عدا ذلك يجرى فى ديوان السلطان. فعاجله اللّه و قبض عليه قبل عمل شىء من ذلك.

الجهة الثانية تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر و القاهرة، ويلى هذه الجهة قاضى القضاة الشافعىّ، و فيها ما حبس من الرباع على الحرمين و على الصدقات و الأسرى و أنواع القرب، و يقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف، فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر و القاهرة رجل واحد من أعيان نوّاب القاضى، و تارة ينفرد بأوقاف القاهرة ناطر من الأعيان، و يلى نظر أوقاف مصر آخر، و لكلّ من أوقاف البلدين ديوان فيه كتّاب و جباة، و كانت جهة عامرة يتحصل منها أموال جمة، فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة فى كلّ سنة، تحمل من مصر إليهم مع من يثق به قاضى القضاة، و تفرّق هناك صررا، و يصرف منها أيضا بمصر و القاهرة لطلبة العلم و لأهل الستر و للفقراء شىء كثير، إلّا أنها اختلت و تلاشت فى زمننا هذا، و عما قليل إن دام ما نحن فيه لم يبق لها أثر البتة، و سبب ذلك أنه ولى قضاء الحنفية كمال الدين عمر بن العديم فى أيام الملك الناصر فرج، و ولاية الأمير جمال الدين يوسف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۸۹

تدبير الأمور و المملكة، فتظاهرا معا على إتلاف الأوقاف، فكان جمال الدين إذا أراد أخذ وقف من الأوقاف، أقام شاهدين يشهدان بأن هذا المكان يضرّ بالجار و المارّ، و أن الحظ فيه.

أن يستبدل به غيره، فيحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم باستبدال ذلك، و شره جمال الدين فى هذا الفعل كما شره فى غيره، فحكم له المذكور باستبدال القصور العامرة، و الدور الجليلة بهذه الطريقة، و الناس على دين ملكهم، فصار كلّ من يريد بيع وقف أو شراء وقف سعى عند القاضى المذكور بجاه أو مال، فيحكم له بما يريد من ذلك، و استدرج غيره من القضاة إلى نوع آخر، و هو أن تقام شهود القيمة فيشهدون بأن هذا الوقف ضارّ بالجار و المار، و أن الحظ و المصلحة فى بيعه أنقاضا، فيحكم قاض شافعىّ المذهب ببيع تلك الأنقاض. و استمرّ الأمر على هذا إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه، ثم زاد بعض سفهاء قضاة زمننا فى المعنى و حكم ببيع المساجد الجامعة إذا خرب ما حولها، و أخذ ذرية واقفها ثمن أنقاضها، و حكم آخر منهم ببيع الوقف و دفع الثمن لمستحقه من

غير شراء بدل، فامتدّت الأيدى لبيع الأوقاف حتى تلف بذلك سائر ما كان فى قرافتى مصر من الترب، و جميع ما كان من الدور الجليلة، و المساكن الأنيقة، بمصر الفسطاط و منشأة المهرانيّ و منشأة الكتاب و زريبة قوصون و حكر ابن الأثير و سويقة الموفق، و ما كان فى الحكورة من ذلك، و ما كان بالجوّانية و العطوفية و غيرها من حارات القاهرة و غيرها، فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب، كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

الجهة الثالثة: الأوقاف الأهلية، و هى التى لها ناظر خاص، إمّا من أولاد الواقف أو من ولاة السلطان أو القاضى، و فى هذه الجهة الخوانك و المدارس و الجوامع و الترب، و كان متحصلها قد خرج عن الحدّ فى الكثرة لما حدث فى الدولة التركية من بناء المدارس و الجوامع و الترب و غيرهما، و صاروا يفردون أراضى من أعمال مصر و الشامات، و فيها بلاد مقرّرة، و يقيمون صورة يتملكونها بها و يجعلونها وقفا على مصارف كما يريدون، فلما استبدّ الأمير برقوق بأمر بلاد مصر قبل أن يتلقب باسم السلطنة، همّ بارتجاع هذه البلاد و عقد مجلسا فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينيّ، و قاضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى البقاء، و غيره. فلم يتهيأ له ذلك، فلما جلس على تخت الملك صار أمراؤه يستأجرون هذه النواحى من جهات الأوقاف، و يؤجرونها للفلاحين بأزيد مما استأجروا، فلما مات الظاهر فحش الأمر فى ذلك و استولى أهل الدولة على جميع الأراضى الموقوفة بمصر و الشامات، و صار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصل له، و إلّا فكثير منهم لا يدفع شيئا البتة، لا سيما ما كان من ذلك فى بلاد الشام، فإنه استهلك و أخذ، و لذلك كان أسوأ الناس حالا فى هذه المحن التى حدثت منذ سنة ست و ثمانمائة الفقهاء، لخراب الموقوف عليها و بيعه و استيلاء أهل الدولة على الأراضى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۰

الجامع بجوار تربة الشافعىّ بالقرافة

هذا الجامع كان مسجدا صغيرا، فلما كثر الناس بالقرافة الصغرى عندما عمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة بجوار قبر الإمام الشافعيّ رضى اللّه عنه، و جعل لها مدرّسا و طلبة، زاد الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى المسجد المذكور، و نصب به منبرا و خطب فيه، و صليت الجمعة به فى سنة سبع و ستمائة.

جامع محمود بالقرافة

هذا المسجد قديم و الخطبة فيه متجدّدة، و ينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل، من أجناد السرىّ بن الحكم أمير مصر بعد سنة مائتين من الهجرة. قال القضاعيّ: المسجد المعروف بمحمود، يقال أن محمودا هذا كان رجلا جنديا من جند السرىّ بن الحكم أمير مصر، و أنه هو الذى بنى هذا المسجد، و ذلك أنّ السرىّ بن الحكم ركب يوما فعارضه رجل فى طريقه فكلمه و وعظه بما غاظه، فالتفت عن يمينه فرأى محمودا، فأمره بضرب عنق الرجل ففعل. فلما رجع محمود إلى منزله تفكر و ندم و قال: رجل يتكلم بموعظة بحق فيقتل بيدى و أنا طائع غير مكره على ذلك، فهلا امتنعت، و كثر أسفه و بكاؤه و آلى على نفسه أن يخرج من الجندية و لا يعود فيها، و لم ينم ليلته من الغمّ و الندم، فلما أصبح غدا إلى السرىّ فقال له: إنى لم أنم فى هذه الليلة على قتل الرجل، و أنا أشهد اللّه عز و جلّ و أشهدك أنى لا أعود فى الجندية، فأسقط اسمى منهم، و إن أردت نعمتى فهى بين يديك، و خرج من بين يديه و حسنت توبته و أقبل على العبادة، و اتخذ المسجد المعروف بمسجد محمود و أقام فيه.

و قال ابن المتوج: المسجد الجامع المشهور بسفح المقطم، هذا الجامع من مساجد الخطبة، و هو بسفح الجبل المقطم بالقرافة الصغرى، و أوّل من خطب فيه السيد الشريف شهاب الدين الحسين بن محمد قاضى العسكر، و المدرّس بالمدرسة الناصرية الصلاحية بجوار جامع عمرو، و به عرفت بالشريفية و سفير الخلافة المعظمة، و توفى فى شوّال سنة خمس و خمسين و ستمائة، و كان أيضا نقيب

الأشراف.

جامع الروضة بقلعة جزيرة الفسطاط

قال ابن المتوج: هذا الجامع عمره السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كان أمام بابه كنيسة تعرف بابن لقلق بترك اليعاقبة، و كان بها بئر مالحة، و ذلك مما عدّ من عجائب مصر أن في وسط النيل جزيرة بوسطها بئر مالحة، و هذه البئر التى رأيتها كانت قبالة باب المسجد الجامع، و إنما ردمت بعد ذلك، و هذا الجامع لم يزل بيد بنى الرّدّاد و لهم نوّاب عنهم فيه، ثم لما كانت أيام السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودىّ هدم هذا الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۱

فى شهر رجب سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و وسعه بدور كانت إلى جانبه، و شرع فى عمارته فمات قبل الفراغ منه.

جامع غين بالروضة

قال ابن المتوّج: المسجد الجامع بروضة مصر يعرف بجامع غين، و هو القديم، و لم تزل الخطبة قائمة فيه إلى أن عمر جامع المقياس فبطلت الخطبة منه، و لم تزل الخطبة بطالة منه إلى الدولة الظاهرية، فكثرت عمائر الناس حوله فى الروضة و قلّ الناس فى القلعة، و صاروا يجدون مشقة فى مشيهم من أوائل الروضة، و عمر الصاحب محيى الدين أحمد ولد الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا داره على خوخة الفقيه نصر قبالة هذا الجامع، فحسن له إقامة الجمعة فى هذا الجامع لقربه منه و من الناس، فتحدّث مع والده فشاور السلطان الملك الظاهر بيبرس، فوقع منه بموقع لكثرة ركوبه بحر النيل و اعتنائه بعمارة الشوانى و لعبها فى البحر، و نظره إلى كثرة الخلائق بالروضة، و رسم بإقامة الخطبة فيه مع بقاء الخطبة بجامع القلعة لقوّة نيته فى عمارتها على ما كانت عليه، فأقيمت الخطبة به فى سنة ستين و ستمائة، و ولى خطابته أقضى القضاة جمال الدين بن الغفارىّ، و كان ينوب بالجيزة فى الحكم، ثم ناب فى الحكم بمصر عن قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ، و كان إمامه فى حال عطلته من الخطبة، فلما أقيمت فيه الخطبة أضيفت إليه الخطابة فيه مع الإمامة. غين أحد خدّام الخليفة الحاكم بأمر اللّه، خلع عليه فى تاسع ربيع الآخر سنة اثنتين و أربعمائة، و قلده سيفا و أعطاه سجلا قرىء فإذا فيه أنه لقب بقائد القوّاد، و أمر أن يكتب بذلك و يكاتب به، و ركب و بين يديه عشرة أفراس بسروجها و لجمها، و فى ذى القعدة من السنة المذكورة أنفذ إليه الحاكم خمسة آلف دينار، و خمسة و عشرين فرسا بسروجها و لجمها، و قلده الشرطتين و الحسبة بالقاهرة و مصر و الجيزة، و النظر فى أمور الجميع و أموالهم و أحوالهم كلها، و كتب له سجلا بذلك قرىء بالجامع العتيق، فنزل إلى الجامع و معه سائر العسكر و الخلع عليه، و حمل على فرسين، و كان فى سجله مراعاة أمر النبيذ و غيره من المسكرات، و تتبع ذلك و التشديد فيه، و فى المنع من عمل الفقاع و بيعه، و من أكل الملوخيا و السمك الذى لا قشر له، و المنع من الملاهى كلها، و التقدّم بمنع النساء من حضور الجنائز، و المنع من بيع العسل، و أن لا يتجاوز فى بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا يسبق إليه ظنه أن يتخذ منه مسكرا، فاستمرّ ذلك إلى غرّة صفر سنة أربع و أربعمائة، فصرف عن الشرطتين و الحسبة بمظفر الصقلىّ. فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر منها، أمر بقطع يدى كاتبه أبى القاسم علىّ بن أحمد الجرجانىّ فقطعتا جميعا، و ذلك أنه كان يكتب عند السيدة الشريفة أخت الحاكم، فانتقل من خدمتها إلى خدمة غين خوفا على نفسه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۲

من خدمتها، فسخطت لذلك، فبعث إليها يستعطفها و يذكر فى رقعته شيئا وقفت عليه، فارتابت منه فظنت أن ذلك حيلة عليها، و أنفذت الرقعة فى طىّ رقعتها إلى الحاكم، فلما وقف عليها اشتدّ غضبه و أمر بقطع يديه جميعا فقطعتا، و قيل بل كان غين هو الذى يوصل رقاع عقيل صاحب الخبر إلى الحاكم فى كلّ يوم، فيأخذها من عقيل و هى مختومة بخاتمه و يدفعها لكاتبه أبى القاسم

الجرجانىّ، حتى يخلو له وجه الحاكم فيأخذها حينئذ من كاتبه و يوقفه عليها، و كان الجرجانىّ يفك الختم و يقرأ الرقاع، فلما كان فى يوم من الأيام فك رقعة فوجد فيها طعنا على غين أستاذه، و قد ذكر فيها بسوء، فقطع ذلك الموضع و أصلحه و أعاد ختم الرقعة، فبلغ ذلك عقيلا صاحب الخبر فبعث إلى الحاكم يستأذنه فى الاجتماع به فى خلوة فى أمر مهم، فأذن له، و حدّثه بالخبر، فأمر حينئذ بقطع يدى الجرجانىّ فقطعتا، ثم بعد قطع يديه بخمسة عشر يوما فى ثالث جمادى الأولى، قطعت يد غين الأخرى، و كان قد أمر بقطع يده قبل ذلك بثلاث سنين و شهر، فصار مقطوع اليدين معا، و لما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم، فبعث إليه بالأطباء و وصله بألوف من الذهب و عدّة من أسفاط ثياب، و عاده جميع أهل الدولة، فلما كان ثالث عشره أمر بقطع لسانه فقطع و حمل إلى الحاكم، فسيّر إليه الأطباء و مات بعد ذلك.

جامع الأفرم

قال ابن المتوّج: هذا الجامع بسفح الرصد، عمره الأمير عز الدين أيبك بن عبد اللّه المعروف بالأفرم أمير جاندار الملكىّ الصالحىّ النجمىّ، فى شهور سنة ثلاث و ستين و ستمائة، لما عمر المنظرة هناك، و عمر بجوارها رباطا للفقراء، و قرّرهم عدّة تنعقد بهم الجمعة، و قرّر إقامتهم فيه ليلا و نهارا، و قرّر كفايتهم و إعانتهم على الإقامة، و عمر لهم هذا الجامع يستغنون به عن السعى إلى غيره، و ذكر أن الأفرم أيضا عمر مسجدا بجسر الشعيبية فى شعبان سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، جامعا هدم فيه عدّة مساجد.

الجامع بمنشأة المهرانىّ

قال ابن المتوّج: و السبب فى عمارة هذا الجامع، أن القاضى الفاضل كان له بستان عظيم فيما بين ميدان اللوق و بستان الخشاب، الذى أكله البحر، و كان يمير مصر و القاهرة من ثماره و أعنابه، و لم تزل الباعة ينادون على العنب رحم اللّه الفاضل يا عنب إلى مدّة سنين عديدة بعد أن أكله البحر، و كان قد عمر إلى جانبه جامعا و بنى حوله، فسميت بمنشأة الفاضل، و كان خطيبه أخا الفقيه موفق الدين بن المهدوىّ الديباجىّ العثمانىّ، و كان قد عمر بجواره دارا و بستانا و غرس فيه أشجارا حسنة، و دفع إليه ألف دينار مصرية فى أوّل الدولة الظاهرية، و كان الصرف قد بلغ فى ذلك الوقت كل دينار ثمانية و عشرين درهما

و نصف درهم نقرة ، فاستولى البحر على الجامع و الدار و المنشأة، و قطع جميع ذلك حتى لم يبق له أثر، و كان خطيبه موفق الدين يسكن بجوار الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن حنا، و يتردّد إليه و إلى والده محيى الدين، فوقف و ضرع إليهما و قال: أكون غلام هذا الباب و يخرب جامعى، فرحمه الصاحب و قال: السمع و الطاعة يدبر اللّه، ثم فكر فى هذه البقعة التى فيها هذا الجامع الآن، و كانت تعرف بالكوم الأحمر، مرصدة لعمل أقمنة الطوب الآجرية، سميت بالكوم الأحمر، و كان الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن حنا، قد عمر منظرة قبالة هذا الكوم، و هى التى صارت دار ابن صاحب الموصل، و كان فخر الدين كثير الإقامة فيها مدّة الأيام المعزية، فقلق من دخان الأقمنة التى على الكوم الأحمر، و شكا ذلك لوالده و لصهره الوزير شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، فأمرا بتقويمه، فقوّم ما بين بستان الحلىّ و بحر النيل و ابتاعه الصاحب بهاء الدين، فلما مات ولده فخر الدين و تحدّث مع الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع هناك، ملّكه هذه القطعة من الأرض، فعمر السلطان بها هذا الجامع و وقف عليه بقية هذه الأرض المذكورة، فى شهر رمضان سنة إحدى و سبعين و ستمائة، و جعل النظر فيه لأولاده و ذريته، ثم من بعدهم لقاضى القضاة الحنفىّ، و أوّل من خطب فيه الفقيه موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوىّ العثمانىّ الديباجىّ إلى أن توفى يوم الأربعاء، ثالث عشر شوّال سنة خمس و ثمانين و ستمائة، و قد تعطلت إقامة الجمعة من هذا الجامع لخراب ما حوله، و قلة الساكنين هناك، بعد أن كانت تلك الخطة فى غاية العمارة، و كان صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب قد عزم على نقل هذا الجامع من

مكانه، فاخترمته المنية قبل ذلك.

جامع دير الطين

قال ابن المتوّج: هذا الجامع بدير الطين فى الجانب الشرقىّ، عمره الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين ولد الصاحب بهاء الدين، المشهور بابن حنا، فى المحرّم سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و ذلك أنه لما عمر بستان المعشوق و مناظره و كثرت إقامته بها، و بعد عليه الجامع، و كان جامع دير الطين ضيقا لا يسع الناس، فعمر هذا الجامع و عمر فوقه طبقة يصلى فيها و يعتكف إذا شاء، و يخلو بنفسه فيها. و كان ماء النيل فى زمنه يصل إلى جدار هذا الجامع، و ولى خطابته للفقيه جمال الدين محمد ابن الماشطة، و منعه من لبس السواد لأداء الخطبة، فاستمرّ إلى حين وفاته فى عاشر رجب سنة تسع و سبعمائة، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة سابع صفر سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، و قد ذكرت ترجمة الصاحب تاج الدين عند ذكر رباط الآثار من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۴

محمد بن علىّ بن محمد بن سليم بن حنا: أبو عبد اللّه الوزير الصاحب فخر الدين بن الوزير الصاحب بهاء الدين، ولد فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و تزوّج بابنة الوزير الصاحب شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و ناب عن والده فى الوزارة، و ولى ديوان الأحباس و وزارة الصحبة فى أيام الظاهر بيبرس، و سمع الحديث بالقاهرة و دمشق، و حدّث، و له شعر جيد، و درس بمدرسة أبيه الصاحب بهاء الدين التى كانت فى زقاق القناديل بمصر، و كان محبا لأهل الخير و الصلاح مؤثرا لهم متفقدا لأحوالهم، و عمر رباطا حسنا بالقرافة الكبرى، رتب فيه جماعة من الفقراء، و من غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير، الذى كان بنو حنا يعادونه، و عنه أخذوا الوزارة، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان و ستين و ستمائة بالسجن، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء، و لم يشيع جنازته أحد من الناس مراعاة للصاحب بن حنا، و كان فخر الدين هذا يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد، و قد نصبت له الخيام، و أقيمت المطابخ و بين يديه المطربون، فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير، و أنه أخرج إلى المقابر من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس، فسرّ بذلك و لم يتمالك نفسه و أمر المطربين فغنوه، ثم قام على رجليه و رقص هو و سائر من حضره، و أظهر من الفرح و الخلاعة ما خرج به عن الحدّ، و خلع على البشير بموت المذكور خلعا سنية، فلم يمض على ذلك سوى أقلّ من أربعة أشهر و مات فى حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة، ففجع به أبوه، و كانت له جنازة عظيمة، و لما دلّى فى لحده قام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرىّ، صاحب البردة، فى ذلك الجمع الموفور بتربة ابن حنا من القرافة و أنشد:

نم هنيئا محمد بن علىّبجميل قدّمت بين يديكا

لم تزل عوننا على الدهر حتّىغلبتنا يد المنون عليكا

أنت أحسنت فى الحياة إليناأحسن اللّه فى الممات إليكا

فتباكى الناس، و كان لها محل كبير ممن حضر رحمة اللّه عليهم أجمعين. و فى هذا الجامع يقول السراج الورّاق:

بنيتم على تقوى من اللّه مسجداو خير مبانى العابدين المساجد

فقل فى طراز معلم فوق بركةعلى حسنها الزاهى لها البحر حاسد

لها حلل حسنى و لكن طرازهامن الجامع المعمور باللّه واحد

هو الجامع الإحسان و الحسن الذىأقرّ له زيد و عمرو و خالد

و قد صافحت شهب الدجى شرفاتهفما هى بين الشهب إلّا فراقد

و قد أرشد الضلال عالى منارهفلا حائر عنه و لا عنه حائد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۵ و نالت نواقيس الديارات وجمؤو خوف فلم يمدد إليهنّ ساعد
فتبكى عليهنّ البطاريق فى الدجى و هنّ لديهم ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلهامصائب قوم عند قوم فوائد

جامع الظاهر

هذا الجامع خارج القاهرة، و كان موضعه ميدانا، فأنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ جامعا. قال جامع السيرة الظاهرية: و فى ربيع الآخر، يعنى سنة خمس و ستين و ستمائة، اهتمّ السلطان بعمارة جامع بالحسينية، و سير الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب، و الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا، و جماعة من المهندسين، لكشف مكان يليق أن يعمل جامعا، فتوجهوا لذلك و اتفقوا على مناخ الجمال السلطانية. فقال السلطان لا و اللّه لا جعلت الجامع مكان الجمال، و أولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة و هو نزهتى، فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر، ركب السلطان و صحبته خواصه و الوزير الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا و القضاة و نزل إلى ميدان قراقوش، و تحدّث فى أمره و قاسه و رتب أموره و أمور بنائه، و رسم بأن يكون بقية الميدان وقفا على الجامع يحكر، و رسم بين يديه هيئة الجامع، و أشار أن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية، و أن يكون على محرابه قبة على قد رقبة الشافعىّ رحمة اللّه عليه، و كتب فى وقته الكتب إلى البلاد بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد، و كتب بإحضار الجمال و الجواميس و الأبقار و الدواب من سائر الولايات، و كتب بإحضار الآلات من الحديد و الأخشاب النقية برسم الأبواب و السقوف و غيرها، ثم توجه لزيارة الشيخ الصالح خضر بالمكان الذى أنشأه له، و صلّى الظهر هناك، ثم توجه إلى المدرسة بالقاهرة فدخلها و الفقهاء و القرّاء على حالهم، و جلس بينهم، ثم تحدّث و قال: هذا مكان قد جعلته للّه عز و جلّ، و خرجت عنه وقفا للّه، إذا مت لا تدفنونى هنا. و لا تغيروا معالم هذا المكان فقد خرجت عنه للّه تعالى. ثم قام من إيوان الحنفية و جلس بالمحراب فى إيوان الشافعية، و تحدّث و سمع القرآن و الدعاء، و رأى جميع الأماكن، و دخل إلى قاعة ولده الملك السعيد المبنية قريبا منها، ثم ركب إلى قلعة الجبل و ولى عدّة مشدّين على عمارة الجامع، و كان إلى جانب الميدان قاعة و منظرة عظيمة بناها السلطان الملك الظاهر، فلما رسم ببناء الجامع طلبها الأمير سيف الدين قشتمر العجمىّ من السلطان فقال: الأرض قد خرجت عنها لهذا الجامع، فاستأجرها من ديوانه، و البناء و الأصناف و هبتك إياها، و شرع فى العمارة فى منتصف جمادى الآخرة منها.

و فى أوّل جمادى الآخرة سنة ست و ستين و ستمائة سار السلطان من ديار مصر يريد بلاد الشام، فنزل على مدينة يافا و تسلمها من الفرنج بأمان، فى يوم الأربعاء العشرين من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۶

جمادى الآخرة المذكور، و سير أهلها فتفرّقوا فى البلاد، و شرع فى هدمها و قسم أبراجها على الأمراء، فابتدأ فى ذلك من ثانى عشريه، و قاسوا شدّة فى هدمها لحصانتها و قوّة بنائها، لا سيما القلعة، فإنها كانت حصينة عالية الارتفاع و لها أساسات إلى الأرض الحقيقة، و باشر السلطان الهدم بنفسه و بخواصه و مماليكه، حتى غلمان البيوتات التى له، و كان ابتداء هدم القلعة فى سابع عشريه، و نقضت من أعلاها و نظفت زلاقتها، و استمرّ الأجناد فى ذلك ليلا و نهارا، و أخذ من أخشابها جملة، و من ألواح الرخام التى وجدت فيها، و وسق منها مركبا من المراكب التى وجدت فى يافا و سيرها إلى القاهرة، و رسم بأن يعمل من ذلك الخشب مقصورة فى الجامع الظاهرىّ بالميدان من الحسينية، و الرخام يعمل بالمحراب، فاستعمل كذلك.

و لما عاد السلطان إلى مصر فى حادى عشرى ذى الحجة منها و قد فتح فى هذه السفرة يافا و طرابلس و أنطاكية و غيرها، أقام إلى أن أهلت سنة سبع و ستين و ستمائة، فلما كملت عمارة الجامع فى شوّال منها ركب السلطان و نزل إلى الجامع و شاهده، فرآه فى غاية ما يكون من الحسن و أعجبه نجازه فى أقرب وقت و مدّة مع علوّ الهمة، فخلع على مباشريه، و كان الذى تولى بناءه الصاحب بهاء الدين

بن حنا، و الأمير علم الدين سنجر السروريّ متولى القاهرة، و زار الشيخ خضرا و عاد إلى قلعته، و فى شوّال منها تمت عمارة الجامع الظاهريّ و رتب به خطيبا حنفيّ المذهب، و وقف عليه حكر ما بقى من أرض الميدان، و نزل السلطان إليه و رتب أوقافه و نظر فى أموره.

بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين البندقداريّ، أحد المماليك البحرية الذين اختص بهم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و أسكنهم قلعة الروضة، كان أوّلا- من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقداريّ، فلما سخط عليه الملك الصالح أخذ مماليكه و منهم الأمير بيبرس هذا، و ذلك فى سنة أربع و أربعين و ستمائة، و قدّمه على طائفة من الجمدارية، و ما زال يترقى فى الخدم إلى أن قتل المعز أيبك التركمانيّ الفارس أقطاى الجمدار فى شعبان سنة اثنتين و خمسين و ستمائة، و كانت البحرية قد انحازت إليه فركبوا فى نحو السبعمائة، فلما ألقيت إليهم رأس أقطاى تفرّقوا و اتفقوا على الخروج إلى الشام، و كانت أعيانهم يومئذ بيبرس البندقداريّ، و قلاون الألفيّ، و سنقر الأشقر، و بيسرى، و ترامق، و تنكز، فساروا إلى الملك الناصر صاحب الشام. و لم يزل بيبرس ببلاد الشام إلى أن قتل المعز أيبك، و قام من بعده ابنه المنصور عليّ، و قبض عليه نائبه الأمير سيف الدين قطز و جلس على تخت المملكة، و تلقب بالملك المظفر، فقدم عليه بيبرس فأمّره المظفر قطز، و لما خرج قطز إلى ملاقاة التتار و كان من نصرته عليهم ما كان، رحل إلى دمشق فوشى إليه بأن الأمير بيبرس قد تنكر له و تغير عليه، و أنه عازم على القيام بالحرب، فأسرع قطز بالخروج من دمشق إلى جهة مصر و هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۷

مضمر لبيبرس السوء، و علم بذلك خواصه فبلغ ذلك بيبرس فاستوحش من قطز و أخذ كلّ منهما يحترس من الآخر على نفسه، و ينتظر الفرصة، فبادر بيبرس و واعد الأمير سيف الدين بلبان الرشيديّ، و الأمير سيف الدين بيدغان الركنيّ المعروف بسم الموت، و الأمير سيف الدين بلبان الهارونيّ، و الأمير بدر الدين آنص الأصبهانيّ، فلما قربوا فى مسيرهم من القصر بين الصالحية و السعيدية عند القرين، انحرف قطز عن الدرب للصيد، فلما قضى منه و طره و عاد و الأمير بيبرس يسايره هو و أصحابه، طلب بيبرس منه امرأة من سبى التتار فأنعم عليه بها، فتقدّم ليقبل يده و كانت إشارة بينه و بين أصحابه، فعند ما رأوا بيبرس قد قبض على يد السلطان المظفر قطز، بادر الأمير بكتوت الجوكندار و ضربه بسيف على عاتقه أبانه و اختطفه الأمير آنص و ألقاه عن فرسه إلى الأرض، و رماه بهادر المغربىّ بسهم فقتله، و ذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين و ستمائة، و مضوا إلى الدهليز للمشورة، فوقع الاتفاق على الأمير بيبرس، فتقدّم إليه أقطاء المستعرب الجمدار المعروف بالأتابك و بايعه و حلف له، ثم بقية الأمراء و تلقب بالملك الظاهر، و ذلك بمنزلة القصير.

فلما تمت البيعة و حلف الأمراء كلهم قال له الأمير أقطاى المستعرب: ياخوند ، لا يتم لك أمر إلّا بعد دخولك إلى القاهرة و طلوعك إلى القلعة، فركب من وقته و معه الأمير قلاون و الأمير بلبان الرشيديّ و الأمير بيلبك الخارندار، و جماعة يريدون قلعة الجبل، فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبيّ نائب الغيبة عن المظفر قطز، و قد خرج لتلقيه، فأخبروه بما جرى و حلفوه، فتقدّمهم إلى القلعة و وقف على بابها حتى وصلوا فى الليل فدخلوا إليها، و كانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان الملك المظفر قطز، و فرح الناس بكسر التتار و عود السلطان، فما راعهم و قد طلع النهار إلّا و المشّا عليّ ينادى معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر و ادعوا لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس، فدخل على الناس من ذلك غمّ شديد و وجل عظيم، خوفا من عود البحرية إلى ما كانوا عليه من الجور و الفساد و ظلم الناس. فأوّل ما بدأ به الظاهر أنه أبطل ما كان قطز أحدثه من المظالم عند سفره، و هو تصقيع الأملاك و تقويمها و أخذ زكاة ثمنها فى كل سنة، و جباية دينار من كلّ إنسان، و أخذ ثلث التركة الأهلية، فبلغ ذلك فى السنة ستمائة ألف دينار. و كتب بذلك مسموحا قرىء على المنابر فى صبيحة دخوله إلى القلعة، و هو يوم الأحد سادس عشر ذى القعدة المذكور، و جلس بالإيوان و حلّف العساكر، و استناب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار بالديار المصرية، و استقرّ الأمير فارس الدين أقطاى

المستعرب أتابكا على عادته، و الأمير جمال الدين أقوش التجيبيّ أستادارا، و الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ أمير جاندار، و الأمير لاجين الدرفيل و بلبان الروميّ دواداريه، و الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوريّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۸

أميراخور على عادته، و بهاء الدين عليّ بن حنا وزيرا، و الأمير ركن الدين التاجى الركنيّ و الأمير سيف الدين بكجريّ حجابا، و رسم بإحضار البحرية الذين تفرّقوا فى البلاد بطالين، و سير الكتب إلى الأقطار بما تجدّد له من النعم، و دعاهم إلى الطاعة، فأذعنوا له و انقادوا إليه.

و كان الأمير علم الدين سنجر الحلبيّ نائب دمشق لما قتل قطز جمع الناس و حلّفهم، و تلقب بالملك المجاهد، و ثار علاء الدين الملقب بالملك السعيد بن صاحب الموصل فى حلب و ظلم أهلها، و أخذ منهم خمسين ألف دينار، فقام عليه جماعة و مقدّمهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزىّ و قبضوا عليه، فسير الظاهر إلى لاجين بنيابة حلب.

فلما دخلت سنة تسع و خمسين قبض الظاهر على جماعة من الأمراء المعزية، منهم الأمير سنجر الغتميّ، و الأمير بهادر المعزىّ، و الشجاع بكتوت، و وصل إلى السلطان الإمام أبو العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسيّ من بغداد، فى تاسع رجب، فتلقاه السلطان فى عساكره و بالغ فى إكرامه و أنزله بالقلعة، و حضر سائر الأمراء و المقدّمين و القضاة و أهل العلم و المشايخ بقاعة الأعمدة من القلعة بين يدى أبى العباس، فتأدّب السلطان الظاهر و لم يجلس على مرتبة و لا فوق كرسيّ، و حضر العربان الذين قدموا من العراق، و خادم من طواشية بغداد، و شهدوا بأن العباس أحمد ولد الخليفة الظاهر بن الخليفة الناصر، و شهد معهم بالاستفاضة الأمير جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر، و علم الدين بن رشيق، و صدر الدين موهوب الجزرىّ، و نجيب الدين الحرّانيّ، و سديد الزمنتيّ نائب الحكم بالقاهرة عند قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعيّ، و أسجل على نفسه بثبوت نسب أبى العباس أحمد، و هو قائم على قدميه، و لقّب بالإمام المستنصر بالله، و بايعه الظاهر على كتاب اللّه و سنة نبيه، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الجهاد فى سبيل اللّه، و أخذ أموال اللّه بحقها و صرفهاف ى مستحقها، فلما تمت البيعة قلد المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر أمر البلاد الإسلامية، و ما سيفتحه اللّه على يديه من بلاد الكفار، و بايع الناس المستنصر على طبقاتهم، و كتب إلى الأطراف بأخذ البيعة له، و إقامة الخطبة باسمه على المنابر، و نقشت السكة فى ديار مصر باسمه، و اسم الملك الظاهر معا. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة، و ركب السلطان فى يوم الاثنين رابع شعبان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير ظاهر القاهرة، و أفيضت عليه الخلع الخليفة، و هى جبة سوداء و عمامة بنفسجية و طوق من ذهب، و قلد بسيف عربيّ، و جلس مجلسا عاما حضره الخليفة و الوزير و سائر القضاة و الأمراء و الشهود، و صعد القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السرّ منبرا نصب له، و قرأ تقليد السلطان المملكة، و هو بخطه من إنشائه، ثم ركب السلطان بالخلعة و الطوق و دخل من باب النصر، و شق القاهرة و قد زينت له، و حمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه قدّام السلطان، و الأمراء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۹۹

مشاة بين يديه، و كان يوما مشهودا.

و أخذ السلطان فى تجهيز الخليفة ليسير إلى بغداد، فرتب له الطواشى بهاء الدين صندلا الصالحيّ شرابيا، و الأمير سابق الدين بوزيا الصيرفيّ أتابكا، و الأمير جعفرا أستادارا، و الأمير فتح الدين بن الشهاب أحمد أمير جاندار، و الأمير ناصر الدين بن صيرم خازندار، و الأمير سيف الدين بلبان الشمسيّ و فارس الدين أحمد بن أزدمر اليغموريّ دواداريه، و القاضى كمال الدين محمد السنجاريّ وزيرا، و شرف الدين أبا حامد كاتبا، و عين له خزانة و سلاحخاناه و مماليك عدّتهم نحو الأربعين، منهم سلاحدارية و جمدارية و زردكاشية و رمحدارية، و جعل له طشطخاناه و فراشخاناه و شرابخاناه، و إماما و مؤذنا و سائر أرباب الوظائف، و استخدم له خمسمائة فارس، و كتب لمن قدم معه من العراق بإقطاعات، و أذن له فى الركوب و الحركة حيث اختار، و حضر الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين

لؤلؤ صاحب الموصل، و أخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، و أخوهما المظفر، فأكرمهم السلطان و أقرّهم على ما بأيديهم، و كتب لهم تقاليد و جهزهم فى خدمة الخليفة، و سار الخليفة فى سادس شوّال و السلطان فى خدمته إلى دمشق، فنزل السلطان فى القلعة، و نزل الخليفة فى التربة الناصرية بجبل الصالحية، و بلغت نفقة السلطان على الخليفة ألف ألف و ستين ألف دينار، و خرج من دمشق فى ثالث عشر ذى القعدة و معه الأمير بلبان الرشيدىّ، و الأمير سنقر الرومىّ، و طائفة من العسكر، و أوصاهما السلطان أن يكونا فى خدمة الخليفة حتى يصل إلى الفرات، فإذا عبر الفرات أقاما بمن معهما من العسكر بالبرّ الغربىّ من جهات حلب لانتظار ما يتجدّد من أمر الخليفة، بحيث إن احتاج إليهم ساروا إليه، فسار إلى الرحبة و تركه أولاد صاحب الموصل و انصرفوا إلى بلادهم، و سار إلى مشهد علىّ فوجد الإمام الحاكم بأمر اللّه قد جمع سبعمائة فارس من التركمان و هو على عانة، ففارقه التركمان و صار الحاكم إلى المستنصر طائعا له، فأكرمه و أنزله معه و سارا إلى عانة، و رحلا إلى الحديثة، و خرجا منها إلى هيت، و كانت له حروب مع التتار فى ثالث محرّم سنة ستين و ستمائة، قتل فيها أكثر أصحابه، و فرّ الحاكم و جماعة من الأجناد، و فقد المستنصر فلم يوقف له على خبر، فحضر الحاكم إلى قلعة الجبل و بايعه السلطان و الناس، و استمرّ بديار مصر فى مناظر الكبش، و هو جدّ الخلفاء الموجودين اليوم.

و فى سنة ست و ستين قرّر الظاهر بديار مصر أربعة قضاة، و هم شافعىّ و مالكىّ و حنفىّ و حنبلىّ، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى اليوم، و حدث غلاء شديد بمصر، و عدمت الغلة، فجمع السلطان الفقراء و عدّهم و أخذ لنفسه خمسمائة فقير يمونهم، و لا بنه السعيد بركة خان خمسمائة فقير، و للنائب بيلبك الخازندار ثلاثمائة فقير، و فرّق الباقى على سائر الأمراء، و رسم لكلّ إنسان فى اليوم برطلى خبز، فلم ير بعد ذلك فى البلد أحد من الفقراء يسأل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۰

و فى ثالث شوّال سنة اثنتين و ستين، أركب السلطان ابنه السعيد بركة بشعار السلطنة، و مشى قدّامه و شق القاهرة و الكل مشاة بين يديه من باب النصر إلى قلعة الجبل، و زينت البلد، و فيها رتب السلطان لعب القبق بميدان العيد خارج باب النصر، و ختن الملك السعيد و معه ألف و ستمائة و خمسة و أربعون صبيا من أولاد الناس، سوى أولاد الأمراء و الأجناد، و أمر لكلّ صغير منهم بكسوة على قدره، و مائة درهم، و رأس من الغنم، فكان مهما عظيما، و أبطل ضمان المزر، و جهاته، و أمر بحرق النصارى فى سنة ثلاث و ستين، فتشفع فيهم على أن يحملوا خمسين ألف دينار فتركوا. و فى سنة أربع و ستين افتتح قلعة صفد، و جهز العساكر إلى سيس و مقدّمهم الأمير قلاون الألفىّ، فحصر مدينة ابناس و عدّه قلاع. و فى سنة خمس و ستين أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر، و فتح يافا و الشقيف و أنطاكية. و فى سنة سبع و ستين حج فسار على غزة إلى الكرك، و منها إلى المدينة النبوية، و غسل الكعبة بماء الورد بيده، و رجع إلى دمشق فأراق جميع الخمور، و قدم إلى مصر فى سنة ثمان و ستين.

و فى سنة سبعين خرج إلى دمشق. و فى سنة إحدى و سبعين خرج من دمشق سائقا إلى مصر، و معه بيسرى و أقوش الرومىّ و جرسك الخازندار و سنقر الألفىّ، فوصل إلى قلعة الجبل، و عاد إلى دمشق فكانت مدّة غيبته أحد عشر يوما، و لم يعلم بغيبته من فى دمشق حتى حضر، ثم خرج سائقا من دمشق يريد كبس التتار، فخاض الفرات و قدّامه قلاون و بيسرى، و أوقع بالتتار على حين غفلة، و قتل منهم شيئا كثيرا، و ساق خلفهم بيسرى إلى سروج و تسلم السلطان البيرة. و وقع بمصر فى سنة اثنتين و سبعين و باء هلك به خلق كثير.

و فى سنة ثلاث و سبعين غزا السلطان سيس و افتتح قلاعا عديدة. و فى سنة أربع و سبعين تزوّج السعيد بن السلطان بابنة الأمير قلاون و خرج العسكر إلى بلاد النوبة، فواقع ملكهم و قتل منهم كثيرا و فرّ باقيهم. و فى سنة خمس و سبعين سار السلطان لحرب التتار، فواقعهم على الأبلستين و قد انضم إليهم الروم، فانهزموا و قتل منهم كثير، و تسلم السلطان قيسارية و نزل فيها بدار السلطان، ثم خرج إلى دمشق فوعك بها من إسهال و حمى مات منها يوم الخميس تاسع عشرى محرّم سنة ست و سبعين و ستمائة، و عمره نحو من سبع

و خمسين سنهٔ، و مدّهٔ ملكه سبع عشرهٔ سنهٔ و شهران.

و كان ملكا جليلا عسوفا عجولا كثير المصادرات لرعيته و دواوينه، سريع الحركهٔ، فارسا مقداما، و ترك من الذكور ثلاثهٔ: السعيد محمد بركهٔ خان، و ملك بعده، و سلامش و ملك أيضا، و المسعود خضر. و من البنات سبع بنات، و كان طويلا مليح الشكل.

و فتح اللّه على يديه مما كان مع الفرنج قيساريهٔ و أرسوف و صفد و طبريهٔ و يافا و الشقيف و أنطاكيهٔ و بقراص و القصير و حصن الأكراد و القرين و حصن عكا و صافيتا و مرقيهٔ و حلبا.

و ناصف الفرنج على المرقب و بانياس و انطرسوس، و أخذ من صاحب سيس، دربساك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۱

و دركوس و تلميش و كفر دين و رعبان و مرزبان و كينوك و أدنهٔ و المصيصهٔ.

و صار إليه من البلاد التى كانت مع المسلمين، دمشق و بعلبك و عجلون و بصرى و صرخد و الصلت و حمص و تدمر و الرحبهٔ و تل ناشر و صهيون و بلاطيس و قلعهٔ الكهف و القدموس و العليقهٔ و الخوابى و الرصافهٔ و مصياف و القليعهٔ و الكرك و الشوبك.

و فتح بلاد النوبهٔ و برقهٔ و عمر الحرم النبوىّ، و قبهٔ الصخرهٔ ببيت المقدس، و زاد فى أوقاف الخليل عليه السّلام، و عمر قناطر شبرامنت بالجيزيهٔ، و سور الإسكندريهٔ، و منار رشيد، و ردم فم بحر دمياط، و وعر طريقه، و عمر الشوانى و عمر قلعهٔ دمشق و قلعهٔ الصبيبهٔ، و قلعهٔ بعلبك، و قلعهٔ الصلت، و قلعهٔ صرخد، و قلعهٔ عجلون، و قلعهٔ بصرى، و قلعهٔ شيزر و قلعهٔ حمص، و عمر المدرسهٔ بين القصرين بالقاهرهٔ، و الجامع الكبير بالحسينيهٔ خارج القاهرهٔ، و حفر خليج الإسكندريهٔ القديم، و باشره بنفسه، و عمر هناك قريهٔ سماها الظاهريهٔ، و حفر بحر أشموم طناح على يد الأمير بلبان الرشيدىّ، و جدّد الجامع الأزهر بالقاهرهٔ، و أعاد إليه الخطبهٔ، و عمر بلد السعيديهٔ من الشرقيهٔ بديار مصر، و عمر القصر الأبلق بدمشق و غير ذلك.

و لما مات كتم موته الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار عن العسكر، و جعله فى تابوت و علقه ببيت من قلعهٔ دمشق، و أظهر أنه مريض، و رتب الأطباء يحضرون على العادهٔ، و أخذ العساكر و الخزائن و معه محفهٔ محمولهٔ فى الموكب محترمهٔ، و أوهم الناس أن السلطان فيها و هو مريض، فلم يجسر أحد أن يتفوّه بموت السلطان، و سار إلى أن وصل إلى قلعهٔ الجبل بمصر و أشيع موته رحمه اللّه تعالى.

جامع ابن اللبان

هذا الجامع بجسر الشعيبيهٔ المعروف بجسر الأفرم، عمره الأمير عز الدين أيبك الأفرم فى سنهٔ ثلاث و تسعين و ستمائهٔ. قال ابن المتوّج: و كان سبب عمارته أنه لما كثرت الخلائق فى خطهٔ هذا الجامع، قصد الأفرم أن يجعل خطبهٔ فى المسجد المعروف بمسجد الجلالهٔ الذى ببركهٔ الشقاف ظاهر سور الفسطاط المستجدّ، و أن يزيد فيه و يعمره كما يختار، فمنعه الفقيه مؤتمن الدين الحارث بن مسكين و ردّه عن غرضه، فحسن له الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا عمارهٔ هذا الجامع فى هذه البقعهٔ، لقربه منه فعمره فى شعبان سنهٔ ثلاث و تسعين و ستمائهٔ، لكنه هدم بسببه عدّهٔ مساجد، و عرف هذا الجامع فى زمننا هذا بالشيخ محمد بن اللبان الشافعىّ، لإقامته فيه، و أدركناه عامرا، و قد انقطعت منه فى هذه المحن إقامهٔ الجمعهٔ و الجماعهٔ لخراب ما حوله و بعد البحر عنه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۲

الجامع الطيبرسىّ

هذا الجامع عمره الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش، بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشاب، و عمر بجواره خانقاه فى

جمادى الأولى سنة سبع و سبعمائة، و كان من أحسن منتزهات مصر و أعمرها، و قد خرب ما حوله من الحوادث و المحن التى بعد سنة ست و ثمانمائة، بعد ما كانت العمارة منه متصلة إلى الجامع الجديد بمصر، و منه إلى الجامع الخطيرىّ ببولاق، و يركب الناس المراكب للفرجة من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين، مصعدين و منحدرين فى النيل، و يجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة، فتمرّ به أوقات و مسرّات لا يمكن وصفها، و قد خرب هذا الجامع و أقفر من المساكين، و صار مخوفا بعد ما كان ملهى و ملعبا، سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل، و لطيبرس هذا المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر من القاهرة.

الجامع الجديد الناصرىّ

هذا الجامع بشاطئ النيل من ساحل مصر الجديد، عمره القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه ناظر الجيش باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و كان الشروع فيه يوم التاسع من المحرّم سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و انتهت عمارته فى ثامن صفر سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و أقيم فى خطابته قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعىّ، و رتب فى إمامته الفقيه تاج الدين بن مرهف، فأوّل ما صلّى فيه صلاة الظهر من يوم الخميس ثامن صفر المذكور، و أقيمت فيه الجمعة يوم الجمعة تاسع صفر، و خطب عن قاضى القضاة بدر الدين ابنه جمال الدين، و لهذا الجامع أربعة أبواب، و فيه مائة و سبعة و ثلاثون عمودا، منها عشرة من صوّان فى غاية السمك و الطول، و جملة ذرعه أحد عشر ألف ذراع و خمسمائة ذراع بذراع العمل، من ذلك طوله من قبليه إلى بحريه مائة و عشرون ذراعا، و عرضه من شرقيه إلى غربيه مائة ذراع، و فيه ستة عشر شباكا من حديد، و هو يشرف من قبليه على بستان العالمة، و ينظر من بحريه بحر النيل، و كان موضع هذا الجامع فى القديم غامرا بماء النيل، ثم انحسر عنه النيل و صار رملة فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب، يمرّغ الناس فيها دوابهم أيام احتراق النيل، فلما عمر الملك الصالح قلعة الروضة و حفر البحر، طرح الرمل فى هذا الموضع، فشرع الناس فى العمارة على الساحل، و كان موضع هذا الجامع شونة، و قد ذكر خبر ذلك عند ذكر الساحل الجديد بمصر فانظره، و ما برح هذا الجامع من أحسن منتزهات مصر إلى أن خرب ما حوله، و فيه إلى الآن بقية و هو عامر.

محمد بن قلاون: السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدين بن الملك المنصور،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۳

كان يلقب بحرفوش، و أمّه أشلون ابنة شنكاى، ولد يوم السبت النصف من المحرّم سنة أربع و ثمانين و ستمائة بقلعة الجبل من ديار مصر، و ولى الملك ثلاث مرّات، الأولى بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل بن قلاون فى رابع عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و عمره تسع سنين، تنقص يوما واحدا، فأقام فى الملك سنة إلّا ثلاثة أيام و خلع بمملوك أبيه كتبغا المنصورىّ، يوم الأربعاء حادى عشر المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة، و أعيد إلى المملكة ثانيا بعد قتل الملك المنصور لاجين يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فأقام عشر سنين و خمسة أشهر و ستة عشر يوما، و عزل نفسه و سار إلى الكرك، فولى الملك من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و تلقب بالملك المظفر فى يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و سبعمائة، ثم حضر من الكرك إلى الشام و جمع العساكر، فخامر على بيبرس معظم جيش مصر، و انحل أمره فترك الملك فى يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان سنة تسع و سبعمائة، و طلع الملك الناصر إلى قلعة الجبل يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، و استولى على ممالك مصر و الشام و الحجاز، فأقام فى الملك من غير منازع له فيه إلى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى و العشرين من ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و عمره سبع و خمسون سنة و أحد عشر شهرا و خمسة أيام، و له فى ولايته الثالثة مدّة اثنتين و ثلاثين سنة و شهرين و عشرين يوما، و جملة إقامته فى الملك عن المدد الثلاث ثلاث و أربعون سنة و ثمانية أشهر و تسعة أيام.

و لما مات ترك ليلته و من الغد حتى تمّ الأمر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس المذكور، ثم أخذ فى جهازه فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة و حمل على بغلين و أنزل من القلعة إلى الإصطبل السلطانىّ، و سار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدىّ

أمير جاندار، و الأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة، و الأمير قطلوبغا الذهبيّ، و علم دار خوطا جار الدوادار و عبروا به إلى القاهرة من باب النصر، و قد غلقت الحوانيت كلها و منع الناس من الوقوف للنظر إليه، و قدّام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار، فلما دخلوا به من باب النصر كان قدامه مسرجة فى يد شاب و شمعة واحدة، و عبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاون، و كان الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ ناظر المارستان قد جلس و معه القضاة الأربعة و شيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس، و الشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ إبراهيم الجعبرىّ، فحطت المحفة و أخرج منها فوضع بجانب الفسقية التى بالقبة، و أمر ابن أبى الظاهر مغسّل الأموات بتغسيله، فقال: هذا ملك و لا أنفرد بتغسيله إلّا أن يقوم أحد منكم و يجرّده على الدكه، فإنى أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم أو فى عنقه خرزة، فقام قطلوبغا الذهبىّ و علمدار و جرّداه مع الغاسل من ثيابه، فكان على رأسه قبع أبيض من قطن ثيابه، و على بدنه بغلطاق صدر أبيض و سراويل، فنزعا و ترك القميص عليه، و غسل به، و وجد فى رجله الموجوعة بخشان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۴

مفتوحان، فغسل من فوق القميص و كفن فى نصفية، و عملت له أخرى طرّاحة و مخدّة، و وضع فى تابوت من خشب، و صلّى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعىّ بمن حضر، و أنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب قد ربطت بحبل، و نزل معه إلى القبر الغاسل و الأمير سنجر الجاولىّ، و دفع إلى الغاسل ثلاثمائة درهم، فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر درهما سوى القبع، فإنه فقد، و ذكر الغاسل أنه كان محنكا بخرقة معقدة بثلاث عقد، فسبحان من لا يحول و لا يزول، هذا ملك أعظم المعمور من الأرض، مات غريبا و غسل طريحا و دفن وحيدا، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب.

و فى ليلة السبت: قرأ القرّاء عند القبر بالقبة القرآن، و حضر بعض الأمراء، و ترك من الأولاد اثنى عشر ولدا ذكرا، و هم: أحمد، و هو أسنهم و كان بالكرك، و أبو بكر و تسلطن من بعده، و شقيقه رمضان، و يوسف، و إسماعيل، و تسلطن أيضا، و شعبان و تسلطن، و حسين، و كجك و تسلطن، و أمير حاج، و حسن و يدعى قمارى و تسلطن، و صالح و تسلطن، و محمد. و ترك من البنات ثمانيا متزوّجات سوى من خلف من الصغار، و خلف من الزوجات جاريته طغاى، و إمّة الأمير تنكز نائب الشام. و مات و ليس له نائب بديار مصر و لا وزير و لا حاجب متصرّف، سوى أن برسبغا الحاجب تحكم فى متعلقات أمور الإقطاعات، و ليس معه عصا الحجوبية، و بدر الدين بكتاش نقيب الجيوش، و أقبغا عبد الواحد أستادار السلطان و مقدّم المماليك، و بيبرس الأحمدىّ أمير جاندار، و نجم الدين أيوب والى القاهرة، و جمال الدين حمال الكفاه ناظر الجيوش، و الموفق ناظر الدولة، و صارم الدين أزبك شادّ الدواوين، و عز الدين عبد العزيز بن جماعة قاضى القضاة بديار مصر، و نائب دمشق الأمير ألطنبغا، و نائب ... الأمير طشتمر حمص أخضر، و نائب طرابلس الحاج أرقطاى، و نائب صفد الأمير أصلم، و نائب غزة الأميراق سنقر السلارىّ، و صاحب حماه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن المؤيد إسماعيل.

و الأمراء مقدّموا الألوف بديار مصر يوم وفاته خمسة و عشرون أميرا. و هم: بدر الدين جنكلى بن البابا، و الحاج آل ملك، و بيبرس الأحمدىّ، و علم الدين سنجر الجاولىّ، و سيف الدين كوكاى، و نجم الدين محمود وزير بغداد، هؤلاء برّانية كبار، و الباقى مماليكه و خواصه و هم: ولده الأمير أبو بكر، و الأمير قوصون، و الأمير بشتاك، و طقزدمر، و أقبغا عبد الواحد الأستادار، و أيدغمش أميراخور، و قطلوبغا الفخرىّ، و يلبغا اليحياوىّ، و ملكتمر الحجازىّ، و ألطنبغا الماردانىّ، و بهادر الناصرىّ، و آق سنقر الناصرىّ، و قمارى الكبير، و قمارى أمير شكار، و طرغاى، و أرتبغا أمير جاندار، و برسبغا الحاجب، و بلدغى ابن العجوز أمير سلاح، و بيغرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۵

و كان السلطان أبيض اللون قد و خطه الشيب، و فى عينيه حول، و برجله اليمنى ريح شوكة تنغص عليه أحيانا و تؤلمه، و كان لا يكاد يمس بها الأرض و لا يمشى إلّا متكئا على أحدا و متوكئا على شىء، و لا يصل إلى الأرض إلّا أطراف أصابعه، و كان شديد البأس

جيد الرأى، يتولى الأمور بنفسه، و يجود لخواصه، و كان مهابا عند أهل مملكته، بحيث أنّ الأمراء إذا كانوا عنده بالخدمة لا يجسر أحد أن يكلم آخر كلمة واحدة، و لا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفا منه، و لا يمكن واحدا منهم أن يذهب إلى بيت أحد البتة، لا فى وليمة و لا غيرها، فإن فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه و أخرجه من يومه منفيا، و كان مسدّدا عارفا بأمور رعيته و أحوال مملكته، و أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر من سنة سبع و عشرين و سبعمائة، و أبطل الوزارة و صار يتحدّث بنفسه فى الجليل من الأمور و الحقير، و يستجلب خاطر كل أحد من صغير و كبير لا سيما حواشيه، فلذلك عظمت حاشية المملكة و أتباع السلطنة و تخوّلوا فى النعم الجزيلة، حتى الخولة و الكلابزية و الأسرى من الأرمن و الفرنج، و أعطى البازدارية الأخباز فى الحلقة، فمنهم من كان إقطاعه الألف دينار فى السنة، و زوّج عدّة منهم بجواريه، و أفنى خلقا كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير، و كان إذا كبر أحد من أمرائه قبض عليه و سلبه نعمته، و أقام بدله صغيرا من مماليكه إلى أن يكبر، فيمسكه و يقيم غيره، ليأمن بذلك شرّهم. و كان كثير التخيل حازما، حتى أنه إذا تخيل من ابنه قتله، و فى آخر أيامه شره فى جمع المال، فصادر كثيرا من الدواوين و الولاة و غيرهم، ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال، و كان مخادعا كثير الحيل، لا يقف عند قول و لا يوف بعهد و لا يبرّ فى يمين، و كان محبا للعمارة، و عمر عدّة أماكن منها: جامع قلعة الجبل، و هدمه مرّتين، و عمر القصر الأبلق بالقلعة و معظم الأماكن التى بالقلعة، و عمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور، و عمر الميدان تحت القلعة و مناظر الميدان على النيل، و عمر قناطر السباع على الخليج و مناظر سرياقوس و الخانقاه بسرياقوس، و حفر الخليج الناصرىّ بظاهر القاهرة، و عمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر، و جدّد جامع الفيلة الذى بالرصد، و المدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة، و غير ذلك مما يرد فى موضعه من هذا الكتاب، و ما زال يعمر منذ عاد إلى ولاية الملك فى المرّة الثالثة إلى أن مات، و بلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة، عنها ثلاثمائة و خمسون دينارا، سوى من يسخره من المقيدين و غيرهم فى عمل ما يعمره، و حفر عدّة من الخلجانات و الترع، و أقام الجسور بالبلاد حتى أنه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الإقطاعات، و حفر خليج الإسكندرية و بحر المحلة مرّتين، و بحر اللبينىّ بالجيزة، و عمل جسر شيبين، و عمل جسر أحباس بالشرقية و القليوبية مدّة ثلاث سنين متوالية، فلم ينجع، فأنشأه بنيانا، بالطوب و الجير، و أنفق فيه أموالا عظيمة، و راك ديار مصر و بلاد الشام، و عرض الجيش بعد حضوره فى سنة

اثنتى عشرة و سبعمائة، و قطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع فى مرّة أخرى ثلاثة و أربعين جنديا فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و قطع ثمانمائة من الجند، ثم قطع فى مرّة أخرى ثلاثة و أربعين جنديا فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، ثم قطع خمسة و ستين أيضا فى رمضان سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، قبل وفاته بشهرين.

و فتح من البلاد جزيرة أرواد فى سنة اثنتين و سبعمائة، و فتح ملطية فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و فتح أناس فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة و خرّبها، ثم عمرها الأرمن فأرسل إليها جيشا فأخذها و معها عدّة بلاد من بلاد الأرم فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أقام بها نائبا من أمراء حلب، و عمر قلعة جعبر بعد أن دثرت، و ضربت السكة باسمه فى شوّال سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، قبل موته تولى ذلك الشيخ حسن بن حسين بحضور الأمير شهاب الدين أحمد قريب السلطان، و قد توجه من مصر بهذا السبب، و خطب له أيضا فى أرتنا ببلاد الروم، و ضربت السكة باسمه، و كذلك بلاد ابن قرمان و جبال الأكراد و كثير من بلاد الشرق، و كان من الذكاء المفرط على جانب عظيم، يعرف مماليك أبيه و مماليك الأمراء بأسمائهم و وقائعهم، و له معرفة تامّة بالخيل و قيمها مع الحشمة و السيادة، لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق اللّه و لا سفه عليه و لا كلمه بكلمة سيئة، و كان يدعو الأمراء أرباب الأشغال بألقابهم، و كانت همته علية و سياسته جيدة و حرمته عظيمة إلى الغاية، و معرفته بمهادنة الملوك لا مرمى وراءها، يبذل فى ذلك من الأموال ما لا يوصف كثرة، فكان كتّابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الأرض كلها، و هو مع ما ذكرنا مؤيد فى

كلّ أموره مظفر فى جميع أحواله مسعود فى سائر حركاته، ما عانده أحد أو أضمر له سوأ إلّا و ندم على ذلك أو هلك، و اشتهر فى حياته بديار مصر أنه إن وقعت قطرة من دمه على الأرض لا يطلع نيل مصر مدّة سبع سنين، فمتعه اللّه من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدّة الطويلة مع كثرة الطمأنينة و الأمن وسعة الأموال، و اقتنى كلّ حسن و مستحسن من الخيل و الغلمان و الجوارى، و ساعده الوقت فى كلّ ما يحب و يختار إلى أن أتاه الموت.

الجامع بالمشهد النفيسىّ

قال ابن المتوّج: هذا الجامع أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاون، فعمر فى شهور سنة أربع عشرة و سبعمائة، و ولى خطابته علاء الدين محمد بن نصر اللّه بن الجوهرىّ شاهد الخزانة السلطانية، و أوّل خطبته فيه يوم الجمعة ثامن صفر من السنة المذكورة، و حضر أمير المؤمنين المستكفى بالله أبو الربيع سليمان و ولده و ابن عمه و الأمير كهرداش متولى شدّ العمائر السلطانية، و عمارة هذا الجامع و رواقاته و الفسقية المستجدّة، و قيل أن جميع المصروف على هذا الجامع من حاصل المشهد النفيسىّ، و ما يدخل إليه من النذور و من الفتوح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۷

جامع الأمير حسين

هذا الجامع كان موضعه بستانا بجوار غيط العدّة، أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدر بك مشرف الرومىّ، قدم مع أبيه من بلاد الروم إلى ديار مصر فى سنة خمس و سبعين و ستمائة، و تخصص بالأمير حسام الدين لاجين المنصورىّ، قبل سلطنته، فكانت له منه مكانة مكينة، و صار أمير شكار، و كان فيه برّ و له صدقة و عنده تفقد لأصحابه، و أنشأ أيضا القنطرة المعروفة بقنطرة الأمير حسين على خليج القاهرة، و فتح الخوخة فى سور القاهرة بجوار الوزيرية، و جرى عليه من أجل فتحها ما قد ذكر عند ذكرها فى الخوخ من هذا الكاتب، و توفى فى سابع المحرّم سنة تسع و عشرين و سبعمائة، و دفن بهذا الجامع.

جامع الماس

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة، بناه الأمير سيف الدين الماس الحاجب، و كمل فى سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان الماس هذا أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، فرقاه إلى أن صار من أكبر الأمراء، و لما أخرج الأمير أرغون إلى نيابة حلب و بقى منصب النيابة شاغرا عظمت منزلة الماس، و صار فى منزلة النيابة، إلّا أنه لم يسمّ بالنائب، و يركب الأمراء الأكابر و الأصاغر فى خدمته، و يجلس فى باب القلة من قلعة الجبل فى منزلة النائب، و الحجاب وقوف بين يديه، و ما برح على ذلك حتى توجه السلطان إلى الحجاز فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، فتركه فى القلعة هو و الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك، و الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأمير طشتمر حمص أخضر، هؤلاء الأربعة لا غير، و بقية الأمراء إما معله فى الحجاز، و إما فى إقطاعاتهم، و أمرهم أن لا يدخلوا القاهرة حتى يحضر من الحجاز، فلما قدم من الحجاز نقم عليه و أمسكه فى صفر سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، و كان لغضب السلطان عليه أسباب منها، أنه لما أقام فى غيبة السلطان بالقلعة كان يراسل الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك و يوادده، و بدت منه فى مدّة الغيبة أمور فاحشة من معاشرة الشباب و من كلام فى حق السلطان، فوشى به أقبغا، و كان مع ذلك قد كثر ماله و زادت سعادته، فهوى شابا من أبناء الحسينية يعرف بعمير، و كان ينزل إليه و يجمع الاويراتية و يحضر الشباب و يشرب، فحرّك ذلك عليه ما كان ساكنا. و يقال أن السلطان لما مات الأمير بكتمر الساقى وجد فى تركته جزدان فيه جواب الماس إلى بكتمر الساقى، اننى حافظ القلعة إلى أن يرد علىّ منك ما أعتمده. فلما وقف السلطان على ذلك أمر النشو بن هلال الدولة و شاهد الخزانة بإيقاع الحوطة على

موجوده، فوجدا له ستمائة ألف درهم فضة، و مائة ألف درهم فلوسا، و أربعة آلاف دينار ذهبا، و ثلاثين حياصة ذهبا كاملة بكفتياتها و خلعها، و جواهر و تحفا، و أقام الماس عند أقبغا عبد الواحد ثلاثة أيام، و قتل خنقا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۸

بمحبسه في الثاني عشر من صفر سنة أربعة و ثلاثين و سبعمائة، و حمل من القلعة إلى جامعه فدفن به، و أخذ جميع ما كان في داره من الرخام فقلع منها و كان رخاما فاخرا إلى الغاية، و كان أسمر طوالا غتميا لا يفهم شيئا بالعربيّ، ساذجا يجلس في بيته فوق لباد على ما اعتماده، و بهذا الجامع رخام كثير نقله من جزائر البحر و بلاد الشام و الروم.

جامع قوصون

هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة، ابتدأ عمارته الأمير قوصون في سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان موضعه دارا بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربيّ، تعرف بدار أقوش نميله، ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصليّ، فأخذها من ولده و هدمها و تولى بناءه شادّ العمائر، و استعمل فيه الأسرى، كان قد حضر من بلاد توريز بناء فبنى مئذنتى هذا الجامع على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه، وزير السلطان أبى سعيد في جامعه بمدينة توريز، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين و سبعمائة، و خطب يومئذ قاضى القضاة جلال الدين القزوينيّ بحضور السلطان، و لما انقضت صلاة الجمعة أركبه الملك الناصر بغلة بخلعة سنية، ثم منعه السلطان الملك الناصر أن يستقرّ في خطابته، فولى فخر الدين شكر.

قوصون: الأمير الكبير سيف الدين، حضر من بلاد بركة إلى مصر صحبة خوند ابنة أزبك امرأة الملك الناصر محمد بن قلاون في ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين و سبعمائة، و معه قليل عصيّ و طسما و نحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم ليتجر فيه، فطاف بذلك في أسواق القاهرة و تحت القلعة و في داخل قلعة الجبل، فاتفق. في بعض الأيام أنه دخل إلى الإصطبل السلطانيّ ليبيع ما معه، فأحبه بعض الأوشاقية و كان صبيا جميلا- طويلا- له من العمر ما يقارب الثماني عشرة سنة، فصار يتردّد إلى الأوشاقيّ إلى أن رآه السلطان، فوقع منه بموقع، فسأل عنه فعرّف بأنه يحضر ليبيع ما معه، و أن بعض الأوشاقية تولع به، فأمر بإحضاره إليه و ابتاع منه نفسه ليصير من جملة المماليك السلطانية، فنزله من جملة السقاة و شغف به و أحبه حبا كثيرا، فأسلمه للأمير بكتمر الساقى و جعله أمير عشرة، ثم أعطاه أمرة طبلخاناه، ثم جعله أمير مائة مقدّم ألف، و رقاه حتى بلغه أعلى المراتب، فأرسل إلى البلاد و أحضر إخوته، سوسون و غيره من أقاربه، و أمر الجميع و اختص به السلطان، بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله، و زوّجه بابنته، و تزوّج السلطان أخته، فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده، و عهد لابنه أبى بكر فأقيم في الملك من بعده، و أخذ قوصون في أسباب السلطنة، و خلع أبا بكر المنصور بعد شهرين و أخرج إلى مدينة قوص ببلاد الصعيد، ثم قتله، و أقام كجك ابن السلطان و له من العمر خمس سنين، و لقبه بالملك الأشرف، و تقلد نيابة السلطنة بديار مصر، فأمّر من حاشيته و أقاربه ستين أميرا، و أكثر من العطاء و بذل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۰۹

الأموال و الأنعام، فصار أمر الدولة كله بيده، هذا و أحمد بن السلطان الملك الناصر مقيم بمدينة الكرك، فخافه قوصون و أخذ في التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك، و حرّك على نفسه ما كان ساكنا، فطلب أحمد الملك لنفسه و كاتب الأمراء و النوّاب بالمملكة الشامية و المصرية فأذعنوا إليه، و كان بمصر من الأمراء الأمير أيدغمش و الأمير آل ملك و قمارى و الماردانيّ و غيرهم، فتخيل قوصون منهم و أخذ في أسباب القبض عليهم، فعلموا بذلك و خافوا الفوت فركبوا لحربه و حصروه بقلعة الجبل حتى قبضوا عليه في ليلة الأربعاء آخر شهر رجب سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و نهبت داره و سائر دور حواشيه و أسبابه، و حمل إلى الاسكندرية صحبة الأمير قبلاى فقتل بها، و كان كريما يفرّق في كل سنة للأضحية ألف رأس غنما، و ثلاثمائة بقرة، و يفرّق ثلاثين حياصة ذهبا، و يفرّق كلّ سنة عدّة أملاك فيها ما يبلغ ثمنه ثلاثين ألف درهم، و له من الآثار بديار مصر سوى هذا الجامع الخانقاه

بباب القرافة، و الجامع تجاهها، و داره التى بالرميلة تحت القلعة تجاه باب السلسلة و حكر قوصون.

جامع الماردانیّ

هذا الجامع بجوار خط التبانة خارج باب زويلة، كان مكانه أوّلا مقابر أهل القاهرة، ثم عمر أماكن. فلما كان فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، أخذت الأماكن من أربابها و تولى شراءها النشو. فلم ينصف فى أثمانها، و هدمت و بنى مكانها هذا الجامع، فبلغ مصروفه زيادة على ثلاثمائة ألف درهم، عنها نحو خمسة عشر ألف دينار، سوى ما حمل إليه من الأخشاب و الرخام و غيره من جهة السلطنة، و أخذ ما كان فى جامع راشدة من العمد فعملت فيه، و جاء من أحسن الجوامع، و أوّل خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة رابع عشرى رمضان سنة أربعين و سبعمائة، و خطب فيه الشيخ ركن الدين عمر بن إبراهيم الجعبرىّ، و لم يتناول معلوما.

ألطنبغا الماردانىّ الساقى: أمّره الملك الناصر محمد بن قلاون، و قدّمه و زوّجه ابنته، فلما مات السلطان و تلوى بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، ذكر أنه و شى بأمره إلى الأمير قوصون و قال: قد عزم على إمساكك. فتحيل قوصون و خلع أبا بكر و قتله بقوص، هذا مع أن الطنبغا كان قد عظم عند المنصور أكثر مما كان عند أبيه، فلما أقيم الأشرف كجك و ماج الناس و حضر الأمير قطلوبغا من الشام و شغب الأمراء على قوصون، كان ألطبغا أصل ذلك كله، ثم نزل إلى الأمير أيدغمش أمير أخور و اتفق معه على أن يقبض على قوصون، و طلع إلى قوصون و شاغله و خذله عن الحركة طول الليل و الأمراء الكبار المشايخ عنده، و ما زال يساهره حتى نام، و كان من قيالم الأمراء و ركوبهم عليه ما كان، إلى أن أمسك و أخرج إلى الاسكندرية، و لما قدم ألطنبغا نائب الشام و أقام، تقدّم الماردانىّ و قبض على سيفه و لم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۰

يجسر غيره على ذلك، فقويت بهذه الحركات نفسه و صار يقف فوق التمرتاشىّ و هو اغاته فشق ذلك عليه و كتم فى نفسه إلى أن ملك الصالح إسماعيل، فتمكن حينئذ التمرتاشىّ و صار الأمر له، و عمل على الماردانىّ فلم يشعر بنفسه إلا و قد أخرج على خمسة أرؤس من خيل البريد إلى نيابة حماه فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين، فسار إليها و بقى فيها نحو شهرين إلى أن مات ايدغمش نائب الشام، و نقل طقزدمر من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، فنقل الماردانىّ من نيابة حماه إلى نيابة حلب، و سار إليها فى أوّل رجب من السنة المذكورة، و جاء الأمير يلبغا اليحياوىّ إلى نيابة حماه، فأقام الماردانىّ يسيرا فى حلب و مرض و مات مستهلّ صفر سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و كان شابا طويلا رقيقا حول الصورة، لطيفا معشق الخطرة كريما صائب الحدس عاقلا.

جامع أصلم

هذا الجامع داخل الباب المحروق، أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار فى سنة ست و أربعين و سبعمائة.

أصلم: أحد مماليك الملك المنصور قلاون الألفىّ، فلما فرّقت المماليك السلطنية فى نيابة كتبغا بعد قتل الملك الأشرف خليل بن قلاون، و سلطنة الناصر محمد بن قلاون، كان أصلم من نصيب الأمير سيف الدين أقوش المنصورىّ، ثم انتقل إلى الأمير سلار، فلما حضر الملك الناصر محمد من الكرك بعد سلطنة بيبرس الجاشنكير، خرج إليه أصلم بمنجا الملك و بشره بهروب بيبرس، فأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم تنقل إلى أن صار أمير مائة مقدّم ألف، و خرج فى التجريدة إلى اليمن، فلما عاد اعتقله السلطان خمس سنين لكلام نقل عنه، ثم أخرجه و أعاده إلى منزلته، ثم جهزه لنيابة صفد، و مات الناصر و أصلم بصفد، فخرج الأمير قوصون مع الطنبغا نائب الشام إلى حلب لإمساك طشتمر، فسار إلى قارى ثم رجع و انضمّ إلى الفخرىّ و أقام عنده على خان لاجين، و توجه معه صحبة عساكر الشام إلى مصر، فرسم له الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاون بامرة مائة فى مصر على عادته، و كان أحد المشايخ، و يجلس رأس الحلقة، و يجيد رمى النشاب مع سلامة صدر و خير إلى أن مات فى يوم السبت عاشر شعبان سنة سبع و أربعين و

سبعمائة، و نشأ بجوار هذا الجامع دارا سنية، و حوض ماء للسبيل، و بهذا الجامع درس و له أوقاف، و هو من أحسن الجوامع.

جامع بشتاك

هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو الكرمانيّ على بركة الفيل، عمره الأمير بشتاك، فكمل فی شعبان سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و خطب فيه تاج الدين عبد الرحيم بن قاضی القضاة جلال الدين القزوينیّ، فی يوم الجمعة سابع عشرة، و عمر تجاهه خانقاه على الخليج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۱

الكبير، و نصب بينهما ساباطا يتوصل به من أحدهما إلى الآخر، و كان هذا الخط يسكنه جماعة من الفرنج و الأقباط، و يرتكبون من القبائح ما يليق بهم، فلما عمر هذا الجامع و أعلن فيه بالأذان و إقامة الصلوات، اشمأزت قلوبهم لذلك و تحوّلوا من هذا الخط، و هو من أبهج الجوامع و أحسنها رخاما، و أنزهها. و ادركناه إذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل و غرّقته فيصير لجة ماء، لكن منذ انحسر ماء النيل عن البلد إلى جهة الغرب بطل ذلك، و له من الآثار سوى ذلك، قصر بشتاک بين القصرين، و قد تقدّم ذكره.

جامع آق سنقر

هذا الجامع بسويقة السباعين على البركة الناصرية، عمره الأمير آق سنقر شادّ العمائر السلطانية، و إليه تنسب قنطرة آق سنقر التی على الخليج الكبير بخط قبو الكرمانیّ، قبالة الحبانية، و أنشأ أيضا دارا جليلة و حمامين بخط البركة الناصرية، و كان من جملة الأوشاقية فی أوّل أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، ثم عمله أمير أخور و نقله منها فجعله شادّ العمائر السلطانية، و أقام فيها مدّة فأثرى ثراء كبيرا، و عمر ما ذكر، و جعل على الجامع عدّة أوقاف، فعزل و صودر و الخرج من مصر إلى حلب، ثم نقل منها إلى دمشق، فمات بها فی سنة أربعين و سبعمائة.

جامع آق سنقر

هذا الجامع قريب من قلعة الجبل فيما بين باب الوزير و التبانة، كان موضعه فی القديم مقابر أهل القاهرة، و أنشأه الأمير آق سنقر الناصریّ، و بناه بالحجر و جعل سقوفه عقودا من حجارة، و رخمه و اهتمّ فی ثنائه اهتماما زائدا حتی كان يقعد على عمارته بنفسه، و يشيل التراب مع الفعلة بيده، و يتأخر عن غدائه اشتغالا بذلك، و أنشأ بجانبه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين القرآن، و حانوتا لسقی الناس الماء العذب، و وجد عند حفر أساس هذا الجامع كثيرا من الأموات، و جعل عليه ضيعة من قرى حلب، تغلّ فی السنة مائة و خمسين ألف درهم فضة، عنها نحو سبعة آلاف دينار، و قرّر فيه درسا فيه عدّة من الفقهاء، و ولی الشيخ شمس الدين محمد بن اللبان الشافعیّ خطابته، و أقام له سائر ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف، و بنى بجواره مكانا ليدفن فيه، و نقل إليه ابنه فدفنه هناک، و هذا الجامع من أجلّ جوامع مصر، إلّا أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام و خرجت النوّاب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملک الظاهر برقوق، امتنع حضور مغلّ وقف هذا الجامع لكونه فی بلاد حلب، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه إلّا الاذان و الصلاة. و إقامة الخطبة فی الجمع و الأعياد، و لما كانت سنة خمس عشرة و ثمانمائة أنشأ فی وسطه الأمير طوغان الدوادار بكرة ماء، و سقفها و نصب عليها عمدا من رخام لحمل السقف، أخذها من جامع الخندق، فهدم الجامع بالخندق من أجل ذلک، و صار الماء ينقل إلى هذه البركة من ساقية الجامع التی

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۲

كانت للميضأة، فلما قبض الملك المؤيد شيخ الظاهریّ على طوغان فی يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأولى، سنة ست عشرة و ثمانمائة، و أخرجه إلى الاسكندرية و اعتقله بها، أخذ شخص الثور الذی كان يدير الساقية، فإن طوغان كان أخذه منه بغير ثمن كما

هى عادة أمرائنا، فبطل الماء من البركة.

آق سنقر: السلارىّ، الأمير شمس الدين أحد مماليك السلطان الملك المنصور قلاون، و لما فرّقت المماليك، فى نيابة كتبغا على الأمراء، صار الأمير آق سنقر إلى الأمير سلار، فقيل له السلارىّ لذلك، و لما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك اختص به و رقاه فى الخدم حتى صار أحد الأمراء المقدّمين، و زوّجه بابنته و أخرجه لنيابة صفد، فباشرها بعفة إلى الغاية، ثم نقله من نيابة صفد إلى نيابة غزة، فلما مات الناصر و أقيم من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، و خلع بالأشرف كجك و جاء الفخرىّ لحصار الكرك، قام آق سنقر بنصرة أحمد ابن السلطان فى الباطن، و توجه الفخرىّ إلى دمشق لما توجه الطنبغا إلى حلب ليطرد طشتمر نائب حلب، فاجتمع به و قوّى عزمه، و قال له توجه أنت إلى دمشق و املكها و أنا أحفظ لك غزة، و قام فى هذه الواقعة قياما عظيما و أمسك الدروب، فلم يحضر أحد من الشام أو مصر من البريد و غيره إلّا و قبض عليه و حمل إلى الكرك، و حلف الناس للناصر أحمد، و قام بأمره ظاهرا و باطنا، ثم جاء إلى الفخرىّ و هو على خان لاجين و قوّى عزمه و عضده، و ما زال عنده بدمشق إلى أن جاء الطنبغا من حلب و التقوا، و هرب الطنبغا فاتبعه اق سنقر إلى غزة و أقام بها، و وصلت العساكر الشامية إلى مصر، فلما أمسك الناصر أحمد طشتمر النائب و توجه به إلى الكرك، أعطى نيابة ديار مصر لآق سنقر، فباشر النيابة و أحمد فى الكرك إلى أن ملك الملك الصالح إسماعيل بن محمد، فأقرّه على النيابة و سار فيها سيرة مشكورة، فكان لا يمنع أحدا شيئا طلبه كائنا من كان، و لا يردّ سائلا يسأل و لو كان ذلك غير ممكن، فارتزق الناس فى أيامه و اتسعت أحوالهم، و تقدّم من كان متأخرا حتى كان الناس يطلبون ما لا حاجة لهم به، ثم إن الصالح أمسكه هو و بيغرا أمير جاندار، و أولاجا الحاجب، و قراجا الحاجب، من أجل أنهم نسبوا إلى الممالاة و المداجاة مع الناصر أحمد، و ذلك يوم الخميس رابع المحرّم سنة أربع و أربعين و سبعمائة، و كان ذلك آخر العهد به، و استقرّ بعده فى النيابة الحاج آل ملك، ثم أفرج عن بيغرا، و أولاجا، و قراجا فى شهر رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة.

جامع آل ملك

هذا الجامع فى الحسينية خارج باب النصر، أنشأه الأمير سيف الدين الحاج آل ملك، و كمل و أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة تاسع جمادى الأول سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و هو من الجوامع المليحة، و كانت خطته عامرة بالمساكن و قد خربت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۳

آل ملك: الأمير سيف الدين أصله مما أخذ فى أيام الملك الظاهر من كسب الأبلستين لما دخل إلى بلاد الروم فى سنة ست و سبعين و ستمائة، و صار إلى الأمير سيف الدين قلاون و هو أمير قبل سلطنته، فأعطاه لابنه الأمير علىّ، و ما زال يترقى فى الخدم إلى أن صار من كبار الأمراء المشايخ رؤوس المشورة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و كان لما خلع الناصر و تسلطن بيبرس يتردّد بينهما من مصر إلى الكرك، فأعجب الناصر عقله و تأنيه، و سير من الكرك يقول للمظفر لا يعود يجىء إلىّ رسولا غير هذا فلما قدم الناصر إلى مصر عظمه و لم يزل كبيرا موقرا مبجلا. فلما ولى الناصر أحمد السلطنة أخرجه إلى نيابة حماه، فأقام بها إلى أن تولى الصالح اسماعيل، فأقدمه إلى مصر و أقام بها على حاله إلى أن أمسك الأمير آق سنقر السلارىّ نائب السلطنة بديار مصر، فولاه النيابة مكانه، فشدّد فى الخمر إلى الغاية، و حدّ شاربها و هدم خزانة البنود و أراق خمورها، و بنى بها مسجدا و سكرها للناس، فسكنت إلى اليوم كما تقدّم ذكره، و أمسك الزمام زمانا، و كان يجلس للحكم فى الشباك بدار النيابة من قلعة الجبل طول نهاره لا يملّ ذلك و لا يسأم، و تروح أرباب الوظائف و لا يبقى عنده إلا النقباء البطالة، و كان له فى قلوب الناس مهابة و حرمة إلى أن تولى الكامل شعبان، فأخرجه أوّل سلطنته إلى دمشق نائبا بها عوضا عن الأمير طقزدمر، فلما كان فى أوّل الطريق حضر إليه من أخذه و توجه به إلى صفد نائبا بها، فدخلها آخر ربيع الآخر سنة سبع و أربعين و سبعمائة، ثم سأل الحضور إلى مصر فرسم له بذلك، فلما توجه و وصل إلى غزة أمسكه نائبها و وجهه إلى الاسكندرية فى سنة سبع و أربعين، فخنق بها. و كان خيرا فيه دين و عبادة يميل إلى أهل الخير و الصلاح، و

تعتقد بركته، و خرّج له أحمد بن أيبك الدمياطيّ مشيخة، و حدّث بها و قرئت عليه مرّات و هو جالس فى شباك النيابة بقلعة الجبل، و عمر هذا الجامع و دارا مليحة عند المشهد الحسينيّ من القاهرة، و مدرسة بالقرب منها، و كان بركة من أحسن ما يكون، و خيله مشهورة موصوفة، و كان يقول كل أمير لا يقوّم رمحه و يسكب الذهب إلى أن يساوى السنان ما هو أمير، رحمة اللّه عليه.

جامع الفخر

فى ثلاثة مواضع، فى بولاق خارج القاهرة، و فى الروضة تجاه مدينة مصر، و فى جزيرة الفيل على النيل ما بين بولاق و منية السيرج. أمّا جامع الفخر بناحية بولاق فإنه موجود تقام فيه الجمعة إلى اليوم، و كان أوّلا عند ابتداء بنائه يعرف موضعه بخط خص الكيالة، و هو مكان كان يؤخذ فيه مكس الغلال المبتاعة، و قد ذكر ذلك عند ذكر أقسام مال مصر من هذا الكاتب. و جامع الروضة باق تقام فيه الجمعة. و أما الجامع بجزيرة الفيل فإنه كان باقيا إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، و صليت فيه الجمعة غير مرّة، ثم خرب و موضعه باق بجوار دار تشرف على النيل تعرف بدار الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۴

قريبا من الدار الحجازية.

و الفخر: هذا هو محمد بن فضل اللّه القاضى فخر الدين ناظر الجيش، المعروف بالفخر، كان فى نصرانيته متألها، ثم أكره على الإسلام فامتنع و همّ بقتل نفسه، و تغيب أياما ثم أسلم و حسن إسلامه، و أبعد النصارى و لم يقرّب أحدا منهم، و حج غير مرّة، و تصدّق فى آخر عمره مدّة فى كل شهر بثلاثة آلاف درهم نقرة، و بنى عدّة مساجد بديار مصر، و أنشأ عدّة أحواض ماء للسبيل فى الطرقات، و بنى مارستانا بمدينة الرملة، و مارستانا بمدينة بلبيس، و فعل أنواعا من الخير، و كان حنفيّ المذهب، و زار القدس عدّة مرار، و أحرم مرّة من القدس بالحج، و سار إلى مكة محرما، و كان إذا خدمه أحد مرّة واحدة صار صاحبه طول عمره، و كان كثير الإحسان، لا يزال فى قضاء حوائج الناس مع عصبية شديدة لأصحابه، و انتفع به خلق كثير لوجاهته عند السلطان، و إقدامه عليه، بحيث لم يك لأحد من أمراء الدولة عند الملك الناصر محمد بن قلاون ماله من الإقدام، و لقد قال السلطان مرّة لجندى طلب منه إقطاعا: لا تطوّل، و اللّه لو أنك ابن قلاون ما أعطاك القاضى فخر الدين حيزا يغلّ أكثر من ثلاثة آلاف درهم، و قال له السلطان فى يوم من الأيام و هو بدار العدل: يا فخر الدين تلك القضية طلعت فاشوش. فقال له: ما قلت لك أنها عجوز نحس. يريد بذلك بنت كوكاى امرأة السلطان عند ما ادّعت أنها حبلى، و له من الأخبار كثير.

و كان أوّلا كاتب المماليك السلطانية، ثم صار من كتابة المماليك إلى وظيفة نظر الجيش، و نال من الوجاهة ما لم ينله غيره فى زمانه، و كان الأمير أرغون نائب السلطنة بديار مصر يكرهه، و إذا جلس للحكم يعرض عنه و يدير كتفه إلى وجه الفخر، فعمل عليه الفخر حتى سار للحج، فقال للسلطان: يا خوند ما يقتل الملوك إلّا النوّاب، بيدرا قتل أخاك الملك الأشرف، و لاجين قتل بسبب نائبه منكوتمر، و خيل للسلطان إلى أن أمر بمسير الأمير أرغون من طريق الحجاز إلى نيابة حلب، و حسن للسلطان أن لا يستوزر أحدا بعد الأمير الجماليّ، فلم يول أحدا بعده الوزارة، و صارت المملكة كلها من أحوال الجيوش، و أمور الأموال و غيرها متعلقة بالفخر، إلى أن غضب عليه السلطان و نكبه و صادره على أربعمائة ألف درهم نقرة، و ولى وظيفة نظر الشيخ قطب الدين موسى بن شيخ السلامية، ثم رضى عن الفخر و أمر بإعادة ما أخذ منه من المال إليه، و هو أربعمائة ألف درهم نقرة، فامتنع و قال: أنا خرجت عنها للسلطان فليبنى بها جامعا، و بنى بها الجامع الناصرىّ المعروف الآن بالجامع الجديد خارج مدينة مصر بموردة الحلفاء، و زار مرّة القدس و عبر كنيسة قمامة فسمع و هو يقول عند ما رأى الضوء بها: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. و باشر آخر عمره بغير معلوم، و كان لا يأخذ من ديوان السلطان معلوما سوى كماجة، و يقول أتبرّك بها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۵

و لما مات فى رابع عشر رجب سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة و له من العمر ما ينيف على سبعين سنة، و ترك موجودا عظيما إلى الغاية. قال: السلطان، لعنه اللّه، خمس عشرة سنة ما يدعنى أعمل ما أريد، و أوصى للسلطان بمبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، فأخذ من تركته أكثر من ألف ألف درهم نقرة، و من حين مات الفخر كثر تسلط السلطان الملك الناصر، و أخذه أموال الناس، و إلى الفخر تنسب قنطرة الفخر التى على فم الخليج الناصرىّ المجاور لميدان السلطان بموردة الجبس، و قنطرة الفخر التى على الخليج المجاور للخليج الناصرىّ، و أدركت ولده فقيرا يتكفف الناس بعد مال لا يحدّ كثرة.

جامع نائب الكرك

هذا الجامع بظاهر الحسينية مما يلى الخليج، كان عامرا و عمر ما حوله عمارة كبيرة، ثم خرب بخراب ما حوله من عهد الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة، عمره الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك، و قد تقدّم ذكره عند ذكر الدور من هذا الكتاب.

جامع الخطيرىّ ببولاق

هذا الجامع موضعه الآن بناحية بولاق خارج القاهرة، كان موضعه قديما مغمورا بماء النيل إلى نحو سنة سبعمائة، فلما انحسر ماء النيل عن ساحل المقس صار ما قدّام المقس رمالا لا يعلوها ماء النيل إلّا أيام الزيادة، ثم صارت بحيث لا يعلوها الماء البتة، فزرع موضع هذا الجامع بعد سنة سبعمائة، و صار منتزها يجتمع عنده الناس، ثم بنى هناك شرف الدين بن زنبور ساقية و عمر بجوارها رجل يعرف بالحاج محمد بن عز الفرّاش دارا تشرف على النيل، و تردّد إليها، فلما مات أخذها شخص يقال له تاج الدين بن الأزرق ناظر الجهات و سكنها، فعرفت بدار الفاسقين لكثرة ما يجرى فيها من أنواع المحرّمات، فاتفق أن النشو ناظر الخاص قبض على ابن الأزرق و صادره، فباع هذه الدار فى جملة ما باعه من موجوده، فاشتراها منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيرىّ و هدمها و بنى مكانها هذا الجامع و سماه جامع التوبة، و بالغ فى عمارته و تأنق فى رخامه، فجاء من أجلّ جوامع مصر و أحسنها، و عمل له منبرا من رخام فى غاية الحسن، و ركب فيه عدّة شبابيك من حديد تشرف على النيل الأعظم، و جعل فيه خزانة كتب جليلة نفيسة، و رتب فيه درسا للفقهاء الشافعية، و وقف عليه عدّة أوقاف منها: دار العظيمة التى هى فى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و كان جملة ما أنفق فى هذا الجامع أربعمائة ألف درهم نقرة، و كملت عمارته فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة عشرى جمادى الآخر، فلما خلص ابن الأزرق من المصادرة، حضر إلى الأمير الخطيرىّ و ادّعى أنه باع داره و هو مكره، فدفع إليه ثمنها مرّة ثانية، ثم إن البحر قوى على هذا الجامع و هدمه، فأعاد بناءه بجملة كثيرة من المال، و رمى قدّام زريبته ألف مركب مملوءة بالحجارة، ثم انهدم بعد موته و أعيدت زريبته.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۶

ايدمر الخطيرىّ: الأمير عز الدين، مملوك شرف الدين أوحد بن الخطيرىّ، الأمير مسعود بن خطير، انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاون فرقاه حتى صار أحد أمراء الألوف، بعد ما حبسه بعد مجيئه من الكرك إلى مصر مدّة، ثم أطلقه و عظم مقداره إلى أن بقى يجلس رأس الميسرة و معه أمرة مائة و عشرين فارسا، و كان لا يمكنه السلطان من المبيت فى داره بالقاهرة، فينزل إليها بكرة و يطلع إلى القلعة بعد العصر كذا أبدا، فكانوا يرون ذلك تعظيما له، و كان منوّر الشيبة كريما يحب التزوّج الكثير و الفخر، بحيث أنه لما زوّج السلطان ابنته بالأمير قوصون ضرب دينارين وزنهما أربعمائة مثقال ذهبا، و عشرة آلاف درهم فضة برسم نقوط امرأته فى العرس إذا طلعت إلى زفاف ابنة السلطان على قوصون، و قيل له مرّة هذا السّكر الذى يعمل فى الطعام ما يضرّ أن يعمل غير مكرّر، فقال لا يعمل إلّا مكرّرا، فإنه يبقى فى نفسى أنه غير مكرّر، و كان لا يلبس قباء مطرّزا و لا مصقولا، و لا يدع أحدا عنده يلبس ذلك، و كان يخرج الزكاة، و انشأ بجانب هذا الجامع ربعا كبيرا تنافس الناس فى سكناه، و لم يزل على حاله حتى مات يوم الثلاثاء مستهلّ شهر

رجب سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و دفن بتربته خارج باب النصر، و لم يزل هذا الجامع مجمعا يقصده سائر الناس للتنزه فيه على النيل، و يرغب كل أحد فى السكنى بجواره، و بلغت الأماكن التى بجواره من الأسواق و الدور الغاية فى العمارة، حتى صار ذلك الخط أعمر أخطاط مصر و أحسنها، فلما كانت سنة ست و ثمانمائة انحسر ماء النيل عما تجاه جامع الخطيرىّ، و صار رملة لا يعلوها الماء إلّا فى أيام الزيادة، و تكاثر الرمل تحت شبابيك الجامع، و قربت من الأرض بعد ما كان الماء تحته لا يكاد يدرك قراره، و هو الآن عامر، إلّا أن الاجتماعات التى كانت فيه قبل انحسار النيل عما قبالته قلت، و اتضع حال ما يجاوره من السوق و الدور، و للّه عاقبة الأمور.

جامع قيدان

هذا الجامع خارج القاهرة على جانب الخليج الشرقىّ ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الإوز تجاه أرض البعل، كان مسجدا قديم البناء فجدّده الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى محرّم سنة سبع و تسعين و خمسمائة، و جدّد حوض السبيل الذى فيه، ثم إن الأمير مظفر الدين قيدان الرومىّ عمل به منبرا لإقامة الخطبة يوم الجمعة، و كان عامرا بعمارة ما حوله، فلما حدث الغلاء فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين خرب كثير من تلك النواحى، و بيعت أنقاضها، و كانت الغرقة أيضا، فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع الظاهر، و بين قناطر الأوز المقابلة لأرض البعل يبابا لا عامر له و لا ساكن فيه، و خرب أيضا ما وراء ذلك من شرقيه إلى جامع نائب الكرك، و تعطل هذا الجامع و لم يبق منه غير جدر آئلة إلى العدم، ثم جدّده مقدّم بعض المماليك السلطانية فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۷

حدود الثلاثين و الثمانمائة، ثم وسع فيه الشيخ أحمد بن محمد الأنصارىّ العقاد الشهير بالأزرارىّ، و مات فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين و ثمانمائة.

جامع الست حدق

هذا الجامع بخط المريس فى جانب الخليج الكبير مما يلى الغرب، بالقرب من قنطرة السدّ التى خارج مدينة مصر، أنشأته الست حدق دادة الملك الناصر محمد بن قلاون، و أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و إلى حدق هذه ينسب حكر الست حدق الذى ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

جامع ابن غازى

هذا الجامع خارج باب البحر من القاهرة بطريق بولاق، أنشأه نجم الدين بن غازى دلال المماليك، و أقيمت فيه الخطبة فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و إلى اليوم تقام فيه الجمعة، و بقية الأيام لا يزال مغلق الأبواب لقلة السكان حوله.

جامع التركمانىّ

هذا الجامع فى المقس، و هو من الجوامع المليحة البناء، أنشأه الأمير بدر الدين محمد التركمانىّ، و كان ما حوله عامرا عمارة زائدة، ثم تلاشى من الوقت الذى كان فيه الغلاء زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين، و ما برح حاله يختل إلى أن كانت الحوادث و المحن من سنة ست و ثمانمائة، فخرب معظم ما هنالك، و فيه إلى اليوم بقايا عامر لا سيما بجوار هذا الجامع.

التركمانيّ محمد، و ينعت بالأمير بدر الدين محمد بن الأمير فخر الدين عيسى التركمانيّ، كان أوّلا شادّا، ثم ترقى فى الخدم حتى ولى الجيزة، و تقدّم فى الدولة الناصرية، فولاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون شادّ الدواوين، و الدولة حينئذ ليس فيها وزير، فاستقلّ بتدبير الدولة مدّة أعوام، و كان يلى نظر الدولة تلك الأيام كريم الدين الصغير، فغص به و ما زال يدبر عليه حتى أخرجه السلطان من ديار مصر، و عمله شادّ الدواوين بطرابلس، فأقام هناك مدّة سنتين ثم عاد إلى القاهرة بشفاعة الأمير تنكز نائب الشام، و ولى كشف الوجه البحرىّ مدّة، ثم أعطى أمرة طبلخاناه، و أعطى أخوه علىّ أمرة عشرة، و ولده إبراهيم أيضا أمرة عشرة، و كان مهابا صاحب حرمة باسطة و كلمة نافذة، و مات عن سعادة طائلة بالمقس فى ربيع الأوّل سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة و هو أمير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۸

جامع شيخو

هذا الجامع بسويقة منعم، فيما بين الصليبة و الرميلة تحت قلعة الجبل، أنشأه الأمير الكبير سيف الدين شيخو الناصرىّ، رأس نوبة الأمراء فى سنة ست و خمسين و سبعمائة، و رفق بالناس فى العمل فيه و أعطاهم أجورهم، و جعل فيه خطبة و عشرين صوفيا، و أقام الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود الرومىّ الحنفىّ شيخهم، ثم لما عمر الخانقاه تجاه الجامع نقل حضور الأكمل و الصوفية إليها، و زاد عدّتهم، و هذا الجامع من أجلّ جوامع ديار مصر.

شيخو: الأمير الكبير سيف الدين، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاون، حظى عند الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاون، و زادت وجاهته حتى شفع فى الأمراء و أخرجهم من سجن الإسكندرية، ثم إنه استقرّ فى أوّل دولة الملك الناصر حسن أحد أمراء المشورة، و فى آخر الأمر كانت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة، و صار زمام الدولة بيده، فساسها أحسن سياسة بسكون و عدم شرّ، و كان يمنع كل حزب من الوثوب على الآخر، فعظم شأنه إلى أن رسم السلطان بإمساك الأمير يلبغاروس نائب السلطنة بديار مصر و هو مسافر بالحجاز، و كان شيخو قد خرج متصيدا إلى ناحية طنان بالغربية، فلما كان يوم السبت رابع عشرى شوّال سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، أمسك السلطان الأمير منجك الوزير، و حلّف الأمراء لنفسه، و كتب تقليد شيخو بنيابة طرابلس، و جهزه إليه مع الأمير سيف الدين طينال الجاشنكير، فسار إليه و سفره من برّا، فوصل إلى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة، فظهر مرسوم السلطان بإقامة شيخو فى دمشق على إقطاع الأمير بيلبك السالمىّ، و بتجهيز بيلبك إلى القاهرة، فخرج بيلبك من دمشق و أقام شيخو على إقطاعه بها، فما وصل بيلبك إلى القاهرة إلّا و قد وصل إلى دمشق و أقام شيخو على إقطاعه بها، فما وصل و تقييد مماليكه و اعتقالهم بقلعة دمشق، فأمسك و جهّز مقيدا، فلما وصل إلى قطيا توجهوا به إلى الإسكندرية، فلم يزل معتقلا بها إلى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن، و تولى أخوه الملك الصالح صالح، فأفرج عن شيخو و منجك الوزير و عدّة من الأمراء، فوصلوا إلى القاهرة فى رابع شهر رجب سنة اثنتين و خمسين و سبعمائة، و أنزل فى الأشرفية بقلعة الجبل، و استمرّ على عادته، و خرج مع الملك الصالح إلى الشام فى واقعة يلبغاروس، و توجه إلى حلب هو و الأمير طاز و أرغون الكاملىّ خلف يلبغاروس، و عاد مع السلطان إلى القاهرة و صمم حتى أمسك يلبغاروس و من معه من الأمراء بعد ما و صلوا إلى بلاد الروم، و حزت رؤسهم، و أمسك أيضا ابن دلغار و أحضر إلى القاهرة و وسّط و علّق على باب زويلة، ثم خرج بنفسه فى طلب الأحدب الذى خرج بالصعيد و تجاوز فى سفره قوص، و أمسك عدّة كثيرة و وسّطهم حتى سكنت الفتن بأرض مصر، و ذلك فى آخر سنة أربع و خمسين و أوّل سنة خمس و خمسين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۱۹

ثم خلع الملك الصالح و أقام بدله الملك الناصر حسنا فى ثانى شوّال، و أخرج الأمير طاز من مصر إلى حلب نائبا بها و معه إخوته، و صارت الأمور كلها راجعة إليه، و زادت عظمته و كثرت أمواله و أملاكه و مستأجراته حتى كاد يكاثر أمواج البحر بما ملك، و قيل له

قارون عصره. و عزيز مصره، و أنشأ خلقا كثيرا، فقوى بذلك حزبه و جعل في كل مملكة من جهته عدّة أمراء، و صارت نوّابه بالشام و في كل مدينة أمراء كبار، و خدموه حتى قيل كان يدخل كل يوم ديوانه من إقطاعه و أملاكه و مستأجراته بالشام و ديار مصر مبلغ مائتى ألف درهم نقرة، و أكثر، و هذا شيء لم يسمع بمثله في الدولة التركية، و ذلك سوى الإنعامات السلطانية و التقادم التى ترد إليه من الشام و مصر، و ما كان يأخذ من البراطيل على ولاية الأعمال، و جامعه هذا و خانقاهه التى بخط الصليبة لم يعمر مثلهما قبلهما، و لا عمل في الدولة التركية مثل أوقافهما، و حسن ترتيب المعاليم بهما، و لم يزل على حاله إلى أن كان يوم الخميس ثامن شعبان سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، فخرج عليه شخص من المماليك السلطانية المرتجعة عن الأمير منجك الوزير يقال له باى، فجاء و هو جالس بدار العدل و ضربه بالسيف في وجهه و في يده، فارتجت القلعة كلها و كثر هرج الناس حتى مات من الناس جماعة من الزحمة و ركب من الأمراء الكبار عشرة و هم بالسلاح عليهم إلى قبة النصر خارج القاهرة، ثم أمسك باى فجاء و قرّر فلم يعترف بشيء على أحد و قال: أنا قدّمت إليه قصة لينقلنى من الجامكية إلى الإقطاع فما قضى شغلى، فأخذت في نفسى من ذلك، فسجن مدّة ثم سمّر و طيف به الشوارع، و بقى شيخو عليلا من تلك الجراحة لم يركب إلى أن مات ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة، سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، و دفن بالخانقاه الشيخونية و قبره بها يقرأ عنده القرآن دائما.

جامع الجاكىّ

هذا الجامع كان بدرب الجاكى عند سويقة الريش من الحكر في برّ الخليج الغربىّ، أصله مسجد من مساجد الحكر، ثم زاد فيه الأمير بدر الدين محمد بن إبراهيم المهمندار، و جعله جامعا و أقام فيه منبرا في سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، فصار أهل الحكر يصلون فيه الجمعة إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فخرب الحكر و بيعت أنقاض معظم الدور التى هناك، و تعطل هذا الجامع من ذكر اللّه و إقامة الصلاة لخراب ما حوله، فحكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع، فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد صاحب جامع الزاهد بخط المقس، و هدمه و أخذ أنقاضه فعملها في جامعه الذى بالمقس في أوّل سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع التوبة

هذا الجامع بجوار باب البرقية في خط بين السورين، كان موضعه مساكن أهل الفساد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۰

و أصحاب الرأى، فلما أنشأ الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ خانقاهه المعروفة بالجمالية قريبا من خزانة البنود بالقاهرة، كره مجاورة هذه الأماكن لداره و خانقاهه، فأخذها و هدمها و بنى هذا الجامع في مكانها، و سماه جامع التوبة، فعرف بذلك إلى اليوم، و هو الآن تقام فيه الجمعة، غير أنه لا يزال طول الأيام مغلق الأبواب لخلوّه من ساكن، و قد خرب كثير مما يجاوره، و هناك بقايا من أماكن.

جامع صاروجا

هذا الجامع مطلّ على الخليج الناصرىّ بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى، كان خطة تعرف بجامع العرب، فأنشأ بها هذا الجامع ناصر الدين محمد أخو الأمير صار و جانقيب الجيش، بعد سنة ثلاثين و سبعمائة، و كانت تلك الخطة قد عمرت عمارة زائدة، و أدركت منها بقية جيدة إلى أن دثرت، فصارت كيمانا، و تقام الجمعة إلى اليوم في هذا الجامع أيام النيل.

جامع الطباخ

هذا الجامع خارج القاهرة بخط باب اللوق، بجوار بركة الشقاف، كان موضعه و موضع بركة الشقاف من جملة الزهرىّ، أنشأه الأمير جمال الدين أقوش، و جدّده الحاج على، الطباخ فى المطبخ السلطانىّ أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و لم يكن له وقف، فقام بمصالحه من ماله مدّة، ثم إنه صودر فى سنة ست و أربعين و سبعمائة، فتعطل مدّة نزول الشدّة بالطباخ، و لم تقم فيه تلك المدّة الصلاة.

علىّ بن الطباخ: نشأ بمصر و خدم الملك الناصر محمد بن قلاون. و هو بمدينة الكرك، فلما قدم إلى مصر جعله خوان سلار، و سلمه المطبخ السلطانىّ، فكثر ماله لطول مدّته. و كثرة تمكنه، و لم يتفق لأحد من نظرائه ما اتفق له من السعادة الطائلة، و ذلك أن الأفراح و ما كان يصنع من المهمات و الأعراس و نحوها مما كان يعمل فى الدور السلطانية و عند الأمراء و المماليك و الحواشى مع كثرة ذلك فى طول تلك الأعوام، كانت كلها إنما يتولى أمرها هو بمفرده، فما اتفق له فى عمل مهم ابن بكتمر الساقى على ابنة الأمير تنكز نائب الشام، أن السلطان الملك الناصر استدعاه آخر النهار الذى عمل فيه المهم المذكور و قال له: يا حاج علىّ، اعمل لى الساعة لونا من طعام الفلاحين، و هو خروج رميس يكون ملهوج، فولى و وجهه معبس، فصاح به السلطان ويلك مالك معبس الوجه؟ فقال: كيف ما أعبس و قد حرمتنى الساعة عشرين ألف درهم نقرة؟ فقال: كيف حرمتك؟ قال: قد تجمع عندى رؤس غنم و بقر و أكارع و كروش و أعضاد و سقط دجاج و أوز و غير ذلك مما سرقته من المهمّ، و أريد أقعد و أبيعه، و قد قلت لى أطبخ و بينما أفرغ من الطبيخ تلف الجميع، فتبسم السلطان و قال له: رح أطبخ و ضمان الذى ذكرت علىّ، و أمر بإحضار والى القاهرة و مصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۱

فلما حضرا ألزمهما بطلب أرباب الزفر إلى القلعة و تفرقة ما ناب الطباخ من المهمّ عليهم، و استخراج ثمنه، فللحال حضر المذكورون و بيع عليهم ذلك فبلغ ثمنه ثلاثة و عشرين ألف درهم نقرة، و هذا مهمّ واحد من ألوف مع الذى كان له من المعاليم و الجرايات و منافع المطبخ. و يقال أنه كان يتحصل له من المطبخ السلطانى فى كل يوم على الدوام و الاستمرار مبلغ خمسمائة درهم نقرة، و لولده أحمد مبلغ ثلاثمائة درهم نقرة، فلما تحدّث النشو فى الدولة خرّج عليه تخاريج و أغرى به السلطان، فلم يسمع فيه كلاما، و ما زال على حاله إلى أن مات الملك الناصر و قام من بعده أولاده الملك المنصور أبو بكر، و الملك الأشرف كجك، و الملك الناصر أحمد، و الملك الصالح إسماعيل، و الملك الكامل شعبان، فصادره فى سنة ست و أربعين و سبعمائة، و أخذ منه مالا كثيرا، و مما وجد له خمس و عشرون دارا مشرفة على النيل و غيره، فتفرقت حواشى الملك الكامل أملاكه، فأخذت أم السلطان ملكه الذى كان على البحر، و كانت دارا عظيمة جدّا، و أخذت أنقاض داره التى بالمحمودية من القاهرة و أقيم عوضه بالمطبخ السلطانىّ و ضرب ابنه أحمد.

جامع الأسيوطىّ

هذا الجامع بطرف جزيرة الفيل مما يلى ناحية بولاق، كان موضعه فى القديم غامرا بماء النيل، فلما انحسر عن جزيرة الفيل و عمرت ناحية بولاق، أنشأ هذا الجامع القاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر السيوطىّ ناظر بيت المال، و مات فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، ثم جدّد عمارته بعد ما تهدّم و زاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد المعروف بابن البارزىّ الحموىّ كاتب السرّ، و أجرى فيه الماء و أقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، فجاء فى أحسن هندام و أبدع زىّ، و صلّى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة فى أول جمادى الآخرة سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة.

جامع الملك الناصر حسن

هذا الجامع يعرف بمدرسة السلطان حسن، و هو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة و بركة الفيل، و كان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى الذى تقدّم ذكره عند ذكر الدور، و ابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع و خمسين و سبعمائة، و أوسع دوره و عمله فى أكبر قالب و أحسن هندام و أضخم شكل، فلا يعرف فى بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع، أقامت العمارة فيه مدّة ثلاث سنين لا تبطل يوما واحدا، و أرصد لمصروفها فى كل يوم عشرون ألف درهم، عنها نحو ألف مثقال ذهبا. و لقد أخبرنى الطواشى مقبل الشاميّ: أنه سمع السلطان حسنا يقول: انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم نقرة، و هذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۲

قال: و سمعت السلطان يقول لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه، و فى هذا الجامع عجائب من البنيان منها: أن ذراع إيوانه الكبير خمسة و ستون ذراعا فى مثلها، و يقال أنه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع، و منه القبلة العظيمة التى لم يبن بديار مصر و الشام و العراق و المغرب و اليمن مثلها، و منها المنبر الرخام الذى لا نظير له، و منها البوّابة العظيمة، و منها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع إلى غير ذلك. و كان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منابر يؤذن عليها، فتمت ثلاث منابر إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، فسقطت المنارة التى على الباب، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هناك و من غير الأيتام، و سلّم من الأيتام ستة أطفال، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة و بناء نظيرتها، و تأخر هناك منارتان هما قائمتان إلى اليوم، و لما سقطت المنارة المذكورة لهجت عامّة مصر و القاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن عليّ بن محمد السبكيّ فى سقوطها:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتىبشيره بمقال سار كالمثل
إنّ المنارة لم تسقط لمنقصةلكن لسرّ خفيّ قد تبيّن لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعتفالوجد فى الحال أدّها إلى الميل
لو أنزل اللّه قرآنا على جبلتصدّعت رأسه من شدّة الوجل
تلك الحجارة لم تنقضّ بل هبطتمن خشية اللّه لا للضعف و الخلل
و غاب سلطانها فاستوحشت و رمتبنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد للّه حظّ العين زال بماقد كان قدّره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسةشيدت بنيانها بالعلم و العمل
و دمت حتى ترى الدنيا بها امتلأتعلما فليس بمصر غير مشتغل

فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة و ثلاثين يوما، و مات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع، فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار، و كان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافا عظيمة جدّا، فلم يترك منها إلّا شىء يسير و أقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر و الشام لجماعة من الأمراء و غيرهم، و صار هذا الجامع ضدّا لقلعة الجبل، قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلّا و يصعد عدّة من الأمراء و غيرهم إلى أعلاه و يصير الرمى منه على القلعة، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق و أمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين و البيوت التى كان يسكنها الفقهاء، و يتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة، و هدمت البسطة العظيمة و الدرج التى كانت بجانبى هذه البسطة التى كانت قدّام باب الجامع، حتى لا يمكن الصعود إلى الجامع، و سدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله، و فتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۳

ليتوصل منه إلى داخل الجامع عوضا عن الباب المسدود، فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة، و امتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين، و بقى الأذان على درج هذا الباب، و كان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الأحد ثامن صفر سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة، ثم لما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس و التنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار، و نقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوّال سنة تسع عشرة و ثمانمائة، فركب الباب على البوّابة و علق التنور تجاه المحراب، فلما كان فى يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان، و أعيد بناء الدرج و البسطة، و ركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد، و استمرّ الأمر على ذلك.

الملك الناصر أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاون: جلس على تخت الملك و عمره ثلاث عشرة سنة فى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان و أربعين و سبعمائة بعد أخيه الملك المظفر حاجى، و أركب من باب الستارة بقلعة الجبل و عليه شعار السلطنة و فى ركابه الأمراء إلى أن نزل بالإيوان السلطانىّ، و مدبر و الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس، و الأمير ألجيبغا المظفرىّ، و الأمير شيخو، و الأمير طاز، و أحمد شادّ الشرابخاناه، و أرغون الإسماعيلىّ فخلع على يلبغاروس و استقرّ فى نيابة السلطنة بديار مصر، عوضا عن الحاج أرقطاى، و قرّر أرقطاى فى نيابة السلطنة بحلب، و خلع على الأمير سيف الدين منجكك اليوسفىّ و استقرّ فى الوزارة و الاستادارية، و قرر الأمير أرغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق.

فلما دخلت سنة تسع و أربعين، كثر انكشاف الأراضى من ماء النيل بالبرّ الشرقىّ فيما يلى بولاق إلى مصر، فاهتم الأمراء بسدّ البحر مما يلى الجيزة، و فوّض ذلك للأمير منجك، فجمع مالا كثيرا و أنفقه على ذلك، فلم يفد، فقبض على منجك فى ربيع الأوّل، و حدث الوباء العظيم فى هذه السنة، و أخرج أحمد شادّ الشرابخاناه لنيابة صفد، و ألجيبغا لنيابة طرابلس، فاستمرّ أجليبغا بها إلى شهر ربيع الأوّل سنة خمسين، فركب إلى دمشق و قتل أرغون شاه بغير مرسوم، فأنكر عليه و أمسك و قتل بدمشق. و فى سنة إحدى و خمسين سار من دمشق عسكر عدّته أربعة آلاف فارس، و من حلب ألفا فارس إلى مدينة سنجار، و معهم عدّة كثيرة من التركمان، فحصروها مدّة حتى طلب أهلها الأمان، ثم عادوا. و ترشد السلطان و استبدّ بأمره و قبض على منحك و يلبغاروس، و قبض بمكة على الملك المجاهد صاحب اليمن، و قيد و حمل إلى القاهرة، فأطلق ثم سجن بقلعة الكرك.

فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ركب الأمراء على السلطان و هم: طاز و إخوته و يبلغا الشمسىّ، و يبغوا، و وقفوا تحت القلعة و صعد الأمير طاز و هو لابس إلى القلعة فى عدّة وافرة، و قبض على السلطان و سجنه بالدور، فكانت مدّة ولايته ثلاث سنين و تسعة أشهر، و أقيم بدله أخوه الملك الصالح صالح فأقام السلطان حسن مجمعا على الاشتغال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۴

بالعلم، و كتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوّة للبيهقىّ إلى يوم الاثنين ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فأقامه الأمير شيخو العمرىّ فى السلطنة، و قبض على الصالح، و كانت مدّة سجنه ثلاث سنين و ثلاثة أشهر و أربعة عشر يوما، فرسم بإمساك الأمير طاز و إخراجه لنيابة حلب. و فى ربيع الأول سنة سبع و خمين هبت ريح عاصفة من ناحية الغرب من أوّل النهار إلى آخر الليل، اصفرّ منها الجوّ، ثم احمرّ، ثم اسودّ فتلف منها شيء كثير.

و فى شعبان سنة تسع و خمسين ضرب الأمير شيخو بعض المماليك بسيف فلم يزل عليلا حتى مات. و فى سنة تسع و خمسين كان ضرب الفلوس الجدد، فعمل كلّ فلس زنة مثقال، و قبض على الأمير طاز نائب حلب و سجن بالإسكندرية، و قرّر مكانه فى نيابة حلب الأمير منجك اليوسفىّ، و أمسك الأمير صرغتمش فى شهر رمضان منها، و كانت حرب بين مماليكه و مماليك السلطان، انتصر فيها المماليك السلطانية، و قبض على عدّة أمراء، فأنعم السلطان على مملوكه يلبغا العمرىّ الخاصكىّ بتقدمة ألف عوضا عن تنكر بغا الماردانىّ أمير مجلس بحكم وفاته. و فى سنة ستين فرّ منجك من حلب، فلم يوقف له على خبر، فأقرّ على نيابة حلب الأمير بيدمر الخوارزمىّ، و سار لغزو سيس فأخذ أدنه بأمان و أخذ طرسوس و المصيصة و عدّة بلاد و أقام بها نوّابا و عاد، فلما كانت سنة اثنتين و

ستين عدّى السلطان إلى برّ الجيزة و أقام بناحية كوم برا مدّة طويلة لوباء كان بالقاهرة، فتنكر الحال بينه و بنى الأمير يلبغا إلى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى، فركب السلطان فى جماعة ليكبس على الأمير يلبغا، و كان قد أحسن بذلك و خرج عن الخيام و كمن بمكان و هو لابس فى جماعته، فلم يظفر السلطان به، و رجع فثار به يلبغا فانكسر بمن معه و فرّ يريد قلعة الجبل، فتبعه يلبغا و قد انضم إليه جمع كثير، و دخل السلطان إلى القلعة فلم يثبت، و ركب معه أيدمر الدوادار ليتوجه إلى بلاد الشام، و نزل إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشىّ أمير حاجب، فبعث فى الحال إلى الأمير يبلغا يعلمه بمجىء السلطان إليه، فبعث من قبضه هو و الأمير أيدمر، و من حينئذ لم يوقف له على خبر البتة مع كثرة فحص أتباعه و حواشيه عن قبره و ما آل إليه أمره، فكانت مدّة ولايته هذه الثانية ست سنين و سبعة أشهر و أياما، و كان ملكا حازما مهابا شجاعا صاحب حرمة وافرة و كلمة نافذة و دين متين، حلف غير مرّة أنه ما لاط و لا شرب خمرا و لا زنى، إلّا أنه كان يبخل و يعجب بالنساء، و لا يكاد يصبر عنهنّ، و يبالغ فى إعطائهنّ المال، و عادى فى دولته أقباط مصر، و قصد اجتثات أصلهم، و كره المماليك، و شرع فى إقامة أولاد الناس أمراء، و ترك عشرة بنين و ست بنات، و كان أشقر أنمش، و قتل و له من العمر بضع و عشرون سنة، و لم يكن قبله و لا بعده فى الدولة التركية مثله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۵

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف الآن بجامع الأولياء، و هو القرافة الكبرى، و كان موضعه يعرف فى القديم عند فتح مصر بخطة المغافر، و هو مسجد بنى عبد اللّه بن مانع بن مورع يعرف بمسجد القبة. قال القضاعىّ: كان القرّاء يحضرون فيه، ثم بنى عليه المسجد الجامع الجديد، بنته السيدة المعزية فى سنة ست و ستين و ثلاثمائة و هى أمّ العزيز باللّه نزار ولد المعز لدين اللّه، أمّ ولد من العرب يقال لها تغريد، و تدعى درزان، و بنته على يد الحسن بن عبد العزيز الفارسىّ المحتسب فى شهر رمضان من السنة المذكورة، و هو على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة، و كان بهذا الجامع بستان لطيف فى غربيه و صهريج، و بابه الذى يدخل منه ذو المصاطب الكبير الأوسط تحت المنار العالى الذى عليه مصفح بالحديد إلى حضرة المحراب، و المقصورة من عدّة أبواب، و عدّتها أربعة عشر بابا مربعة مطوّبة الأبواب، قدّام كلّ باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف، و هو مكندج مزوّق باللازورد و الزنجفر و الزنجار و أنواع الأصباغ، و فيه مواضع مدهونة، و السقوف مزوّقة ملوّنة كلها، و الحنايا و العقود التى على العمد مزوّقة بأنواع الأصباغ من صنعة البصريين و بنى المعلم المزوّقين شيوخ الكتامىّ و النازوك، و كان قبالة الباب السابع من هذه الأبواب قنطرة قوس مزوّقة فى منحنى حافتيها شاذوران مدرّج بدرج و آلات سود و بيض و حمر و خضر و زرق و صفر، إذا تطلع إليها من وقف فى سهم قوسها شائلا رأسه إليها ظنّ أن المدرّج المزوّق كأنه خشب كالمقرنص، و إذا أتى إلى أحد قطرى القوس نصف الدائرة و وقف عند أوّل القوس منها و رفع رأسه، رأى ذلك الذى توهمه مسطحا لا نتوء فيه، و هذه من أفخر الصنائع عند المزوّقين، و كانت هذه القنطرة من صنعة بنى المعلم، و كان الصناع يأتون إليها ليعملوا مثلها، فما يقدرون، و قد جرى مثل ذلك للقصير و ابن عزيز فى أيام البازورىّ سيد الوزراء الحسن بن علىّ بن عبد الرحمن، و كان كثيرا ما يحرّض بينهما و يغرى بعضهما على بعض لانه كان أحبّ ما إليه كتاب مصوّرا، أو النظر إلى صورة، أو تزويق.

و لما استدعى ابن عزيز من العراق فأفسده، و كان قد أتى به فى محاربة القصير لأنّ القصير كان يشتط فى أجرته و يلحق عجب فيه صنعته، و هو حقيق بذلك لأنه فى عمل الصورة كابن مقلة فى الخط، و ابن عزيز كابن البوّاب، و قد أمعن شرح ذلك فى الكتاب المؤلف فيه، و هو طبقات المصوّرين المنعوت، بضوء النبراس و أنس الجلاس فى أخبار المزوّقين من الناس، و كان البازورىّ قد أحضر بمجلسه القصير و ابن عزيز فقال ابن عزيز:

أنا أصوّر صورة إذا رآها الناظر ظنّ أنها خارجة من الحائط. فقال القصير: لكن أنا أصوّرها فإذا نظرها الناظر ظنّ أنها داخلة فى

الحائط، فقالوا هذا أعجب، فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به، فصوّرا صورة راقصتين فی صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين، هذه ترى كأنها داخلة فی الحائط، و تلك ترى كأنها خارجه من الحائط، فصوّر القصير راقصة بثياب بيض فی صورة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۶

حنية دهنها أسود كأنها داخلة فی صورة الحنية، و صوّر ابن عزيز راقصة بثياب حمر فی صورة جنية صفراء كأنها بارزة من الحنية، فاستحسن البازورىّ ذلك و خلع عليهما و وهبهما كثيرا من الذهب.

و كان بدار النعمان بالقرافة من عمل الكتامىّ صورة يوسف عليه السّلام فی الجب و هو عريان، و الجب كله أسود، إذا نظره الإنسان ظنّ أن جسمه باب من دهن لون الجبّ، و كان هذا الجامع من محاسن البناء، و كان بنو الجوهرىّ، يعظمون بهذا الجامع على كرسىّ فی الثلاثة أشهر، فتمرّ لهم مجالس مبجلة تروق و تشوق، و يقوم خادمهم و زهر البان، و هو شيخ كبير و معه زنجلة إذا توسط أحدهم فی الوعظ و يقول:

و تصدّقی لا تأمنی أن تسألیفإذا سالت عرفت ذلّ السائل

و يدور على الرجال و النساء فيلقی له فی الزنجلة ما يسره اللّه تعالى، فإذا فرغ من التطواف وضع الزنجلة أمام الشيخ، فإذا فرغ من وعظه فرّق على الفقراء ما قسم لهم، و أخذ الشيخ ما قسم له، و هو الباقی، و نزل عن الكرسىّ. و كان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع و يجلسون به فی ليالی الصيف للحديث فی القمر فی صحنه، و فی الشتاء ينامون عند المنبر، و كان يحصل لقيمه القاضی أبی حفص الأشربة و الحلوى و غير ذلك.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة: حدّثنی الأمير أبو علىّ تاج الملك جوهر المعروف بالشمس الجيوشىّ قال: اجتمعنا ليلة جمعة جماعة من الأمراء، بنو معز الدولة، و صالح، و حاتم، و راجح، و أولادهم، و غلمانهم، و جماعة ممن يلوذ بنا، كابن الموفق و القاضی ابن داود، و أبی المجد بن الصيرفىّ، و أبی الفضل روزبة، و أبی الحسن الرضيع، فعملنا سماطا و جلسنا و استدعينا بمن فی الجامع و أبی حفص، فأكلنا و رفعنا الباقی إلى بيت الشيخ أبی حفص قيم الجامع، ثم تحدّثنا و نمنا، و كانت ليلة باردة، فنمنا عند المنبر و إذا إنسان نصف الليل ممن نام فی هذا الجامع من عابری السبيل قد قام قائما و هو يلطم على رأسه و يصيح وامالاه وا مالاه، فقلنا له: ويلك ما شأنك و ما الذی دهاك و من سرقك و ما سرق لك؟ فقال: يا سيدی أنا رجل من أهل طرا يقال لی أبو كريت الحاوی، أمسى علىّ الليل و نمت عندكم و أكلت من خيركم، وسع اللّه عليكم، ولی جمعة أجمع فی سلتی من نواحی طرا و الحىّ الكبير و الجبل، كل غريبة من الحيات و الأفاعی ما لم يقدر عليه قط حاو غيرى، و قد انفتحت الساعة السلة و خرجت الأفاعی و أنا نائم لم أشعر. فقلت له:

إيش تقول: فقال: أی و اللّه يا للنجدات، فقلنا: يا عدوّ اللّه أهلكتنا و معنا صبيان و أطفال؟ ثم إنّا نبهنا الناس و هربنا إلى المنبر و طلعنا و ازدحمنا فيه، و منا من طلع على قواعد العمد فتسلق و بقی واقفا، و أخذ ذلك الحاوی يحسس و فی يده كنف الحيات و يقول: قبضت الرقطاء، ثم يفتح السلة و يضع فيها، ثم يقول قبضت أم قرنين و يفتح و يضع فيها، و يقول قبضت الفلانىّ و الفلانية من الثعابين و الحيات و هی معه بأسماء، و يقول أبو تليس و أبو زعير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۷

و نحن و نقول ايه؟ إلى أن قال: بس انزلوا ما بقی علىّ همّ، ما بقی يهمكم كبير شیء، قلنا كيف؟ قال ما بقی إلّا البتراء و رأسين انزلوا، فما عليكم منهما. قلنا كذا عليك لعنة اللّه يا عدوّ اللّه لا نزلنا للصبح فالمغرور من تغرّه. و صحنا بالقاضی أبی حفص القيم فأوقد الشمعة و لبس صباغات الخطيب خوفا على رجليه، و جاء فنزلنا فی الضوء و طلعنا المئذنة فنمنا إلى بكرة، و تفرّق شملنا بعد تلك الليلة، و جمع القاضی القيم عياله ثانی يوم و أدخلوا عصيا تحت المنبر و سعفا و شالوا الحصر فلم يظهر لهم شیء، و بلغ الحديث والی القرافة ابن شعلة الكتامىّ، فأخذ الحاوی فلم يزل به حتى جمع ما قدر عليه و قال: ما أخليه إلّا إلى السلطان، و كان الوزير إذ ذاك

يانس الأرمنىّ.

و هذه القضية تشبه قضية جرت لجعفر بن الفضل بن الفرات وزير مصر المعروف بابن جرابة، و ذلك أنه كان يهوى النظر إلى الحيات و الأفاعى و العقارب و أم أربعة و أربعين و ما يجرى هذا المجرى من الحشرات، و كان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات و لها قيم فرّاش حاو من الحواة، و معه مستخدمون برسم الخدمة و نقل السلال و حطها، و كان كلّ حاو فى مصر و أعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات، و يتباهون فى ذوات العجب من أجناسها، و فى الكبار و فى الغريبة المنظر، و كان الوزير يثبهم على ذلك أو فى ثواب، و يبذل لهم الجمل حتى يجتهدوا فى تحصيلها، و كان له وقت يجلس فيه على دكه مرتفعة و يدخل المستخدمون و الحواة فيخرجون ما فى السلل و يطرحونه على ذلك الرخام، و يحرّشون بين الهوام و هو يتعجب من ذلك و يستحسنه، فلما كان ذات يوم أنفذ رقعة إلى الشيخ الجليل ابن المدبر الكاتب و كان من أعيان كتاب أيامه و ديوانه، و كان عزيزا عنده، و كان يسكن إلى جوار دار ابن الفرات يقول له فيها: نشعر الشيخ الجليل أدام اللّه سلامته، أنه لما كان البارحة عرض علينا الحواة الحشرات الجارى بها العادات، انساب إلى داره منها الحية البتراء، و ذات القرنين، و العقربان الكبير، و أبو صوفة، و ما حصلوا لنا إلّا بعد عناء و مشقة و بجملة بذلناها للحواة، و نحن نأمر الشيخ وفقه اللّه بالتقدّم إلى حاشيته و صبيته بصون ما وجد منها إلى أن تنفذ الحواة لأخذها و ردّها إلى سللها، فلما وقف ابن المدبر على الرقعة قلبها و كتب فى ذيلها، أتانى أمر سيدنا الوزير خلد اللّه نعمته و حرس مدّته بما أشار إليه فى أمر الحشرات، و الذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمه ثلاثا إن بات هو و أحد من أهله فى الدار و السلام.

و فى سنة ست عشرة و خمسمائة أمر الوزير أبو عبد اللّه محمد بن فاتك المنعوت بالأجلّ المأمون البطائحىّ، و كيله أبا البركات محمد بن عثمان، برمّ شعث هذا الجامع و أن يعمر بجانبه طاحونا للسبيل، و يبتاع لها الدواب و يتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليها، و يطلق له ما يكفيه مع علف الدواب و جميع المؤن، و يشترط عليه أن يواسى بين الضعفاء و يحمل عنهم كلفة طحن أقواتهم، و يؤدّى الأمانة فيها، و لم يزل هذا

الجامع على عمارته إلى أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع و ستين و خمسمائة، عند نزول مرى ملك الفرنج على القاهرة و حصارها كما تقدّم ذكره عند ذكر خراب الفسطاط من هذا الكتاب، و كان الذى تولى إحراق هذا الجامع ابن سماقة بإشارة الأستاذ مؤتمن الخلافة جوهر، و هو الذى أمر المذكور بحريق جامع عمرو بمصر، و سئل عن ذلك فقال: لئلا يخطب فيه لبنى العباس. و لم يبق من هذا الجامع بعد حريقه سوى المحراب الأخضر، و كان مؤذن هذا الجامع فى أيام المستنصر ابن بقاء المحدّث ابن بنت عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ، ثم جدّدت عمارة هذا الجامع فى أيام المستنصر بعد حريقه، و أدركته لما كانت القرافة الكبرى عامرة بسكنى السودان التكاررة، و هو مقصود للبركة. فلما كانت الحوادث و المحن فى سنة ست و ثمانمائة، قلّ الساكن بالقرافة و صار هذا الجامع طول الأيام مغلوقا، و ربما أقيمت فيه الجمعة.

جامع الجيزة

بناه محمد بن عبد اللّه الخازن فى المحرّم سنة خمسين و ثلاثمائة بأمر الأمير علىّ بن عبد اللّه بن الإخشيد، فتقدّم كافور إلى الخازن ببنائه، فإنه كان قد هدمه النيل و سقط فى سنة أربعين و ثلاثمائة، و عمل له مستغلا، و كان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد جامع همدان، و هو مسجد مزاحف بن عامر بن بكتل، و قيل أن عقبة بن عامر فى إمرته على مصر أمرهم أن يجمعوا فيه. قال التميمىّ: و شارف بناء جامع الجيزة مع أبى بكر الخازن أبو الحسن بن جعفر الطحاوىّ، و احتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها و نصب بدلها أركانا، و حمل العمد إلى الجامع، فترك أبو الحسن بن الطحاوىّ الصلاة فيه مذ ذاك تورّعا. قال التميمى: و قد كان يعنى ابن الطحاوىّ يصلى فى جامع الفسطاط القديم و بعض عمده أو أكثرها و رخامه من

كنائس الإسكندرية و أرياف مصر، و بعضه بناء قرّة بن شريك عامل الوليد بن عبد الملك.

جامع منجك

هذا الجامع يعرف موضعه بالثغرة تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير، أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفيّ فى مدّة وزارته بديار مصر فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، و صنع فيه صهريجا، فصار يعرف إلى اليوم بصهريج منجك، و رتب فيه صوفية و قرّر لهم فى كل يوم طعاما و لحما و خبزا، و فى كلّ شهر معلوما، و جعل فيه منبرا و رتب فيه خطيبا يصلى بالناس فيه صلاة الجمعة، و جعل على هذا الموضع عدّة أوقاف منها ناحية بلقينة بالغربية، و كانت مرصدة برسم الحاشية، فقوّمت بخمسة و عشرين ألف دينار فاشتراها من بيت المال و جعلها وقفا على هذا المكان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۲۹

منجك: الأمير سيف الدين اليوسفيّ، لما امتنع أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاون بالكرك و قام فى مملكة مصر بعده أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، و كان من محاصرته بالكرك ما كان إلى أن أخذ، فتوجه إليه و قطع رأسه و أحضرها إلى مصر، و كان حينئذ أحد السلاحدارية، فأعطى إمرة بديار مصر و تنقل فى الدول إلى أن كانت سلطنة الملك المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فأخرجه من مصر إلى دمشق و جعله حاجبا بها موضع ابن طغريل، فلما قتل الملك المظفر و أقيم بعده أخوه الملك الناصر حسن أقيم الأمير سيف الدين يلبغاروس فى نيابة السلطنة بديار مصر، و كان أخا منجك، فاستدعاه من دمشق و حضر إلى القاهرة فى ثامن شوّال سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، فرسم له بإمرة تقدمة ألف، و خلع عليه خلع الوزارة فاستقرّ وزيرا و أستادارا، و خرج فى دست الوزارة و الأمراء فى خدمته من القصر إلى قاعة الصاحب بالقلعة، فجلس بالشباك و نفذ أمور الدولة، ثم اجتمع الأمراء و قرأ عليهم أوراقا تتضمن ما على الدولة من المصروف، و وفر من جامكية المماليك مبلغ ستين ألف درهم فى الشهر، و قطع كثيرا من جوامك الخدم و الجوارى و البيوتات السلطانية، و نقص رواتب الدور من زوجات السلطان و جواريه، و قطع رواتب الأغانى، و عرض الإسطبل السلطانيّ و قطع منه عدّة أميراخورية و سراخورية و سوّاس و غلمان، و وفر من راتب الشعير نحو الخمسين إردبا فى كل يوم، و قطع جميع الكلابزية و كانوا خمسين جوقة، و أبقى منهم جوقتين، و وفر جماعة من الأسرى و العتالين و المستخدمين فى العمائر، و أبطل العمارة من بيت السلطان، و كانت الحوائجخاناه تحتاج فى كل يوم إلى أحد و عشرين ألف درهم نقرة، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم، و بقى مصروفها فى اليوم ثمانية عشر ألف درهم نقرة، فاقتطع منها مبلغ ثلاثة آلاف درهم، و بقى القاضى موفق الدين ناظر الدولة و على القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخواص، و رسم أن لا يستقرّ فى المعاملات سوى شاهد واحد و عامل و شاد بغير معلوم، و أغلظ على الكتاب و الدواوين و هدّدهم و توعدهم فخافوه، و اجتمع بعضهم ببعض و اشتوروا فى أمرهم و اتفقوا على مال يتوزعونه بينهم على قدر حال كل منهم و حملوه إلى منجك سرّا، فلم يمض من استقراره فى الوزارة شهر حتى صار الكتاب و أرباب الدواوين أحباءه و أخلّاءه، و تمكنوا منه أعظم ما كانوا قبل وزارته، و حسنوا له أخذ الأموال، فطلب ولاة الأقاليم و قبض على أقبغا والى الغربية و ألزمه بحمل خمسمائة ألف درهم نقرة، و ولى عوضه الأمير استدمر القلنجيّ، ثم صرفه و ولى بدله قطليجا مملوك بكتمر، و استقرّ باستدمر القلنجى فى ولاية القاهرة، و أضاف له التحدّث فى الجهات، و ولى البحرية لرجل من جهته، و ولى قوص لآخر و أوقع الحوطة على موجود إسماعيل الواقدى متولى قوص، و أخذ جميع خواصه، و ولى طغاى كشف الوجه القبلىّ عوضا عن علاء الدين علىّ بن الكورانيّ، و ولى ابن المزوق قوص و أعمالها، و ولى مجد الدين موسى الهدبانيّ الأشمونين عوضا عن ابن الأزكشيّ، و تسامعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۰

الولاة و أرباب الأعمال بأن الوزير فتح باب الأخذ على الولايات، فهرع الناس إليه من جهات مصر و الشام و حلب و قصدوا بابه، و

رتب عنده جماعة برسم قضاء الأشغال، فأتاهم أصحاب الأشغال و الحوائج، و كان السلطان صغيرا حظه من السلطنة أن يجلس بالإيوان يومين فى الأسبوع و يجتمع أهل الحل و العقد مع سائر الأمراء فيه، فإذا انقضت خدمة الإيوان خرج الأمير منكليبغا الفخرىّ، و الأمير بيغرا، و الأمير يبلغا تتر و المجدىّ، و أرلان و غيرهم من الأمراء، و يدخل إلى القصر الأمير يلبغاروس نائب السلطنة، و الأمير سيف الدين منجك الوزير، و الأمير سيف الدين شيخو العمرىّ، و الأمير الجيبغا المظفرىّ، و الأمير طيبرق، و يتفق الحال بينهم على ما يرونه، هذا و الوزير أخو النائب متمكن تمكنا زائدا، و قدم من دمشق جماعة للسعى عند الوزير فى وظائف منهم ابن السلعوس و صلاح الدين بن المؤيد و ابن الأجل و ابن عبد الحق، و تحدّثوا مع ابن الأطروش محتسب القاهرة فى أغراضهم، فسعى لهم حتى تقرّروا فيما عينوا.

و لما دخلت سنة تسع و أربعين عرف الوزير السلطان و الأمراء أنه لما ولى الوزارة لم يجد فى الإهراء و لا فى بيت المال شيئا، و سأل أن يكون هذا بمحضر من الحكام، فرسم للقضاة بكشف ذلك فركبوا إلى الإهراء بمصر، و إلى بيت المال بقلعة الجبل، و قد حضر الدواوين و سائر المباشرين و أشهدوا عليهم أن الأمير منجك لما باشر الوزارة لم يكن بالإهراء و لا ببيت المال قدح غلة و لا دينار و لا درهم، و قرئت المحاضر على السلطان و الأمراء، فلما كان بعد ذلك توقف أمر الدولة على الوزير فشكا إلى الأمراء من كثرة الرواتب، فاتفق الرأى على قطع نحو ستين سوّاقا، فقطعهم و وفر لحومهم و عليقهم و سائر ما باسمهم من الكساوى و غيرها، و قطع من العرب الركابة و النجابة، و من أرباب الوظائف فى بيت السلطان، و من الكتاب و المباشرين ما جملته فى اليوم أحد عشر ألف درهم و فتح باب المقايضات باقطاعات الأجناد، و باب النزول عن الإقطاعات بالمال، فحصل من ذلك مالا كثيرا، و حكم على أخيه نائب السلطنة بسبب ذلك، و صار الجندىّ يبيع إقطاعه لكل من أراد، سواء كان المنزول له جنيدا أو عامّيا، و بلغ ثمن الإقطاع من عشرين ألف درهم إلى ما دونها. و أخذ يسعى أن تضاف وظيفة نظر الخاص إلى الوزارة، و أكثر من الحط على ناظر الخاص، فاحترس ابن زنبور منه و شرع فى إبعاده مرّة بعد مرّة مع الأمير شيخو، فمنع شيخو منجك من التحدّث فى الخاص و خرج عليه فشق ذلك على منجك و افترقا عن غير رضى، فتغير يلبغاروس النائب على شيخو رعاية لأخيه. و سأل أن يعفى من النيابة، و يعفى منجك من الوزارة، و استقراره فى الأستادارية و التحدّث فى عمل حفر البحر، و أن يستقرّ أستدمر العمرىّ المعروف برسلان بصل فى الوزارة، فطلب و كان قد حضر من الكشف و ألبس خلع الوزارة فى يوم الاثنين الرابع و العشرين من شهر ربيع الأوّل، و كان منجك قد عزل من الوزارة فى ثالث ربيع الأوّل المذكور، و تولى أمر شدّ البحر، فجبى من الأجناد من كل مائة

دينار درهما، و من التجار و المتعيشين فى مصر و القاهرة من كل واحد عشرة دراهم إلى خمسة دراهم إلى درهم، و من أصحاب الأملاك و الدور فى مصر و القاهرة على كل قاعة ثلاثة دراهم، و على كل طبقة درهمين، و على كل مخزن أو اصطبل درهما، و جعل المستخرج فى خان مسرور بالقاهرة، و المشدّ على المستخرج الأمير بيلك، فجبى مال كبير، و أما استدمر فإن أحوال الدولة توقفت فى أيامه، فسأل فى الإعفاء فأعفى و أعيد منجك إلى الوزارة بعد أربعين يوما، و قد تمنع تمنعا كبيرا، و لما عاد إلى الوزارة فتح باب الولايات بالمال، فقصده الناس و سعوا عنده، فولى و عزل و أخذ فى ذلك مالا كثيرا. فيقال أنه أخذ من الأمير مازان لما نقله من المنوفية إلى الغربية، و من ابن الغسانىّ لما نقله من الأشمونين إلى البهنساوية، و من ابن سلمان لما ولاه منوف ستة آلاف دينار، و وفر إقطاع شادّ الدواوين و جعله باسم المماليك السلطانية، و وفر جوامكهم و رواتبهم، و شرع أوباش الناس فى السعى عنده فى الوظائف و المباشرات بمال، و أتوه من البلاد فقضى أشغالهم و لم يردّ أحدا طلب شيئا، و وقع فى أيامه الفناء العظيم، فانحلت إقطاعات كثيرة، فاقتضى رأى الوزير أن يوفر الجوامك و الرواتب التى للحاشية، و كتب لسائر أرباب الوظائف و أصحاب الأشغال و المماليك السلطانية مثالات بقدر جوامك كل منهم، و كذلك لأرباب الصدقات، فأخذ جماعة من الأقباط و من الكتاب و من الموقعين إقطاعات فى نظير جوامكهم، و توفر فى الدولة مال كبير عن الجوامك و الرواتب.

و لما دخلت سنة خمسين رسم الأمير منجك الوزير لمتولى القاهرة بطلب أصحاب الأرباع، و كتابة جميع أملاك الحارات و الأزقة، و سائر أخطاط مصر و القاهرة، و معرفة أسماء سكانها، و الفحص عن أربابها ليعرف من توفر عنه ملك بموته فى الفناء، فطلبوا الجميع و أمعنوا فى النظر، فكان يوجد فى الحارة الواحدة و الزقاق الواحد ما يزيد على عشرين دارا خالية لا يعرف أربابها، فختموا على ما وجدوه من ذلك و من الفنادق و الخانات و المخازن حتى يحضر أربابها. و فى شعبان عزل ولاة الأعمال و أحضرهم إلى القاهرة، و ولى غيرهم و أضاف إلى كل وال كشف الجسور التى فى عمله، و ضمن الناس سائر جهات القاهرة و مصر، بحيث أنه لا يتحدّث أحد معه من المقدّمين و الدواوين و الشادّين، و زاد فى المعاملات ثلاثمائة ألف درهم، و خلع عليه و نودى له بمصر و القاهرة، فاشتدّ ظلمه و عسفه و كثرت حوادثه. فلما كانت ليالى عيد الفطر، عرّف الوزير الأمراء أن سماط العيد ينصرف عليه جملة و لا ينتفع به أحد، فأبطله و لم يعمل تلك السنة. و فى ذى القعدة توقف حال الدولة و وقف مماليك السلطان و سائر المعاملين و الحوائجكاشية، و انزعج السلطان و الأمراء بسبب ذلك على الوزير، فاحتج بكثرة الكلف، و طلب الموفق ناظر الدولة فقال: إن الإنعامات قد كثرت و الكلف تزايدت، و قد كانت الحوائجخاناه فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى اليوم ينصرف فيها مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم، و اليوم ينصرف فيها اثنان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۲

و عشرون ألف درهم، فكتبت أوراق بمتحصل الدولة و مصروفها، و بمتحصل الخاص و مصروفه، فجاءت أوراق الدولة و متحصلها عشرة آلاف ألف درهم، و كلفها أربعة عشر ألف ألف درهم و ستمائة ألف درهم، و وجد الأنعام من الخاص و الجيش بما خرج من البلاد زيادة على إقطاعات الأمراء، فكان زيادة على عشرين ألف دينار سوى جملة من الغلال، و أن الذى استجدّ على الدولة من حين وفاة الملك الناصر فى ذى الحجة سنة إحدى و أربعين إلى مستهل المحرّم سنة خمسين و سبعمائة. و كانت جملة الإنعامات و الإقطاعات بنواحى الصعيد و الفيوم و بلاد الملك و الوجه البحرىّ و ما أعطى من الرزق للخدّام و الجوارى سبعمائة ألف ألف و ألف ألف و ستمائة ألف، معينة بأسماء أربابها من أمير و خادم و جارية، و كانت النساء قد أسرفن فى عمل القمصان و البغالطيق، حتى كان يفضل من القميص كثير على الأرض، و سعة الكم ثلاثة أذرع، و يسمينه البهطلة، و كان يغرم على القميص ألف درهم و أكثر، و بلغ إزار المرأة إلى ألف درهم، و بلغ الخف و السرموزة إلى خمسمائة درهم، و ما دونها إلى مائة درهم. فأمر الوزير منجك بقطع أكمام النساء و أخرق بهنّ، و أمر الوالى بتتبع ذلك، و نودى بمنع النساء من عمل ذلك، و قبض على جماعة منهنّ، و ركب على سور القاهرة صور نساء عليهنّ تلك القمصان بهيئة نساء قد قتلن عقوبة على ذلك، فانكففن عن لبسها، و منع الأساكفة من عمل الأخفاف المثمنة، و نودى فى القياسر من باع إزار حرير ماله للسلطان، فنودى على إزار ثمنه سبعمائة و عشرون درهما فبلغ ثمانين درهما و لم يجسر أحد أن يشتريه، و بالغ الوزير فى الفحص عن ذلك حتى كشف دكاكين غسالى الثياب و قطع ما وجد من ذلك، فامتنع النساء من لبس ما أحدثنه من تلك المنكرات، و لما عظم ضرر الفار أيضا من كثرة شكاية الناس فيه، فلم يسمع فيه الوزير قولا، و قام فى أمره الأمير مغلطاى أميراخور، فاستوحش منه الوزير، و اتفق أنه كان قد حج محمد بن يوسف مقدّم الدولة فى محمل كبير بلغ عليق جماله فى اليوم مائتى عليقة، و لما قدم فى المحرّم مع الحاج أهدى للنائب و للوزير و للأمير طاز و للأمير صرغتمش هدايا جليلة، و لم يهد للأمير شيخو، و لا للأمير مغلطاى شيئا، ثم لما عاب عليه الناس ذلك أهدى بعد عدّة أيام للأمير شيخو هديه فردّها عليه، ثم أنه أنكر على الوزير فى مجلس السلطان ما يفعله ولاة البر و ما عليه مقدّم الدولة من كثرة المال، و أغلظ فى القول، فرسم بعزل الولاة و القبض على المقدّم محمد بن يوسف و ابن عمه المقدّم أحمد بن زيد، فلم يسع الوزير غير السكوت.

فلما كان فى رابع عشرى شوّال سنة إحدى و خمسين، قبض على الوزير منجك و قيد و وقعت الحوطة على سائر حواصله، فوجدت له زردخاناه حمل خمسين جملا و لم يظهر من النقد كثير مال، فأمر بعقوبته. فلما خوّف أقرّ بصندوق فيه جوهر و قال: سائر ما كان يتحصل لى من النقد كنت اشترى به أملاكا و ضياعا و أصناف المتاجر، فأحيط بسائر أمواله و حمل إلى الإسكندرية مقيدا، و استقرّ

الأمير بلبان السنانيّ نائب الكبيرة أستادارا عوض منجك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۳

بعد حضوره منها، و أضيفت الوزارة إلى القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص، فلم يزل منجك مسجونا بالإسكندرية إلى أن خلع الملك الناصر حسن و أقيم بدله فى المملكة أخوه الملك الصالح صالح، فأمر بالإفراج عن الأمير شيخو و الأمير منجك فحضرا إلى القاهرة فى رجب سنة اثنتين و خمسين، و لما استقرّ الأمير منجك بالقاهرة بعث إليه الأمير شيخو خمس رؤوس خيل و ألفى دينار، و بعث إليه جميع الأمراء بالتقادم، و أقام بطالا يجلس على حصير فوقه ثوب سرج عتيق، و كلما أتاه أحد من الأمراء يبكى و يتوجع و يقول أخذ جميع مالى حتى صرت على الحصير، ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدّد بالقتل إن لم يبع أملاكه، و أنّه خشى على نفسه القتل، فوكل فى بيعها. فكتب له الفقهاء لا يصح بيع المكره. و دار على الأمراء و ما زال بهم حتى تحدّثوا له مع السلطان فى ردّ أملاكه عليه، فعارضهم الأمير صرغتمش، ثم رضى أن يردّ عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه، فاستردّ عدّة أملاك و أقام إلى أن قام يلبغاروس بحلب فاختفى منجك و طلب فلم يوجد، و أطلق النداء عليه بالقاهرة و مصر و هدّد من أخفاه، و ألزم عربان العائد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر، و كبس عليه عدّة أماكن بالقاهرة و مصر و فتش عليه حتى فى داخل الصهريج الذى بجامعه فأعيى أمره، و أدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس فشرع فى ذلك إلى يوم الخميس رابع شعبان، فخرج الأمير طاز بمن معه.

و فى يوم الاثنين سابعه، عرض الأمير شيخو و الأمير صرغتمش أطلابهما، و قد وصل الأميرا طاز إلى بلبيس فحضر إليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك، فسير إليه و أحضره و فتشه فوجد معه كتاب منجك إلى أخيه يلبغاروس، و فيه أنه مختف عند الحسام الصفدىّ استاداره، فبعث الكتاب إلى الأمير شيخو فوافاه و الأطلاب خارجة، فاستدعى بالحسام و سأله فأنكر فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف، فركب إلى بيت الحسام بجوار الجامع الأزهر و هجمه فإذا بمنجك و معه مملوك، فكتفه و سار به مشهورا بين الناس و قد هرعوا من كلّ مكان إلى القلعة، فسجن بالإسكندرية إلى أن شفع فيه الأمير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الأوّل سنة خمس و خمسين، و رسم أن يتوجه إلى صفد بطالا، فسار إليها من غير أن يعبر إلى القاهرة، فلما خلع الملك الصالح صالح و أعيد السلطان حسن فى شوّال منها، نقل منجك من صفد و أنعم عليه بنيابة طرابلس عوضا عن أيتمش الناصرىّ، فسار إليها و أقام بها إلى أن قبض على الأمير طاز نائب حلب فى سنة تسع و خمسين، فولى منجك عوضا عنه و لم يزل بحلب إلى أن فرّ منها فى سنة ستين، فلم يعرف له خبر، و عوقب بسببه خلق كثير، ثم قبض عليه بدمشق فى سنة إحدى و ستين فحمل إلى مصر و عليه بشت صوف عسلىّ، و على رأسه مئزر صوف، فلم يؤاخذه السلطان و أعطاه إمرة طبلخاناه ببلاد الشام، و جعله طرخاناه يقيم حيث شاء من البلاد الإسلاميه، و كتب له بذلك. فلما قتل السلطان حسن و أقيم من بعده فى المملكة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى فى جمادى الأولى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۴

اثنتين و ستين، خامر الأمير بيدمر نائب الشام على الأمير يلبغا العمرىّ القائم بتدبير دولة الملك المنصور، و وافقه جماعة من الأمراء منهم الأمير منجك، فخرج الأمير يلبغا بالمنصور و العساكر من قلعة الجبل إلى البلاد الشامية، فوافى دمشق و مشى الناس بينه و بين الأمير بيدمر حتى تمّ الصلح، و حلف الأمير يلبغا أنه لا يؤذى بيدمر و لا منجك، فنزلا من قلعة دمشق و قيدهما و بعث بهما إلى الإسكندرية فسجنا بها إلى أن خلع الأمير يلبغا المنصور و أقام بدله الملك الأشرف شعبان بن حسين و قتل الأمير يلبغا، فأفرج الملك الأشرف عن منجك و ولاه نيابة السلطنة بدمشق عوضا عن الأمير علىّ الماردانىّ فى جمادى الأولى سنة تسع و ستين، فلم يزل فى نيابة دمشق إلى أن حضر إلى السلطان زائرا فى سنة سبعين بتقادم كثيرة جليلة، و عاد إلى دمشق و أقام بها إلى أن استدعاه السلطان فى سنة خمس و سبعين إلى مصر و فوّض إليه نيابه السلطنة بديار مصر، و عمله أتابك العساكر و جعل تدبير المملكة إليه، و أن يخرج الأمّهات للبلاد الشامية، و أن يولى ولاة أقاليم مصر و الكشاف و يخرج الإقطاعات بمصر من عبرة ستمائة دينار إلى ما دونها، و كانت

عادة النوّاب قبله أن لا يخرج من الإقطاعات إلّا ما عبرته أربعمائة دينار فما دونها، فعمل النيابة على قالب جائر و حرمة وافرة إلى أن مات حتف أنفه فی يوم الخميس التاسع و العشرين من ذی الحجة سنة ست و سبعين و سبعمائة، و له من العمر نيف و ستون سنة، و شهد جنازته سائر الأعيان، و دفن بتربته المجاورة لجامعه هذا، و له سوى الجامع المذكور من الآثار بديار مصر خان منجك فی القاهرة، و دار منجك برأس سويقة العزى بالقرب من مدرسة السلطان حسن، و له بالبلاد الشامية عدّة آثار من خانات و غيرها رحمه اللّه.

الجامع الأخضر

هذا الجامع خارج القاهرة بخط فم الخور، عرف بذلك لأنّ بابه و قبته فيهما نقوش و كتابات خضر، و الذی أنشأه خازندار الأمير شيخو و اسمه ... .

جامع البكجریّ

هذا الجامع بحكر البكجریّ قريبا من الدكة، تعطلت الصلاة فيه منذ خربت تلك الجهات.

جامع السروجیّ

هذا الجامع بحكر ... .

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۵

جامع كرجی

هذا الجامع بحكر أقوش.

جامع الفاخریّ

هذا الجامع بسويقة الخادم الطواشی شهاب الدين فاخر المنصوریّ مقدّم المماليك السلطانية، و مات فی سابع ذی الحجة سنة سبع و ثمانمائة، و كان ذا مهابة و أخلاق حسنة مع سطوة شديدة، و لهم بلبان الفاخریّ الأمير سيف الدين نقيب الجيوش، مات فی سنة سبع و تسعين و ستمائة، و ولی نقابة الجيش بعد طيبرس الوزيریّ، و كان جوادا عارفا بأمر الأجناد خيرا كثير الترف.

جامع ابن عبد الظاهر

هذا الجامع بالقرافة الصغرى قبلیّ قبر الليث بن سعد، كان موضعه يعرف بالخندق، أنشأه القاضی فتح الدين محمد بن عبد اللّه بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر الجذامیّ السعدیّ الروحیّ من ولد روح بن زنباع الجذامیّ، بجوار قبر أبيه، و أوّل ما أقيمت به الخطبة فی يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و كان يوما مشهودا لكثرة من حضر من الأعيان. ولد بالقاهرة فی ربيع الآخر سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و سمع من ابن الجميزیّ و غيره، و حدّث و كتب فی الإنشاء، و ساد فی دولة المنصور قلاون بعقله و رأيه و همته، و تقدّم علی والده القاضی محيی الدين و هو ماهر فی الإنشاء و الكتابة، بحيث كان من جملة من يصرّفهم بأمره و نهيه، و كان الملك المنصور يعتمد عليه و يثق به، و لما ولی القاضی فخر الدين بن لقمان الوزارة قال له الملك المنصور: من يلی عوضك كتابة السرّ؟ فقال القاضی: فتح الدين بن عبد الظاهر، فولّاه كتابة السرّ عوضا عن ابن لقمان، و تمكن من السلطان و حظی

عنده، حتى أنّ الوزير فخر الدين بن لقمان ناول السلطان كتابا فأحضر ابن عبد الظاهر لقراءته على عادته، فلما أخذ الكتاب من السلطان أمر الوزير أن يتأخر حتى يقرأه فتأخر الوزير، ثم إن ابن لقمان صرف عن الوزارة و أعيد إلى ديوان الإنشاء فتأدّب معه، فلما ولى وزارة الملك الأشرف خليل بن قلاون شمس الدين بن السلعوس قال لفتح الدين: اعرض علىّ كل يوم ما تكتبه. فقال: لا سبيل لك إلى ذلك و لا يطلع على أسرار السلطان إلّا هو، فإن اخترتم و إلّا عينوا عوضى، فلما بلغ السلطان ذلك قال: صدق و لم يزل على حاله إلى أن مات، و أبوه حىّ بدمشق فى النصف من شهر رمضان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فوجد فى تركته قصيدة مرثية قد عملها فى رفيقه تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمّد بن الأثير لما مرض و طال مرضه، فاتفق أن عوفى ابن الأثير و لم يتأخر ابن عبد الظاهر بعد عافيته سوى ليال يسيرة و مرض و مات، فرثاه ابن الأثير بعد موته و ولى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۶

وظيفة كتابة السرّ عوضا عنه، و لم يكن ابن عبد الظاهر مجيدا فى صناعة الإنشاء إلّا أنه دبر الديوان و باشره أحسن مباشرة و من شعره:

إن شئت تنظرنى و تنظر حالتىفانظر إذا هبّ النسيم قبولا

فتراه مثلى رقة و لطافةو لأجل قلبك لا أقول عليلا

فهو الرسول إليك منى ليتنىكنت اتخذت مع الرسول سبيلا

و لم يزل هذا الجامع عامرا إلى أن حدثت المحن فى سنة ست و ثمانمائة، و اختلت القرافة لخراب ما حوله، و هو اليوم قائم على أصوله.

جامع بساتين الوزير التى على بركة الحبس جامع الخندق

هذا الجامع بناحية الخندق خارج القاهرة، و لم يزل عامرا بعمارة الخندق، فلما خربت مساكن الخندق تلاشى أمره و نقلت منه الجمعة و بقى معطلا إلى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فأخذ الأمير طوغان الحسنىّ الدوادار عمده الرخام و سقوفه و ترك جدرانه و منارته، و هى باقية و عما قليل تدثر كما دثر غيرها مما حولها.

جامع جزيرة الفيل جامع الطواشى

هذا الجامع خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية و باب البحر، أنشأه الطواشى جوهر السحرتىّ اللالا، و هو من خدّام الملك الناصر محمد بن قلاون، ثم إنه تأمّر فى تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس و أربعين و سبعمائة.

جامع كراى

هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة، عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورىّ فى سنة إحدى و سبعمائة لكثرة ما كان هناك من السكان، فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع و هو الآن قائم و جميع ما حوله داثر، و عما قليل يدثر.

جامع القلعة

هذا الجامع بقلعة الجبل أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۷

و سبعمائة، و كان أوّلا مكانه جامع قديم و بجواره المطبخ السلطانىّ و الحوائجخاناه و الفراشخاناه، فهدم الجميع و أدخلها فى هذا الجامع، و عمره أحسن عمارة و عمل فيه من الرخام الفاخر الملوّن شيئا كثيرا، و عمر فيه قبة جليلة و جعل عليه مقصورة من حديد

بديعة الصنعة، و فى صدر الجامع مقصورة من حديد أيضا برسم صلاة السلطان، فلما تمّ بناؤه جلس فيه السلطان بنفسه و استدعى جميع المؤذنين بالقاهرة و مصر و سائر الخطباء و القرّاء، و أمر الخطباء فخطب كلّ منهم بين يديه، و قام المؤذنون فأذنوا، و قرأ القرّاء، فاختار الخطيب جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن القسطلانىّ خطيب جامع عمرو و جعله خطيبا بهذا الجامع، و اختار عشرين مؤذنا رتبهم فيه، و جعل به قراء و درسا و قارىء مصحف، و جعل له من الأوقاف ما يفضل عن مصارفه، فجاء من أجلّ جوامع مصر و أعظمها و به إلى اليوم يصلى سلطان مصر صلاة الجمعة، و الذى يخطب فيه و يصلى بالناس الجمعة قاضى القضاة الشافعىّ.

جامع قوصون

هذا الجامع داخل باب القرافة تجاه خانقاه قوصون، أنشأه الأمير سيف الدين قوصون، و عمر بجانبه حماما، فعمرت تلك الجهة من القرافة بجماعة الخانقاه و الجامع، و هو باق إلى يومنا.

جامع كوم الريش

هذا الجامع عمارة دولات شاه.

جامع الجزيرة الوسطى

أنشأه الطواشى مثقال خادم تذكار ابنة الملك الظاهر بيبرس و هو عامر إلى يومنا هذا.

جامع ابن صارم

هذا الجامع بخط بولاق خارج القاهرة أنشأه محمد بن صارم شيخ بولاق فيما بين بولاق و باب البحر.

جامع الكيمختى

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الجتيّة، و هو بجانب موضع الكيمخت على شاطىء الخليج من جملة أرض الطبالة، كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت، و كان يعرف بالحموىّ، و عملها جامعا فضمن المعلم بعده رجل يعرف بالرومى فوقف عليه مواضع و جدّد له مئذنة فى جمادى الأولى سنة اثنتين و ثمانمائة، و وسع فى الجامع قطعة كانت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۸

منشرا، و كان قبل ذلك قد جدّد عمارته شخص يعرف بالفقيه زين الدين ريحان بعد سنة تسعين و سبعمائة، و عمر بجانبه مساكن، و هو الآن عامر بعمارة ما حوله.

جامع الست مسكة

هذا الجامع بالقرب من قنطرة آق سنقر التى على الخليج الكبير خارج القاهرة، أنشأته الست مسكة جارية الملك الناصر محمد بن قلاون، و أقيمت فيه الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و قد ذكرت مسكة هذه عند ذكر الأحكار.

جامع ابن الفلك

هذا الجامع بسويقة الجميزة من الحسينية خارج القاهرة، أنشأه مظفر الدين بن الفلك.

جامع التكروريّ

هذا الجامع فى ناحية بولاق التكروريّ، و هذه الناحية من جملة قرى الجيزة، كانت تعرف بمنية بولاق، ثم عرف ببولاق التكروريّ، فإنه كان نزل بها الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد اللّه التكروريّ، و كان يعتقد فيه الخير و جرّبت بركة دعائه و حكيت عنه كرامات كثيرة، منها أن امرأة خرجت من مدينة مصر تريد البحر، فأخذ السودان ابنها و ساروا به فى مركب و فتحوا القلع، فجرت السفينة و تعلقت المرأة بالشيخ تستغيث به، فخرج من مكانه حتى وقف على شاطىء النيل و دعا اللّه سبحانه و تعالى فسكن الريح و وقفت السفينة عن السير، فنادى من فى المركب يطلب منهم الصبىّ فدفعوه إليه و ناوله لأمّه، و كان بمصر رجل دباغ أتاه عفص فأخذه منه أصحاب السلطان، فأتى إلى الشيخ و شكا إليه ضرورته، فدعا ربه فردّ اللّه عليه عفصه بسؤال أصحاب السلطان له فى ذلك، و كان يقال له لم لا تسكن المدينة فيقول: إنى أشمّ رائحة كريهة إذا دخلتها. و يقال أنه كان فى خلافة العزيز بن المعز، و أن الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ جمع له جزأ فى مناقبه، و لما مات بنى عليه قبة و عمل بجانبه جامع جدّده و وسعه الأمير محسن الشهابىّ مقدّم المماليك، و ولى تقدمة المماليك عوضا عن الطواشى عنبر السحرتىّ، أوّل صفر سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة و مات فى ... ثم أن النيل مال على ناحية بولاق هذه فيما بعد سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ منها قطعة عظيمة كانت كلها مساكن، فخاف أهل البلدان أن يأخذ ضريح الشيخ و الجامع لقربهما منه، فنقلوا الضريح و الجامع إلى داخل البلد و هو باق إلى يومنا هذا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۳۹

جامع البرقية

هذا الجامع بالقرب من باب البرقية بالقاهرة، عمره الأمير مغلطاى الفخرىّ أخو الأمير الماس الحاجب، و كمل فى المحرّم سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان ظالما عسوفا متكبرا جبارا، قبض عليه مع أخيه الماس فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة و قتل معه.

جامع الحرّانىّ

هذا الجامع بالقرافة الصغرى فى بحرى الشافعىّ، عمره ناصر الدين بن الحرّانىّ الشرابيشىّ فى سنة تسع و عشرين و سبعمائة.

جامع بركة

هذا الجامع بالقرب من جامع ابن طولون، يعرف خطه بحدرة ابن قميحة، عمره شخص من الجند يعرف ببركة، كان يباشر أستادارية الأمراء و مات بعد سنة إحدى و ثمانمائة.

جامع بركة الرطلىّ

هذا الجامع كان يعرف موضعه ببركة الفول من جملة أرض الطبالة، فلما عمرت بركة الرطلىّ كما تقدّم ذكره أنشئ هذا الجامع، و كان ضيقا قصير السقف، و فيه قبة تحتها قبر يزار، و هو قبر الشيخ خليل بن عبد ربه خادم الشيخ عبد العال، و توفى فى المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، فلما سكن الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة البشرىّ بجوار هذا الجامع هدمه و وسع فيه و بناه هذا البناء فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة. و ولد البشرىّ فى سابع ذى القعدة سنة ست و ستين و سبعمائة، و تنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة إلى أن قتل الأمير جمادى الدين يوسف الأستادار، فاستقرّ بعده فى الوزارة بسفارة فتح الدين فتح اللّه بن كاتب السرّ فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، فباشر الوزارة بضبط جيد لمعرفته الحساب و الكتابة، إلّا أنها

كانت أيام محن احتاج فيها إلى وضع يده و أخذ الأموال بأنواع الظلم، فلما قتل الملك الناصر فرج و استبدّ الملك المؤيد شيخ صرفه عن الوزارة فى يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ست عشرة و ثمانمائة، و دفن بالقرافة، و هذا الجامع عامر بعمارة ما حوله.

جامع الضوة

هذا الجامع فيما بين الطبلخاناه السلطانية و باب القلعة المعروف بباب المدرّج على رأس الضوّة، أنشأه الأمير الكبير شيخ المحمودى لما قدم من دمشق بعد قتل الملك الناصر فرج، و إقامة الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله العباسىّ ابن محمد فى سنة خمس عشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۰

و ثمانمائة، و سكن بالإصطبل السلطانىّ فشرع فى بناء دار يسكنها، فلما استبدّ بسلطنة مصر و تلقب بالملك المؤيد استغنى عن هذه الدار، و كانت لم تكمل، فعملها جامعا و خانقاه، و صارت الجمعة تقام به.

جامع الحوش

هذا الجامع فى داخل قلعة الجبل بالحوش السلطانىّ، أنشأه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، فصار يصلى فيه الخدّام و أولاد الملوك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون إلى أن قتل الناصر فرج.

جامع الاصطبل

هذا الجامع فى الإصطبل السلطانىّ من قلعة الجبل عمره ... .

جامع ابن التركمانى

هذا الجامع بالمقس خارج القاهرة.

جامع ...

هذا الجامع بخط السبع سقايات فيما بين القاهرة و مصر يطلّ على بركة قارون أنشأه ... .

جامع الباسطىّ

هذا الجامع فى بولاق خارج القاهرة، أدركت موضعه و هو مطلّ على النيل طول السنة، أنشأه شخص من عرض الفقهاء يعرف ... فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع الحنفىّ

هذا الجامع خارج القاهرة أنشأه الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن علىّ الحنفىّ، فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

جامع ابن الرفعة

هذا الجامع خارج القاهرة بحكر الزهرىّ، أنشأه الشيخ فخر الدين عبد المحسن بن الرفعة بن أبى المجد العدوىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۱

جامع الإسماعيلىّ

أنشأه الأمير أرغون الإسماعيلىّ على البركة الناصرية فى شعبان سنة ثمان و أربعين و سبعمائة.

جامع الزاهد

هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة، كان موضعه كوم تراب فنقله الشيخ المعتقد أحمد بن ... المعروف بالزاهد، و أنشأ موضعه هذا الجامع، فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و هدم بسببه عدّة مساجد قد خرب ما حولها، و بنى بأنقاضها هذا الجامع، و كان ساكنا مشهورا بالخير يعظ الناس بالجامع الأزهر و غيره، و لطائفة من الناس فيه عقيدة حسنة، و لم يسمع عنه إلّا خير، مات يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة تسع عشرة و ثمانمائة، أيام الطاعون و دفن بجامعه.

جامع ابن المغربىّ

هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط مطلّ على الخليج الناصرىّ، أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربىّ رئيس الأطباء بديار مصر و بنى بجانبه قبة دفن فيها و عمل به درسا و قرّاء و منبرا يخطب عليه فى يوم الجمعة، و كان عامرا بعمارة ما حوله، فلما خرب خط بركة قرموط تعطل و هو آيل إلى أن ينقض و يباع كما بيعت أنقاض غيره.

جامع الفخرىّ

هذا الجامع بجوار دار الذهب التى عرفت بدار بها در الأعسر المجاورة لقبو الذهب من خط بين السورين فيما بين الخوخة و باب سعادة، و يتوصل إليه أيضا من درب العدّاس المجاورة لحارة الوزيرية، أنشأه الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأستادار فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و خطب فيه يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة المذكورة، و عمل فيه عدّة دروس، و أوّل من خطب فيه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنبارىّ الشافعىّ، ثم تركه تنزها عنه، و فى يوم الأحد ثامن شهر رمضان جلس فيه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوىّ الشافعىّ للتدريس، و أضيف إليه مشيخة التصوّف، و قرّر قاضى القضاة شمس الدين محمد الديرىّ المقدسىّ الحنفىّ فى تدريس الحنفية، و فى تدريس المالكية قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن مقداد المالكى، و حضر البرماوىّ وظيفة التصوّف بعد عصر يومه، فمات الأمير فخر الدين فى نصف شوّال منها و لم يكمل فدفن هناك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۲

الجامع المؤيدى

هذا الجامع بجوار باب زويلة من داخله، كان موضعه خزانة شمائل حيث يسجن أرباب الجرائم، و قيسارية سنقر الأشقر، و درب الصفيرة، و قيسارية بهاء الدين أرسلان.

أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودىّ الظاهرى، فهو الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه و ضخامة بنيانه، أن منشئه سيد ملوك الزمان، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس و إيوان كسرى أنو شروان، و يستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق و قصر غمدان، و يعجب من عرف أوّليته من تبديل الأبدال، و تنقل الأمور من حال إلى حال بينا هو سجن تزهق فيه النفوس

و يضام المجهود، إذ صار مدارس آيات و موضع عبادات و محل سجود، فاللّه يعمره ببقاء منشئه و يعلى كلمة الأيمان بدوام ملك بانيه.

همم الملوك إذا أراد و اذكرهامن بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا و كمملك محاه حوادث الأزمان

إنّ البناء إذا تعاظم قدرهأضحى يدل على عظيم الشان

و أوّل ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع، أن رسم فى رابع شهر ربيع الأوّل سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، بانتقال سكان قيسارية سنقر الأشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل، ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل، و ابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة، و ما يجاورها، فهدمت الدور التى كانت هناك فى درب الصفيرة، و هدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى و رؤوسهم شىء كثير، و أفرد لنقل ما خرج من التراب عدّة من الجمال و الحمير بلغت علائقهم فى كل يوم خمسمائة عليقة. و كان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلّب الأمير منطاش و قبضه على المماليك الظاهرية، فقاسى فى ليلة من البق و البراغيث شدائد، فنذر للّه تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا للّه عز و جلّ، و مدرسة لأهل العلم، فاختار لذلك هذه البقعة وفاء لنذره.

و فى رابع جمادى الآخرة كان ابتداء حفر الأساس، و فى خامس صفر سنة تسع عشرة و ثمانمائة. وقع الشروع فى البناء، و استقرّ فيه بضع و ثلاثون بنّاء، و مائة فاعل، و وفيت لهم و لمباشريهم أجورهم من غير أن يكلف أحد فى العمل فوق طاقته، و لا سخّر فيه أحد بالقهر، فاستمرّ العمل إلى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأوّل، فأشهد عليه السلطان أنه وقف هذا مسجدا للّه تعالى، و وقف عليه عدّة مواضع بديار مصر و بلاد الشام، و تردّد ركوب السلطان إلى هذه العمارة عدّة مرار. و فى شعبان طلبت عمد الرخام و ألواح الرخام لهذا الجامع، فأخذت من الدور و المساجد و غيرها، و فى يوم الخميس سابع عشرى شوّال نقل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۳

باب مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاون و التنور النحاس المكفت إلى هذه العمارة، و قد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار، و هذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع، و هذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب، و كان الملك الظاهر برقوق قد سدّ باب مدرسة السلطان حسن و قطع البسطة التى كانت قدّامه كما تقدّم، فبقى مصراعا الباب و السدّ من ورائهما حتى نقلا مع التنور الذى كان معلقا هناك. و فى ثامن عشرية دفنت ابنة صغيرة للسلطان فى موضع القبة الغربية من هذا الجامع، و هى ثانى ميت دفن بها، و انعقدت جملة ما صرف فى هذه العمارة إلى سلخ ذى الحجة سنة تسع عشرة على أربعين ألف دينار، ثم نزل السلطان فى عشرى المحرّم إلى هذه العمارة و دخل خزانة الكتب التى عملت هناك، قد حمل إليها كتبا كثيرة فى أنواع العلوم، كانت بقلعة الجبل، و قدّم له ناصر الدين محمد البارزىّ كاتب السرّ خمسمائة مجلد، قيمتها ألف دينار، فأقرّ ذلك بالخزانة و أنعم على ابن البارزىّ بأن يكون خطيبا و خازن المكتب هو و من بعده من ذرّيته.

و فى سابع عشر شهر ربيع الآخر منها سقط عشرة من الفعلة، مات منهم أربعة و حمل ستة بأسوإ حال. و فى يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى أقيمت الجمعة به، و لم يكمل منه سوى الإيوان القبلىّ، و خطب و صلّى بالناس عز الدين عبد السلام المقدسىّ أحد نوّاب القضاة الشافعية نيابة عن ابن البارزىّ كاتب السرّ. و فى يوم السبت خامس شهر رمضان منها ابتدئ بهدم ملك بجوار ربع الملك الظاهر بيبرس، مما اشتراه الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج الاستادار ليعمل ميضأة، و استمرّ العمل هناك و لازم الأمير فخر الدين الإقامة بنفسه، و استعمل مماليكه و الزامه فيه وجدّ فى العمل كلّ يوم، فكملت فى سلخه بعد خمسة و عشرين يوما، و وقع الشروع فى بناء حوانيت على بابها من جهة تحت الربع، و يعلوها طباق، و بلغت النفقة على الجامع إلى أخريات شهر رمضان هذا، سوى عمارة الأمير فخر الدين المذكور، زيادة على سبعين ألف دينار، و تردّد السلطان إلى النظر فى هذا الجامع غير مرّة. فلما كان فى

أثناء شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع إعوجاج إلى جهة دار التفاح، فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة الهدم، و عرض على السلطان فرسم بهدمها، فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشرية، و استمرّ فى كل يوم، فسقط يوم الخميس سادس عشرية منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة، هلك تحته رجل، فغلق باب زويلة خوفا على المارّة من يوم السبت إلى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الأولى، مدّة ثلاثين يوما، و لم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة. و قال أدباء العصر فى سقوط المنارة المذكورة شعرا كثيرا، منه ما قاله حافظ الوقت شهاب الدين أحمد بن علىّ بن حجر الشافعىّ رحمه اللّه:

لجامع مولانا المؤيد رونقمنارته تزهو من الحسن و الزين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۴ تقول و قد مالت عليهم تمهّلوافليس على جسمى أضرّ من العين

فتحدّث الناس أنه فى قوله بالعين قصد التورية لتخدم فى العين التى تصيب الأشياء فتتلفها، و فى الشيخ بدر الدين محمود العينتابىّ فإنه يقال له العينىّ أيضا.

فقال المذكور يعارضه:

منارة كعروس الحسن إذ جليتو هدمها بقضاء اللّه و القدر

قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلطما أوجب الهدم إلّا خشية الحجر

يعرّض بالشهاب ابن حجر و كل منهما لم يصب الغرض، فإن العينىّ بدر الدين محمودا ناظر الأحباس، و الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر، كل منهما ليس له فى المئذنة تعلق حتى تخدم التورية، و أقعد منهما بالتورية من قال:

على البرج من بابى زويلة أسّستمنارة بيت اللّه و المعهد المنجى

فأخلى بها البرج اللعين أمالهاألا فاصرخوا يا قوم باللّعن للبرج

و ذلك أن الذى ولى تدبير أمر الجامع المؤيدىّ هذا، و ولى نظر عمارته بهاء الدين محمد بن البرجىّ، فخدمت التورية فى البرجى كما ترى، و تداول هذا الناس فقال آخر:

عتبنا على ميل المنار زويلةو قلنا تركت الناس بالميل فى هرج

فقال قرينى برج نحس أمالنىفلا بارك الرحمن فى ذلك البرج

و قال الأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن كمال الجوجرىّ أحد الشهود:

منارة لثواب اللّه قد بنيتفكيف هدّت فقالوا نوضح الخبرا

أصابت العين أحجارا بها انفلقتو نظرة العين قالوا تفلق الحجرا

و قال آخر:

منارة قد هدمت بالقضاو الناس فى هرج و فى رهج

أمالها البرج فمالت بهفلعنة اللّه على البرج

و فى ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين و عشرين استقرّ الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علىّ بن حجر فى تدريس الشافعية، و الشيخ يحيى بن محمد بن أحمد العجيسىّ البجائىّ المغربىّ فى تدريس المالكية، و عز الدين عبد العزيز بن علىّ بن الفخر البغدادىّ فى تدريس الحنابلة، و خلع عليهم بحضرة السلطان، فدرس ابن حجر بالمحراب فى يوم الخميس ثالث عشرة، و نزل السلطان و أقبل ليحضر عنده، و هو فى إلقاء الدرس و منعه من القيام له، فلم يقم و استمرّ فيما هو بصدده، و جلس السلطان عنده مليا، ثم درّس يحيى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۵

المغربىّ فى يوم الخميس خامس عشرة، و درّس فيه أيضا الفخر البغدادىّ، و حضر معهما قضاة القضاة و المشايخ. و فى سابع عشرة

استقرّ بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العينتابىّ ناظر الأحباس فى تدريس الحديث النبوىّ، و استقرّ شمس الدين محمد بن يحيى فى تدريس القراءات السبع. و فى يوم الجمعة حادى عشرة شوّال منها نزل السلطان إلى هذا الجامع و قد تقدّم إلى المباشرين من أمسه بتهيئة السماط العظيم للمدّة فيه، و السّكّر الكثير لتملأ البركة التى بالصحن من السّكّر المذاب و الحلوى الكثيرة، فهيىء ذلك كله و جلس السلطان بكرة النهار بالقرب من البركة فى الصحن على تخت، و استعرض الفقهاء فقرّر من وقع اختياره عليه فى الدروس، و مدّ السماط العظيم بأنواع المطاعم، و ملئت البركة بالسّكّر المذاب، فأكل الناس و نهبوا و ارتووا من السّكّر المذاب و حملوا منه و من الحلوى ما قدروا عليه. ثم طلب قاضى القضاة شمس الدين محمد بن سعد الديرىّ الحنفىّ و خلع عليه كاملية صوف بفرو سمور، و استقرّ فى مشيخة التصوّف و تدريس الحنفية، و جلس بالمحراب و السلطان عن يمينه و يليه ابنه المقام الصارمىّ إبراهيم، و عن يساره قضاة القضاة و مشايخ العلم، و حضر أمراء الدولة و مباشروها، فألقى درسا مفيدا إلى أن قرب وقت الصلاة، فدعا بفض المجلس، ثم حضرت الصلاة فصعد ناصر الدين محمد بن البارزىّ كاتب السرّ المنبر فخطب و صلّى، ثم خلع عليه و استقرّ خطيبا و خازن الكتب، و خلع على شهاب الدين أحمد الأذرعىّ الإمام و استقرّ فى إمامة الخمس و ركب السلطان و كان يوما مشهودا. و لما مات المقام الصارمىّ إبراهيم بن السلطان دفن بالقبة الشرقية و نزل السلطان حتى شهد دفنه فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث و عشرين، و أقام حتى صلّى به الخطيب محمد البارزىّ كاتب السرّ صلاة الجمعة بعد ما خطب خطبة بليغة، ثم عاد إلى القلعة و أقام القرّاء على قبره يقرءون القرآن أسبوعا و الأمراء و سائر أهل الدولة يتردّدون إليه، و كانت ليالى مشهودة. و فى يوم السبت آخره استقرّ فى نظر الجامع المذكور الأمير مقبل الدوادار و كاتب السرّ ابن البارزىّ، فنزلا إليه جميعا و تفقدا أحواله و نظرا فى أموره، فلما مات ابن البارزى فى ثامن شوّال منها انفرد الأمير مقبل بالتحدّث إلى أن مات السلطان فى يوم الاثنين ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، فدفن بالقبة الشرقية و لم تكن عمرت، فشرع فى عمارتها حتى كملت فى شهر ذى القعدة منها، و كذلك الدرج التى يصعد منها إلى باب هذا الجامع من داخل باب زويلة، لم تعمل إلّا فى شهر رمضان منها، و بقيت بقايا كثيرة من حقوق هذا الجامع لم تعمل منها القبة التى تقابل القبة المدفون تحتها السلطان و البيوت المعدّة لسكن الصوفية و غير ذلك، فأفرد لعمارتها نحو من عشرين ألف دينار و استقرّ نظر هذا الجامع بعد موت السلطان بيد كاتب السرّ.

الجامع الأشرفىّ

هذا الجامع فيما بين المدرسة السيوفية و قيسارية العنبر، كان موضعه حوانيت تعلوها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۶

رباع و من ورائها ساحات كانت قياسر بعضها وقف على المدرسة القطبية، فابتدأ الهدم فيها بعد ما استبدلت بغيرها أوّل شهر رجب سنة ست و عشرين و ثمانمائة، و بنى مكانها، فلما عمر الإيوان القبلىّ أقيمت به الجمعة فى سابع جمادى الأولى سنة سبع و عشرين، و خطب به الحموىّ الواعظ و قد ولى الخطابة المذكورة.

الجامع الباسطىّ

هذا الجامع بخط الكافورىّ من القاهرة، كان موضعه من جملة أراضى البستان، ثم صار مما اختط كما تقدّم ذكره، فأنشأه القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقىّ ناظر الجيوش فى سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، و لم يسخر أحدا فى عمله بل وفّى لهم أجورهم حتى كمل فى أحسن هندام و أكيس قالب و أبدع زىّ ترتاح النفوس لرؤيته و تبتهج عند مشاهدته، فهو الجامع الزاهر و المعبد الباهى الباهر، ابتدئ فيه بإقامة الجمعة فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث و عشرين، و رتب فى خطابته فتح الدين أحمد بن محمد بن النقاش أحد شهود الحوانيت و موقعى القضاة، ثم رتب به صوفية، و ولى مشيخة التصوّف عز الدين عبد السلام بن داود

بن عثمان المقدسىّ الشافعىّ، أحد نوّاب الحكم، فكان ابتداء حضورهم بعد عصر يوم السبت أوّل شهر رجب منها، و أجرى للفقراء الصوفية الخبز فى كلّ يوم، و المعلوم فى كلّ شهر، و بنى لهم مساكن و حفر صهريجا يملأ من ماء النيل و يسبل فى كل يوم، فعمّ نفعه و كثر خيره. ثم تجدّد فى بولاق جامع ابن الجابى و جامع ابن السنيتىّ، و تجدّد فى مصر جامع الحسنات بخط دار النحاس، و فى حكر الصبان الجامع المعروف بالمستجد، و بجامع الفتح، و فى حارة الفقراء جامع عبد اللطيف الطواشىّ الساقى. و تجدّد فى خارج القاهرة بسويقة صفية جامع ابن درهم و نصف، و فى خط معدّية فريج جماع كزل بغا، و فى رأس درب النيدىّ جامع حارس الطير، و فى سويقة عصفور جامع القاضى أمين الدين بجانب زاوية الفقيه المعتقد أبى عبد اللّه محمد الفارقانىّ، بنى فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة، و بخط البراذعيين و رأس حارة الحرمين جامع الحاج محمد المعروف بالمسكين مهتار ناظر الخاص. و تجدّد فى المراغة جامع الشيخ أبى بكر المعرّف، بناه الحاج أحمد القماح، و أقيمت خطبة بخانكاه الأمير جانى بك الأشرفىّ خارج باب زويلة، و توفى يوم الخميس سابع عشرى ربيع الأوّل سنة إحدى و ثلاثين و ثمانمائة، و بخط باب اللوق جامع مقدّم السقائين قريبا من جامع الست نصرة، و بخط تحت الربع خارج باب زويلة جامع.

و تجدّد بالصحراء قريبا من تربة الظاهر برقوق خطبة فى تربة السلطان الملك الأشرف برسباى الدقاقىّ. و تجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرىّ، و أقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث و أربعين

و ثمانمائة قبل أن يكمل. و تجدّد فى زاوية الشيخ أبى العباس البصير التى عند قنطرة الخرق خطبة. و تجدّد فى حدرة الكماجيين من أراضى اللوق خطبة بزاوية مطلة على غيط العدّة، و تجدّد بالصحراء خطبة فى تربة الأمير مشير الدولة كافور الزمام، و توفى فى خامس عشر ربيع الآخر سنة ثلاثين و ثمانمائة. و تجدّد بخط الكافورىّ خطبة أحدثها بنو وفاء فى جامع لطيف جدّا. و تجدّد بمدرسة ابن البقرىّ من القاهرة أيضا خطبة فى أيام المؤيد شيخ. و تجدّد بحارة الديلم خطبة فى مدرسة أنشأها الطواشى مشير الدولة المذكور. و تجدّد عند قنطرة قدادار خطبة أنشأها شاكر البناء، و خطبة بالقرب منها فى جامع أنشأه الحاج إبراهيم البردار الشهير بالحمصانىّ، أحد الفقراء الأحمدية السطوحية فى حدود الثلاثين و الثمانمائة.

ذكر مذاهب أهل مصر و نحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى اللّه عنه أرض مصر إلى أن صاروا إلى اعتقاد مذاهب الأئمة رحمهم اللّه تعالى، و ما كان من الأحداث فى ذلك

اعلم أن اللّه عز و جل لما بعث نبينا محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى كافة الناس جميعا عربهم و عجمهم، و هم كلهم أهل شرك و عبادة لغير اللّه تعالى إلا بقايا من أهل الكتاب، كان من أمره صلّى اللّه عليه و سلّم مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة إلى المدينة، فكانت الصحابة رضوان اللّه عليهم حوله صلّى اللّه عليه و سلّم يجتمون إليه فى كلّ وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشة و قلة القوت، فمنهم من كان يحترف فى الأسواق، و منهم من كان يقوم على نخله، و يحضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كل وقت، و منهم طائفة عند ما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت، فإذا سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن مسألة، أو حكم بحكم، أو أمر بشىء، أو فعل شيأ وعاه من حضر عنده من الصحابة، وفات من غاب عنه علم ذلك، ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قد خفى عليه ما علمه حمل بن مالك بن النابغة، من الأعراب من هذيل، فى دية الجنين و خفى عليه. و كان يفتى فى زمن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم من الصحابة أبو بكر و عمر و عثمان و علىّ و عبد الرحمن بن عوف و عبد اللّه بن مسعود و أبىّ بن كعب و معاذ بن جبل و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و زيد بن ثابت و أبو الدرداء و أبو موسى الأشعرىّ و سلمان الفارسىّ رضى اللّه عنهم.

فلما مات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و استخلف أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، تفرّقت الصحابة رضى اللّه عنهم، فمنهم من

خرج لقتال مسيلمة و أهل الردّة، و منهم من خرج لقتال أهل الشام، و منهم من خرج لقتال أهل العراق، و بقى من الصحابة بالمدينة مع أبى بكر رضى اللّه عنه عدّة، فكانت القضية إذا نزلت بأبى بكر رضى اللّه عنه قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب اللّه أو سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإن لم يكن عنده فيها علم من كتاب اللّه و لا من سنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، سأل من بحضرته من الصحابة رضى اللّه عنهم عن ذلك، فإن وجد عندهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۸

علما من ذلك رجع إليه و إلّا اجتهد فى الحكم.

و لما مات أبو بكر و ولى أمر الأمّة من بعده عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فتحت الأمصار و زاد تفرّق الصحابة رضى اللّه عنهم فيما افتتحوه من الأقطار، فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد، فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها فى ذلك أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، حكم به، و إلّا اجتهد أمير تلك البلدة فى ذلك، و قد يكون فى تلك القضية حكم عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم موجود عند صاحب آخر، و قد حضر المدنىّ ما لم يحضر المصرىّ، و حضر المصرىّ ما لم يحضر الشامى، و حضر الشامىّ ما لم يحضر البصرىّ، و حضر البصرىّ ما لم يحضر الكوفىّ، و حضر الكوفىّ ما لم يحضر المدنىّ. كلّ هذا موجود فى الآثار، و فيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجلس النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى بعض الأوقات، و حضور غيره. ثم مغيب الذى حضر أمس و حضور الذى غاب، فيدرى كلّ واحد منهم ما حضر، و يفوته ما غاب عنه، فمضى الصحابة رضى اللّه عنهم على ما ذكرنا، ثم خلف بعدهم التابعون الآخرون عنهم و كل طبقة من التابعين فى البلاد التى تقدّم ذكرها، فإنما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة، فكانوا لا يتعدّون فتاويهم إلّا اليسير مما بلغهم عن غير من كان فى بلادهم من الصحابة، رضى اللّه عنهم، كاتباع أهل المدينة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما، و اتباع أهل الكوفة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه، و اتباع أهل مكة فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما، و اتباع أهل مصر فى الأكثر فتاوى عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما، ثم أتى من بعد التابعين رضى اللّه عنهم فقهاء الأمصار، كأبى حنيفة و سفيان و ابن أبى ليلى بالكوفة، و ابن جريج بمكة، و مالك و ابن الماجشون بالمدينة، و عثمان البتىّ و سوار بالبصرة، و الأوزاعىّ بالشام، و الليث بن سعد بمصر. فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده، فيما كان عندهم و اجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم، و هو موجود عند غيرهم.

و أما مذاهب أهل مصر: فقال أبو سعيد بن يونس: إن عبيد بن مخمر المغافرىّ يكنى أبا أمية، رجل من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، شهد فتح مصر، روى عنه أبو قبيل. يقال أنه كان أوّل من أقرأ القرآن بمصر. و ذكر أبو عمرو الكندىّ أن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرمىّ كان فقيها عفيفا شريفا، ولد سنة عشر و مائة، و كان أوّل الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين و مائة، و توفى سنة ثمان و ثمانين و مائة، و ذكر عن أبى قبيل و غيره أن يزيد بن أبى حبيب أوّل من نشر العلم بمصر فى الحلال و الحرام، و فى رواية ابن يونس و مسائل الفقه، و كانوا قبل ذلك إنما يتحدّثون فى الفتن و الترغيب. و عن عون بن سليمان الحضرمىّ قال: كان عمر بن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر إلى ثلاثة رجال، رجلان من الموالى و رجل من العرب، فأما العربىّ فجعفر بن ربيعة، و أما الموليان فيزيد بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۴۹

أبى حبيب، و عبد اللّه بن أبى جعفر. فكان العرب انكروا ذلك، فقال عمر بن عبد العزيز:

ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا و أنتم لا تسمون. و عن ابن أبى قديد كانت البيعة إذا جاءت للخليفة أوّل من يبايع عبد اللّه بن أبى جعفر و يزيد بن أبى حبيب ثم الناس بعد. و قال أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر عن حيوة بن شريح قال: دخلت على حسين بن شفى بن مانع الأصبحىّ و هو يقول: فعل اللّه بفلان. فقلت: ما له؟ فقال: عمد إلى كتابين كان شفى سمعهما من عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما، أحدهما قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى كذا، و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذا،

و الآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة و الرباب. قال أبو سعيد بن يونس: يعنى بقوله الخولة و الرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط يجوز من تحتهما لكبرهما المراكب. و ذكر أبو عمرو الكندىّ أن أبا سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق، أوّل من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث، توفى سنة أربع و ثمانين و مائة انتهى. و كان حال أهل الإسلام من أهل مصر و غيرها من الأمصار فى أحكام الشريعة على ما تقدّم ذكره، ثم كثر الترحل إلى الآفاق و تداخل الناس و التقوا و انتدب أقوام لجمع الحديث النبوىّ و تقييده، فكان أوّل من دوّن العلم محمد بن شهاب الزهرىّ، و كان أوّل من صنف و بوّب سعيد بن عروبة و الربيع بن صبيح بالبصرة، و معمر بن راشد باليمن، و ابن جريج بمكة، ثم سفيان الثورىّ بالكوفة، و حماد بن سلمة بالبصرة، و الوليد بن مسلم بالشام، و جرير بن عبد الحميد بالرىّ، و عبد اللّه بن المبارك بمرو و خراسان، و هشيم بن بشير بواسط، و تفرّد بالكوفة أبو بكر بن أبى شيبة بتكثير الأبواب و جودة التصنيف و حسن التأليف، فوصلت أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من البلاد البعيدة إلى من لم تكن عنده، و قامت الحجة على من بلغه شىء منها، و جمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأوّلة من الأحاديث، و عرف الصحيح من السقيم، و زيف الاجتهاد المؤدّى إلى خلاف كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إلى ترك عمله، و سقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغه إليه، و قيام الحجة عليه، و على هذا الطريق كان الصحابة رضى اللّه عنهم و كثير من التابعين يرحلون فى طلب الحديث الواحدة الأيام الكثيرة، يعرف ذلك من نظر فى كتب الحديث، و عرف سير الصحابة و التابعين. فلما قام هارون الرشيد فى الخلافة، و ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة رحمه اللّه تعالى بعد سنة سبعين و مائة، فلم يقلد ببلاد العراق و خراسان و الشام و مصر إلّا من أشار به القاضى أبو يوسف رحمه اللّه، و اعتنى به، و كذلك لما قام بالأندلس الحكم المرتضى بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بعد أبيه، و تلقب بالمنتصر فى سنة ثمانين و مائة، اختص بيحيى بن يحيى بن كثير الأندلسىّ، و كان قد حج و سمع الموطأ من مالك إلّا أبوابا، و حمل عن ابن وهب و عن ابن القاسم و غيره علما كثيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۰

و عاد إلى الأندلس، فنال من الرياسة و الحرمة ما لم ينله غيره، و عادت الفتيا إليه و انتهى السلطان و العامّة إلى بابه، فلم يقلد فى سائر أعمال الأندلس قاض إلّا بإشارته و اعتنائه، فصاروا على رأى مالك بعد ما كانوا على رأى الأوزاعىّ، و قد كان مذهب الإمام مالك أدخله إلى الأندلس زياد بن عبد الرحمن الذى يقال له بسطور، قبل يحيى بن يحيى، و هو أوّل من أدخل مذهب مالك الأندلس، و كانت إفريقية الغالب عليها السنن و الآثار إلى أن قدم عبد اللّه بن فروج أبو محمد الفارسىّ بمذهب أبى حنيفة، ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضى افريقية بمذهب أبى حنيفة، ثم لما ولى سحنون بن سعيد التنوخىّ قضاء افريقية، بعد ذلك نشر فيهم مذهب مالك و صار القضاء فى أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول إلى أن تولى القضاء بها بنو هاشم، و كانوا مالكية، فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع.

ثم إن المعز بن باديس حمل جميع أهل إفريقية على التمسك بمذهب مالك و ترك ما عداه من المذاهب، فرجع أهل إفريقية و أهل الأندلس كلهم إلى مذهب مالك إلى اليوم، رغبة فيما عند السلطان، و حرصا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء و الافتاء جميع تلك المدن و سائر القرى لا يكون إلّا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك، فاضطرّت العامّة إلى أحكامهم و فتاواهم، ففشا هذا المذهب هناك فشوّا طبق تلك الأقطار، كما فشا مذهب أبى حنيفة ببلاد المشرق، حيث أن أبا حامد الاسفراينىّ لما تمكن من الدولة فى أيام الخليفة القادر بالله أبى العباس أحمد، قرّر معه استخلاف أبى العباس أحمد بن محمد البارزىّ الشافعىّ عن أبى محمد بن الأكفانىّ الحنفىّ قاضى بغداد، فأجيب إليه بغير رضى الأكفانىّ و كتب أبو حامد إلى السلطان محمود بن سبكتكين و أهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية إلى الشافعية، فاشتهر ذلك بخراسان و صار أهل بغداد حزبين، و قدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد قاضى نيسابور و رئيس الحنفية بخراسان، فأتاه الحنفية فثارت بينهم و بين أصحاب أبى حامد فتنة ارتفع أمرها إلى السلطان، فجمع

الخليفة القادر الأشراف و القضاة و أخرج إليهم رسالة تتضمن: أن الاسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح و الشفقة و الأمانة، و كانت على أصول الدخل و الخيانة، فلما تبين له أمره و وضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزيّ الحكم بالحضرة من الفساد و الفتنة و العدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من إيثار الحنفية و تقليدهم و استعمالهم، صرف البارزيّ و أعاد الأمر إلى حقه و أجراه على قديم رسمه، و حمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية و الكرامة و الحرمة و الإعزاز، و تقدّم إليهم بأن لا يلقوا أبا حامد و لا يقضوا له حقا و لا يردّوا عليه سلاما، و خلع على أبى محمد الأكفانيّ، و انقطع أبو حامد عن دار الخلافة، و ظهر التسخط عليه و الانحراف عنه و ذلك فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة و اتصل ببلاد الشام و مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۱

أوّل من قدم بعلم مالك: إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح، و كان فقيها روى عنه الليث و ابن وهب و رشيد بن سعد، و توفى بالإسكندرية سنة ثلاث و ستين و مائة، ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر اصحاب مالك بمصر، و لم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه يعرف بمصر. قال ابن يونس: و قدم إسماعيل بن اليسع الكوفيّ قاضيا بعد ابن لهيعة، و كان من خير قضاتنا، غير أنه كان يذهب إلى قول أبى حنيفة، و لم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة، و كان مذهبه إبطال الأحباس، فثقل أمره على أهل مصر و سئموه، و لم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعيّ محمد بن ادريس إلى مصر مع عبد اللّه بن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس فى سنة ثمان و تسعين و مائة، فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم و الربيع بن سليمان و أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى، و أبى يعقوب يوسف بن يحيى البويطيّ، و كتبوا عن الشافعيّ ما ألفه، و عملوا بما ذهب إليه، و لم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر و ذكره ينتشر.

قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و لم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة فى الجامع العتيق إلى سنة ثلاث و خمسين و مائتين. قال: و منع أرجون صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر من الجهر بالبسملة فى الصلوات بالمسجد الجامع، و أمر الحسين بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها، و ذلك فى رجب سنة ثلاث و ستين و مائتين، و لم يزل أهل مصر على الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الإسلام إلى أن منع منها أرجون.

قال: و أمر أن تصلّى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح، و لم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح حتى جعلها أرجون خمسا فى شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و مائتين، و منع من التثويب، و أمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد، و أمر بالتغليس بصلاة الصبح، و ذلك أنهم أسفروا بها، و ما زال مذهب مالك و مذهب الشافعيّ رحمهما اللّه تعالى يعمل بهما أهل مصر، و يولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه، إلى أن القائد جوهر من بلاد إفريقية فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة بجيوش مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ و بنى مدينة القاهرة.

فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة و عمل به فى القضاء و الفتيا و أنكر ما خالفه، و لم يبق مذهب سواه، و قد كان التشيع بأرض مصر معروفا قبل ذلك. قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الموالى عن عبد اللّه بن لهيعة أنه قال: قال يزيد بن أبى حبيب: نشأت بمصر و هى علوية، فقلبتها عثمانية. و كان ابتداء التشيع فى الإسلام أن رجلا من اليهود فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه أسلم، فقيل له عبد اللّه بن سبأ، و عرف بابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۲

السوداء، و صار ينتقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم، فلم يطق ذلك فرجع إلى كيد الإسلام و أهله، و نزل البصرة فى سنة ثلاث و ثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل و لا يصرّح، فأقبل عليه جماعة و مالوا إليه و أعجبوا بقوله، فبلغ ذلك عبد اللّه بن عامر و هو يومئذ على البصرة، فأرسل إليه فلما حضر عنده سأله ما أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت فى الإسلام و فى

جوارك. فقال ما شيء بلغني عنك، أخرج عني. فخرج حتى نزل الكوفة، فأخرج منها فسار إلى مصر و استقرّ بها و قال في الناس العجب ممن يصدّق أن عيسى يرجع و يكذب أن محمدا يرجع، و تحدّث في الرجعة حتى قبلت منه، فقال بعد ذلك:

أنه كان لكل نبيّ وصيّ، و عليّ بن أبي طالب وصيّ محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم في أن علي بن أبي طالب وصيه في الخلافة على أمّته، و اعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر و ابدؤوا بالطعن على أمرائكم، فأظهروا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر تستميلوا به الناس، و بث دعاته و كاتب من مال إليه من أهل الأمصار و كاتبوه و دعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، و صاروا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها في عيب ولاتهم، فيكتب أهل كل مصر منهم إلى أهل المصر الآخر بما يضعون حتى ملوا بذلك الأرض إذاعة، و جاء إلى أهل المدينة من جميع الأمصار، فأتوا عثمان رضي اللّه عنه في سنة خمسة و ثلاثين و أعلموه ما أرسل به أهل الأمصار من شكوى عمالهم، فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، و أسامة بن زيد إلى البصرة، و عمار بن ياسر إلى مصر، و عبد اللّه بن عمر إلى الشام، لكشف سير العمال. فرجعوا إلى عثمان إلّا عمارا و قالوا: ما أنكرنا شيئا. و تأخر عمار فورد الخبر إلى المدينة بأنه قد استماله عبد اللّه ابن السوداء في جماعة، فأمر عثمان عماله أن يوافوه بالموسم، فقدموا عليه و استشاروه، فكلّ أشار برأي، ثم قدم المدينة بعد الموسم فكان بينه و بين عليّ بن أبي طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب إعطائه أقاربه و رفعه لهم على من سواهم، و كان المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم إذ سار عنها الأمراء، فلم يتهيأ لهم الوثوب، و عند ما رجع الأمراء من الموسم تكاتب المخالفون في القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون، و كان أمير مصر من قبل عثمان رضي اللّه عنه، عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح العامريّ، فلما خرج في شهر رجب من مصر في سنة خمس و ثلاثين استخلف بعده عقبة بن عامر الجهنيّ في قول الليث بن سعد. و قال يزيد بن أبي حبيب: بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامريّ و جعل على الخراج سليم بن عنز التجيبيّ، فانتزى محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف في شوّال من السنة المذكورة، و أخرج عقبة بن عامر من الفسطاط، و دعا إلى خلع عثمان رضي اللّه عنه، و اسعر البلاد و حرّض على عثمان بكلّ شيء يقدر عليه، فكان يكتب الكتب على لسان أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و يأخذ الرواحل فيضمرها و يجعل رجالا على ظهور البيوت و وجوههم إلى وجه الشمس لتلوح وجوههم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۳

تلويح المسافر، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم، و قد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا ليس عندنا خبر الخبر في الكتب، فيجيء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم فيتلقاهم ابن أبي حذيفة و الناس يقولون:

نتلقى رسل أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فإذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر؟ قالوا: لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبي صلّى اللّه عليه و سلّم، فيجتمع الناس في المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا نشكو إلى اللّه و إليكم ما عمل في الإسلام و ما صنع في الإسلام، فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء فيبكون، ثم ينزل عن المنبر و يتفرّق الناس بما قرئ عليهم.

فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضي اللّه عنه اعتزلوا محمد بن أبي حذيقة و نابذوه، و هم معاوية بن خديج، و خارجة بن حذاقة، و بسر بن أرطاة، و مسلمة بن مخلد، و عمرو بن قحزم الخولانيّ، و مقسم بن بجرة، و حمزة بن سرح بن كلال، و أبو الكنود سعد بن مالك الأزديّ، و خالد بن ثابت الفهميّ، في جمع كثير و بعثوا سلمة بن مخزمة التجيبيّ إلى عثمان ليخبره بأمرهم و بصنيع ابن أبي حذيفة، فبعث عثمان رضي اللّه عنه سعد بن أبي وقاص ليصلح أمرهم، فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطب الناس و قال: ألا إن الكذا و الكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليقلّ جماعتكم و يشتت كلمتكم و يوقع التجادل بينكم، فانفروا إليه، فخرج منهم مائة أو نحوها، و قد ضرب فسطاطه و هو قائل:

فقلبوا عليه فسطاطه و شجوه و سبوه، فركب راحلته و عاد راجعا من حيث جاء. و قال:
ضربكم اللّه بالذلّ و الفرقة، و شتت أمركم، و جعل بأسكم بينكم، و لا أرضاكم بأمير، و لا أرضاه عنكم. و أقبل عبد اللّه بن سعد حتى بلغ جسر القلزم، فإذا بخيل لابن أبى حذيفة، فمنعوه أن يدخل فقال: ويلكم دعونى أدخل على جندى فأعلمهم بما جئت به، فإنى قد جئتهم بخير. فأبوا أن يدعوه فقال: و اللّه لوددت أنى دخلت عليهم و أعلمتهم بما جئت به ثم مت، فانصرف إلى عسقلان. و أجمع محمد بن أبى حذيفة على بعث جيش إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فقال: من يتشرّط فى هذا البعث؟ فكثر عليه من يشترط. فقال: إنما يكفينا منكم ستمائة رجل، فشرّط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس و على جماعتهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ، و هم كنانة بن بشر بن سليمان التجيبىّ، و عروة بن سليم الليثىّ، و أبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعىّ، و سودان بن ريان الأصبحىّ، و ذرع بن يشكر النافعىّ، و سجن رجال من أهل مصر فى دورهم منهم: فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر و كان رأس الشيعة الأولى، دفع عن معاوية ما كره، ثم قتل عثمان رضى اللّه عنه فى ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين، فدخل الركب إلى مصر و هم يرتجزون:
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۴ خذها إليك و أحذرنّ أبا الحسن إنا نمرّ الحرب إمرار الوسن بالسيف كى تخمد نيران الفتن فلما دخلوا المسجد صاحوا إنا لسنا قتلة عثمان و لكن اللّه قتله. فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا و عقدوا لمعاوية بن خديج عليهم و بايعوه على الطلب بدم عثمان، فسار بهم معاوية إلى الصعيد، فبعث إليهم ابن أبى حذيفة فالتقوا بدقناس من كورة البهنسا فهزم أصحاب ابن أبى حذيفة، و مضى معاوية حتى بلغ برقة، ثم رجع إلى الاسكندرية فبعث ابن أبى حذيفة بجيش آخر عليهم قيس بن حرمل فاقتتلوا بخربتا أوّل شهر رمضان سنة ست و ثلاثين، فقتل قيس و سار معاوية بن أبى سفيان إلى مصر، فنزل سلمنت من كورة عين شمس فى شوّال، فخرج إليه ابن أبى حذيفة فى أهل مصر، فمنعوه أن يدخلها، فبعث إليه معاوية إنّا لا نريد قتال أحد إنما جئنا نسأل القود لعثمان، ادفعوا إلينا قاتليه عبد الرحمن بن عديس و كنانة بن بشر، و هما رأس القوم، فامتنع ابن أبى حذيفة و قال لو طلبت منا جديا أرطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك. فقال معاوية بن أبى سفيان لابن أبى حذيفة: اجعل بيننا و بينكم رهنا، فلا يكون بيننا و بينكم حرب. فقال ابن أبى حذيفة: فإنى أرضى بذلك، فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة و خرج فى الرهن، هو و ابن عيسى. و كنانة بن بشر و أبو شمر بن أبرهة و غيرهم من قتلة عثمان، فلما بلغوا لدّ سجنهم بها معاوية و سار إلى دمشق، فهربوا من السجن، غير أبى شمر بن أبرهة فإنه قال:
لا أدخله أسيرا و أخرج منه آبقا، و تبعهم صاحب فلسطين فقتلهم، و اتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس فقال له عبد الرحمن بن عديس: اتق اللّه فى دمى فإنى بايعت النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم تحت الشجرة، فقال له: الشجر فى الصحراء كثير فقتله.
و قال محمد بن أبى حذيفة فى الليلة التى قتل فى صباحها عثمان: فإن يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد، فقتل من الغد، و كان قتل ابن أبى حذيفة و عبد الرحمن بن عديس و كنانة بن بشر و من كان معهم من الرهن فى ذى الحجة سنة ست و ثلاثين. فلما بلغ علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه مصاب بن أبى حذيفة، بعث قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ على مصر و جمع له الخراج و الصلاة، فدخلها مستهلّ شهر ربيع الأوّل سنة سبع و ثلاثين، و استمال الخارجية بخربتا و دفع إليهم أعطياتهم، و وفد عليه وفدهم فأكرمهم و أحسن إليهم، و مصر يومئذ من جيش علىّ رضى اللّه عنه إلّا أهل خربتا الخارجين بها. فلما ولى على رضى اللّه عنه قيس بن سعد، و كان من ذوى الرأى، جهد معاوية بن أبى سفيان و عمرو بن العاص على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها، فامتنع عليهما بالدهاء و المكايدة، فلم يقدرا على أن يلجأ مصر حتى كان معاوية قيسا من قبل علىّ رضى اللّه عنه، فكان معاوية يحدّث رجالا من ذوى رأى قريش فيقول: ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلىّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى، قلت لأهل الشام لا تسبوا قيسا و لا
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۵

تدعوا إلى غزوة، فإن قيسا لنا شيعة تأتينا كتبه و نصيحته سرّا، ألا- ترون ما ذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بخربتا يجرى عليهم أعطياتهم و أرزاقهم و يؤمّن سربهم و يحسن إلى كل راكب يأتيه منهم. قال معاوية: و طفقت أكتب بذلك إلى شيعتى من أهل العراق، فسمع بذلك جواسيس علىّ بالعراق فأنهاه إليه محمد بن أبى بكر، و عبد اللّه بن جعفر، فاتّهم قيسا فكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتا، و بخربتا يومئذ عشرة آلاف، فأبى قيس أن يقاتلهم و كتب إلى علىّ رضى اللّه عنه أنهم وجوه أهل مصر و أشرافهم، و أهل الحفاظ منهم، و قد رضوا منى بأن أو من سربهم و اجرى عليهم أعطياتهم و أرزاقهم، و قد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست بكائدهم بأمر أهون علىّ و عليك من الذى أفعل بهم، و هم أسود العرب، منهم بسر بن أرطاة، و سلمة بن مخلد، و معاوية بن خديج. فأبى عليه إلّا قتالهم، فأبى قيس أن يقاتلهم. و كتب إلى علىّ رضى اللّه عنه، إن كنت تهتمنى فاعزلنى و ابعث غيرى. و كتب معاوية رضى اللّه عنه إلى بعض بنى أمية بالمدينة: أن جرى اللّه قيس بن سعد خيرا فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان، و اكتموا ذلك فإننى أخاف أن يعزله على إن بلغه ما بينه و بين شيعتنا، حتى بلغ عليا رضى اللّه عنه ذلك فقال: من معه من رؤساء أهل العراق و أهل المدينة بدّل قيس و تحوّل. فقال علىّ ويحكم إنه لم يفعل فدعونى. قالوا:

لتعزلنه، فإنه قد بدّل. فلم يزالوا به حتى كتب إليه إنى قد احتجت إلى قربك، فاستخلف على عملك و اقدم. فلما قرأ الكتاب قال: هذا من مكر معاوية، و لو لا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته، فوليها قيس بن سعد إلى أن عزل عنها أربعة أشهر و خمسة أيام، و صرف لخمس خلون من رجب سنة سبع و ثلاثين، ثم وليها الاشتر مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعىّ من قبل أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و ذلك أن عبد اللّه بن جعفر كان إذا أراد أن لا يمنعه علىّ شيئا قال له بحق جعفر. فقال له أسألك بحق جعفر الا بعثت الاشتر إلى مصر، فإن ظهرت فهو الذى تحب و إلّا استرحت منه. و يقال:

كان الأشتر قد ثقل على علىّ رضى اللّه عنه و أبغضه و قلاه فولاه و بعثه، فلما قدم مصر لقى بما يلقى العمال به هناك، فشرب شربة عسل فمات. فلما أخبر علىّ بذلك قال لليدين و للفم، و سمع عمرو بن العاص بموت الأشتر فقال: إن للّه جنودا من عسل. أو قال إنّ للّه جنودا من العسل.

ثم وليها محمد بن أبى بكر الصدّيق من قبل علىّ رضى اللّه عنهم، و جمع له صلاتها و خراجها، فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع و ثلاثين، فلقيه قيس بن سعد فقال له:

إنه لا يمنعنى نصحى لك عزله إياىّ، و لقد عزلنى عن غير وهن و لا عجز، فاحفظ ما أوصيك به. يدم صلاح حالك: دع معاوية بن خديج و مسلمة بن مخلد و بسر بن أرطاة و من ضوى إليهم على ما هم عليه، لا تكفهم عن رأيهم، فإن أتوك و لم يفعلوا فاقبلهم، و إن تخلفوا عنك فلا تطلبهم، و انظر هذا الحىّ من مضر، فأنت أولى بهم منى، فألن لهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۶

جناحك و قرّب عليهم مكانك و ارفع عنهم حجابك، و انظر هذا الحىّ من مدلج، فدعهم و ما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم، و أنزل الناس من بعد على قدر منازلهم، فإن استطعت أن تعود المرضى و تشهد الجنائز فافعل، فإنّ هذا لا ينقصك و لن تفعل، إنك و اللّه ما علمت لتظهر الخيلاء و تحب الرياسة و تسارع إلى ما هو ساقط عنك، و اللّه موفقك. فعمل محمد بخلاف ما أوصاه به قيس، فبعث إلى ابن خديج و الخارجة معه يدعوهم إلى بيعته، فلم يجيبوه. فبعث إلى دور الخارجة فهدمها و نهب أموالهم و سجن ذراريهم فنصبوا له الحرب و هموا بالنهوض إليه. فلما علم أنه لا قوّة له بهم أمسك عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية، و أن ينصب لهم جسر انتقيوس يجوزون عليه و لا يدخلون الفسطاط، ففعلوا و لحقوا بمعاوية.

فلما أجمع علىّ رضى اللّه عنه و معاوية على الحكمين أغفل علىّ أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر. فلما انصرف علىّ إلى العراق بعث معاوية رضى اللّه عنه عمرو بن العاص رضى اللّه عنه فى جيوش أهل الشام إلى مصر، فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر، و دخل عمرو بأهل الشام الفسطاط، و تغيب محمد بن أبى بكر، فأقبل معاوية بن خديج فى رهط ممن يعينه على من كان يمشى

فی قتل عثمان، و طلب ابن أبی بکر فدلتهم علیه امرأة. فقال: احفظونی فی أبی بکر، فقال معاویة بن خدیج: قتلت ثمانین رجلا من قومی فی عثمان، و أترکک و أنت صاحبه؟ فقتله ثم جعله فی جیفة حمار میت، فأحرقه بالنار، فکانت ولایة محمد بن أبی بکر خمسة أشهر، و مقتله لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان و ثلاثین. ثم ولی عمرو بن العاص مصر من بعده، فاستقبل بولایته هذه الثانیة شهر ربیع الأوّل، و جعل إلیه الصلاة و الخراج، و کانت مصر قد جعلها معاویة له طعمة بعد عطاء جندها و النفقة علی مصلحتها، ثم خرج إلی الحکومة و استخلف علی مصر ابنه عبد اللّه بن عمرو، و قتل خارجة بن حذافة و رجع عمرو إلی مصر فأقام بها، و تعاقد بنو ملجم عبد الرحمن و قیس و یزید علی قتل علیّ رضی اللّه عنه و عمرو و معاویة رضی اللّه عنهما، و تواعدوا علی لیلة من رمضان سنة أربعین، فمضی کل منهم إلی صاحبه، فلما قتل علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه و استقرّ الأمر لمعاویة کانت مصر جندها و أهل شوکتها عثمانیة، و کثیر من أهلها علویة. فلما مات معاویة و مات ابنه یزید بن معاویة کان علی مصر سعید بن یزید الأزدیّ علی صلاتها، فلم یزل أهل مصر علی الشنان له، و الإعراض عنه، و التکبر علیه، منذ ولاه یزید بن معاویة حتی مات یزید فی سنة أربع و ستین. و دعا عبد اللّه بن الزبیر إلی نفسه، فقامت الخوارج بمصر فی أمره، و أظهروا دعوته کانوا یحسبونه علی مذهبهم، و أوفدوا منهم وفدا إلیه، فسار منهم نحو الألفین من مصر و سألوه أن یبعث إلیهم بأمیر یقومون معه و یوازرونه، و کان کریب بن أبرهة الصباح و غیره من أشراف مصر یقولون: ما ذا نری من العجب أن هذه الطائفة المکتتمة تأمر فینا و تنهی و نحن لا نستطیع أن

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۱۵۷

نردّ أمرهم، و لحق بابن الزبیر ناس کثیر من أهل مصر، و کان أوّل من قدم مصر برأی الخوارج حجر بن الحارث بن قیس المذحجیّ، و قیل حجر بن عمرو، و یکنی بأبی الورد، و شهد مع علیّ صفین، ثم صار من الخوارج و حضر مع الحروریة النهروان، فخرج و صار إلی مصر برأی الخوارج و أقام بها حتی خرج منها إلی ابن الزبیر فی إمارة مسلمة بن مخلد الأنصاریّ علی مصر. فلما مات یزید بن معاویة و بویع ابن الزبیر بعده بالخلافة، بعث إلی مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهریّ، فقدمها فی طائفة من الخوارج فوثبوا علی سعید بن یزید فاعتزلهم، و استمرّ ابن جحدم، و کثرت الخوارج بمصر منها و ممن قدم من مکة، فأظهروا فی مصر التحکیم و دعوا إلیه، فاستعظم الجند ذلک و بایعه الناس علی غلّ فی قلوب ناس من شیعة بنی أمیة، منهم کریب بن أبرهة، و مقسم بن بجرة، و زیاد بن حناطة التجیبیّ، و عابس بن سعید و غیرهم، فصار أهل مصر حینئذ ثلاث طوائف، علویة و عثمانیة و خوارج. فلما بویع مروان بن الحکم بالشام فی ذی القعدة سنة أربع و ستین کانت شیعته من أهل مصر مع ابن جحدم، فکاتبوه سرّا حتی أتی مصر فی أشراف کثیرة، و بعث ابنه عبد العزیز بن مروان فی جیش إلی إیلة لیدخل من هناک مصر، و أجمع ابن جحدم علی حربه و منعه، فحفر الخندق فی شهر، و هو الخندق الذی بالقرافة، و بعث بمراکب فی البحر لیخالف إلی عیالات أهل الشام، و قطع بعثا فی البرّ و جهز جیشا آخر إلی إیلة لمنع عبد العزیز من المسیر منها، فغرقت المراکب و نجا بعضها و انهزمت الجیوش و نزل مروان عین شمس، فخرج إلیه ابن جحدم فی أهل مصر، فتحاربوا و استحرّ القتل فقتل من الفریقین خلق کثیر، ثم إن کریب بن أبرهة و عابس بن سعید و زیاد بن حناطة و عبد الرحمن بن موهب المغافریّ دخلوا فی الصلح بین أهل مصر و بین مروان، فتم و دخل مروان إلی الفسطاط لغرّة جمادی الأولی سنة خمس و ستین، فکانت ولایة ابن جحدم تسعة أشهر، و وضع العطاء فبایعه الناس إلّا نفرا من المغافر قالوا لا نخلع بیعة ابن الزبیر، فقتل منهم ثمانین رجلا- قدّمهم رجلا- رجلا فضرب أعناقهم و هم یقولون إنا قد بایعنا ابن الزبیر طائعین، فلم نکن لننکث بیعته، و ضرب عنق الأکدر بن حمام بن عامر سید لخم و شیخها، و حضر هو و أبوه فتح مصر، و کانا ممن ثار إلی عثمان رضی اللّه عنه، فتنادی الجند قتل الأکدر، فلم یبق أحد حتی لبس سلاحه، فحضر باب مروان منهم زیادة علی ثلاثین ألفا، و خشی مروان و أغلق بابه حتی أتاه کریب بن أبرهة و ألقی علیه رداءه و قال للجند: انصرفوا أنا له جار، فما عطف أحد منهم و انصرفوا إلی منازلهم، و کان للنصف من جمادی الآخرة، و یومئذ مات عبد اللّه بن عمرو بن العاص، فلم یستطع أحد أن یخرج بجنازته إلی المقبرة لشغب الجند علی مروان، و من حینئذ غلبت العثمانیة علی مصر فتظاهروا فیها بسب علیّ رضی اللّه عنه، و انکفت السنة العلویة و

الخوارج.

فلما كانت ولاية قرّة بن شريك العبسىّ على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۸

سنة تسعين، خرج إلى الإسكندرية فى سنة إحدى و تسعين، فتعاقدت السراة من الخوارج بالإسكندرية على الفتك به، و كانت عدّتهم نحوا من مائة، فعقدوا لرئيسهم المهاجر بن أبى المثنى التجيبىّ، أحد بنى فهم عليهم عند منارة الإسكندرية و بالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان، فبلغ قرّة ما عزموا عليه، فأتى لهم قبل أن يتفرّقوا فأمر بحبسهم فى أصل منارة الإسكندرية، و أحضر قرّة وجوه الجند فسألهم فأقرّوا فقتلهم، و مضى رجل ممن كان يرى رأيهم إلى أبى سليمان فقتله، فكان يزيد بن أبى حبيب إذا أراد أن يتكلم بشىء فيه تقية من السلطان تلفت و قال: احذروا أبا سليمان، ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم أبو سليمان. فلما قام عبد اللّه بن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز على مروان بن محمد الجعدىّ، قدم إلى مصر داعيته و دعا الناس فبايع له ناس من تجيب و غيرهم، فبلغ ذلك حسان بن عتاهية صاحب الشرطة فاستخرجهم، فقتلهم حوثرة بن سهيل الباهلىّ أمير مصر من قبل مروان بن محمد، فلما قتل مروان و انقضت أيام بنى أمية ببنى العباس فى سنة ثلاث و ثلاثين و مائة، خمدت جمرة أصحاب المذهب المروانىّ و هم الذين كانوا يسبون علىّ بن أبى طالب و يتبرّؤون منه، و صاروا منذ ظهر بنو العباس يخافون القتل و يخشون أن يطلع عليهم أحد إلّا طائفة كانت بناحية الواحات و غيرها، فإنهم أقاموا على مذهب المروانية دهرا حتى فنوا، و لم يبق لهم الآن بديار مصر وجود البتة.

فلما كان فى إمارة حميد بن قحطبة على مصر من قبل أبى جعفر المنصور، قدم إلى مصر علىّ بن محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب داعية لأبيه و عمه، فذكر ذلك لحميد فقال: هذا كذب، و دسّ إليه أن تغيّب، ثم بعث إليه من الغد فلم يجده، فكتب بذلك إلى أبى جعفر المنصور فعزل حميدا و سخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع و أربعين و مائة، و ولى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة، فظهرت دعوة بنى حسن بن علىّ بمصر، و تكلم الناس بها و بايع كثير منهم لعلىّ بن محمد بن عبد اللّه، و هو أوّل علوىّ قدم مصر، و قام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفىّ، و كان جدّه ربيعة بن حبيش من خاصة علىّ بن أبى طالب و شيعته، و حضر الدار فى قتل عثمان رضى اللّه عنه، فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له، فأشار عليهم بعضهم أن يبيت يزيد بن حاتم فى العسكر، و كان الأمراء قد صاروا منذ قدمت عساكر بنى العباس ينزلون فى العسكر الذى بنى خارج الفسطاط من شماليه، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و أشار عليه آخرون أن لا يحوز بيت المال، و أن يكون خروجهم فى الجامع، فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم، و خشى على اليمانية، و خرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى إلى عبد اللّه بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج و هو يومئذ على الفسطاط، فخبّره أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۵۹

الليلة يخرجون، فمضى عبد اللّه إلى يزيد بن حاتم و هو بالعسكر، فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوّال سنة خمس و أربعين و مائة، فانهزموا. ثم قدمت الخطباء برأس إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين فى ذى الحجة من السنة المذكورة إلى مصر و نصبوه فى المسجد الجامع، و قامت الخطباء فذكروا أمره، و حمل علىّ بن محمد إلى أبى جعفر المنصور و قيل إنه اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طره، فمرض بها و مات فقبر هناك، و حمل عسامة إلى العراق فحبس إلى أن ردّه المهدىّ محمد بن أبى جعفر إلى مصر، و ما زالت شيعة علىّ بمصر إلى أن ورد كتاب المتوكل على اللّه إلى مصر يأمر فيه بإخراج آل أبى طالب من مصر إلى العراق، فأخرجهم إسحاق بن يحيى الختلىّ أمير مصر و فرّق فيهم الأموال ليتجملوا بها، و أعطى كل رجل ثلاثين دينارا، و المرأة خمسة عشر دينارا، فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ست و ثلاثين و مائتين، و قدموا العراق فأخرجوا إلى المدينة فى شوّال منها، و استتر من كان بمصر على رأى العلوية، حتى أن يزيد بن عبد اللّه أمير مصر ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه فأقسم عليه بحق الحسن و الحسين إلا عفا عنه، فزاده ثلاثين درة، و رفع ذلك صاحب البريد إلى المتوكل، فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندىّ مائة سوط،

فضربها و حمل بعد ذلك إلى العراق فى شوّال سنة ثلاث و أربعين و مائتين، و تتبع يزيد الروافض فحملهم إلى العراق، و دل فى شعبان على رجل يقال له محمد بن علىّ بن الحسن بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، أنه بويع له، فأحرق الموضع الذى كان به و أخذه فأقرّ على جمع من الناس بايعوه، فضرب بعضهم بالسياط، و أخرج العلوى هو و جمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان.

و مات المتوكل فى شوّال، فقام من بعده ابنه محمد المستنصر، فورد كتابه إلى مصر بأن لا يقبل علوىّ ضيعة، و لا يركب فرسا، و لا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، و أن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلّا العبد الواحد، و من كان بينه و بين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه و لم يطالب ببينة، و كتب إلى العمال بذلك، و مات المستنصر فى ربيع الآخر، و قام المستعين، فأخرج يزيد ستة رجال من الطالبيين إلى العراق فى رمضان سنة خمسين و مائتين، ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب سنة إحدى و خمسين، و خرج جابر بن الوليد المدلجىّ بأرض الإسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين و خمسين، و اجتمع إليه كثير من بنى مدلج فبعث إليه محمد بن عبيد اللّه بن يزيد بجيش من الإسكندرية فهزمهم و ظفر بما معهم، و قوى أمره و أتاه الناس من كلّ ناحية، و ضوى إليه كل من يومى إليه بشدّة و نجدة، فكان ممن أتاه عبد اللّه المريسىّ و كان لصا خبيثا، و لحق به جريج النصرانىّ و كان من شرار النصارى. و أولى بأسهم، و لحق به أبو حرملة فرج النوبىّ و كان فاتكا فعقد له جابر على سنهور و سخا و شرقيون و بنا، فمضى أبو حرملة فى جيش عظيم، فأخرج العمال و جبى الخراج و لحق به عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن

محمد بن عبد اللّه بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط، فقوّده أبو حرملة و ضم إليه الأعراب و ولاه بنا و بوصير و سمنود، فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الأتراك فى جمادى الآخرة فقاتلهم ابن الأرقط و قتل منهم، ثم ثبتوا له فانهزم و قتل من أصحابه كثير و أسر منهم كثير، و لحق ابن الأرقط بأبى حرملة فى شرقيون فصار إلى عسكر يزيد فانهزم أبو حرملة. و قدم مزاحم بن خاقان من العراق فى جيش، فحارب أبا حرملة حتى أسر فى رمضان، و استأمن ابن الأرقط، فأخذ و أخرج إلى العراق فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و خمسين و مائتين ففرّ منهم، ثم ظفر به و حبس، ثم حمل إلى العراق فى صفر سنة خمس و خمسين و مائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون، و مات أبو حرملة فى السجن لأربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث و خمسين، و أخذ جابر بعد حروب و حمل إلى العراق فى رجب سنة أربع و خمسين، و خرج فى إمرة أرجون التركىّ رجل من العلويين يقال له بغا الأكبر، و هو أحمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسين بن علىّ بالصعيد، فحاربه أصحاب أرجون و فرّ منهم فمات، ثم خرج بغا الأصغر و هو أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن طباطبا فيما بين الإسكندرية و برقة فى جمادى الأولى سنة خمس و خمسين و مائتين، و الأمير يومئذ أحمد بن طولون، و سار فى جمع إلى الصعيد فقتل فى الحرب و أتى برأسه إلى الفسطاط فى شعبان و خرج ابن الصوفىّ العلوىّ بالصعيد و هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد اللّه بن محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب، و دخل اسنا فى ذى القعدة سنة خمس و خمسين، و نهبها و قتل أهلها، فبعث إليه ابن طولون بجيش فحاربوه فهزمهم فى ربيع الأوّل سنة ست و خمسين بهو، فبعث ابن طولون إليه بجيش آخر فالتقيا بأخميم فى ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفىّ و ترك جميع ما معه و قتلت رجالته، فأقام ابن الصوفىّ بالواح سنتين ثم خرج إلى الأشمونين فى المحرّم سنة تسع و خمسين و سار إلى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرىّ، فظفر به العمرىّ و بجميع جيشه و قتل منهم مقتلة عظيمة، و لحق ابن الصوفىّ بأسوان فقطع لأهلها ثلاثمائة ألف نخلة، فبعث إليه ابن طولون بعثا فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم و مضى إلى عيذاب، فركب البحر إلى مكة فقبض عليه بها و حمل إلى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فصار إلى المدينة و مات بها.

و فى إمارة هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيرا من أهل البيت، فوثبت إليه العامّة فضرب بالسياط يوم الجمعة فى جمادى الأولى سنة خمس و ثمانين و مائتين. و فى إمارة ذكا الأعور على مصر كتب على أبواب

الجامع العتيق ذكر الصحابة و القرآن فرضيه جمع من الناس و كرهه آخرون، فاجتمع الناس فى رمضان سنة خمس و ثلاثمائة إلى دار ذكا يتشكرونه على ما أذن لهم فيه، فوثب الجند بالناس فنهب قوم و جرح آخرون و محى ما كتب على أبواب الجامع، و نهب الناس فى المسجد و الأسواق، و أفطر الجند يومئذ و ما زال أمر الشيعة يقوى بمصر إلى أن دخلت سنة خمسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۱

و ثلاثمائة، ففى يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند و بين جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكر السلف و النوح، قتل فيها جماعة من الفريقين، و تعصب السودان على الرعية، فكانوا إذا لقوا أحدا قالوا له: من خالك؟ فإن لم يقل معاوية و إلّا بطشوا به و شلحوه، ثم كثر القول معاوية خال علىّ، و كان على باب الجامع العتيق شيخان من العامّة يناديان فى كل يوم جمعة فى وجوه الناس من الخاص و العام، معاوية خالى و خال المؤمنين، و كاتب الوحى، و رديف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كان هذا أحسن ما يقولونه، و إلّا فقد كانوا يقولون معاوية خال علىّ من هاهنا، و يشيرون إلى أن أصل الإذن، و يلقون أبا جعفر مسلما الحسينىّ فيقولون له ذلك فى وجهه، و كان بمصر أسود يصيح دائما معاوية خال علىّ، فقتل بتنيس أيام القائد جوهر.

و لما ورد الخبر بقيام بنى حسن بمكة و محاربتهم الحاج و نهبهم، خرج خلق من المصريين فى شوّال فلقوا كافور الإخشيدىّ بالميدان ظاهر مدينة مصر و ضجوا و صاحوا معاوية خال علىّ، و سألوه أن يبعث لنصرة الحاج على الطالبيين. و فى شهر رمضان سنة ثلاث و خمسين و ثلاثمائة أخذ رجل يعرف بابن أبى الليث الملطىّ ينسب إلى التشيع فضرب مائتى سوط و درة، ثم ضرب فى شوّال خمسمائة سوط و درة، و جعل فى عنقه غل و حبس و كان يتفقد فى كلّ يوم لئلا يخفف عنه و يبصق فى وجهه، فمات فى محبسه فحمل ليلا و دفن، فمضت جماعة إلى قبره لينبشوه و بلغوا إلى القبر فمنعهم جماعة من الإخشيدية و الكافورية، فأبوا و قالوا هذا قبر رافضىّ، فثارت فتنة و ضرب جماعة و نهبوا كثيرا حتى تفرّق الناس.

و فى سنة ست و خمسين كتب فى صفر على المساجد ذكر الصحابة و التفضيل، فأمر الأستاذ كافور الإخشيدىّ بإزالته، فحدّثه جماعة فى إعادة ذكر الصحابة على المساجد فقال:

ما أحدث فى أيامى ما لم يكن و ما كان فى أيام غيرى فلا أزيله، و ما كتب فى أيامى أزيله، ثم أمر من طاف و أزاله من المساجد كلها. و لما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين اللّه إلى مصر و بنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة و أذن فى جميع المساجد الجامعة و غيرها حىّ على خير العمل، و أعلن بتفضيل علىّ بن أبى طالب على غيره، و جهر بالصلاة عليه و على الحسن و الحسين و فاطمة الزهراء رضوان اللّه عليهم، فشكا إليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد فى الطريق، فأمر بها فحبست فسرّ الرعية بذلك و نادوا بذكر الصحابة و نادوا معاوية خال علىّ و خال المؤمنين، فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا إلى الجامع فنادى: أيها الناس أقلوا القول و دعوا الفضول، فإنما حبسنا العجوز صيانة لها، فلا ينطقن أحد إلّا حلّت به العقوبة الموجعة، ثم أطلق العجوز.

و فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ستين عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۲

الصيارفة فشغبوا و صاحوا معاوية خال علىّ بن أبى طالب، فهمّ جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة، لكن خشى على الجامع، و أمر الإمام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة فى الصلاة و كانوا لا يفعلون ذلك، و زيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية، و أمر فى المواريث بالردّ على ذوى الأرحام، و أن لا يرث مع البنت أخ و لا أخت و لا عم و لا جدّ و لا ابن أخ و لا ابن عم، و لا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلّا الزوج أو الزوجة و الأبوان و الجدّة، و لا يرث مع الأمّ إلّا من يرث مع الولد، و خاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر القائد جوهرا فى بنت و أخ، و أنه كان حكم قديما للبنت بالنصف و للأخ بالباقى، فقال لا أفعل فلما ألح عليه قال: يا قاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام، فأمسك أبو الطاهر و لم يراجعه بعد فى ذلك، و صار صوم شهر رمضان و الفطر على حساب لهم، فأشار الشهود على القاضى أبى الطاهر أن لا يطلب الهلال، لأنّ الصوم و الفطر على الرؤية قد زال، فانقطع طلب الهلال من مصر

و صام القاضى و غيره مع القائد جوهر كما يصوم، و أفطروا كما يفطر. و لما دخل المعز لدين اللّه إلى مصر و نزل بقصره من القاهرة المعزية، أمر فى رمضان سنة اثنتين و ستين و ثلاثمائة فكتب على سائر الأماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام. و فى صفر سنة خمس و ستين و ثلاثمائة جلس علىّ بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر و أملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، و يعرف هذا المختصر بالاقتصار، و كان جمعا عظيما و أثبت أسماء الحاضرين.

و لما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز باللّه نزار بن المعز رتب فى داره العلماء من الأدباء و الشعراء و الفقهاء و المتكلمين، و أجرى لجميعهم الأرزاق، و ألف كتابا فى الفقه و نصب له مجلسا و هو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء و جماعة من المتكلمين و أهل الجدل، و تجرى بينهم المناظرات، و كان يجلس أيضا فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه، و يحضر عنده القضاة و الفقهاء و القرّاء و النحاة و أصحاب الحديث و وجوه أهل العلم و الشهود، فإذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه، و جعل للفقهاء فى شهر رمضان الأطعمة، و ألف كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين اللّه و من ابنه العزيز باللّه، و هو مبوّب على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخارىّ، ملكته و وقفت عليه، و هو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية، و كان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه و بين يديه خواص الناس و عوامّهم و سائر الفقهاء و القضاة و الأدباء، و أفتى الناس به و درّسوا فيه بالجامع العتيق، و أجرى العزيز باللّه لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير و يلازمونه أرزاقا تكفيهم فى كلّ شهر، و أمر لهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلّى صلاة العصر، و كان لهم من مال الوزير أيضا صلة فى كلّ سنة، و عدّتهم خمسة و ثلاثون رجلا، و خلع عليهم العزيز

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۳

باللّه فى يوم عيد الفطر و حملهم على بغال.

و فى سنة اثنتين و سبعين و ثلاثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية. و فى سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة ضرب رجل بمصر و طيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه اللّه. و فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و ثمانين و ثلاثمائة جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسىّ بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المتقدّم له و لأخيه بمصر، و لأبيه بالمغرب، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا. و فى جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فقال لا أعرفه، فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه على القاهرة المعزية و مصر و الشامات و الحرمين و المغرب، و بعث إليه و هو فى السجن أربعة من الشهود و سألوه، فأقرّ بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و أنه نبىّ مرسل، و سئل عن علىّ بن أبى طالب فقال لا أعرفه، فأمر قائد القوّاد الحسين بن جوهر بإحضاره، فخلا به و رفق فى القول له فلم يرجع عن إنكاره معرفة علىّ بن أبى طالب، فطولع الحاكم بأمره فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه و صلب. و فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة قبض على ثلاثة عشر رجلا و ضربوا و شهروا على الجمال و حبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى.

و فى سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة قرىء سجل فى الجوامع بمصر و القاهرة و الجزيرة بأن تلبس النصارى و اليهود الغيار و الزنار، و غيارهم السواد غيار العاصين العباسيين، و أن يشدّوا الزنار و فيه وقوع و فحش فى حق أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و قرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المحببة كانت لمعاوية بن أبى سفيان، و منعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى اللّه عنها، و من المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل، و المنع من عجين الخبز بالرجل، و المنع من أكل الدلينس و من ذبح البقر إلّا ذا عاهة ما، عدا أيام النحر، فإنه يذبح فيها البقر فقط، و الوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمىّ، و قرىء سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى أوّل الساعة السابعة، و يؤذن لصلاة العصر فى أوّل الساعة التاسعة، و قرىء أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع و بيعه

فى الأسواق لما يؤثر عن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه من كراهية شرب الفقاع، و ضرب فى الطرقات و الأسواق بالحرس، و نودى أن لا يدخل أحد الحمام إلّا بمئزر، و لا تكشف امرأة وجهها فى طريق، و لا خلف جنازة، و لا تتبرّج، و لا يباع شىء من السمك بغير قشر، و لا يصطاده أحد من الصيادين، و قبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر فضربوا و شهروا. و كتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد و على الجامع العتيق بمصر من ظاهره و باطنه من جميع جوانبه، و على أبواب الحوانيت و الحجر و على المقابر و الصحراء سبّ السلف و لعنهم، و نقش ذلك و لوّن بالأصباغ و الذهب، و عمل ذلك على أبواب الدور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۴

و القياسر، و أكره الناس على ذلك، و تسارع الناس إلى الدخول فى الدعوة، فجلس لهم قاضى القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان، فقدموا من سائر النواحى و الضياع، فكان للرجال يوم الأحد، و للنساء يوم الأربعاء، و للأشراف و ذوى الأقدار يوم الثلاثاء، و ازدحم الناس على الدخول فى الدعوة، فمات عدّة من الرجال و النساء. و لما وصلت قافلة الحاج مرّ بهم من سبّ العامّة و بطشهم ما لا يوصف، فإنهم أرادوا حمل الحاج على سبّ السلف فأبوا، فحلّ بهم مكروه شديد. و فى جمادى الآخرة من هذه السنة فتحت دار الحكمة بالقاهرة و جلس فيها القرّاء، و حملت الكتب إليها من خزائن القصور، و دخل الناس إليها و جلس فيها القرّاء و الفقهاء و المنجمون و النحاة و أصحاب اللغة و الأطباء، و حصل فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا، و أجرى على من فيها من الخدّام و الفقهاء الأرزاق السنية، و جعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر و الأقلام و المحابر و الورق. و فى يوم عاشوراء من سنة ست و تسعين و ثلاثمائة كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة، و أعلن بسبّ السلف فيه، فقبض على رجل نودى عليه هذا جزاء من سبّ عائشة و زوجها صلّى اللّه عليه و سلّم، و معه من الرعاع ما لا يقع عليه حصروهم يسبون السلف، فلما تمّ النداء عليه ضرب عنقه، و استهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الأربعاء، فخرج أمر الحاكم بأمر اللّه أن يؤرّخ بيوم الثلاثاء، و فى سنة سبع و تسعين و ثلاثمائة قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع و من السماكين و من الطباخين و كبست الحمامات فأخذ عدّة ممن وجد بغير مئزر، فضرب الجميع لمخالفتهم الأمر و شهروا. و فى تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بأمر اللّه بمحو ما كتب على المساجد و غيرها من سبّ السلف، و طاف متولى الشرطة و ألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك، ثم قرىء سجل فى ربيع الآخر سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة بأن لا يحمل شىء من النبيذ و المزر، و لا يتظاهر به و لا بشىء من الفقاع و الدلينس و السمك الذى لا قشر له و الترمس العفن، و قرىء سجل فى رمضان على سائر المنابر بأنه يصوم الصائمون على حسابهم و يفطرون، و لا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون و مفطرون، صلاة الخمس الدين، فبما جاءهم فيها يصلون، و صلاة الضحى و صلاة التراويح لا مانع لهم منها.

و لا هم عنها يدفعون، يخمّس فى التكبير على الجنائز المخمسون، و لا يمنع من التربيع عليها المربّعون، يؤذن بحىّ على خير العمل المؤذنون، و لا يؤذى من بها لا يؤذنون، و لا يسب أحد من السلف، و لا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، و الحالف منهم بما حلف، لكلّ مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده، و إلى اللّه ربه معاده عنده كتابه و عليه حسابه.

و فى صفر سنة أربعمائة شهر جماعة بعد ما ضربوا بسبب بيع الفقاع و الملوخيا و الدلينس و الترمس.

و فى تاسع عشر شهر شوّال أمر الحاكم بأمر اللّه برفع ما كان يؤخذ من الخمس و الزكاة و الفطرة و النجوى، و أبطل قراءة مجالس الحكمة فى القصر، و أمر بردّ التثويب فى الأذان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۵

و أذّن للناس فى صلاة الضحى و صلاة التراويح، و أمر المؤذنين بأسرهم فى الأذان بأن لا يقولوا حىّ على خير العمل، و أن يقولوا فى الأذان للفجر الصلاة خير من النوم، ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعمائة بإعادة قول حىّ على خير العمل فى الأذان، و قطع التثويب و ترك قولهم الصلاة خير من النوم، ثم أمر فى ثانى عشرى ربيع الآخر سنة ثلاث و أربعمائة بإعادة قول حىّ على خير العمل فى الأذان، و قطع التثويب و ترك قولهم الصلاة خير من النوم، و منع من صلاة الضحى، و صلاة التراويح، و فتح باب الدعوة، و

أعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت، و كان بين المنع من ذلك و الأذن فيه خمسة أشهر، و ضرب في جمادى من هذه السنة جماعة و شهروا بسبب بيع الملوخيا و السمك الذى لا قشر له و شرب المسكرات، و تتبع السكارى فضيق عليهم.

و في يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة إحدى و أربعمائة وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقيّ إلى سائر الشهود و الأمناء بخروج الأمر المعظم، بأن يكون الصوم يوم الجمعة و العيد يوم الأحد. و في شعبان سنة اثنتين و أربعمائة قرىء سجل يشدّد فيه النكير على بيع الملوخيا و الفقاع و السمك الذى لا قشر له، و منع النساء من الاجتماع في المآتم و من اتباع الجنائز، و أحرق الحاكم بأمر اللّه في هذا الشهر الزبيب الذى وجد في مخازن التجار، و أحرق ما وجد من الشطرنج، و جمع صيادى السمك و حلّفهم بالأيمان المؤكدة أن لا يصطادوا سمكا بغير قشر، و من فعل ذلك ضربت عنقه، و أحرق في خمسة عشر يوما ألفين و ثمانمائة و أربعين قطعة زبيب بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار، و منع من بيع العنب إلّا أربعة أرطال فما دونها، و منع من اعتصاره، و طرح عنبا كثيرا في الطرقات و أمر بدوسه، فامتنع الناس من التظاهر بشيء من العنب في الأسواق، و اشتدّ الأمر فيه، و غرق منه ما حمل في النيل، و أحصى ما بالجيزة من الكروم، فقطف ما عليها من العنب و طرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه، و فعل مثل ذلك في جهات كثيرة، و ختم على مخازن العسل، و غرّق منه في أربعة أيام خمسة آلاف جرّة و إحدى و خمسين جرّة فيها العسل، و غرق من عسل النحل قدر إحدى و خمسين زيرا. و في جمادى الآخرة سنة ثلاث و أربعمائة، اشتدّ الإنكار على الناس بسبب بيع الفقاع و الزبيب و السمك الذى لا قشر له، و قبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم و سجنت عدّة منهم و أطلقوا. و في شوّال اعتقل رجل ثم شهر و نودى عليه هذا جزاء من سبّ أبا بكر و عمر و يثير الفتن، فاجتمع خلق كثير بباب القصر فاستغاثوا، لا طاقة لنا بمخالفة المصريين و لا بمخالفة الحشوية من العوام، و لا صبر لنا على ما جرى، و كتبوا قصصا فصرفوا و وعدوا بالمجيء في غد، فبات كثير منهم بباب القصر، و اجتمعوا من الغد فصاحوا و ضجوا فخرج إليهم قائد القوّاد غين، فنهاهم و أمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أن يمضوا إلى معايشهم، فانصرفوا إلى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقيّ و شكوا إليه، فتبرّم من ذلك فمضوا و فيهم من يسب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۶

السلف و يعرّض بالناس، فقرىء سجل في القصر بالترحم على السلف من الصحابة، و النهى عن الخوض في ذلك، و ركب مرّة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف فأنكره، و ما زال واقفا حتى قلع و ضرب بالحرس في سائر طرقات مصر و القاهرة، و قرىء سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر و الحوانيت و الدور و الخانات و الأرباع المشتملة على ذكر الصحابة و السلف الصالح، رحمهم اللّه، بالسب و اللعن، و قلع ذلك و كسره و تعفية أثره، و محو ما على الحيطان من هذه الكتابة، و إزالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر في جدار و لا نقش في لوح، و حذّر فيه من المخالفة، و هدّد بالعقوبة، ثم انتقض ذلك كله و عاد الأمر إلى ما كان عليه إلى أن قتل الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبو عليّ منصور بن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معدّ.

و ثار أبو عليّ أحمد الملقب كتيفات ابن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، و استولى على الوزارة في شنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سجن الحافظ لدين اللّه أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر بالله، و أعلن بمذهب الإمامية و الدعوة للإمام المنتظر، و ضرب دراهم نقشها: اللّه الصمد الإمام محمد. و رتب في سنة خمس و عشرين أربعة قضاة، اثنان أحدهما إماميّ و الآخر إسماعيليّ، و اثنان أحدهما مالكيّ و الآخر شافعيّ، فحكم كل منهما بمذهبه و ورّث على مقتضاه، و أسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق و أبطل من الأذان حيّ على خير العمل، و قولهم محمد و عليّ خير البشر، فلما قتل في المحرّم سنة ست و عشرين عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية.

و ما برح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق، عليها أسد الدين شيركوه، و ولى وزارة مصر للخليفة العاضد لدين اللّه أبى محمد عبد اللّه بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين اللّه، و مات، فقام في الوزارة بعده ابن أخيه السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فی جمادی الآخرة سنة أربع و ستين و خمسمائة، و شرع فی تغيير الدولة و إزالتها، و حجر على العاضد و أوقع بأمراء الدولة و عساكرها، و أنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية، و مدرسة للفقهاء المالكية، و صرف قضاة مصر الشيعة كلهم، و فوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانیّ الشافعیّ، فلم يستنب عنه فی إقليم مصر إلّا من كان شافعیّ المذهب، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك و الشافعیّ، و اختفى مذهب الشيعة و الإسماعيلية و الإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها، و كذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكی بن آق سنقر حنيفا فيه تعصب، فنشر مذهب أبی حنيفة رحمه اللّه ببلاد الشام، و منه كثرت الحنفية بمصر، و قدم إليها أيضا عدّة من بلاد الشرق، و بنی لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة، و ما زال مذهبهم ينتشر و يقوى و فقهاؤهم تكثر بمصر و الشام من حينئذ.

و أما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبی الحسن علیّ بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۷

إسماعيل الأشعریّ، تلميذ أبی علی الجبائیّ، و شرط ذلك فی أوقافه التی بديار مصر، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعیّ من القرافة، و المدرسة الناصرية التی عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر، و المدرسة المعروفة بالقمحية بمصر، و خانكاه سعيد السعداء بالقاهرة. فاستمرّ الحال على عقيدة الأشعریّ بديار مصر و بلاد الشام و أرض الحجاز و اليمن و بلاد المغرب أيضا، لإدخال محمد بن تومرت رأی الأشعریّ إليها، حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد، بحيث أن من خالفه ضرب عنقه، و الأمر على ذلك إلی اليوم، و لم يكن فی الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبی حنيفة و أحمد بن حنبل، ثم اشتهر مذهب أبی حنيفة و أحمد بن حنبل فی آخرها.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداریّ، ولی بمصر و القاهرة أربعة قضاة، و هم شافعیّ و مالكیّ و حنفیّ و حنبلیّ. فاستمرّ ذلك من سنة خمس و ستين و ستمائة، حتى لم يبق فی مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، و عقيدة الأشعریّ، و عملت لأهلها المدارس و الخوانك و الزوايا و الربط فی سائر ممالك الإسلام، و عودی من تمذهب بغيرها، و أنكر عليه، و لم يولّ قاض و لا قبلت شهادة أحد و لا قدّم للخطابة و الإمامة و التدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب، و أفتى فقهاء هذه الأمصار فی طول هذه المدّة بوجوب اتباع هذه المذاهب و تحريم ما عداها، و العمل على هذا إلی اليوم، و إذ قد بينا الحال فی سبب اختلاف الأمّة منذ توفی رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلی أن استقرّ العمل على مذهب مالك و الشافعیّ و أبی حنيفة و أحمد بن حنبل، رحمة اللّه عليهم، فلنذكر اختلاف عقائد أهل الإسلام منذ كان إلی أن التزم الناس عقيدة الشيخ أبی الحسن الأشعریّ رحمه اللّه و رضی عنه.

ذكر فرق الخليقة و اختلاف عقائدها و تباينها

اعلم أن الذين تكلموا فی أصول الديانات قسمان، هما من خالف ملة الإسلام، و من أقرّ بها. فأما المخالفون لملة الإسلام فهم عشر طوائف: الأولی الدهرية، و الثانية أصحاب العناصر. و الثالثة الثنوية: و هم المجوس، و يقولون بأصلين هما النور و الظلمة، و يزعمون أن النور هو يزدان، و الظلمة هو أهرمن، و يقرّون بنبوّة إبراهيم عليه السّلام، و هم ثمان فرق: الكيومرتية أصحاب كيومرت الذی يقال أنه آدم. و الزروانية أصحاب زروان الكبير، و الزرادشتية أصحاب زراداشت بن بيورشت الحكيم، و الثنوية أصحاب الاثنين الأزليين.

و المانوية أصحاب مانی الحكيم. و المزركية أصحاب مزرك الخارجی. و البيصانية أصحاب بيصان القائل بالأصلين القديمين. و الفرقونية القائلون بالأصلين. و أنّ الشرّ خرج على أبيه و أنه تولد من فكرة فكرها فی نفسه، فلما خرج على أبيه الذی هو الإله بزعمهم عجز عنه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۸

ثم وقع الصلح بينهما على يد الندمات و هم الملائكة، و منهم من يقول بالتناسخ، و منهم من ينكر الشرائع و الأنباء، و يحكمون العقول، و يزعمون أن النفوس العلوية تفيض عليهم الفضائل.

و الطائفة الرابعة الطبائعيون.

و الطائفة الخامسة الصابئة القائلون بالهياكل و الأرباب السماوية و الأصنام الأرضية، و إنكار النبوّات، و هم أصناف و بينهم و بين الحنفاء مناظرات و حروب مهلكة، و تولدت من مذاهبهم الحكمة الملطية، و منهم أصحاب الروحانيات، و هم عباد الكواكب و أصنامها التى عملت على تمثالها، و الحنفاء هم القائلون بأن الروحانيات منها ما وجودها بالقوّة، و منها ما وجودها بالفعل، فما هو بالقوّة يحتاج إلى من يوجده بالفعل. و يقرّون بنبوّة إبراهيم، و أنه منهم. و هم طوائف: الكاظمة أصحاب كاظم بن تارح، و من قوله أنّ الحق فى الجمع بين شريعة إدريس و شريعة نوح و شريعة إبراهيم عليهم السّلام، و منهم البيدانية: أصحاب بيدان الأصغر، و من قوله اعتقاد نبوّة من يفهم عالم الروح، و أن النبوّة من أسرار الإلهية. و منهم القنطارية: أصحاب قنطار بن أرفخشد، و يقرّ بنبوّة نوح. و من فرق الصابئة أصحاب الهياكل: و يرون أن الشمس إله كلّ إله. و الحرّانية: و من قولهم المعبود واحد بالذات و كثير بالأشخاص فى رأى العين، و هى المدبرات السبع من الكواكب و الأرضية الجزئية و العالمة الفاضلة.

و الطائفة السادسة اليهود. و السابعة النصارى.

و الثامنة أهل الهند القائلون بعبادة الأصنام، و يزعمون أنها موضوعة قبل آدم، و لهم حكم عقلية و أحكام وضعها الشلم، أعظم حكامهم، و المهندم قبله، و البراهمة قبل ذلک.

فالبراهمة أصحاب برهام أوّل من أنكر نبوّة البشر، و منهم البردة زهاد عباد رجال الرماد الذى يهجرون اللذات الطبيعية، و أصحاب الرياضة التامّة، و أصحاب التناسخ، و هم أقسام أصحاب الروحانية و البهادرية و الناسوتية و الباهرية و الكابلية، أهل الجبل. و منهم الطبسيون أصحاب الرياضة الفاعلة، حتّى أن منهم من يجاهد نفسه حتى يسلطها على جسده، فيصعد فى الهواء على قدر قوّته، و فى اليهود عباد النار و عباد الشمس و القمر و النجوم و عباد الأوثان.

و الطائفة التاسعة الزنادقة و هم طوائف منهم القرامطة.

و العاشرة الفلاسفة أصحاب الفلسفة، و كلمة فيلسوف معناها محب الحكمة، فإن فيلو محب، و سوفا حكمة، و الحكمة قولية و فعلية، و علم الحكماء انحصر فى أربعة أنواع:

الطبيعىّ و المدنىّ و الرياضىّ و الإلهىّ. و المجموع ينصرف إلى علم ما، و علم كيف، و علم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۶۹

كم، فالعلم الذى يطلب فيه ماهيات الأشياء هو الإلهىّ، و الذى يطلب فيه كيفيات الأشياء هو الطبيعىّ، و الذى يطلب فيه كميات الأشياء هو الرياضىّ. و وضع بعد ذلک أرسطو صنعة المنطق، و كانت بالقوّة فى كلام القدماء، فأظهرها و رتبها. و اسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند، و هم الطبسيون و البراهمة، و لهم رياضة شديدة، و ينكرون النبوّة أصلا، و يطلق أيضا على العرب بوجه أنقص، و حكمتهم ترجع إلى أفكارهم و إلى ملاحظة طبيعية، و يقرّون بالنبوّات، و هم أضعف الناس فى العلوم، و من الفلاسفة حكماء الروم، و هم طبقات، فمنهم أساطين الحكمة، و هم أقدمهم، و منهم المشاؤون و أصحاب الرواق، و أصحاب أرسطو، و فلاسفة الإسلام. فمن فلاسفة الروم الحكماء السبعة، أساطين الحكمة، أهل ملطية و قونية و هم: تاليس الملطىّ، و انكساغورس، و انكسمالس، و ابنادقيس، و فيثاغورس، و سقراط، و أفلاطون. و دون هؤلاء فلوطس، و بقراط، و ديمقراطيس، و أسعر و النساس.

و منهم حكماء الأصول من القدماء، و لهم القول بالسيمياء، و لهم أسرار الخواص و الحيل و الكيمياء و الأسماء الفعالة و الحروف، و لهم علوم توافق علوم الهند، و علوم اليونانيين، و ليس من موضوع كتابنا هذا ذكر تراجمهم، فلذلک تركناها.

القسم الثانى فرق أهل الإسلام. الذى عناهم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله: «ستفترق أمّتى ثلاثا و سبعين فرقة، اثنتان و سبعون

هالكة، و واحدة ناجية» و هذا الحديث أخرجه أبو داود و الترمذيّ و ابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «افترقت اليهود على إحدى و سبعين أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفرّقت النصارى على إحدى و سبعين أو اثنتين و سبعين فرقة، و تفترق أمّتى على ثلاث و سبعين فرقة» قال البيهقىّ حسن صحيح، و أخرجه الحاكم و ابن حبان فى صحيحه بنحوه، فأخرجه فى المستدرك من طريق الفضل بن موسى، عن محمد بن عمر، عن أبى سلمة عن أبى هريرة به، و قال هذا حديث كثير فى الأصول، و قد روى عن سعد بن أبى وقاص، و عبد اللّه بن عمر، و عوف بن مالك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بمثله، و قد احتج مسلم بمحمد بن عمر، و عن أبى سلمة عن أبى هريرة، و اتفقا جميعا على الاحتجاج بالفضل بن موسى و هو ثقة.

و اعلم أن فرق المسلمين خمسة: أهل السنة، و المرجئة، و المعتزلة، و الشيعة، و الخوارج. و قد افترقت كلّ فرقة منها على فرق، فأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا و نبذ يسير من الاعتقادات، و بقية الفرق الأربع منها من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، و منهم من يخالفهم الخلاف القريب، فأقرب فرق المرجئة من قال: الإيمان إنما هو التصديق بالقلب و اللسان معا فقط، و أن الأعمال إنما هى فرائض الإيمان و شرائعه فقط، و أبعدهم أصحاب جهم بن صفوان و محمد بن كرام. و أقرب فرق المعتزلة أصحاب الحسين النجار و بشر بن غياث المريسىّ، و أبعدهم أصحاب أبى الهذيل العلاف. و أقرب مذاهب الشيعة أصحاب الحسن بن صالح بن حىّ، و أبعدهم الإمامية. و أما الغالية فليسوا بمسلمين و لكنهم أهل ردّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۰

و شرك. و أقرب فرق الخوارج أصحاب عبد اللّه بن يزيد الإباضىّ، و أبعدهم الأزارقة. و أما البطيخية و من جحد شيئا من القرآن أو فارق الإجماع من العجاردة و غيرهم فكفار بإجماع الأمّة، و قد انحصرت الفرق الهالكة فى عشر طوائف:

الفرقة الأولى المعتزلة: الغلاة فى نفى الصفات الإلهية، القائلون بالعدل و التوحيد، و أن المعارف كلها عقلية، حصولا و وجوبا، قبل الشرع و بعده، و أكثرهم على أن الإمامة بالاختيار، و هم عشرون فرقة: إحداها الواصلية: أصحاب واصل بن عطاء أبى حذيفة الغزال، مولى بنى ضبة، و قيل مولى بنى مخزوم. ولد بالمدينة سنة ثمانين، و نشأ بالبصرة، و لقى أبا هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و لازم مجلس الحسن بن الحسين البصرى، و أكثر من الجلوس بسوق الغزل ليعرف النساء المتعففات فيصرف إليهنّ صدقته، فقيل له الغزال من أجل ذلك، و كان طويل العنق جدّا، حتى عابه عمرو بن عبيد بذلك فقال: من هذه عنقه لا خير عنده. فلما برع واصل، قال عمر: و ربما أخطأت الفراسة. و كان يلثغ بالراء، و مع ذلك كان فصيحا لسنا مقتدرا على الكلام، قد أخذ بجوامعه، فلذلك أمكنه أن أسقط حرف الراء من كلامه، و اجتناب الحروف صعب جدّا، لا سيما مثل الراء لكثرة استعمالها، و له رسالة طويلة لم يذكر فيها حرف الراء، أحد بدائع الكلام، و كان لكثرة صمته يظنّ به الخرس، توفى سنة إحدى و ثلاثين و مائة، و له كتاب المنزلة بين المنزلتين، و كتاب الفتيا، و كتاب التوحيد. و عنه أخذ جماعة، و أخباره كثيرة، و يقال لهم أيضا الحسنية، نسبة إلى الحسن البصرىّ. و أخذ واصل العلم عن أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و خالفه فى الإمامة، و اعتزاله يدور على أربع قواعد هى: نفى الصفات، و القول بالقدر، و القول بمنزلة بين المنزلتين، و أوجب الخلود فى النار على من ارتكب كبيرة. فلما بلغ الحسن البصرىّ عنه هذا قال: هؤلاء اعتزلوا، فسموا من حينئذ المعتزلة. و قيل أن تسميتهم بذلك حدثت بعد الحسن، و ذلك أن عمرو بن عبيد لما مات الحسن و جلس قتادة مجلسه اعتزله فى نفر معه، فسماهم قتادة المعتزلة. القاعدة الرابعة القول بأن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل و صفين مخطئة لا بعينها، و كان فى خلافة هشام بن عبد الملك.

و الثانية العمروية: أصحاب عمرو، و من قوله ترك قول علىّ بن أبى طالب و طلحة و الزبير رضى اللّه عنهم. و قال ابن منبه: اعتزل عمرو بن عبيد و أصحاب له الحسن، فسموا المعتزلة.

و الثالثة الهذلية: اتباع أبى الهذيل محمد بن الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، أخذ عن عثمان بن خالد الطويل، عن واصل بن عطاء، و نظر فى الفلسفة و وافقهم فى كثير و قال:

جميع الطاعات من الفرائض و النوافل إيمان، و انفرد بعشر مسائل و هى: أن علم اللّه و قدرته و حياته هى ذاته، و أثبت إرادات لا محل لها يكون البارى مريدا لها. و قال: بعض كلام اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۱

لا فى محل، و هو قوله كن. و بعضه فى محل، كالأمر و النهى. و قال فى أمور الآخرة.

كمذهب الجبرية. و قال تنتهى مقدورات اللّه حتى لا يقدر على إحداث شىء و لا على إفناء شىء و لا إحياء شىء و لا إماتة شىء، و تنقطع حركات أهل الجنة و النار و يصيرون إلى سكون دائم. و قال: الاستطاعة عرض من الأعراض نحو السلامة، و الصحة. و فرّق بين أعمال القلوب و أعمال الجوارح و قال: تجب معرفة اللّه قبل ورود السمع. و أن المرء المقتول إن لم يقتل مات فى ذلك الوقت، و لا يزاد العلم و لا ينقص بخلاف الرزق. و قال: إرادة اللّه عين المراد، و الحجة لا تقوم فيما غاب إلّا بخبر عشرين.

و الرابعة النظامية: اتباع إبراهيم بن سيار النظّام، بتشديد الظاء المعجمة، زعيم المعتزلة و أحد السفهاء، انفرد بعدّة مسائل و هى: قوله أنّ اللّه تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور و المعاصى، و أنها غير مقدورة للّه. و قال: ليس للّه إرادة، و أفعال العباد كلها حركات، و النفس و الروح هو الإنسان، و البدن إنما هو آلة فقط، و أن كل ما جاوز القدرة من الفعل فهو من اللّه، و هو فعله، و أنكر الجوهر الفرد، و أحدث القول بالطفرة، و قال: الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت، و زعم أنّ اللّه خلق الموجودات دفعة على ما هى عليه، و أن الإعجاز فى القرآن من حيث الإخبار عن الغيب فقط، و أنكر أن يكون الإجماع حجة، و طعن فى الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم. و قال قبحه اللّه: أبو هريرة أكذب الناس، و زعم أنه ضرب فاطمة ابنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و منع ميراث العترة، و أوجب معرفة اللّه بالفكر قبل ورود الشرع، و حرّم نكاح الموالى العربيات. و قال: لا تجوز صلاة التراويح، و نهى عن ميقات الحج، و كذب بانشقاق القمر، و أحال رؤية الجنّ، و زعم أن من سرق مائتى دينار فما دونها لم يفسق، و أن الطلاق بالكتابة لا يقع و إن كان بنيّة، و أنّ من نام مضطجعا لا ينتقض و ضوءه ما لم يخرج منه الحدث. و قال: لا يلزم قضاء الصلوات إذا فاتت.

و الخامسة الإسوارية: اتباع أبى علىّ عمرو بن قائد الإسوارىّ، القائل أن اللّه تعالى لا يقدر أن يفعل ما علم أنه لا يفعله. و السادسة الإسكافية: اتباع أبى جعفر محمد بن عبد اللّه الإسكافىّ، و من قوله أنّ اللّه تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء، و يقدر على ظلم الأطفال و المجانين، و أنه لا يقال أنّ اللّه خالق المعازف و الطنابير و إن كان هو الذى خلق أجسامها.

و السابعة الجعفرية: اتباع جعفر بن حرب بن ميسرة، و من قوله أنّ فى فسّاق هذه الأمّة من هو شرّ من اليهود و النصارى و المجوس، و أسقط الحدّ عن شارب الخمر، و زعم أن الصغائر من الذنوب توجب تخليد فاعلها فى النار، و أنّ رجلا لو بعث رسولا إلى امرأة ليخطبها فجاءته فوطئها من غير عقد لم يكن عليه حدّ، و يكون وطؤه إياها طلاقا لها.

و الثامنة البشرية: اتباع بشر بن المعتمر، و من قوله الطعم و اللون و الرائحة و الإدراكات كلها من السمع، يجوز أن تحصل متولدة، و صرف الاستطاعة إلى سلامة البنية و الجوارح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۲

و قال: لو عذب اللّه الطفل الصغير لكان ظالما، و هو يقدر على ذلك. و قال: إرادة اللّه من جملة أفعال، ثم هى تنقسم إلى صفة فعل و صفة ذات. و قال: باللطف المخزون، و أن اللّه لم يخلقه لأنّ ذلك يوجب عليه الثواب، و أن التوبة الأولى متوقفة على الثانية، و أنها لا تنفع إلّا بعدم الوقوع فى الذى وقع فيه، فإن وقع لم تنفعه التوبة الأولى.

و التاسعة المزدارية: أتباع أبى موسى عيسى بن صبيح المعروف بالمزدار، تلميذ بشر بن المعتمر، و كان زاهدا، و قيل له راهب المعتزلة، و انفرد بمسائل منها. قوله أنّ اللّه قادر على أن يظلم و يكذب، و لا يطعن ذلك فى الربوبية، و جوّز وقوع الفعل الواحد من فاعلين على سبيل التولد، و زعم أن القرآن مما يقدر عليه، و أن بلاغته و فصاحته لا تعجز الناس بل يقدرون على الإتيان بمثلها و أحسن منها، و هو أصل المعتزلة فى القول بخلق القرآن. و قال: من أجاز رؤية اللّه بالإبصار بلا كيف فهو كافر، و الشاكّ فى كفره

كافر أيضا.

و العاشرة الهشامية: أتباع هشام بن عمرو الفوطیّ، الذی يبالغ فی القدر و لا ينسب إلی اللّه فعلا من الأفعال، حتی أنه أنكر أن يكون اللّه هو الذی ألف بين قلوب المؤمنين، و أنه يحب الإيمان للمؤمنين، و أنه أضل الكافرين. و عاند ما فی القرآن من ذلک و قال: لا تنعقد الإمامية فی زمن الفتنة و اختلاف الناس، و أن الجنة و النار غير مخلوقتين. و منع أن يقال حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و قال لأن الوكيل دون الموكل، و قال: لو أسبغ أحد الوضوء، و دخل فيه الصلاة بنيّة القربة للّه تعالی، و العزم علی إتمامها، و ركع و سجد مخلصا فی ذلک كله، إلّا أنّ اللّه علم أنه يقطعها فی آخرها، فإن أوّل صلاته معصية. و منع أن يكون البحر انفلق لموسی، و أن عصاه انقلبت حية، و أن عيسی أحيی الموتی، بإذن اللّه، و أن القمر انشق للنبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم، و أنكر كثيرا من الأمور التی تواترت، كحصر عثمان بن عفان رضی اللّه عنه، و قتله بالغلبة. و قال: إنما جاءته شرذمة قليلة تشكو عمّاله و دخلوا عليه و قتلوه، فلا يدری قاتله. و قال: إنّ طلحة و الزبير و علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنهم، ما جاؤوا للقتال فی حرب الجمل، و إنما برزوا للمشاورة، و تقاتل أتباع الفريقين فی ناحية أخری، و أن الأمّة إذا اجتمعت كلها و تركت الظلم و الفساد احتاجت إلی إمام يسوسها، فأما إذا عصت و فجرت و قتلت و اليها فلا تنعقد الإمامة لأحد، و بنی علی ذلک أنّ إمامة علیّ رضی اللّه عنه لم تنعقد، لأنها كانت فی حال الفتنة بعد قتل عثمان، و هو أيضا مذهب الأصم و واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد، و أنكر افتضاض الأبكار فی الجنة، و أنكر أن الشيطان يدخل فی الإنسان و إنما يوسوس له من خارج، و اللّه يوصل وسوسته إلی قلب ابن آدم. و قال: لا يقال خلق اللّه الكافر، لأنه اسم العبد و الكفر جميعا، و أنكر أن يكون فی أسماء اللّه الضارّ النافع.

و الحادية عشر الحائطية: اتباع أحمد بن حائط أحد أصحاب إبراهيم بن سيار النظّام و له بدع شنيعة منها: أنّ للخلق إلهين، أحدهما خالق و هو الإله القديم، و الآخر مخلوق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۳

و هو عيسی ابن مريم، و زعم أن المسيح ابن اللّه، و أنه هو الذی يحاسب الخلق فی الآخرة، و أنه هو المعنیّ بقول اللّه تعالی فی القرآن: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ [البقرة/ ۲۱۰] و زعم فی قول النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم: «إن اللّه خلق آدم علی صورته» أن معناه خلقه إياه علی صورة نفسه. و أن معنی قوله عليه السلام: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» إنما أراد به عيسی، و زعم أن فی الدواب و الطيور و الحشرات حتی البق و البعوض و الذباب أنبياء لقول اللّه سبحانه: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ [فاطر/ ۲۴] و قوله تعالی: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ [الانعام/ ۳۸] و لقول رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم: «لو لا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها» و ذهب مع ذلک إلی القول بالتناسخ، و زعم أن اللّه ابتدأ الخلق فی الجنة، و إنما خرج من خرج منها بالمعصية، و طعن فی النبیّ صلّی اللّه عليه و سلّم من أجل تعدّد نكاحه و قال: إنّ أبا ذر الغفاریّ أنسک و أزهد منه قبحه اللّه، و زعم أنّ كل من نال خيرا فی الدنيا إنما هو بعمل كان منه، و من ناله مرض أو آفة فبذنب كان منه، و زعم أن روح اللّه تناسخت فی الأئمة.

و الثانية عشر الحمارية: أتباع قوم من معتزلة عسكر مكرم، و من مذهبهم أن الممسوخ إنسان كافر معتقد الكفر، و أن النظر أوجب المعرفة، و هو لا فاعل له، و كذلک الجماع أوجب الولد، فشکّ فی خالق الولد، و أنّ الإنسان يخلق أنواعا من الحيوانات بطريق التعفين، و زعموا أنه يجوز أن يقدر اللّه العبد علی خلق الحياة و القدرة.

و الثالثة عشر المعمرية: أتباع معمر بن عباد السلمیّ، و هو أعظم القدرية غلوّا، و بالغ فی رفع الصفات و القدرة بالجملة، و انفرد بمسائل منها: أنّ الإنسان يدبر الجسد و ليس بحال فيه، و الإنسان عنده ليس بطويل و لا عريض، و لا ذی لون و تأليف و حركة، و لا حال و لا متمكن، و أنّ الإنسان شیء غير هذا الجسد، و هو حیّ عالم قادر مختار، و ليس هو بمتحرّک و لا ساكن. و لا متلوّن و لا يری و لا يلمس و لا يحلّ موضعا و لا يحويه مكان، فوصف الإنسان بوصف الإلهية عنده، فإن مدبر العالم موصوف عنده كذلک، و

زعم أن الإنسان منعم فى الحياة و موزر فى النار، و ليس هو فى الجنة و لا- فى النار حالا- و لا- متمكنا. و قال: أنّ اللّه لم يخلق غير الأجسام، و الأعراض تابعة لها متولدة منها، و أنّ الأعراض لا تتناهى فى كل نوع، و أنّ الإرادة من اللّه للشىء غير اللّه و غير خلقه، و أنّ اللّه ليس بقديم، لأنّ ذلک أخذ من قدم يقدم فهو قديم.

و الرابعة عشر الثمانية: أتباع ثمامة بن أشرس النميرىّ، و جمع بين النقائض و قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۴

العلوم كلها ضرورية، فكلّ من لم يضطرّ إلى معرفة اللّه فليس بمأمور بها، و هو كالبهائم و نحوها، و زعم أن اليهود و النصارى و الزنادقة يصيرون يوم القيامة ترابا كالبهائم لا ثواب لهم و لا عقاب عليهم البتة، لأنهم غير مأمورين، إذ هم غير مضطرّين إلى معرفة اللّه تعالى، و زعم أنّ الأفعال كلها متولدة لا فاعل لها، و أنّ الاستطاعة هى السلامة و صحة الجوارح، و أن العقل هو الذى يحسن و يقبح، تجب معرفة اللّه قبل ورود الشرع و أن لا فعل للإنسان إلّا الإرادة، و ما عداها فهو حدث.

و الخامسة عشر الجاحظية: أتباع أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، و له مسائل تميز بها عن أصحابه منها: أن المعارف كلها ضرورية، و ليس شىء من ذلک من أفعال العباد، و إنما هى طبيعية، و ليس للعباد كسب سوى الإرادة، و أنّ العباد لا يخلدون فى النار بل يصيرون من طبيعتها، و أنّ اللّه لا يدخل أحدا النار، و إنما النار تجذب أهلها بنفسها و طبيعتها، و أن القرآن المنزل من قبيل الأجساد، و يمكن أن يصير مرّة رجلا و مرّة حيوانا، و أن اللّه لا يريد المعاصى، و أنه لا يرى، و أن اللّه يريد بمعنى أنه لا يغلط، و لا يصح فى حقه السهو فقط، و أنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام.

و السادسة عشر الخياطية: أصحاب أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط شيخ أبى القاسم الكعبىّ من معتزلة بغداد، زعم أن المعدوم شىء، و أنه فى العدم جسم إن كان فى حدوثه جسما، و عرض إن كان فى حدوثه عرضا.

و السابعة عشر الكعبية: أتباع أبى القاسم عبد اللّه بن أحمد بن محمود البلخىّ المعروف بالكعبىّ من معتزلة بغداد، انفرد بأشياء منها: أن إرادة اللّه ليست صفة قائمة بذاته، و لا هو مدبر لذاته، و لا إرادته حادثة فى محل، و إنما يرجع ذلک إلى العلم فقط، و السمع و البصر يرجع إلى ذلک أيضا، و أنكر الرؤية و قال: إذا قلنا أنه يرى المرئيات فإنما ذلک يرجع إلى علمه بها و تمييزها قبل أن يوجد.

و الثامنة عشر الجبائية: أتباع أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، من معتزلة البصرة، تفرّد بمقالات منها. أنّ اللّه تعالى يسمى مطيعا للعبد إذا فعل ما أراد العبد منه، و أن اللّه محبل للنساء بخلق الولد فيهنّ، و أن كلام اللّه عرض يوجد فى أمكنة كثيرة، و فى مكان بعد مكان من غير أن يعدم من مكانه الأوّل، ثم يحدث فى الثانى و كان يقف فى فضل علىّ على أبى بكر، و فضل أبى بكر على علىّ، و مع ذلک يقول إنّ أبا بكر خير من عمر و عثمان، و لا يقول أن عليا خير من عمر و عثمان.

و التاسعة عشرة البهشمية: أتباع أبى هاشم عبد السلام بن أبى علىّ الجبائى، انفرد ببدع فى مقالاته، منها القول باستحقاق الذم من غير ذنب، و زعم أن القادر منا يجوز أن يخلو عن الفعل و الترک، و أن القادر المأمور المنهىّ إذا لم يفعل فعلا و لا ترک يكون عاصيا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۵

مستحق العقاب و الذم، لا- على الفعل لأنه لم يفعل ما أمر به، و أن اللّه يعذب الكافرين و العصاة لا على فعل مكتسب، و لا على محدث منه. و قال: التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحا، و إن كان حسنا، و أنّ التوبة لا تصح مع الإصرار على منع حسنة واجبة عليه، و أن توبة الزانى بعد ضعفه عن الجماع لا تصح، و زعم أن الطهارة غير واجبة، و إنما أمر العبد بالصلاة فى حال كونه متطهرا و أن الطهارة تجزىء بالماء المغصوب، و لا تجزىء الصلاة فى الأرض المغصوبة، و زعم أن الزنج و الترک و الهنود قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، و قال أبو علىّ و ابنه أبو هاشم: الإيمان هو الطاعات المفروضة.

و الفرقة العشرون من المعتزلة الشيطانية: أتباع محمد بن نعمان المعروف بشيطان الطاق، و هو من الروافض، شارک كلّا من المعتزلة و الروافض فى بدعهم، و قلما يوجد معتزلىّ إلّا و هو رافضىّ، إلّا قليلا منهم، انفرد بطامّة، و هى أنّ اللّه لا يعلم الشىء إلّا قدّره و أراده، و

أما قبل تقديره فيستحيل أن يعلّمه، و لو كان عالما بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم و يختبرهم، و للمعتزلة إسام منها الثنوية، سموا بذلك لقولهم الخير من اللّه و الشرّ من العبد، و منهم الكيسانية، و الناكثية، و الأحمدية، و الوهمية، و البترية و الواسطية، و الواردية. سموا بذلك لقولهم لا يدخل المؤمنون النار، و إنما يردون عليها. و من أدخل النار لا يخرج منها قط، و منهم الحرقية. لقولهم الكفار لا تحرق إلّا مرّة، و المفنية القائلون بفناء الجنة و النار. و الواقفية القائلون بالوقف فى خلق القرآن. و منهم اللفظية القائلون ألفاظ القرآن غير مخلوقة. و الملتزقة القائلون اللّه بكل مكان. و القبرية القائلون بإنكار عذاب القبر.

الفرقة الثانية المشبهة: و هم يغلون فى إثبات صفات اللّه تعالى ضدّ المعتزلة، و هم سبع فرق: الهاشمية: أتباع هشام بن الحكم، و يقال لهم أيضا الحكمية، و من قولهم الإله تعالى كنور السبكية الصافية يتلألأ من جوانبه، و يرمون مقاتل بن سليمان بأنه قال: هو لحم و دم على صورة الإنسان، و هو طويل عريض عميق، و أن طوله مثل عرضه و عرضه مثل عمقه، و هو ذو لون و طعم و رائحة، و هو سبعة أشبار يشبر نفسه، و لم يصح هذا القول عن مقاتل.

و الجولقية: أتباع هشام بن سالم الجوالقىّ، و هو من الرافضة أيضا، و من شنيع قوله أن اللّه تعالى على صورة الإنسان، نصفه الأعلى موف و نصفه الأسفل مصمت، و له شعر أسود، و ليس بلحم و دم، بل هو نور ساطع، و له خمس حواس كحواس الإنسان، و يد و رجل و فم و عيون و أذن و شعر أسود لا الفرج و اللحية.

و البيانية: أتباع بيان بن سمعان القائل هو على صورة الإنسان، و يهلك كله إلّا وجهه، لظاهر الآية كلّ شيء هالك إلّا وجهه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۶

و المغيرية أتباع مغيرة بن سعيد العجلىّ، و هو أيضا من الروافض، و من شنائعه قوله أن أعضاء معبودهم على صورة حروف الهجاء، فالألف على صورة قدميه، و زعم أنه رجل من نور على رأسه تاج من نور، و زعم أن اللّه كتب بإصبعه أعمال العباد من طاعة و معصية، و نظر فيهما و غضب من معاصيهم فعرق، فاجتمع من عرقه بحران عذب و مالح، و زعم أنه بكلّ مكان، لا يخلو عنه مكان. و المنهالية أصحاب منهال بن ميمون. و الزرارية أتباع زرارة بن أعين.

و اليونسية أتباع يونس بن عبد الرحمن القمىّ، و كلهم من الروافض، و سيأتى ذكرهم إن شاء اللّه تعالى، و منهم أيضا السابية و الشاكية و العملية و المستثنية و البدعية و العشرية و الأتربة، و منهم الكرّامية أتباع محمد بن كرّام السجستانىّ و هم طوائف الهيضمية و الإسحاقية و الجندية و غير ذلك، إلا أنهم يعدّون فرقة واحدة، لأنّ بعضهم لا يكفر بعضا و كلهم مجسمة، إلّا أن فيهم من قال: هو قائم بنفسه، و منهم من قال هو أجزاء مؤتلفة، و له جهات و نهايات، و من قول الكرّامية أن الإيمان هو قول مفرد، و هو قول لا إله إلّا اللّه، و سواء اعتقد أو لا، و زعموا أن اللّه جسم و له حدّ و نهاية من جهة السفل، و تجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته، و إنه على العرش و العرش مماس له، و أنه محل الحوادث من القول و الإرادة و الإدراكات و المرئيات و المسموعات، و أن اللّه لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به، لكان خلقه إياهم عبثا، و أنه يجوز أن يعزل نبيا من الأنبياء و الرسل، و يجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدّا و لا يسقط عدالة، و أنه يجب على اللّه تعالى تواتر الرسل، و أنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد، و أن عليا و معاوية كانا إمامين فى وقت واحد، إلّا أن عليا كان على السنة و معاوية على خلافها، و انفرد ابن كرّام فى الفقه بأشياء منها أنّ المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان، و أجاز الصلاة فى ثوب مستغرق فى النجاسة، و زعم أن الصلاة و الصوم و الزكاة و الحج و سائر العبادات تصح بغير نية، و تكفى نية الإسلام، و أن النية تجب فى النوافل، و أنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل و الشرب و الجماع عمدا، ثم البناء عليها، و زعم بعض الكرّامية أن للّه علمين أحدهما يعلم به جميع المعلومات و الآخر يعلم به العلم الأوّل.

الفرقة الثالثة القدرية: الغلاة فى إثبات القدرة للعبد فى إثبات الخلق و الإيجاد، و أنه لا يحتاج فى ذلك إلى معاونة من جهة اللّه تعالى.

الفرقة الرابعة المجبرة: الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل و بعده و معه، و نفى الاختيار له، و نفى الكسب، و هاتان الفرقتان متضادّتان، ثم افترقت المجبرة على ثلاث فرق.

الجهمية أتباع جهم بن صفوان الترمذىّ مولى راسب، و قتل فى آخر دولة بنى أميّة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۷

و هو ينفى الصفات الإلهية كلها و يقول لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه، و أن الإنسان لا يقدر على شيء، و لا يوصف بالقدرة و لا الاستطاعة، و أن الجنة و النار يفنيان و تنقطع حركات أهلهما، و أن من عرف اللّه و لم ينطق بالإيمان لم يكفر، لأن العلم لا يزول بالصمت، و هو مؤمن مع ذلك. و قد كفّره المعتزلة فى نفى الاستطاعة، و كفّره أهل السنة بنفى الصفات و خلق القرآن، و نفى الرؤية، و انفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر، و زعم أن علم اللّه حادث لا- بصفة يوصف بها غيره. و البكرية: أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد، و هو يوافق النظّام فى أن الإنسان هو الروح، و يزعم أن البارى تعالى يرى فى القيامة فى صورة يخلقها و يكلم الناس منها، و أن صاحب الكبيرة منافق فى الدرك الأسفل من النار، و حاله أسوأ من حال الكافر، و حرّم أكل الثوم و البصل، و أوجب الوضوء من قرقرة البطن.

و الضرارية: أتباع ضرار بن عمر، و انفرد بأشياء منها أن اللّه تعالى يرى فى القيامة بحاسة زائدة سادسة، و أنكر قراءة ابن مسعود، و شك فى دين عامّة المسلمين، و قال لعلهم كفار، و زعم أن الجسم أعراض مجتمعة، كما قالت النجارية، و من جملة المجبرة.

البطيخية: أتباع إسماعيل البطيخىّ. و الصباحية: أتباع أبى صباح بن معمر. و الفكرية، و الخوفية.

الفرقة الخامسة المرجئة: الإرجاء، إمّا مشتق من الرجاء لأنّ المرجئة يرجون لأصحاب المعاصى الثواب من اللّه تعالى، فيقولون لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، أو يكون مشتقا من الإرجاء و هو التأخير، لأنهم أخروا حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة، و حقيقة المرجئة أنهم الغلاة فى إثبات الوعد و الرجاء، و نفى الوعيد و الخوف عن المؤمنين، و هم ثلاثة أصناف: صنف جمعوا بين الرجاء و القدر، و هم غيلان و أبو شمر من بنى حنيفة. و صنف جمعوا بين الإرجاء و الجبر، مثل جهم بن صفوان.

و صنف قال بالأرجاء المحض، و هم أربع فرق.

اليونسية أتباع يونس بن عمرو، و هو غير يونس بن عبد الرحمن القمىّ الرافضىّ، زعم أن الإيمان معرفة اللّه و الخضوع له و المحبة و الإقرار بأنه واحد ليس كمثله شيء.

و الغسانية: أتباع غسان بن أبان الكوفىّ المنكر نبوّة عيسى عليه السّلام، و تلمذ لمحمد بن الحسن الشيبانىّ، و مذهبه فى الإيمان كمذهب يونس إلّا أنه يقول كل خصلة من خصال الإيمان تسمى بعض الإيمان، و يونس يقول كل خصلة ليست بإيمان و لا بعض إيمان، و زعم غسان أن الإيمان لا يزيد و لا ينقص، و عند أبى حنيفة رحمه اللّه الإيمان معرفة بالقلب و إقرار باللسان، فلا يزيد و لا ينقص كقرص الشمس.

و الثوبانية أتباع ثوبان المرجى. ثم الخارجىّ المعتزلىّ، و كان يقال له جامع النقائص،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۸

هاجر الخصائص، و من قوله الإيمان هو المعرفة و الإقرار، و الإيمان فعل ما يجب فى العقل فعله، فأوجب الإيمان بالعقل قبل ورود الشرع، و فارق الغسانية و اليونسية فى ذلك.

و التؤمنية: أتباع أبى معاذ التؤمنىّ الفيلسوف، زعم أن من ترك فريضة لا يقال له فاسق على الإطلاق، و لكن ترك الفريضة فسق، و زعم أن هذه الخصال التى تكون جملتها إيمانا، فواحدة ليست بإيمان، و لا- بعض إيمان، و أن من قتل نبيا كفر لا لأجل القتل بل لاستخفافه به و بغضه له.

و من فرق المرجئة، المريسية: أتباع بشر بن غياث المريسىّ، كان عراقىّ المذهب فى الفقه، تلميذ للقاضى أبى يوسف يعقوب الحضرمىّ، و قال بنفى الصفات و خلق القرآن، فأكفرته الصفاتية بذلك، و زعم أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى، و لا استطاعة مع الفعل، فأكفرته المعتزلة بذلك. و زعم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، و هو مذهب ابن الربوبدى، و لما ناظره الشافعىّ فى مسألة خلق

القرآن و نفى الصفات قال له: نصفك كافر لقولك بخلق القرآن. و نفى الصفات، و نصفك مؤمن لقولك بالقضاء و القدر و خلق اكتساب العباد. و بشر معدود من المعتزلة لنفيه الصفات و قوله بخلق القرآن.

و من فرق المرجئة الصالحية، أتباع صالح بن عمرو بن صالح و الجحدرية أتباع جحدر بن محمد التميميّ و الزيادية أتباع محمد بن زياد الكوفيّ و الشبيبية أتباع محمد بن شبيب و النقاضية و البهشمية. و من المرجئة جماعة من الأئمة، كسعيد بن جبير، و طلق بن حبيب، و عمرو بن مرّة، و محارب بن دثار، و عمرو بن ذر، و حماد بن سليمان، و أبى مقاتل. و خالفوا القدرية و الخوارج و المرجئة فى أنهم لم يكفروا بالكبائر، و لا حكموا بتخليد مرتكبها فى النار، و لا سبوا أحدا من الصحابة، و لا وقعوا فيهم.

و أوّل من وضع الإرجاء أبو محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب، و تكلم فيه و صارت المرجئة بعده أربعة أنواع: الأوّل مرجئة الخوارج، الثانى مرجئة القدرية، الثالث مرجئة الجبرية، الرابع مرجئة الصالحية. و كان الحسن بن محمد ابن الحنفية يكتب كتبه إلى الأمصار يدعو إلى الإرجاء، إلّا أنه لم يؤخر العمل عن الإيمان كما قال بعضهم، بل قال أداء الطاعات و ترك المعاصى ليس من الإيمان، لا يزول بزوالها. و قال ابن قتيبة أوّل من وضع الإرجاء بالبصرة حسان بن بلال بن الحارث المزنىّ، و ذكر بعضهم أن أوّل من وضع الإرجاء أبا سلت السمان، و مات سنة اثنتين و خمسين و مائة.

الفرقة السادسة الحرورية: الغلاة فى إثبات الوعيد و الخوف على المؤمنين، و التخليد فى النار مع وجود الإيمان، و هم قوم من النواصب الخوارج، و هم مضادّون المرجئة فى النفى و الإثبات و الوعد و الوعيد، و من مفرداتهم أن من ارتكب كبيرة فهو مشرك، و مذهب عامّة الخوارج أنه كافر و ليس بمشرك. و قال بعضهم هو منافق فى الدرك الأسفل من النار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۷۹

فعند الحرورية أن الاسم يتغير بارتكاب الكبيرة الواحدة فلا يسمى مؤمنا بل كافرا مشركا، و الحكم فيه أنه يخلد فى النار، و اتفقوا على أن الإيمان هو اجتناب كل معصية، و قيل لهم الحرورية لأنهم خرجوا إلى حروراء لقتال علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و عدّتهم اثنا عشر ألفا، ثم سار علىّ رضى اللّه عنه إليهم و ناظرهم، ثم قاتلهم و هم أربعة آلاف، فانضم إليهم جماعة حتى بلغوا اثنى عشر ألفا.

الفرقة السابعة النجارية: أتباع الحسن بن محمد بن عبد اللّه النجار أبى عبد اللّه، كان حائكا، و قيل أنه كان يعمل الموازين، و أنه كان من أهل قمّ، كان من جملة المجبرة و متكلميهم، و له مع النظّام عدّة مناظرات منها أنه ناظرة مرّة فلما لم يلحن بحجته رفسه النظّام و قال له: قم أخزى اللّه من ينسبك إلى شىء من العلم و الفهم، فانصرف محموما و اعتلّ حتى مات، و هم أكثر معتزلة الرىّ و جهاتها، و هم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء و القدر، و اكتساب العباد، و فى الوعد و الوعيد، و إمامة أبى بكر رضى اللّه عنه، و يوافقون المعتزلة فى نفى الصفات و خلق القرآن، و فى الرؤية، و هم ثلاث فرق البرغوثية و الزعفرانية و المستدركة.

الفرقة الثامنة الجهمية: أتباع جهم بن صفوان، و هم يوافقون أهل السنة فى مسألة القضاء و القدر مع ميل إلى الجبر، و ينفون الصفات و الرؤية، و يقولون بخلق القرآن، و هم فرقة عظيمة و عدادهم فى المعطلة المجبرة.

الفرقة التاسعة الروافض: الغلاة فى حب علىّ بن أبى طالب، و بغض أبى بكر و عمر و عثمان و عائشة و معاوية فى آخرين من الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين، و سموا رافضة لأنّ زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، امتنع من لعن أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و قال: هما وزيرا جدّى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. فرفضوا رأيه، و منهم من قال لأنهم رفضوا رأى الصحابة رضى اللّه عنهم، حيث بايعوا أبا بكر و عمر رضى اللّه عنهما. و قد اختلف الناس فى الإمام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فذهب الجمهور إلى أنه أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و قال العباسية و الربوبدية أتباع أبى هريرة الربوبدىّ، و قيل أتباع أبى العباس الربوبدىّ، هو العباس بن عبد المطلب رضى اللّه عنه، لأنه العمّ و الوارث، فهو أحق من ابن العمّ. و قال العثمانية و بنو أمية هو عثمان بن عفان رضى اللّه تعالى عنه، و ذهب آخرون إلى غير ذلك. و قال الرافضة هو علىّ بن أبى طالب، ثم اختلفوا فى الإمامة اختلافا كثيرا، حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة، و المشهور منها عشرون فرقة.

الزيدية و الصباحية أقرّوا إمامة أبى بكر رضى اللّه عنه، و رأوا أنه لا ـ نص فى إمامة علىّ رضى اللّه عنه، و اختلفوا فى إمامة عثمان رضى اللّه عنه، فأنكرها بعضهم و أقرّ بعضهم أنه الإمام بعد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لكن قالوا علىّ أفضل من أبى بكر، و إمامة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۰

المفضول جائزة، و قال الغلاة هو علىّ بالنص، ثم الحسن و بعده الحسين، و صار بعد الحسين الأمر شورى. و قال بعضهم لم يرد النص إلّا بإمامة علىّ فقط، و قال آخرون نص على علىّ بالوصف لا بالعين و الاسم. و قال بعضهم قد جاء النص على إمامة اثنى عشر آخرهم المهدىّ المنتظر.

و فرقهم العشرون هى: الإمامية: و هم مختلفون فى الإمامة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فزعم أكثرهم أن الإمامة فى علىّ بن أبى طالب و أولاده بنص النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و أن الصحابة كلهم قد ارتدّوا إلّا عليا و ابنيه الحسن و الحسين و أبا ذر الغفارىّ و سلمان الفارسىّ و طائفة يسيرة.

و أوّل من تكلم فى مذهب الإمامية علىّ بن إسماعيل بن هيثم التمار، و كان من أصحاب علىّ بن أبى طالب، و ذهبت القطعية منهم إلى أن الإمامة فى علىّ، ثم فى الحسن، ثم فى الحسين، ثم فى علىّ بن الحسين، ثم فى محمد بن علىّ، ثم فى جعفر بن محمد، ثم فى موسى بن جعفر، ثم فى علىّ بن موسى. و قطعوا الإمامة عليه فسموا القطعية لذلك، و لم يكتبوا إمامة محمد بن موسى، و لا إمامة الحسن بن محمد بن علىّ بن موسى، و قالت الناووسية جعفر بن محمد لم يمت و هو حىّ ينتظر، و قالت المباركية أتباع مبارك الإمام بعد جعفر بن محمد ابنه إسماعيل بن جعفر، ثم محمد بن إسماعيل. و قالت الشميطية أتباع يحيى بن شميط الأحمسىّ، كان مع المختار قائدا من قوّاده، فأنفذه أميرا على جيش البصرة يقاتل مصعب بن الزبير، فقتل بالمدار: الإمامة بعد جعفر فى ابنه محمد و أولاده، و قالت المعمرية أتباع معمر: الإمامة بعد جعفر فى ابنه عبد اللّه بن جعفر و أولاده. و يقال لهم الفطحية، لأنّ عبد اللّه بن جعفر كان أفطح الرجلين. و قالت الواقفية: الإمام بعد جعفر ابنه موسى بن جعفر و هو حىّ لم يمت، و هو الإمام المنتظر، و سموا الواقفية لوقوفهم على إمامة موسى. و قالت الزرارية أتباع زرارة بن أعين الإمام: بعد جعفر ابنه عبد اللّه، إلّا أنّه سأله عن مسائل فلم يمكنه الجواب عنها فادّعى إمامة موسى بن جعفر من بعد أبيه. و قالت المفضلية أتباع المفضل بن عمرو: الإمام بعد جعفر ابنه موسى، و أنه مات فانتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن موسى. و قالت المفوّضة من الإمامية: إن اللّه تعالى خلق محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم و فوّض إليه خلق العالم و تدبيره. و قال بعضهم بل فوّض ذلك إلى علىّ بن أبى طالب.

و الفرقة الثانية من فرق الروافض: الكيسانية، أتباع كيسان مولى علىّ بن أبى طالب، و أخذ عن محمد ابن الحنفية، و قيل بل كيسان اسم المختار بن عبيد الثقفىّ الذى قام لأخذ ثأر الحسين رضى اللّه عنه. زعموا أن الإمام بعد علىّ ابنه محمد ابن الحنفية، لأنه أعطاه الراية يوم الجمل، و لأنّ الحسين أوصى إليه عند خروجه إلى الكوفة، ثم اختلفوا فى الإمام بعد ابن الحنفية، فقال بعضهم رجع الأمر بعده إلى أولاد الحسن و الحسين، و قيل بل انتقل إلى أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و قالت الكربية أتباع أبى كرب بأن ابن الحنفية حىّ لم يمت، و هو الإمام المنتظر. و من قول الكيسانية أن البدا جائز على اللّه، و هو كفر صريح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۱

و الفرقة الثالثة الخطابية: أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى ثور، و قيل محمد بن أبى يزيد الأجدع، و مذهبه الغلوّ فى جعفر بن محمد الصادق، و هو أيضا من المشبهة، و أتباعه خمسون فرقة، و كلهم متفقون على أن الأئمة مثل علىّ و أولاده كلهم أنبياء، و أنه لا بدّ من رسولين لكلّ أمّة، أحدهما ناطق و الآخر صامت، فكان محمد ناطقا و علىّ صامتا، و أن جعفر بن محمد الصادق كان نبيا، ثم انتقلت النبوّة إلى أبى الخطاب الأجدع، و جوّزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم، و زعموا أنهم عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة، و قالت المعمرية: منهم الإمام بعد أبى الخطاب رجل اسمه معمر، و زعموا أن الدنيا لا تفنى، و أن الجنة هى ما يصيبه الإنسان من الخير فى

الدنيا، و النار ضدّ ذلك، و أباحوا شرب الخمر و الزنى و سائر المحرّمات، و دانوا بترك الصلاة، و قالوا بالتناسخ، و أن الناس لا يموتون و إنما ترفع أرواحهم إلى غيرهم. و قالت البزيغية منهم: أن جعفر بن محمد إله و ليس هو الذى يراه الناس و إنما تشبه على الناس، و زعموا أن كلّ مؤمن يوحى إليه، و أنّ منهم من هو خير من جبريل و ميكائيل و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و زعموا أنهم يرون أمواتهم بكرة و عشيا. و قالت العميرية منهم أتباع عمير بن بيان العجلىّ مثل ذلك كله، و خالفوهم فى أن الناس لا يموتون، و افترقت الخطابية بعد قتل أبى الخطاب فرقا، منها فرقة زعمت أن الإمام بعد أبى الخطاب، عمير بن بيان العجلىّ، و مقالتهم كمقالة البزيغية، إلّا أن هؤلاء اعترفوا بموتهم و نصبوا خيمة على كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر الصادق، فبلغ ذلك يزيد بن عمير، فصلب عمير بن بيان فى كناسة الكوفة، و من فرقهم المفضلية، أتباع مفضل الصيرفىّ، زعم أن جعفر بن محمد إله، فطرده و لعنه، و زعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق أودعهم جلدا يقال له جفر، فيه كلّ ما يحتاجون إليه من علم الغيب و تفسير القرآن، و زعموا لعنهم اللّه، أن قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً معناه عائشة أمّ المؤمنين رضى اللّه عنها، القائلون بإمامته و إمامة من اجتمع فيه ست خصال، العلم و الزهد و الشجاعة، و أن يكون من أولاد فاطمة الزهراء رضى اللّه عنها حسنيا أو حسينيا، و منهم من زاد صباحة الوجه، و أن لا يكون فيه آفة، و هم يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلّا فى مسألة الإمامة، و أخذ مذهب زيد بن علىّ عن واصل بن عطاء، و كان يفضل عليا على أبى بكر و عمر مع القول بإمامتهما، و هم أربع فرق: الجارودية، أتباع أبى الجارود، و يكنّى أبا النجم زياد بن المنذر العبدىّ، زعم أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم نص على إمامة علىّ بالوصف لا بالتسمية، و أن الناس كفروا بتركهم مبايعة علىّ رضى اللّه عنه، و الحسن و الحسين و أولادهما. و الجريرية أتباع سليم بن جرير، و من قوله لم يكفر الناس بتركهم مبايعة علىّ، بل أخطأوا بترك الأفضل و هو علىّ، و كفّروا الجارودية بتكفيرهم الصحابة، إلا أنهم كفّروا عثمان بن عفان بالأحداث التى أحدثها و قالوا: لم ينص علىّ على إمامة أحد، و صار الأمر من بعده شورى، و منهم البترية أتباع الحسن بن صالح بن كثير الأبتر، و قولهم أنّ عليا أفضل

و أولى بالإمامة، غير أن أبا بكر كان إماما، و لم تكن إمامته خطأ و لا كفرا، بل ترك علىّ الإمامة له، و أما عثمان فيتوقف فيه. و منهم اليعقوبية أتباع يعقوب، و هم يقولون بإمامة أبى بكر و عمر، و يتبرّؤون ممن تبرّأ منهما، و ينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، و يتبرّؤون ممن دان بها، إلّا أنهم متفقون على تفضيل علىّ على أبى بكر و عمر من غير تفسيقهما و لا تكفيرهما و لا لعنهما و لا الطعن على أحد من الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين.

و الفرقة الخامسة السبائية: أتباع عبد اللّه بن سبأ الذى قال شفاها لعلىّ بن أبى طالب:

أنت الإله، و كان من اليهود. و يقول فى يوشع بن نون مثل قوله ذلك فى علىّ، و زعم أن عليا لم يقتل و أنه حىّ لم يمت، و أنه فى السحاب، و أن الرعد صوته و البرق سوطه، و أنه ينزل إلى الأرض بعد حين. قبحه اللّه.

و الفرقة السادسة: الكاملية أتباع أبى كامل، اكفر جميع الصحابة بتركهم بيعة علىّ، و كفر عليا بتركه قتالهم، و قال بتناسخ الأنوار الإلهية فى الأئمة.

و الفرقة السابعة: البيانية، أتباع بيان بن سمعان، زعم أن روح الإله حل فى الأنبياء، ثم فى علىّ، و بعده فى محمد ابن الحنفية، فى ابنه أبى هاشم عبد اللّه بن محمد، ثم حل بعد أبى هاشم فى بيان بن سمعان، يعنى نفسه، لعنه اللّه.

و الفرقة الثامنة: المغيرية، أتباع مغيرة بن سعيد العجلىّ، مولى خالد بن عبد اللّه، طلب الإمامة لنفسه بعد محمد بن عبد اللّه بن الحسن، فخرج على خالد بن عبد اللّه القسرىّ بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به، فقال خالد أطعمونى ماء و هو على المنبر، فعير بذلك. و المغيرة هذا قال بالتشبيه الفاحش، و ادّعى النبوّة، و زعم أن معجزته علمه بالاسم الأعظم، و أنه يحيى الموتى، و زعم أن اللّه لما أراد أن يخلق العالم كتب بإصبعه أعمال عباده، فغضب من معاصيهم، فعرق فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مالح و الآخر عذب، فخلق من

البحر العذب الشيعة، و خلق الكفرة من البحر الملح، و زعم أن المهدىّ يخرج و هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب.

و الفرقة التاسعة: الهشامية، و هم صنفان: أحدهما أتباع هشام بن الحكم، و الثانى أتباع هشام الجولقىّ، و هما يقولان لا تجوز المعصية على الإمام، و تجوز على الأنبياء، و أن محمدا عصى ربه فى أخذ الفداء من أسرى بدر كذبا، لعنهما اللّه، و هما أيضا مع ذلك من المشبهة.

و الفرقة العاشرة: الزرارية، أتباع زرارة بن أعين، أحد الغلاة فى الرفض، و يزعم مع ذلك أن اللّه تعالى لم يكن فى الأزل عالما و لا قادرا حتى اكتسب لنفسه جميع ذلك.

قبحه اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۳

و الفرقة الحادية عشر: الجناحية، أتباع عبد اللّه بن معاوية ذى الجناحين بن أبى طالب، و زعم أنه إله، و أن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة، و أن روح الإله دارت فى الأنبياء كما كانت فى علىّ و أولاده، ثم صارت فيه، و مذهبهم استحلال الخمر و الميتة و نكاح المحارم، و أنكروا القيامة، و تأوّلوا قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ [المائدة/ ۹۳] و زعموا أن كل ما فى القرآن من تحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير كناية عن قوم يلزم بغضهم، مثل أبى بكر و عمر و عثمان و معاوية، و كل ما فى القرآن من الفرائض التى أمر اللّه بها، كناية عمن يلزم موالاتهم، مثل علىّ و الحسن و الحسين و أولادهم.

و الثانية عشر: المنصورية، أتباع أبى منصور العجلىّ، أحد الغلاة المشبهة، زعم أن الإمامة انتقلت إليه بعد محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و أنه عرج به إلى السماء بعد انتقال الإمامة إليه، و أن معبوده مسح بيده على رأسه و قال له: يا بنىّ بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء فى قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ الآية [الطور/ ۴۴] و زعم أن أهل الجنة قوم تجب موالاتهم مثل علىّ بن أبى طالب و أولاده، و أن أهل النار قوم تجب معاداتهم مثل أبى بكر و عمر و عثمان و معاوية رضى اللّه عنهم.

و الثالثة عشر: الغرابية، زعموا، لعنهم اللّه، أن جبريل أخطأ، فإنه أرسل إلى علىّ بن أبى طالب، فجاء إلى محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و جعلوا شعارهم إذا اجتمعوا أن يقولوا: العنوا صاحب الريش، يعنون جبريل عليه السّلام و عليهم اللعنة.

و الرابعة عشر: الذمّية، بفتح الذال المعجمة، زعموا، أخزاهم اللّه، أن علىّ بن أبى طالب بعثه اللّه نبيا، و أنه بعث محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم ليظهر أمره، فادّعى النبوّة لنفسه، و أرضى عليا بأن زوّجه ابنته و موّله، و منهم العليانية: أتباع عليان بن ذراع السدوسىّ، و قيل الأسدىّ، كان يفضل عليا على النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و يزعم أن عليا بعث محمدا، و كان، لعنه اللّه، يذم النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، لزعمه أن محمدا بعث ليدعو إلى علىّ، فدعا إلى نفسه، و من العليانية من يقول بإلهية محمد و علىّ جميعا، و يقدّمون محمدا فى الإلهية، و يقال لهم الميمية، و منهم من قال بإلهية خمسة و هم أصحاب الكساء، محمد و علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين، و قالوا خمستهم شىء واحد، و الروح حالة فيهم بالسوية، لا فضل لواحد منهم على الآخر، و كرهوا أن يقولوا فاطمة بالهاء، فقالوا فاطم، قال بعضهم:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۴ توليت بعد اللّه فى الدين خمسةنبيا و سبطيه و شيخا و فاطما

و الخامسة عشر: اليونسية، أتباع يونس بن عبد اللّه القمىّ، أحد الغلاة المشبهة.

و السادسة عشر: الرزامية، أتباع رزام بن سابق، زعم أن الإمامة انتقلت بعد علىّ بن أبى طالب إلى ابنه محمد ابن الحنفية، ثم إلى ابنه أبى هاشم، ثم إلى علىّ بن عبد اللّه بن عباس بالوصية، ثم إلى ابنه محمد بن علىّ، فأوصى بها محمد إلى أبى العباس عبد اللّه بن

محمد السفاح الظالم، المتردّد فى المذاهب، الجاهل بحقوق أهل البيت.

و السابعة عشر: الشيطانية، أتباع محمد بن النعمان شيطان الطاق، و قد شارك المعتزلة و الرافضة فى جميع مذهبهم، و انفرد بأعظم الكفر قاتله اللّه، و هو أنه زعم أن اللّه لا يعلم الشيء حتى يقدّره، و قبل ذلك يستحيل علمه.

و الثامنة عشر: البسلمية، و هم من الراوندية، زعموا أن الإمامة بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم صارت فى علىّ و أولاده الحسن و الحسين و محمد ابن الحنفية، ثم فى أبى هاشم عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية، و انتقلت منه إلى علىّ بن عبد اللّه بن عباس بوصيته إليه، ثم إلى أبى العباس السفاح، ثم إلى أبى سلمة صاحب دولة بنى العباس، و قام بناحية كش فيما وراء النهر رجل من أهل مرو أعور يقال له هاشم، ادّعى أن أبا سلمة كان إلها انتقل إليه روح اللّه، ثم انتقل إليه بعده، فانتشرت دعوته هناك، و احتجب عن أصحابه و اتخذ له وجها من ذهب، فعرف بالمصيغ، ثم إن أصحابه طلبوا رؤيته فوعدهم أن يريهم نفسه إن لم يحترقوا، و عمل تجاه مرآه مرآة محرقة تعكس شعاع الشمس، فلما دخلوا عليه احترق بعضهم و رجع الباقون، و قد فتنوا و اعتقدوا أنه إله لا تدركه الأبصار، و نادوا فى حروبهم بإلهيته.

و التاسعة عشر: الجعفرية.

و العشرون: الصباحية، و هم و الزيدية أمثل الشيعة، فإنهم يقولون بإمامة أبى بكر، و أنه لا نص فى إمامة علىّ، مع أنه عندهم أفضل، و أبو بكر مفضول.

و من فرق الروافض، الخلوية و الشاعية و الشريكية، يزعمون أن عليا شريك محمد صلّى اللّه عليه و سلّم. و التناسخية القائلون أن الأرواح تتناسخ، و اللاعنة و المخطئة الذين يزعمون أن جبريل أخطأ، و الإسحاقية و الخلفية الذين يقولون لا تجوز الصلاة خلف غير الإمام.

و الرجعية القائلون سيرجع علىّ بن أبى طالب و ينتقم من أعدائه. و المتربصية الذين يتربصون خروج المهدىّ. و الأمرية و الجبية و الجلالية و الكريبية، أتباع أبى كريب الضرير.

و الحزنية أتباع عبد اللّه بن عمرو الحزنىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۵

الفرقة العاشرة الخوارج: و يقال لهم النواصب، و الحرورية نسبة إلى حروراء، موضع خرج فيه أوّلهم على علىّ رضى اللّه عنه، و هم الغلاة فى حب أبى بكر و عمر و بغض علىّ بن أبى طالب رضوان اللّه عليهم أجمعين، و لا- أجهل منهم، فإنهم القاسطون المارقون، خرجوا على علىّ رضى اللّه عنه و انفصلوا عنه بالجملة و تبرءوا منه، و منهم من صحبه و منهم من كان فى زمنه، و هم جماعة قد دوّن الناس أخبارهم و هم عشرون فرقة:

الأولى يقال لهم الحكمية، لأنهم خرجوا على علىّ رضى اللّه عنه فى صفين، و قالوا لا حكم إلا للّه و لا حكم للرجال، و انحازوا عنه إلى حروراء، ثم إلى النهروان، و سبب ذلك أنهم حملوه على التحاكم إلى من حكم بكتاب اللّه، فلما رضى بذلك و كانت قضية الحكمين أبى موسى الأشعرىّ، و هو عبد اللّه بن قيس، و عمرو بن العاص، غضبوا من ذلك و نابذوا عليا و قالوا فى شعارهم، لا حكم إلّا للّه و لرسوله، و كان إمامهم فى التحكيم عبد اللّه بن الكوّاء.

و الثانية الأزارقة أتباع أبى راشد نافع بن الأزرق بن قيس بن نهار بن إنسان بن أسد بن صبرة بن ذهل بن الدول بن حنيفة، الخارج بالبصرة فى أيام عبد اللّه بن الزبير، و هم على التبرّى من عثمان و علىّ و الطعن عليهما، و أن دار مخالفيهم دار كفر، و أن من أقام بدار الكفر فهو كافر، و أن أطفال مخالفيهم فى النار، و يحل قتلهم، و أنكروا رجم الزانى و قالوا:

من قذف محصنة حدّ، و من قذف محصنا لا يحدّ، و يقطع السارق فى القليل و الكثير.

و الثالثة النجدات، و لم يقل فيهم النجدية، ليفرّق بينهم و بين من انتسب إلى بلاد نجد، فإنهم أتباع نجد بن عويمر، و هو عامر الحنفىّ

الخارج باليمامة، و كان رأسا ذا مقالة مفردة، و تسمّى بأمير المؤمنين، و بعث عطية بن الأسود إلى سجستان فأظهر مذهبه بمرو، فعرفت أتباعه بالعطوية، و مذهبهم أن الدين أمران، أحدهما معرفة اللّه تعالى و معرفة رسوله و تحريم دماء المسلمين و أموالهم. و الثانى الإقرار بما جاء من عند اللّه تعالى جملة، و ما سوى ذلك من التحريم و التحليل و سائر الشرائع، فإن الناس يعذرون بجهلها، و أنه لا يأثم المجتهد إذا أخطأ و أن من خالف أن يعذب المجتهد، فقد كفر و استحلوا دماء أهل الذمّة فى دار التقية، و قالوا من نظر نظرة محرّمة أو كذب كذبة أو أصرّ على صغيرة و لم يتب منها فهو كافر، و من زنى أو سرق أو شرب خمرا من غير أن يصرّ على ذلك فهو مؤمن غير كافر.

و الرابعة الصفرية أتباع زياد بن الأصفر، و يقال أتباع النعمان بن صفر، و قيل بل نسبوا إلى عبد اللّه بن صفار، و هو أحد بنى مقاعس، و هو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار، و قيل عبد اللّه بن الصفار من بنى صويمر بن مقاعس، و قيل سموا بذلك لصفرة علتهم، و زعم بعضهم أن الصفرية بكسر الصاد، و قد وافق الصفرية الأزارقة فى جميع بدعهم إلّا فى قتل الأطفال، و يقال للصفرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۶

أيضا الزيادية، و يقال لهم أيضا النكار من أجل أنهم ينقصون نصف علىّ و ثلث عثمان، و سدس عائشة رضى اللّه عنهم.

و الخامسة العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد.

و السادسة الميمونية أتباع ميمون بن عمران، و هم طائفة من العجاردة، وافقوا الأزارقة إلّا فى شيئين، أحدهما قولهم تجب البراءة من الأطفال حتى يبلغوا و يصفوا الإسلام، و الثانى استحلال أموال المخالفين لهم، فلم تستحل الميمونية مال أحد خالفهم ما لم يقتل المالك، فإذا قتل صار ماله فيئا، إلّا أنهم ازدادوا كفرا على كفرهم، و أجازوا نكاح بنات البنات و بنات البنين و بنات أولاد الإخوة و بنات أولاد الأخوات فقط.

و السابعة الشعيبية، و هم طائفة من العجاردة وافقوا الميمونية فى جميع بدعهم إلّا فى الاستطاعة و المشيئة، فإن الميمونية مالت إلى القدرية.

و الثامنة الحمزية، أتباع حمزة بن أدرك الشامىّ الخارج بخراسان فى خلافة هارون بن محمد الرشيد، و كثر عيثه و فساده، ثم فض جموع عيسى بن علىّ عامل خراسان و قتل منهم خلقا كثيرا، فانهزم منه عيسى إلى كابل، و آل أمر حمزة إلى أن غرق فى كرمان بواد هناك، فعرفت أصحابه بالحمزية، و كان يقول بالقدر فكفرته الأزارقة بذلك، و قال أطفال المشركين فى النار، فكفّرته القدرية بذلك، و كان لا يستحل غنائم أعدائه بل يأمر بإحراق جميع ما يغنمه منهم.

و التاسعة الحازمية، و هم فرقة من العجاردة، قالوا فى القدر و المشيئة كقول أهل السنة، و خالفوا الخوارج فى الولاية و العداوة، فقالوا لم يزل اللّه تعالى محبا لأوليائه و مبغضا لأعدائه.

و العاشرة المعلومية مع المجهولية، تباينا فى مسألتين إحداهما قالت المعلومية: من لم يعرف اللّه تعالى بجميع أسمائه فهو كافر، و قالت المجهولية: لا يكون كافرا. و الثانية وافقت المعلومية أهل السنة فى مسألة القدر و المشيئة، و المجهولية وافقت القدرية فى ذلك.

و الحادية عشر الصلتية، أتباع عثمان بن أبى الصلت، و هم طائفة من العجاردة انفردوا بقولهم: من أسلم توليناه لكن نتبرّأ من أطفاله، لأنه ليس للأطفال إسلام حتى يبلغوا.

و الثانية عشر و الثالثة عشر الأحسنية و المعبدية، و هما فرقتان من الثعالبة أتباع ثعلبة بن عامر، و كان ثعلبة هذا مع عبد الكريم بن عجرد ثم اختلفا فى الأطفال. فقال عبد الكريم:

نتبرّأ منهم قبل البلوغ، و قال ثعلبة لا نتبرّأ منهم بل نقول نتولى الصغار. فلم تزل الثعالبة على هذا إلى أن خرج رجل عرف بالأخنس فقال: نتوقف عن جميع من فى دار التقية إلّا من عرفنا منه إيمانا فإنا نتولاه، و من عرفنا منه كفرا تبرّأ منه، و لا يجوز أن نبدأ حدا بقتال،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۷

فتبرّأت منه الثعالبة و سموه بالأخنس لأنه خنس منهم، أى رجع عنهم، ثم خرجت فرقة من الثعالبة قيل لها المعبدية أتباع معبد، فخالفت الثعالبة فى أخذ الزكاة من العبيد و البهائم و كفّرت كلّ فرقة منهما الأخرى.

و الرابعة عشر الشيبانية، أتباع شيبان بن سلمة الخارج فى أيام أبى مسلم الخراسانىّ القائم بدعوة الخلفاء العباسيين، و كان معه. فتبرّأت منه الثعالبة لمعاونته لأبى مسلم، و هو أوّل من أظهر القول بالتشبيه تعالى اللّه عن ذلك.

و الخامسة عشر الشبيبية، أتباع شبيب بن يزيد بن أبى نعيم الخارج فى خلافة عبد الملك بن مروان، و صاحب الحروب العظيمة مع الحجاج بن يوسف الثقفىّ، و هم على ما كانت عليه الحكمية الأولى، إلّا أنهم انفردوا عن الخوارج بجواز إمامة المرأة و خلافتها، و استخلف شبيب هذا أمّه غزالة فدخلت الكوفة و قامت خطيبة و صلت الصبح بالمسجد الجامع، فقرأت فى الركعة الأولى بالبقرة، و فى الثانية بآل عمران، و أخبار شبيب طويلة.

و السادسة عشر الرشيدية: أتباع رشيد، يقال لهم أيضا العشرية من أجل أنهم كانوا يأخذون نصف العشر مما سقت الأنهار، فقال لهم زياد بن عبد الرحمن يجب فيه العشر، فتبرّأت كل فرقة من الأخرى و كفّرتها بذلك.

و السابعة عشر المكرمية: أتباع أبى المكرم، و من قوله تارك الصلاة كافر، و ليس كفره لترك الصلاة، لكن لجهله باللّه، و كذا قوله فى سائر الكبائر.

و الثامنة عشر الحفصية: أتباع حفص بن المقدام أحد أصحاب عبد اللّه بن أباض، تفرّد بقوله من عرف اللّه تعالى و كفر بما سواه من رسول و غيره فهو كافر و ليس بمشرك، فأنكر ذلك الإباضية و قالوا بل هو مشرك.

و التاسعة عشر الإباضية، أتباع عبد اللّه بن أباض من بنى مقاعس، و اسمه الحرث بن عمرو، و يقال بل ينسبون إلى أباض بضم الهمزة، و هى قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجد بن عامر، و خرج عبد اللّه بن أباض فى أيام مروان، و كان من غلاة الحكمة.

و الفرقة العشرون اليزيدية، أتباع يزيد بن أبى أنيسة، و كان أباضيا، فانفرد ببدعة قبيحة، و هى أن اللّه تعالى سيبعث رسولا من العجم و ينزل عليه كتابا جملة واحدة ينسخ به شريعة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم.

و من فرق الخوارج أيضا الحارثية، و الأصومية، أتباع يحيى بن أصوم، و البيهسية أتباع أبى البيهس الهيصم بن خالد من بنى سعيد بن ضبعة، كان فى زمن الحجاج، و قتل بالمدينة و صلب، و اليعقوبية أتباع يعقوب بن علىّ الكوفىّ، و من فرقهم الفضلية، أتباع فضل بن عبد اللّه، و الشمراخية أتباع عبد اللّه بن شمراخ، و الضحاكية أتباع الضحاك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۸

و الخوارج يقال لهم الشراة، و أحدهم شارى، مشتق من شرى الرجل إذا ألح، أو معناه يستشرى بالشرّ، أو من قول الخوارج شرينا أنفسنا لدين اللّه فنحن لذلك شراة، و قيل أنه من قولهم شاريته أى لاحته و ماريته، و قيل شرى الرجل غضبا إذا استطار غضبا، و قيل لهم هذا لشدّة غضبهم على المسلمين.

ذكر الحال فى عقائد أهل الإسلام، منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية

اعلم أن اللّه تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم رسولا إلى الناس جميعا، وصف لهم ربهم سبحانه و تعالى، بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز الذى نزل به على قلبه صلّى اللّه عليه و سلّم الروح الأمين و بما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله صلّى اللّه عليه و سلّم أحد من العرب بأسرهم، قرويهم و بدويهم عن معنى شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أمر الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و غير ذلك مما للّه فيه سبحانه أمر و نهى، و كما سألوه صلّى اللّه عليه و سلّم عن أحوال القيامة و الجنة و النار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلّى اللّه عليه و سلّم

فى أحكام الحلال و الحرام، و فى الترغيب و الترهيب، و أحوال القيامة و الملاحم و الفتن، و نحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث، معاجمها و مسانيدها و جوامعها، و من أمعن النظر فى دواوين الحديث النبوىّ، و وقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح و لا سقيم عن أحد من الصحابة رضى اللّه عنهم، و على اختلاف طبقاتهم و كثرة عددهم، أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن معنى شيء مما وصف الربّ، سبحانه به نفسه الكريمة فى القرآن الكريم، و على لسان نبيه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، بل كلهم فهموا معنى ذلك و سكتوا عن الكلام فى الصفات، نعم و لا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، و إنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم و القدرة و الحياة و الإرادة و السمع و البصر و الكلام و الجلال و الإكرام و الجود و الإنعام و العز و العظمة، و ساقوا الكلام سوقا واحدا. و هكذا أثبتوا رضى اللّه عنهم ما أطلقه اللّه سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه و اليد و نحو ذلك، مع نفى مماثلة المخلوقين، فأثبتوا رضى اللّه عنهم بلا- تشبيه، و نزهوا من غير تعطيل، و لم يتعرّض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا، و رأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، و لم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية اللّه تعالى، و على إثبات نبوّة محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، سوى كتاب اللّه، و لا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية و لا مسائل الفلسفة، فمضى عصر الصحابة رضى اللّه عنهم على هذا إلى أن حدث فى زمنهم القول بالقدر، و أنّ الأمر أنفة، أى أنّ اللّه تعالى لم يقدّر على خلقه شيئا مما هم عليه.

و كان أوّل من قال بالقدر فى الإسلام، معبد بن خالد الجهنىّ، و كان يجالس الحسن بن الحسين البصرىّ، فتكلم فى القدر بالبصرة، و هلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۸۹

عمرو بن عبيد ينتحله، و أخذ معبد هذا الرأى عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه، و يعرف بالإسوارىّ، فلما عظمت الفتنة به عذبه الحجاج و صلبه بأمر عبد الملك بن مروان سنة ثمانين، و لما بلغ عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما مقالة معبد فى القدر تبرّأ من القدرية، و اقتدى بمعبد فى بدعته هذه جماعة، و أخذ السلف رحمهم اللّه فى ذمّ القدرية، و حذروا منهم كما هو معروف فى كتب الحديث، و كان عطاء بن يسار قاضيا يرى القدر، و كان يأتى هو و معبد الجهنىّ إلى الحسن البصرىّ فيقولان له: إنّ هؤلاء يسفكون الدماء و يقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر اللّه، فقال: كذب أعداء اللّه، فطعن عليه بهذا، و مثله. و حدث أيضا فى زمن الصحابة رضى اللّه عنهم مذهب الخوارج، و صرّحوا بالتكفير بالذنب و الخروج على الإمام و قتاله، فناظرهم عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما فلم يرجعوا إلى الحق، و قاتلهم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و قتل منهم جماعة كما هو معروف فى كتب الأخبار، و دخل فى دعوة الخوارج خلق كثير، و رمى جماعة من أئمة الإسلام بأنهم يذهبون إلى مذهبهم، و عدّ منهم غير واحد من رواة الحديث كما هو معروف عند أهله، و حدث أيضا فى زمن الصحابة رضى اللّه عنهم مذهب التشيع لعلىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، و الغلوّ فيه، فلما بلغه ذلك أنكره و حرّق بالنار جماعة ممن غلا فيه و أنشد:

لمّا رأيت الأمر أمرا منكراأجّجت نارى و دعوت قنبرا

و قام فى زمنه رضى اللّه عنه عبد اللّه بن وهب بن سبأ، المعروف بابن السوداء السبأى، و أحدث القول بوصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لعلىّ بالإمامة من بعده، فهو وصىّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و خليفته على أمّته من بعده بالنص، و أحدث القول برجعة علىّ بعد موته إلى الدنيا، و برجعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أيضا، و زعم أنّ عليا لم يقتل، و أنه حىّ و أن فيه الجزء الإلهىّ، و أنه هو الذى يجيء فى السحاب، و أن الرعد صوته و البرق سوطه، و أنه لا بدّ أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جورا. و من ابن سبأ هذا تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة، و صاروا يقولون بالوقف، يعنون أن الإمامة موقوفة على أناس معينين، كقول الإمامية بأنها فى الأئمة الاثنى عشر، و قول الإسماعيلية بأنها فى ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، و عنه أيضا أخذوا القول بغيبة الإمام، و القول برجعته بعد الموت إلى الدنيا، كما تعتقده الإمامية إلى اليوم فى صاحب السرداب، و هو القول بتناسخ الأرواح، و عنه

أخذوا أيضا القول بأن الجزء الإلهيّ يحلّ في الأئمة بعد عليّ بن أبي طالب، و أنهم بذلك استحقوا الإمامة بطريق الوجوب، كما استحق آدم عليه السّلام سجود الملائكة، و على هذا الرأى كان اعتقاد دعاة الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر، و ابن سبأ هذا هو الذى أثار فتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه حتى قتل: كما ذكر في ترجمة ابن سبأ من كتاب التاريخ الكبير المقفى؛ و كان له عدّة أتباع في عامّة الأمصار، و أصحاب كثيرون في معظم الأقطار، فكثرت لذلك الشيعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۰

و صاروا ضدّا للخوارج، و ما زال أمرهم يقوى و عددهم يكثر.

ثم حدث بعد عصر الصحابة رضى اللّه عنهم، مذهب جهم بن صفوان ببلاد المشرق، فعظمت الفتنة به. فإنه نفى أن يكون للّه تعالى صفة، و أورد على أهل الإسلام شكوكا أثر في الملة الإسلامية آثارا قبيحة، تولد عنها بلاء كبير. و كان قبيل المائة من سنى الهجرة، فكثر أتباعه على أقواله التي تؤول إلى التعطيل، فأكبر أهل الإسلام بدعته و تمالؤا على إنكارها و تضليل أهلها. و حذروا من الجهمية و عادوهم في اللّه و ذمّوا من جلس إليهم، و كتبوا في الردّ عليهم ما هو معروف عند أهله، و في أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال، منذ زمن الحسن بن الحسين البصرىّ رحمه اللّه، بعد المائتين من سنى الهجرة، و صنفوا فيه مسائل في العدل و التوحيد و إثبات أفعال العباد، و أن اللّه تعالى لا يخلق الشرّ و جهلوا بأن اللّه لا يرى في الآخرة، و أنكروا عذاب القبر على البدن، و أعلنوا بأن القرآن مخلوق محدث، إلى غير ذلك من مسائلهم، فتبعهم خلائق في بدعهم، و أكثروا من التصنيف في نصرة مذهبهم بالطرق الجدلية، فنهى أئمة الإسلام عن مذهبهم، و ذمّوا علم الكلام، و هجروا من ينتحله، و لم يزل أمر المعتزلة يقوى و أتباعهم تكثر و مذهبهم ينتشر في الأرض.

ثم حدث مذهب التجسيم المضادّ لمذهب الاعتزال، فظهر محمد بن كرّام بن عراق بن حزابة، أبو عبد اللّه السجستانىّ، زعيم الطائفة الكرّامية بعد المائتين من سنى الهجرة، و أثبت الصفات حتى انتهى فيها إلى التجسيم و التشبيه، و حج و قدم الشام و مات بزغرة، في صفر سنة ست و خمسين و مائتين، فدفن بالمقدس، و كان هناك من أصحابه زيادة على عشرين ألفا على التعبد و التقشف، سوى من كان منهم ببلاد المشرق، و هم لا يحصون لكثرتهم، و كان إماما لطائفتي الشافعية و الحنفية، و كانت بين الكرّامية بالمشرق و بين المعتزلة مناظرات و مناكرات و فتن كثيرة متعدّدة أزمانها. هذا و أمر الشيعة يفشو في الناس حتى حدث مذهب القرامطة، المنسوبين إلى حمدان الأشعث المعروف بقرمط، من أجل قصر قامته و قصر رجليه و تقارب خطوه، و كان ابتداء أمر قرمط هذا في سنة أربع و ستين و مائتين، و كان ظهوره بسواد الكوفة فاشتهر مذهبه بالعراق، و قام من القرامطة ببلاد الشام صاحب الحال و المدّثر و المطوّق، و قام بالبحرين منهم أبو سعيد الجنابىّ من أهل جنابة، و عظمت دولته و دولة بنيه من بعده، حتى أوقعوا بعساكر بغداد و أخافوا خلفاء بني العباس، و فرضوا الأموال التي تحمل إليهم في كل سنة على أهل بغداد و خراسان و الشام و مصر و اليمن، و غزوا بغداد و الشام و مصر و الحجاز، و انتشرت دعاتهم بأقطار الأرض، فدخل جماعات من الناس في دعوتهم و مالوا إلى قولهم الذى سموه علم الباطن، و هو تأويل شرائع الإسلام و صرفها عن ظواهرها إلى أمور زعموها من عند أنفسهم، و تأويل آيات القرآن و دعوا هم فيها تأويلا بعيدا انتحلوا القول به بدعا ابتدعوها بأهوائهم، فضلوا و أضلوا عالما كثيرا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۱

هذا و قد كان المأمون عبد اللّه بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس ببغداد، لما شغف بالعلوم القديمة. بعث إلى بلاد الروم من عرّب له كتب الفلاسفة و أتاه بها في أعوام بضع عشرة سنة و مائتين من سنى الهجرة، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس، و اشتهرت كتبهم بعامّة الأمصار، و أقبلت المعتزلة و القرامطة و الجهمية و غيرهم عليها، و أكثروا من النظر فيها و التصفح لها، فانجرّ على الإسلام و أهله من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء و المحنة في الدين، و عظم بالفلسفة ضلال أهل البدع و زادتهم كفرا إلى كفرهم.

فلما قامت دولة بني بويه ببغداد في سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة و استمرّوا إلى سنة سبع و ثلاثين و أربعمائة، و أظهروا مذهب التشيع،

قويت بهم الشيعة و كتبوا على أبواب المساجد فى سنة إحدى و خمسين و ثلاثمائة لعن اللّه معاوية بن أبى سفيان، و لعن من أغضب فاطمة، و من منع الحسن أن يدفن عند جدّه، و من نفى أبا ذر الغفارىّ، و من أخرج العباس من الشورى.

فلما كان الليل حكه بعض الناس، فأشار الوزير المهلبىّ أن يكتب بإذن معز الدولة، لعن اللّه الظالمين لأهل البيت، و لا يذكر أحد فى اللعن غير معاوية. ففعل ذلك و كثرت ببغداد الفتن بين الشيعة و السنية، و جهر الشيعة فى الأذان بحىّ على خير العمل فى الكرخ، و فشا مذهب الاعتزال بالعراق و خراسان و ما وراء النهر، و ذهب إليه جماعة من مشاهير الفقهاء، و قوى مع ذلك أمر الخلفاء الفاطميين بأفريقية و بلاد المغرب، و جهروا بمذهب الإسماعيلية و بثوا دعاتهم بأرض مصر، فاستجاب لهم خلق كثير من أهلها، ثم ملكوها سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و بعثوا بعساكرهم إلى الشام فانتشرت مذاهب الرافضة فى عامّة بلاد المغرب و مصر و الشام و ديار بكر و الكوفة و البصرة و بغداد، و جميع العراق، و بلاد خراسان، و ما وراء النهر مع بلاد الحجاز و اليمن و البحرين، و كانت بينهم و بين أهل السنة من الفتن و الحروب و المقاتل ما لا يمكن حصره لكثرته، و اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية و الجهمية و المعتزلة و الكرّامية و الخوارج و الروافض و القرامطة و الباطنية، حتى ملأت الأرض، و ما منهم إلّا من نظر فى الفلسفة و سلك من طرقها ما وقع عليه اختياره، فلم تبق مصر من الأمصار و لا قطر من الأقطار، إلا و فيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا.

و كان أبو الحسن علىّ بن إسماعيل الأشعرىّ قد أخذ عن أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، و لازمه عدّة أعوام، ثم بدا له فترك مذهب الاعتزال و سلك طريق أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن سعيد بن كلاب، و نسج على قوانينه فى الصفات و القدر، و قال بالفاعل المختار، و ترك القول بالتحسين و التقبيح العقليين، و ما قيل فى مسائل الصلاح و الأصلح، و أثبت أن العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع، و أن العلوم و إن حصلت بالعقل فلا تجب به، و لا يجب البحث عنها إلّا بالسمع، و أن اللّه تعالى لا يجب عليه شىء، و أن النبوّات من الجائزات العقلية و الواجبات السمعية إلى غير ذلك من مسائله التى هى موضوع أصول الدين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۲

و حقيقة مذهب الأشعرىّ: رحمه اللّه، أنه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال، و بين الإثبات الذى هو مذهب أهل التجسيم، و ناظر على قوله هذا و احتج لمذهبه، فمال إليه جماعة و عوّلوا على رأيه، منهم القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانىّ المالكىّ، و أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، و الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الأسفراينىّ، و الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علىّ بن يوسف الشيرازىّ، و الشيخ أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالىّ، و أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانىّ، و الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازىّ، و غيرهم ممن يطول ذكره، و نصروا مذهبه و ناظروا عليه و جادلوا فيه و استدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرىّ فى العراق من نحو سنة ثمانين و ثلاثمائة و انتقل منه إلى الشام، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو و قاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانىّ على هذا المذهب، قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، و حفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورىّ، و صار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر و شدّوا البنان على مذهب الأشعرىّ، و حملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك، و اتفق مع ذلك توجه أبى عبد اللّه محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق، و أخذ عن أبى حامد الغزالىّ مذهب الأشعرىّ، فلما عاد إلى بلاد المغرب و قام فى المصامدة يفقههم و يعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامّتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن علىّ القيسىّ، و تلقب بأمير المؤمنين، و غلب على ممالك المغرب هو و أولاده من بعد مدّة سنين، و تسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت، إذ هو عندهم الإمام المعلوم، المهدىّ المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلّا اللّه خالقها سبحانه و تعالى، كما هو معروف فى كتب التاريخ، فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب

الأشعرىّ و انتشاره فى أمصار الإسلام، بحيث نسى غيره من المذاهب، و جهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلّا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبى عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل رضى اللّه عنه، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات، إلى أن كان بعد السبعمائة من سنى الهجرة، اشتهر بدمشق و أعمالها تقىّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحرّانىّ، فتصدّى للانتصار لمذهب السلف و بالغ فى الردّ على مذهب الأشاعرة، و صدع بالنكير عليهم و على الرافضة، و على الصوفية، فافترق الناس فيه فريقان، فريق يقتدى به و يعوّل على أقواله و يعمل برأيه، و يرى أنه شيخ

الإسلام و أجلّ حفاظ أهل الملّة الإسلامية. و فريق يبدّعه و يضلله و يزرى عليه بإثباته الصفات، و ينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف، و منها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع، و لم يكن له فيه سلف، و كانت له و لهم خطوب كثيرة، و حسابه و حسابهم على اللّه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و له إلى وقتنا هذا عدّة أتباع بالشام و قليل بمصر.

هذا و بين الأشاعرة و الماتريدية أتباع أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدىّ، و هم طائفة الفقهاء الحنفية مقلد و الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت، و صاحبيه أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمىّ، و محمد بن الحسن الشيبانىّ رضى اللّه عنهم، من الخلاف فى العقائد ما هو مشهور فى موضعه، و هو إذ تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة، كان بسببها فى أوّل الأمر تباين و تنافر، و قدح كل منهم فى عقيدة الآخر، إلّا أن الأمر آل آخرا إلى الإغضاء، و للّه الحمد.

فهذا أعز اللّه بيان ما كانت عليه عقائد الأمّة من ابتداء الأمر إلى وقتنا هذا، قد فصّلت فيه ما أجمله أهل الأخبار، و أجملت ما فصلوا، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدى و أطلت بسببه سهرى و كدّى فى تصفح دواوين الإسلام و كتب الأخبار، فقد وصل إليك صفوا و نلته عفوا بلا تكلف مشقة و لا بذل مجهول، و لكن اللّه يمنّ على من يشاء من عباده.

أبو الحسن علىّ بن إسماعيل بن أبى بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد اللّه بن موسى بن بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى، و اسمه عبد اللّه بن قيس «الأشعرىّ» البصرىّ، ولد سنة ست و ستين و مائتين، و قيل سنة سبعين، و توفى ببغداد سنة بضع و ثلاثين و ثلاثمائة و قيل سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة، سمع زكريا الساجى، و أبا خليفة الجمحىّ، و سهل بن نوح، و محمد بن يعقوب القمرىّ، و عبد الرحمن بن خلف الضبىّ المصرىّ، و روى عنهم فى تفسيره كثيرا، و تلمذ لزوج أمّه أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ، و اقتدى برأيه فى الاعتزال عدّة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن و غيره من آراء المعتزلة، و صعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيا و نادى بأعلى صوته، من عرفنى فقد عرفنى، و من لم يعرفنى فأنا أعرّفه بنفسى، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن و أن اللّه لا يرى بالإبصار، و أن أفعال الشرّ أنا أفعلها، و أنا تائب مقلع معتقد الردّ على المعتزلة، مبين لفضائحهم و معايبهم، و أخذ من حينئذ فى الردّ عليهم، و سلك بعض طريق أبى محمد عبد اللّه بن محمد بن سعيد بن كلاب القاطن، و بنى على قواعده. و صنف خمسة و خمسين تصنيفا منها. كتاب اللمع، و كتاب الموجز، و كتاب إيضاح البرهان، و كتاب التبيين على أصول الدين، و كتاب الشرح و التفصيل فى الردّ على

أهل الإفك و التضليل، و كتاب الإبانة، و كتاب تفسير القرآن، يقال أنه فى سبعين مجلدا.

و كانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبى بردة على عقبه، و كانت نفقته فى السنة سبعة عشر درهما، و كانت فيه دعابة و مزح كثير. و قال مسعود بن شيبة فى كتاب التعليم: كان حنفىّ المذهب، معتزلىّ الكلام، لأنه كان ربيب أبى علىّ الجبائىّ، و هو الذى رباه و علمه الكلام، و ذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات فى حلقة أبى إسحاق المروزىّ الفقيه فى جامع المنصور. و عن أبى بكر بن الصيرفىّ: كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر اللّه تعالى الأشعرىّ فحجزهم فى أقماع السماسم.

و جملة عقيدته أنّ اللّه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حىّ بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع يسمع، بصير يبصر، و أن صفاته

أزلية قائمة بذاته تعالى، لا يقال هى هو، و لا هى غيره، و لا هى هو، و لا غيره. و علمه واحد يتعلق بجميع المعلومات، و قدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده، و إرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، و كلامه واحد هو أمر و نهى و خبر و استخبار و وعد و وعيد، و هذه الوجوه راجعة إلى اعتبارات فى كلامه، لا إلى نفس الكلام و الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء، دلالات على الكلام الأزلىّ، فالمدلول و هو القرآن المقروء، قديم أزلىّ، و الدلالة و هى العبارات، و هى القراءة، مخلوقة محدثة. قال: و فرق بين القراء و المقروء، و التلاوة و المتلوّ، كما فرق بين الذكر و المذكور. قال: و الكلام معنى قائم بالنفس، و العبارة دالة على ما فى النفس، و إنما تسمى العبارة كلاما مجازا. قال و أراد اللّه تعالى جميع الكائنات خيرها و شرّها، و نفعها و ضرّها، و مال فى كلامه إلى جواز تكليف ما لا يطاق، لقوله أنّ الاستطاعة مع الفعل، و هو مكلف بالفعل قبله، و هو غير مستطيع قبله على مذهبه. قال و جميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من اللّه تعالى، مكتسبة للعبد، و الكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد. قال: و الخالق هو اللّه تعالى، حقيقة لا يشاركه فى الخلق غيره، فأخص وصفه هو القدرة و الاختراع، و هذا تفسير اسمه البارئ.

قال و كلّ موجود يصح أن يرى، و اللّه تعالى موجود، فيصح أن يرى، و قد صح السمع بأن المؤمنين يرونه فى الدار الأخرى فى الكتاب و السنة، و لا يجوز أن يرى فى مكان، و لا صورة مقابلة، و اتصال شعاع، فإن ذلك كله محال، و ماهية الرؤية له فيها رأيان، أحدهما: أنه علم مخصوص يتعلق بالوجود دون العدم، و الثانى أنه إدراك وراء العلم، و أثبت السمع و البصر صفتين أزليتين هما إدراكان وراء العلم، و أثبت اليدين و الوجه صفات خبرية، ورد السمع بها، فيجب الاعتراف به، و خالف المعتزلة فى الوعد و الوعيد و السمع و العقل من كل وجه. و قال: الإيمان هو التصديق بالقلب و القول باللسان و العمل بالأركان فروع الإيمان، فمن صدّق بالقلب أى أقرّ بوحدانية اللّه تعالى و اعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاؤا به فهو مؤمن، و صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۵

حكمه إلى اللّه، أما أن يغفر له برحمته أو يشفع له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و إمّا أن يعذبه بعدله ثم يدخله الجنة برحمته و لا يخلد فى النار مؤمن. قال و لا أقول أنه يجب على اللّه سبحانه قبول توبته بحكم العقل، لأنه هو الموجب، لا يجب عليه شىء أصلا، بل قد ورد السمع بقبول توبة التائبين، و إجابة دعوة المضطرّين، و هو المالك لخلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم النار لم يكن جورا، و لو أدخلهم الجنة لم يكن حيفا، و لا يتصوّر منه ظلم، و لا ينسب إليه جور، لأنه المالك المطلق، و الواجبات كلها سمعية فلا يوجب العقل شيئا البتة، و لا يقتضى تحسينا و لا تقبيحا، فمعرفة اللّه تعالى و شكر المنعم، و إثابة الطائع، و عقاب العاصى، كلّ ذلك بحسب السمع دون العقل، و لا يجب على اللّه شىء لا صلاح و لا أصلح و لا لطف بل الثواب و الصلاح و اللطف و النعم كلها تفضل من اللّه تعالى، و لا يرجع إليه تعالى نفع و لا ضرّ، فلا ينتفع بشكر شاكر، و لا يتضرّر بكفر كافر، بل يتعالى و يتقدّس عن ذلك، و بعث الرسل جائز لا واجب و لا مستحيل، فإذا بعث اللّه تعالى الرسول و أيده بالمعجزة الخارقة للعادة و تحدّى و دعا الناس، وجب الإصغاء إليه و الاستماع منه و الامتثال لأوامره و الانتهاء عن نواهيه، و كرامات الأولياء حق، و الإيمان بما جاء فى القرآن و السنة من الأخبار عن الأمور الغائبة عنا مثل اللوح و القلم و العرش و الكرسىّ و الجنة و النار حق و صدق، و كذلك الأخبار عن الأمور التى ستقع فى الآخرة، مثل سؤال القبر و الثواب و العقاب فيه و الحشر و المعاد و الميزان و الصراط و انقسام فريق فى الجنة و فريق فى السعير، كلّ ذلك حق و صدق يجب الإيمان و الاعتراف به. و الإمامة تثبت بالاتفاق و الاختيار دون النص و التعيين على واحد معين، و الأئمة مترتبون فى الفضل ترتبهم فى الإمامة. قال و لا أقول فى عائشة و طلحة و الزبير رضى اللّه عنهم إلّا أنّهم رجعوا عن الخطأ، و أقول أن طلحة و الزبير من العشرة المبشرين بالجنة، و أقول فى معاوية و عمرو بن العاص أنهما بغيا على الإمام الحق علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، فقاتلهم مقاتلة أهل البغى، و أقول أن أهل النهروان الشراة هم المارقون عن الدين، و أن عليا رضى اللّه عنه كان على الحق فى جميع أحواله، و الحق معه حيث دار.

فهذه جملة من أصول عقيدته التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، و التى من جهر بخلافها أريق دمه، و الأشاعرة يسمون

الصفاتية لإثباتهم صفات اللّه تعالى القديمة، ثم افترقوا فى الألفاظ الواردة فى الكتاب و السنة، كالاستواء و النزول و الإصبع و اليد و القدم و الصورة و الجنب، و المجىء على فرقتين، فرقة تؤول جميع ذلك على وجوه محتملة اللفظ، و فرقة لم يتعرّضوا للتأويل و لا صاروا إلى التشبيه، و يقال لهؤلاء الأشعرية الأسرية، فصار للمسلمين فى ذلك خمسة أقوال: أحدها اعتقاد ما يفهم مثله من اللغة، و ثانيها السكوت عنها مطلقا، و ثالثها السكوت عنها بعد نفى إرادة الظاهر، و رابعها حملها على المجاز، و خامسها حملها على الاشتراك، و لكلّ فريق أدلة و حجاج تضمنتها كتب أصول

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۶

الدين، و لا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك، و لذلك خلقهم و اللّه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

فصل: اعلم أن اللّه سبحانه طلب من الخلق معرفته بقوله تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات/ ۵۶] قال ابن عباس و غيره يعرفون، فخلق تعالى الخلق و تعرّف إليهم بألسنة الشرائع المنزلة، فعرفه من عرفه، سبحانه، منهم على ما عرّفهم فيما تعرّف به إليهم، و قد كان الناس قبل إنزال الشرائع الرسل عليهم السلام، علمهم بالله تعالى إنما هو بطريق التنزيه له عن سمات الحدوث، و عن التركيب، و عن الافتقار. و يصفونه سبحانه بالاقتدار المطلق، و هذا التنزيه هو المشهور عقلا، و لا يتعدّاه عقل أصلا، فلما أنزل اللّه شريعته على رسوله محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و أكمل دينه، كان سبيل العارف بالله أن يجمع فى معرفته بالله بين معرفتين، إحداهما المعرفة التى تقتضيها الأدلة العقلية، و الأخرى المعرفة التى جاءت بها الاخبارات الإلهية، و أن يردّ علم ذلك إلى اللّه تعالى، و يؤمن به و بكل ما جاءت به الشريعة على الوجه الذى أراده اللّه تعالى، من غير تأويل بفكره و لا تحكم فيه برأيه، و ذلك أن الشرائع إنما أنزلها اللّه تعالى لعدم استقلال العقول البشرية بإدراك حقائق الأشياء على ما هى عليه فى علم اللّه، و أنّى لها ذلك و قد تقيدت بما عندها من إطلاق ما هنالك، فإن وهبها علما بمراده من الأوضاع الشرعية، و منحها الاطلاع على حكمه فى ذلك، كان من فضله تعالى، فلا يضيف العارف هذه المنة إلى فكره، فإن تنزيهه لربه تعالى بفكره و يجب أن يكون مطابقا لما أنزله سبحانه على لسان رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من الكتاب و السنة، و إلّا فهو تعالى منزه عن تنزيه عقول البشر بأفكارها، فإنها مقيدة بأوطارها، فتنزيهها كذلك مقيد بحسبها و بموجب أحكامها و آثارها، إلّا إذا خلت عن الهوى فإنها حينئذ يكشف اللّه لها الغطاء عن بصائرها، و يهديها إلى الحق، فتنزه اللّه تعالى عن التنزيهات العرفية بالأفكار العادية، و قد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة فى الصفات و نقلها و تبليغها من غير خلاف بينهم فى ذلك، ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة الخلق، لقول اللّه تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى/ ۱۱] و لقول اللّه تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ [الاخلاص/ ۲] و هذه السورة يقال لها سورة الاخلاص، و قد عظم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شأنها، و رغّب أمته فى تلاوتها، حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه اللّه تعالى، و عدم الشبه و المثل له سبحانه، و سميت سورة الإخلاص لاشتمالها على إخلاص التوحيد للّه عن أن يشوبه ميل إلى تشبيهه بالخلق، و أمّا الكاف التى فى قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى/ ۱۱] فإنها زائدة، و قد تقرّر أن الكاف و المثل فى كلام العرب اتيا للتشبيه، فجمعهما اللّه تعالى ثم نفى بهما عنه ذلك، فإذا ثبت إجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث و نقلها، مع إجماعهم على أنها مصروفة عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۷

التشبيه، لم يبق فى تعظيم اللّه تعالى بذكرها إلّا نفى التعطيل، لكون أعداء المرسلين سموا ربهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا، فقال قوم من الكفار هو طبيعة، و قال آخرون منهم هو علة، إلى غير ذلك من إلحادهم فى أسمائه سبحانه، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات اللّه العلا، و نقلها عنه أصحابه البررة، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حتى انتهت إلينا، و كلّ منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشىء منها، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن اللّه سبحانه و تعالى ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، ففهمنا من ذلك أن اللّه تعالى أراد بما نطق به رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم من هذه الأحاديث، و تناولها عنه الصحابة

رضى اللّه عنهم و بلغوها لأمّته، أن يغص بها فى حلوق الكافرين، و أن يكون ذكرها نكتا فى قلب كلّ ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع و عباد العلل، فلذلك وصف اللّه تعالى نفسه الكريمة بها فى كتابه، و وصفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أيضا بما صح عنه و ثبت، فدل على أن المؤمن إذا اعتقد أن اللّه ليس كمثله شىء و هو السميع البصير، و أنه أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد، كان ذكره لهذه الأحاديث تمكين الإثبات، و شجا فى حلوق المعطلة، و قد قال الشافعىّ: رحمه اللّه «الإثبات أمكن» نقله الخطابىّ و لم يبلغنا عن أحد من الصحابة و التابعين و تابعيهم أنهم أوّلوا هذه الأحاديث، و الذى يمنع من تأويلها إجلال اللّه تعالى عن أن تضرب له الأمثال، و أنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات اللّه تعالى، كقوله سبحانه: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [الفتح/ ۱۰] فإن نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به، و كذا قوله تعالى: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ [المائدة/ ۶۴] عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه إلى البخل فقال تعالى: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ [المائدة/ ۶۴] فإن نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود، و أيضا فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب للّه تعالى فيها المثل نحو قولهم فى قوله تعالى: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى [طه/ ۵] الاستواء الاستيلاء، كقولك استوى الأمير على البلد، و أنشدوا:

قد استوى بشر على العراق فلزمهم تشبيه البارى تعالى ببشر، و أهل الإثبات نزهو إجلال اللّه عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة و لا مجازا، و علموا مع ذلك أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق و خلقه، و تحرّجوا أن يقولوا مشتركة، لأن اللّه تعالى لا شريك له، و لذلك: لم يتأول السلف شيئا من أحاديث الصفات، مع علمنا قطعا أنها عندهم مصروفة عما يسبق إليه ظنون الجهال من مشابهتها الصفات المخلوقين، و تأمّل تجد اللّه تعالى لمّا ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر و الأنثى فى قوله سبحانه: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً [الشورى/ ۱۱] يذرؤكم فيه علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق، فقال عز من قائل: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ۱۱].

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۸

و اعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام، أن الفرس كانت من سعة الملك و علوّ اليد على جميع الأمم، و جلالة الخطر فى أنفسها، بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار و الأسياد، و كانوا يعدّون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب، و كانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا، تعاظمهم الأمر و تضاعفت لديهم المصيبة، و راموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى، و فى كل ذلك يظهر اللّه تعالى الحق، و كان من قائميهم سنفاذ و اشنيس و المقفع و بابك و غيرهم، و قبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشا، و أبو مسلم السروح، فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام و استمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و استبشاع ظلم علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى، فقوم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدىّ، عنده حقيقة الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين عن كفار، إذ نسبوا أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الكفر، و قوم خرجوا إلى القول بادعاء النبوّة لقوم سموهم به، و قوم سلكوا بهم إلى القول بالحلول و سقوط الشرائع، و آخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم و ليلة، و آخرون قالوا بل هى سبع عشرة صلاة فى كل صلاة خمس عشرة ركعة، و هو قول عبد اللّه بن عمرو بن الحارث الكندىّ، قبل أن يصير خارجيا صفريا، و قد أظهر عبد اللّه بن سبأ الحميرىّ اليهودىّ الإسلام ليكيد أهله، فكان هو أصل إثارة الناس على عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و احرق علىّ رضى اللّه عنه منهم طوائف أعلنوا بإلهيته، و من هذه الأصول حدثت الإسماعيلية و القرامطة.

و الحق الذى لا ريب فيه أن دين اللّه تعالى ظاهر لا باطن فيه، و جوهر لا سرّ تحته، و هو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه، و لم يكتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الشريعة و لا كلمة، و لا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ولد عمّ على شىء من الشريعة، كتمه عن الأحمر و الأسود و رعاة الغنم، و لا كان عنده صلّى اللّه عليه و سلّم سرّ و لا رمز و لا باطن غير ما دعا الناس كلها إليه، و لو كتم

شيئا لما بلغ كما أمر، و من قال هذا فهو كافر بإجماع الأمّة، و أصل كلّ بدعة فى الدين البعد عن كلام السلف و الانحراف عن اعتقاد الصدر الأوّل، حتى بالغ القدرىّ فى القدر فجعل العبد خالقا لأفعاله، و بالغ الجبرىّ فى مقابلته فسلب عنه الفعل و الاختيار، و بالغ المعطل فى التنزيه فسلب عن اللّه تعالى صفات الجلال و نعوت الكمال، و بالغ المشبه فى مقابلته فجعله كواحد من البشر، و بالغ المرجئ فى سلب العقاب، و بالغ المعتزلىّ فى التخليد فى العذاب، و بالغ الناصبىّ فى دفع علىّ رضى اللّه عنه عن الإمامة، و بالغت الغلاة حتى جعلوه إلها، و بالغ السنىّ فى تقديم أبى بكر رضى اللّه عنه، و بالغ الرافضىّ فى تأخيره حتى كفره، و ميدان الظنّ واسع و حكم الوهم غالب، فتعارضت الظنون و كثرت الأوهام و بلغ كل فريق فى الشرّ و العناد و البغى و الفساد إلى أقصى غاية، و أبعد نهاية، و تباغضوا و تلاعنوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۱۹۹

و استحلوا الأموال و استباحوا الدماء، و انتصروا بالدول و استعانوا بالملوك، فلو كان أحدهم إذا بالغ فى أمر نازع الآخر فى القرب منه، فإن الظنّ لا يبعد عن الظنّ كثيرا و لا ينتهى فى المنازعة إلى الطرف الآخر من طرفى التقابل، لكنهم أبو إلّا ما قدّمناه ذكره من التدابر و التقاطع، و لا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك.

ذكر المدارس

اشارة

قال ابن سيده: درس الكتاب يدرسه درسا و دراسة، و دارسه من ذلك كأنه عاوده، حتى انقاد لحفظه. و قرىء بهما و ليقولوا درست و دارست ذاكرتهم، و حكى درست أى قرئت و قرىء درست أى هذه أخبار قد عفت و انمحت، و درّست أشدّ مبالغة، و الدراس المدارسة، و قال ابن جنى: و درسته إياه و أدرسته، و من الشاذ قراءة ابن حيوة، و بما كنتم تدرسون، و المدارس الموضع الذى يدرس فيه، و قد ذكر الواقدىّ أن عبد اللّه ابن أمّ مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى اللّه عنهما، و قيل قدم بعد بدر بيسير، فنزل دار القرّاء، و لما أراد الخليفة المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن المتوكل على اللّه جعفر بناء قصره فى الشماسية ببغداد، استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا و مساكن و مقاصير، يرتب فى كل موضع رؤساء كلّ صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العملية، و يجرى عليهم الأرزاق السنية، ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه.

و المدارس مما حدث فى الإسلام، و لم تكن تعرف فى زمن الصحابة و لا التابعين، و إنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، و أوّل من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها بالمدرسة البيهقية، و بنى بها أيضا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، و بنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، و بنى بها أيضا المدرسة السعيدية، و بنى بها أيضا مدرسة رابعة، و أشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد، لأنّها أوّل مدرسة قرّر بها للفقهاء معاليم، و هى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى علىّ الحسن بن علىّ بن إسحاق بن العباس الطوسىّ، وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق فى مدينة بغداد، و شرع فى بنائها فى سنة سبع و خمسين و أربعمائة، و فرغت فى ذى القعدة سنة تسع و خمسين و أربعمائة، و درس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازىّ الفيروزآبادى، صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه و رحمه، فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق و خراسان و ما وراء النهر و فى بلاد الجزيرة و ديار بكر. و أمّا مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، و مذهبهم مخالف لهذه الطريقة، و إنما هم شيعة إسماعيلية كما تقدّم، و أوّل ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر، فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۰

و وزارة يعقوب بن كلس، فعمل ذلك بالجامع الأزهر كما تقدّم ذكره، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كاس مجلس يحضره الفقهاء، فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم، و عمل أيضا مجلس بجامع عمرو بن العاص من مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير، ثم بنى الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور بن العزيز دار العلم بالقاهرة كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فلما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، و أقام بها مذهب الإمام الشافعىّ، و مذهب الإمام مالك، و اقتدى بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، فإنه بنى بدمشق و حلب و أعمالهما عدّة مدارس للشافعية و الحنفية، و بنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر. و أوّل مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضا، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة و مصر و غيرهما من أعمال مصر و بالبلاد الشامية و الجزيرة أولاده، و أمراؤه، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك و أمرائهم و أتباعهم إلى يومنا هذا، و سأذكر ما بديار مصر من المدارس، و أعرّف بحال من بناها على ما اعتدته فى هذا الكتاب من التوسط دون الإسهاب، و باللّه استعين.

المدرسة الناصرية

بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه، هذه المدرسة عرفت أوّلا- بالمدرسة الناصرية، ثم عرفت بابن زين التجار، و هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقىّ، المعروف بابن زين التجار، أحد أعيان الشافعية. درّس بهذه المدرسة مدّة طويلة، و مات فى ذى القعدة سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، ثم عرفت بالمدرسة الشريفة، و هى إلى الآن تعرف بذلك، و كان موضعها يقال له الشرطة، و ذكر الكندىّ أنها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ، و عرفت بدار الفلفل. و قال ابن عبد الحكم كانت فضاء قبل ذلك، و قيل كانت هى و الدار التى إلى جانبها لنافع بن عبد اللّه بن قيس الفهرىّ، فأخذها منه قيس بن سعد، و سمّيت دار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخىّ صاحب الخراج بمصر، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار ليهديه إلى صاحب الروم، فخزّنه فيها، و لما فرغ عيسى بن يزيد الجلودىّ من بناء زيادة الجامع، بنى هذه الدار شرطة فى سنة ثلاث عشرة و مائتين، ثم صارت سجنا تعرف بالمعونة، فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أوّل المحرّم سنة ست و ستين و خمسمائة، و أنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية، و كان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد، و كان هذا من أعظم ما نزل بالدولة، و هى أوّل مدرسة عملت بديار مصر، و لما كملت وقف عليها الصاغة، و كانت بجوارها، و قد خربت و بقى منها شىء يسير قرأت عليها اسم الخليفة العزيز باللّه، و وقف عليها أيضا قرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۱

تعرف ... و أول من ولى التدريس بها ابن زين التجار، فعرفت به، ثم درس بها بعدد ابن قطيطة بن الوزان، ثم من بعده كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ، و بعده الشريف القاضى شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن محمد الحنفىّ قاضى العسكر الأرموى، فعرفت به. و قيل لها المدرسة الشريفة من عهده إلى اليوم، و لو لا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت، فإن الكيمان ملاصقة لها بعد ما كان حولها أعمر موضع فى الدنيا، و قد ذكر حبس المعونة عند ذكر السجون من هذا الكتاب.

المدرسة القمحية

هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر، كان موضعها يعرف بدار الغزل، و هو قيسارية يباع فيها الغزل، فعدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و أنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، و كان الشروع فيها للنصف من المحرّم سنة ست و ستين و خمسمائة، و

وقف عليها قيسارية الورّاقين، و علوها بمصر، و ضيعة بالفيوم تعرف بالحنبوشية، و رتب فيها أربعة من المدرّسين عند كل مدرّس عدّة من الطلبة، و هذه المدرسة أجل مدرسة للفقهاء المالكية، و يتحصل لهم من ضيعتهم التى بالفيوم قمح يفرّق فيهم، فلذلك صارت لا تعرف إلّا بالمدرسة القمحية إلى اليوم، و قد أحاط بها الخراب، و لو لا ما يتحصل منها للفقهاء لدثرت. و فى شعبان سنة خمس و عشرين و ثمانمائة أخرج السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقىّ ناحيتى الاعلام و الحنبوشية، و كانتا من وقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على هذه المدرسة، و أنعم بهما على مملوكين من مماليكه ليكونا إقطاعا لهما.

مدرسة يازكوج

هذه المدرسة بسوق الغزل فى مدينة مصر، و هى مدرسة معلقة بناها ... .

مدرسة ابن الأرسوفىّ

هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط النخالين بمصر، عرفت بابن الأرسوفىّ التاجر العسقلانىّ، و كان بناؤها فى سنة سبعين و خمسمائة، و هو عفيف الدين عبد اللّه بن محمد الأرسوفىّ، مات بمصر فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأوّل سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۲

مدرسة منازل العز

هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين، بنتها أمّ الخليفة العزيز بالله بن المعز، و عرفت بمنازل العز، و كانت تشرف على النيل، و صارت معدّة لنزهة الخلفاء، و ممن سكنها ناصر الدولة حسين بن حمدان إلى أن قتل، و كان بجانبها حمّام يعرف بحمّام الذهب من جملة حقوقها، و هى باقية. فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف، أنزل فى منازل العز الملك المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فسكنها مدّة، ثم إنه اشتراها و الحمّام و الإصطبل المجاور لها من بيت المال فى شهر شعبان سنة ست و ستين و خمسمائة، و أنشأ فندقين بمصر بخط الملاحين، و أنشأ ربعا بجوار أحد الفندقين، و اشترى جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة، فلما أراد أن يخرج من مصر إلى الشام وقف منازل العز على فقهاء الشافعية، و وقف عليها الحمّام و ما حولها، و عمر الاصطبل فندقا عرف بفندق النخلة و وقفه عليها، و وقف عليها الروضة، و درّس بها شهاب الدين الطوسىّ و قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العلىّ السكرىّ، و عدّة من الأعيان. و هى الآن عامرة بعمارة ما حولها.

الملك المظفر تقىّ الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان، و هو ابن أخى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدم إلى القاهرة فى ... و استنابه السلطان على دمشق فى المحرّم سنة إحدى و سبعين، ثم نقله إلى نيابة حماه، و سلّم إليه سنجار لما أخذها فى ثانى رمضان سنة ثمان و سبعين، فأقام بها و لحق السلطان على حلب فقدم عليه فى سابع صفر سنة تسع و سبعين، فأقام إلى أن بعثه إلى القاهرة نائبا عنه بديار مصر عوضا عن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فقدمها فى شهر رمضان سنة تسع و سبعين، و أنعم عليه بالفيوم و أعمالها مع القايات و بوش، و أبقى عليه مدينة حماه. ثم خرج بعساكر مصر إلى السلطان و هو بدمشق فى سنة ثمانين لاجل أخذ الكرك من الفرنج، فسار إليها و حصرها مدّة ثم رجع مع السلطان إلى دمشق، و عاد إلى القاهرة فى شعبان و قد أقام السلطان على مملكة مصر ابنه الملك العزيز عثمان، و جعل الملك المظفر كافلا له و قائما بتدبير دولته، فلم يزل على ذلك إلى جمادى الأولى سنة اثنتين و ثمانين، فصرف السلطان أخاه الملك العادل عن حلب و أعطاه نيابة مصر، فغضب الملك المظفر و عبر بأصحابه إلى الجيزة يريد المسير إلى بلاد المغرب و اللحاق بغلامه بهاء الدين قراقوش التقوىّ، فبلغ

السلطان ذلك فكتب إليه و لم يزل به حتى زال ما به، و سار إلى السلطان فقدم عليه دمشق فى ثالث عشرى شعبان، فأقرّه على حماه و المعرّة و منبج، و أضاف إليه ميافارقين، فلحق به أصحابه ما خلا مملوكه زين الدين بوزيا، فإنه سار إلى
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۳
بلاد المغرب، و كانت له فى أرض مصر و بلاد الشام أخبار و قصص، و عرفت له مواقف عديدة فى الحرب مع الفرنج، و آثار فى المصافات، و له فى أبواب البرّ أفعال حسنة، و له بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية و الأخرى للمالكية، و بنى مدرسة بمدينة الرها، و سمع الحديث من السلفىّ و ابن عوف، و كان عنده فضل و أدب، و له شعر حسن، و كان جوادا شجاعا مقداما شديد البأس عظيم الهمة كثير الإحسان، و مات فى نواحى خلاط ليلة الجمعة تاسع شهر رمضان سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، و نقل إلى حماه فدفن بها فى تربة بناها على قبره ابنه الملك المنصور محمد.

مدرسة العادل

هذه المدرسة بخط الساحل بجوار الربع العادلىّ من مدينة مصر الذى وقف على الشافعىّ، عمرها الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، درس بها قاضى القضاة تقىّ الدين أبو علىّ الحسين بن شرف الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الفقيه جلال الدين أبى محمد عبد اللّه بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد اللّه بن محمد بن شاس. فعرفت به، و قيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم، و هى عامرة، و عرف خطها بالقشاشين و هى للمالكية.

مدرسة ابن رشيق

هذه المدرسة للمالكية، و هى بخط حمّام الريش من مدينة مصر، كان الكاتم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر فى سنة بضع و أربعين و ستمائة، قاصدين الحج، دفعوا للقاضى علم الدين بن رشيق مالا بناها به، و درّس بها فعرفت به، و صار لها فى بلاد التكرور سمعة عظيمة، و كانوا يبعثون إليها فى غالب السنين المال.

المدرسة الفائزية

هذه المدرسة فى مصر بخط ... أنشأها الصاحب شرف الدين هبة اللّه بن صاعد بن وهيب الفائزىّ قبل وزارته، فى سنة ست و ثلاثين و ستمائة، و درّس بها القاضى محيى الدين عبد اللّه بن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة، ثم قاضى القضاة صدر الدين موهوب الجزرىّ، و هى للشافعية.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى خط سويقة الصاحب بداخل درب الحريرىّ، كانت هى
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۴
و المدرسة السيفية من حقوق دار الديباج التى تقدّم ذكرها، و أنشأ هذه المدرسة الأمير قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدبانىّ، فى سنة سبعين و خمسمائة، و جعلها وقفا على الفقهاء الشافعية، و هو أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

المدرسة السيوفية

هذه المدرسة بالقاهرة، و هى من جملة دار الوزير المأمون البطائحىّ، وقفها السلطان السيد الأجل الملك الناصر صلاح الدين أبو

المظفر يوسف بن أيوب على الحنفية، و قرّر فى تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتى، و رتب له فى كل شهر أحد عشر دينارا، و باقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه للطلبة الحنفية المقرّرين عنده على قدر طبقاتهم، و جعل النظر للجبتى، و من بعده إلى من له النظر فى أمور المسلمين، و عرفت بالمدرسة السيوفية، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها، و هى الآن تجاه سوق الصنادقيين، و قدوهم القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فإنه قال فى كتاب الروضة الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: مدرسة السيوفية و هى للحنفية، وقفها عز الدين فرحشاه قريب صلاح الدين و ما أدرى كيف وقع له هذا الوهم، فإن كتاب وقفها موجود، قد وقفت عليه و لخصت منه ما ذكرته، و فيه أن واقفها السلطان صلاح الدين و خطه على كتاب الوقف و نصه: الحمد للّه و به توفيقى، و تاريخ هذا الكتاب تاسع عشرى شعبان سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و وقف على مستحقيها اثنين و ثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش و باب الفتوح و حارة برجوان، و ذكر فى آخر كتاب وقفها أن الواقف أذن لمن حضر مجلسه من العدول فى الشهادة و القضاء على لفظه بما تضمنه المسطور، فشهدوا بذلك و أثبتوا شهادتهم آخره، و حكم حاكم المسلمين على صحة هذا الوقف بعد ما خاصم رجل من أهل هذا الوقف فى ذلك، و أمضاه. لكنه لم يذكر فى الكاتب اسجال القاضى بثبوته بل ذكر رسم شهادة الشهود على الواقف، و هم علىّ بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصارىّ الدمشقىّ، و القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن قاسم الشهرزورىّ، و عبد اللّه بن عمر بن عبد اللّه الشافعىّ، و عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن قريش المخزومىّ، و موسى بن حكر بن موسك الهدبانىّ فى آخرين. و هذه المدرسة هى أوّل مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، و هى باقية بأيديهم.

المدرسة الفاضلية

هذه المدرسة بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ، بجوار داره، فى سنة ثمانين و خمسمائة، و وقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية و المالكية، و جعل فيها قاعة للإقراء، أقرأ فيها الإمام أبو محمد الشاطبىّ ناظم الشاطبية، ثم تلميذه أبو عبد اللّه محمد بن عمر القرطبىّ، ثم الشيخ علىّ بن موسى الدهان و غيرهم، و رتب لتدريس فقه المذهبين الفقيه أبا القاسم عبد الرحمن بن سلامة الاسكندرانىّ، و وقف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۵

بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم، يقال أنها كانت مائة ألف مجلد، و ذهبت كلها. و كان أصل ذهابها أن الطلبة التى كانت بها، لما وقع الغلاء بمصر فى سنة أربع و تسعين و ستمائة، و السلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورىّ، مسهم الضرّ، فصاروا يبيعون كلّ مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية، فتفرّقت، و بها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدّا، مكتوب بالخط الأوّل الذى يعرف بالكوفىّ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، و يقال أن القاضى الفاضل اشتراه بنيف و ثلاثين ألف دينار، على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، و هو فى خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه، و عليه مهابة و جلالة، و إلى جانب المدرسة كتّاب برسم الأيتام، و كانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة و أجلها، و قد تلاشت لخراب ما حولها.

عبد الرحيم: بن علىّ بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد القاضى الفاضل محيى الدين أبو علىّ ابن القاضى الأشرف اللخمىّ العسقلانىّ البيسانىّ المصرىّ الشافعىّ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان، فلهذا نسبوا إليها، و كانت ولادته بمدينة عسقلان فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين و خمسمائة، ثم قدم القاهرة و خدم الموفق يوسف بن محمد بن الجلال، صاحب ديوان الإنشاء فى أيام الحافظ لدين اللّه، و عنه أخذ صناعة الإنشاء، ثم خدم بالإسكندرية مدّة، فلما قام بوزارة مصر العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، خرج أمره إلى والى الإسكندرية بتسييره إلى الباب، فلما حضر استخدمه بحضرته و بين يديه فى ديوان الجيش، فلما مات الموفق بن الجلال فى سنة ست و ستين و خمسمائة، و كان القاضى الفاضل ينوب عنه فى ديوان الإنشاء، عينه الكامل بن شاور و

سعى له عند أبيه الوزير شاور بن مجير، فأقرّه عوضا عن ابن الجلال فى ديوان الإنشاء، فلما ملك أسد الدين شيركوه احتاج إلى كاتب فأحضره، و أعجبه اتقانه و سمته و نصحه، فاستكتبه إلى أن ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستخلصه و حسن اعتقاده فيه، فاستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده، فجعله وزيره و مشيره، بحيث كان لا يصدر أمرا إلا عن مشورته، و لا ينفذ شيئا إلا عن رأيه، و لا يحكم فى قضية إلا بتدبيره، فلما مات صلاح الدين استمرّ على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز عثمان فى المكانة و الرفعة، و تقلد الأمر، فلما مات العزيز و قام من بعده ابنه الملك المنصور بالملك و دبر أمره عمه الأفضل، كان معهما على حاله إلى أن وصل الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام لأخذ ديار مصر، و خرج الأفضل لقتاله، فمات منكوبا أحوج ما كان إلى الموت عند تولى الإقبال و إقبال الإدبار فى سحر يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة، و دفن بتربته من القرافة الصغرى.

قال ابن خلكان وزر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و تمكن منه غاية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۶

التمكن، و برز فى صناعة الإنشاء و فاق المتقدّمين، و له فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره، أنّ مسوّدات رسائله فى المجلدات و التعليقات فى الأوراق، إذا جمعت ما تقصر عن مائة، و هو مجيد فى أكثرها. و قال عبد اللطيف البغدادىّ: دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس و قلب، و هو يكتب و يملى على اثنين، و وجهه و شفتاه تلعب ألوان الحركات لقوّة حرصه فى إخراج الكلام، و كأنه يكتب بجملة أعضائه، و كان لغرام فى الكتابة و تحصيل الكتب، و كان له الدين و العفاف و التقى و المواظبة على أوراد الليل، و الصيام و قراءة القرآن، و كان قليل اللذات كثير الحسنات دائم التهجد، و يشتغل بعلوم الأدب و تفسير القرآن، غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو، و لكن قوّة الدراية توجب له قلة اللحن، و كان لا يكاد يضيع من زمانه شيئا إلّا فى طاعة، و كتب فى الإنشاء ما لم يكتبه غيره.

و حكى لى ابن القطان أحد كتابه قال: لما خطب صلاح الدين بمصر للإمام المستضىء بأمر اللّه، تقدّم إلى القاضى الفاضل بأن يكاتب الديوان العزيز و ملوك الشرق، و لم يكن يعرف خطابهم و اصطلاحهم، فأوغر إلى العماد الكاتب أن يكتب، فكتب و احتفل و جاء بها مفضوضة ليقرأها الفاضل متبجحا بها فقال: لا أحتاج أن أقف عليها، و أمر بختمها و تسليمها إلى النجاب و العماد يبصر. قال: ثم أمرنى أن ألحق النجاب ببلبيس و أن أفض الكتب و أكتب صدورها و نهايتها، ففعلت و رجعت بها إليه، فكتب على حذوها و عرضها على السلطان فارتضاها و أمر بإرسالها إلى أربابها مع النجاب، و كان متقللا فى مطعمه و منكحه و ملبسه، و لباسه البياض لا يبلغ جميع ما عليه دينارين، و يركب معه غلام و ركابىّ، و لا يمكن أحدا أن يصحبه، و يكثر زيارة القبور و تشييع الجنائز و عيادة المرضى، و له معروف فى السرّ و العلانية، و أكثر أوقاته يفطر بعد ما يتهوّر الليل، و كان ضعيف البنية رقيق الصورة له حدبة يغطيها الطيلسان، و كان فيه سوء خلق يكمد به فى نفسه و لا يضرّ أحدا به، و لأصحاب الأدب عنده نفاق يحسن إليهم و لا يمنّ عليهم، و يؤثر أرباب البيوت و الغرباء، و لم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان إليهم أو بالإعراض عنهم، و كان دخله فى كلّ سنة من إقطاع و رباع و ضياع خمسين ألف دينار سوى متاجره للهند و المغرب و غيرهما، و كان يقتنى الكتب من كل فنّ و يجتلبها من كل جهة، و له نسّاخ لا يفترون، و مجلدون لا يبطلون. قال لى بعض من يخدمه فى الكتب: أنّ عددها قد بلغ مائة ألف و أربعة و عشرين ألفا، و هذا قبل موته بعشرين سنة. و حكى لى ابن صورة الكتبىّ: أن ابنه القاضى الأشرف التمس منى أن أطلب له نسخة الحماسة ليقرأها، فأعلمت القاضى الفاضل، فاستحضر من الخادم الحماسات، فأحضر له خمسا و ثلاثين نسخة، و صار ينفض نسخة نسخة و يقول: هذه بخط فلان، و هذه عليها خط فلان، حتى أتى على الجميع و قال: ليس فيها ما يصلح للصبيان، و أمرنى أن أشترى له نسخة بدينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۷

المدرسة الأزكشية

هـذه المدرسـة بالقاهرة على رأس السوق الـذى كان يعرف بالخروقيين، و يعرف اليوم بسويقـة أمير الجيوش، بناها الأمير سـيف الدين أيازكوج الأسـدىّ، مملوك أسد الدين شيركوه، و أحد أمراء السـلطان صـلاح الدين يوسف بن أيوب، و جعلها وقفا على الفقهاء من الحنفيهٔ فقط، فى سـنهٔ اثنتين و تسـعين و خمسمائهٔ، و كان أيازكوج رأس الأمراء الأسدية بديار مصر فى أيام السلطان صلاح الدين، و أيـام ابنه الملك العزيز عثمان، و كان الأمير فخر الـدين جهاركس رأس الصـلاحيهٔ، و لم يزل على ذلك إلى أن مات فى يوم الجمعهٔ ثامن عشر ربيع الآخر سنهٔ تسع و تسعين و خمسمائهٔ، و دفن بسفح المقطم بالقرب من رباط الأمير فخر الدين بن قزل.

المدرسهٔ الفخريهٔ

هـذه المدرسـهٔ بالقاهرهٔ فيما بين سويقـهٔ الصاحب و درب العـدّاس، عمرها الأمير الكبير فخر الـدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومىّ، أسـتادار الملك الكامل محمد بن العادل، و كان الفراغ منها فى سنهٔ اثنتين و عشرين و ستمائهٔ، و كان موضعها أخيرا يعرف بدار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شادّ الدواوين، و مولد الأمير فخر الدين فى سـنهٔ إحدى و خمسـين و خمسمائهٔ بحلب، و تنقل فى الخدم حتى صار أحد الأمراء بديار مصر، و تقدّم فى أيام الملك الكامل، و صار أستاداره و إليه أمر المملكهٔ و تدبيرها إلى أن سافر السلطان من القاهرهٔ يريد بلاد المشرق، فمات بحرّان بعد مرض طويل فى ثامن عشـر ذى الحجهٔ سنهٔ تسع و عشرين و ستمائهٔ، و كان خيّرا كثير الصدقـهٔ يتفقـد أرباب البيوت، و له من الآثار سوى هـذه المدرسـهٔ المسجد الـذى تجاهها، و له أيضا رباط بالقرافهٔ و إلى جانبه كتاب سبيل، و بنى بمكهٔ رباطا.

المدرسهٔ السيفيهٔ

هذه المدرسهٔ بالقاهرهٔ فيما بين خط البندقانيين و خط الملحيين، و موضعها من جملهٔ دار الديباج، قال ابن عبد الظاهر كانت دارا و هى من المدرسـهٔ القطبيـهٔ، فسـكنها شـيخ الشـيوخ، يعنى صدر الدين محمد بن حمويهٔ، و بنيت فى وزارهٔ صـفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكران سيف الإسلام، و وقفها و ولى فيها عماد الدين ولد القاضى صدر الدين، يعنى ابن درباس، و سيف الإسلام هذا اسمه طفتكين بن أيوب.

طفتكين: ظهير الدين سـيف الإسـلام الملك المعز بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الأيوبىّ، سـيّره أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بلاـد اليمن فى سـنهٔ سبع و سبعين و خمسـمائهٔ، فملكها و استولى على كثير من بلادها، و كان شـجاعا كريما مشـكور السيرهٔ حسن السياسهٔ، قصده الناس من البلاد الشاسعهٔ يستمطرون إحسانه و برّه، و سار إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۸

شرف الـدين بن عنين و مـدحه بعـدّهٔ قصائد بديعهٔ، فأجزل صـلاته و أكثر من الإحسان إليه، و اكتسب من جهته مالا وافرا، و خرج من اليمن، فلما قدم إلى مصـر و السـلطان إذ ذاك الملك العزيز عثمان بن صـلاح الدين، ألزمه أرباب ديوان الزكاهٔ بدفع زكاهٔ ما معه من المتجر فعمل:

ما كلّ من يتسمى بالعزيز لهاأهل و لا كلّ برق سحبه غدقه

بين العزيزين فرق فى فعالهماهذاك يعطى و هذا يأخذ الصدقه

و توفى سيف الإسلام فى شوّال سنهٔ ثلاث و تسعين و خمسمائهٔ بالمنصورهٔ، و هى مدينهٔ باليمن اختطها رحمه اللّه تعالى.

المدرسهٔ العاشوريهٔ

هذه المدرسة بحارة زويلة من القاهرة، بالقرب من المدرسة القطبية الجديدة و رحبة كوكاى. قال ابن عبد الظاهر: كانت دار اليهودىّ ابن جميع الطبيب، و كان يكتب لقراقوش، فاشترتها منه الست عاشوراء بنت ساروج الأسدىّ، زوجة الأمير أيازكوج الأسدىّ، و وقفتها على الحنفية، و كانت من الدور الحسنة، و قد تلاشت هذه المدرسة و صارت طول الأيام مغلوقة لا تفتح إلّا قليلا، فإنها فى زقاق لا يسكنه إلّا اليهود و من يقرب منهم فى النسب.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة فى أوّل حارة زويلة برحبة كوكاى، عرفت بالست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون، المعروفة بدار إقبال العلائى، ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و شقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، و إليه نسبت، و كانت ولادتها فى سنة ثلاث و ستمائة، و وفاتها ليلة الرابع و العشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، و كانت قد سمعت الحديث و خرّج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرىّ أحاديث ثمانيات حدّثت بها، و كانت عاقلة دينة فصيحة، لها أدب و صدقات كثيرة، و تركت مالا-جزيلا، و أوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء و قرّاء، و يشترى لها وقف يغلّ، فبنيت هذه المدرسة، و جعل فيها درس للشافعية و درس للحنفية. و قرّاء، و هى إلى اليوم عامرة.

المدرسة الخرّوبية

هذه المدرسة على شاطىء النيل من مدينة مصر، أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن على الخروبىّ، لما أنشأ بيتا كبيرا مقابل بيت أخيه عز الدين قبليه على شاطىء النيل، و جعل فيه هذه المدرسة، و هى ألطف من مدرسة أخيه، و بجنبها مكتب سبيل، و وقف عليها أوقافا، و جعل بها مدرّس حديث فقط، مات بمكة فى آخر المحرّم سنة خمس و ثمانين و سبعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۰۹

مدرسة المحلىّ

هذه المدرسة على شاطىء النيل داخل صناعة التمر ظاهر مدينة مصر، أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علىّ المحلىّ ابن بنت العلامة شمس الدين محمد بن اللبان، و ينتمى فى نسبه إلى طلحة بن عبيد اللّه، أحد العشرة رضى اللّه عنهم، و جعل هذه المدرسة بجوار داره التى عمرها فى مدّة سبع سنين، و أنفق فى بنائها زيادة على خمسين ألف دينار، و جعل بجوارها مكتب سبيل، لكن لم يجعل بها مدرّسا و لا طلبة، و توفى ثانى عشرى ربيع الأوّل سنة ست و ثمانمائة عن مال عظيم، أخذ منه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق مائة ألف دينار، و كان مولده سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و لم يكن مشكور السيرة فى الديانة، و له من المآثر تجديد جامع عمرو بن العاص، فإنه كان قد تداعى إلى السقوط، فقام بعمارته حتى عاد قريبا مما كان عليه، شكر اللّه له ذلك.

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة، فتحت فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى سنة ست و سبعين و ستمائة، و بها درس للطائفة الشافعية، و درس للطائفة الحنفية، أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانىّ السلاحدار، كان مملوكا للأمير نجم الدين أمير حاجب، ثم انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس، فترقّى عنده فى الخدم حتى صار أحد الأمراء الأكابر، و ولاه الأستادارية، و ناب عنه بديار مصر مدّة غيبته، و قدّمه على العساكر غير مرّة، و فتح له بلاد النوبة، و كان و سيما جسيما شجاعا مقداما حازما،

صاحب دراية بالأمور و خبرة بالأحوال و التصرّفات، مدبرا للدول، كثير البرّ و الصدقة، و لما مات الملك الظاهر و قام من بعده فى ملك مصر ابنه الملك السعيد بركة قان، ولّاه نيابة السلطنة بديار مصر بعد موت الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار، فأظهر الحزم و ضم إليه طائفة منهم شمس الدين أقوش، و قطليجا الروميّ، و سيف الدين قليج البغداديّ، و سيف الدين بيجو البغداديّ، و سيف الدين شعبان أمير شكار، و بكتمر السلاحدار، و كانت الخاصكية تكرهه فاتفقوا مع مماليك بيلبك الخازندار على القبض عليه، و تحدّثوا مع الملك السعيد فى ذلك، و ما زالوا به حتى قبضوا عليه بمساعدة الأمير سيف الدين كوندك الساقى لهم، و كان قد ربى مع السعيد فى المكتب، فلم يشعر و هو قاعد بباب القلة من القلعة إلّا و قد سحب و ضرب و نتفت لحيته و جرّ، و قد ارتكب فى إهانته أمر شنيع، إلى البرج فسجن به ليالى قليلة، أخرج منه ميتا فى أثناء سنة ست و سبعين و ستمائة، و جهل قبره.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة خارج باب زويلة من خط حارة حلب بجوار حمّام قمارى، بناها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۰

الحكيم مهذب الدين أبو سعيد محمد بن علم الدين بن أبى الوحش بن أبى الخير بن أبى سليمان بن أبى حليقة، رئيس الأطباء، كان جدّه الرشيد أبو الوحش نصرانيا متقدّما فى صناعة الطب، فأسلم ابنه علم الدين فى حياته، و كان لا يولد له ولد فيعيش، فرأت أمّه و هى حامل به قائلا- يقول: هيئوا له حلقة فضة قد تصدّق بوزنها، و ساعة يوضع من بطن أمّه تثقب أذنه و توضع فيها الحلقة. ففعلت ذلك فعاش، فعاهدت أمّه أباه أن لا يقلعها من أذنه، فكبر و جاءته أولاد و كلهم يموت، فولد له ابنه مهذب الدين أبو سعيد، فعمل له حلقة فعاش، و كان سبب اشتهاره بأبى حليقة أن الملك الكامل محمد بن العادل أمر بعض خدّامه أن يستدعى بالرشيد الطبيب من الباب، و كان جماعة من الأطباء بالباب، فقال الخادم من هو منهم؟ فقال السلطان أبو حليقة، فخرج فاستدعاه بذلك، فاشتهر بهذا الاسم، و مات الرشيد فى سنة ست و سبعين و ستمائة.

المدرسة الخرّوبية

هذه المدرسة بظاهر مدينة مصر تجاه المقياس بخط كرسيّ الجسر، أنشأها كبير الخرابية بدر الدين محمد بن محمد بن عليّ الخروبيّ، بفتح الخاء المعجمة و تشديد الراء المهملة و ضمها ثم واو ساكنة بعدها باء موحدة ثم ياء آخر الحروف، التاجر فى مطابخ السكّر، و فى غيرها بعد سنة خمسين و سبعمائة، و جعل مدرّس الفقه بها الشيخ بهاء الدين عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عقيل، و المعيد الشيخ سراج الدين عمر البلقينى، و مات سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و أنشأ أيضا ربعين بخط دار النحاس من مصر البلقينى، و مات سنة و ربعين مقابل المقياس بالقرب من مدرسته، و لبدر الدين هذا أخ من أبيه أسنّ منه يقال له صلاح الدين أحمد بن محمد بن عليّ الخرّوبيّ، عاش بعد أخيه و أنجب فى أولاده، و أدركت لهم أولادا نجباء، و كان أوّلا قليل المال، ثم تموّل و أنشأ تربة كبيرة بالقرافة، فيما بين تربة الإمام الشافعيّ و تربة الليث بن سعد، مقابل السروتين، و جدّدها حفيده نور الدين عليّ بن عز الدين محمد بن صلاح الدين، و أضاف إليها مطهرة حسنة، و مات سنة تسع و ستين و سبعمائة، و شرط بدر الدين فى مدرسته أن لا يلى بها أحد من العجم. وظيفة من الوظائف. فقال فى كل وظيفة منها، و يكون من العرب دون العجم، و كانت له مكارم، جهز مرّة ابن عقيل إلى الحج بنحو خمسمائة دينار.

المدرسة الخروبية

هذه المدرسة بخط الشون قبليّ دار النحاس من ظاهر مدينة مصر، أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن عليّ

الخرّوبىّ، و هى أكبر من مدرسة عمه بدر الدين، إلّا أنه مات سنة ست و سبعين و سبعمائة قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها، فليس لها مدرّس و لا طلبة، و مولده سنة ست عشرة و سبعمائة، و نشأ فى دنيا عريضة رحمه اللّه تعالى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۱

المدرسة الصاحبية البهائية

هذه المدرسة كانت بزقاق القناديل من مدينة مصر، قرب الجامع العتيق، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم بن حنا فى سنة أربع و خمسين و ستمائة، و كان إذ ذاك زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر، و إنما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف، و كانت أبواب الدور يعلق على كلّ باب منها قنديل. قال القضاعىّ: و يقال أنه كان به مائة قنديل توقد كلّ ليلة على أبواب الأكابر.

و ابن حنا هذا هو علىّ بن محمد بن سليم- بفتح السين المهملة و كسر اللام ثم ياء آخر الحروف بعدها ميم- ابن حنا- بحاء مهملة مكسورة ثم نون مشدّدة مفتوحة بعدها ألف- الوزير الصاحب بهاء الدين، ولد بمصر فى سنة ثلاث و ستمائة، و تنقلت به الأحوال فى كتابة الدواوين إلى أن ولى المناصب الجليلة، و اشتهرت كفايته و عرفت فى الدولة نهضته و درايته، فاستوزره السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ فى ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع و خمسين و ستمائة، بعد القبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، و فوّض إليه تدبير المملكة و أمور الدولة كلها، فنزل من قلعة الجبل بخلع الوزارة و معه الأمير سيف الدين بلبان الرومىّ الدوادار، و جميع الأعيان و الأكابر، إلى داره، و استبدّ بجميع التصرّفات، و أظهر عن حزم و عزم و جودة رأى، و قام بأعباء الدولة من ولايات العمال و عزلهم من غير مشاورة السلطان و لا اعتراض أحد عليه، فصار مرجع جميع الأمور إليه و مصدرها عنه، و منشأ ولايات الخطط و الأعمال من قلمه، و زوالها عن أربابها لا يصدر إلا من قبله، و ما زال على ذلك طول الأيام الظاهرية، فلما قام الملك السعيد بركة قان بأمر المملكة بعد موت أبيه الملك الظاهر، أقرّه على ما كان عليه فى حياة والده، فدبر الأمور و ساس الأحوال، و ما تعرّض له أحد بعداوة و لا سوء، مع كثرة من كان يناويه من الأمراء و غيرهم إلّا و صدّه اللّه عنه، و لم يجد ما يتعلق به عليه، و لا ما يبلغ به مقصوده منه، و كان عطاؤه واسعا و صلاته و كلفه للأمراء و الأعيان و من يلوذ به، و يتعلق بخدمته تخرج عن الحدّ فى الكثرة، و تتجاوز القدر فى السعة مع حسن ظنّ بالفقراء و صدق العقيدة فى أهل الخير و الصلاح، و القيام بمعونتهم و تفقد أحوالهم و قضاء أشغالهم، و المبادرة إلى امتثال أوامرهم، و العفة عن الأموال، حتى أنه لم يقبل من أحد فى وزارته هدية إلّا أن تكون هدية فقير أو شيخ معتقد يتبرّك بما يصل من أثره، و كثرة الصدقات فى السرّ و العلانية، و كان يستعين على ما التزمه من المبرّات و لزمه من الكلف بالمتاجر، و قد مدحه عدّة من الناس فقبل مديحهم و أجزل جوائزهم، و ما أحسن قول الرشيد الفارقىّ فيه:

و قائل لى نبه لنا عمرافقلت إنّ عليا قد تنبه لى

مالى إذا كنت محتاجا إلى عمرمن حاجة فلينم حسبى انتباه على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۲

و قول سعد الدين بن مروان الفارقىّ فى كتاب الدرج المختص به أيضا:

يمم عليا فهو بحر الندىو ناده فى المضلع المعضل

فرفده بحر على مجدبو وفده مفض إلى مفصل

يسرع إن سيل نداه و هل أسرع من سيل أتى من على

إلّا أنه أحدث فى وزارته حوادث عظيمة، و قاس أراضى الأملاك بمصر و القاهرة و أخذ عليها مالا، و صادر أرباب الأموال و عاقبهم حتى مات كثير منهم تحت العقوبة، و استخرج حوالى الذمّة مضاعفة، و رزىء بفقد ولديه الصاحب فخر الدين محمد، و الصاحب

زين الدين، فعوّضه اللّه عنهما بأولادهما، فما منهم إلا نجيب صدر رئيس فاضل مذكور، و ما مات حتى صار جدّ جدّ، و هو على المكانة وافر الحرمة، فى ليلة الجمعة مستهلّ ذى الحجة سنة سبع و سبعين و ستمائة، و دفن بتربته من قرافة مصر، و وزر من بعده الصاحب برهان الدين الخضر بن حسن بن علىّ السنجارىّ، و كان بينه و بين ابن حنا عداوة ظاهرة و باطنة، و حقود بارزة و كامنة، فأوقع الحوطة على الصاحب تاج الدين محمد بن حنا بدمشق، و كان مع الملك السعيد بها، و أخذ خطه بمائة ألف دينار، و جهزه على البريد إلى مصر، ليستخرج منه و من أخيه زين الدين أحمد، و ابن عمه عز الدين تكملة ثلثمائة ألف دينار، و أحيط بأسبابه و من يلوذ به من أصحابه و معارفه و غلمانه، و طولبوا بالمال.

و أوّل من درّس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين محمد، ابن بانيها الوزير الصاحب بهاء الدين إلى أن مات يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة ثمان و ستين و ستمائة، فوليها من بعده ابنه محيى الدين أحمد بن محمد إلى أن توفى يوم الأحد ثامن شعبان سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، فدرّس فيها بعده الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين إلى أن مات فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة أربع و سبعمائة، فدرّس بها ولده الصاحب شرف الدين و توارثها أبناء الصاحب يلون نظرها و تدريسها إلى أن كان آخرهم صاحبنا الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن الصاحب بهاء الدين، وليها بعد أبيه عز الدين، و وليها عز الدين بعد بدر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الصاحب بهاء الدين، فلما مات صاحبنا شمس الدين محمد بن الصاحب لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، وضع بعض نوّاب القضاة يده على ما بقى لها من وقف، و أقامت هذه المدرسة مدّة أعوام معطلة من ذكر اللّه و إقام الصلاة، لا يأويها أحد لخراب ما حولها، و بها شخص يبيت بها كى لا يسرق ما بها من أبواب و رخام، و كان لها خزانة كتب جليلة فنقلها شمس الدين محمد بن الصاحب و صارت تحت يده إلى أن مات، فتفرّقت فى أيدى الناس، و كان قد عزم على نقلها إلى شاطىء النيل بمصر، فمات قبل ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۳

و لما كان فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، أخذ الملك الناصر فرج بن برقوق عمد الرخام التى كانت بهذه المدرسة، و كانت كثيرة العدد جليلة القدر، و عمل بدلها دعائم تحمل السقوف إلى أن كانت أيام الملك المؤيد الشيخ، و ولى الأمير تاج الدين الشوبكىّ الدمشقى ولاية القاهرة و مصر و حسبة البلدين و شدّ العمائر السلطانية، فهدم هذه المدرسة فى أخريات سنة سبع عشرة و أوائل سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة، و كانت من أجلّ مدارس الدنيا و أعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم فى النزول بها و يتشاحنون فى سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم و الثلاثة، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت و سيجهل عن قريب موضعها، و للّه عاقبة الأمور.

المدرسة الصاحبية

هذه المدرسة بالقاهرة فى سويقة الصاحب، كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب بن كلس، و من جملة دار الديباج، أنشأها الصاحب صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، و جعلها وقفا على المالكية، و بها درس نحو و خزانة كتب، و ما زالت بيد أولاده.

فلما كان فى شعبان سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، جدّد عمارتها القاضى علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف بن إبراهيم المعروف بابن الزبير، ناظر الدولة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، و استجدّ فيها منبرا فصار يصلّى بها الجمعة إلى يومنا هذا، و لم يكن قبل ذلك بها منبر و لا تصلّى فيها الجمعة.

عبد اللّه بن علىّ بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن علىّ صفىّ الدين أبو محمد الشنيبىّ الدميرىّ المالكىّ، المعروف بابن شكر، ولد بناحية دميرة إحدى قرى مصر البحرية فى تاسع صفر سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، و مات أبوه فتزوّجت أمّه بالقاضى الوزير الأعز فخر الدين مقدام ابن القاضى الأجل أبى العباس أحمد بن شكر المالكىّ،

فرباه و نوّه باسمه لأنه كان ابن عمه، فعرف به و قيل له ابن شكر، و سمع صفىّ الدين من الفقيه أبى الظاهر إسماعيل بن مكىّ بن عوف، و أبى الطيب عبد المنعم بن يحيى و غيره، و حدّث بالقاهرة و دمشق، و تفقه على مذهب مالك، و برع فيه، و صنف كتابا فى الفقه كان كلّ من حفظه نال منه خطأ وافرا، و قصد بذلك أن يتشبه بالوزير عون الدين بن هبيرة، كانت بداية أمره أنه لما سلّم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و أفرد له من الأبواب الديوانية الزكاة بمصر و الجبس الجيوشى بالبرّين و النطرون و الخراج و ما معه من ثمن القرظ و ساحل السنط و المراكب الديوانية و اسنا و طنبدى، استخدم العادل فى مباشرة ديوان هذه المعاملة الصفىّ بن شكر هذا، و كان ذلك فى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، و من حينئذ اشتهر ذكره و تخصص بالملك العادل، فلما استقل بمملكة مصر فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۴

سنة ست و تسعين و خمسمائة عظم قدره، ثم استوزره بعد الصنيعة بن النجار، فحل عنده محل الوزراء الكبار و العلماء المشاورين، و باشر الوزارة بسطوة و جبروت و تعاظم، و صادر كتاب الدولة و استصفى أموالهم، ففرّ منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد، و استشفع بالخليفة الناصر، و أحضر كتابه إلى الملك العادل يشفع فيه، و هرب منه القاضى علم الدين إسماعيل بن أبى الحجاج صاحب ديوان الجيش، و القاضى الأسعد أسعد بن مماتى صاحب ديوان المال، و التجآ إلى الملك الظاهر بحلب، فأقاما عنده حتى ماتا، و صادر بنى حمدان و بنى الحباب و بنى الجليس، و أكابر الكتاب، و السلطان لا يعارضه فى شىء، و مع ذلك فكان يكثر التغضب على السلطان و يتجنى عليه و هو يحتمله إلى أن غضب فى سنة سبع و ستمائة، و حلف أنه ما بقى يخدم، فلم يحتمله، و ولى الوزارة عوضا عنه القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، و أخرجه من مصر بجميع أمواله و حرمه و غلمانه، و كان نقله على ثلاثين جملا، و أخذ أعداؤه فى إغراء السلطان به و حسنوا له أن يأخذ ماله، فأبى عليهم و لم يأخذ منه شيئا، و سار إلى آمد فأقام بها عند ابن أرتق إلى أن مات الملك العادل فى سنة خمسين و ستمائة، فطلبه الملك الكامل محمد بن الملك العادل لما استبدّ بسلطنة ديار مصر بعد أبيه، و هو فى نوبة قتال الفرنج على دمياط حين رأى أن الضرورة داعية لحضوره بعد ما كان يعاديه، فقدم عليه فى ذى القعدة منها و هو بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط، فتلقاه و أكرمه و حادثه فيما نزل به من موت أبيه و محاربة الفرنج و مخالفة الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب، و اضطراب أرض مصر بثورة العربان، و كثرة خلافهم، فشجعه و تكفل له بتحصيل المال و تدبير الأمور، و سار إلى القاهرة فوضع يده فى مصادرات أرباب الأموال بمصر و القاهرة من الكتاب و التجار، و قرّر على الأملاك مالا، و أحدث حوادث كثيرة، و جمع مالا عظيما أمدّ به السلطان، فكثر تمكنه منه و قويت يده و توفرت مهابته، بحيث أنه لما انقضت نوبة دمياط و عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل كان ينزل إليه و يجلس عنده بمنظرته التى كانت على الخليج، و يتحدّث معه فى مهمات الدولة، و لم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة و هو وزير فى يوم الجمعة ثامن شعبان سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و كان بعيد الغور جماعا للمال ضابطا له من الإنفاق فى غير واجب، قد ملأت هيبته الصدور، و انقاد له على الرغم و الرضى الجمهور، و أخمد جمرات الرجال، و أضرم رمادا لم يخطر إيقاده على بال، و بلغ عند الملك الكامل بحيث أنه بعث إليه بابنيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، و الملك العادل أبى بكر ليزوراه فى يوم عيد فقاما على رأسه قياما، و أنشد زكىّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن وهيب القوصىّ قصيدة زاد فيها حين رأى الملكين قياما على رأسه:

لو لم تقم للّه حقّ قيامه‌ما كنت تقعد و الملوك قيام

و قطع فى وزارته الأرزاق، و كانت جملتها أربعمائة ألف دينار فى السنة، و تسارع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۵

أرباب الحوائج و الأطماع و من كان يخافه إلى بابه، و ملؤا طرقاته و هو يهينهم، و لا يحفل بشيخ منهم و هو عالم، و أوقع بالرؤساء و أرباب البيوت حتى استأصل شأفتهم عن آخرهم، و قدّم الأراذل فى مناصبهم، و كان جلدا قويا حل به مرّة دوسطاريا قوية و أزمنت

فيئس منه الأطباء، و عند ما اشتدّ به الوجع و أشرف على الهلاك، استدعى بعشرة من وجوه الكتاب كانوا فى حبسه و قال: أنتم فى راحة و أنا فى الألم، كلّا و اللّه، و استحضر المعاصير و آلات العذاب و عذبهم فصاروا يصرخون من العذاب و هو يصرخ من الألم طول الليل إلى الصبح، و بعد ثلاثة أيام ركب و كان يقول كثيرا: لم يبق فى قلبى حسرة إلّا كون البيسانيّ لم تتمرّغ شيبته على عتباتى، يعنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ، فإنه مات قبل وزارته، و كان دريّ اللون تعلوه حمرة، و مع ذلك فكان طلق المحيا حلو اللسان حسن الهيئة، صاحب دهاء مع هوج، و خبث فى طيش، و رعونة مفرطة، و حقد لا تخبو ناره، ينتقم و يظنّ أنه لم ينتقم، فيعود، و كان لا ينام عن عدوّه و لا يقبل معذرة أحد، و يتخذ الرؤساء كلهم أعداءه و لا يرضى لعدوّه بدون الهلاك و الاستئصال، و لا يرحم أحدا إذا انتقم منه، و لا يبالى بعاقبة، و كان له و لأهله كلمة يرونها و يعملون بها. كما يعمل بالأقوال الإلهية، و هى إذا كنت دقماقا فلا تكن وتدا، و كان الواحد منهم يعيدها فى اليوم مرّات و يجعلها حجة عند انتقامه، و كان قد استولى على الملك العادل ظاهرا و باطنا، و لا يمكن أحدا من الوصول إليه، حتّى الطبيب و الحاجب و الفرّاش عليهم عيون له لا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خوفا منه، و كان أكبر أغراضه إبادة أرباب البيوت و محو آثارهم و هدم ديارهم و تقريب الأسقاط و شرار الفقهاء، و كان لا يأخذ من مال السلطان فلسا و لا ألف دينار، و يظهر أمانة مفرطة، فإذا لاح له مال عظيم احتجنه، و بلغ إقطاعه فى السنة مائة ألف دينار و عشرين ألف دينار، و كان قد عمى فأخذ يظهر جلدا عظيما و عدم استكانة، و إذا حضر إليه الأمراء و الأكابر و جلسوا على خوانه يقول: قدّموا اللون الفلانيّ للأمير فلان و الصدر فلان، و القاضى فلان، و هو يبنى أموره فى معرفة مكان المشار إليه برموز و مقدّمات، يكابر فيها دوائر الزمان، و كان يتشبه فى ترسله بالقاضى الفاضل، و فى محاضراته بالوزير عون الدين بن هبيرة، حتى اشتهر عنه ذلك، و لم يكن فيه أهلية هذا لكنه كان من دهاة الرجال، و كان إذا لحظ شخصا لا يقنع له إلا بكثرة الغنى و نهاية الرفعة، و إذا غضب على أحد لا يقنع فى شأنه إلا بمحو أثره من الوجود، و كان كثيرا ما ينشد:

إذا حقّرت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا

و ينشد كثيرا:

تودّ عدوّى ثمّ تزعم أننى صديقك إنّ الرأى عنك لعازب

و أخذه مرّة مرض من حمى قوية، و حدث به النافض، و هو فى مجلس السلطان ينفذ الأشغال، فما تأثر و لا ألقى جنبه إلى الأرض حتى ذهبت و هو كذلك، و كان يتعزز على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۶

الملوك الجبابرة، و تقف الرؤساء على بابه من نصف الليل و معهم المشاعل و الشمع، و عند الصباح يركب فلا يراهم و لا يرونه، لأنه إمّا أن يرفع رأسه إلى السماء تيها، و إمّا أن يعرّج إلى طريق غير التى هم بها، و إمّا أن يأمر الجنادرة التى فى ركابه بضرب الناس و طردهم من طريقه. و يكون الرجل قد وقف على بابه طول الليل، إمّا من أوّله أو من نصفه بغلمانه و دوابه، فيطرد عنه و لا يراه، و كان له بوّاب يأخذ من الناس مالا- كثيرا و مع ذلك يهينهم إهانة مفرطة، و عليه للصاحب فى كل يوم خمسة دنانير، منها ديناران برسم الفقاع، و ثلاثة دنانير برسم الحلوى، و كسوة غلمانه و نفقاته عليه أيضا، و مع ذلك اقتنى عقارا و قرى، و لما كان بعد موت الصاحب قدم من بغداد رسول الخليفة الظاهر، و هو محيى الدين أبو المظفر بن الجوزيّ، و معه خلعة الخليفة للملك الكامل، و خلع لأولاده، و خلعة للصاحب صفيّ الدين، فلبسها فخر الدين سليمان كاتب الإنشاء، و قبض الملك الكامل على أولاده تاج الدين يوسف، و عز الدين محمد و حبسهما، و أوقع الحوطة على سائر موجوده رحمه اللّه و عفا عنه.

المدرسة الشريفية

هذه المدرسة بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة، وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن

حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبى جميل دحية بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، الجعفرىّ الزينبىّ، أمير الحاج و الزائرين، و أحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية، و تمت فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، و هى من مدارس الفقهاء الشافعية.

قال ابن عبد الظاهر: و جرى له فى وقفها حكاية مع الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، و ذلك أن الملك العادل سيف الدين أبا بكر، يعنى ابن أيوب، لما ملك مصر و كان قد دخلها على أنه نائب للملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، فقوى عليه و قصد الاستبداد بالملك، فأحضر الناس للحلف، و كان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، فقوى عليه و قصد الاستبداد بالملك، فأحضر الناس للحلف، و كان من جملتهم الفقيه ضياء الدين بن الورّاق، فلما شرع الناس فى الحلف قال الفقيه ضياء الدين: ما هذا الحلف، بالأمس حلفتم للمنصور، فإن كانت تلك الأيمان باطلة، فهذه باطلة، و إن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة.

فقال الصاحب صفىّ الدين بن شكر للعادل: أفسد عليك الأمور هذا الفقيه. و كان الفقيه لم يحضر إلى ابن شكر و لا سلّم عليه، فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه و ماله و أملاكه، و اعتقاله بالرصد مرسما عليه فيه، لأنه كان مسجده، فأقام مدّة سنين على هذه الصورة، فلما كان فى بعض الأيام وجد غرّة من المترسمين فحضر إلى دار الوزارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۷

بالقاهرة، فبلغ العادل حضوره، فخرج إليه. فقال له الفقيه: اعلم و اللّه أنى لا- حاللتك و لا- أبرأتك، أنت تتقدّمنى إلى اللّه فى هذه المدّة، و أنا بعدك أطالبك بين يدى اللّه تعالى. و تركه و عاد إلى مكانه، فحضر الشريف فخر الدين بن ثعلب إلى الملك العادل فوجده متألما حزينا، فسأله، فعرّفه. فقال: يا مولانا و لم تجرّد السم فى نفسك؟ فقال: خذ كل ما وقعت الحوطة عليه و كلّ ما استخرج من أجرة أملاكه و طيب خاطره، و أما الفقيه ضياء الدين فإنه أصبح و حضرت إليه جماعة من الطلبة للقراءة عليه. فقال لهم: رأيت البارحة النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم و هو يقول: يكون فرجك على يد رجل من أهل بيتى صحيح النسب، فبينما هم فى الحديث و إذا بغبرة ثارت من جهة القرافة، فانكشفت عن الشريف ابن ثعلب و معه الموجود كله، فلما حضر عرّفه الجماعة المنام، فقال: يا سيدى اشهد على أن جميع ما أملكه وقف و صدقة، شكرا لهذه الرؤيا. و خرج عن كل ما يملكه، و كان من جملة ذلك المدرسة الشريفية لأنها كانت مسكنه و وقف عليها أملاكه، و كذلك فعل فى غيرها، و لم يحالل الفقيه الملك العادل، و مات الملك العادل بعد ذلك، و مات الفقيه بعده بمدّة، و مات الشريف إسماعيل بن ثعلب بالقاهرة فى سابع عشر رجب سنة ثلاث عشرة و ستمائة.

المدرسة الصالحية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقىّ، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين المدرستين، فابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ثالث عشر ذى الحجة سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، و دك أساس المدارس فى رابع عشر ربيع الآخر سنة أربعين، و رتب فيها دروسا أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى و أربعين و ستمائة، و هو أوّل من عمل بديار مصر دروسا أربعة فى مكان، و دخل فى هذه المدارس باب القصر المعروف بباب الزهومة، و موضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن، ثم اختط ما وراء هذه المدارس فى سنة بضع و خمسين و ستمائة، و جعل حكر ذلك للمدرسة الصالحية، و أوّل من درّس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن علىّ بن سرور المقدسىّ الحنبلىّ الصالحىّ، و فى يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و أربعين و ستمائة، أقام الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ الصالحىّ فى نيابة السلطنة بديار مصر، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية هذه مع نوّاب دار العدل، و انتصب لكشف المظالم، و استمرّ جلوسه بها مدّة. ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس، وقف الصاغة التى تجاهها، و أماكن بالقاهرة و بمدينة المحلة

الغربيـة، و قطع أراضـى جزائر بالأعمال الجيزية و الأطفيحية على مدرسين أربعة، عند كل مدرّس معيدان و عدّة طلبة. و ما يحتاج إليه من أئمة و مؤذنين و قومة و غير ذلك، و ثبت وقف ذلك على يد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۸

قاضـى القضاة تقيّ الدين محمد بن الحسـين بن رزين الشافعيّ، و نفذه قاضـى القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة اللّه بن شكر المالكيّ، و ذلك فى سنـة سبع و سبعين و ستمائة، و هى جارية فى وقفها إلى اليوم. فلما كان فى يوم الجمعة حادى عشرى ربيع الأوّل سنة ثلاثين و سبعمائة، رتب الأمير جمال الـدين أقوش المعروف بنائب الكرك جمال الدين الغزاويّ خطيبا بإيوان الشافعية من هذه المدرسة، و جعل له فى كل شهر خمسين درهما، و وقف عليه و على مؤذنين وقفا جاريا، فاستمرّت الخطبة هناك إلى يومنا هذا.

قبة الصالح: هذه القبة بجوار المدرسة الصالحية، كان موضعها قاعة شيخ المالكية، بنتها عصمة الدين والدة خليل شجرة الدر، لأجل مولاها الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما مات، و هو على مقاتلة الفرنج بناحية المنصورة، فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة، فكتمت زوجته شجرة الدر موته خوفا من الفرنج و لم تعلم بذلك أحدا سوى الأمير فخر الدين بن يوسف بن شيخ الشيوخ، و الطواشى جمال الدين محسن فقط، فكتما موته عن كلّ أحد، و بقيت أمور الدولة على حالها، و شجرة الدرّ تخرج المناشير و التواقيع و الكتب و عليها علامة بخط خادم يقال له سهيل، فلا يشك أحد فى أنه خط السلطان، و أشاعت أن السلطان مستمرّ المرض و لا يمكن الوصول إليه، فلم يجسر أحد أن يتفوّه بموت السلطان إلى أن أنفذت إلى حصن كيفا و أحضرت الملك المعظم توران شاه بن الصالح، و أما الملك الصالح فإن شجرة الدرّ أحضرته فى حراقة من المنصورة إلى قلعة الروضة تجاه مدينة مصر من غير أن يشعر به أحد إلّا من أيتمنته على ذلك، فوضع فى قاعة من قاعات قلعة الروضة إلى يوم الجمعة السابع و العشرين من شهر رجب سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فنقل إلى هذه القبة بعد ما كانت شجرة الدرّ قد عمرتها على ما هى عليه، و خلعت نفسها من سلطنة مصر و نزلت عنها لزوجها عز الدين أيبك قبل نقله، فنقله الملك المعز أيبك و نزل و معه الملك الأشرف موسى ابن الملك المسعود و سائر المماليك البحرية و الجمدارية و الأمراء من قلعة الجبل إلى قلعة الروضة، و أخرج الملك الصالح فى تابوت و صلّى عليه بعد صلاة الجمعة، و سائر الأمراء و أهل الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه، و قطع المماليك شعور رؤوسهم و ساروا به إلى هذه الدولة قد لبسوا البياض حزنا عليه، السلطانان و نزلا إلى القبة، و حضر القضاة و سائر المماليك و أهل الدولة و كافة الناس و غلقت الأسواق بالقاهرة و مصر، و عمل عزاء للملك الصالح بين القصرين بالدفوف مدّة ثلاثة أيام، آخرها يوم الاثنين. و وضع عند القبر سناجق السلطان و بقجته و تركاشه و قوسه، و رتب عنده القرّاء على ما شرطت شجرة الدرّ فى كتاب وقفها، و جعلت النظر فيها للصاحب بهاء الدين عليّ بن حنا و ذريته، و هى بيدهم إلى اليوم، و ما أحسن قول الأديب جمال الدين أبى المظفر عبد الرحمن بن أبى سعيد محمد بن محمد بن عمر بن أبى القاسم بن تخمش الواسطيّ، المعروف بابن السنيرة الشاعر، لما مرّ هو و الأمير نور الدين تكريت بالقاهرة بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۱۹

القصرين و نظر إلى تربة الملك الصالح هذه، و قد دفن بقاعة شيخ المالكية فأنشد:

بنيت لأرباب العلوم مدارسالتنجو بها من هول يوم المهالك

و ضاقت عليك الأرض لم تلق منزلاتحلّ به إلّا إلى جنب مالك

و ذلك أن هذه القبة التى فيها قبر الملك الصالح، مجاورة لإيوان الفقهاء المالكية المنتمين إلى الإمام مالك بن أنس رضى اللّه عنه، فقصد التورية بمالك الإمام المشهور، و مالك خازن النار، أعاذنا اللّه منها.

المدرسة الكاملية

هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، و تعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و هى ثانى دار عملت للحديث. فإن أوّل من بنى دارا على وجه الأرض، الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار و وقفها على المشتغلين بالحديث النبوىّ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، و وقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف، و يمتدّ إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر، و هذا الربع من إنشاء الملك الكامل، و كان موضع من جملة القصر الغربىّ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون.

و كان موضع المدرسة سوقا للرقيق و دارا تعرف بابن كستول.

و أوّل من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علىّ بن دحية، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن علىّ بن دحية، ثم الحافظ عبد العظيم المندرىّ، ثم الرشيد العطار. و ما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ست و ثمانمائة، فتلاشت كما تلاشى غيرها، و ولى تدريسها صبىّ لا يشارك الأناسىّ إلّا بالصورة، و لا يمتاز عن البهيمة إلّا بالنطق، و استمرّ فيها دهرا لا يدرّس بها حتى نسيت أو كادت تنسى دروسها، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله.

الملك الكامل: ناصر الدين أبو المعالى محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان الكردىّ الأيوبىّ، خامس ملوك بنى أيوب الأكراد بديار مصر، ولد فى خامس عشرى ربيع الأوّل سنة ست و سبعين و خمسمائة، و خلف أباه الملك العادل على بلاد الشرق، فلما استولى على مملكة مصر، قدم الملك الكامل إلى القاهرة فى سنة ست و تسعين و خمسمائة، و نصبه أبوه نائبا عنه بديار مصر، و أقطعه الشرقية و جعله ولىّ عهده، و حلف له الأمراء، و أسكنه قلعة الجبل، و سكن العادل فى دار الوزارة بالقاهرة و صار يحكم بديار مصر مدّة غيبة الملك العادل ببلاد الشام و غيرها بمفرده. فلما مات الملك العادل ببلاد الشام، استقل الملك الكامل بمملكة مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة و هو على محاربة الفرنج بالمنزلة العادلية قريبا من دمياط،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۰

و قد ملكوا البرّ الغربىّ. فثبت لقتالهم مع ما حدث من الوهن بموت السلطان، و ثارت العربان بنواحى أرض مصر و كثر خلافهم و اشتدّ ضررهم، و قام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين علىّ بن أحمد الهكارىّ، المعروف بابن المشطوب، و كان أجلّ الأمراء الأكابر، و له لفيف من الأكراد الهكارية، يريد خلع الملك الكامل و تمليك أخيه الملك الفائز إبراهيم بن العادل، و وافقه على ذلك كثير من الأمراء، فلم يجد الكامل بدّا من الرحيل فى الليل جريدة، و سار من العادلية إلى أشموم طناح و نزل بها و أصبح العسكر بغير سلطان، فركب كل واحد هواه و لم يعرّج واحد منهم على آخر، و تركوا أثقالهم و سائر ما معهم، فاغتنم الفرنج الفرصة و عبروا إلى برّ دمياط و استولوا على جميع ما تركه المسلمون، و كان شيئا عظيما، و همّ الملك الكامل بمفارقة أرض مصر، ثم إن اللّه تعالى ثبته و تلاحقت العساكر، و بعد يومين قدم عليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق باشموم، فاشتدّ عضده بأخيه، و أخرج ابن المشطوب من العسكر إلى الشام، ثم أخرج الفائز إبراهيم إلى الملوك الأيوبية بالشام و الشرق يستنفرهم لجهاد الفرنج، و كتب الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى شاه يستحثه على الحضور، و صدّر المكاتبة بهذه الأبيات:

يا مسعدى إن كنت حقا مسعفىفانهض بغير تلبث و توقف

و احثت قلوصك مرقلا أو موجفا بتجشم فى سيرها و تعسف

و اطو المنازل ما استطعت و لا تنخإلّا على باب المليك الأشرف

و اقر السلام عليه من عبد لهمتوقع لقدومه متشوّف

و إذا وصلت إلى حماه فقل لهعنى بحسن توصل و تلطف

إن تأت عبدك عن قليل تلقهما بين كلّ مهند و مثقف

أو تبط عن إنجاده فلقاؤهبك فى القيامة فى عراص الموقف

و جدّ الكامل فى قتال الفرنج و أمر بالنفير فى ديار مصر، و أتته الملوك من الأطراف، فقدّر اللّه أخذ الفرنج لدمياط بعد ما حاصروها ستة عشر شهرا و اثنين و عشرين يوما، و وضعوا السيف فى أهلها، فرحل الكامل من أشموم و نزل بالمنصورة و بعث يستنفر الناس، و قوى الفرنج حتى بلغت عدّتهم نحو المائتى ألف راجل، و عشرة آلاف فارس، و قدم عامّة أهل أرض مصر، و أتت النجدات من البلاد الشامية و غيرها، فصار المسلمون فى جمع عظيم إلى الغاية بلغت عدّة فرسانهم خاصة نحو الأربعين ألفا، و كانت بين الفريقين خطوب آلت إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۱

وقوع الصلح، و تسلم المسلمون مدينة دمياط فى تاسع عشرى رجب سنة ثمان عشرة و ستمائة، بعد ما أقامت بيد الفرنج سنة و أحد عشر شهرا تنقص ستة أيام، و سار الفرنج إلى بلادهم، و عاد السلطان إلى قلعة الجبل. و أخرج كثيرا من الأمراء الذين وافقوا ابن المشطوب من القاهرة إلى الشام، و فرّق أخبازهم على مماليكه، ثم تخوّف من أمرائه فى سنة إحدى و عشرين بميلهم إلى أخيه الملك المعظم، فقبض على جماعة منهم و كاتب أخاه الملك الأشرف فى موافقته على المعظم، فقويت الوحشة بين الكامل و المعظم، و اشتدّ خوف الكامل من عسكره و همّ أن يخرج من القاهرة لقتال المعظم فلم يجسر على ذلك، و قدم الأشرف إلى القاهرة فسرّ بذلك سرورا كثيرا و تحالفا على المعاضدة، و سافر من القاهرة فمال مع المعظم، فتحير الكامل فى أمره و بعث إلى ملك الفرنج يستدعيه إلى عكا، و وعده بأن يمكنه من بلاد الساحل، و قصد بذلك أن يشغل سرّ أخيه المعظم.

فلما بلغ ذلك المعظم خطب للسلطان جلال الدين الخوارزمىّ و بعث يستنجد به على الكامل، و أبطل الخطبة للكامل، فخرج الكامل من القاهرة يريد محاربته فى رمضان سنة أربع و عشرين، و سار إلى العباسة، ثم عاد إلى قلعة الجبل و قبض على عدّة من الأمراء و مماليك أبيه لمكاتبتهم المعظم، و أنفق فى العسكر، فاتفق موت الملك المعظم فى سلخ ذى القعدة، و قيام ابنه الملك الناصر داود بسلطنة دمشق، و طلبه من الكامل الموادعة، فبعث إليه خلعة سنية و سنجقا سلطانيا و طلب منه أن ينزل له عن قلعة الشوبك، فامتنع الناصر من ذلك، فوقعت المنافرة بينهما و عهد الملك الكامل إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب و أركبه بشعار السلطنة و أنزله بدار الوزارة، و خرج من القاهرة فى العساكر يريد دمشق، فأخذنا بلس و القدس، فخرج الناصر داود من دمشق و معه عمه الأشرف، و سارا إلى الكامل يطلبان منه الصلح، فلما بلغ ذلك الكامل رحل من نابلس يريد القاهرة، فقدمها الناصر و الأشرف، و أقام بها الناصر و سار الأشرف و المجاهد إلى الكامل فأدركاه بتل العجوز، فأكرمهما و قرّر مع الأشرف انتزاع دمشق من الناصر و إعطاءها للأشرف، على أن يكون للكامل ما بين عقبة أفيق إلى القاهرة، و للأشرف من دمشق إلى عقبة أفيق، و أن يعين بجماعة من ملوك بنى أيوب، فاتفق قدوم الملك الأنبرطور إلى عكا باستدعاء الملك الكامل له، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته و أخذ يلاطفه، و شرع الفرنج فى عمارة صيدا و كانت مناصفة بين المسلمين و الفرنج و سورها خراب، فلما بلغ الناصر موافقة الأشرف للكامل عاد من نابلس إلى دمشق و استعدّ للحرب، فسار إليه الأشرف من تل العجوز و حاصره بدمشق، و أقام الكامل بتل العجوز و قد تورط مع الفرنج فلم يجد بدّا من إعطائهم القدس على أن لا يجدّد سوره و أن تبقى الصخرة و الأقصى مع المسلمين، و يكون حكم قرى القدس إلى المسلمين، و أن القرى التى فيما بين عكا و يافا و بين لد و القدس للفرنج، و انعقدت الهدنة على ذلك لمدّة عشر سنين و خمسة أشهر و أربعين يوما، أولها ثامن ربيع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۲

الأوّل سنة ست و عشرين، و نودى فى القدس بخروج المسلمين منه و تسليمه إلى الفرنج، فكان أمرا مهولا من شدّة البكاء و الصراخ، و خرجوا بأجمعهم فصاروا إلى مخيم الكامل و أذنوا على بابه فى غير وقت الأذان، فشق عليه ذلك و أخذ منهم الستور و قناديل الفضة و الآلات و زجرهم، و قيل لهم امضوا حيث شئتم، فعظم على المسلمين هذا و كثر الإنكار على الملك الكامل و شنعت المقالة

فيه، و عاد الأنبرطور إلى بلاده بعد ما دخل القدس، و كان مسيره فى آخر جمادى الآخرة سنة ست و عشرين. و سيّر الكامل إلى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين و انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس، و رحل من تل العجوز يريد دمشق و الأشرف على محاصرتها، فجدّ فى القتال و اشتدّ الأمر على الناصر إلى أن ترامى فى الليل على الملك الكامل، فأكرمه و أعاده إلى قلعة دمشق، و بعث من تسلمها منه و عوّضه عن دمشق الكرك و الشوبك و الصلت و البلقاء و الأغوار و نابلس و أعمال القدس، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدّة مما ذكر، و تسلم الكامل دمشق فى أوّل شعبان و أعطاها للأشرف، و أخذ منه ما معه من بلاد الشرق، و هى حران و الرّها و سروج و غير ذلك، ثم سار الكامل فأخذ حماه و توجه منها فقطع الفرات، ثم سار إلى جعبر و الرقة و دخل حران و الرّها و رتب أمورها، و أتته الرسل من ماردين و آمد و الموصل و أربل و غير ذلك، و أقيمت له الخطبة بماردين، و بعث يستدعى عساكر الشام لقتال الخوارزميّ و هو بخلاط، ثم رحل الكامل من حرّان لأمور حدثت و سار إلى مصر فدخلها فى شهر رجب سنة سبع و عشرين، و قد تغير على ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب و خلعه من ولاية العهد، و عهد إلى ابنه الملك العادل أبى بكر، ثم سار إلى الإسكندرية فى سنة ثمان و عشرين، ثم عاد إلى مصر و حفر بحر النيل فيما بين المقياس و برّ مصر، و عمل فيه بنفسه و استعمل فيه الملوك من أهله و الأمراء و الجند، فصار الماء دائما فيما بين مصر و المقياس، و انكشف البرّ فيما بين المقياس و الجيزة فى أيام احتراق النيل، و خرج من القاهرة إلى بلاد الشام فى آخر جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين، و استخلف على ديار مصر ابنه العادل و أسكنه قلعة الجبل، و أخذ الصالح معه فدخل دمشق من طريق الكرك، و خرج منها لقتال التتر، و جعل ابنه الصالح على مقدّمته، فسار إلى حران فرحل التتر عن خلاط، ثم رحل إلى الرها و سار إلى آمد و نازلها حتى أخذها، و أنعم على ابنه الصالح بحصن كيفا، و بعثه إليه و عاد إلى مصر فى سنة ثلاثين، فقبض على عدّة من الأمراء.

ثم خرج فى سنة إحدى و ثلاثين إلى دمشق و سار منها و دخل الدربند، و قد أعجبته كثرة عساكره، فإنه اجتمع معه ثمانية عشر طلبا لثمانية عشر ملكا. و قال هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام، و نزل على النهر الأزرق بأوّل بلد الروم، و قد نزلت عساكر الروم و أخذت عليه رأس الدربند و منعوه فتحير لقلة الأقوات عنده و لاختلاف ملوك بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۳

أيوب عليه، و رحل إلى مصر و قد فسد ما بينه و بين الأشرف و غيره، و أخذ ملك الروم الرها و حران بالسيف، فتجهز الكامل و خرج بعساكره من القاهرة فى سنة ثلاث و ثلاثين و سار إلى الرها و نازلها حتى أخذها و هدم قلعتها، و أخذ حران بعد قتال شديد، و بعث بمن كان فيها من الروم إلى القاهرة فى القيود و كانوا زيادة على ثلاثة آلاف نفس، ثم خرج إلى دنيسر و عاد إلى دمشق و سار منها إلى القاهرة فدخلها فى سنة أربع و ثلاثين، ثم خرج فى سنة خمس و ثلاثين و نزل على دمشق و قد امتنعت عليه، فضايقها حتى أخذها من أخيه الملك الصالح إسماعيل، و عوّضه عنها بعلبك و بصرى و غيرهما فى تاسع عشر جمادى الأولى، و نزل بالقلعة و أخذ يتجهز لأخذ حلب، و قد نزل به زكام فدخل فى ابتدائه الحمّام فاندفعت الموادّ إلى معدته فتورم و ثارت فيه حمّى، فنهاه الأطباء عن القيء و حذروه منه فلم يصبر و تقيأ فمات لوقته فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، عن ستين سنة منها ملكه أرض مصر نحو أربعين سنة، استبدّ فيها بعد موت أبيه مدّة عشرين سنة و خمسة و أربعين يوما.

و كان يحب العلم و أهله و يؤثر مجالستهم، و شغف بسماع الحديث النبوىّ، و حدّث و بنى دار الحديث الكاملية بالقاهرة، و كان يناظر العلماء و يمتحنهم بمسائل غريبة من فقه و نحو، فمن أجاب عنها حظى عنده، و كان يبيت عنده بقلعة الجبل عدّة من أهل العلم على أسرّة بجانب سريره ليسامروه، و كان للعلم و الأدب عنده نفاق، فقصده الناس لذلك، و صار يطلق الأرزاق الدارة لمن يقصده لهذا، و كان مهابا حازما سديد الرأى حسن التدبير عفيفا عن الدماء، و كان يباشر أمور مملكته بنفسه من غير اعتماد على وزير و لا غيره، و لم يستوزر بعد الصاحب صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر أحدا، و إنما كان ينتدب من يختاره لتدبير الأشغال و يحضر عنده الدواوين و يحاسبهم بنفسه، و إذا ابتدأت زيادة النيل خرج و كشف الجسور و رتب الأمراء لعملها، فإذا انتهى عمل الجسور

خرج ثانيا و تفقدها بنفسه، فإن وقف فيها على خلل عاقب متوليها أشدّ العقوبة، فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة جيدة، و كان يخرج من زكوات الأموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء و المساكين، و يعين مصرف ذلك لمستحقيه شرعا، و يفرز منه معاليم الفقهاء و الصلحاء، و كان يجلس كلّ ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم فيجتمعون عنده للمناظرة، و كان كثير السياسة حسن المداراة، و أقام على كل طريق خفراء لحفظ المسافرين، إلّا أنه كان مغرما بجمع المال مجتهدا فى تحصيله، و أحدث فى البلاد حوادث سماها الحقوق لم تعرف قبله، و من شعره قوله رحمه اللّه تعالى:

إذا تحققتم ما عند صاحبكممن الغرام فذاك القدر يكفيه

أنتم سكنتم فؤادى و هو منزلكمو صاحب البيت أدرى بالذى فيه

و قال له الطبيب علم الدين أبو النصر جرجس بن أبى حليقة فى اليوم الذى مات فيه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۴

كيف نوم السلطان فى ليلته فأنشد:

يا خليليّ خبرانى بصدقكيف طعم الكرى فإنى نسيت

و دفن أوّلا بقلعة دمشق، ثم نقل إلى جوار جامع بنى أمية و قبره هناك رحمه اللّه تعالى.

المدرسة الصيرمية

هذه المدرسة من داخل باب الجملون الصغير بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش، فيما بينها و بين الجامع الحاكمىّ، بجوار الزيادة، بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب، و توفى فى تاسع عشر صفر سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

المدرسة المسرورية

هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة، كانت دار شمس الخواص مسرور، أحد خدّام القصر، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته، و أن يوقف الفندق الصغير عليها، و كان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده بيعت بعد موته، و تولى ذلك القاضى كمال الدين خضر، و درّس فيها، و كان مسرور ممن اختص بالسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقدّمه على حلقته و لم يزل مقدّما إلى الأيام الكاملية، فانقطع إلى اللّه تعالى و لزم داره إلى أن مات، و دفن بالقرافة إلى جانب مسجده، و كان له برّ و إحسان و معروف، و من آثاره بالقاهرة فندق يعرف اليوم بخان مسرور الصفدىّ و له ربع بالشارع.

المدرسة القوصية

هذه المدرسة بالقاهرة فى درب سيف الدولة بالقرب من درب ملوخيا، أنشأها الأمير الكردىّ والى قوص.

مدرسة بحارة الديلم المدرسة الظاهرية

هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين، كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم، و قد تقدّم ذكرها فى أخبار القصر. و مما دخل فى هذه المدرسة باب الذهب المذكور فى أبواب القصر، فلما أوقع الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ الحوطة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۵

القصور و المناظر، كما تقدّم ذكره، نزل القاضى كمال الدين ظاهر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال، و قوّم قاعة الخيم هذه، و ابتاعها

الشيخ شمس الدين محمد بن العماد إبراهيم المقدسيّ شيخ الحنابلة و مدرّس المدرسة الصالحية النجمية، ثم باعها المذكور للسلطان، فأمر بهدمها و بناء موضعها مدرسة، فابتدىء بعمارتها في ثاني ربيع الآخر سنة ستين و ستمائة، و فرغ منها في سنة اثنتين و ستين و ستمائة، و لم يقع الشروع في بنائها حتى رتب السلطان وقفها، و كان بالشام، فكتب بما رتبه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور، و أن لا يستعمل فيها أحدا بغير أجرة، و لا ينقص من أجرته شيئا، فلما كان يوم الأحد خامس صفر سنة اثنتين و ستين و ستمائة، اجتمع أهل العلم بها و قد فرغ منها و حضر القرّاء و جلس أهل الدروس كلّ طائفة في إيوان، منها الشافعية بالإيوان القبليّ و مدرّسهم الشيخ تقيّ الدين محمد بن الحسن بن رزين الحمويّ، و الحنفية بالإيوان البحريّ و مدرّسهم الصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحلبيّ، و أهل الحديث بالإيوان الشرقيّ و مدرّسهم الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطيّ، و القرّاء بالقراءات السبع بالإيوان الغربيّ و شيخهم الفقيه كمال الدين المحليّ، و قرّروا كلهم الدروس و تناظروا في علومهم، ثم مدّت الأسمطة لهم فأكلوا، و قام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد:

ألا هكذا يبنى المدارس من بنىو من يتغالى في الثواب و في الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همةبها اليوم في الدارين قد بلغ المنا

تجمّع فيها كلّ حسن مفرّقفراقت قلوبا للأنام و أعينا

و مذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيسة منها في سرور و في هنا

و ما هي إلّا جنة الخلد أزلفتله في غد فاختار تعجيلها هنا

و قال السراج الورّاق أيضا قصيدة منها:

مليك له في العلم حبّ و أهلهفلله حبّ ليس فيه ملام

فشيّدها للعلم مدرسة غداعراق إليها شيّق و شآم

و لا تذكرن يوما نظّاميّة لهافليس يضاهي ذا النظّام نظّام

و لا تذكرن ملكا فبيبرس مالكو كلّ مليك في يديه غلام

و لما بناها زعزعت كلّ بيعةمتى لاح صبح فاستقرّ ظلام

و قد برزت كالروض في الحسن انبأتبأنّ يديه في النوال غمام

الم تر محرابا كأنّ أزاهراتفتّح عنهنّ الغداة كمام

و قال الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب:

قصد الملوك حماك و الخلفاءفافخر فإن محلك الجوزاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۶ أنت الذي أمراؤه بين الورىمثل الملوك و جنده أمراء

ملك تزينت الممالك باسمهو تجمّلت بمديحه الفصحاء

و ترفّعت لعلاه خير مدارسحلّت بها العلماء و الفضلاء

يبقى كما يبقى الزمان و ملكهباق له و لحاسديه فناء

كم للفرنج و للتتار ببابهرسل مناها العفو و الإعفاء

و طريقه لبلادهم موطوءةو طريقهم لبلاده عذراء

دامت له الدنيا و دام خلداما أقبل الإصباح و الإمساء

فلما فرغ هؤلاء الثلاثة من إنشادهم أفيضت عليهم الخلع، و كان يوما مشهودا، و جعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، و بنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب اللّه تعالى، و أجرى لهم الجرايات و الكسوة، و أوقف عليها ربع السلطان

خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة و باب الفرج، و يعرف ذلك الخط اليوم به فيقال خط تحت الربع، و كان ربعا كبيرا لكنه خرب منه عدّة دور فلم تعمر، و تحت هذا الربع عدّة حوانيت هى الآن من أجلّ الأسواق، و للناس فى سكناها رغبة عظيمة و يتنافسون فيها تنافسا يرتفعون فيه إلى الحاكم، و هذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة، إلّا أنها قد تقادم عهدها فرثت و بها إلى الآن بقية صالحة، و نظرها تارة يكون بيد الحنفية و أحيانا بيد الشافعية، و ينازع فى نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه، و للّه عاقبة الأمور.

المدرسة المنصورية

هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصوريّ بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هى و القبة التى تجاهها و المارستان، الملك المنصور قلاون الألفيّ الصالحيّ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ، و رتب بها دروسا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، و درسا للطب، و رتب بالقبة درسا للحديث النبوىّ، و درسا لتفسير القرآن الكريم، و ميعادا، و كانت هذه التداريس لا يليها إلّا أجل الفقهاء المعتبرين، ثم هى اليوم كما قيل:

تصدّر للتدريس كلّ مهوّس‌بليسد يسمى بالفقيه المدرّس

فحقّ لأهل العلم أن يتمثلواببيت قديم شاع فى كلّ مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالهاكلاها و حتّى سامها كلّ مفلس

القبة المنصورية: هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية، و هما جميعا من داخل باب المارستان المنصوريّ، و هى من أعظم المبانى الملوكية و أجلّها قدرا، و بها قبر تضمن الملك المنصور سيف الدين قلاون، و ابنه الملك الناصر محمد بن قلاون، و الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون. و بها قاعة جليلة فى وسطها فسقية يصل إليها الماء من فوّارة بديعة الزى، و سائر هذه القاعة مفروش بالرخام الملوّن، و هذه القاعة معدّة لإقامة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۷

الخدّام الملوكية الذين يعرفون اليوم فى الدولة التركية بالطواشية، و أحدهم طواشى، و هذه لفظة تركية، أصلها بلغتهم طابوشى، فتلاعبت بها العامة و قالت طواشى، و هو الخصيّ، و لهؤلاء الخدّام فى كلّ يوم ما يكفيهم من الخبز النقيّ و اللحم المطبوخ، و فى كلّ شهر من المعاليم الوافرة ما فيه غنية لهم، و أدركتهم و لهم حرمة وافرة و كلمة نافذة و جانب مرعيّ، و يعدّ شيخهم من أعيان الناس، يجلس على مرتبة، و بقية الخدّام فى مجالسهم لا يبرحون فى عبادة، و كان يستقرّ فى وظائف هذه الخدمة أكابر خدّام السلطان، و يقيمون عنهم نوّابا يواظبون الإقامة بالقبة، و يرون مع سعة أحوالهم و كثرة أموالهم من تمام فخرهم و كمال سيادتهم، انتماءهم إلى خدمة القبة المنصورية، ثم تلاشى الحال بالنسبة إلى ما كان، و الخدّام بهذه القاعة إلى اليوم، و قصد الملوك بإقامة الخدّام فى هذه القاعة التى يتوصل إلى القبة منها، إقامة ناموس الملك بعد الموت كما كان فى مدّة الحياة، و هم إلى اليوم لا يمكنون أحدا من الدخول إلى القبة، إلّا من كان من أهلها، و للّه دريحى بن حكم البكرىّ الجيانىّ المغربىّ الملقب بالغزال لجماله حيث يقول:

أرى أهل الثراء إذا توفوابنوا تلك المقابر بالصخور

أبو إلّا مباهاة و تيهاعلى الفقراء حتى فى القبور

و فى هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة، و تعرف بدروس وقف الصالح، و ذلك أنّ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون، قصد عمارة مدرسة فاخترمته المنية دون بلوغ غرضه، فقام الأمير ارغون العلائيّ زوج أمه فى وقف قرية تعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية عن أمّ الملك الصالح، فاثبته بطريق الوكالة عنها، و رتب ما كان الملك الصالح إسماعيل قرّره فى حياته لو أنشأ مدرسة، و جعل ذلك الأمير أرغون مرتبا لمن يقوم به فى القبة المنصورية، و هو وقف جليل يتحصل منه فى كل سنة نحو الأربعة آلاف دينار ذهبا. ثم لما كانت الحوادث و خربت الناحية المذكورة، تلاشى أمر وقف الصالح و فيه إلى اليوم

بقيـة، و كان لا يلى تـدريس دروسه إلا قضاة القضاة، فوليه الآن الصبيان و من لا يؤهل لو كان الإنصاف له. و فى هـذه القبة أيضا قرّاء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل و النهار، و هم من جهة ثلاثة أوقاف، فطائفة من جهة وقف الملك الصالح إسماعيل، و طائفة من جهة الوقف السيفىّ، و هو منسوب إلى الملك المنصور سيف الـدين أبى بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاون. و بهذه القبة إمام راتب يصلّى بالخدّام و القرّاء و غيرهم الصلوات الخمس، و يفتح له باب فيما بين القبة و المحراب يدخل منه من يصلّى من الناس، ثم يغلق بعد انقضاء الصلاة. و بهذه القبة خزانة جليلة كان فيها عدّة أحمال من الكتب فى أنواع العلوم، مما وقفه الملك المنصور و غيره، و قـد ذهب معظم هـذه الكتب و تفرّق فى أيـدى الناس. و فى هذه القبة خزانة بها ثياب المقبورين بها، و لهم فرّاش معلوم بمعلوم لتعهدهم، و يوضع ما يتحصل من مال أوقاف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۸

المارستان بهـذه القبة تحت أيدى الخدّام، و كانت العادة أنه إذا أمّر السلطان أحدا من أمراء مصر و الشام فإنه ينزل من قلعة الجبل و عليه التشريف و الشر بوش و توقد له القاهرة، فيمرّ إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، و عمل ذلك من عهد سلطنة المعز أيبك و من بعـده، فنقل ذلك إلى القبة المنصورية و صار الأمير يحلف عند القبر المذكور، و يحضر تحليفه صاحب الحجاب، و تمدّ أسمطة جليلة بهـذه القبـة، ثم ينصرف الأمير و يجلس له فى طول شارع القاهرة إلى القلعة أهل الأغانى لتزفه فى نزوله و صعوده، و كان هذا من جملة منتزهات القاهرة، و قـد بطل ذلك منذ انقرضت دولة بنى قلاون. و من جملة أخبار هذه القبة: أنه لما كان فى يوم الخميس مستهل المحرّم سنة تسعين و ستمائة، بعث الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون بجملة مال تصدّق به فى هذه القبة، ثم أمر بنقل أبيه من القلعة، فخرج سائر الأمراء و نائب السلطنة الأمير بيدرا بدر الدين، و الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس التنوخىّ، و حضروا بعد صلاة العشاء الآخرة و مشوا بأجمعهم قدّام تابوت الملك المنصور إلى الجامع الأزهر، و حضر فيه القضاة و مشايخ الصوفية، فتقدّم قاضى القضاة تقىّ الدين بن دقيق العيد و صلّى على الجنازة، و خرج الجميع أمامها إلى القبة المنصورية حتى دفن فيها، و ذلك فى ليلة الجمعة ثانى المحرّم، و قيل عاشره، ثم عاد الوزير و النائب من الـدهليز خارج القاهرة إلى القبة المنصورية لعمل مجتمع بسبب قراءة ختمة كريمة فى ليلة الجمعة ثامن عشرى صفر منها، و حضر المشايخ و القرّاء و القضاة فى جمع موفور، و فرّق فى الفقراء صدقات جزيلة، و مدّت أسمطة كثيرة، و تفرّقت الناس أطعمتها حتى امتلأت الأيدى بها، و كانت إحدى الليالى الغرّ، كثر الدعاء فيها للسلطان و عساكر الإسلام بالنصر على أعداء الملة، و حضر الملك الأشرف بكرة يوم الجمعة إلى القبة المنصورية و فرّق مالا كثيرا، و كان الملك الأشرف قد برز يريد المسير لجهاد الفرنج و أخذ مدينة عكا، فسار لذلك و عاد فى العشرين من شعبان و قـد فتـح اللّه له مدينة عكا عنوة بالسيف و خرّب أسوارها، و كان عبوره إلى القاهرة من باب النصر و قد زينت القاهرة زينة عظيمة، فعنـد مـا حـاذى بـاب المارسـتان نزل إلى القبـة المنصوريـة و قـد غصت بالقضاة و الأعيان و القرّاء و المشايخ و الفقهاء، فتلقوة كلهم بالـدعاء حتى جلس فأخـذ القرّاء فى القراءة، و قام نجم الـدين محمـد بن فتـح الـدين محمـد بن عبد اللّه بن مهلهل بن غياث بن نصر المعروف بابن العنبرىّ الواعظ، و صعد منبرا نصب له فجلس عليه و افتتح ينشد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد و ما فيه من الأجر، فلم يسعد فيها بحظ، و ذلك أنه افتتحها بقوله:

زرو الديك وقف على قبريهمافكأننى بك قد نقلت إليهما

فعند ما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه و نهض قائما و هو يسب الأمير بيدرا نائب السلطنة لشدّة حنقه و قال: ما وجد هذا شيئا يقوله سوى هذا البيت فاخذ بيدرا فى تسكين حنقه و الاعتذار له عن ابن العنبرىّ، بأنه قد انفرد فى هذا الوقت بحسن الوعظ و لا نظير له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۲۹

فيه، إلّا أنه لم يرزق سعادة فى هذا الوقت، فلم يصغ السلطان إلى قوله و سار فانفض المجلس على غير شىء، و صعد السلطان إلى قلعة الجبل، ثم بعد أيام سأل السلطان عن وقف المارستان و أحب أن يجدّد له وقفا من بلاد عكا التى افتتحها بسيفه، فاستدعى القضاة و

شاورهم فيما همّ به من ذلك، فرغّبوه فيه و حثوه على المبادرة إليه، فعين أربع ضياع من ضياع عكار و صور ليقفها على مصالح المدرسة و القبة المنصورية ما تحتاج إليه من ثمن زيت و شمع و مصابيح و بسط و كلفة الساقية، و على خمسين مقرئا يرتبون لقراءة القرآن الكريم بالقبة، و إمام راتب يصلّى بالناس الصلوات الخمس فى محراب القبة، و ستة خدّام يقيمون بالقبة، و هى الكابرة و تل الشيوخ و كردانة و ضواحيها من عكا و من ساحل صور معركة و صدفين، و كتب بذلك كتاب وقف و جعل النظر فى ذلك لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس.

فلما تمّ ذلك تقدّم بعمل مجتمع بالقبة لقراءة ختمة كريمة. و ذلك ليلة الاثنين رابع ذى القعدة سنة تسعين و ستمائة، فاجتمع القرّاء و الوعاظ و المشايخ و الفقراء و القضاة لذلك، و خلع على عامة أرباب الوظائف و الوعاظ، و فرّقت فى الناس صدقات جمة و عمل مهم عظيم احتفل فيه الوزير احتفالا زائدا، و بات الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة و الأمير الوزير شمس الدين محمد بن السلعوس بالقبة، و حضر السلطان و معه الخليفة الحاكم بأمر اللّه أحمد و عليه سواده، فخطب الخليفة خطبة بليغة حرّض فيها على أخذ العراق من التتار، فلما فرغ من المهمّ أفاض السلطان على الوزير تشريفا سنيا، و فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين و ستمائة، اجتمع القرّاء و الوعاظ و الفقهاء و الأعيان بالقبة المنصورية لقراءة ختمة شريفة، و نزل السلطان الملك الأشرف و تصدّق بمال كثير، و آخر من نزل إلى القبة المنصورية من ملوك بنى قلاون السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و حضر عنده بالقبة مشايخ العلم و بحثوا فى العلم، و زار قبر أبيه و جدّه، ثم خرج فنظر فى أمر المرضى بالمارستان و توجه إلى قلعة الجبل.

هذه المدرسة بجوار القبة المنصورية من شرقيها، كان موضعها حمّاما، فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ بإنشاء مدرسة موضعها، فابتدىء فى عملها و وضع أساسها و ارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها، فكان من خلعه ما كان، فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون إلى مملكة مصر، فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، أمر بإتمامها، فكملت فى سنة ثلاث و سبعمائة، و هى من أجلّ مبانى القاهرة، و بابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم، فإنه من الرخام الأبيض البديع الزىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۲۲۹

فائق الصناعة، و نقل إلى القاهرة من مدينة عكا، و ذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاون لما فتح عكا عنوة فى سابع عشر جمادى الأولى، سنة تسعين و ستمائة، أقام الأمير علم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۰

الدين سنجر الشجاعىّ لهدم أسوارها و تخريب كنائسها، فوجد هذه البوّابة على باب كنيسة من كنائس عكا، و هى من رخام، قواعدها و أعضادها و عمدها، كل ذلك متصل بعضه ببعض، فحمل الجميع إلى القاهرة و أقام عنده إلى أن قتل الملك الأشرف، و تمادى الحال على هذا أيام سلطنة الملك الناصر محمد الأولى، فلما خلع و تملك كتبغا، أخذ دار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدىّ ليعملها مدرسة، فدل على هذه البوّابة فأخذها من ورثة الأمير بيدرا، فإنها كانت قد انتقلت إليه، و عملها كتبغا على باب هذه المدرسة. فلما خلع من الملك و أقيم الناصر محمد، اشترى هذه المدرسة قبل إتمامها و الإشهاد بوقفها، و ولى شراءها وصيه قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، و أنشأ بجوار هذه المدرسة من داخل بابها قبة جليلة، لكنها دون قبة أبيه، و لما كملت نقل إليها أمّه بنت سكباى بن قراجين، و وقف على هذه المدرسة قيسارية أمير على بخط الشرابشيين من القاهرة، و الربع الذى يعلوها، و كان يعرف بالدهيشة، و وقف عليها أيضا حوانيت بخط باب الزهومة من القاهرة، و دار الطعم خارج مدينة دمشق، فلما مات ابنه انوك من الخاتون طغاى فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و عمره ثمانى عشرة سنة، دفنه بهذه القبة و عمل عليها وقفا يختص بها، و هو باق إلى اليوم يصرف لقرّاء و غير ذلك.

و أوّل من رتّب فى تدريس المدرسة الناصرية من المدرّسين، قاضى القضاة زين الدين علىّ بن مخلوف المالكىّ، ليدرّس فقه

المالكية بالإيوان الكبير القبلى، و قاضى القضاة شرف الدين عبد الغنىّ الحرّانىّ، ليدرّس فقه الحنابلة بالإيوان الغربىّ، و قاضى القضاة أحمد بن السروجىّ الحنفىّ، ليدرّس فقه الحنفية بالإيوان الشرقىّ، و الشيخ صدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل الشافعىّ، ليدرّس فقه الشافعية بالإيوان البحرىّ. و قرّر عند كلّ مدرّس منهم عدّة من الطلبة، و أجرى عليهم المعاليم، و رتب بها إماما يؤمّ بالناس فى الصلوات الخمس، و جعل بها خزانة كتب جليلة، و أدركت هذه المدرسة و هى محترمة إلى الغاية، يجلس بدهليزها عدّة من الطواشية، و لا يمكن غريب أن يصعد إليها، و كان يفرّق بها على الطلبة و القرّاء و سائر أرباب الوظائف بها السكّر فى كلّ شهر، لكل أحد منهم نصيب، و يفرّق عليهم لحوم الأضاحى فى كلّ سنة، و قد بطل ذلك و ذهب ما كان لها من الناموس، و هى اليوم عامرة من أجلّ المدارس.

المدرسة الحجازية

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية، كان موضعها بابا من أبواب القصر يعرف بباب الزمرّذ، أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، زوجة الأمير بكتمر الحجازىّ، و به عرفت.

و جعلت بهذه المدرسة درسا للفقهاء الشافعية، قرّرت فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۱

عمر بن رسلان البلقينىّ، و درسا للفقهار المالكية، و جعلت بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، و رتبت لها إماما راتبا يقيم بالناس الصلوات الخمس، و جعلت بها خزانة كتب، و أنشأت بجوارها قبة من داخلها لتدفن تحتها، و رتبت بشباك هذه القبة عدّة قرّاء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلا و نهارا، و أنشأت بها منارا عاليا من حجارة ليؤذن عليه، و جعلت بجوار المدرسة مكتبا للسبيل فيه عدّة من أيتام المسلمين، و لهم مؤدّب يعلمهم القرآن الكريم، و يجرى عليهم فى كلّ يوم لكل منهم من الخبز النقىّ خمسة أرغفة، و مبلغ من الفلوس، و يقام لكل منهم بكسوتى الشتاء و الصيف، و جعلت على هذه الجهات عدّة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية، و كان يفرّق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك و الخشكنانك، و فى عيد الأضحى اللحم، و فى شهر رمضان يطبخ لهم الطعام، و قد بطل ذلك و لم يبق غير المعلوم فى كل شهر، و هى من المدارس الكبسة، و عهدى بها محترمة إلى الغاية يجلس عدّة من الطواشية، و لا يمكنون أحدا من عبور القبة التى فيها قبر خوند الحجازية إلّا القرّاء فقط وقت قراءتهم خاصة. و اتفق مرّة أن شخصا من القرّاء كان فى نفسه شىء من أحد رفقائه، فأتى إلى كبير الطواشية بهذه القبة و قال له: أن فلانا دخل اليوم إلى القبة و هو بغير سراويل، فغضب الطواشى من هذا القول و عدّ ذلك ذنبا عظيما و فعلا محذورا، و طلب ذلك المقرئ و أمر به فضرب بين يديه و صار يقول له: تدخل على خوند بغير سراويل، و همّ بإخراجه من وظيفة القراءة لو لا ما حصل من شفاعة الناس فيه، و كان لا يلى نظر هذه المدرسة إلّا الأمراء الأكابر، ثم صار يليها الخدّام و غيرهم، و كان إنشاؤها فى سنة احدى و ستين و سبعمائة، و لما ولى الأمير جمال الدين يوسف البجاسىّ وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق، و عمر بجانب هذه المدرسة البحاسىّ وظيفة أستادارية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق، و عمر بجانب هذه المدرسة داره، ثم مدرسته، صار يحبس فى المدرسة الحجازية من يصادره أو يعاقبه حتى امتلأت بالمسجونين و الأعوان المرسمين عليهم، فزالت تلك الأبهة و ذهب ذلك الناموس، و اقتدى بجمال الدين من سكن بعده من الأستادارية فى داره، و جعلوا هذه المرسة سجنا، و مع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة إلى الآن.

المدرسة الطيبرسية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر من القاهرة، و هى غربية مما يلى الجهة البحرية، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارىّ نقيب

الجيوش، و جعلها مسجدا للّه تعالى زيادة فى الجامع الأزهر، و قرّر بها درسا للفقهاء الشافعية، و أنشأ بجوارها ميضأة و حوض ماء سبيل ترده الدواب، و تأنق فى رخامها و تذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع زى و أحسن قالب و أبهج ترتيب، لما فيها من إتقان العمل و جودة الصناعة بحيث أنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام، فان جميعه أشكال المحاريب، و بلغت النفقة عليها جملة كثيرة، و انتهت عمارتها فى سنة تسع و سبعمائة، و لها بسط تفرش فى يوم الجمعة كلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۲

منقوشة بأشكال المحاريب أيضا، و فيها خزانة كتب و لها إمام راتب.

طيبرس: بن عبد اللّه الوزيرىّ، كان فى ملك الأمير بدر الدين بيلبك مملوك الخازندار الظاهرىّ نائب السلطنة، ثم انتقل إلى الأمير بدر الدين بيدرا، و تنقل فى خدمته حتى صار نائب الصبيبة، و رأى مناما للمنصور لاجين يدل على أنه يصير سلطان مصر، و ذلك قبل أن يتقلد السلطنة و هو نائب الشام، فوعده إن صارت إليه السلطنة أن يقدّمه و ينوّه به، فلما تملك لاجين استدعاه و ولاه نقابة الجيش بديار مصر عوضا عن بلبان الفاخرىّ، فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، فباشر النقابة مباشرة مشكورة إلى الغاية، من إقامة الحرمة و أداء الأمانة و العفة المفرطة، بحيث أنه ما عرف عنه أنه قبل من أحد هدية البتة مع التزام الديانة و المواظبة على فعل الخير و الغنى الواسع، و له من الآثار الجميلة الجامع و الخانقاه بأراضى بستان الخشاب المطلة على النيل خارج القاهرة، فيما بينها و بين مصر بجوار المنشأة، و هو أوّل من عمر فى أراضى بستان الخشاب، و قد تقدّم ذكر ذلك، و من آثاره أيضا هذه المدرسة البديعة الزى، و له على كل من هذه الأماكن أوقاف جليلة، و لم يزل فى نقابة الجيش إلى أن مات فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة و سبعمائة، و دفن فى مكان بمدرسته هذه، و قبره بها إلى وقتنا هذا، و وجد له من بعده مال كثير جدّا، و أوصى إلى الأمير علاء الدين علىّ الكوارنىّ، و جعل الناظر على وصيته الأمير أرغون نائب السلطنة، و اتفق انه لما فرغ من بناء هذه المدرسة أحضر إليه مباشروه حساب مصروفها، فلما قدّم إليه استدعى بطشت فيه ماء و غسل أوراق الحساب بأسرها من غير أن يقف على شيء منها و قال: شيء خرجنا عنه للّه تعالى لا نحاسب عليه، و لهذه المدرسة شبابيك فى جدار الجامع تشرف عليه، و يتوصل من بعضها إليه، و ما عمل ذلك حتى استفتى الفقهاء فيه فأفتوه بجواز فعله، و قد تداولت أيدى نظار السوء على أوقاف طيبرس هذا فخرب أكثرها و خرب الجامع و الخانقاه، و بقيت هذه المدرسة عمرها اللّه بذكره.

المدرسة الأقبغاوية

هذه المدرسة بجوار الجامع الأزهر على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحرىّ، و هى تشرف بشبابيك على الجامع مركبة فى جداره، فصارت تجاه المدرسة الطيبرسية. كان موضعها دار الأمير الكبير عز الدين أيدمر الحلىّ نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس، و ميضأة للجامع، فأنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاون، و جعل بجوارها قبة و منارة من حجارة منحوتة، و هى أوّل مئذنة عملت بديار مصر من الحجر بعد المنصورية، و إنما كانت قبل ذلك تبنى بالآجر، بناها هى و المدرسة المعلم ابن السيوفىّ رئيس المهندسين فى الأيام الناصرية، و هو الذى تولى بناء جامع الماردينىّ خارج باب زويلة، و بنى مئذنته أيضا. و هى مدرسة مظلمة ليس عليها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۳

بهجة المساجد و لا أنس بيوت العبادات شيء البتة، و ذلك أن أقبغا عبد الواحد اغتصب أرض هذه المدرسة بأن أقرض ورثة أيدمر الحلىّ مالا، و أمهل حتى تصرّفوا فيه ثم أعسفهم فى الطلب و ألجأهم إلى أن أعطوه دارهم، فهدمها و بنى موضعها هذه المدرسة، و أضاف إلى اغتصاب البقعة أمثال ذلك من الظلم، فبناها بأنواع من الغصب و العسف، و أخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، و حشر لعملها الصناع من البنائين و النجارين و الحجارين و المرخمين و الفعلة، و قرّر مع الجميع أن يعمل كل

منهم فيها يوما فى كلّ أسبوع بغير أجرة، فكان يجتمع فيها فى كل أسبوع سائر الصناع الموجودين بالقاهرة و مصر، فيجدّون فى العمل نهارهم كله بغير أجرة، و عليهم مملوك من مماليكه ولّاه شدّ العمارة، لم ير الناس أظلم منه و لا أعتى و لا أشدّ بأسا و لا أقسى قلبا و لا أكثر عنتا، فلقى العمال منه مشقات لا توصف، و جاء مناسبا مولاه. و حمل مع هذا إلى هذه العمارة سائر ما يحتاج إليه من الأمتعة و أصناف الآلات و أنواع الاحتياجات من الحجر و الخشب و الرخام و الدهان و غيره من غير أن يدفع فى شىء منه ثمنا البتة، و إنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان. فإنه كان من جملة ما بيده شدّ العمائر السلطانية، و ناسب هذه الأفعال أنه ما عرف عنه قط أنه نزل إلى هذه العمارة إلّا و ضرب فيها من الصناع عدّة ضربا مؤلما، فيصير ذلك الضرب زيادة على عمله بغير أجرة، فيقال فيه: كملت خصالك هذه بعمارى.

فلما فرغ من بنائها جمع فيها سائر الفقهاء و جميع القضاة، و كان الشريف شرف الدين علىّ بن شهاب الدين الحسين بن محمد بن الحسين نقيب الأشراف و محتسب القاهرة حينئذ، يؤمّل أن يكون مدرّسها، و سعى عنده فى ذلك فعمل بسطا على قياسها بلغ ثمنها ستة آلاف درهم فضة، و رشاه بها ففرشت هناك، و لما تكامل حضور الناس بالمدرسة و فى الذهن أنّ الشريف يلى التدريس، و عرف أنه هو الذى أحضر البسط التى قد فرشت، قال الأمير أقبغا لمن حضر: لا أولى فى هذه الأيام أحدا، و قام فتفرّق الناس، و قرّر فيها درسا للشافعية ولى تدريسه ... و درسا للحنفية ولى تدريسه ... و جعل فيها عدّة من الصوفية و لهم شيخ، و قرّر بها طائفة من القرّاء يقرءون القرآن بشباكها، و جعل فيها عدّة من الصوفية و لهم و فرّاشين و قومة و مباشرين، و جعل النظر للقاضى الشافعىّ بديار مصر، و شرط فى كتاب وقفه أن لا يلى النظر أحد من ذريته، و وقف على هذه الجهات حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع، و قرية بالوجه القبلى. و هذه المدرسة عامرة إلى يومنا هذا، إلّا أنه تعطل منها الميضأة و أضيفت إلى ميضأة الجامع لتغلّب بعض الأمراء بمواطأة بعض النظار على بئر الساقية التى كانت برسمها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۴

اقبغا عبد الواحد: الأمير علاء الدين، أحضره إلى القاهرة التاجر عبد الواحد بن بدال، فاشتراه منه الملك الناصر محمد بن قلاون و لقبه باسم تاجره الذى أحضره، فحظى عنده و عمله شادّ العمائر، فنهض فيها نهضة أعجب منه السلطان و عظمه حتى عمله أستادار السلطان بعد الأمير مغلطاى الجمالىّ، فى المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و ولاه مقدّم المماليك، فقويت حرمته و عظمت مهابته حتى صار سائر من فى بيت السلطان يخافه و يخشاه، و ما برح على ذلك إلى أن مات الملك الناصر و قام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، فقبض عليه فى يوم الاثنين سلخ المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و أمسك أيضا ولديه و أحيط بماله و سائر أملاكه، و رسم عليه الأمير طيبغا المجدىّ و بيع موجوده من الخيل و الجمال و الجوارى و القماش و الأسلحة و الأوانى، فظهر له شىء عظيم إلى الغاية، من ذلك أنه بيع بقلعة الجبل، و بها كانت تعمل حلقات مبيعة سراويل امرأته بمبلغ مائتى ألف درهم فضة، عنها نحو عشرة آلاف دينار ذهب، و بيع له أيضا قبقاب و شرموزة و خف نسائىّ بمبلغ خمسة و سبعين ألف درهم فضة، عنها زيادة على ثلاثة آلاف دينار، و بيعت بدلة مقانع بمائة ألف درهم، و كثرت المرافعات عليه من التجار و غيرهم، فبعث السلطان إليه شادّ الدواوين يعرّفه أنه أقسم بتربة الشهيد، يعنى أباه، أنه متى لم يعط هؤلاء حقهم و إلّا سمّرتك على جمل و طفت بك المدينة، فشرع أقبغا فى استرضائهم و أعطاهم نحو المائتى ألف درهم فضة، ثم نزل إليه الوزير نجم الدين محمود بن سرور المعروف بوزير بغداد و معه الحاج إبراهيم بن صابر مقدّم الدولة، لمطالبته بالمال، فأخذا منه لؤلؤا و جواهر نفيسة و صعدا بها إلى السلطان، و كان سبب هذه النكبة أنه كان قد تحكم فى أمور الدولة السلطانية و أرباب الأشغال أعلاهم و أدناهم بما اجتمع له من الوظائف، و كان عنده فرّاش غضب عليه و أوجعه ضربا، فانصرف من عنده و خدم فى دار الأمير أبى بكر ولد السلطان، فبعث أقبغا يستدعى بالفرّاش إليه، فمنعه منه أبو بكر و أرسل إليه مع أحد مماليكه يقول له:

إنى أريد أن تهبنى هذا الغلام و لا تشوّش عليه، فلما بلّغه المملوك الرسالة اشتدّ حنقه و سبه سبا فاحشا و قال له: قل لأستاذك يسيّر

الفرّاش و هو جيد له. و كان قبل ذلك اتفق أن الأمير أبا بكر خرج من خدمة السلطان إلى بيته، فإذا الأمير أقبغا قد بطح مملوكا و ضربه، فوقف أبو بكر بنفسه و سأل أقبغا فى العفو عن المملوك و شفع فيه، فلم يلتفت أقبغا إليه و لا نظر إلى وجهه، فخجل أبو بكر من الناس لكونه وقف قائما بين يدى أقبغا و شفع عنده فلم يقم من مجلسه لوقوفه، بل استمرّ قاعدا و أبو بكر واقف على رجليه، و لا قبل مع ذلك شفاعته، و مضى و فى نفسه منه حنق كبير. فلما عاد إليه مملوكه و بلّغه كلام أقبغا بسبب هذا الفرّاش، أكد ذلك عنده ما كان من الأحنة، و أخذ فى نفسه إلى أن مات أبوه الملك الناصر و عهد إليه من بعده، و كان قد التزم أنه إن ملّكه اللّه، ليصادرنّ أقبغا و ليضربنّه بالمقارع.

و قال للفراش: اقعد فى بيتى، و إذا حضر أحد لأخذك عرفت ما أعمل معه. و أخذ أقبغا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۵

يترقب الفرّاش، و أقام أناسا للقبض عليه فلم يتهيأ له مسكه.

فلما أفضى الأمر إلى أبى بكر، استدعى الأمير قوصون و كان هو القائم حينئذ بتدبير أمور الدولة، و عرّفه ما التزمه من القبض على أقبغا و أخذ ماله و ضربه بالمقارع، و ذكر له و لعدّة من الأمراء ما جرى له منه، و كان لقوصون بأقبغا عناية، فقال للسلطان: السمع و الطاعة، يرسم السلطان بالقبض عليه و مطالبته بالمال، فإذا فرغ ماله يفعل السلطان ما يختاره. و أراد بذلك تطاول المدّة فى أمر أقبغا، فقبض عليه و وكل به رسل ابن صابر، حتى أنه بات ليلة قبض عليه من غير أن يأكل شيئا، و فى صبيحة تلك الليلة تحدّث الأمراء مع السلطان فى نزوله إلى داره محتفظا به حتى يتصرّف فى ماله و يحمله شيئا بعد شيء، فنزل مع المجدى و باع ما يملكه و أورد المال. فلما قبض على الحاج إبراهيم بن صار و أقيم ابن شمس موضعه، أرسله السلطان إلى بيت أقبغا ليعصره و يضربه بالمقارع و يعذبه، فبلغ ذلك الأمير قوصون، فمنع منه و شنّع على السلطان كونه أمر بضربه بالمقارع، و أمر بمراجعته، فحنق من ذلك و أطلق لسانه على الأمير قوصون، فلم يزل به من حضره من الأمراء حتى سكت على مضض.

و كان قوصون يدبر فى انتقاض دولة أبى بكر إلى أن خلعه و أقام بعده أخاه الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاون، و عمره نحو السبع سنين، و تحكم فى الدولة. فأخرج أقبغا هو و ولده من القاهرة و جعله من جملة أمراء الدولة بالشام، فسار من القاهرة فى تاسع ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة على حيز الأمير مسعود بن خطير بدمشق و معه عياله، فأقام بها إلى أن كانت فتنة الملك الناصر أحمد بن محمد بن قلاون و عصيانه بالكرك على أخيه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاون، فاتهم أقبغا بأنه بعث مملوكا من مماليكه إلى الكرك، و أن الناصر أحمد خلع عليه، و ضربت البشائر بقلعة الكرك و أشاع أن أمراء الشام قد دخلوا فى طاعته و حلفوا له، و أن أقبغا قد بعث إليه مع مملوكه يبشره بذلك، فلما وصل إلى الملك الصالح كتاب عساف أخى شطى بذلك، وصل فى وقت وروده كتاب نائب الشام الأمير طقزدمر يخبر فيه بأن جماعة من أمراء الشام قد كاتبوا أحمد بالكرك و كاتبهم، و قد قبض عليهم و من جملتهم أقبغا عبد الواحد، فرسم بحمله مقيدا، فحمل من دمشق إلى الإسكندرية و قتل بها فى آخر سنة أربع و أربعين و سبعمائة.

و كان من الظلم و الطمع و التعاظم على جانب كبير، و جمع من الأموال شيئا كثيرا، و أقام جماعة من أهل الشرّ لتتبع أولاد الأمراء و تعرّف أحوال من افتقر منهم أو احتاج إلى شيء، فلا يزالون به حتى يعطوه مالا على سبيل القرض بفائدة جزيلة إلى أجل، فإذا استحق المال أعسفه فى الطلب و ألجأه إلى بيع ماله من الأملاك، و حلها إن كانت وقفا بعنايته به، و عين لعمل هذه الحيل شخصا يعرف بابن القاهرىّ، و كان إذا دخل لأحد من القضاة فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۶

شراء ملك أو حل وقف لا يقدر على مخالفته و لا يجد بدّا من موافقته. و من غريب ما يحكى عن طمع أقبغا، أن مشدّ الحاشية دخل عليه و فى إصبعه خاتم بفص أحمر من زجاج له بريق، فقال له أقبغا: إيش هو هذا الخاتم، فأخذ يعظمه و ذكر أنه من تركة أبيه. فقال:

بكم حسبوه عليك؟ فقال: بأربعمائة درهم. فقال: أرنيه. فناوله إياه فأخذه و تشاغل عنه ساعة ثم قال له: و اللّه فضيحة أن نأخذ خاتمك، و لكن خذه أنت و هات ثمنه، و دفعه إليه و ألزمه بإحضار الأربعمائة درهم، فما وسعه إلّا أن أحضرها إليه، فعاقبه اللّه بذهاب ماله و غيره، و موته غريبا.

المدرسة الحسامية

هذه المدرسة بخط المسطاح من القاهرة قريبا من حارة الوزيرية، بناها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورىّ نائب السلطنة بديار مصر، إلى جانب داره، و جعلها برسم الفقهاء الشافعية، و هى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق، و يسلك منها إلى درب العدّاس و إلى حارة الوزيرية و إلى سويقة الصاحب و باب الخوخة و غير ذلك، و كان بجانبها طبقة لخياط فطلبت منه بثلاثة أمثال ثمنها فلم يبعها، و قيل لطرنطاى لو طلبته لاستحيى منك، فلم يطلبه و تركه و طبقته و قال: لا أشوّش عليه.

طرنطاى: بن عبد اللّه الأمير حسام الدين المنصورىّ، رباه الملك المنصور قلاون صغيرا و رقاه فى خدمه إلى أن تقلد سلطنة مصر، فجعله نائب السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحىّ، و خلع عليه فى يوم الخميس رابع عشر رمضان سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فباشر ذلك مباشرة حسنة إلى أن كانت سنة خمس و ثمانين، فخرج من القاهرة بالعساكر إلى الكرك و فيها الملك المسعود نجم الدين خضر و أخوه بدر الدين سلامش، ابنا الملك الظاهر بيبرس، فى رابع المحرّم، و سار إليها فوافاه الأمير بدر الدين الصوّانىّ بعساكر دمشق فى ألفى فارس، و نازلا الكرك و قطعا الميرة عنها و استفسدا رجال الكرك حتى أخذا خضرا و سلامش بالأمان فى خامس صفر، و تسلم الأمير عز الدين طرنطاى الموصلىّ نائب الشوبك مدينة الكرك و استقرّ فى نيابة السلطنة بها، و بعث الأمير طرنطاى بالبشارة إلى قلعة الجبل، فوصل البريد بذلك فى ثامن صفر، ثم قدم بابنى الظاهر، فخرج السلطان إلى لقائه فى ثانى عشر ربيع الأوّل و أكرم الأمير طرنطاى و رفع قدره ثم بعثه إلى أخذ صهيون و بها سنقر الأشقر، فسار بالعساكر من القاهرة فى سنة ست و ثمانين، و نازلها و حصرها حتى نزل إليه سنقر بالأمان و سلّم إليه قلعة صهيون، و سار به إلى القاهرة، فخرج السلطان إلى لقائه و أكرمه.

و لم يزل على مكانته إلى أن مات الملك المنصور و قام فى السلطنة بعده ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون، فقبض عليه فى يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۷

و ثمانين، و عوقب حتى مات يوم الاثنين خامس عشرة بقلعة الجبل، و بقى ثمانية أيام بعد قتله مطروحا بحبس القلعة، ثم أخرج فى ليلة الجمعة سادس عشرى ذى القعدة و قد لف فى حصير و حمل على جنوية إلى زاوية الشيخ أبى السعود بالقرافة، فغسله الشيخ عمر السعودىّ شيخ الزاوية و كفنه من ماله و دفنه خارج الزاوية ليلا، و بقى هناك إلى سلطنة العادل كتبغا، فأمر بنقل جثته إلى تربته التى أنشأها بمدرسته هذه.

و كان سبب القبض عليه و قتله، أن الملك الأشرف كان يكرهه كراهة شديدة، فإنه كان يطرح جانبه فى أيام أبيه، و يغض منه و يهين نوّابه و يؤذى من يخدمه، لأنه كان يميل إلى أخيه الملك الصالح علاء الدين علىّ بن قلاون، فلما مات الصالح علىّ و انتقلت ولاية العهد إلى الأشرف خليل بن قلاون، مال إليه من كان ينحرف عنه فى حياة أخيه إلّا طرنطاى، فإنه ازداد تماديا فى الإعراض عنه و جرى على عادته فى أذى من ينسب إليه، و أغرى الملك المنصور بشمس الدين محمد بن السلعوس ناظر ديوان الأشرف حتى ضربه و صرفه عن مباشرة ديوانه، و الأشرف مع ذلك يتأكد حنقه عليه و لا يجد بدّا من الصبر إلى أن صار له الأمر بعد أبيه، و وقف الأمير طرنطاى بين يديه فى نيابة السلطنة على عادته و هو منحرف عنه لما أسلفه من الإساءة عليه، و أخذ الأشرف فى التدبير عليه إلى أن نقل له عنه أنه يتحدّث سرّا فى إفساد نظام المملكة و إخراج الملك عنه، و أنه قصد أن يقتل السلطان و هو راكب فى الميدان الأسود

الذی تحت قلعة الجبل عند ما يقرب من باب الإصطبل، فلم يحتمل ذلک.
و عندها سير أربعة ميادين و الأمير طرنطای و من وافقه عند باب سارية حتى انتهى إلى رأس الميدان و قرب من باب الإصطبل، و فی الظنّ أنه يعطف إلى باب سارية ليكمل التسيير على العادة، فعطف إلى جهة القلعة و أسرع و دخل من باب الإصطبل، فبادر الأمير طرنطای عندما عطف السلطان و ساق فيمن معه ليدركوه، ففاتهم و صار بالإصطبل فيمن خف معه من خواصه، و ما هو إلّا أن نزل الأشرف من الركوب فاستدعى بالأمير طرنطای، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا المنصوریّ عن الدخول إليه و حذره منه و قال له: و اللّه إنی أخاف عليک منه فلا تدخل عليه إلا فی عصبة تعلم أنهم يمنعونک منه إن وقع أمر تكرهه، فلم يرجع إليه و غرّه أن أحدا لا يجسر عليه لمهابته فی القلوب و مكانته من الدولة، و أن الأشرف لا يبادره بالقبض عليه و قال لكتبغا: و اللّه لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهنی. و قام و مشى إلى السلطان و دخل و معه كتبغا، فلما وقف على عادته بادر إليه جماعة قد أعدّهم السلطان و قبضوا عليه، فأخذه اللكم من كلّ جانب و السلطان يعدّد ذنوبه و يذكر له إساءته و يسبه.
فقال له يا خوند: هذا جميعه قد عملته معک، و قدّمت الموت بين يدیّ، و لكن و اللّه لتندمنّ من بعدی. هذا و الأيدی تتناوب عليه حتى أنّ بعض الخاصكية قلع عينه و سحب إلى السجن، فخرج كتبغا و هو يقول: إيش أعمل و يكرّرها، فأدركه الطلب و قبض عليه أيضا، ثم آل آمر كتبغا بعد ذلک إلى أن ولی سلطنة مصر، و أوقع الأشرف الحوطة على أموال طرنطای
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۸
و بعث إلى داره الأمير علم الدين سنجر الشجاعیّ، فوجد له من العين ستمائة ألف دينار، و من الفضة سبعة عشر ألف رطل و مائة رطل مصری، عنها زيادة على مائة و سبعين قنطارا فضة سوى الأوانی، و من العدد و الأسلحة و الأقمشة و الآلات و الخيول و المماليک ما يتعذر إحصاء قيمته، و من الغلات و الأملاک شیء كثير جدّا، و وجد له من البضائع و الأموال المسفرة على اسمه و الودائع و المقارضات و القنود و الأعسال و الأبقار و الأغنام و الرقيق و غير ذلک شیء يجل وصفه، هذا سوى ما أخفاه مباشروه بمصر و الشام، فلما حملت أمواله إلى الأشرف جعل يقلبها و يقول:
من عاش بعد عدوّه يوما فقد بلغ المنى
و اتفق بعد موت طرنطای أن ابنه سأل الدخول على السلطان الأشرف فأذن له، فلما وقف بين يديه جعل المنديل على وجهه و كان أعمى، ثم مدّ يده و بكى و قال: شیء للّه، و ذكر أنّ لأهله أياما ما عندهم ما يأكلونه، فرق له و أفرج عن أملاک طرنطای و قال: تبلغوا بريعها، فسبحان من بيده القبض و البسط.

المدرسة المنكوتمرية

هذه المدرسة بحارة بهاء الدين من القاهرة، بناها بجوار داره الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامیّ نائب السلطنة بديار مصر، فكملت فی صفر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و عمل بها درسا للمالكية قرّر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن أبی القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسیّ المالكیّ، و درسا للحنفية درّس فيه ... و جعل فيها خزانة كتب و جعل عليها وقفا ببلاد الشام، و هی اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها، و أمرها متلاش و هی من المدارس الحسنة.
منكوتمر: هو أحد مماليک الملک المنصور حسام الدين لاجين المنصوریّ، ترقى فی خدمته و اختص به اختصاصا زائدا إلى أن ولی مملكة مصر بعد كتبغا، فی سنة ست و تسعين و ستمائة، فجعله أحد الأمراء بديار مصر، ثم خلع عليه خلع نيابة السلطنة عوضا عن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوریّ، يوم الأربعاء النصف من ذی القعدة، فخرج سائر الأمراء فی خدمته إلى دار النيابة و باشر النيابة بتعاظم كثير، و أعطى المنصب حقه من الحرمة الوافرة و المهابة التی تخرج عن الحدّ، و تصرّف فی سائر أمور الدولة من غير أن يعارضه السلطان فی شیء البتة، و بلغت عبرة إقطاعه فی السنة زيادة على مائة ألف دينار.

و لما عمل الملک المنصور الروک المعروف بالروک الحسامیّ، فوّض تفرقة منالات

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۳۹

إقطاعات الأجناد له، فجلس فی شباک دار النيابة بقلعة الجبل، و وقف الحجاب بين يديه، و أعطی لکل تقدمة منالات، فلم يجسر أحد أن يتحدّث فی زيادة و لا نقصان خوفا من سوء خلقه و شدّة حمقه، و بقی أياما فی تفرقة المنالات و الناس علی خوف شديد. فإنّ أقلّ الإقطاعات کان فی أيام الملک المنصور قلاون عشرة آلاف درهم فی السنة، و أکثره ثلاثين ألف درهم. فرجع فی الروک الحسامیّ أکثر إقطاعات الحلقة إلی مبلغ عشرين ألف درهم و ما دونها، فشق ذلک علی الأجناد، و تقدّم طائفة منهم و رموا منالاتهم التی فرّقت عليهم، لأن الواحد منهم وجد مناله بحق النصف مما کان له قبل الروک، و قالوا لمنکوتمر: إما أن تعطونا ما يقوم بکلفنا و إلّا فخذوا أخبازکم و نحن نخدم الأمراء أو نصير بطالين. فغضب منکوتمر و أخرق بهم و تقدّم إلی الحجاب فضربوهم، و أخذوا سيوفهم و أودعوهم السجون، و أخذ يخاطب الأمراء بفحش و يقول: أيما قوّاد شکا من خبزه؟ و يقول نقول للسلطان فعلت به، و فعلت إيش يقول للسلطان، إن رضی يخدم و إلّا إلی لعنة اللّه، فشق ذلک علی الأمراء و أسرّوا له الشرّ، ثم إنه لم يزل بالسلطان حتی قبض علی الأمير بدر الدين بيسری، و حسن له إخراج أکابر الأمراء من مصر، فجرّدهم إلی سيس، و أصبح و قد خلا له الجوّ، فلم يرض بذلک حتی تحدّث مع خوشداشيته بأنه لا بدّ أن ينشئ له دولة جديدة و يخرج طفجی و کرجی من مصر، ثم إنه جهز حمدان بن صلغای إلی حلب فی صورة أنه يستعجل العساکر من سيس، و قرّر معه القبض علی عدّة من الأمراء، و أمّر عدّة أمراء جعلهم له عدّة و ذخرا، و تقدّم إلی الصاحب فخر الدين الخليلیّ بأن يعمل أوراقا تتضمن أسماء أرباب الرواتب ليقطع أکثرها، فلم تدخل سنة ثمان و تسعين حتی استوحشت خواطر الناس بمصر و الشام من منکوتمر، وزاد حتی أراد السلطان أن يبعث بالأمير طغا إلی نيابة طرابلس، فتنصل طغا من ذلک، فلم يعفه السلطان منه، و ألح منکوتمر فی إخراجه و أغلظ للأمير کرجی فی القول، و حط علی سلار و بيبرس الجاشنکير و أنظارهم، و غض منهم، و کان کرجی شرس الأخلاق ضيق العطن سريع الغضب، فهمّ غير مرّة بالفتک بمنکوتمر، و طفجی يسکن غضبه، فبلغ السلطان فساد قلوب الأمراء و العسکر، فبعث قاضی القضاة حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرومیّ الحنفیّ إلی منکوتمر يحدّثه فی ذلک و يرجعه عما هو فيه، فلم يلتفت إلی قوله و قال: أنا مالی حاجة بالنيابة، أريد أخرج مع الفقراء فلما بلغ السلطان عنه ذلک استدعاه و طيب خاطره و وعده بسفر طفجی بعد أيام، ثم القبض علی کرجی بعده، فنقل هذا للأمراء، فتحالفوا و قتلوا السلطان کما قد ذکر فی خبره، و أوّل من بلغه خبر مقتل السلطان الأمير منکوتمر، فقام إلی شباک النيابة بالقلعة فرأی باب القلة و قد انفتح و خرج الأمراء و الشموع تقد و الضجة قد ارتفعت فقال: و اللّه قد فعلوها، و أمر فغلقت أبواب دار النيابة، و ألبس مماليکه آلة الحرب، فبعث الأمراء إليه بالأمير الحسام أستادار، فعرّفه بمقتل السلطان و تلطف به حتی نزل و هو مشدود الوسط بمنديل، و سار به إلی باب القلة و الأمير طفجی قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۰

جلس فی مرتبة النيابة، فتقدّم إلی طفجی و قبل يده، فقام إليه و أجلسه بجانبه، و قام الأمراء فی أمر منکوتمر يشفعون فيه، فأمر به إلی الجب و أنزلوه فيه، و عندما استقرّ به أدليت له القفة التی نزل فيها، و تصايحوا عليه بالصعود فطلع عليهم، و إذا کرجی قد وقف علی رأس الجبّ فی عدّة من المماليک السلطانية، فأخذ يسب منکوتمر و يهينه و ضربه بلت ألقاه، و ذبحه بيده علی الجبّ و ترکه و انصرف، فکان بين قتل أستاذه و قتله ساعة من الليل، و ذلک فی ليلة الجمعة عاشر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين.

المدرسة القراسنقرية

هذه المدرسة تجاه خانقاه الصلاح سعيد السعداء، فيما بين رحبة باب العيد و باب النصر، کان موضعها و موضع الربع الذی بجانبها الغربیّ مع خانقاه بيبرس، و ما فی صفها إلی حمام الأعسر و باب الجوّانية، کلّ ذلک من دار الوزارة الکبری التی تقدّم ذکرها، أنشأها

الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوريّ نائب السلطنة، سنة سبعمائة. و بنى بجوار بابها مسجدا معلقا و مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب اللّه العزيز، و جعل بهذه المدرسة درسا للفقهاء، و وقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين و غيرها، و لم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرّية الواقف إلى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، ثم انقرضوا. و هى من المدارس المليحة، و كنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام و غيرها لا ينزلون إلّا فى هذه المدرسة حتى يتهيأ سفرهم، و قد بطل ذلك من سنة تسعين و سبعمائة.

قراسنقر بن عبد اللّه: الأمير شمس الدين الجوكندار المنصوريّ، صار إلى الملك المنصور قلاون و ترقى فى خدمته إلى أن ولاه نيابة السلطنة بحلب فى شعبان سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الباشقرديّ، فلم يزل فيها إلى أن مات الملك المنصور و قام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاون، فلما توجه الأشرف إلى فتح قلعة الروم عاد بعد فتحها إلى حلب و عزل قراسنقر عن نيابتها، و ولى عوضه الأمير سيف الدين بلبان الطناحيّ، و ذلك فى أوائل شعبان سنة إحدى و تسعين، و كانت ولايته على حلب تسع سنين. فلما خرج السلطان من مدينة حلب خرج فى خدمته و توجه مع الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بديار مصر فى عدّة من الأمراء لقتال أهل جبال كسروان، فلما عاد سار مع السلطان من دمشق إلى القاهرة و لم يزل بها إلى أن ثار الأمير بيدرا على الأشرف، فتوجه معه و أعان على قتله، فلما قتل بيدرا فرّ قراسنقر و لاجين فى نصف المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة. و اختفيا بالقاهرة إلى أن استقرّ الأمر للملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى نيابة السلطنة و تدبير الدولة الأمير زين الدين كتبغا، فظهرا فى يوم عيد الفطر و كانا عند فرارهما يوم قتل بيدرا أطلعا الأمير بيحاص الزينيّ مملوك الأمير كتبغا نائب السلطنة على حالهما، فأعلم استاذه بأمرهما و تلطف به حتى تحدّث فى شأنهما مع السلطان، فعفا عنهما،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۱

ثم تحدّث مع الأمير بكتاش الفخريّ إلى أن ضمن له التحدّث مع الأمراء، و سعى فى الصلح بينهما و بين الأمراء و المماليك حتى زالت الوحشة، و ظهرا من بيت الأمير كتبغا، فأحضرهما بين يدى السلطان و قبلا الأرض و أفيضت عليهما التشاريف و جعلهما أمراء على عادتهما، و نزلا إلى دورهما فحمل إليهما الأمراء ما جرت العادة به من التقادم، فلم يزل قراسنقر على إمرته إلى أن خلع الملك الناصر محمد بن قلاون من السلطنة و قام من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا، فاستمرّ على حاله إلى أن ثار الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة بديار مصر على الملك العادل كتبغا بمنزلة العوجاء من طريق دمشق، فركب معه قراسنقر و غيره من الأمراء إلى أن فرّ كتبغا، و استمرّ الأمر لحسام الدين لاجين و تلقب بالملك المنصور، فلما استقرّ بقلعة الجبل خلع على الأمير قراسنقر و جعله نائب السلطنة بديار مصر فى صفر سنة ست و تسعين و ستمائة، فباشر النيابة إلى يوم الثلاثاء للنصف من ذى القعدة، فقبض عليه و أحيط بموجوده و حواصله و نوّابه و دواوينه بديار مصر و الشام، و ضيق عليه و استقرّ فى نيابة السلطنة بعده الأمير منكوتمر، و عدّ السلطان من أسباب القبض عليه إسرافه فى الطمع و كثرة الحمايات و تحصيل الأموال على سائر الوجوه، مع كثرة ما وقع من شكاية الناس من مماليكه و من كاتبه شرف الدين يعقوب، فإنه كان قد تحكم فى بيته تحكما زائدا، و عظمت نعمته و كثرت سعادته، و أسرف فى اتخاذ المماليك و الخدم، و انهمك فى اللعب الكثير، و تعدّى طوره و قراسنقر لا يسمع فيه كلاما، و حدّثه السلطان بسببه و أغلظ فى القول و ألزمه بضربه و تأديبه أو إخراجه من عنده، فلم يعبأ بذلك. و ما زال قراسنقر فى الاعتقال إلى أن قتل الملك المنصور لاجين و أعيد الملك الناصر محمد بن قلاون إلى السلطنة فأفرج عنه و عن غيره من الأمراء و رسم له بنيابة الصبيبة فخرج إليها ثم نقل منها إلى نيابة حماه بعد موت صاحبها الملك المظفر تقىّ الدين محمود بسفارة الأمير بيبرس الجاشنكير، و الأمير سلار، ثم نقل من نيابة حماه بعد ملاقاة التتر إلى نيابة حلب، و استقرّ عوضه فى نيابة حماه الأمير زين الدين كتبغا الذى تولى سلطنة مصر و الشام، و ذلك فى سنة تسع و تسعين و ستمائة، و شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر محمد بن قلاون، و لم يزل على نيابة حلب إلى أن خلع الملك الناصر و تسلطن الملك المظفر بيبرس الجاشنكير و صاحب الناصر فى الكرك، فلما تحرّك لطلب الملك و استدعى نوّاب الممالك، أجابه قراسنقر و أعانه برأيه و تدبيره، ثم حضر إليه و هو بدمشق و قدّم له شيئا كثيرا و سار معه إلى مصر حتى جلس على تخت ملكه

بقلعة الجبل، فولاه نيابة دمشق عوضا عن الأمير عز الدين الأفرم في شوّال سنة تسع و سبعمائة، و خرج إليها فسار إلى غزة في عدّة من النوّاب و قبضوا على المظفر بيبرس الجاشنكير و سار به هو و الأمير سيف الدين الحاج بهادر إلى الخطارة، فتلقاهم الأمير استدمر كرجى، فتسلم منهم بيبرس و قيده و أركبه بغلا و أمر قراسنقر و الحاج بهادر بالسير إلى مصر، فشق على قراسنقر تقييد بيبرس، و توهم الشرّ من الناصر، و انزعج لذلك انزعاجا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۲

كثيرا و ألقى كلوتته عن رأسه إلى الأرض و قال لفرّاشه: الدنيا فانية، يا ليتنا متنا و لا رأينا هذا اليوم، فترجل من حضر من الأمراء و رفعوا كلوتته و وضعوها على رأسه، و رجع من فوره و معه الحاج بهادر إلى ناحية الشام و قد ندم على تشييع المظفر بيبرس، فجدّ فى سيره إلى أن عبر دمشق، و فى نفس السلطان منه كونه لم يحضر مع بيبرس، و كان قد أراد القبض عليه، فبعث الأمير نوغاى القبجاقىّ أميرا بالشام ليكون له عينا على الأمير قراسنقر، ففطن قراسنقر لذلك و شرع نوغاى يتحدّث فى حق قراسنقر بما لا يليق حتى ثقل عليه مقامه، فقبض عليه بأمر السلطنة و سجن بقلعة دمشق، ثم إن السلطان صرفه عن نيابة دمشق و ولاه نيابة حلب بسؤاله، و ذلك فى المحرّم سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و كتب السلطان إلى عدّة من الأمراء بالقبض عليه مع الأمير أرغون الدوادار، فلم يتمكن من التحدّث فى ذلك لكثرة ما ضبط قراسنقر أموره و لازمه عند قدومه عليه بتقليد نيابة حلب، بحيث لم يتمكن أرغون من الحركة إلى مكان إلّا و قراسنقر معه، فكثر الحديث بدمشق أن أرغون إنما حضر لمسك قراسنقر، حتى بلغ ذلك الأمراء، و سمعه قراسنقر، فاستدعى بالأمراء و حضر الأمير أرغون فقال قراسنقر: بلغنى كذا و ها أنا أقول إن كان حضر معك مرسوم بالقبض علىّ فلا حاجة إلى فتنة، أنا طائع السلطان، و هذا سيفى خذه، و مدّ يده و حل سيفه من وسطه. فقال أرغون و قد علم أن هذا الكلام مكيدة و أن قراسنقر لا يمكن من نفسه: إنى لم أحضر إلا بتقليد الأمير نيابة حلب بمرسوم السلطان، و سؤال الأمير، و حاشا للّه أن السلطان يذكر فى حق الأمير شيئا من هذا. فقال قراسنقر: غدا نركب و نسافر. و انفض المجلس فبعث إلى الأمراء أن لا يركب أحد منهم لوداعه، و لا يخرج من بيته، و فرّق ما عنده من الحوائص و من الدراهم على مماليكه ليتحملوا به على أوساطهم، و أمرهم بالاحتراس، و قدّم غلمانه و حواشيه فى الليل و ركب وقت الصباح فى طلب عظيم، و كانت عدّة مماليكه ستمائة مملوك قد جعلهم حوله ثلاث حلقات، و أركب أرغون إلى جانبه و سار على غير الجادّة حتى قارب حلب، ثم عبرها فى العشرين من المحرّم و أعاد أرغون بعد ما أنعم عليه بألف دينار و خلعة و خيل و تحف، و أقام بمدينة حلب خائفا يترقب، و شرع يعمل الحيلة فى الخلاص، و صادق العربان، و اختص بالأمير حسام الدين مهنا أمير العرب و بابنه موسى، و أقدمه إلى حلب و أوقفه على كتب السلطان إليه بالقبض عليه، و أنه لم يفعل ذلك و لم يزل به حتى أفسد ما بينه و بين السلطان، ثم أنه بعث يستأذن السلطان فى الحج، فأعجب السلطان ذلك و ظنّ أنه بسفره يتم له التدبير عليه لما كان فيه من الاحتراز الكبير، و أذن له فى السفر و بعث إليه بألفى دينار مصرية، فخرج من حلب و معه أربعمائة مملوك معدّة بالفرس و الجنيب و الهجن، و سار حتى قارب الكرك، فبلغه أن السلطان كتب إلى النوّاب و أخرج عسكرا من مصر إليه، فرجع من طريق السماوة إلى حلب و بها الأمير سيف الدين قرطاى نائب الغيبة، فمنعه من العبور إلى المدينة و لم يمكن أحدا من مماليك قراسنقر أن يخرج إليه، و كانت مكاتبة السلطان قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۳

قدمت عليه بذلك، فرحل حينئذ إلى مهنا أمير العرب و استجار به، فأكرمه و بعث إلى السلطان يشفع فيه، فلم يجد السلطان بدّا من قبول شفاعة مهنا، و خيّر قراسنقر فيما يريد، ثم أخرج عسكرا من مصر و الشام لقتال مهنا، و أخذ قراسنقر فبلغه ذلك فاحترس على نفسه و كتب إلى السلطان يسأله فى صرخد، و قصد بذلك المطاولة، فأجابه إلى ذلك و مكنه من أخذ حواصله التى بحلب، و أعطى مملوكه ألف دينار، فلما قدم عليه لم يطمئن و عبر إلى بلاد الشرق فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فى عدّة من الأمراء يريد خربندا، فلما وصل إلى الرحبة بعث بابنه فرج و معه شىء من أثقاله و خيوله و أمواله إلى السلطان بمصر، ليعتذر من قصده خربندا، و رحل

بمن معه إلى ماردين فتلقاه المغل، و قام له نوّاب خربندا بالإقامات إلى أن قرب الأردوا، فركب خربندا إليه و تلقاه و أكرمه و من معه و أنزلهم منزلا يليق بهم، و أعطى قراسنقر المراغة من عمل أذربيجان، و أعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان، و ذلك فى أوائل سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فلم يزل هناك إلى أن مات خربندا و قام من بعده أبو سعيد بركة بن خربندا، فشق ذلك على السلطان و أعمل الحيلة فى قتل قراسنقر و الأفرم و سير إليهما الفداوية، فجرت بينهم خطوب كثيرة، و مات قراسنقر بالإسهال ببلد المراغة فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، يوم السبت سابع عشرى شوّال، قبل موت السلطان بيسير، فلما بلغ السلطان موته فى حادى عشر ذى القعدة عند ورود الخبر إليه قال:

ما كنت أشتهى يموت إلّا من تحت سيفى، و أكون قد قدرت عليه و بلغت مقصودى منه، و ذلك أنه كان قد جهز إليه عددا كثيرا من الفداوية، قتل منهم بسببه مائة و عشرون فداويا بالسيف، سوى من فقد و لم يوقف له على خير، و كان قراسنقر جسيما جليلا صاحب رأى و تدبير و معرفة، و بشاشة وجه، و سماحة نفس، و كرم زائد، بحيث لا يستكثر على أحد شيئا مع حسن الشاكلة و عظم المهابة و السعادة الطائلة، و بلغت عدّة مماليكه ستمائة مملوك، ما منهم إلا من له نعمة ظاهرة و سعادة وافرة، و له من الآثار بالقاهرة هذه المدرسة و دار جليلة بحارة بهاء الدين فيها كان سكنه.

المدرسة الغزنوية

هذه المدرسة برأس الموضع المعروف بسويقة أمير الجيوش تجاه المدرسة اليازكوجية، بناها الأمير حسام الدين قايماز النجمىّ، مملوك نجم الدين أيوب، والد الملوك، و أقام بها الشيخ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن يوسف بن علىّ بن محمد الغزنوىّ البغدادىّ المقرئ الفقيه الحنفىّ، و درس بها فعرفت به، و كان إماما فى الفقه و سمع على الحافظ السلفىّ و غيره، و قرأ بنفسه و سكن مصر آخر عمره، و كان فاضلا حسن الطريقة متدينا، و حدّث بالقاهرة بكتاب الجامع لعبد الرزاق بن همام، فرواه عنه جماعة، و جمع كتابا فى الشيب و العمر، و قرأ عليه أبو الحسن السخاوىّ، و أبو عمرو بن الحاجب، و مولده ببغداد فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة، و توفى بالقاهرة يوم الاثنين

النصف من ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و خمسمائة، و هى من مدارس الحنفية.

المدرسة البوبكرية

هذه المدرسة بجوار درب العباسى قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة، بناها الأمير سيف الدين اسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرىّ، و وقفها على الفقهاء الحنفية، و بنى بجانبها حوض ماء للسبيل و سقاية و مكتبا للأيتام، و ذلك فى سنة اثنتين و سبعين و سبعمائة، و بنى قبالتها جامعا، فمات قبل إتمامه و كان يسكن دار بدر الدين الأمير طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسامية، تجاه سوق الجوارى، فلذلك أنشأ هذه المدرسة بهذا المكان لقربه منه، ثم لما كانت سنة خمس عشرة و ثمانمائة، جدّد بهذه المدرسة منبرا و صار يقام بها الجمعة. اسنبغا بن بكتمر الأمير ... .

المدرسة البقرية

هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمىّ المجاور للمنبر، و يتوصل من هذا الزقاق إلى ناحية العطوف، بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل، تصغير غزال، المعروف بابن البقرىّ، أحد مسالمة القبط و ناظر الذخيرة فى أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاون، و هو خال الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ، و أصله من قرية تعرف بدار البقر، إحدى قرى الغربية،

نشأ على دين النصارى، و عرف الحساب و باشر الخراج إلى أن أقدمه الأمير شرف الدين بن الأزكشىّ استادار السلطان و مشير الدولة فى أيام الناصر حسن، فاسلم على يديه، و خاطبه بالقاضى شمس الدين، و خلع عليه و استقرّ به فى نظر الذخيرة السلطانية، و كان نظرها حينئذ من الرتب الجليلة، و أضاف إليه نظر الأوقاف و الأملاك السلطانية، و رتبه مستوفيا بمدرسة الناصر حسن، فشكرت طريقته و حمدت سيرته و أظهر سيادة و حشمة، و قرّب أهل العلم من الفقهاء، و تفضل بأنواع من البرّ، و أنشأ هذه المدرسة فى أبدع قالب و أبهج ترتيب، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، و قرّر فى تدريسها شيخنا سراج الدين عمر بن علىّ الأنصارىّ، المعروف بابن الملقن الشافعىّ، و رتب فيها ميعادا و جعل شيخه صاحبنا الشيخ كمال الدين بن موسى الدميرىّ الشافعىّ، و جعل إمام الصلوات بها المقرئ الفاضل زين الدين أبا بكر بن الشهاب أحمد النحوىّ، و كان الناس يرحلون إليه فى شهر رمضان لسماع قراءته فى صلاة التراويح لشجا صوته، و طيب نغمته، و حسن أدائه، و معرفته بالقراءات السبع و العشر و الشواذ، و لم يزل ابن البقرىّ على حال السيادة و الكرامة إلى أن مرض مرض موته، فأبعد عنه من يلوذ به من النصارى، و أحضر الكمال الدميرىّ و غيره من أهل الخير، فما زالوا عنده حتى مات و هو يشهد شهادة الإسلام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۵

فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، و دفن بمدرسته هذه و قبره بها تحت قبة فى غاية الحسن، و ولى نظر الذخيرة بعده أبو غالب، ثم استجدّ فى هذه المدرسة منبر و أقيمت بها الجمعة فى تاسع جمادى الأولى سنة أربع و عشرين و ثمانمائة بإشارة علم الدين داود الكوبر كاتب السرّ.

المدرسة القطبية

هذه المدرسة بأوّل حارة زويلة مما يلى الخرنشف فى رحبة كوكاى، عرفت بالست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية، المعروفة بدار إقبال العلائى، ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى، و كان وقفها فى سنة خمس و ستمائة، و بها درس للفقهاء الشافعية، و تصدير قراءات و فقهاء يقرءون.

مدرسة ابن المغربىّ

هذه المدرسة آخر درب الصقالبة فيما بين سويقة المسعودىّ و حارة زويلة، بناها صلاح الدين يوسف بن ... ابن المغربى رئيس الأطباء، تجاه داره، و مات قبل إكمالها فدفن بعد موته فى قبة تجاه جامعه المطلّ على الخليج الناصرىّ بقرب بركة قرموط، و صارت هذه المدرسة قائمة بغير إكمال إلى أن هدمها بعض ذريته فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، و باع أنقاضها فصار موضعها طاحونة.

المدرسة البيدرية

هذه المدرسة برحبة الأيدمرىّ بالقرب من باب قصر الشوك، فيما بينه و بين المشهد الحسينىّ، بناها الأمير بيدر الأيدمرىّ.

المدرسة البديرية

هذه المدرسة بجوار باب سرّ المدرسة الصالحية النجمية، كان موضعها من جملة تربة القصر التى تقدّم ذكرها، فنبش شخص من الناس يعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسىّ ما هنالك من قبور الخلفاء، و أنشأ هذه المدرسة فى سنة ثمان و خمسين و سبعمائة، و عمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية، درس فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينىّ، و هى مدرسة صغيرة لا يكاد يصعد إليها أحد، و العباسىّ هذا من قرية بطرف الرمل يقال لها العباسية، و له فى مدينة بلبيس مدرسة و قد

تلاشت بعد ما كانت عامرة مليحة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۶

المدرسة الملكية

هذه المدرسة بخط المشهد الحسينىّ من القاهرة، بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار تجاه داره، و عمل فيها درسا للفقهاء الشافعية، و خزانة كتب معتبرة، و جعل لها عدّة أوقاف، و هى إلى الآن من المدارس المشهورة، و موضعها من جملة رحبة قصر الشوك، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر الرحاب من هذا الكتاب، ثم صار موضع هذه المدرسة دارا تعرف بدار ابن كرمون صهر الملك الصالح.

المدرسة الجمالية

هذه المدرسة بجوار درب راشد من القاهرة على باب الزقاق المعروف قديما بدرب سيف الدولة نادر، بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ، و جعلها مدرسة للحنفية، و خانقاه للصوفية، و ولى تدريسها و مشيخة التصوّف بها الشيخ علاء الدين علىّ بن عثمان التركمانىّ الحنفىّ، و تداولها ابنه قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ الحنفىّ، و ابنه قاضى القضاة صدر الدين محمد بن عبد اللّه بن علىّ التركمانىّ الحنفىّ، ثم قريبهم حميد الدين حماد، و هى الآن بيد ابن حميد الدين المذكور، و كان شأن هذه المدرسة كبيرا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية، و تعدّ من أجلّ مدارس القاهرة، و لها عدّة أوقاف بالقاهرة و ظواهرها و فى البلاد الشامية، و قد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها، و تخريبهم أوقافها، و تعطل منها حضور الدرس و التصوّف، و صارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه، و قرب الخراب منها، و كان بناؤها فى سنة ثلاثين و سبعمائة.

مغلطاى: ابن عبد اللّه الجمالىّ، الأمير علاء الدين، عرف بخرز، و هى بالتركية عبارة عن الديك بالعربية، اشتراه الملك الناصر محمد بن قلاون و نقله و هو شاب من الجامكية إلى الأمرة على إقطاع الأمير صارم الدين إبراهيم الإبراهيمىّ نقيب المماليك السلطانية، المعروف بزير الأمرة، فى صفر سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و صار السلطان ينتدبه فى التوجه إلى المهمات الخاصة به، و يطلعه على سرّه، ثم بعثه أمير الركب إلى الحجاز فى هذه السنة، فقبض على الشريف أسد الدين رميثة بن أبى نمىّ صاحب مكة، و أحضره إلى قلعة الجبل فى ثامن عشر المحرّم سنة تسع عشرة و سبعمائة مع الركب، فأنكر عليه السلطان سرعة دخوله لما أصاب الحاج من المشقة فى الإسراع بهم، ثم إنه جعل إستادار السلطان لما قبض على القاضى كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة اللّه ناظر الخواص، عند وصوله من دمشق بعد سفره إليها لإحضار شمس الدين غبريال، فيوم حضر خلع عليه و جعل استادارا عوضا عن الأمير سيف الدين بكتمر العلائىّ، و ذلك فى جمادى الأولى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، ثم أضاف إليه الوزارة و خلع عليه فى يوم الخميس ثامن رمضان سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۷

أربع و عشرين عوضا عن الصاحب أمين الملك عبد اللّه بن الغنام بعد ما استعفى من الوزارة، اعتذر بأنه رجل غتمىّ، فلم يعفه السلطان و قال: أنا أخلى من يباشر معك و يعرّفك ما تعمل، و طلب شمس الدين غبريال ناظر دمشق منها و جعله ناظر الدولة، رفيقا للوزير الجمالىّ، فرفعت قصة إلى السلطان و هو فى القصر من القلعة، فيها الحط على السلطان بسبب تولية الجمالىّ الوزارة و الماس حاجبا، و أنه بسبب ذلك أضاع أوضاع المملكة و أهانها و فرّط فى أموال المسلمين و الجيش، و أن هذا لم يفعله أحد من الملوك، فقد وليت الحجابة لمن لا يعرف يحكم و لا يتكلم بالعربىّ و لا يعرف الإحكام الشرعية، و وليت الوزارة و الاستادارية لشاب لا يعرف يكتب اسمه، و لا يعرف ما يقال له، و لا يتصرّف فى أمور المملكة و لا فى الأموال الديوانية إلا أرباب الأقلام، فإنهم يأكلون المال و

يحيلون على الوزير. فلما وقف السلطان عليها، أوقف عليها القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه، المعروف بالفخر ناظر الجيش. فقال: هذه ورقة الكتّاب البطالين، ممن انقطع رزقه و كثر حسده، و قرّر مع السلطان أن يلزم الوزير ناظر الدولة و ناظر الخواص بإحضار أوراق فى كل يوم تشتمل على أصل الحاصل، و ما حمل فى ذلك اليوم من البلاد و الجهات، و ما صرف.

و أنه لا يصرف لأحد شىء البتة إلّا بأمر السلطان و علمه.

فلما حضر الوزير الجمالىّ أنكر عليه السلطان و قال له: إن الدواوين تلعب بك، و أمر فأحضر التاج إسحاق، و غبريال، و مجد الدين بن لعيبة، و قرّر معهم أن يحضروا آخر كلّ يوم أوراقا بالحاصل و المصروف، و قد فصلت بأسماء ما يحتاج إلى صرفه و إلى شرائه و بيعه، فصاروا يحضرون كلّ يوم الأوراق إلى السلطان و تقرأ عليه، فيصرف ما يختار و يوقف ما يريد، و رسم أيضا أن مال الجيزة كله يحمل إلى السلطان و لا يصرف منه شىء.

ثم لما كانت الفتنة بثغر الإسكندرية بين أهلها و بين الفرنج، و غضب السلطان على أهل الإسكندرية، بعث بالجمالىّ إليها، فسار من القاهرة فى أثناء رجب سنة سبع و عشرين و سبعمائة، و دخل إليها فجلس بالخمس و استدعى بوجوه أهل البلد، و قبض على كثير من العامّة، و وسط بعضهم و قطع أيدى جماعة و أرجلهم، و صادر أرباب الأموال حتى لم يدع أحدا له ثروة، حتى ألزمه بمال كثير، فباع الناس حتى ثياب نسائهم فى هذه المصادرة، و أخذ من التجار شيئا كثيرا مع ترفقه بالناس فيما يرد عليه من الكتب بسفك الدماء، و أخذ الأموال، ثم أحضر العدد التى كانت بالثغر مرصدة برسم الجهاد، فبلغت ستة آلاف عدّة، و وضعها فى حاصل و ختم عليه و خرج من الإسكندرية بعد عشرين يوما و قد سفك دماء كثيرة، و أخذ منها مائتى ألف دينار للسلطان و عاد إلى القاهرة، فلم يزل على حاله إلى أن صرف عن الوزارة فى يوم الأحد ثانى شوّال سنة ثمان و عشرين، و رسم أن توفر وظيفة الوزارة من ولاية وزير، فلم يستقرّ أحد فى الوزارة و بقى الجمالىّ على وظيفة الأستادارية، و كان سبب عزله عن الوزارة توقف حال الدولة و قلة الواصل إليها، فعمل عليه الفخر ناظر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۸

الجيش و التاج إسحاق بسبب تقديمه لمحمد بن لعيبة، فإنه كان قد استقرّ فى نظر الدولة و الصحبة و البيوت و تحكم فى الوزير و تسلم قياده، فكتبت مرافعات فى الوزير و أنه أخذ مالا- كثيرا من مال الجيزة، فخرج الأمير أيتمش المجدىّ بالكشف عليه، و همّ السلطان بإيقاع الحوطة به، فقام فى حقه الأمير بكتمر الساقى حتى عفى عنه و قبض على كثير من الدواوين.

ثم إنه سافر إلى الحجاز، فلما عاد توفى بسطح عقبة إيلة فى يوم الأحد سابع عشر المحرّم سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة. فصبّر و حمل إلى القاهرة و دفن بهذه الخانقاه فى يوم الخميس حادى عشرى المحرّم المذكور بعد ما صلّى عليه بالجامع الحاكمىّ، و ولى السلطان بعده الأستادارية الأمير أقبغا عبد الواحد، و كان ينوب عن الجمالىّ فى الأستادارية الطنقش مملوك الأفرم، نقله إليها من ولاية الشرقية، و كان الجمالىّ حسن الطباع يميل إلى الخير مع كثرة الحشمة، و مما شكر عليه فى وزارته أنه لم يبخل على أحد بولاية مباشرة، و أنشأ ناسا كثيرا، و قصد من سائر الأعمال، و كان يقبل الهدايا و يحب التقادم، فحلت له الدنيا و جمع منها شيئا كثيرا، و كان إذا أخذ من أحد شيئا على ولاية لا يعزله حتى يعرف أنه قد اكتسب قدر ما وزنه له، و لو أكثر عليه فى السعى، فإذا عرف أنه أخذ ما غرمه عزله و ولى غيره، و لم يعرف عنه أنه صادر أحدا و لا- اختلس مالا، و كانت أيامه قليلة الشرّ، إلّا أنه كان يعزل و يولى بالمال، فتزايد الناس فى المناصب، و كان له عقب بالقاهرة غير صالحين و لا مصلحين.

المدرسة الفارسية

هذه المدرسة بخط الفهادين من أوّل العطوفية بالقاهرة، كان موضعها كنيسة تعرف بكنيسة الفهادين، فلما كانت واقعة النصارى فى سنة ست و خمسين و سبعمائة، هدمها الأمير فارس الدين البكىّ، قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجو كندار، و بنى هذه المدرسة

و وقف عليها وقفا يقوم بما تحتاج إليه.

المدرسة السابقية

هذه المدرسة داخل قصر الخلفاء الفاطميين من جملة القصر الكبير الشرقيّ الذى كان داخل دار الخلافة، و يتوصل إلى هذه المدرسة الآن من تجاه حمّام البيسرىّ بخط بين القصرين، و كان يتوصل إليها أيضا من باب القصر المعروف بباب الريح من خط الركن المخلق، و موضعه الآن قيسارية الأمير جمال الدين يوسف الأستادار. بنى هذه المدرسة الطواشى الأمير سابق الدين مثقال الأنوكيّ مقدّم المماليك السلطانية الأشرفية، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، قرّر فى تدريسه شيخنا شيخ الشيوخ سراج الدين عمر بن عليّ الأنصاريّ، المعروف بابن الملقن الشافعيّ، و جعل فيها تصدير قراءات و خزانة كتب، و كتابا يقرأ فيه أيتام المسلمين، و بنى بينها و بين داره التى تعرف بقصر سابق الدين حوض ماء للسبيل، هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما بنى داره المجاورة لهذه المدرسة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۴۹

ولى سابق الدين تقدمة المماليك بعد الطواشى شرف الدين مختصر الطغتمرىّ، فى صفر سنة ثلاث و ستين و سبعمائة، ثم تنكر عليه الأمير يلبغا الخاصكىّ القائم بدولة الملك الأشرف شعبان بن حسين و ضربه ستمائة عصا و سجنه و نفاه إلى أسوان، فى آخر شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و ستين، فلم يكن غير قليل حتى قتل الأمير يلبغا، فاستدعى الأشرف سابق الدين من قوص، و صرف ظهير الدين مختارا المعروف بشاذروان عن التقدمة، و أعاده إليها، فاستمرّ إلى أن مات سنة ست و سبعين و سبعمائة.

المدرسة القيسرانية

هذه المدرسة بجوار المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب، فيما بينها و بين باب الخوخة، كانت دارا يسكنها القاضى الرئيس شمس الدين محمد بن إبراهيم القيسرانىّ أحد موقعى الدست بالقاهرة، فوقفها قبل موته مدرسة، و ذلك فى ربيع الأوّل سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، و توفى سنة اثنتين و خمسين و سبعمائة، و كان حشما كبير الهمة، سعى بالأمير سيف الدين بهادر الدمرداشىّ فى كتابة السرّ بالقاهرة، مكان علاء الدين عليّ بن فضل اللّه العمرىّ، فلم يتم ذلك، و مات الأمير بهادر فانحط جانبه، و كانت دنياه واسعة جدّا، و له عدّة مماليك يتوصل بهم إلى السعى فى أغراضه عند أمراء الدولة، و كان ينسب إلى شح كبير.

المدرسة الزمامية

هذه المدرسة بخط رأس البندقانيين من القاهرة، فيما بين البندقانيين و سويقة الصاحب، بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الروميّ، زمام الآدر الشريفة للسلطان الظاهر برقوق فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة، و جعل بها درسا و صوفية و منبرا يخطب عليه فى كل جمعة، و بينها و بين المدرسة الصاحبية دون مدى الصوت، فيسمع كلّ من صلّى بالموضعين تكبير الآخر، و هذا و أنظاره بالقاهرة من شنيع ما حدث فى غير موضع، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العليّ العظيم على إزالة هذه المبتدعات.

المدرسة الصغيرة

هذه المدرسة فيما بين البندقانيين و طواحين الملحيين، و يعرف خطها ببيت محب الدين ناظر الجيوش، و يعرف أيضا بخط بين العواميد، بنتها الست أيديكن زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصريّ، فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة.

مدرسة تربة أمّ الصالح

هذه المدرسة بجوار المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسىّ، فيما بين القاهرة

و مصر، موضعها من جملة ما كان بستانا، أنشأها الملك المنصور قلاون، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، برسم أمّ الملك الصالح علاء الدين علىّ بن الملك المنصور قلاون، فلما كمل بناؤها نزل إليها الملك المنصور و معه ابنه الصالح علىّ، و تصدّق عند قبرها بمال جزيل، و رتب لها وقفا حسنا على قرّاء و فقهاء. و غير ذلك. و كانت وفاتها فى سادس عشر شوّال سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

مدرسة ابن عزّام

هذه المدرسة بجوار جامع الأمير حسين بحكر جوهر النوبىّ من برّ الخليج الغربىّ خارج القاهرة، أنشأها الأمير صلاح الدين خليل بن عزّام، و كان من فضلاء الناس، تولى نيابة الإسكندرية و كتب تاريخا و شارك فى علوم، فلما قتل الأمير بركة بسجن الإسكندرية ثارت مماليكه على الأمير الكبير برقوق حنقا لقتله، فأنكر الأمير برقوق قتله و بعث الأمير يونس النوروزىّ دواداره لكشف ذلك، فنبش عنه قبره فإذا فيه ضربات عدّة إحداهنّ فى رأسه، فاتهم ابن عزّام بقتله من غير إذن له فى ذلك، فأخرج بركة من قبره و كان بثيابه من غير غسل و لا كفن، و غسله و كفنه، و أحضر ابن عزّام معه فسجن بخزانة شمائل داخل باب زويلة من القاهرة، ثم عصر و أخرج يوم الخميس خامس عشر رجب سنة اثنتين و ثمانين و سبعمائة، من خزانة شمائل، و أمر به فسمّر عريان بعد ما ضرب عند باب القلة بالمقارع ستة و ثمانين بحضرة الأمير قطلودمر الخازندار، و الأمير مامور حاجب الحجاب، فلما أنزل من القلعة و هو مسمر على الجمل أنشد:

لك قلبى بحلّه فدمى لم تحلّه لك من قلبى المكان فلم لا تحلّه

قال إن كنت مالكا فلى الأمر كلّه و ما هو إلّا أن وقف بسوق الخيل تحت القلعة و إذا بمماليك بركة قد أكبت عليه تضربه بسيوفها حتى تقطع قطعا و حز رأسه، و علّق على باب زويلة و تلاعبت أيديهم، فأخذوا حد أذنه، و أخذوا حد رجله، و اشترى آخر قطعة من لحمه و لاكها، ثم جمع ما وجد منه و دفن بمدرسته هذه. فقال فى ذلك صاحبنا الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار:

بدت أجزاء عزّام خليل مقطعة من الضرب الثقيل

و أبدت أبحر الشعر المراثى محرّرة بتقطيع الخليل

المدرسة المحمودية

هذه المدرسة بخط الموازنيين خارج باب زويلة تجاه دار القردمية، يشبه أن موضعها كان فى القديم من جملة الحارة التى كانت تعرف بالمنصورية، أنشأها الأمير جمال الدين

محمود بن علىّ الأستادار فى سنة سبع و تسعين و سبعمائة، و رتب بها درسا، و عمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر و لا الشام مثلها، و هى باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلّا أن يكون فى المدرسة، و بهذه الخزانة كتب الإسلام من كلّ فنّ، و هذه المدرسة من أحسن مدارس مصر.

محمود بن علىّ بن أصفر، عينه الأمير جمال الدين الأستادار ولى شدّ باب رشيد بالإسكندرية مدّة، و كانت واقعة الفرنج بها فى سنة

سبع و ستين و سبعمائة، و هو مشدّ، فيقال إنّ ماله الذى وجد له حصله يومئذ، ثم إنه سار إلى القاهرة فلما كانت أيام الظاهر برقوق خدم أستادارا عند الأمير سودون باق، ثم استقرّ شادّ الدواوين إلى أن مات الأمير بهادر المنجكىّ أستادار السلطان، فاستقرّ عوضا عنه فى وظيفة الأستادارية يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، ثم خلع عليه فى يوم الخميس خامسة، و استقرّ مشير الدولة، فصار يتحدّث فى دواوين السلطنة الثلاثة، و هى الديوان المفرد الذى يتحدّث فيه الأستادار، و ديوان الوزارة و يعرف بالدولة، و ديوان الخاص المتعلق بنظر الخواص، و عظم أمره و نفذت كلمته لتصرّفه فى سائر أمور المملكة. فلما زالت دولة الملك الظاهر برقوق بحضور الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب، فى يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة سنة إحدى و تسعين و سبعمائة بعساكر الشام إلى القاهرة، و اختفى الظاهر ثم أمسكه، هرب هو و ولده، فنهبت دوره، ثم إنه ظهر من الاستتار فى يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة، و قدّم للأمير يلبغا الناصرىّ مالا كثيرا فقبض عليه و قيده و سجنه بقلعة الجبل و أقيم بدله فى الأستادارية الأمير علاء الدين أقبغا الجوهرىّ. فلما زالت دولة يلبغا الناصرىّ بقيام الأمير منطاش عليه، قبض على أقبغا الجوهرىّ فيمن قبض عليه من الأمراء، و أفرج عن الأمير محمود فى يوم الاثنين ثامن شهر رمضان، و ألبسه قباء مطرّزا بذهب و أنزله إلى داره، ثم قبض عليه و سجن بخزانة الخاص فى يوم الأحد سادس عشر ذى الحجة فى عدّة من الأمراء و المماليك، عند عزم منطاش على السفر لحرب برقوق عند خروجه من الكرك و مسيره إلى دمشق، فكانت جملة ما حمله الأمير محمود من الذهب العين للأمير يلبغا الناصرىّ و للأمير منطاش ثمانية و خمسين قنطارا من الذهب المصرىّ، منها ثمانية عشر قنطارا فى ليلة واحدة، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن خرج المماليك مع الأمير بوطا فى ليلة الخميس ثانى صفر سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، فخرج معهم و أقام بمنزله إلى أن عاد الملك الظاهر برقوق إلى المملكة فى رابع عشر صفر، فخلع عليه و استقرّ أستادار السلطان على عادته فى يوم الاثنين تاسع عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة، عوضا عن الأمير قرقماس الطشتمرىّ بعد وفاته، ثم خلع على ولده الأمير ناصر الدين محمد بن محمود فى يوم الخميس ثانى عشرى صفر سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و استقرّ نائب السلطنة بثغر الإسكندرية عوضا عن الأمير ألطنبغا المعلم، فقويت حرمة الأمير محمود و نفذت كلمته إلى يوم الاثنين حادى عشر رجب من

السنة المذكورة، فثار عليه المماليك السلطانية بسبب تأخر كسوتهم، و رموه من أعلى القلعة بالحجارة و أحاطوا به و ضربوه يريدون قتله، لو لا أن شاء اللّه أغاثه بوصول الخبر إلى الأمير الكبير ايتمش، و كان يسكن قريبا من القلعة، فركب بنفسه و ساق حتى أدركه و فرّق عنه المماليك، و سار به إلى منزله حتى سكنت الفتنة، ثم شيعه إلى داره. فكانت هذه الواقعة مبدأ انحلال أمره، فإن السلطان صرفه عن الأستادارية و ولى الأمير الوزير ركن الدين عمر بن قايماز فى يوم الخميس رابع عشرة، و خلع على الأمير محمود قباء بطرز ذهب، و استقرّ على أمرته، ثم صرف ابن قايماز عن الأستادارية و أعيد محمود فى يوم الاثنين خامس عشر رمضان، و أنعم على ابن قايماز بإمرة طبلخاناه، فجدّد بثغر الإسكندرية دار ضرب عمل فيها فلوس ناقصة الوزن، و من حينئذ اختل حال الفلوس بديار مصر. ثم لما خرج الملك الظاهر إلى البلاد الشامية فى سنة ست و تسعين، سار فى ركابه، ثم حضر إلى القاهرة فى يوم الأربعاء سابع صفر سنة سبع و تسعين و سبعمائة قبل حضور السلطان، و كان دخوله يوما مشهودا، فلما عاد السلطان إلى قلعة الجبل حدث منه تغير على الأمير محمود فى يوم السبت ثالث عشرى ربيع الأوّل، و همّ بالإيقاع به، فلما صار إلى داره بعث إليه الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ يطلب منه خمسمائة ألف دينار، و إن توقف يحيط به و يضربه بالمقارع، فنزل إليه و قرّر الحال على مائة و خمسين ألف دينار، فطلع على العادة إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس عشريه، فسبه المماليك السلطانية و رجموه، ثم إن السلطان غضب عليه و ضربه فى يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر بسبب تأخر النفقة، و أخذ أمره ينحل، فولى السلطان الأمير صلاح الدين محمد ابن الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير تنكز أستادارية الأملاك السلطانية، فى يوم الاثنين خامس رجب، و ولى علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ فى رمضان التحدّث فى دار الضرب بالقاهرة و الإسكندرية، و التحدّث فى المتجر السلطانىّ، فوقع بينه و بين الأمير محمود كلام كثير و رافعه ابن الطبلاوىّ

بحضرة السلطان، و خرّج عليه من دار الضرب ستة آلاف درهم فضة، فألزم السلطان محمودا بحمل مائة و خمسين ألف دينار، فحملها و خلع عليه عند تكميله حملها في يوم الأحد تاسع عشرى رمضان، و خلع أيضا على ولده الأمير ناصر الدين، و على كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب الإسكندرانيّ، و على الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ، ثم إن محمود أوعكك بدنه فنزل إليه السلطان في يوم الاثنين ثالث عشر ذى القعدة يعوده، فقدّم له عدّة تقادم قبل بعضها و ردّ بعضها، و تحدّث الناس أنه استقلها. فلما كان يوم السبت سادس صفر سنة ثمان و تسعين بعث السلطان إلى الأمير محمود الطواشي شاهين الحسنى فأخذ زوجتيه و كاتبه سعد الدين إبراهيم بن غراب، و أخذ مالا- و قماشا على حمالين و صار بهما إلى القلعة، هذا و محمود مريض لازم الفراش، ثم عاد من يومه و أخذ الأمير ناصر الدين محمد بن محمود و حمله إلى القلعة، ثم نزل ابن غراب و معه الأمير الى باى الخازندار في يوم الأحد سابعه، و أخذا من ذخيرة بدار محمود خمسين ألف دينار، و في يوم الخميس حادى عشرة صرف محمود عن الأستادارية و استقرّ عوضه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۳

الأمير سيف الدين قطلوبك العلائىّ أستادار الأمير الكبير ايتمش، و قرّر سعد الدين بن غراب ناظر الديوان المفرد، فاجتمع مع ابن الطبلاوىّ على عداوة محمود و السعى في إهلاكه، و سلّم ابن محمود إلى ابن الطبلاوىّ في تاسع عشر ربيع الأوّل ليستخلص منه مائة ألف دينار، و نزل الطواشى صندل المنجكىّ، و الطواشى شاهين الحسنىّ في ثالث عشرية، و معهما ابن الطبلاوىّ، فأخذا من خربة خلف مدرسة محمود زيرين كبيرين و خمسة أزيار صغارا وجد فيها ألف ألف درهم فضة، فحملت إلى القلعة، و وجد أيضا بهذه الخربة جرّتان في إحداهما ستة آلاف دينار و في الأخرى أربعة آلاف درهم فضة و خمسمائة درهم، و قبض على مباشرى محمود و مباشرى ولده، و عوقب محمود، ثم أوقعت الحوطة على موجود محمود في يوم الخميس سابع جمادى الأولى، و رسم عليه ابن الطبلاوىّ في داره، و أخذ مماليكه و أتباعه، و لم يدع عنده غير ثلاث مماليك صغار، و ظهرت أموال محمود شيئا بعد شىء، ثم سلّم إلى الأمير فرج شادّ الدواوين في خامس جمادى الآخرة فنقله إلى داره و عاقبه و عصره في ليلته، ثم نقل في شعبان إلى دار ابن الطبلاوىّ فضربه و سعطه و عصره، فلم يعترف بشىء، و حكى عنه أنه قال لو عرفت أنى أعاقب ما اعترفت بشىء من المال، و ظهر منه في هذه المحنة ثبات و جلد و صبر مع قوّة نفس و عدم خضوع، حتى أنه كان يسب ابن الطبلاوىّ إذا دخل إليه و لا يرفع له قدرا، ثم إن السلطان استدعاه إلى ما بين يديه يوم السبت أوّل صفر سنة تسع و تسعين، و حضر سعد الدين بن غراب فشافهه بكل سوء و رافعه في وجهه حتى استغضب السلطان على محمود، و أمر بمعاقبته حتى يموت، فأنزل إلى بيت الأمير حسام الدين حسين ابن أخت الفرس شادّ الدواوين، و كان أستادار محمود، فلم يزل عنده في العقوبة إلى أن نقل من داره إلى خزانة شمائل في ليلة الجمعة ثالث جمادى الأولى و هو مريض، فمات بها في ليلة الأحد تاسع رجب سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و دفن من الغد بمدرسته و قد أناف على الستين سنة، و كان كثير الصلاة و العبادة مواظبا على قيام الليل، إلّا أنه كان شحيحا مسيكا شرها في الأموال، رمى الناس منه في رماية البضائع بداوه إذا نسبت إلى ما حدث من بعده، كانت عافية و نعمة، و أكثر من ضرب الفلوس بديار مصر حتى فسد بكثرتها حال إقليم مصر، و كان جملة ما حمل من ماله بعد نكبته هذه مائة قنطار ذهبا و أربعين قنطارا، عنها ألف ألف دينار و أربعمائة ألف دينار عينا، و ألف ألف درهم فضة، و أخذ له من البضائع و الغلال و القنود و الأعسال ما قيمته ألف ألف درهم و أكثر.

المدرسة المهذبية

هذه المدرسة بحارة حلب خارج القاهرة عند حمام قمارىّ، بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبى الوحش المعروف بابن أبى حليقة، تصغير حلقة، رئيس الأطباء بديار مصر، ولى رياسة الأطباء في حادى عشر رمضان سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و استقرّ مدرّس الطب بالمارستان المنصورىّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۴

المدرسة السعدية

هذه المدرسة خارج القاهرة بقرب حدرة البقر على الشارع المسلوك فيه من حوض ابن هنس إلى الصليبة، و هى فيما بين قلعة الجبل و بركة الفيل، كان موضعها يعرف بخط بستان سيف الإسلام، و هى الآن فى ظهر بيت قوصون المقابل لباب السلسلة من قلعة الجبل، بناها الأمير شمس الدين سنقر السعدىّ نقيب المماليك السلطانية، فى سنة خمس عشرة و سبعمائة، و بنى بها أيضا رباطا للنساء، و كان شديد الرغبة فى العمائر محبا للزراعة، كثير المال ظاهر الغنى، و هو الذى عمر القرية التى تعرف اليوم بالنحريرية من أعمال الغربية، و كان إقطاعه، ثم إنه أخرج من مصر بسبب نزاع وقع بينه و بين الأمير قوصون فى أرض أخذها منه، فسار إلى طرابلس و بها مات فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة.

المدرسة الطفجية

هذه المدرسة بخط حدرة البقر أيضا، أنشأها الأمير سيف الدين طفجى الأشرفىّ، و لها وقف جيد.

طفجى: الأمير سيف الدين، كان من جملة مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاون، ترقّى فى خدمته حتى صار من جملة أمراء ديار مصر، فلما قتل الملك الأشرف قام طفجى فى المماليك الأشرفية و حارب الأمير بيدرا المتولى لقتل الأشرف حتى أخذه و قتله، فلما أقيم الملك الناصر محمد بن قلاون فى المملكة بعد قتل بيدرا، صار طفجى من أكابر الأمراء، و استمرّ على ذلك بعد خلع الملك الناصر بكتبغا مدّة أيامه إلى أن خلع الملك العادل كتبغا و قام فى سلطنة مصر الملك المنصور لاجين، و ولى مملوكه الأمير سيف الدين منكوتمر نيابة السلطنة بديار مصر، فأخذ يواحش أمراء الدولة بسوء تصرّفه، و اتفق أن طفجى حج فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، فقرّر منكوتمر مع المنصور أنه إذا قدم من الحج يخرجه إلى طرابلس و يقبض على أخيه الأمير سيف الدين كرجى، فعندما قدم طفجى من الحجاز فى صفر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، رسم له بنيابة طرابلس، فثقل عليه ذلك و سعى بإخوته الأشرفية حتى أعفاه السلطان من السفر، فسخط منكوتمر و أبى الإسفر طفجى و بعث إليه يلزمه بالسفر، و كان لاجين منقادا لمنكوتمر لا يخالفه فى شيء، فتواعد طفجى و كرجى مع جماعة من المماليك و قتلوا لاجين، و تولى قتله كرجى، و خرج فإذا طفجى فى انتظاره على باب القلة من قلعة الجبل، فسرّ بذلك و أمر بإحضار من بالقلعة من الأمراء، و كانوا حينئذ يبيتون بالقلعة دائما، و قتل منكوتمر فى تلك الليلة و عزم على أنه يتسلطن و يقيم كرجى فى نيابة السلطنة، فخذله الأمراء. و كان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح قد خرج فى غزاة و قرب حضوره، فاستمهلوه بما يريد إلى أن يحضر، فأخر سلطنته و بقى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۵

الأمراء فى كل يوم يحضرون معه فى باب القلة، و يجلس فى مجلس النيابة و الأمراء عن يمينه و شماله، و يمدّ سماط السلطان بين يديه، فلما حضر أمير سلاح بمن معه من الأمراء، نزل طفجى و الأمراء إلى لقائهم بعد ما امتنع امتناعا كثيرا، و ترك كرجى يحفظ القلعة بمن معه من المماليك الأشرفية، و قد نوى طفجى الشرّ للأمراء الذين قد خرج إلى لقائهم، و عرف ذلك الأمراء المقيمون عنده فى القلعة، فاستعدّوا له. و سار هو و الأمراء إلى أن لقوا الأمير بكتاش و معه من الأشرفية أربعمائة فارس تحفظه حتى يعود من اللقاء إلى القلعة، فعندما وافاه بقبة النصر و تعانقا أعلمه بقتل السلطان، فشقّ عليه، و للوقت جرّد الأمراء سيوفهم و ارتفعت الضجة، فساق طفجى من الحلقة و الأمراء وراءه إلى أن أدركه قراقوش الظاهرىّ و ضربه بسيف ألقاه عن فرسه إلى الأرض ميتا، ففرّ كرجى، ثم أخذ و قتل و حمل طفجى فى مزبلة من مزابل الحمّامات على حمار إلى مدرسته هذه فدفن بها، و قبره هناك إلى اليوم.

و كان قتله فى يوم الخميس سادس عشر ربيع الأوّل سنة ثمان و تسعين و ستمائة، بعد خمسة أيام من قتل لاجين و منكوتمر.

المدرسة الجاولية

هذه المدرسة بجوار الكبش، فيما بين القاهرة و مصر، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و عمل بها درسا و صوفية، و لها إلى هذه الأيام عدّة أوقاف.

سنجر بن عبد اللّه الأمير علم الدين الجاولىّ، كان مملوك جاولى أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس، و انتقل بعد موت الأمير جاولى إلى بيت قلاون، و خرج فى أيام الأشرف خليل بن قلاون إلى الكرك، و استقرّ فى جملة البحرية بها إلى أيام العادل كتبغا، فحضر من عند نائب الكرك و معه حوائجخاناه، فرفعه كتبغا و أقامه على الخوشخاناه السلطانية، و صحب الأمير سلار و واخاه فتقدّم فى الخدمة، و بقى أستادارا صغيرا فى أيام بيبرس و سلار، فصار يدخل على السلطان الملك الناصر و يخرج و يراعى مصالحه فى أمر الطعام و يتقرّب إليه، فلما حضر من الكرك جهزه إلى غزة نائبا فى جمادى الأولى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، عوضا عن الأمير سيف الدين قطلوا أقتمر عبد الخالق بعد إمساكه، و أضاف إليه مع غزة الساحل و القدس و بلد الخليل و جبل نابلس، و أعطاه إقطاعا كبيرا بحيث كان للواحد من مماليكه إقطاع يعمل عشرين ألفا و خمسة و عشرين ألفا، و عمل نيابة غزة على القالب الجائر إلى أن وقعت بينه و بين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها، أراد تنكز أن يبتاعها منه فأبى عليه، فكتب فيه إلى الملك الناصر محمد بن قلاون فأمسكه فى ثامن عشرى شعبان سنة عشرين و سبعمائة، و اعتقله نحوا من ثمان سنين، ثم أفرج عنه فى سنة تسع و عشرين، و أعطاه أمرة أربعين، ثم بعد مدّة أعطاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۶

أمرة مائة و قدّمه على ألف و جعله من أمراء المشورة، فلم يزل على هذا إلى أن مات الملك الناصر، فتولى غسله و دفنه. فلما ولى الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون سلطنة مصر أخرجه إلى نيابة حماه، فأقام بها مدّة ثلاثة أشهر ثم نقله إلى نيابة غزة، فحضر إليها و أقام بها نحو ثلاثة أشهر أيضا، ثم أحضره إلى القاهرة و قرّره على ما كان عليه، و ولى نظر المارستان بعد نائب الكرك عند ما أخرج إلى نيابة طرابلس، ثم توجه لحصار الناصر أحمد بن محمد بن قلاون و هو ممتنع فى الكرك، فأشرف عليه فى بعض الأيام الناصر أحمد من قلعة الكرك و سبه و شيخه، فقال له الجاولىّ: نعم أنا شيخ نحس، و لكن الساعة ترى حالك مع الشيخ النحس، و نقل المنجنيق إلى مكان يعرفه و رمى به فلم يخطئ القلعة و هدم منها جانبا، و طلع بالعسكر و أمسك أحمد و ذبحه صبرا. و بعث برأسه إلى الصالح إسماعيل، و عاد إلى مصر فلم يزل على حاله إلى أن مات فى منزله بالكبش يوم الخميس تاسع رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و دفن بمدرسته، و كانت جنازته حافلة إلى الغاية.

قد سمع الحديث و روى و صنف شرحا كبيرا على مسند الشافعىّ رحمه اللّه، و أفتى فى آخر عمره على مذهب الشافعىّ، و كتب خطه على فتاوى عديدة، و كان خبيرا بالأمور، عارفا بسياسة الملك، كفوا لما وليه من النيابات و غيرها، لا يزال يذكر أصحابه فى غيبتهم عنه و يكرمهم إذا حضروا عنده، و انتفع به جماعة من الكتاب و العلماء و الأكابر، و له من الآثار الجميلة الفاضلة جامع بمدينة غزة فى غاية الحسن، و له بها أيضا حمّام مليح، و مدرسة للفقهاء الشافعية، و خان للسبيل، و هو الذى مدّن غزة و بنى بها أيضا مارستانا، و وقف عليه عن الملك الناصر أوقافا جليلة، و جعل نظره لنواب غزة و عمر بها أيضا الميدان و القصر، و بنى ببلد الخليل عليه السّلام جامعا سقفه منه حجر نقر، و عمل الخان العظيم بقاقون، و الخان بقرية الكثيب، و القناطر بغابة أرسوف، و خان رسلان فى حمراء بيسان، و دارا بالقرب من باب النصر داخل القاهرة، و دارا بجوار مدرسته على الكبش، و سائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة، و كان ينتمى إلى الأمير سلار و يجل ذكره.

المدرسة الفارقانية

هذه المدرسة خارج باب زويلة من القاهرة، فيما بين حدرة البقر و صليبة جامع ابن طولون، و هى الآن بجوار حمّام الفارقانىّ تجاه البندقدارية، بناها و الحمام المجاور لها الأمير ركن الدين بيبرس الفارقانىّ، و هو غير الفارقانىّ المنسوب إليه المدرسة الفارقانية بحارة

الوزيرية من القاهرة.

المدرسة البشيرية

هذه المدرسة خارج القاهرة بحكر الخازن المطل على بركة الفيل، كان موضعها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۷

مسجدا يعرف بمسجد سنقر السعدىّ الذى بنى المدرسة السعدية، فهدمه الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرىّ، و بنى موضعه هذه المدرسة فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و جعل بها خزانة كتب، و هى من المدارس اللطيفة.

المدرسة المهمندارية

هذه المدرسة خارج باب زويلة فيما بين جامع الصالح و قلعة الجبل، يعرف خطها اليوم بخط جامع الماردانىّ خارج الدرب الأحمر، و هى تجاه مصلّى الأموات على يمنة من سلك من الدرب الأحمر طالبا جامع الماردانىّ، و لها باب آخر فى حارة اليانسية بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزىّ المهمندار، و نقيب الجيوش فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و جعلها مدرسة و خانقاه، و جعل طلبة درسها من الفقهاء الحنفية، و بنى إلى جانبها القيسارية و الربع الموجودين الآن.

مدرسة ألجاى

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، كان موضعها و ما حولها مقبرة، و يعرف الآن خطها بخط سويقة العزى، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاى فى سنة ثمان و ستين و سبعمائة، و جعل بها درسا للفقهاء الشافعية، و درسا للفقهاء الحنفية، و خزانة كتب، و أقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة، و هى من المدارس المعتبرة الجليلة، و درّس بها شيخنا جلال الدين البنانىّ الحنفىّ، و كانت سكنه.

ألجاى بن عبد اللّه اليوسفىّ الأمير سيف الدين، تنقل فى الخدم حتى صار من جملة الأمراء بديار مصر، فلما أقام الأمير الأستدمر الناصرىّ بأمر الدولة بعد قتل الأمير يلبغا الخاصكى العمرىّ، فى شوّال سنة ثمان و ستين و سبعمائة، قبض على الجاى فى عدّة من الأمراء و قيدهم و بعث بهم إلى الإسكندرية، فسجنوا إلى عاشر صفر سنة تسع و ستين، فأفرج الملك الأشرف شعبان بن حسين عنه و أعطاه أمرة مائة، و تقدمة ألف، و جعله أمير سلاح برّانى، ثم جعله أمير سلاح أتابك العساكر، و ناظر المارستان المنصورىّ عوضا عن الأمير منكلى بغا الشمسىّ، فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة، و تزوّج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف، فعظم قدره و اشتهر ذكره، و تحكم فى الدولة تحكما زائدا إلى يوم الثلاثاء سادس المحرّم سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فركب يريد محاربة السلطان بسبب طلبه ميراث أمّ السلطان بعد موتها، فركب السلطان و أمراؤه و بات الفريقان ليلة الأربعاء على الاستعداد للقتال إلى بكرة نهار الأربعاء تواقع الجاى مع أمراء السلطان إحدى عشرة وقعة انكسر فى آخرها الجاى و فرّ إلى جهة بركة الحبش، و صعد من الجبل من عند الجبل الأحمر إلى قبة النصر و وقف هناك، فاشتدّ على السلطان فبعث إليه خلعة بنيابة حماه، فقال لا أتوجه إلّا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۸

و معى مماليكى كلهم و جميع أموالى، فلم يوافقه السلطان على ذلك، و بات الفريقان على الحرب، فانسلّ أكثر مماليك الجاى فى الليل إلى السلطان، و عند ما طلع النهار يوم الخميس بعث السلطان عساكره لمحاربة الجاى بقبة النصر، فلم يقاتلهم و ولى منهزما و الطلب وراءه إلى ناحية الخرقانية بشاطئ النيل، قريبا من قليوب، فتحير و قد أدركه العسكر، فألقى نفسه بفرسه فى البحر يريد النجاة إلى البرّ الغربىّ فغرق بفرسه. ثم خلص الفرس و هلك الجاى، فوقع النداء بالقاهرة و ظواهرها على إحضار مماليكه، فأمسك منهم

جماعة و بعث السلطان الغطاسين إلى البحر تتطلبه فتبعوه حتى أخرجوه إلى البرّ فى يوم الجمعة تاسع المحرّم سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فحمل فى تابوت على لباد أحمر إلى مدرسته هذه و غسل و كفن و دفن بها، و كان مهابا جبارا عسوفا عتيا، تحدّث فى الأوقاف فشدّد على الفقهاء و أهان جماعة منهم، و كان معروفا بالإقدام و الشجاعة.

مدرسة أمّ السلطان

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، يعرف خطها الآن بالتبانة، و موضعها كان قديما مقبرة لأهل القاهرة، أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة، و عملت بها درسا للشافعية، و درسا للحنفية، و على بابها حوض ماء للسبيل. و هى من المدارس الجليلة، و فيها دفن ابنها الملك الأشرف بعد قتله.

بركة: الست الجليلة خوند أمّ الملك الأشرف شعبان بن حسين، كانت أمة مولدة، فلما أقيم ابنها فى مملكة مصر عظم شأنها و حجت فى سنة سبعين و سبعمائة بتجمل كثير و برج زائد، و على محفتها العصائب السلطانية و الكؤسات تدق معها، و سار فى خدمتها من الأمراء المقدّمين: بشتاك العمرىّ رأس نوبة، و بهادر الجمالىّ، و مائة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف، و من جملة ما كان معها قطار جمال محملة محائر قد زرع فيها البقل و الخضراوات إلى غير ذلك مما يجل وصفه، فلما عادت فى سنة إحدى و سبعين و سبعمائة خرج السلطان بعساكره إلى لقائها، و سار إلى البويب فى سادس عشر المحرّم، و تزوّجت بالأمير الكبير الجاى اليوسفىّ، و بها طال و استطال، ماتت فى ثامن عشر ذى القعدة سنة أربع و سبعين و سبعمائة، و كانت خيرة عفيفة لها برّ كثير و معروف معروف، تحدّث الناس بحجتها عدّة سنين لما كان لها من الأفعال الجميلة فى تلك المشاهد الكريمة، و كان لها اعتقاد فى أهل الخير و محبة فى الصالحين، و قبرها موجود بقبة هذه المدرسة، و أسف السلطان على فقدها، و وجد وجدا كبيرا لكثرة حبه لها، و اتفق أنها لما ماتت أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج السعدى:

فى ثامن العشرين من ذى قعدة كانت صبيحة موت أمّ الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۵۹ فاللّه يرحمها و يعظم أجرەو يكون فى عاشور موت اليوسفىّ

فكان كما قال؛ و غرق الجاى اليوسفىّ كما تقدّم ذكره فى يوم عاشوراء.

المدرسة الأيتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسىّ، ثم الظاهرىّ فى سنة خمس و ثمانين و سبعمائة، و جعل بها درس فقه للحنفية، و بنى بجانبها فندقا كبيرا يعلوه ربع، و من ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل و ربعا، و هى مدرسة ظريفة.

ايتمش بن عبد اللّه الأمير الكبير سيف الدين البجاسىّ ثم الظاهرىّ، كان أحد المماليك اليلبغاوية.

المدرسة المجدية الخليلية

هذه المدرسة بمصر، يعرف موضعها بدرب البلاد، عمرها الشيخ الإمام مجد الدين أبو محمد عبد العزيز بن الشيخ الإمام أمين الدين أبى علىّ الحسين بن الحسن بن إبراهيم الخليلىّ الدارىّ، فتمت فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و ستمائة، و قرّر فيها مدرّسا شافعيا و معيدين و عشرين نفرا طلبة، و إماما راتبا، و مؤذنا، و قيما لكنسها و فرشها و وقود مصابيحها. و إدارة ساقيتها، و أجرى الماء إلى فسقيتها، و وقف عليها غيطا بناحية بارنبار من أعمال المزاحميتين، و بستانا بمحلة الأمير من المزاحميتين بالغربية، و غيطا بناحية نطوبس، و ربع غيط بظاهر ثغر رشيد، و بستانا و نصف بستان بناحية بلقس، و رباعا بمدينة مصر.

و مجد الدين هذا هو والد الصاحب الوزير فخر الدين عمر بن الخليلىّ، و درّس بهذه المدرسة الصاحب فخر الدين إلى حين وفاته، و توفى مجد الدين بدمشق فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمانين و ستمائة، و كان مشهورا بالصلاح.

المدرسة الناصرية بالقرافة

هذه المدرسة بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعىّ رضى اللّه عنه من قرافة مصر، أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، و رتب بها مدرّسا يدرّس الفقه على مذهب الشافعىّ، و جعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين دينارا، معاملة صرف كل دينار ثلاثة عشر درهما و ثلث درهم، و عن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، و رتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلا بالمصرىّ، و راويتين من ماء النيل، و جعل فيها معيدين و عدّة من الطلبة، و وقف عليها حمّاما بجوارها، و فرنا تجاهها، و حوانيت بظاهرها، و الجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۰

و ولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان، ثم خلت من مدرّس ثلاثين سنة، و اكتفى فيها بالمعيدين و هم عشرة أنفس، فلما كانت سنة ثمان و سبعين و ستمائة ولى تدريسها قاضى القضاة تقىّ الدين محمد بن رزين الحموىّ بعد عزله من وظيفة القضاء، و قرّر له نصف المعلوم. فلما مات وليها الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم، فلما ولى الصاحب برهان الدين الخضر السنجارىّ التدريس قرّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف.

المدرسة المسلمية

هذه المدرسة بمدينة مصر فى خط السيوريين، أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلّم- بضم الميم و فتح السين المهملة و تشديد اللام- البالسىّ الأصل ابن بنت كبير التجار شمس الدين محمد بن بسير- بفتح الباء أوّل الحروف و كسر السين المهملة ثم ياء آخر الحروف بعدها راء- و مات فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، قبل أن تتمّ. فوصى بتكملتها و أفرد لها مالا و وقف عليها دورا و أرضا بناحية قليوب، و شرط أن يكون فيها مدرس مالكىّ و مدرّس شافعىّ و مؤدّب أطفال و غير ذلك، فكملها مولاه و وصيه الكبير كافور الخصىّ الرومىّ بعد وفاة استاذه، و هى الآن عامرة، و بلغ ابن مسلَّم هذا من وفور المال و عظم السعادة ما لم يبلغه أحد ممن أدركناه، بحيث أنه جاء نصيب أحد أولاده نحو مائتى ألف دينار مصرية، و كان كثير الصدقات على الفقراء، مقترا على نفسه إلى الغاية، و له أيضا مطهرة عظيمة بالقرب من جامع عمرو بن العاص، و نفعها كبير، و له أيضا دار جليلة على ساحل النيل بمصر، و كان أبوه تاجرا سفارا بعد ما كان حمالا، فصاهر ابن بسير و رزق محمدا هذا من ابنته، فنشأ على صيانة و رزق الحظ الوافر فى التجارة و فى العبيد، فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند، و يبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور ، و يبعث آخر إلى بلاد الحبشة، و يبعث عدّة آخرين إلى عدّة جهات من الأرض، فما منهم من يعود إلّا و قد تضاعفت فوائد ماله أضعافا مضاعفة.

مدرسة اينال

هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية بخط القماحين، كان موضعها فى القديم من حقوق حارة المنصورة، أوصى بعمارتها الأمير الكبير سيف الدين اينال اليوسفىّ، أحد المماليك اليلبغاوية. فابتدأ بعملها فى سنة أربع و تسعين، و فرغت فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة، و لم يعمل فيها سوى قرّاء يتناوبون قراءة القرآن على قبره، فإنه لما مات فى يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع و تسعين و سبعمائة دفن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۱

خارج باب النصر حتى انتهت عمارة هذه المدرسة، فنقل إليها و دفن فيها.

و إينال هذا ولى نيابة حلب و صار فى آخر عمره أتابك العساكر بديار مصر حتى مات، و كانت جنازته كثيرة الجمع مشى فيها السلطان الملك الظاهر برقوق و العساكر.

مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار

هذه المدرسة برحبة باب العيد من القاهرة، كان موضعها قيسارية يعلوها طباق كلها وقف، فأخذها و هدمها و ابتدأ بشق الأساس فى يوم السبت خامس جمادى الأولى سنة عشر و ثمانمائة، و جمع لها الآلات من الأحجار و الأخشاب و الرخام و غير ذلك، و كان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون التى كانت بالصوة تجاه الطبلخاناه من قلعة الجبل، بقية من داخلها، فيها شبابيك من نحاس مكفت بالذهب و الفضة و أبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت، و من المصاحف و الكتب فى الحديث و الفقه و غيره من أنواع العلوم جملة، فاشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف بمبلغ ستمائة دينار، و كانت قيمتها عشرات أمثال ذلك، و نقلها إلى داره. و كان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة فى عرض يقرب من ذلك، أحدها بخط ياقوت، و آخر بخط ابن البوّاب، و باقيها بخطوط منسوبة، و لها جلود فى غاية الحسن معمولة فى أكياس الحرير الأطلس، و من الكتب النفيسة عشرة أحمال جميعها مكتوب فى أوّله الإشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك، و مقرّه فى مدرسته.

فلما كان يوم الخميس ثالث شهر رجب سنة إحدى عشرة و ثمانمائة و قد انتهت عمارتها، جمع بها الأمير جمال الدين القضاة و الأعيان، و أجلس الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمىّ الشافعىّ على سجادة المشيخة و عمله شيخ التصوّف، و مدرّس الشافعية، و مدّ سماطا جليلا أكل عليه كلّ من حضر، و ملأ البركة التى توسط المدرسة ماء قد أذيب فيه سكر مزج بماء الليمون، و كان يوما مشهودا، و قرّ فى تدريس الحنفية بدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخرزيانىّ، و فى تدريس المالكية شمس الدين محمد بن البساطىّ، و فى تدريس الحنابلة فتح الدين أبا الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلىّ، و فى تدريس الحديث النبوىّ شهاب الدين أحمد بن علىّ بن حجر، و فى تدريس التفسير شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينىّ. فكان يجلس من ذكرنا واحدا بعد واحد فى كل يوم إلى أن كان آخرهم شيخ التفسير، و كان مسك الختام، و ما منهم إلّا من يحضر معه و يلبسه ما يليق به من الملابس الفاخرة، و قرّر عند كلّ من المدرّسين الستة طائفة من الطلبة، و أجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم، و ثلاثين درهما فلوسا فى كل شهر، و جعل لكل مدرّس ثلاثمائة درهم فى كل شهر، و رتب بها إماما وقومة و مؤذنين و فرّاشين و مباشرين، و أكثر من وقف الدور عليها، و جعل فائض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۲

وقفها مصروفا لذريته، فجاءت فى أحسن هندام و أتم قالب و أفخر زىّ و أبدع نظام، إلّا أنها و ما فيها من الآلات و ما وقف عليها أخذ من الناس غصبا، و عمل فيها الصناع بأبخس أجرة مع العسف الشديد.

فلما قبض عليه السلطان و قتله فى جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، و استولى على أمواله، حسّن جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة و رغبوه فى رخامها، فإنه غاية فى الحسن، و أن يسترجع أوقافها، فإن متحصلها كثير. فمال إلى ذلك و عزم عليه. فكرّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، و استشنع أن يهدم بيت بنى على اسم اللّه يعلن فيه بالأذان خمس مرّات فى اليوم و الليلة، و تقام به الصلوات الخمس فى جماعة عديدة، و يحضره فى عصر كل يوم مائة و بضعة عشر رجلا يقرءون القرآن فى وقت التصوّف، و يذكرون اللّه و يدعونه، و تتحلق به الفقهاء لدرس تفسير القرآن الكريم و تفسير حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فقه الأئمة الأربعة، و يعلّم فيه أيتام المسلمين كتاب اللّه عز و جلّ، و يجرى على هؤلاء المذكورين الأرزاق فى كل يوم، و من

المال فى كل شهر، و رأى أن إزالة مثل هذا وصمة فى الدين، فتجرّد له و ما زال بالسلطان يرغّبه فى إبقائها على أن يزال منها اسم جمال الدين و تنسب إليه، فإنه من الفتن هدم مثلها. و نحو ذلك، حتّى رجع إلى قوله و فوّض أمرها إليه، فدبر ذلك أحسن تدبير.

و هو أنّ موضع هذه المدرسة كان وقفا على بعض الترب، فاستبدل به جمال الدين أرضا من جملة أراضى الخراج بالجيزة، و حكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال، و هدم البناء و بنى موضعه هذه المدرسة، و تسلّم متولى موضعها الأرض المستبدل بها، إلى أن قتل جمال الدين و أحيط بأمواله، فدخل فيما أحيط به هذه الأرض المستبدل بها، و ادّعى السلطان أن جمال الدين افتأت عليه فى أخذ هذه الأرض، و أنه لم يأذن فى بيعها من بيت المال، فأفتى حينئذ محمد شمس الدين المدنىّ المالكىّ بأن بناء هذه المدرسة الذى وقفه جمال الدين على الأرض التى لم يملكها بوجه صحيح لا يصح، و أنه باق على ملكه إلى حين موته، فندب عند ذلك شهود القيمة إلى تقويم بناء المدرسة، فقوّموها باثنى عشر ألف دينار ذهبا، و أثبتوا محضر القيمة على بعض القضاة، فحمل المبلغ إلى أولاد جمال الدين حتى تسلموه و باعوا بناء المدرسة للسلطان، ثم استردّ السلطان منهم المبلغ المذكور و أشهد عليه أنه وقف أرض هذه المدرسة بعد ما استبدل بها، و حكم حاكم حنفىّ بصحة الاستبدال، ثم وقف البناء الذى اشتراه و حكم بصحته أيضا، ثم استدعى بكتاب وقف جمال الدين و لخصه، ثم مزقه و جدّد كتاب وقف يتضمن جميع ما قرّره جمال الدين فى كتاب وقفه من أرباب الوظائف و مالهم من الخبز فى كل يوم و من المعلوم فى كل شهر، و أبطل ما كان لأولاد جمال الدين من فائض الوقف، و أفرد لهذه المدرسة مما كان جمال الدين جعله وقفا عليها عدّة مواضع تقوم بكفاية مصروفها، و زاد فى أوقافها أرضا بالجيزة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۳

و جعل ما بقى من أوقاف جمال الدين على هذه المدرسة، بعضه وقفا على أولاده، و بعضه وقفا على التربة التى أنشأها فى قبة أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، و حكم القضاة الأربعة بصحة هذا الكتاب بعد ما حكموا بصحة كتاب وقف جمال الدين، ثم حكموا ببطلانه، ثم لما تمّ ذلك محى من هذه المدرسة اسم جمال الدين ورنكه، و كتب اسم السلطان الملك الناصر فرج بدائر صحنها من أعلاه، و على قناديلها و بسطها و سقوفها، ثم نظر السلطان فى كتبها العلمية الموقوفة بها فأقرّ منها جملة كتب بظاهر كل سفر منها فصل يتضمن وقف السلطان له، و حمل كثير من كتبها إلى قلعة الجبل، و صارت هذه المدرسة تعرف بالناصرية بعد ما كان يقال لها الجمالية.

و لم تزل على ذلك حتى قتل الناصر و قدم الأمير شيخ إلى القاهرة و استولى على أمور الدولة، فتوصل شمس الدين محمد أخو جمال الدين و زوّج ابنته لشرف الدين أبى بكر بن العجمىّ موقع الأستادار الأمير شيخ، حتى أحضر قضاة القضاة و حكم الصدر علىّ بن الأدمىّ قاضى القضاة الحنفىّ بردّ أوقاف جمال الدين إلى ورثته من غير استيفاء الشروط فى الحكم بل تهوّر فيه و جازف. و لذلك أسباب منها: عناية الأمير شيخ بجمال الدين الأستادار، فإنه لما انتقل إليه إقطاع الأمير بحاس بعد موت الملك الظاهر برقوق، استقرّ جمال الدين استاداره كما كان أستادار بحاس، فخدمه خدمة بالغة، و خرج الأمير شيخ إلى بلاد الشام و استقرّ فى نيابة طرابلس، ثم فى نيابة الشام، و خدمة جمال الدين له و لحاشيته و من يلوذ به مستمرّة، و أرسل مرّة الأمير شيخ من دمشق بصدر الدين بن الأدمىّ المذكور فى الرسالة إلى الملك الناصر و جمال الدين حينئذ عزيز مصر، فأنزله و أكرمه و أنعم عليه و ولاه قضاء الحنفية و كتابة السرّ بدمشق، و أعاده إليه و ما زال معتنيا بأمور الأمير شيخ، حتى أنه اتهم بأنه قد مالأه على السلطان، فقبض عليه السلطان الملك الناصر بسبب ذلك و نكبه، فلما قتل الناصر و استولى الأمير شيخ على الأمور بديار مصر، ولى قضاء الحنفية بديار مصر لصدر الدين علىّ بن الأدمىّ المذكور، و ولى أستاداره بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسىّ أستادار السلطان، فخدم شرف الدين أبو بكر بن العجمىّ زوج ابنة أخى جمال الدين عنده موقعا، و تمكن منه فأغراه بفتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ حتى أثخن جراحه عند الملك المؤيد شيخ، و نكبه بعد ما تسلطن، و استعان أيضا بقاضى القضاة صدر الدين بن الأدمىّ، فإنه كان عشيره و صديقه من أيام جمال الدين، ثم استمال ناصر الدين محمد بن البارزىّ موقع الأمير الكبير شيخ، فقام الثلاثة مع شمس الدين أخى جمال الدين حتى أعيد

إلى مشيخة خانكاه بيبرس و غيرها من الوظائف التى أخذت منه، عند ما قبض عليه الملك الناصر و عاقبه، و تحدّثوا مع الأمير الكبير فى ردّ أوقاف جمال الدين إلى أخيه و أولاده، فإن الناصر غصبها منهم و أخذ أموالهم و ديارهم بظلمه إلى أن فقدوا القوت، و نحو هذا من القول حتى حرّكوا منه حقدا كامنا على الناصر، و علموا منه عصبته لجمال الدين هذا، و غرض القوم فى الباطن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۴

تأخير فتح الدين و الإيقاع به، فإنه ثقل عليهم وجوده معهم، فأمر عند ذلك الأمير الكبير بعقد مجلس حضره قضاة القضاة و الأمراء و أهل الدولة عنده بالحراقة من باب السلسلة، فى يوم السبت تاسع عشرى شهر رجب سنة خمس عشرة، و تقدّم أخو جمال الدين ليدّعى على فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، و كان قد علم بذلك و وكل بدر الدين حسنا البردينىّ أحد نوّاب الشافعية فى سماع الدعوى و ردّ الأجوبة، فعند ما جلس البردينىّ للمحاكمة مع أخى جمال الدين، نهره الأمير الكبير و أقامه و أمر بأن يكون فتح اللّه هو الذى يدّعى عليه، فلم يجد بدّا من جلوسه، فما هو إلّا أن ادّعى عليه أخو جمال الدين بأنه وضع يده على مدرسة أخيه جمال الدين و أوقافه بغير طريق، فبادر قاضى القضاة صدر الدين علىّ بن الأدمىّ الحنفىّ و حكم برفع يده و عود أوقاف جمال الدين و مدرسته إلى ما نص عليه جمال الدين، و نفذ بقية القضاة حكمه و انفضوا على ذلك، فاستولى أخو جمال الدين و صهره شرف الدين على حاصل كبير كان قد اجتمع بالمدرسة من فاضل ربعها و من مال بعثه الملك الناصر إليها، و فرّقوه حتى كتبوا كتابا اخترعوه من عند أنفسهم جعلوه كتاب وقف المدرسة، زادوا فيه أن جمال الدين اشترط النظر على المدرسة لأخيه شمس الدين المذكور و ذريته، إلى غير ذلك مما لفقوه بشهادة قوم استمالوهم فمالوا، ثم أثبتوا هذا الكتاب على قاضى القضاة صدر الدين بن الأدمىّ، و نفذه بقية القضاة، فاستمرّ الأمر على هذا البهتان المختلق و الإفك المفترى مدّة، ثم ثار بعض صوفية هذه المدرسة و أثبت محضرا بأن النظر لكاتب السرّ، فلما ثبت ذلك نزعت يد أخى جمال الدين عن التصرّف فى المدرسة، و تولى نظرها ناصر الدين محمد بن البارزى كاتب السرّ، و استمر الأمر على هذا، فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمه به فى تناقض القضاة و حكمهم بإبطال ما صححوه، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه، كل ذلك ميلا مع الجاه و حرصا على بقاء رياستهم، ستكتب شهادتهم و يسألون.

المدرسة الصرغتمشية

هذه المدرسة خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبى العباس أحمد بن طولون، فيما بينه و بين قلعة الجبل، كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون، ثم صار عدّة مساكن، فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرىّ رأس نوبة النوب و هدمها و ابتدأ فى بناء المدرسة يوم الخميس من شهر رمضان سنة ست و خمسين و سبعمائة، و انتهت فى جمادى الأولى سنة سبع و خمسين، و قد جاءت من أبدع المبانى و أجلها و أحسنها قالبا و أبهجها منظرا، فركب الأمير صرغتمش فى يوم الثلاثاء تاسعه و حضر إليه الأمير سيف الدين شيخو العمرىّ مدبر الدولة، و الأمير طاشتمر القاسمىّ حاجب الحجاب، و الأمير توقتاى الدوادار، و عامّة أمراء الدولة، و قضاة القضاة الأربعة، و مشايخ العلم، و رتب مدرّس الفقه بها قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر العميد بن العميد أمير غازى الاتقانىّ، فألقى القوام الدرس، ثم مدّ سماط جليل بالهمة الملوكية، و ملئت البركة التى بها سكّرا قد أذيب بالماء،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۵

فأكل الناس و شربوا و أبيح ما بقى من ذلك للعامّة فانتهبوه، و جعل الأمير صرغتمش هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية الآفاقية، و رتب بها درسا للحديث النبوىّ، و أجرى لهم جميعا المعاليم من وقف رتّبه لهم، و قال أدباء العصر فيها شعرا كثيرا. فقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفىّ:

ليهنك يا صرغتمش ما بنيته‌لآخراك فى دنياك من حسن بنيان

به يزدهى الترخيم كالزهر بهجةفللّه من زهر و للّه من بانى

و خلع فی هذا الیوم علی القوام خلعهٔ سنیهٔ و أرکبه بغلهٔ رائعهٔ، و أجازه بعشرهٔ آلاف درهم علی أبیات مدحه بها فی غایهٔ السماجهٔ و هی:

أ رأیتم من حاز الرتباو أتی قربا و نفی ریبا

فبدا علما و سما کرماو ما قدما و لقد غلبا

بتقی و هدی و ندا و جدافعدا و سدی و جبی و حبا

بدی سننا أحیی سنناحلّی زمنا عند الأدبا

هذا صرغتمش قد سکبتأیام إمارته السحبا

و أزال الجدب إلی خصبو الضنک إلی رغد قلبا

بإعانهٔ جبّار ربیذی العرش و قد بذل النشبا

ملک فطن رکن لسنحسن بسن ربی الأدبا

لک الکبرا ملک الأمراملک العلما ملک الأدبا

بحر طام غیث هامقد رسام حامی الغربا

ببشاشته و سماحتهو حماسته جلّی الکربا

و دیانته و صیانتهو أمانته حاز الرتبا

أبهی أصلا أسنی نسلاأعطی فضلا مأوی الغربا

نعم المأوی مصر لمّاشملت قوما نبلا نجبا

فنمت نورا و سمت نوراو علت دورا و أرت طربا

نسقت دررا و سقت دررو دعت غررا و حوت أدبا

و خطابته افتخرت و علتو سمت وزرت و حوت أدبا

جدّد درسا ثم اجن جنّیمنها و منی فمعی طلبا

من نازعنی نسبی علنافاراب لنا نعمت نسبا

کنون أبا لحنفیهٔ ثمّ قوام الدین بدا لقبا

عش فی رحب لتری عجبامن منتجب عجب عجبا

صرغتمش: الناصریّ الأمیر سیف الدین رأس نوبهٔ، جلبه الخواجا الصوّاف فی سنهٔ

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۲۶۶

سبع و ثلاثین و سبعمائهٔ، فاشتراه السلطان الملک الناصر محمد بن قلاون بمائتی ألف درهم فضهٔ، ثمنها یومئذ نحو أربعهٔ آلاف مثقال ذهبا، و خلع علی الخواجا تشریفا کاملا بحیاصهٔ ذهب، و کتب له توقیعا بمسامحهٔ مائهٔ ألف درهم من متجره، فلم یعبأ به السلطان، و صار فی أیامه من جملهٔ الجمداریهٔ، و حکی عن القاضی شرف الدین عبد الوهاب ناظر الخاص أنّ السلطان أنعم علی صرغتمس هذا بعشر طاقات أدیم طائفیّ، فلما جاء إلی النشو تردّد إلیه مرارا حتی دفعها إلیه، و لم یزل خامل الذکر إلی أن کانت أیام المظفر حاجی بن محمد بن قلاون، فبعثه مسفرا مع الأمیر فخر الدین إیاز السلاح دار لما استقرّ فی نیابهٔ حلب، فلما عاد من حلب ترقی فی الخدمهٔ و تمکن عند المظفر و توجه فی خدمهٔ الصالح بن محمد بن قلاون إلی دمشق فی نوبهٔ یلبغاروس، و صار السلطان یرجع إلی رأیه، فلما عاد من دمشق أمسک الوزیر علم الدین عبد اللّه بن زنبور بغیر أمر السلطان و أخذ أمواله، و عارض فی أمره الأمیر شیخو و الأمیر طاز، و من حینئذ عظم و لم یزل حتی خلع السلطان الملک الصالح و أعید الناصر حسن بن محمد بن قلاون، فلما أخرج الأمیر شیخو انفرد

صرغتمش بتدبير أمور المملكة و فخم قدره و نفذت كلمته، فعزل قضاة مصر و الشام و غيّر النوّاب بالمماليك، و السلطان يحقد عليه إلى أن أمسكه فى العشرين من شهر رمضان سنة تسع و خمسين، و قبض معه على الأمير طشتمر القاسميّ حاجب الحجاب، و الأمير ملكتمر المحمديّ و جماعة و حملهم إلى الإسكندرية فسجنوا بها، و بها مات صرغتمش بعد شهرين و اثنى عشر يوما من سجنه فى ذى الحجة سنة تسع و خمسين و سبعمائة. و كان مليح الصورة جميل الهيئة، يقرأ القرآن الكريم و يشارك فى الفقه على مذهب الحنفية، و يبالغ فى التعصب لمذهبه، و يقرّب العجم و يكرمهم و يجلهم إجلالا زائدا، و يشدو طرفا من النحو، و كانت أخلاقه شرسة و نفسه قوية، فإذا بحث فى الفقه أو اللغة اشتط، و لما تحدّث فى الأوقاف و فى البريد خاف الناس منه، فلم يكن أحد يركب خيل البريد إلّا بمرسومه، و منع كل من يركب البريد أن يحمل معه قماشا و دراهم على خيل البريد، و اشتدّ فى أمر الأوقاف فعمرت فى مباشرته، و لما قبض عليه أخذ السلطان أمواله و كانت شيئا كثيرا يكلّ عنه الوصف.

ذكر المارستانات

اشارة

قال الجوهريّ فى الصحاح: و المارستان بيت المرضى، معرّب عن ابن السكيت، و ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر: أن الملك مناقيوش بن أشمون أحد ملوك القبط الأول بأرض مصر، أوّل من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى، و أودعها العقاقير و رتب فيها الأطباء و أجرى عليهم ما يسعهم، و مناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة أخميم، و بنى مدينة سنتريه. و قال زاهد العلماء أبو سعيد منصور بن عيسى: أوّل من اخترع المارستان و أوجده بقراط بن أبو قليدس، و ذلك أنه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له، موضعا مفردا للمرضى، و جعل فيه خدما يقومون بمداواتهم و سماه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۷

اصدولين، أى مجمع المرضى، و أوّل من بنى المارستان فى الإسلام و دار المرضى الوليد بن عبد الملك، و هو أيضا أوّل من عمل دار الضيافة، و ذلك فى سنة ثمان و ثمانين، و جعل فى المارستان الأطباء و أجرى لهم الأرزاق، و أمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا، و أجرى عليهم، و على العميان الأرزاق. و قال جامع السيرة الطولونية: و قد ذكر بناء جامع ابن طولون و عمل فى مؤخره ميضأة و خزانة شراب، فيها جميع الشرابات و الأدوية، و عليها خدم، و فيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.

مارستان ابن طولون

هذا المارستان موضعه الآن فى أرض العسكر، و هى الكيمان و الصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون و كوم الجارح، و فيما بين قنطرة السدّ التى على الخليج ظاهر مدينة مصر، و بين السور الذى يفصل بين القرافة و بين مصر. و قد دثر هذا المارستان فى جملة ما دثر و لم يبق له أثر. و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الأمراء: و أمر أحمد بن طولون أيضا ببناء المارستان للمرضى، فبنى لهم فى سنة تسع و خمسين و مائتين. و قال جامع السيرة الطولونية: و فى سنة إحدى و ستين و مائتين بنى أحمد بن طولون المارستان، و لم يكن قبل ذلك بمصر مارستان، و لما فرغ منه حبس عليه دار الديوان و دوره فى الأساكفة و القيسارية و سوق الرقيق، و شرط فى المارستان أن لا يعالج فيه جندىّ و لا مملوك، و عمل حمّامين للمارستان، إحداهما للرجال و الأخرى للنساء، حبسهما على المارستان و غيره، و شرط أنه إذا جىء بالعليل تنزع ثيابه و نفقته و تحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثيابا و يفرش له و يغدى عليه و يراح بالأدوية و الأغذية و الأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فرّوجا و رغيفا أمر بالانصراف و أعطى ماله و ثيابه، و فى سنة اثنتين و ستين و مائتين كان ما حبسه على المارستان و العين و المسجد فى الجبل الذى يسمى بتنور فرعون، و كان الذى أنفق على المارستان و مستغله ستين ألف

دينار، و كان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة و يتفقد خزائن المارستان و ما فيها و الأطباء، و ينظر إلى المرضى و سائر الأعلّاء و المحبوسين من المجانين، فدخل مرّة حتى وقف بالمجانين، فناداه واحد منهم مغلول: أيّها الأمير اسمع كلامى، ما أنا بمجنون، و إنما عملت علىّ حيلة، و فى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون، فأمر له بها من ساعته، ففرح بها و هزها فى يده ورازها ثم غافل أحمد بن طولون و رمى بها فى صدره، فنضحت على ثيابه، و لو تمكنت منه لأتت على صدره، فأمرهم أن يحتفظوا به، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى المارستان.

مارستان كافور

هذا المارستان بناه كافور الإخشيدىّ، و هو قائم بتدبير دولة الأمير أبى القاسم أنوجور بن محمد الإخشيد بمدينة مصر فى سنة ست و أربعين و ثلاثمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۸

مارستان المغافر

هذا المارستان كان فى خطة المغافر التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر و بين مصلّى خولان التى بالقرافة، بناه الفتح بن خاقان فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على اللّه، و قد باد أثره.

المارستان الكبير المنصورىّ

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة، كان قاعة ست الملك ابنة العزيز باللّه نزار بن المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية، و بدار موسك، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و صار يقال لها لدار القطبية، و لم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاون الألفىّ الصالحىّ من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية، و عوّضت عن ذلك قصر الزمرّد برحبة باب العيد فى ثامن عشرى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ مدبر الممالك، و رسم بعمارتها مارستانا و قبة و مدرسة، فتولى الشجاعىّ أمر العمارة، و أظهر من الاهتمام و الاحتفال ما لم يسمع بمثله حتى تم الغرض فى أسرع مدّة، و هى أحد عشر شهرا و أيام، و كان ذرع هذه الدار عشرة آلاف و ستمائة ذراع و خلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية و ذخائر جليلة، منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل، و كان الشروع فى بنائها مارستانا أوّل ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

و كان سبب بنائه أنّ الملك المنصور لما توجه و هو أمير إلى غزاة الروم فى أيام الظاهر بيبرس سنة خمس و سبعين و ستمائة، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ، و ركب حتى شاهد المارستان فأعجب به، و نذران آتاه اللّه الملك أن يبنى مارستانا، فلما تسلطن أخذ فى عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية، و عوّض أهلها عنها قصر الزمرّد، و ولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ أمر عمارته، فأبقى القاعة على حالها و عملها مارستانا، و هى ذات أربعة إيوانات، بكلّ إيوان شاذروان، و بدور قاعتها فقية يصير إليها من الشاذروانات الماء، و اتفق أن بعض الفعلة كان يحفر فى أساس المدرسة المنصورية فوجد حق اشنان من نحاس، و وجد رفيقه قمقما نحاسا مختوما برصاص، فأحضرا ذلك إلى الشجاعىّ، فإذا فى الحق فصوص ماس و ياقوت و بلخش و لؤلؤ ناصع يدهش الأبصار، و وجد فى القمقم ذهبا، كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة، فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصرىّ العدل، فرفعه إلى السلطان. و لما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأسلاك بديار مصر و غيرها ما يقارب ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۶۹

ألف درهم فى كلّ سنة، و رتب مصارف المارستان و القبة و المدرسة و مكتب الأيتام، ثم استدعى قدحا من شراب المارستان و شربه و قال: قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى، و جعلته وقفا على الملك و المملوك و الجندىّ و الأمير و الكبير و الصغير و الحرّ و العبد الذكور و الإناث، و رتب فيه العقاقير و الأطباء و سائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، و جعل السلطان فيه فرّاشين من الرجال و النساء لخدمة المرضى، و قرّر لهم المعاليم، و نصب الأسرّة للمرضى و فرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض، و أفرد لكل طائفة من المرضى موضعا، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات و نحوها، و أفرد قاعة للرمدى، و قاعة للجرحى، و قاعة لمن به إسهال، و قاعة للنساء، و مكانا للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال و قسم للنساء، و جعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن، و أفرد مكانا لطبخ الطعام و الأدوية و الأشربة، و مكانا لتركيب المعاجين و الأكحال و الشيافات و نحوها، و مواضع يخزن فيها الحواصل، و جعل مكانا يفرق فيه الأشربة و الأدوية، و مكانا يجلس فيه رئيس اطباء لإلقاء درس طب، و لم يحص عدّة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنىّ و فقير، و لا حدّد مدّة لإقامة المريض به، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، و وكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحىّ أمير جندار فى وقف ما عينه من المواضع، و ترتيب أرباب الوظائف و غيرهم، و جعل النظر لنفسه أيام حياته، ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعىّ، فضمن وقفه كتابا تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشرى صفر سنة ثمانين و ستمائة، و لما قرىء عليه كتاب الوقف قال للشجاعىّ: ما رأيت خط الأسعد كاتبى مع خطوط القضاة، أبصر إيش فيه زغل حتى ما كتب عليه، فما زال يقرّب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه إلّا قضاة الإسلام حتى فهم ذلك، فبلغ مصروف الشراب منه فى كل يوم خمسمائة رطل سوى السكّر، و رتب فيه عدّة ما بين أمين و مباشر، و جعل مباشرين للإدارة، و هم الذين يضبطون ما يشترى من أوصناف، و ما يحضر منها إلى المارستان، و مباشرين لاستخراج مال الوقف، و مباشرين فى المطبخ، و مباشرين فى عمارة الأوقاف التى تتعلق به، و قرّر فى القبة خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا و نهارا، و رتب بها إماما راتبا، و جعل بها رئيسا للمؤذنين عند ما يؤذنون فوق منارة ليس فى إقليم مصر أجلّ منها، و رتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن فيه مدرّس و معيدان و ثلاثون طالبا، و درس حديث نبوىّ، و جعل بها خزانة كتب و ستة خدّام طواشية لا يزالون بها، و رتب بالمدرسة إماما راتبا و متصدّرا لإقراء القرآن، و دروسا أربعة للفقه على المذاهب الأربعة، و رتب بمكتب السبيل معلمين يقرءان الأيتام، و رتب للأيتام رطلين من الخبز فى كلّ يوم لكلّ يتيم، مع كسوة الشتاء و الصيف.

فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان، أنشأ به قاعة للمرضى، و نحت الحجارة المبنىّ بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة، و جدّد تذهيب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۰

الطراز بظاهر المدرسة و القبة، و عمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع، قام بذلك من ماله دون مال الوقف، و نقل أيضا حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان و أبطله لتاذى الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدّامه من الأوساخ، و أنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور، و قد تورّع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة فى المدرسة المنصورية و القبة، و عابوا المارستان لكثرة عسف الناس فى عمله، و ذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستانا ندب الطواشى حسام الدين بلالا المغيثىّ للكلام فى شرائها، فساس الأمر فى ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها على أن تعوّض عنها بدار تلمها و عيالها، فعوّضت قصر الزمرّذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها، و وقع البيع على هذا، فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعىّ للعمارة، فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، و أخذ ثلاثمائة أسير و جمع صناع القاهرة و مصر و تقدّم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم فى الدار القطبية، و منعهم أن يعملوا لأحد فى المدينتين شغلا، و شدّد عليهم فى ذلك، و كان مهابا، فلازموا العمل عنده، و نقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوّان و العمد الرخام و القواعد و الأعتاب و الرخام البديع و غير ذلك، و صار يركب إليها كلّ

يوم و ينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، و يعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا فى عملهم، و أوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مرّ أحد و لو جلّ ألزموه أن يرفع حجرا و يلقيه فى موضع العمارة، فينزل الجندىّ و الرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك، فترك أكثر الناس المرور من هناك، و رتبوا بعد الفراغ من العمارة، و ترتيب الوقف فتيا صورتها ما يقول أئمة الدين فى موضع أخرج أهله منه كرها، و عمر بمستحثين يعسفون الصناع، و أخرب ما عمره الغير و نقل إليه ما كان فيه فعمر به، هل تجوز الصلاة فيه أم لا، فكتب جماعة من الفقهاء لا تجوز فيه الصلاة، فما زال المجد عيسى بن الخشاب حتى أوقف الشجاعىّ على ذلك، فشق عليه، و جمع القضاة و مشايخ العلم بالمدرسة المنصورية و أعلمهم بالفتيا فلم يجبه أحد منهم بشىء سوى الشيخ محمد المرجانىّ فإنه قال: أنا أفتيت بمنع الصلاة فيها، و أقول الآن أنه يكره الدخول من بابها، و نهض قائما فانفض الناس. و اتفق أيضا أن الشجاعىّ ما زال بالشيخ محمد المرجانىّ، يلح فى سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصورية حتى أجاب بعد تمنع شديد، فحضر الشجاعىّ و القضاة، و أخذ المرجانىّ فى ذكر ولاة الأمور من الملوك و الأمراء و القضاة، و ذمّ من يأخذ الأراضى غصبا، و يستحث العمال فى عمائره و ينقص من أجورهم و ختم بقوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا [الفرقان/ ۲۷] و قام، فسأله الشجاعىّ الدعاء له فقال: يا علم الدين قد دعا لك و دعا عليك من هو خير منى، و ذكر قول النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم: «اللهمّ من ولى من أمر أمّتى

شيئا فرفق بهم فارفق به و من شق عليهم فاشقق عليه» و انصرف. فصار الشجاعىّ: من ذلك فى قلق، و طلب الشيخ تقىّ الدين محمد بن دقيق العيد و كان له فيه اعتقاد حسن و فاوضه فى حديث الناس فى منع الصلاة فى المدرسة، و ذكر له أن السلطان إنما أراد محاكاة نور الدين الشهيد و الاقتداء به لرغبته فى عمل الخير، فوقع الناس فى القدح فيه، و لم يقدحوا فى نور الدين. فقال له: إن نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج و قصد قتله، ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع و خمسمائة ألف دينار حتى أطلقه، فمات فى طريقه قبل وصوله مملكته، و عمر نور الدين بذلك المال مارستانه بدمشق من غير مستحث، فمن أين يا علم الدين تجد مالا مثل هذا المال و سلطانا مثل نور الدين، غير أن السلطان له نيته، و أرجو له الخير بعمارة هذا الموضع، و أنت إن كان وقوفك فى عمله بنية نفع الناس فلك الأجر، و إن كان لأجل أن يعلم أستاذك علوّ همتك فما حصلت على شىء. فقال الشجاعىّ: اللّه المطلع على النيات، و قرّر ابن دقيق العيد فى تدريس القبة.

قال مؤلفه: إن كان التحرّج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم و إخراجهم منها بعسف و استعمال أنقاض القلعة بالروضة، فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية و بناؤهم قلعة الروضة و إخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة و إخراج سكان الروضة من مساكنهم، إلّا كأخذ قلاون الدار المذكورة و بنائها بما هدمه من القلعة المذكورة و إخراج مؤنسة و عيالها من الدار القطبية، و أنت إن أمعنت النظر و عرفت ما جرى تبين لك أن ما القوم إلّا سارق من سارق، و غاصب من غاصب، و إن كان التحرّج من الصلاة لأجل عسف العمال و تسخير الرجال، فشىء آخر باللّه عرّفنى، فإنى غير عارف من منهم لم يسلك فى أعماله هذا السبيل، غير أن بعضهم أظلم من بعض، و قد مدح غير واحد من الشعراء هذه العمارة، منهم شرف الدين البوصيرىّ فقال:

و مدرسة ود الخورنق أنّهلديها خطير و السدير غدير

مدينة علم و المدارس حولهاقرى أو نجوم بدر هنّ منير

تبدّت فأخفى الظاهرية نورهاو ليس يظهر للنجوم ظهور

بناء كأنّ النحل هندس شكلهو لانت له كالشمع فيه صخور

بناها سعيد فى بقاع سعيدةبها سعدت قبل المدارس نور

و من حيثما وجّهت وجهك نحوهاتلقّتك منها نضرة و سرور

إذا قام يدعو اللّه فيها مؤذنفما هو إلّا للنجوم سمير

المارستان المؤيدى

هذا المارستان فوق الصوّة تجاه طبلخاناه قلعة الجبل، حيث كانت مدرسة الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۲

شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقوق، و بابه هو حيث كان باب المدرسة، إلّا أنه ضيق عما كان، أنشأه المؤيد شيخ فى مدّة أوّلها جمادى الآخرة سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و آخرها رجب سنة ثلاث و عشرين، و نزل فيه المرضى فى نصف شعبان، و عملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدىّ المجاور لباب زويلة، فلما مات الملك المؤيد فى ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين تعطل قليلا، ثم سكنه طائفة من العجم المستجدّين فى ربيع الأوّل منها، و صار منزلا للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان، ثم عمل فيه منبر و رتب له خطيب و إمام و مؤذنون و بوّاب و قومة، و أقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، فاستمرّ جامعا تصرف معاليم أرباب وظائفه المذكورين من وقف الجامع المؤيدى.

ذكر المساجد

اشارة

قال ابن سيده: المسجد الموضع الذى يسجد فيه. و قال الزجاج: كلّ موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ألا ترى أن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا» و قوله عز و جلّ: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ [البقرة/ ۱۱۴] المعنى على هذا المذهب أنه من أظلم ممن خالف قبلة الإسلام، و قد كان حكمه أن لا يجىء على مفعل، لأن حق اسم المكان و المصدر من فعل يفعل أن يجىء على مفعل، و لكنه أحد الحروف التى شذت فجاءت على مفعل. قال سيبويه: و أما المسجد فإنهم جعلوه اسما للبيت، و لم يأت على فعل يفعل، كما قال فى المدق: أنه اسم للجود، يعنى أنه ليس على الفعل، و لو كان على الفعل لقيل مدق لأنه آلة و الآلات تجىء على مفعل كمخزن و مكنس و مكسح، و المسجدة الجمرة المسجود عليها، و قوله تعالى و إن المساجد للّه، قيل هى مواضع السجود من الإنسان، الجبهة و اليدان و الركبتان و الرجلان. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ فى كتاب النقط على الخطط عن القاضى أبى عبد اللّه القضاعىّ: أنه كان فى مصر الفسطاط من المساجد ستة و ثلاثون ألف مسجد. و قال المسبحىّ فى حوادث سنة ثلاث و أربعمائة: و أحصى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه المساجد التى لا غلة لها فكانت ثمانمائة مسجد، فأطلق لها فى كلّ شهر من بيت المال تسعة آلاف و مائتين و عشرين درهما، و فى سنة خمس و أربعمائة حبس الحاكم بأمر اللّه سبع ضياع منها، اطفيح و طوخ على القرّاء.

و المؤذنين بالجوامع، و على ملء المصانع و المارستان، و فى ثمن الأكفان. و ذكر ابن المتوّج أن عدّة المساجد بمصر فى زمنه أربعمائة و ثمانون مسجدا ذكرها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۳

المسجد بجوار دير البعل

قد تقدّم فى أخبار الكنائس و الديارات من هذا الكتاب خبر دير البعل، و أنه يعرف بدير الفطير، و لما كان فى سنة خمس و سبعين و ستمائة خرج جماعة من المسلمين إلى دير البعل فرأوا آثار محاريب بجوار الدير فعرّفوا الصاحب بهاء الدين بن حنا ذلك، فسير

المهندسين لكشف ما ذكر، فعادوا إليه و أخبروه أنه آثار مسجد، فشاور الملك الظاهر بيبرس و عمره مسجدا بجانب الدير، و هو عامر إلى الآن، و بتّ به و هو من أحسن مشترقات مصر، و له وقف جيد و مرتب يقوم به نصارى الدير.

مسجد ابن الجباس

هذا المسجد خارج باب زويلة بالقرب من مصلّى الأموات دون باب اليانسية، عرف بالشيخ أبى عبد اللّه محمد بن علىّ بن أحمد بن محمد بن جوشن المعروف بابن الجباس بجيم و باء موحدة بعدها ألف و سين مهملة- القرشىّ العقيلىّ الفقيه الشافعىّ المقرئ، كان فاضلا صالحا زاهدا عابدا مقرئا، كتب بخطه كثيرا و سمع الحديث النبوىّ، و مولده يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة بالقاهرة، و وفاته ...

مسجد ابن البناء

هذا المسجد داخل باب زويلة، و تسميه العوامّ سام بن نوح النبىّ عليه السّلام، و هو من مختلفاتهم التى لا أصل لها، و إنما يعرف بمسجد ابن البناء، و سام بن نوح لعله لم يدخل أرض مصر البتة، فإن اللّه سبحانه و تعالى لما نجّى نبيه نوحا من الطوفان خرج معه من السفينة أولاده الثلاثة، و هم سام و حام و يافث، و من هذه الثلاثة ذرأ اللّه سائر بنى آدم كما قال تعالى: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ [الصافات/ ۷۷] فقسم نوح الأرض بين أولاده الثلاثة، فصار لسام بن نوح العراق و فارس إلى الهند ثم إلى حضر موت و عمان و البحرين و عالج و يبرين و الدووبار و الدهناء و سائر أرض اليمن و الحجاز، و من نسله الفرس و السريانيون و العبرانيون و العرب و النبط و العماليق. و صار لحام بن نوح الجنوب مما يلى أرض مصر مغرّبا إلى المغرب الأقصى، و من نسله الحبشة و الزنج و القبط سكان مصر و أهل النوبة و الأفارقة أهل إفريقية و أجناس البربر، و صار ليافث بن نوح بحر الخزر مشرّقا إلى الصين، و من نسله الصقالبة و الفرنج و الروم و الغوط و أهل الصين و اليونانيون و الترك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۴

و قد بلغنى أن هذا المسجد كان كنيسة لليهود القرّايين تعرف بسام بن نوح، و أن الحاكم بأمر اللّه أخذ هذه الكنيسة لما هدم الكنائس و جعلها مسجدا، و تزعم اليهود القرّايون الآن بمصر أن سام بن نوح مدفون هنا، و هم إلى الآن يحلفون من أسلم منهم بهذا المسجد. أخبرنى به قاضى اليهود إبراهيم بن فرج اللّه بن عبد الكافى الداودىّ العانانىّ، و ليس هذا بأوّل شىء اختلقته العامّة.

و ابن البناء: هذا هو محمد بن عمر بن أحمد بن جامع بن البناء أبو عبد اللّه الشافعىّ المقرئ، سمع من القاضى مجلى، و أبى عبد اللّه الكيزانىّ و غيره، و حدّث و أقرأ القرآن، و انتفع به جماعة. و هو منقطع بهذا المسجد، و كان يعرف خطه بخط بين البابين، ثم عرف بخط الأقفاليين، ثم هو الآن يعرف بخط الضبيين و باب القوس. و مات ابن البناء هذا فى العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، و اتفق لى عند هذا المسجد أمر عجيب، و هو أنى مررت من هناك يوما أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، و القاهرة يومئذ لا يمرّ الإنسان بشارعها حتى يلقى عناء من شدّة ازدحام الناس لكثرة مرورهم ركبانا و مشاة، فعند ما حاذيت أوّل هذا المسجد إذا برجل يمشى أمامى و هو يقول لرفيقه: و اللّه يا أخى ما مررت بهذا المكان قط إلّا و انقطع نعلى، فو اللّه ما فرغ من كلامه حتى وطئ شخص من كثرة الزحام على مؤخر نعله و قد مدّ رجله ليخطو فانقطع تجاه باب المسجد، فكان هذا من عجائب الأمور و غرائب الاتفاق.

مسجد الحلبيين

هذا المسجد فيما بين باب الزهومة و درب شمس الدولة، على يسرة من سلك من حمّام خشيبة طالبا البندقانيين. بنى على المكان

الذى قتل فيه الخليفة الظاهر نصر بن عباس الوزير و دفنه تحت الأرض، فلما قدم طلائع بن رزيك من الأشمونين إلى القاهرة باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثار الخليفة، و غلب على الوزارة، استخرج الظافر من هذا الموضع و نقله إلى تربة الصر و بنى موضعه هذا المسجد و سماه المشهد، و عمل له بابين أحدهما هذا الباب الموجود، و الباب الثانى كان يتوصل منه إلى دار المأمون البطائحىّ التى هى اليوم مدرسة تعرف بالسيوفية. و قد سدّ هذا الباب، و ما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد إلى أن انقطع فيه محمد بن أبى الفضل بن سلطان بن عمار بن تمام أبو عبد اللّه الحلبىّ الجعبرىّ المعروف بالخطيب، و كان صالحا كثير العبادة زاهدا منقطعا عن الناس، و رعا و سمع الحديث و حدّث، و كان مولده فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ستمائة بقلعة جعبر، و وفاته بهذا المسجد، و قد طالت إقامته فيه يوم الاثنين سادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و دفن بمقابر باب النصر رحمه اللّه، و هذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة و أبهجها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۵

مسجد الكافورىّ

هذا المسجد كان فى البستان الكافورىّ من القاهرة بناه الوزير المأمون أبو عبد اللّه محمد بن فاتك البطائحىّ، فى سنة ست عشرة و خمسمائة، و تولى عمارته وكيله أبو البركات محمد بن عثمان، و كتب اسمه عليه، و هو باق إلى اليوم بخط الكافورىّ، و يعرف هناك بمسجد الخلفاء، و فيه نخل و شجر و هو مرخم برخام حسن.

مسجد رشيد

هذا المسجد خارج باب زويلة بخط تحت الربع على يسرة من سلك من دار التفاح يريد قنطرة الخرق، بناه رشيد الدين البهائىّ.

المسجد المعروف بزرع النوى

هذا المسجد خارج باب زويلة بخط سوق الطيور، على يسرة من سلك من رأس المنجبية طالبا جامع قوصون و الصليبة، و تزعم العامّة أنه بنى على قبر رجل يعرف بزرع النوى، و هو من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. و هذا أيضا من افتراء العامّة الكذب، فإن الذين أفردوا أسماء الصحابة رضى اللّه عنهم كالإمام أبى عبد اللّه محمد بن إسماعيل البخارىّ فى تاريخه الكبير، و ابن أبى خيثمة، و الحافظ أبى عبد اللّه بن منذر، و الحافظ أبى نعيم الأصفهانىّ، و الحافظ أبى عمر بن عبد البرّ، و الفقيه الحافظ أبى محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حزم، لم يذكر أحد منهم صحابيا يعرف بزرع النوى. و قد ذكر فى أخبار القرافة من هذا الكتاب من قبر بمصر من الصحابة، و ذكر فى أخبار مدينة فسطاط مصر أيضا من دخل مصر من الصحابة، و ليس هذا منهم، و هذا إن كان هناك قبر فهو لأمين الأمناء أبى عبد اللّه الحسين بن طاهر الوزان، و كان من أمره أن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبا علىّ منصور بن العزيز باللّه خلع عليه للوساطة بينه و بين الناس، و التوقيع عن الحضرة فى شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعمائة، و كان قبل ذلك يتولى بيت المال فاستخدم فيه أخاه أبا الفتح مسعودا، و كان قد ظفر بمال يكون عشرات و صياغات و أمتعة و طرائف و فرش و غير ذلك فى عدّة آدر بمصر، و جميعه مما خلفه قائد القوّاد الحسين بن جوهر القائد، فباع المتاع و أضاف ثمنه إلى العين، فحصل منه مال كثير، و طالع الحاكم بأمر اللّه به أجمع لورثة قائد القوّاد، و لم يتعرّض منه لشىء، و كثرت صلات الحاكم و عطاؤه و توقيعاته، فانطلق فى ذلك فاتصل به عن أمين الأمناء بعض التوقف، فخرجت إليه رقعة بخطه فى الثامن و العشرين من شهر رجب سنة ثلاث و أربعمائة نسختها، بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه كما هو أهله:

أصبحت لا أرجو و لا أتقى إلّا إلهى و له الفضل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۶ جدّى نبىّ و إمامى أبىو دينى الإخلاص و العدل

ما عندكم ينفد و ما عند اللّه باق، المال مال اللّه عز و جلّ، و الخلق عيال اللّه، و نحن أمناؤه فى الأرض، أطلق أزراق الناس و لا تقطعها و السلام. و لم يزل على ذلك إلى أن بطل أمره فى جمادى الآخرة من سنة خمس و أربعمائة، و ذلك أنه ركب مع الحاكم على عادته، فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة ضرب رقبته هناك و دفن فى هذا الموضع تخمينا، و استحضر الحاكم جماعة الكتّاب بعد قتله و سأل رؤساء الدواوين عما يتولاه كل واحد منهم، و أمرهم بلزوم دواوينهم و توفرهم على الخدمة، و كانت مدّة نظر ابن الوزان فى الوساطة و التوقيع عن الحضرة، و هى رتبة الوزارة، سنتين و شهرين و عشرين يوما، و كان توقيعه عن الحضرة الإمامية الحمد للّه و عليه توكلى.

مسجد الذخيرة

هذا المسجد تحت قلعة الجبل بأوّل الرميلة تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاون التى تلى بابها الكبير الذى سدّه الملك الظاهر برقوق، أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة. قال ابن المأمون فى تاريخه: فى هذه السنة، يعنى سنة ست عشرة و خمسمائة، استخدم ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة و الحسبة بسجل أنشأه ابن الصيرفىّ، و جرى من عسفه و ظلمه ما هو مشهور، و بنى المسجد الذى ما بين الباب الجديد إلى الجبل الذى هو به معروف، و سمّى مسجد لا بالله، بحكم أنه كان يقبض الناس من الطريق و يعسفهم، فيحلفونه و يقولون له لا بالله، فيقيدهم و يستعملهم فيه بغير أجرة، و لم يعمل فيه منذ أنشأه إلّا صانع مكره، أو فاعل مقيد، و كتبت عليه هذه الأبيات المشهورة:

بنى مسجدا للّه من غير حلهو كانّ بحمد اللّه غير موفق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجهالك الويل لا تزنى و لا تتصدّقى

و كان قد أبدع فى عذاب الجناة و أهل الفساد، و خرج عن حكم الكتّاب فابتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد، و مات بعد ما عجل اللّه له ما قدّمه، و تجنب الناس تشييعه و الصلاة عليه، و ذكر عنه فى حالتى غسله و حلوله بقبره ما يعيذ اللّه كلّ مسلم من مثله. و قال ابن عبد الظاهر: مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل، و ذكر ما تقدّم عن ابن المأمون.

مسجد رسلان

هذا المسجد بحارة اليانسية، عرف بالشيخ الصالح رسلان لإقامته به، و قد حكيت عنه كرامات، و مات به فى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة، و كان يتقوّت من أجرة خياطته للثياب، و ابنه عبد الرحمن بن محمد بن رسلان أبو القاسم كان فقيها محدّثا مقرئا، مات فى سنة سبع و عشرين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۷

مسجد ابن الشيخىّ

هذا المسجد بخط الكافورىّ مما يلى باب القنطرة وجهة الخليج مجاور لدار ابن الشيخى، أنشأه المهتار ناصر الدين محمد بن علاء الدين علىّ الشيخىّ مهتار السلطان بالإصطبلات السلطانية، و قرّر فيه شيخنا تقىّ الدين محمد بن حاتم، فكان يعمل فيه ميعادا يجتمع الناس فيه لسماع وعظه، و كان ابن الشيخى هذا حشما فخورا خيّرا يحب أهل العلم و الصلاح، و يكرمهم. و لم نر بعده فى رتبته مثله، و مات ليلة الثلاثاء أوّل يوم من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة.

مسجد يانس

هذا المسجد كان تجاه باب سعادة خارج القاهرة. قال ابن المأمون فی تاریخه: و كان الأجلّ المأمون یعنی الوزیر محمد بن فاتك البطائحیّ، قد ضم إلیه عدّة من ممالیك الأفضل بن أمیر الجیوش، من جملتهم یانس، و جعله مقدّما علی صبیان جلسه، و سلّم إلیه بیت ماله، و میزه فی رسومه. فلما رأی المذكور فی لیلة النصف من شهر رجب، یعنی سنة ست عشرة و خمسمائة، ما عمل فی المسجد المستجدّ قبالة باب الخوخة من الهمة و وفور الصدقات و ملازمة الصلوات، و ما حصل فیه من المثوبات، كتب رقعة یسأل فیها أن یفسح له فی بناء مسجد بظاهر باب سعادة، فلم یجبه المأمون إلی ذلك و قال له: ما ثم مانع من عمارة المساجد، و أرض اللّه واسعة، و إنما هذا الساحل فیه معونة للمسلمین و موردة للسقائین، و هو مرسی مراكب الغلة، و المضرّة فی مضایقة المسلمین فیه منه، و لو لم یكن المسجد المستجدّ قبالة باب الخوخة محرسا لما استجدّ، حتی إنّا لم نخرج بساحته الأولی، فإن أردت أن تبنی قبلیّ مسجد الریفی أو علی شاطیء الخلیج فالطریق ثم سهلة. فقبّل الأرض و امتثل الأمر، فلما قبض علی المأمون و أمّر الخلیفة یانس المذكور و لم یزل ینقله إلی أن استخدمه فی حجبة بابه، سأله فی مثل ذلك فلم یجبه، إلی أن أخذ الوزارة فبناه فی المكان المذكور. و كانت مدّته یسیرة، فتوفی قبل إتمامه و إكماله، فكمله أولاده بعد وفاته.

انتهی. و قد تقدّم خبر وزارة أبی الفتح ناظر الجیوش یانس الأرمنیّ هذا عند ذكر الحارة الیانسیة من هذا الكتاب.

مسجد باب الخوخة

هذا المسجد تجاه باب الخوخة بجوار مدرسة أبی غالب. قال ابن المأمون فی تاریخه من حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة: و لما سكن المأمون الأجلّ دار الذهب و ما معها، یعنی فی أیام النیل للنزهة عند سكن الخلیفة الآمر بأحكام اللّه بقصر اللؤلؤة المطل علی الخلیج، رأی قبالة باب الخوخة محرسا، فاستدعی وكیله و أمره بأن یزیل المحرس المذكور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۲۷۸

و یبنی موضعه مسجدا، و كان الصناع یعملون فیه لیلا و نهارا، حتی أنه تفطر بعد ذلك و احتیج إلی تجدیده.

المسجد المعروف بمعبد موسی

هذا المسجد بخط الركن المخلق من القاهرة تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبیل، و علی یمنة من سلك من بین القصرین طالبا حبة باب العید. أوّل من اختطه القائد جوهر عندما وضع القاهرة. قال ابن عبد الظاهر: و لما بنی القائد جوهر القصر دخل فیه دیر العظام، و هو المكان المعروف الآن بالركن المخلق، قبالة حوض الجامع الأقمر، و قریب دیر العظام، و المصریون یقولون بئر العظمة، فكره أن یكون فی القصر دیر فنقل العظام التی كانت به و الرّمم إلی دیر بناه فی الخندق، لأنه كان یقال إنها كانت عظام جماعة من الحواریین، و بنی مكانها مسجدا من داخل السور، یعنی سور القصر. و قال جامع سیرة الظاهر بیبرس: و فی ذی الحجة سنة ستین و ستمائة ظهر بالمسجد الذی بالركن المخلق من القاهرة حجر مكتوب علیه. هذا معبد موسی بن عمران علیه السلام، فجدّدت عمارته و صار یعرف بمعبد موسی من حینئذ، و وقف علیه ربع بجانبه، و هو باق إلی وقتنا هذا.

مسجد نجم الدین

هذا المسجد ظاهر باب النصر، أنشأه الملك الأفضل نجم الدین أبو سعید أیوب بن شادی یعقوب بن مروان الكردیّ، والد السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب، و جعل إلی جانبه حوض ماء للسبیل ترده الدواب فی سنة ست و ستین و خمسمائة، و نجم الدین هذا

قدم هو و أخوه أسد الدين شيركوه من بلاد الأكراد إلى بغداد، و خدم بها و ترقى فى الخدم حتى صار دزدارا بقلعة تكريت و معه أخوه، ثم إنه انتقل عنها إلى خدمة الملك المنصور عماد الدين أتابك زنكى بالموصل، فخدمه حتى مات، فتعلق بخدمة ابنه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فرقّاه و أعطاه بعلبك، و حج من دمشق سنة خمس و خمسمائة، فلما قدم ابنه صلاح الدين يوسف بن أيوب معه عمه أسد الدين شيركوه من عند نور الدين محمود إلى القاهرة، و صار إلى وزارة العاضد بعد موت شيركوه، قدم عليه أبوه نجم الدين فى جمادى الآخرة سنة خمس و ستين و خمسمائة، و خرج العاضد إلى لقائه و أنزله بمناظر اللؤلؤة، فلما استبدّ صلاح الدين بسلطنة مصر بعد موت الخليفة العاضد أقطع أباه نجم الدين الإسكندرية البحيرة إلى أن مات بالقاهرة، فى يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى الحجة، سنة ثمان و ستين و خمسمائة، و قيل فى ثامن عشرة من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر، فحمل إلى داره فمات بعد أيام، و كان خيّرا جوادا متدينا محبا لأهل العلم و الخير، و ما مات حتى رأى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۷۹

من أولاده عدّة ملوك، و صار يقال له أبو الملوك، و مدحه العماد الأصبهانىّ بعدّة قصائد، و رثاه الفقيه عمارة بقصيدته التى أوّلها:

هى الصدمة الأولى فمن بان صبرهعلى هول ملقاه تعاظم أمره

مسجد صواب

هذا المسجد خارج القاهرة بخط الصليبة، عرف بالطواشى شمس الدين صواب مقدّم المماليك السلطانية، و مات فى ثامن رجب سنة اثنتين و أربعين و ستمائة، و دفن به و كان خيرا دينا فيه صلاح.

المسجد بجوار المشهد الحسينىّ

هذا المسجد أنهىّ فى مستهل شهر رجب سنة اثنتين و ستين و ستمائة، للملك الظاهر ركن الدين بيبرس، و هو بدار العدل، أن مسجدا على باب مشهد السيد الحسين عليه السلام، و إلى جانبه مكان من حقوق القصر بيع و حمل ثمنه للديوان، و هو ستة آلاف درهم، فسأل السلطان عن صورة المسجد و هذا الموضع، و هل كل منهما بمفرده أو عليهما حائط دائر، فقيل له إن بينهما زرب قصب، فأمر بردّ المبلغ و أبقى الجميع مسجدا، و أمر بعمارة ذلك مسجدا للّه تعالى.

مسجد الفجل

هذا المسجد بخط بين القصرين تجاه بيت البيسرىّ، أصله من مساجد الخلفاء الفاطميين، أنشأه على ما هو عليه الآن الأمير بشتاك أخذ قصر أمير سلاح، و دار أقطوان الساقى، و أحد عشر مسجدا، و أربعة معابد كانت من عمارة الخلفاء و أدخلها فى عمارته التى تعرف اليوم بقصر بشتاك، و لم يترك من المساجد و المعابد سوى هذا المسجد فقط، و يجلس فيه بعض نوّاب القضاة المالكية للحكم بين الناس، و تسميه العامّة مسجد الفجل، و تزعم أن النيل الأعظم كان يمرّ بهذا المكان، و أن الفجل كان يغسل موضع هذا المسجد فعرف بذلك، و هذا القول كذب لا أصل له، و قد تقدّم فى هذا الكتاب ما كان عليه موضع القاهرة قبل بنائها، و ما علمت أن النيل كان يمرّ هناك أبدا، و بلغنى أنه عرف بمسجد الفجل من أجل أن الذى كان يقوم به كان يعرف بالفجل، و اللّه أعلم.

مسجد تبر

هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخندق، عرف قديما بالبئر، و الجميزة، و عرف بمسجد تبر، و تسميه العامّة مسجد التبن و هو خطأ، و موضعه خارج القاهرة قريبا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۰

المطرية. قال القضاعىّ: مسجد تبر بنى على رأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه، أنفذه المنصور فسرقه أهل مصر و دفنوه هناك، و ذلك فى سنة خمس و أربعين و مائة، و يعرف بمسجد البئر و الجميزة. و قال الكندىّ فى كتاب الأمراء: ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد اللّه بن حسن بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فى ذى الحجة سنة خمس و أربعين و مائة، لينصبوه فى المسجد الجامع، و قامت الخطباء فذكروا أمره.

و تبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الإخشيدىّ، فلما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر ثار تبر الإخشيدىّ هذا فى جماعة من الكافورية و الإخشيدية و حاربه، فانهزم بمن معه إلى أسفل الأرض، فبعث جوهر يستعطفه فلم يجب و أقام على الخلاف، فسير إليه عسكرا حاربه بناحية صهرجت فانكسر و صار إلى مدينة صور التى كانت على الساحل فى البحر، فقبض عليه بها و أدخل إلى القاهرة على فيل، فسجن إلى صفر سنة ستين و ثلاثمائة، فاشتدّت المطالبة عليه، و ضرب بالسياط و قبضت أمواله، و حبس عدّة من أصحابه بالمطبق فى القيود إلى ربيع الآخر منها، فجرح نفسه و أقام أياما مريضا و مات، فسلخ بعد موته و صلب عند كرسى الجبل. و قال ابن عبد الظاهر أنه حشى جلدة تبنا و صلب، فربما سمت العامّة مسجده بذلك لما ذكرناه، و قيل أن تبرا هذا خادم الدولة المصرية، و قبره بالمسجد المذكور. قال مؤلفه: هذا وهم و إنما هو تبر الإخشيدىّ.

مسجد القطبية

هذا المسجد كان حيث المدرسة المنصورية بين القصرين و اللّه أعلم.

ذكر الخوانك

اشارة

الخوانك جمع خانكاه، و هى كلمة فارسية معناها بيت، و قيل أصلها خونقاه، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك. و الخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة، و جعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة اللّه تعالى. قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرىّ رحمه اللّه: اعلموا أن المسلمين بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لم يتسمّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم الصحابة، و لما أدرك أهل العصر الثانى، سمىّ من صحب الصحابة التابعين، و رأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس و تباينت المراتب، فقيل لخواص خواص الناس ممن لهم شدّة عناية بأمر الدين الزهّاد و العبّاد، ثم ظهرت البدع و حصل التداعى بين الفرق، فكلّ فريق ادّعوا أنّ فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع اللّه الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوّف، و اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۱

قال: و هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال رجل صوفىّ، و للجماعة الصوفية، و من يتوصل إلى ذلك يقال له متصوّف، و للجماعة المتصوّفة، و ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس و لا اشتقاق، و او ظهر فيه أنه كاللّقب، فأمّا قول من قال أنه من الصوف، و تصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه، و لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. و من قال: إنهم ينسبون إلى صفة مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفىّ. و من قال إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفىّ من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة، و قول من قال أنه مشتق من الصف، فكأنهم فى الصف الأوّل بقلوبهم من

حيث المحاضرة مع اللّه تعالى، فالمعنى صحيح، لكنّ اللغة لا تقتضى هذه النسبة من الصف، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ و استحقاق اشتقاق، و اللّه أعلم. و قال الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردىّ رحمه اللّه: و الصوفىّ يضع الأشياء فى مواضعها، و يدبر الأوقات و الأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامهم، و يقيم أمر الحق مقامه، و يستر ما ينبغى أن يستر، و يظهر ما ينبغى أن يظهر، و يأتى بالأمور من مواضعها بحضور عقل و صحة توحيد و كمال معرفة و رعاية صدق و إخلاص، فقوم من المفتونين لبسوا ألبسة الصوفية لينسبوا إليهم و ما هم منهم بشىء، بل هم فى غرور و غلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيا تارة و دعوة أخرى، و ينتهجون مناهج أهل الإباحة و يزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى اللّه تعالى، و أن هذا هو الظفر بالمراد و الارتسام بمراسم الشريعة، رتبة العوام و القاصرين الإفهام، و هذا هو عين الإلحاد و الزندقة و الإبعاد، و للّه در القائل:

تنازع الناس فى الصوفىّ و اختلفوافيه و ظنوه مشتقا من الصوف

و لست انحل هذا الاسم غير فتى‌صافى و صوفى حتى سمىّ الصوفى

قال مؤلفه: ذهب و اللّه ما هنالك و صارت الصوفية. كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى:

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليوم سوى ستة بغير زياده

و هى نيك العلوق و السكر و السطلة و الرقص و الغنا و القياده

و إذا ما هذى و أبدى اتحاداو حلولا من جهله أو إعاده

و أتى المنكرات عقلا و شرعافهو شيخ الشيوخ ذو السجّاده

ثم تلاشى الآن حال الصوفية و مشايخها حتى صاروا من سقط المتاع، لا ينسبون إلى علم و لا ديانة، و إلى اللّه المشتكى. و أوّل من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۲

و ذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرّغوا للعبادة و ليس لهم تجارات و لا غلات، فبنى لهم دورا و أسكنهم فيها و جعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم و مشرب و ملبس و غيره، فجاء يوما ليزورهم فسأل عنهم فإذا عبد اللّه بن عامر عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى اللّه عنه قد دعاهم. فأتاه فقال له: يا ابن عامر ما تريد من هؤلاء القوم؟ قال: أريد أن أقرّبهم فيشفعوا فأشفعهم، و يسألوا فأعطيهم، و يشيروا علىّ فأقبل منهم. فقال: لا و لا كرامة، فتأتى إلى قوم قد انقطعوا إلى اللّه تعالى فتدنسهم بدنياك و تشركهم فى أمرك، حتى إذا ذهبت أديانهم أعرضت عنهم فطاحوا لا- إلى الدنيا و لا إلى الآخرة، قوموا فارجعوا إلى مواضعكم. فقاموا، فأمسك ابن عامر فما نطق بلفظة. ذكره أبو نعيم.

الخانكاه الصلاحية، دار سعيد السعداء، دويرة الصوفية

هذه الخانكاه بخط رحبة باب العيد من القاهرة، كانت أوّلا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، و هو الأستاذ قنبر، و يقال عنبر. و ذكر ابن ميسر أن اسمه بيان، و لقبه سعيد السعداء، أحد الأستاذين المحنكين خدّام القصر، عتيق الخليفة المستنصر، قتل فى سابع شعبان سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و رمى برأسه من القصر، ثم صلبت جثته بباب زويلة من ناحية الخرق، و كانت هذه الدار مقابل دار الوزارة. فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها و فتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ليمرّ فيه، ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته، ثم ابنه الكامل. فلما استبدّ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد، و غير رسوم الدولة الفاطمية، و وضع من قصر الخلافة، و أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، و وقفها عليهم فى سنة تسع و ستين و خمسمائة، و ولى عليهم شيخا، و وقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة، و قيسارية الشراب بالقاهرة، و ناحية دهمر، و من البهنساوية، و

شرط أنّ من مات من الصوفية و ترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء، و لا يتعرّض لها الديوان السلطانيّ، و من أراد منهم السفر يعطى تسفيره، و رتّب للصوفية فى كلّ يوم طعاما و لحما و خبزا، و بنى لهم حمّاما بجوارهم، فكانت أوّل خانكاه عملت بديار مصر. و عرفت بدويرة الصوفية، و نعت شيخها بشيخ الشيوخ، و استمرّ ذلك بعده إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ست و ثمانمائة، و اتضعت الأحوال و تلاشت الرتب، فلقب كل شيخ خانكاه بشيخ الشيوخ، و كان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم و الصلاح و ترجى بركتهم، و ولى مشيختها الأكابر و الأعيان كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، مع ما كان لهم من الوزارة و الإمارة و تدبير الدولة و قيادة الجيوش و تقدمة العساكر. و وليها ذو الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تقىّ الدين عبد الرحمن بن ذى الرياستين الوزير الصاحب قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۳

الأعز، و جماعة من الأعيان، و نزل بها الأكابر من الصوفية.

و أخبرنى الشيخ أحمد بن علىّ القصار رحمه اللّه: أنه أدرك الناس فى يوم الجمعة يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عند ما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمىّ، كى تحصل لهم البركة و الخير بمشاهدتهم، و كان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة، و ذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها و بين يديه خدّام الربعة الشريفة قد حملت على رأس أكبرهم، و الصوفية مشاة بسكون و خفر إلى باب الجامع الحاكمىّ الذى يلى المنبر، فيدخلون إلى مقصورة كانت هناك على يسرة الداخل من الباب المذكور تعرف بمقصورة البسملة، فإنه بها إلى اليوم بسملة قد كتبت بحروف كبار، فيصلى الشيخ تحية المسجد تحت سحابة منصوبة له دائما، و تصلى الجماعة، ثم يجلسون و تفرّق عليهم أجزاء الربعة فيقرؤون القرآن حتى يؤذن المؤذنون، فتؤخذ الأجزاء منهم و يشتغلون بالتركع و استماع الخطبة، و هم منصتون خاشعون، فإذا قضيت الصلاة و الدعاء بعدها قام قارىء من قرّأ الخانقاه و رفع صوته بقراءة ما تيسر من القرآن، و دعا للسلطان صلاح الدين، و لواقف الجامع و لسائر المسلمين، فإذا فرغ قام الشيخ من مصلاه و سار من الجامع إلى الخانقاه و الصوفية معه كما كان توجههم إلى الجامع، فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة، و ما برح الأمر على ذلك إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمىّ نظر الخانقاه المذكورة فى يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة سنة سبع و تسعين و سبعمائة، فنزل إليها و أخرج كتاب الوقف، و أراد العمل بما فيه من شرط الواقف، فقطع من الصوفية المنزلين بها عشرات ممن له منصب و من هو مشهور بالمال، و زاد الفقراء المجرّدين و هم المقيمون بها فى كلّ يوم رغيفا من الخبز، فصار لكلّ مجرّد أربعة أرغفة بعد ما كانت ثلاثة، و رتب بالخانقاه وظيفتى ذكر بعد صلاة العشاء الآخرة و بعد صلاة الصبح، فكثر النكير على السالمىّ ممن أخرجهم، و زاد الإشلاء.

فقال بعض أدباء العصر فى ذلك:

يا أهل خانقة الصلاح أراكما بين شاك للزمان و شاتم

يكفيكم ما قد أكلتم باطلامن وقفها و خرجتم بالسّالم

و كان سبب ولاية السالمىّ نظر الخانقاه المذكورة، أن العادة كانت قديما أنّ الشيخ هو الذى يتحدّث فى نظرها، فلما كانت أيام الظاهر برقوق ولى مشيختها شخص يعرف بالشيخ محمد البلالىّ قدم من البلاد الشامية، و صار للأمير سودون الشيخونىّ نائب السلطنة بديار مصر فيه اعتقاد، فلما سعى له فى المشيخة و استقرّ فيها بتعيينه، سأله أن يتحدّث فى النظر إعانة له، فتحدّث، و كانت عدّة الصوفية بها نحو الثلاثمائة رجل، لكلّ منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز، و قطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق، و يعمل لهم الحلوى فى كلّ شهر، و يفرّق فيهم الصابون، و يعطى كلّ منهم فى السنة عن ثمن كسوة قدر أربعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۴

درهما، فنزّل الأمير سودون عندهم جماعة كثيرة عجز ريع الوقف عن القيام لهم بجميع ما ذكر، فقطعت الحلوى و الصابون و الكسوة،

ثم إن ناحية دهمر و شرّقت فى سنة تسع و تسعين لقصور ماء النيل، فوقع العزم على غلق مطبخ الخانقاه و إبطال الطعام، فلم تحتمل الصوفية ذلك و تكرّرت شكواهم للملك الظاهر برقوق، فولّى الأمير يلبغا السالمىّ النظر، و أمره أن يعمل بشرط الواقف.

فلما نزل إلى الخانقاه و تحدّث فيها، اجتمع بشيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ و أوقفه على كتاب الوقف، فأفتاه بالعمل بشرط الواقف، و هو أن الخانقاه تكون وقفا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة و القاطنين بالقاهرة و مصر، فإن لم يوجدوا كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية و المالكية الأشعرية الاعتقاد، ثم إنه جمع القضاة و شيخ الإسلام و سائر صوفية الخانقاه بها و قرأ عليهم كتاب الوقف، و سأل القضاة عن حكم اللّه فيه، فانتدب للكلام رجلان من الصوفية، هما زين الدين أبو بكر القمنىّ، و شهاب الدين أحمد العبادىّ الحنفىّ، و ارتفعت الأصوات و كثر اللغط، فأشار القضاة على السالمىّ أن يعمل بشرط الواقف و انصرفوا، فقطع منهم نحو الستين رجلا، منهم المذكوران، فامتعض العبادىّ و غضب من ذلك و شنّع بأنّ السالمىّ قد كفر، و بسط لسانه بالقول فيه، و بدت منه سماجات فقبض عليه السالمىّ و هو ماش بالقاهرة، فاجتمع عدّة من الأعيان و فرّقوا بينهما، فبلغ ذلك السلطان فأحضر القضاة و الفقهاء و طلب العبادىّ فى يوم الخميس ثامن شهر رجب و ادّعى عليه السالمىّ، فاقتضى الحال تعزيره، فعزر و كشف رأسه و أخرج من القلعة ماشيا بين يدى القضاة و والى القاهرة إلى باب زويلة، فسجن بحبس الديلم، ثم نقل منه إلى حبس الرحبة، فلما كان يوم السبت حادى عشرة، استدعى إلى دار قاضى القضاة جمال الدين محمود القيصرىّ الحنفىّ، و ضرب بحضرة الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ والى القاهرة نحو الأربعين ضربة بالعصا تحت رجليه، ثم أعيد إلى الحبس، و أفرج عنه فى ثامن عشرة بشفاعة شيخ الإسلام فيه، و لما جدّد الأمير يلبغا السالمىّ الجامع الأقمر، و عمل له منبرا و أقيمت به الجمعة فى شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و ثمانمائة، الزم الشيخ بالخانقاه و الصوفية أن يصلوا الجمعة به، فصاروا يصلّون الجمعة فيه إلى أن زالت أيام السالمىّ، فتركوا الاجتماع بالجامع الأقمر، و لم يعودوا إلى ما كانوا عليه من الاجتماع بالجامع الحاكمىّ، و نسى ذلك. و لم يكن بهذه الخانقاه مئذنة، و الذى بنى هذه المئذنة شيخ ولى مشيختها فى سنة بضع و ثمانين و سبعمائة، يعرف بشهاب الدين أحمد الأنصارىّ، و كان الناس يمرّون فى صحن الخانقاه بنعالهم، فجدّد شخص من الصوفية بها يعرف بشهاب الدين أحمد العثمانىّ هذا الدرابزين و غرس فيه هذه الأشجار، و جعل عليها وقفا لمن يتعاهدها بالخدمة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۵

خانقاه ركن الدين بيبرس

هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى التى تقدّم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب، و هى أجلّ خانقاه بالقاهرة بنيانا، و أوسعها مقدارا و أتقنها صنعة، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ قبل أن يلى السلطنة، و هو أمير. فبدأ فى بنائها فى سنة ست و سبعمائة، و بنى بجانبها رباطا كبيرا يتوصل إليه من داخلها، و جعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره، و لهذه القبة شبابيك تشرف على الشارع المسلوك فيه من رحبة باب العيد إلى باب النصر، من جملتها الشباك الكبير الذى حمله الأمير أبو الحارث البساسيرىّ من بغداد، لما غلب الخليفة القائم العباسىّ و أرسل بعمامته و شباكه الذى كان بدار الخلافة فى بغداد، و تجلس الخلفاء فيه، و هو هذا الشباك كما ذكر فى أخبار دار الوزارة من هذا الكتاب. فلما ورد هذا الشباك من بغداد عمل بدار الوزارة و استمر فيها إلى أن عمر الأمير بيبرس الخانقاه المذكورة فجعل هذا الشباك بقبة الخانقاه، و هو بها إلى يومنا هذا، و إنه لشباك جليل القدر. حشم يكاد يتبين عليه أبهة الخلافة. و لما شرع فى بنائها رفق بالناس و لا طفهم و لم يعسف فيها أحدا فى بنائها و لا أكره صانعا و لا غصب من آلاتها شيئا، و إنما اشترى دار الأمير عز الدين الأفرم التى كانت بمدينة مصر، و اشترى دار الوزير هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و أخذ ما كان فيهما من الأنقاض، و اشترى أيضا دار الأنماط التى كانت برأس حارة الجودرية من القاهرة و نقضها و ما حولها، و اشترى أملاكا كانت قد بنيت فى أرض دار الوزارة من ملاكها بغير إكراه و هدمها، فكان قياس أرض الخانقاه و الرباط و

القبة نحو فدّان و ثلث.

و عندما شرع فى بنائها حضر إليه الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، و أراد التقرّب لخاطره، و عرّفه أن بالقصر الذى فيه سكن أبيه مغارة كبيرة تحت الأرض يذكر أنّ فيها ذخيرة من ذخائر الخلفاء الفاطميين، و أنهم لما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير فسدّوها و لم يتعرّضوا لشىء مما فيها، فسرّ بذلك و بعث عدّة من الأمراء فتحوا المكان فإذا فيه رخام جليل القدر عظيم الهيئة، فيه ما لا يوجد مثله لعظمه، فنقله من المغارة و رخم منه الخانقاه و القبة و داره التى بالقرب من البندقانيين و حارة زويلة، و فضل منه شىء كثير عهدى أنه مختزن بالخانقاه، و أظنه أنه باق هناك. و لما كملت فى سنة تسع و سبعمائة، قرّر بالخانقاه أربعمائة صوفىّ، و بالرباط مائة من الجند و أبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، و جعل بها مطبخا يفرّق على كلّ منهم فى كلّ يوم اللحم و الطعام و ثلاثة أرغفة من خبز البرّ، و جعل لهم الحلوى، و رتب بالقبة درسا للحديث النبوىّ له مدرّس، و عنده عدّة من المحدّثين، و رتب القرّاء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليلا و نهارا، و وقف عليها عدّة ضياع بدمشق و حماه و منية المخلص

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۶

بالجيزة من أرض مصر و بالصعيد و الوجه البحرىّ و الربع و القيسارية بالقاهرة.

فلما خلع من السلطنة و قبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاون و قتله، أمر بغلقها فغلقت، و أخذ سائر ما كان موقوفا عليها و محا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك، و أقامت نحو عشرين سنة معطلة، ثم إنه أمر بفتحها فى أوّل سنة ست و عشرين و سبعمائة، ففتحت، و أعاد إليها ما كان موقوفا عليها، و استمرّت إلى أن شرقت أراضى مصر لقصور مدّ النيل أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، فبطل طعامها و تعطل مطبخها، و استمرّ الخبز و مبلغ سبعة دراهم لكلّ واحد فى الشهر بدل الطعام، ثم صار لكلّ واحد منهم فى الشهر عشرة دراهم، فلما قصر مدّ النيل فى سنة ست و تسعين و سبعمائة، بطل الخبز أيضا و غلق المخبز من الخانقاه، و صار الصوفية يأخذون فى كلّ شهر مبلغا من الفلوس معاملة القاهرة، و هم على ذلك إلى اليوم. و قد أدركتها و لاـ يمكّن بوّابها غير أهلها من العبور إليها و الصلاة فيها لما لها فى النفوس من المهابة، و يمنع الناس من دخولها حتى الفقهاء و الأجناد، و كان لا ينزل بها أمرد، و فيها جماعة من أهل العلم و الخير، و قد ذهب ما هنالك فنزل بها اليوم عدّة من الصغار و من الأساكفة و غيرهم من العامّة، إلّا أن أوقافها عامرة و أرزاقها دارّة بحسب نقود مصر، و من حسن بناء هذه الخانقاه أنه لم يحتج فيها إلى مرمّة منذ بنيت إلى وقتنا هذا، و هى مبنية بالحجر و كلها عقود محكمة بدل السقوف الخشب، و قد سمعت غير واحد يقول إنه لم تبن خانقاه أحسن من بنائها.

الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورىّ: اشتراه الملك المنصور قلاون صغيرا و رقاه فى الخدم السلطانية إلى أن جعله أحد الأمراء، و أقامه جاشنكير و عرف بالشجاعة. فلما مات الملك المنصور خدم ابنه الملك الأشرف خليلا إلى أن قتله الأمير بيدرا بناحية تروجة، فكان أوّل من ركب على بيدرا فى طلب ثار الملك الأشرف، و كان مهابا بين خشداشيته فركبوا معه، و كان من نصرتهم على بيدرا و قتله ما قد ذكر فى موضعه، فاشتهر ذكره و صار أستادار السلطان فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثانية، رفيقا للأمير سلار نائب السلطنة، و به قويت الطائفة البرجية من المماليك و اشتدّ بأسهم، و صار الملك الناصر تحت حجر بيبرس و سلار إلى أن أنف من ذلك و سار إلى الكرك، فأقيم بيبرس فى السلطنة يوم السبت ثالث عشرى شوّال سنة ثمان و سبعمائة، فاستضعف جانبه و انحط قدره و نقصت مهابته، و تغلب عليه الأمراء و المماليك، و اضطربت أمور المملكة لمكان الأمير سلار و كثرة حاشيته و ميل القلوب إلى الملك الناصر، و فى أيامه عمل الجسر من قليوب إلى مدينة دمياط و هو مسيرة يومين طولا فى عرض أربع قصبات من أعلاه، و ست قصبات من أسفله، حتى أنه كان يسير عليه ستة من الفرسان معا بحذاء بعضهم، و أبطل سائر الخمارات من السواحل و غيرها من بلاد الشام، و سامح بما كان من المقرّر عليها للسلطان، و عوّض الأجناد بدله، و كبست أماكن الريب و الفواحش بالقاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۷

و مصر، و أريقت الخمور و ضرب أناس كثير فى ذلك بالمقارع، و تتبع أماكن الفساد و بالغ فى إزالته، و لم يراع فى ذلك أحدا من الكتاب و لا من الأمراء، فخف المنكر و خفى الفساد، إلا أن اللّه أراد زوال دولته، فسوّلت له نفسه أن بعث إلى الملك الناصر بالكرك يطلب منه ما خرج به معه من الخيل و المماليك، و حمل الرسول إليه بذلك مشافهة أغلظ عليه فيها، فحنق من ذلك و كاتب نوّاب الشام و أمراء مصر فى السرّ يشكو ما حلّ به، و ترفق بهم و تلطف بهم فرقوا له و امتعضوا لما به، و نزل الناصر من الكرك و برز عنها، فاضطرب الأمر بمصر و اختلّ الحال من بيبرس و أخذ العسكر يسير من مصر إلى الناصر شيئا بعد شيء، و سار الناصر من ظاهر الكرك يريد دمشق فى غرّة شعبان سنة تسع و سبعمائة، فعندما نزل الكسوة خرج الأمراء و عامّة أهل دمشق إلى لقائه، و معهم شعار السلطنة، و دخلوا به إلى المدينة و قد فرحوا به فرحا كثيرا، فى ثانى عشر شعبان، و نزل بالقلعة و كاتب النوّاب فقدموا عليه و صارت ممالك الشام كلها تحت طاعته يخطب له بها و يجبى إليه مالها، ثم خرج من دمشق بالعساكر يريد مصر، و أمر بيبرس كلّ يوم فى نقص إلى أن كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، فترك بيبرس المملكة و نزل من قلعة الجبل و معه خواصه إلى جهة باب القرافة، و العامّة تصيح عليه و تسبه و ترجمه بالحجارة، عصبية للملك الناصر و حبا له، حتّى سار عن القرافة، و دعا الحرس بالقلعة فى يوم الأربعاء للملك الناصر، فكانت مدّة سلطنة بيبرس عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما، و قدم الملك الناصر إلى قلعة الجبل أوّل يوم من شوّال، و جلس على تخت المملكة و استولى على السلطنة مرّة ثالثة، و نزل بيبرس بأطفيح ثم سار منها إلى أخميم، فلما صار بها تفرّق عنه من كان معه من الأمراء و المماليك فصاروا إلى الملك الناصر، فتوجه فى نفر يسير على طريق السويس يريد بلاد الشام فقبض عليه شرقىّ غزة و حمل مقيدا إلى الملك الناصر، فوصل قلعة الجبل يوم الأربعاء ثالث عشر ذى القعدة، و أوقف بين يدى السلطان و قبّل الأرض، فعنفه و عدّد عليه ذنوبا و وبخه، ثم أمر به فسجن فى موضع إلى ليلة الجمعة خامس عشرة، و فيها لحق بربه تعالى، فحمل إلى القرافة و دفن فى تربة الفارس أقطاى، ثم نقل منها بعد مدّة إلى تربته بسفح المقطم فقبر بها زمانا طويلا، ثم نقل منها ثالث مرّة إلى خانقاهه و دفن بقبتها، و قبره هناك إلى يومنا هذا.، و أدركت بالخانقاه المذكورة شيخا من صوفيتها أخبرنى أنه حضر نقله من تربته بالقرافة إلى قبة الخانقاه، و أنه تولى وضعه فى مدفنه بنفسه، و كان رحمه اللّه خيّرا عفيفا كثير الحياء وافر الحرمة جليل القدر عظيما فى النفوس مهاب السطوة فى أيام أمرته، فلما تلقب بالسلطنة و وسم باسم الملك، اتضع قدره و استضعف جانبه، و طمع فيه، و تغلب عليه الأمراء و المماليك، و لم تنجح مقاصده و لا سعد فى شيء من تدبيره إلى أن انقضت أيامه و أناخ به حمامه. رحمه اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۸

الخانقاه الجمالية

هذه الخانقاه بالقرب من درب راشد، يسلك إليها من رحبة باب العيد، بناها الأمير الوزير مغلطاى الجمالىّ فى سنة ثمانين و سبعمائة، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر المدارس من هذا الكتاب.

الخانقاه الظاهرية

هذه الخانقاه بخط بين القصرين فيما بين المدرسة الناصرية و دار الحديث الكاملية، أنشأها الملك الظاهر برقوق فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و قد ذكرت عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

الخانقاه الشرابيشية

هذه الخانقاه فيما بين الجامع الأقمر و حارة برجوان فى آخر المنحر الذى كان للخلفاء، و هو يعرف اليوم بالدرب الأصفر، و يتوصل منها إلى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و بابها الأصليّ من زقاق ضيق بوسط سوق حارة برجوان، أنشأها الصدر الأجل نور الدين عليّ بن محمد بن محاسن الشرابيشيّ، و كان من ذوى الغنى و اليسار، صاحب ثراء متسع، وله عدّة أوقاف على جهات البرّ و القربات و مات فى ... .

الخانقاه المهمندارية

هذه الخانقاه خارج باب زويلة فيما بين رأس حارة اليانسية و جامع الماردينيّ، بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزيّ المهمندار، و نقيب الجيوش، فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و قد ذكرت فى المدارس من هذا الكتاب.

خانقاه بشتاك

هذه الخانقاه خارج القاهرة على جانب الخليج من البرّ الشرقيّ تجاه جامع بشتاك، أنشأها الأمير سيف الدين بشتاك الناصريّ، و كان فتحها أوّل يوم من ذى الحجة سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و استقرّ فى مشيختها شهاب الدين القدسيّ، و تقرّر عنده عدّة من الصوفية و أجرى لهم الخبز و الطعام فى كلّ يوم، فاستمرّ ذلك مدّة ثم بطل، و صار يصرف لأربابها عوضا عن ذلك فى كلّ شهر مبلغ، و هى عامرة إلى وقتنا هذا، و قد نسب إليها جماعة منهم الشيخ الأديب البارع بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبدر البشتكى.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۸۹

خانقاه ابن غراب

هذه الخانقاه خارج القاهرة على الخليج الكبير من برّه الشرقيّ بجوار جامع بشتاك من غربيه، أنشأها القاضى الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الإسكندرانيّ، ناظر الخاص و ناظر الجيوش و أستادار السلطان، و كاتب السرّ، و أحد أمراء الألوف الأكابر، أسلم جد غراب و باشر بالإسكندرية حتى ولى نظر الثغر، و نشأ ابنه عبد الرزاق هناك، فولى أيضا نظر الإسكندرية، و ولد له ماجد و إبراهيم. فلما تحكم الأمير جمال الدين محمود بن عليّ فى الأموال أيام الملك الظاهر برقوق، اختص بإبراهيم و حمله إلى القاهرة و هو صبيّ و اعتنى به و استكتبه فى خاص أمواله حتى عرفها، فتنكر محمود عليه لأمر بدا منه فى ماله، و همّ به فبادر إلى الأمير علاء الدين عليّ بن الطبلاويّ و ترامى عليه، و هو يومئذ قد نافس محمودا فأوصله بالسلطان و أمكنه من سماع كلامه، فملأ أذنه بذكر أموال محمود و وغر صدره عليه حتى نكبه و استصفى أمواله، كما ذكر فى خبره عند ذكر مدرسة محمود من هذا الكتاب، و ولى ابن غراب نظر الديوان المفرد فى حادى عشر صفر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و عمره عشرون سنة أو نحوها، و هى أوّل وظيفة وليها، فاختص بابن الطبلاويّ و لازمه و ملأ عينه بكثرة المال، فتحدّث له فى وظيفة نظر الخاص عوضا عن سعد الدين أبى الفرج بن تاج الدين موسى، فوليها فى تاسع عشر ذى القعدة، و غص بمكان ابن الطبلاويّ فعمل عليه عند السلطان حتى غيره عليه و ولاه أمره، فقبض عليه فى داره و على سائر أسبابه فى شعبان فى سنة ثمانمائة، ثم أضيف إليه نظر الجيوش عوضا عن شرف الدين محمد الدمامينيّ فى تاسع ذى القعدة سنة ثمانمائة، فعفّ عن تناول الرسوم و أظهر من الفخر و الحشمة و المكارم أمرا كبيرا، و قدّر اللّه موت السلطان فى شوّال سنة إحدى و ثمانمائة بعد ما جعله من جملة أوصيائه، فباطن الأمير يشبك الخازندار على إزالة الأمير الكبير أيتمش القائم بدولة الناصر فرج بن برقوق، و عمل لذلك أعمالا حتى كانت الحرب بعد موت السلطان الملك الظاهر بين الأمير أيتمش و بين الأمير يشبك، فى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانمائة، التى انهزم فيها أيتمش و عدّة من الأمراء إلى الشام، و تحكم الأمير يشبك فاستدعى عند ذلك ابن غراب أخاه فخر الدين ماجدا من الإسكندرية، و هو يلى نظرها إلى قلعة الجبل، و فوّضت إليه وزارة الملك

الناصر فرج بن برقوق، فقاما بسائر أمور الدولة إلى أن ولى الأمير يلبغا السالمىّ الأستادارية، فسلك معه عادته من المنافسة، و سعى به عند الأمير يشبك حتى قبض عليه، و تقلد وظيفة الأستادارية عوضا عن السالمىّ فى رابع عشر رجب سنة ثلاث و ثمانمائة، مضافا إلى نظر الخاص و نظر الجيوش، فلم يغير زىّ الكتاب، و صار له ديوان كدواوين الأمراء، و دقت الطبول على بابه، و خاطبه الناس و كاتبوه بالأمير، و سار فى ذلك سيرة ملوكية من كثرة العطاء و زيادة الأسمطة و الاتساع فى الأمور، و الازدياد من المماليك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۰

و الخيول، و الاستكثار من الخول و الحواشى، حتى لم يكن أحد يضاهيه فى شىء من أحواله، إلى أن تنازع الأميران حكم و سودون طاز مع الأمير يشبك، فكان هو المتولى كبر تلك الحروب، ثم إنه خرج من القاهرة مغاضبا لأمراء الدولة، و صار إلى ناحية تروجة يريد جمع العربان و محاربة الدولة، فلم يتم له ذلك. و عاد فدخل القاهرة على حين غفلة، فنزل عند جمال الدين يوسف الأستادار، فقام بإصلاح أمره مع الأمراء حتى حصل له الغرض، فظهر و استولى على ما كان عليه إلى أن تنكرت رجال الدولة على الملك الناصر فرج، فقام مع الأمير يشبك بحرب السلطان إلى أن انهزم الأمير يشبك بأصحابه إلى الشام، فخرج معه فى سنة تسع و ثمانمائة، و أمدّه و من معه بالأموال العظيمة حتى صاروا عند الأمير شيخ نائب الشام، و استفز العساكر لقتال الملك الناصر و حرّضهم على المسير إلى حربه، و خرج من دمشق مع العساكر يريد القاهرة، و كان من وقعة السعيدية ما كان على ما هو مذكور فى خبر الملك الناصر عند ذكر الخانقاه الناصرية من هذا الكتاب، فاختفى الأمير يشبك و طائفة من الأمراء بالقاهرة، و لحق ابن غراب بالأمير اينال باى بن قجماس، و هو يومئذ أكبر الأمراء الناصرية، و ملأ عينه بالمال، فتوسط له مع الملك الناصر حتى أمنه و أصبح فى داره و جميع الناس على بابه، ثم تقلد وظيفة نظر الجيوش و اختص بالسلطان، و ما زال به حتى استرضاه على الأمير يشبك و من معه من الأمراء، و ظهروا من الاستتار و صاروا بقلعة الجبل، فخلع عليهم السلطان و أمّرهم و صاروا إلى دورهم، فثقل على ابن غراب مكان فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ، فسعى به حتى قبض عليه و ولى مكانه كتابة السرّ ليتمكن من أغراضه. فلما استقرّ فى كتابة السرّ أخذ فى نقض دولة الناصر إلى أن تم له مراده، و صارت الدولة كلها على الناصر، فخلا به و خيل له و حسّن له الفرار، فانقاد له و ترامى عليه، فأعدّ له رجلين أحدهما من مماليكه و معهما فرسان، و وقفا بهما وراء القلعة، و خرج الناصر وقت القائلة و معه مملوك من مماليكه يقال له بيغوت، و ركبا الفرسين و سارا إلى ناحية طرا، ثم عادا مع قاصدى ابن غراب فى مركب من المراكب النيلية ليلا إلى دار ابن غراب و نزلا عنده، و قد خفى ذلك على جميع أهل الدولة، و قام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق و أجلسه على تخت الملك عشاء، و لقبه بالملك المنصور، و دبر الدولة كما أحب مدّة سبعين يوما إلى أن أحس من الأمراء بتغير، فأخرج الناصر ليلا و جمع عليه عدّة من الأمراء و المماليك و ركب معه بلامة الحرب إلى القلعة، فلم يلبث أصحاب المنصور و انهزموا و دخل الناصر إلى القلعة و استولى على المملكة ثانيا، فألقى مقاليد الدولة إلى ابن غراب و فوّض إليه ما وراء سريره و نظمه فى خاصته، و جعله من أكابر الأمراء و ناط به جميع الأمور، فأصبح مولى نعمة كلّ من السلطان و الأمراء، يمنّ عليهم بأنه أبقى لهم مهجهم، و أعاد إليهم سائر ما كانوا قد سلبوه من ملكهم، و أمدّهم بما له وقت حاجتهم وفاقتهم إليه، و يفخر و يتكثر بأنه أقام دولة و أزال دولة، ثم أزال ما أقام و أقام ما أزال من غير حاجة و لا ضرورة ألجأته إلى شىء من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۱

ذلك، و أنه لو شاء أخذ الملك لنفسه، و ترك كتابة السرّ لغلامه و أحد كتابه فخر الدين بن المزوق ترفعا عنها و احتقارا بها، و لبس هيئة الأمراء، و هى الكلوتة و القباء و شدّ السيف فى وسطه، و تحوّل من داره التى على بركة الفيل إلى دار بعض الأمراء بحدرة البقر، فغاضبه القضاء، و كان عند الانتهاء الانحطاط، و نزل به مرض الموت فنال فى مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله لأحد من أبناء جنسه، و صار الأمير يشبك و من دونه من الأمراء يتردّدون إليه، و أكثرهم إذا دخل عليه وقف قائما على قدميه حتى ينصرف إلى أن مات يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان سنة ثمان و ثمانمائة، و لم يبلغ ثلاثين سنة.

و كانت جنازته أحد الأمور العجيبة بمصر لكثرة من شهدها من الأمراء و الأعيان و سائر أرباب الوظائف، بحيث استأجر الناس السقائف و الحوانيت لمشاهدتها، و نزل السلطان للصلاة عليه، و صعد إلى القلعة، فدفن خارج باب المحروق، و كان من أحسن الناس شكلا و أحلاهم منظرا و أكرمهم يدا مع تدين و تعفف عن القاذورات، و بسط يد بالصدقات، إلّا أنه كان غدّارا لا يتوانى عن طلب عدوّه، و لا يرضى من نكبته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كبشا و تل عرشا و عالج جبالا شامخة و اقتلع دولا من أصولها الراسخة، و هو أحد من قام بتخريب إقليم مصر، فإنه ما زال يرفع سعر الذهب حتى بلغ كلّ دينار إلى مائتى درهم و خمسين درهما من الفلوس، بعد ما كان بنحو خمسة و عشرين درهما، ففسدت بذلك معاملة الإقليم و قلت أمواله و غلت أسعار المبيعات، و ساءت أحوال الناس، إلى أن زالت البهجة و انطوى بساط الرفة، و كاد الإقليم يدمر كما ذكر ذلك عند ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر من هذا الكتاب، عفا اللّه عنه و سامحه، فلقد قام بمواراة آلاف من الناس الذين هلكوا فى زمان المحنة، سنة ست و سنة سبع و ثمانمائة، و تكفينهم، فلم ينس اللّه له ذلك و ستره كما ستر المسلمين، و ما كان ربك نسيا.

الخانقاه البندقدارية

هذه الخانقاه بالقرب من الصليبة، كان موضعها يعرف قديما بدويرة مسعود، و هى الآن تجاه المدرسة الفارقانية و حمّام الفارقانى. أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ الصالحىّ النجمىّ، و جعلها مسجدا للّه تعالى، و خانقاه، و رتب فيها صوفية و قرّاء فى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و فى سنة ثمان و أربعين و ستمائة استنابه الملك المعز أيبك، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نوّاب دار العدل، و إلى أيدكين هذا ينسب الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، لأنه كان أوّلا مملوكه، ثم انتقل منه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف بين المماليك البحرية بيبرس البندقدارىّ، و عاش أيدكين إلى أن صار بيبرس سلطان مصر و ولاه نيابة السلطنة بحلب، فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و كان الغلاء بها شديدا، فلم تطل أيامه و فارقها بدمشق بعد محاربة سنقر الأشقر و القبض عليه، فى حادى

عشر صفر سنة تسع و خمسين و ستمائة، فأقام فى النيابة نحو شهر، و صرفه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرىّ. فلما خرج السلطان إلى الشام فى سنة إحدى و ستين و ستمائة، و أقام بالطور، أعطاه أمرة بمصر و طبلخاناه فى ربيع الآخر منها، و مات فى ربيع الآخر سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و دفن بقبة هذه الخانقاه.

خانقاه شيخو

هذه الخانقاه فى خط الصليبة خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمرىّ فى سنة ست و خمسين و سبعمائة، كان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون، و آخر ما عرف من خبره أنه كان مساكن للناس، فاشتراها الأمير شيخو من أربابها و هدمها فى المحرّم من هذه السنة، فكانت مساحة أرضها زيادة على فدّان، فاختط فيها الخانقاه و حمّامين و عدّة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامّة، و رتب بها دروسا عدّة، منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، و هم الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و درسا للحديث النبوىّ، و درسا لإقراء القرآن بالروايات السبع، و جعل لكلّ درس مدرّسا و عنده جماعة من الطلبة، و شرط عليهم حضور الدرس و حضور وظيفة التصوّف، و أقام شيخنا أكمل الدين محمد بن محمود فى مشيخة الخانقاه، و مدرّس الحنفية، و جعل إليه النظر فى أوقاف الخانقاه، و قرّر فى تدريس الشافعية الشيخ بهاء الدين أحمد بن علىّ السبكىّ، و فى تدريس المالكية الشيخ خليلا، و هو متجند الشكل و له إقطاع فى الحلقة. و فى تدريس الحنابلة قاضى القضاة موفق الدين الحنبلىّ، و رتب لكل من الطلبة فى اليوم الطعام و اللحم و الخبز، و فى الشهر الحلوى و الزيت و الصابون، و وقف عليها الأوقاف الجليلة، فعظم قدرها و اشتهر فى الأقطار

ذكرها، و تخرّج بها كثير من أهل العلم، و أربت فى العمارة على كل وقف بديار مصر إلى أن مات الشيخ أكمل الدين فى شهر رمضان سنة ست و ثمانين و سبعمائة، فوليها من بعده جماعة، و لما حدثت المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذى فاض عن مصروفها، فأخذه الملك الناصر فرج، و أخذت أحوالها تتناقص حتى صار المعلوم يتأخر صرفه لأرباب الوظائف بها عدّة أشهر، و هى إلى اليوم على ذلك.

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش، فيما بين القاهرة و مصر، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولىّ فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و قد تقدّم ذكرها فى المدارس.

خانقاه الجيبغا المظفرى

هذه الخانقاه خارج باب النصر فيما بين قبة النصر و تربة عثمان بن جوشن السعودىّ، أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفرىّ، و كان بها عدّة من الفقراء يقيمون بها و لهم فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۳

شيخ، و يحضرون فى كل يوم وظيفة التصوّف، و لهم الطعام و الخبز، و كان بجانبها حوض ماء لشرب الدواب، و سقّاية بها الماء العذب لشرب الناس، و كتّاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب اللّه تعالى، و يتعلمون الخط، و لهم فى كلّ يوم الخبز و غيره، و ما برحت على ذلك إلى أن أخرج الأمير برقوق أوقافها، فتعطلت و أقام بها جماعة من الناس مدّة ثم تلاشى أمرها، و هى الآن باقية من غير أن يكون فيها سكان، و قد تعطل حوضها و بطل مكتب السبيل.

الجيبغا المظفرىّ: الخاصكى، تقدّم فى أيام الملك المظفر حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاون، تقدّما كثيرا، بحيث لم يشاركه أحد فى رتبته. فلما قام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون فى السلطنة أقرّه على رتبته، و صار أحد أمراء المشورة الذين يصدر عنهم الأمر و النهى، فلما اختلف أمراء الدولة أخرج إلى دمشق فى ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين و سبعمائة، و أقام بدمشق إلى شعبان، و سار إلى نيابة طرابلس عوضا عن الأمير بدر الدين مسعود بن الخطيرىّ، فلم يزل على نيابتها إلى شهر ربيع الأوّل سنة خمسين و سبعمائة، فكتب إلى الأمير أرغون شاه نائب دمشق يستأذنه فى التصيد إلى الناعم ، فأذن له و سار من طرابلس و أقام على بحيرة حمص أياما يتصيد، ثم ركب ليلا بمن معه و ساق إلى خان لاجين ظاهر دمشق، فوصله أوّل النهار و أقام به يومه، ثم ركب منه بمن معه ليلاـ و طرق أرغون شاه و هو بالقصر الأبلق، و قبض عليه و قيده فى ليلة الخميس ثالث عشرى شهر ربيع الأوّل، و أصبح و هو بسوق الخيل، فاستدعى الأمراء و أخرج لهم كتاب السلطان بإمساك أرغون شاه، فأذعنوا له و استولى على أموال أرغون شاه. فلما كان يوم الجمعة رابع عشريه، أصبح أرغون شاه مذبوحا، فأشاع الجيبغا أن أرغون شاه ذبح نفسه، و فى يوم الثلاثاء أنكر الأمراء أمره و ثاروا لحربه، فركب و قاتلهم و انتصر عليهم و قتل جماعة منهم و أخذ الأموال و خرج من دمشق و سار إلى طرابلس، فأقام بها، و ورد الخبر من مصر إلى دمشق بإنكار كل ما وقع و الاجتهاد فى مسك الجيبغا، فخرجت عساكر الشام إليه ففرّ من طرابلس، فأدركه عسكر طرابلس عند بيروت و حاربوه حتى قبضوا عليه، و حمل إلى عسكر دمشق فقيد و سجن بقلعة دمشق فى ليلة السبت سادس عشر ربيع الآخر، هو و فخر الدين إياس، ثم وسط بمرسوم السلطان تحت قلعة دمشق بحضور عساكر دمشق، و وسط معه الأمير فخر الدين إياس و علقا على الخشب، فى ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمسين و سبعمائة، و عمره دون العشرين سنة، فما طرّ شاربه و كأنه البدر حسنا و الغصن اعتدالا.

خانقاه سرياقوس

هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها، بأوّل تيه بنى إسرائيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۴

بسماسم سرياقوس، أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و ذلك أنه لما بنى الميدان و الأحواش فى بركة الجبّ، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر بركة الجب، اتفق أنه ركب على عادته للصيد هناك، فأخذه ألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه و هو يتجلد و يكتم ما به حتى عجز، فنزل عن الفرس و الألم يتزايد به، فنذر للّه إن عافاه اللّه ليبنين فى هذا الموضع موضعا يعبد اللّه تعالى فيه، فخف عنه ما يجده، و ركب فقضى نهمته من الصيد و عاد إلى قلعة الجبل، فلزم الفراش مدّة أيام ثم عوفى، فركب بنفسه و معه عدّة من المهندسين، و اختط على قدر ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه، و جعل فيها مائة خلوة لمائة صوفىّ، و بنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة، و بنى بها حمّاما و مطبخا، و كان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة. فلما كانت سنة خمس و عشرين و سبعمائة، كمل ما أراد من بنائها، و خرج إليها بنفسه و معه الأمراء و القضاة و مشايخ الخوانك، و مدّت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، و تصدّر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعىّ لإسماع الحديث النبوىّ، و قرأ عليه ابنه عز الدين عبد العزيز عشرين حديثا تساعيا، و سمع السلطان ذلك، و كان جمعا موفورا، و أجاز قاضى القضاة الملك الناصر و من حضر برواية ذلك. و جميع ما يجوز له روايته، و عند ما انقضى مجلس السماع قرّر السلطان فى مشيخة هذه الخانكاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى، و لقّبه بشيخ الشيوخ، فصار يقال له ذلك و لكلّ من ولى بعده، و كان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلّا شيخ خانقاه سعيد السعداء، و أحضرت التشاريف السلطانية فخلع على قاضى القضاة بدر الدين، و على ولده عز الدين، و على قاضى القضاة المالكية، و على الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى شيخ الشيوخ، و على الشيخ علاء الدين القونوىّ شيخ خاقناه سعيد السعداء، و على الشيخ قوام الدين أبى محمد عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازىّ، شيخ الصوفية بالجامع الجديد الناصرىّ، خارج مدينة مصر، و على جماعة كثيرة. و خلع على سائر الأمراء و أرباب الوظائف، و فرّق بها ستين ألف درهم فضة و عاد إلى قلعة الجبل، فرغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه و بنو الدور و الحوانيت و الخانات، حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس، و تزايد الناس بها حتى أنشئ فيها سوى حمّام الخانقاه عدّة حمّامات، و هى إلى اليوم بلدة عامرة، و لا يؤخذ بها مكس البتة مما يباع من سائر الأصناف احتراما لمكان الخانقاه، و يعمل هناك فى يوم الجمعة سوق عظيم ترد الناس إليه من الأماكن البعيدة، يباع فيه الخيل و الجمال و الحمير و البقر و الغنم و الدجاج و الأوز و أصناف الغلات و أنواع الثياب و غير ذلك، و كانت معاليم هذه الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر، يصرف لكل صوفىّ فى اليوم من لحم الضأن السليخ رطل قد طبخ فى طعم شهىّ، و من الخبز النقىّ أربعة أرطال و يصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهما فضة عنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۵

ديناران و رطل حلوى و رطلان زيتا من زيت الزيتون، و مثل ذلك من الصابون، و يصرف له ثمن كسوة فى كلّ سنة، و توسعة فى كل شهر رمضان، و فى العيدين، و فى مواسم رجب و شعبان و عاشوراء، و كلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها، و بالخانقاه خزانة بها السكّر و الأشربة و الأدوية، و بها الطبائعىّ و الجرائحىّ و الكحال و مصلح الشعر، و فى كلّ رمضان يفرّق على الصوفية كيزان لشرب الماء، و تبيّض لهم قدورهم النحاس، و يعطون حتى الأسنان لغسل الأيدى من وضر اللحم، يصرف ذلك من الوقف لكل منهم، و بالحمّام الحلاق لتدليك أبدانهم و حلق رؤوسهم، فكان المنقطع بها لا يحتاج إلى شىء غيرها و يتفرّغ للعبادة، ثم استجدّ بعد سنة تسعين و سبعمائة بها حمّام أخرى برسم النساء، و ما برحت على ما ذكرنا إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و صار يصرف لهم فى ثمنه مبلغ من نقد مصر، و هى الآن على ذلك، و أدركت من صوفيتها شخصا شيخا

يعرف بأبى طاهر، ينام أربعين يوما بلياليها لا يستيقظ فيها البتة، ثم يستيقظ أربعين يوما لا ينام فى ليلها و لا نهارها، أقام على ذلك عدّة أعوام، و خبره مشهور عند أهل الخانقاه، و أخبرنى أنه لم يكن فى النوم إلّا كغيره من الناس، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدّم ذكره، و مات بهذه الخانقاه فى نحو سنة ثمانمائة، و مما قيل فى الخانقاه و ما أنشأه السلطان بها:

سر نحو سرياقوس و انزل بفناأرجاءها يا ذا النّهى و الرشد

تلق محلا للسرور و الهنافيه مقام للتقى و الزهد

نسيمه يقول فى مسيره‌تنبهى يا عذبات الرند

و روضه الريان من خليجه‌يقول دع ذكر أراضى نجد

خانقاه أرسلان

هذه الخانقاه فيما بين القاهرة و مصر من جملة أراضى منشأة المهرانىّ، أنشأها الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار.

أرسلان: الأمير بهاء الدين الدوادار الناصرىّ، كان أوّلا عند الأمير سلار أيام نيابته مصر، خصيصا به حظيا عنده. فلما قدم الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك بعساكر الشام، و نزل بالريدانية ظاهر القاهرة فى شهر رمضان سنة تسع و سبعمائة، أطلع أرسلان على أن جماعة قد اتفقوا على أن يهجموا على السلطان و يفتكوا به يوم العيد، أوّل شوّال، فجاء إليه و عرّفه الحال و قال له: اخرج الساعة و اطلع القلعة و املكها. فقام السلطان و فتح باب سر الدهليز و خرج من غير الباب، و صعد قلعة الجبل و جلس على سرير الملك، فرعى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۶

السلطان له هذه المناصحة، و لما أخرج الأمير عز الدين أيدمر الدوادار من وظيفته، رتّب أرسلان فى الدوادارية، و كان يكتب خطا مليحا، و درّبه القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر و خرّجه، و هذبه، فصار يكتب بخطه إلى كتاب السرّ عن السلطان فى المهمات بعبارة مسدّدة وافية بالمقصود، و استولى على السلطان بحيث لم يكن لغيره فى أيامه ذكر، و لم يشتهر فخر الدين و كريم الدين بعظمة إلّا بعده، و اجتهدا فى إبعاده فما قدرا على ذلك، و فى أيام توليته الدوادارية السلطانية أنشأ هذه الخانكاه على شاطىء النيل، و كان ينزل فى كل ليلة ثلاثاء إليها من القلعة و يبيت بها، و يحتفل الناس للحضور إليها، و يرسل عن السلطان إلى مهنا أمير العرب، و نفع الناس نفعا كبيرا و قلدهم مننا جسيمة، و مات فى ثالث عشرى شهر رمضان سنة سبع عشرة و سبعمائة، فوجد فى تركته ألف ثوب أطلس، و نفائس كثيرة، و عدّة تواقيع و مناشير معلمة، فأنكر السلطان معرفتها و نسب إليها اختلاسها، و أوّل من ولى مشيختها تقىّ الدين أبو البقاء محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الرحيم الشريف الحسينىّ القنائى الشافعىّ، جدّ الشيخ عبد الرحيم القنائىّ الصالح المشهور، و أبوه ضياء الدين جعفر، كان فقيها شافعيا، و كان أبو البقاء هذا عالما عارفا زاهدا قليل التكلف متقللا من الدنيا، سمع الحديث و أسمعه، و ولد فى سنة خمس و أربعين و ستمائة، و مات ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الأولى، سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و دفن بالقرافة، فتداول مشيختها القضاة الأخنائية إلى أن كانت آخرا بيد شيخنا قاضى القضاة صدر الدين عبد الوهاب بن أحمد الأخنائىّ. فلما مات فى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، تلقاها عنه عز الدين بن الصاحب، ثم وليها من بعده ابنه شمس الدين محمد بن الصاحب، رحمه اللّه.

خانقاه بكتمر

هذه الخانقاه بطرف القرافة فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش، أنشأها الأمير بكتمر الساقى، و ابتدأ الحضور بها فى يوم الثلاثاء ثامن شهر رجب سنة ست و عشرين و سبعمائة، و أوّل من استقرّ فى مشيختها الشمسىّ شمس الدين الرومىّ، و رتب له عن معلوم المشيخة

فی كل شهر مائة درهم، و عن معلوم الإمامة مبلغ خمسين درهما، و رتب معه عشرين صوفيا لكل منهم فی الشهر مبلغ ثلاثين درهما، فجاءت من أجلّ ما بنی بمصر، و رتب بها صوفية و قرّاء، و قرّر لهم الطعام و الخبز فی كل يوم، و الدراهم و الحلوی و الزيت و الصابون فی كل شهر، و بنی بجانبها حمّاما، و أنشأ هناك بستانا، فعمرت تلك الخطة و صار بها سوق كبير و عدّة سكان، و تنافس الناس فی مشيختها إلی أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و الخبز منها و انتقل السكان منها إلی القاهرة و غيرها، و خربت الحمام و البستان و صار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ من نقد مصر، و أقام فيها رجل يحرسها، و تمزق ما كان فيها من الفرش و الآلات النحاس و الكتب و الربعات و القناديل النحاس المكفت و القناديل الزجاج المذهب، و غير ذلك من الأمتعة و النفائس الملوكية، و خرب ما حولها لخلوّه من السكان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۷

بكتمر الساقی: الأمير سيف الدين، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، فلما استقرّ الملك الناصر محمد بن قلاون فی المملكة بعد بيبرس، أخذه فی جملة من أخذ من مماليك بيبرس و رقاه حتی صار أحد الأمراء الأكابر، و كتب إلی الأمير تنكز نائب السلطنة بدمشق بعد أن قبض علی الأمير سيف الدين طغای الكبير يقول له: هذا بكتمر الساقی يكون لك بدلا من طغای، اكتب إليه بما تريد من حوائجك، فعظم بكتمر و علا محله و طار ذكره، و كان السلطان لا يفارقه ليلا و لا نهارا إلّا إذا كان فی الدور السلطانية، ثم زوّجه بجاريته و حظيته، فولدت لبكتمر ابنه أحمد، و صار السلطان لا يأكل إلّا فی بيت بكتمر مما تطبخه له أمّ أحمد فی قدر من فضة، و ينام عندهم و يقوم، و اعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله و تقبيله، و لما شاع ذكر بكتمر و تسامع الناس به قدّموا إليه غرائب كلّ شیء، و أهدوا إليه كل نفيس، و كان السلطان إذا حمل إليه أحد من النوّاب تقدمة لا بدّ أن يقدّم لبكتمر مثلها أو قريبا منها، و الذی يصل إلی السلطان يهب له غالبه، فكثرت أمواله و صارت إشارته لا تردّ، و هو عبارة عن الدولة، و إذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب، و عمر له السلطان القصر علی بركة الفيل.

و لما مات بطريق الحجاز فی سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة، خلف من الأموال و القماش و الأمتعة و الأصناف و الزردخاناه ما يزيد علی العادة و الحدّ، و يستحی العاقل من ذكره، فأخذ السلطان من خيله أربعين فرسا و قال: هذه لی ما وهبته إياها، و بيع الباقی من الخيل علی ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ ألف ألف درهم فضة، و مائتی ألف درهم و ثمانين ألف درهم فضة، خارجا عما فی الجشارات، و أنعم السلطان بالزردخاناه و السلاحخاناه التی له علی الأمير قوصون بعد ما أخذ منها سرجا واحدا و سيفا، القيمة عن ذلك ستمائة ألف دينار، و أخذ له السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمنا لا تعلم قيمة ذلك، و بيع له من الصينی و الكتب و الختم و الربعات، و نسخ البخاریّ و الدوايات الفولاذ و المطعمة و البصم بسقط الذهب و غير ذلك، و من الوبر و الأطلس و أنواع القماش السكندریّ و البغدادیّ و غير ذلك شیء كثير إلی الغاية المفرطة، و دام البيع لذلك مدّة شهور.

و امتنع القاضی شرف الدين النشو ناظر الخاص من حضور البيع و استعفی من ذلك، فقيل له لأیّ شیء فعلت ذلك؟ قال: ما أقدر أصبر علی غبن ذلك، لأن المائة درهم تباع بدرهم. و لما خرج مع السلطان إلی الحجاز خرج بتجمل زائد و حشمة عظيمة و هو ساقة الناس كلهم، و كان ثقله و جماله نظير ما للسلطان، و لكن يزيد عليه بالزركش و آلات الذهب، و وجد فی خزانته بطريق الحجاز بعد موته خمسمائة تشريف، منها ما هو أطلس بطرز زركش و ما دون ذلك من خلع أرباب السيوف و أرباب الأقلام، و وجد معه قيود و جنازير، و تنكر السلطان له فی طريق الحجاز و استوحش كلّ منهما من صاحبه، فاتفق أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۸

فی العود مرض ولده أحمد و مرض من بعده، فمات ابنه قبله بثلاثة أيام، فحمل فی تابوت مغشی بجلد جمل، و لما مات بكتمر دفن مع ولده بنخل، و حث السلطان فی المسير و كان لا ينام فی تلك السفرة إلّا فی برج خشب، و بكتمر عنده، و قوصون علی الباب و الأمراء المشايخ كلهم حول البرج بسيوفهم، فلما مات بكتمر ترك السلطان ذلك، فعلم الناس أن احترازه كان خوفا من بكتمر. و يقال

أن السلطان دخل عليه و هو مريض فى درب الحجاز فقال له: بينى و بينك اللّه. فقال له: كل من فعل شيئا يلتقيه. و لما مات صرخت زوجته أمّ ابنه أحمد و بكت و أعولت إلى أن سمعها الناس تتكلم بالقبيح فى حق السلطان، من جملته: أنت تقتل مملوكك، أنا ابنى ايش كان؟ فقال لها: بس، تفشرين، هاتى مفاتيح صناديقه، فأنا أعرف كل شىء أعطيته من الجواهر. فرمت بالمفاتيح إليه فأخذها، و لما وصل السلطان إلى قلعة الجبل أظهر الحزن و الندامة عليه، و أعطى أخاه قمارى أمرة مائة و تقدمة ألف، و كان يقول ما بقى يجيئنا مثل بكتمر، و أمر فحملت جثته و جثة ابنه إلى خانقاهه هذه و دفنتا بقبتها، و بدت من السلطان أمور منكرة بعد موت بكتمر، فإنه كان يحجر على السلطان و يمنعه من مظالم كثيرة، و كان يتلطف بالناس و يقضى حوائجهم و يسوسهم أحسن سياسة، و لا يخالفه السلطان فى شىء، و مع ذلك فلم يكن له حماية و لا رعاية و لا لغلمانه ذكر، و من المغرب يغلق باب إصطبله، و كان ممّا له على السلطان من المرتب فى كل يوم مخفيتان، يأخذ عنهما من بيت المال كل يوم سبعمائة درهم، عن كل مخفية ثلاثمائة و خمسين درهما، و كان السلطان إذا أنعم على أحد بشىء أو ولّاه وظيفة قال له: روح إلى الأمير بكتمر و بوس يده، و كان جيد الطباع حسن الأخلاق لين الجانب سهل الانقياد رحمه اللّه.

خانقاه قوصون

هذه الخانقاه فى شمالىّ القرافة مما يلى قلعة الجبل تجاه جامع قوصون، أنشأها الأمير سيف الدين قوصون، و كملت عمارتها فى سنة ست و ثلاثين و سبعمائة، و قرّر فى مشيختها الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبى القاسم أحمد الأصفهانىّ، و رتب له معلوما سنيا من الدراهم و الخبز و اللحم و الصابون و الزيت و سائر ما يحتاج إليه، حتى جامكية غلام بغلته، و استقرّ ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها، و قرّر بها جماعة كثيرة من الصوفية، و رتب لهم الطعام و اللحم و الخبز فى كل يوم، و فى الشهر المعلوم من الدراهم و من الحلوى و الزيت و الصابون، و ما زالت على ذلك إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فبطل الطعام و الخبز منها و صار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر، و تلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البرّ، و أكثرها نفعا و خيرا، و قد تقدّم ذكر قوصون عند ذكر جامعه من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۲۹۹

خانقاه طغاى النجمىّ

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية فيما بين قلعة الجبل و قبة النصر، أنشأها الأمير طغاى تمر النجمىّ، فجاءت من المبانى الجليلة، و رتب بها عدّة من الصوفية و جعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى، و بنى بجانبها حمّاما و غرس فى قبليها بستانا، و عمل بجانب الحمّام حوض ماء للسبيل ترده الدواب، و وقف على ذلك عدّة أوقاف، ثم إن الحمّام و الحوض تعطلا مدّة. فلما ماتت أرزباى زوجة القاضى فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ فى سنة ثمان و ثمانمائة، دفنها خارج باب النصر و أحبّ أن يبنى على قبرها و يوقف عليها أوقافا، ثم بدا له فنقلها إلى هذه الخانقاه و دفنها بالقبة التى فيها، و أدار الساقية و ملأ الحوض و رتب لقرّاء هذه الخانقاه معلوما، و عزم على تجديد ما تشعث من بنائها و إدارة حمامها، ثم بدا له فأنشأ بجانب هذه الخانقاه تربة و نقل زوجته مرّة ثالثة إليها، و جعل أملاكه وقفا على تربته.

طغاى تمر النجمىّ: كان دوادار الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون، فلما مات الصالح استقرّ على حاله فى أيام أخويه الملك الكامل شعبان، و الملك المظفر حاجى، و كان من أحسن الأشكال و أبدع الوجوه، تقدّم فى الدول و صارت له وجاهة عظيمة، و خدمه الناس و لم يزل على حاله إلى أن لعب به أغرلوا فيمن لعب و أخرجه إلى الشام و ألحقه بمن أخذه من غزة، و ذلك فى أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، و طغاى هذا أوّل دوادار أخذ أمرة مائة و تقدمة ألف، و ذلك فى أوّل دولة

المظفر حاجی، و لما كانت واقعة الأمير ملكتمر الحجازیّ و الأمير آق سنقر و عدّة من الأمراء فی تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، رمی طغای تمر سيفه و بقی بغير سيف بعض يوم، ثم إن المظفر أعطاه سيفه و استمرّ فی الدوادارية نحو شهر، و أخرج هو و الأمير نجم الدين محمود الوزير، و الأمير سيف الدين بيدمر البدریّ علی الهجن إلی الشام، فأدركهم الأمير سيف الدين منجک و قتلهم فی الطريق.

خانقاه أمّ أنوک

هذه الخانقاه خارج باب البرقية بالصحراء، التی أنشأتها الخاتون طغای تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقی، فجاءت من أجلّ المبانی، و جعلت بها صوفية و قرّاء، و وقفت عليها الأوقاف الكثيرة، و قرّرت لكل جارية من جواريها مرتبا يقوم بها.

طغای الخوندة الكبری: زوجة السلطان الملک الناصر محمد بن قلاون، و أمّ ابنه الأمير أنوک، كانت من جملة إمائه، فأعتقها و تزوّجها، و يقال أنها أخت الأمير أقبغا عبد الواحد، و كانت بديعة الحسن باهرة الجمال، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۰

الملوک الترک بمصر، و تنعمت فی ملاذّ ما وصل سواها لمثلها، و لم يدم السلطان علی محبة امرأة سواها، و صارت خونده بعد ابنه توكای و أكبر نسائه، حتی من ابنة الأمير تنكز. و حج بها القاضی كريم الدين و احتفل بأمرها و حمل لها البقول فی محاير طين علی ظهور الجمال، و أخذ لها الأبقار الحلابة، فسارت معها طول الطريق لأجل اللبن الطریّ، و عمل الجبن، و كان يقلی لها الجبن فی الغداء و العشاء، و ناهيک بمن وصل إلی مداومة البقل و الجبن فی كل يوم، و هما أخس ما يؤكل، فما عساه يكون بعد ذلک. و كان القاضی كريم الدين، و الأمير مجلس، و عدّة من الأمراء يترجلون عند النزول و يمشون بين يدی محفتها و يقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان، ثم حج بها الأمير بشتاک فی سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة، و كان الأمير تنكز إذا جهز من دمشق تقدمة إلی السلطان لا بدّ أن يكون لخوند طغای منها جزء وافر، فلما مات السلطان الملک النصار استمرّت عظمتها من بعده إلی أن ماتت فی شهر شوّال سنة تسع و أربعين و سبعمائة، أيام الوباء، عن ألف جارية، و ثمانين خادما خصيا، و أموال كثيرة جدّا، و كانت عفيفة طاهرة كثيرة الخير و الصدقات و المعروف، جهزت سائر جواريها و جعلت علی قبر ابنها بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين قرّاء، و وقفت علی ذلک وقفا، و جعلت من جملته خبزا يفرّق علی الفقراء، و دفنت بهذه الخانقاه، و هی من أعمر الأماكن إلی يومنا هذا.

خانقاه يونس

هذه الخانقاه من جملة ميدان القبق بالقرب من قبة النصر خارج باب النصر، أدركت موضعها و به عواميد تعرف بعواميد السباق، و هی أوّل مكان بنی هناک، أنشأها الأمير يونس النوروزیّ الدوادار كان من مماليک الأمير سيف الدين جرجی الإدريسیّ، أحد الأمراء الناصرية، و أحد عتقائه، فترقی فی الخدم من آخر أيام الملک الناصر محمد بن قلاون إلی أن صار من جملة الطائفة اليلبغاوية، فلما قتل الأمير يلبغا الخاصكیّ خدم بعده الأمير استدمر الناصریّ الأتابک، و صار من جملة دواداريته، و ما زال يتنقل فی الخدم إلی أن قام الأمير برقوق بعد قتل الملک الأشرف شعبان، فكان ممن أعانه و قاتل معه، فرعی له ذلک و رقّاه إلی أن جعله أمير مائة مقدّم ألف، و جعله دواداره لما تسلطن، فسلک فی رياسته طريقة جليلة، و لزم حالة جميلة من كثر الصيام و الصلاة، و إقامة الناموس الملوكیّ، و شدّة المهابة، و الإعراض عن اللعب، و مداومة العبوس، و طول الجلوس، و قوّة البطش لسرعة غضبه، و محبة الفقراء، و حضور السماع و الشغف به، و إكرام الفقهاء و أهل العلم.

و أنشأ بالقاهرة ربعا و قيسارية بخط البندقانيين، و تربة خارج باب الوزير تحت القلعة، و أنشأ بظاهر دمشق مدرسة بالشرف الأعلی، و أنشأ خانا عظيما خارج مدينة غزة، و جعل بجانب هذه الخانقاه مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين كتاب اللّه تعالی، و بنی بها صهريجا ينقل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۱

إليه ماء النيل، و ما زال على وفور حرمته و نفوذ كلمته إلى أن خرج الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب على الملك الظاهر برقوق، فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و جهز السلطان الأمير أيتمش، و الأمير يونس هذا، و الأمير جهاركس الخليلىّ، و عدّة من الأمراء و المماليك لقتاله، فلقوه بدمشق و قاتلوه فهزمهم، و قتل الخليلىّ و فرّ أيتمش إلى دمشق، و نجا يونس بنفسه يريد مصر، فأخذه الأمير عيفا بن شطى أمير الأمراء و قتله يوم الثلاثاء ثانى عشرى شهر ربيع الآخر، سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و لم يعرف له قبر بعد ما أعدّ لنفسه عدّة مدافن فى غير ما مدينة من مصر و الشام.

خانقاه طيبرس

هذه الخانقاه من جملة أراضى بستان الخشاب، فيما بين القاهرة و مصر على شاطىء النيل، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش فى سنة سبع و سبعمائة، بجوار جامعه المقدّم ذكره عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب. و قرّر بها عدّة من الصوفية، و جعل لهم شيخا و أجرى لهم المعاليم، و لم تزل عامرة إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فابتاع شخص الوكالة و الربعين المعروفين بربع بكتمر و الحمامين، و نقض ذلك فخرب الخط و صار مخوفا. فلما كان فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، نقل الحضور من هذه الخانقاه إلى المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر، و هى الآن بصدد أن تدثر و تمحى آثارها.

خانقاه أقبغا

هذه الخانقاه هى موضع من المدرسة الأقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، أفرده الأمير أقبغا عبد الواحد و جعل فيه طائفة يحضرون وظيفة التصوّف، و أقام لهم شيخا و أفرد لهم وقفا يختص بهم، و هى باقية إلى يومنا هذا، و له أيضا خانقاه بالقرافة.

الخانقاه الخروبية

هذه الخانقاه بساحل الجيزة تجاه المقياس، كانت منظرة من أعظم الدور و أحسنها، أنشأها زكىّ الدين أبو بكر بن علىّ الخرّوبىّ كبير التجار، ثم توارثها من بعده أولاد الخرّوبىّ التجار بمصر، فلم تزل بأيديهم، إلى أن نزلها السلطان المؤيد شيخ فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رجب الفرد، سنة اثنتين و عشرين و ثمانمائة، و أقام بها فاقتضى رأيه أن يجعلها خانقاه، فاستدعى بابن الخرّوبىّ ليشتريها منه، فتبرّع بما يخصه منها، و صار إليه باقيها، فتقدّم إلى الأمير سيف الدين أبى بكر بن المسروق الاستادار بعملها خانقاه، و سار منها فى يوم الأربعاء سادس عشرة، فأخذ الأمير أبو بكر فى عملها حتى كملت فى آخر السنة، و استقرّ فى مشيختها شمس الدين محمد بن الحمتى الدمشقىّ الحنبلىّ، و خلع عليه يوم السبت سنة ثلاث و عشرين و ثمانمائة، و رتب له فى كل يوم عشرة مؤيدية، عنها مبلغ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۲

سبعين درهما فلوسا، سوى الخبز و السكن، و قرّر عنده عشرة من الفقراء لكل منهم مع الخبز مؤيدىّ فى كل يوم، فجاءت من أحسن شيء.

ذكر الربط

اشارة

الربط جمع رباط، و هو دار يسكنها أهل طريق اللّه. قال ابن سيده: الرباط من الخيل، الخمس فما فوقها. و الرباط و المرابطة ملازمة

ثغر العدوّ، و أصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطا. و ربما سميت الخيل نفسها رباطا، و الرباط و الرباط المواظبة على الأمر. قال الفارسيّ هو ثان من لزوم الثغر، و لزوم الثغر ثان من رباط الخيل و قوله تعالى: وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا قيل معناه جاهدوا، و قيل واظبوا على مواقيت الصلاة. و قال أبو حفص السهروردىّ فى كتاب عوارف المعارف: و أصل الرباط ما تربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، و المقيم فى الرباط على طاعة اللّه يدفع بدعائه البلاء عن العباد، و البلاد. و روى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخى، هل تدرى فى أىّ شيء نزلت هذه الآية: اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا قلت: لا. قال: يا ابن أخى لم يكن فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم غزو تربط فيه الخيل، و لكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة، فالرباط جهاد النفس، و المقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه، و اجتماع أهل الربط إذ صح على الوجه الموضوع له الربط، و تحقق أهل الربط بحسن المعاملة و رعاية الأوقات، و توقى ما يفسد الأعمال، و يصحح الأحوال، عادت البركة على البلاد و العباد، و شرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق، و فتح المعاملة مع الحق، و ترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، و حبس النفس عن المخالطات، و اجتناب التبعات، و مواصلة الليل و النهار بالعبادة متعوّضا بها عن كل عادة، و الاشتغال بحفظ الأوقات و ملازمة الأوراد و انتظار الصلوات، و اجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطا مجاهدا. و الرباط هو بيت الصوفية و منزلهم، و لكل قوم دار، و الرباط دارهم، و قد شابهوا أهل الصفة فى ذلك، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد و عزم واحد و أحوال متناسبة، و وضع الرباط لهذا المعنى. قال مؤلفه رحمه اللّه:

و لاتخاذ الربط و الزوايا أصل من السنة، و هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل و لا مال مكانا من مسجده، كانوا يقيمون به عرفوا بأهل الصفة.

رباط الصاحب

هذا الرباط مطل على بركة الحبش، أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين أبى الحسن علىّ بن محمد بن سليم بن حنا، و وقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقارا بمدينة مصر، و شرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجرّدين غير المتأهلين، و ذلك فى ذى الحجة سنة ثمان و ستين و ستمائة، و هو باق إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۳

يومنا هذا، و ليس فيه أحد، و يستأدى ريع وقفه من لا يقوم بمصالحه.

رباط الفخرى

هذا الرباط خارج باب الفتوح فيما بينه و بين النصر، بناه الأمير عز الدين أيبك الفخرىّ، أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس.

رباط البغدادية

هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، حيث كان المتجر الذى ذكر عند ذكر القصر من هذا الكتاب، و من الناس من يقول رواق البغدادية، و هذا الرباط بنته الست الجليلة تذكارياى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس فى سنة أربع و ثمانين و ستمائة، للشيخة الصالحة زينت ابنة أبى البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به و معها النساء الخيرات، و ما برح إلى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير، و له دائما شيخه تعظ النساء و تذكرهنّ و تفقههنّ، و آخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أمّ زينب فاطمة بنت عباس البغدادية، توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة و سبعمائة، و قد أنافت على الثمانين، و كانت فقيهة وافرة العلم، زاهدة قانعة باليسير، عابدة واعظة حريصة على النفع و التذكير، ذات إخلاص و خشية، و أمر بالمعروف، انتفع بها كثير من نساء

دمشق و مصر، و كان لها قبول زائد و وقع فى النفوس، و صار بعدها كلّ من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية، و أدركنا الشيخة الصالحة البغدادية أقامت به عدّة سنين على أحسن طريقة إلى أن ماتت يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و سبعمائة، و أدركنا هذا الرباط و تودع فيه النساء اللاتى طلّقن أو هجرن حتى يتزوّجن أو يرجعن إلى أزواجهنّ صيانة لهنّ، لما كان فيه من شدّة الضبط و غاية الاحتراز و المواظبة على وظائف العبادات، حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحدا من استعمال إبريق بزبوز، و تؤدّب من خرج عن الطريق بما تراه، ثم لما فسدت الأحوال من عهد حدوث المحن بعد سنة ست و ثمانمائة، تلاشت أمور هذا الرباط و منع مجاوروه من سجن النساء المعتدّات به، و فيه إلى الآن بقايا من خير، و يلى النظر عليه قاضى القضاة الحنفىّ.

رباط الست كليلة

هذا الرباط خارج درب بطوط من جملة حكر سنجر اليمنىّ، ملاصقة للسور الحجر بخط سوق الغنم و جامع أصلم، وقفه الأمير علاء الدين البراباه على الست كليلة، المدعوّة دولاى، ابنة عبد اللّه التتارية، زوج الأمير سيف الدين البرلىّ السلاحدار الظاهرىّ، و جعله مسجدا و رباطا، و رتب فيه إماما و مؤذنا، و ذلك فى ثالث عشرى شوّال سنة أربع و تسعين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۴

رباط الخازن

هذا الرباط بقرب قبة الإمام الشافعىّ رحمة اللّه عليه. من قرافة مصر، بناه الأمير علم الدين سنجر بن عبد اللّه الخازن. والى القاهرة، و فيه دفن، و هذا الخازن هو الذى ينسب إليه حكر الخازن خارج القاهرة.

الرباط المعروف برواق ابن سليمان

هذا الرواق بحارة الهلالية خارج باب زويلة، عرف بأحمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن إبراهيم بن أبى المعالى بن العباس الرجبى البطائحىّ الرفاعىّ، شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر، كان عبدا صالحا له قبول عظيم من أمراء الدولة و غيرهم، و ينتمى إليه كثير من الفقراء الأحمدية، و روى الحديث عن سبط السلفىّ و حدّث، و كانت وفاته ليلة الاثنين سادس ذى الحجة سنة إحدى و تسعين و ستمائة بهذا الرواق.

رباط داود بن إبراهيم

هذا الرباط بخط بركة الفيل بنى فى سنة ثلاث و ستين و ستمائة.

رباط ابن أبى المنصور

هذا الرباط بقرافة مصر عرف، بالشيخ صفىّ الدين الحسين بن علىّ بن أبى المنصور الصوفىّ المالكىّ، كان من بيت وزارة، فتجرّد و سلك طريق أهل اللّه على يد الشيخ أبى العباس أحمد بن أبى بكر الجزار التجيبىّ المغربىّ، و تزوّجابنته و عرف بالبركة، و حكيت عنه كرامات، و صنف كتاب الرسالة ذكر فيها عدّة من المشايخ، و روى الحديث و حدّث و شارك فى الفقه و غيره، و كانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمس و تسعين و خمسمائة، و وفاته برباطه هذا يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة.

رباط المشتهى

هذا الرباط بروضة مصر يطل على النيل و كان به الشيخ المسلك ... و للّه درّ شيخنا العارف الأديب شهاب الدين أحمد بن أبى العباس الشاطر الدمنهورىّ حيث يقول:

بروضة المقياس صوفيّةهم منية الخاطر و المشتهى

لهم على البحر أياد علتو شيخهم ذاك له المنتهى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۵

و قال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفىّ:

يا ليلة مرّت بنا حلوةإن رمت تشبيها لها عبتها

لا يبلغ الواصف فى وصفهاحدّا و لا يلقى له منتهى

بت مع المعشوق فى روضةو نلت من خرطومه المشتهى

رباط الآثار

هذا الرباط خارج مصر بالقرب من بركة الحبش مطلّ على النيل و مجاور للبستان المعروف بالمعشوق. قال ابن المتوّج: هذا الرباط عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد ولد الصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا بجوار بستان المعشوق، و مات رحمه اللّه قبل تكملته، و وصّى أن يكمل من ريع بستان المعشوق، فإذا كملت عمارته يوقف عليه و وصّى الفقيه عز الدين بن مسكين فعمر فيه شيئا يسيرا و أدركه الموت إلى رحمة اللّه تعالى، و شرع الصاحب ناصر الدين محمد ولد الصاحب تاج الدين فى تكملته، فعمر فيه شيئا جيدا انتهى.

و إنما قيل له رباط الآثار لأنّ فيه قطعة خشب و حديد يقال أن ذلك من أثار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، اشتراها الصاحب تاج الدين المذكور بمبلغ ستين ألف درهم فضة من بنى إبراهيم أهل ينبع، و ذكروا أنها لم تزل عندهم موروثة من واحد إلى آخر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و حملها إلى هذا الرباط و هى به إلى اليوم يتبرّك الناس بها و يعتقدون النفع بها، و أدركنا لهذا الرباط بهجة، و للناس فيه اجتماعات، و لساكنه عدّة منافع ممن يتردّد إليه أيام كان ماء النيل تحته دائما. فلما انحسر الماء من تجاهه و حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة قلّ تردّد الناس إليه، و فيه إلى اليوم بقية، و لما كانت أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون قرّر فيه درسا للفقهاء الشافعية، و جعل له مدرّسا، و عنده عدّة من الطلبة، و لهم جار فى كل شهر من وقف وقفه عليهم و هو باق أيضا، و فى أيام الملك الظاهر برقوق وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط، و لهذا الرباط حزانة كتب و هو عامر بأهله.

الوزير الصاحب: تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين علىّ بن سليم بن حنا، ولد فى سابع شعبان سنة أربعين و ستمائة، و سمع من سبط السلفىّ و حدّث و انتهت إليه رياسة عصره، و كان صاحب صيانة و سؤدد و مكارم، و شاكلة حسنة و بزة فاخرة إلى الغاية، و كان يتناهى فى المطاعم و الملابس و المناكح و المساكن، و يجود بالصدقات الكثيرة مع التواضع و محبة الفقراء و أهل المصلاح و المبالغة فى اعتقادهم، و نال فى الدنيا من العز و الجاه ما لم يره جدّه الصاحب الكبير بهاء الدين، بحيث أنّه لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلىّ الوزارة، و سار من قلعة الجبل و عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۶

تشريف الوزارة إلى بيت الصاحب تاج الدين و قبل يده و جلس بين يديه، ثم انصرف إلى داره، و ما زال على هذا القدر من وفور

العز إلى أن تقلد الوزارة فى يوم الخميس رابع عشرى صفر سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، بعد قتل الوزير الأمير سنجر الشجاعىّ، فلم ينجب، و توقفت الأحوال فى أيامه حتى احتاج إلى إحضار تقاوى النواحى المرصدة بها للتخضير و استهلكها، ثم صرف فى يوم الثلاثاء خامس عشرى جمادى الأولى سنة أربع و تسعين و ستمائة بفخر الدين عثمان بن الخليلىّ، و أعيد الوزارة مرّة ثانية، فلم ينجح، و عزل و سلّم مرّة للشجاعىّ فجرّده من ثيابه و ضربه شيبا واحدا بالمقارع فوق قميصه، ثم أفرج عنه على مال، و مات فى رابع جمادى الآخرة سنة سبع و سبعمائة، و دفن فى تربتهم بالقرافة، و كان له شعر جيد، و للّه درّ شيخنا الأديب جلال الدين محمد بن خطيب داريا الدمشقىّ البيسانىّ حيث يقول فى الآثار:

يا عين إن بعد الحبيب و داروه نأت مرابعه و شطّ مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل إن لم تريه فهذه آثاره

و قد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدىّ فقال:

أكرم بآثار النبىّ محمدمن زاره استوفى السرور مزاره

يا عين دونك فانظرى و تمتعىإن لم تريه فهذه آثاره

و اقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنىّ فقال:

يا عين كم ذا تسفحين مدامعاشوقا لقرب المصطفى و دياره

إن كان صرف الدهر عاقك عنهمافتمتعى يا عين فى آثاره

رباط الأفرم

هذا الرباط بسفح الجرف الذى عليه الرصد، و هو يشرف على بركة الحبش، و كان من أحسن منتزهات أهل مصر. أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير خازندار الصالحىّ النجمىّ، و رتب فيه صوفية و شيخا و إماما، و جعل فيه منبرا يخطب عليه للجمعة. و العيدين، و قرّر لهم معاليم من أوقاف أرصدها لهم، و ذلك فى سنة ثلاث و ستين و ستمائة، و هو باق إلّا أنّه لم يبق به ساكن لخراب ما حوله، و له إلى اليوم متحصل من وقفه، و الأفرم هذا هو الذى ينسب إليه جسر الأفرم خارج مصر، و قد ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

الرباط العلائى

هذا الرباط خارج مصر بخط بين الزقاقين شرقىّ الخليج الكبير، يعرف اليوم بخانقاه المواصلة، و هو آيل إلى الدثور لخراب ما حوله، أنشأه الملك علاء الدين أبو الحسن علىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۷

ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، بجوار داره و حمّامه و طاحونه، و جعل له فيه مدفنا و وقف عليه بستان الجرف و بستانا بناحية شبرا، و عدّة حصص من قرى فلسطين و الساحل، و أحكارا و دورا بجانب الرباط. و مات يوم الجمعة ثامن ربيع الآخر سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة، و مولده يوم الجمعة ثامن عشرى المحرّم سنة سبع و خمسين و ستمائة، بجزيرة ابن عمرو، و كان من الحلقة و سمع الحديث من النجيب الحرّانىّ، و ابن عرنين، و ابن علاف. و دفن فيه و به إلى الآن بقية، و يحضره الفقهاء يوما فى الأسبوع و هم عشرة شيخهم منهم و منهم قارىء ميعاد و قرّاء، و كان أوّلا معمورا بسكنى أهله دائما فيه، و فى هذا الوقت لا يمكن سكناه لكثرة الخوف من السرّاق.

ذكر الزوايا

زاوية الدمياطیّ

هـذه الزاويـة فيما بين خط السبع سقايات و قطنرة السدّ خارج مصر إلى جانب حوض السبيل المعدّ لشرب الدواب، أنشأها الأمير عز الدين أيبك الدمياطیّ الصالحیّ النجمیّ، أحد الأمراء المقدّمين الأكابر فی أيام الملك الظاهر بيبرس، و بها دفن لمّا مات بالقاهرة ليلة الأربعاء تاسع شعبان سنة ست و تسعين و ستمائة، و إلى الآن يعرف الحوض المجاور لها بحوض الدمياطی.

زاوية الشيخ خضر

هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل. تشرف على الخليج الكبير، عرفت بالشيخ خضر بن أبی بكر بن موسى المهرانیّ العدویّ، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس، كان أوّلا قد انقطع بجبل المزة خارج دمشق، فعرفه الأمير سيف الدين قشتمر العجمیّ و تردّد إليه فقال له: لا بـدّ أن يتسلطن الأمير بيبرس البندقاریّ، فأخبر بيبرس بذلك، فلما صارت المملكة إليه بعد قتل الملك المظفر قطز، اشتمل على اعتقاده و قرّبه، و بنى له زاويـة بجبل المزة، و زاويـة بظاهر بعلبك، و زاويـة بحماه، و زاويـة بحمص، و هـذه الزاويـة خـارج القـاهرة. و وقف عليهـا أحكارا تغل فی السـنة نحو الثلاثين ألف درهم، و أنزله بها و صار ينزل إليه فی الأسـبوع مرّة أو مرّتين و يطلعه على غوامض أسراره و يستشيره فی أموره، و لا يخرج عما يشير به، و يأخذه معه فی أسفاره، و أطلق يده و صرّفه فی مملكته، فهـدم كنيسـة اليهود بـدمشق، و هدم كنيسة للنصارى بالقدس، كانت تعرف بالمصلبة، و عملها زاوية، و قتل قسيسـها بيده، و هدم كنيسة للروم بالإسكندرية كانت من كراسی النصارى، و يزعمون أن بها رأس يحيى بن زكريا، و عملها مسجدا سماه الخضر، فاتقى جانبه الخاص

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۸

و العام حتى الأمير بـدر الـدين بيلبك الخازنـدار نائب السـلطنة، و الصاحب بهاء الـدين علیّ بن حنا، و ملوك الأطراف، و كان يكتب إلى صاحب حماه و جميع الأمراء إذا طلب حاجة ما مثاله: الشيخ خضر نياك الحمارة، و كان ربع القامة كث اللحية يتعمم، عسراویّ و فی لسانه عجمة، مع سعة صدر و كرم شمائل و كثرة عطاء من تفرقة الذهب و الفضة، و عمل الأسمطة الفاخرة، و كانت أحواله عجيبة لاـ تتكيف، و أقوال النـاس فيه مختلفـة، منهم من يثبت صـلاحه و يعتقـده، و منهم من يرميه بالعظائم. و كان يخبر السلطان بأمور تقع، منها أنه لما حاصر أرسوف و هی أوّل فتوحاته، قال له: متى نأخذ هذه المدينة؟ فعين له يوما يأخذها فيه، فأخذها فی ذلك اليوم بعينه، و اتفق له مثل ذلك فی فتح قيسارية، فلذلك كثر اعتقاده فيه، و ما أحسن قول الشريف محمد بن رضوان الناسخ فی ملازمة السلطان له أسفاره:

ما الظاهر السلطان إلّا مالك الدنيا بذاك لنا الملاحم تخبر

و لنا دليل واضح كالشّمس فیوسط السماء لكلّ عين تنظر

لما رأينا الخضر يقدم جيشهأبدا علمنا أنّه الإسكندر

و ما برح على رتبته إلى ثامن عشر شوّال سنة إحدى و سبعين ستمائة، فقبض عليه و اعتقل بقلعة الجبل و منح الناس من الاجتماع به. و يقال أن ذلك بسبب أنّ السلطان كان أعطاه تحفا قدمت من اليمن، منها كرّ يمنیّ مليح إلى الغاية، فأعطاه خضر لبعض المردان، فبلغ ذلك الأمير بدر الدين الخازندار النائب، و كان قد ثقل عليه بكثرة تسلطه، حتى لقد قال له مرّة بحضرة السلطان: كأنك تشفق على السلطان و على أولاده مثل ما فعل قطز بأولاد المعز، فأسرّها فی نفسه، و بلغ خبر الكرّ اليمنیّ إلى السلطان، فاستدعاه و حضر جماعة حـاققوه على أمور كثيرة منكرة، كاللواط و الزنا و نحوه، فاعتقله و رتب له ما يكفيه من مأكول و فاكهـة و حلوى، و لما سافر السلطان

إلى بلاد الروم قال خضر لبعض أصحابه إنّ السلطان يظهر على الروم و يرجع إلى دمشق فيموت بها بعد أن أموت أنا بعشرين يوما. فكان كذلك، و مات خضر فى محبسه بقلعة الجبل فى سادس المحرّم أو سابعه من سنة ست و سبعين و ستمائة، و قد أناف على الخمسين، فسلّم إلى أهله و حملوه إلى زاويته هذه و دفنوه فيها، و كان السلطان قد كتب بالانفراج عنه، فقدم البريد بعد موته، و مات السلطان بدمشق فى سابع عشرى المحرّم المذكور بعد خضر بعشرين يوما، و هذه الزاوية باقية إلى اليوم.

زاوية ابن منظور

هذه الزاوية خارج القاهرة بخط الدكة بجوار المقس، عرفت بالشيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن منظور بن يس بن خليفة بن عبد الرحمن أبو عبد اللّه الكتانىّ العسقلانىّ الشافعىّ الصوفىّ، الإمام الزاهد، كانت له معارف و اتباع و مريدون و معرفة بالحديث، حدّث عن أبى الفتوح الجلالىّ و روى عنه الدمياطىّ و الدواداريّ و عدّة من الناس، و نظر فى الفقه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۰۹

و اشتهر بالفضيلة، و كانت له ثروة و صدقات. و مولده فى ذى القعدة سنة سبع و تسعين و خمسمائة، و وفاته بزاويته فى ليلة الثانى و العشرين من شهر رجب الفرد، سنة ست و تسعين و ستمائة، و كانت هذه الزاوية أوّلا تعرف بزاوية شمس الدين بن كرا البغدادىّ.

زاوية الظاهرى

هذه الزاوية خارج باب البحر ظاهر القاهرة عند جمّام طرغاى على الخليج الناصرىّ، كانت أوّلا تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم، فلما انحسر الماء عن ساحل المقس، و حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ صارت تشرف على الخليج المذكور من برّه الشرقىّ، و اتصلت المناظر هناك إلى أن كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، فخربت حمّام طرغاى و بيعت أنقاضها و أنقاض كثير مما كان هناك من المناظر، و أنشئ هناك بستان عرف أوّلا بعبد الرحمن صيرفىّ الأمير جمال الدين الأستادار، لأنه أوّلا أنشأه ثم انتقل عنه.

و الظاهرىّ هذا هو أحمد بن محمد عبد اللّه أبو العباس جمال الدين الظاهرىّ، كان أبوه محمد بن عبد اللّه عتيق الملك الظاهر شهاب الدين غازى، و برع حتى صار إماما حافظا و توفى ليلة الثلاثاء لاربع بقين من ربيع الأوّل سنة ست و تسعين و ستمائة بالقاهرة، و دفن بتربته خارج باب النصر. و ابنه عثمان بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه فخر الدين بن جمال الدين الظاهرىّ الحلبىّ، الإمام العلامة المحدّث الصالح، ولد فى سنة سبعين و ستمائة، و أسمعه أبو بديار مصر و الشام، و كان مكثرا و مات بزاويته هذه فى سنة ثلاثين و سبعمائة.

زاوية الجميزة

هذه الزاوية موضعها من جملة أراضى الزهرىّ، و هى الآن خارج باب زويلة بالقرب من معدّية فريج، أنشأها الأمير سيف الدين جيرك السلاحدار المنصورىّ أحد أمراء الملك المنصور قلاون، فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة، و جعل فيها عدّة من الفقراء الصوفية.

زاوية الحلاوى

هذه الزاوية بخط الأبارين من القاهرة بالقرب من الجامع الأزهر، أنشأها الشيخ مبارك الهندىّ السعودىّ الحلاوىّ، أحد الفقراء من أصحاب الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر البارينىّ الواسطىّ، فى سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، و أقام بها إلى أن مات و دفن فيها، فقام من بعده ابنه الشيخ عمر بن علىّ بن مبارك، و كانت له سماعات و مرويات، ثم قام من بعده ابنه شيخنا جمال الدين عبد اللّه بن

الشيخ عمر بن علىّ بن الشيخ مبارك الهندىّ، و حدّث فسمعنا عليه بها إلى أن مات فى صفر سنة ثمان و ثمانمائة، و بها الآن ولده، و هى من الزوايا المشهورة بالقاهرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۰

زاوية نصر

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنبجىّ الناسك القدوة، و حدّث بها عن إبراهيم بن خليل و غيره، و كان فقيها معتزلا عن الناس متخليا للعبادة، يتردّد إليه أكابر الناس و أعيان الدولة، و كان للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فيه اعتقاد كبير، فلما ولى سلطنة مصر أجلّ قدره و أكرم محله، فهرع الناس إليه و توسلوا به فى حوائجهم، و كان يتغالى فى محبة العارف محيى الدين محمد بن عربى الصوفىّ، و لذلك كانت بينه و بين شيخ الإسلام أحمد بن تيمية مناكرة كبيرة، و مات رحمه اللّه عن بضع و ثمانين سنة، فى ليلة السابع و العشرين من جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة و سبعمائة و دفن بها.

زاوية الخدّام

هذه الزاوية خارج باب النصر، فيما بين شقة باب الفتوح من الحسينية و بين شقة الحسينية خارج باب النصر، أنشأها الطواشى بلال الفرّاجىّ و جعلها وقفا على الخدّام الحبش الأجناد، فى سنة سبع و أربعين و ستمائة.

زاوية تقى الدين

هذه الزاوية تحت قلعة الجبل، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون بعد سنة عشرين و سبعمائة، لسكنى الشيخ تقىّ الدين رجب بن أشيرك العجمىّ، و كان وجيها محترما عند أمراء الدولة، و لم يزل بها إلى أن مات يوم السبت ثامن شهر رجب سنة أربع عشرة و سبعمائة، و ما زالت منزلا لفقراء العجم إلى وقتنا هذا.

زاوية الشريف مهدى

هذه الزاوية بجوار زاوية الشيخ تقىّ الدين المذكور، بناها الأمير صرغتمش فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة.

زاوية الطراطرية

هذه الزاوية بالقرب من موردة البلاط، بناها الملك الناصر محمد بن قلاون بوساطة القاضى شرف الدين النشو ناظر الخاص برسم الشيخين الأخوين محمد و أحمد المعروفين بالطراطرية، فى سنة أربعين و سبعمائة، و كانا من أهل الخير و الصلاح، و نزلا أوّلا فى مقصورة بالجامع الأزهر، فعرفت بهما، ثم عرفت بعدهما بمقصورة الحسام الصفدىّ والد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۱

الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام، و هذه المقصورة بآخر الرواق الأوّل مما يلى الركن الغربىّ، و لم تزل هذه الزاوية عامرة إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، و خرب خط زريبة قوصون و ما فى قبليه إلى منشأة المهرانىّ، و ما فى بحريه إلى قرب بولاق.

زاوية القلندرية

القلندرية طائفة تنتمى إلى الصوفية، و تارة تسمى أنفسها ملامتية، و حقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات و المخاطبات، و قلت أعمالهم من الصوم و الصلاة إلّا الفرائض، و لم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة، و اقتصروا على رعاية الرخصة، و لم يطلبوا حقائق العزيمة، و التزموا أن لا يدّخروا شيئا، و تركوا الجمع و الاستكثار من الدنيا و لم يتقشفوا و لا زهدوا و لا تعبدوا، و زعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع اللّه تعالى، و اقتصروا على ذلك و ليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيب القلوب.

و الفرق بين الملامتيّ و القلندريّ، أن الملامتيّ يعمل فى كتم العبادات، و القلندريّ يعمل فى تخريب العادات، و الملامتيّ يتمسك بكل أبواب البرّ و الخير و يرى الفضل فيه، إلّا أنه يخفى أحواله و أعماله، و يوقف نفسه موقف العوام فى هيئته، و ملبوسه تسترا للحال، حتى لا يفطن له، و هو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات. و القلندريّ لا يتقيد بهيئة و لا يبالى بما يعرف من حاله و ما لا يعرف، و لا ينعطف إلّا على طيب القلوب، و هو رأس مال.

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة من الجهة التى فيها الترب و المقابر التى تلى المساكن، أنشأها الشيخ حسن الجوالقيّ القلندريّ، أحد فقراء العجم القلندرية على رأى الجوالقة، و لما قدم إلى ديار مصر تقدّم عند أمراء الدولة التركية، و أقبلوا عليه و اعتقدوه فأثرى ثراء زائدا فى سلطنة الملك العادل كتبغا، و سافر معه من مصر إلى الشام، فاتفق أن السلطان اصطاد غزالا و دفعه إليه ليحمله إلى صاحب حماه، فلما أحضره إليه ألبسه تشريفا من حرير طرز وخش و كلوتة زركش، فقدم بذلك على السلطان، فأخذ الأمراء فى مداعبته و قالوا له على سبيل الإنكار: كيف تلبس الحرير و الذهب و هما حرام على الرجال؟ فأين التزهد و سلوك طريق الفقراء و نحو ذلك؟ فعندما حضر صاحب حماه إلى مجلس السلطان على العادة قال له: يا خوند أيش عملت معى، الأمراء أنكروا علىّ، و الفقراء تطالبنى. فأنعم عليه بألف دينار، فجمع الفقراء و الناس و عمل وقتا عظيما بزاوية الشيخ علىّ الحريرىّ خارج دمشق، و كان سمح النفس جميل العشرة لطيف الروح، يحلق لحيته و لا يعتم، ثم إنه ترك الحلق و صارت له لحية و تعمم عمامة صوفية، و كانت له عصبة، و فيه مروءة و عصبية، و مات بدمشق فى سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة.

و ما زالت هذه الزاوية منزلا لطائفة القلندرية، و لهم بها شيخ، و فيها منهم عدد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۲

موفور، و فى شهر ذى القعدة سنة إحدى و ستين و سبعمائة، حضر السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون بخانقاه أبيه الملك الناصر فى ناحية سرياقوس خارج القاهرة، و مدّ له شيخ الشيوخ سماطا كان من جملة من وقف عليه بين يدى السلطان الشريف علىّ شيخ زاوية القلندرية هذه، فاستدعاه السلطان و أنكر عليه حلق لحيته، و استتابه و كتب له توقيعا سلطانيا منع فيه هذه الطائفة من تحليق لحاهم، و أنّ من تظاهر بهذه البدعة قوبل على فعله المحرّم، و أن يكون شيخا على طائفته كما كان ما دام و داموا متمسكين بالسنة النبوية، و هذه البدعة لها منذ ظهرت ما يزيد على أربعمائة سنة، و أوّل ما ظهرت بدمشق فى سنة بضع عشرة و ستمائة، و كتب إلى بلاد الشام بإلزام القلندرية بترك زىّ الأعاجم و المجوس، و لا يمكن أحد من الدخول إلى بلاد الشام حتى يترك هذا الزىّ المبتدع و اللباس المستبشع، و من لا يلتزم بذلك يعزر شرعا و يقلع من قراره قلعا فنودى بذلك فى دمشق و أرجائها يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة.

قبة النصر

هذه القبة زاوية يسكنها فقراء العجم، و هى خارج القاهرة بالصحراء تحت الجبل الأحمر بآخر ميدان القبق من بحريه، جدّدها الملك الناصر محمد بن قلاون على يد الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك.

زاوية الركراكى

هذه الزاوية خارج القاهرة فى أرض المقس، عرفت بالشيخ المعتقد أبى عبد اللّه محمد الركراكىّ المغربىّ المالكىّ، لإقامته بها، و كان فقيها مالكيا متصدّيا لأشغال المغاربة، يتبرّك الناس به إلى أن مات بها يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و دفن بها. و الركراكىّ نسبة إلى ركراكة، بلدة بالمغرب هى أحد مراسى سواحل المغرب بقرب البحر المحيط، تنزل فيه السفن فلا تخرج إلّا بالرياح العاصفة فى زمن الشتاء عند تكدّر الهواء.

زاوية إبراهيم الصائغ

هذه الزاوية بوسط الجسر الأعظم تطلّ على بركة الفيل، عمرها الأمير سيف الدين طغاى بعد سنة عشرين و سبعمائة، و أنزل فيها فقيرا عجميا من فقراء الشيخ تقىّ الدين رجب يعرف بالشيخ عز الدين العجمىّ، و كان يعرف صناعة الموسيقى و له نغمة لذيذة و صوت مطرب و غناء جيد، فأقام بها إلى أن مات فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، فغلب عليها الشيخ إبراهيم الصائغ إلى أن مات، يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب سنة أربع و خمسين و سبعمائة، فعرفت به.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۳

زاوية الجعبرى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة، تنسب إلى الشيخ برهان الدين بن معضاد بن شدّاد بن ماجد الجعبرىّ، المعتقد الواعظ، كان يجلس للوعظ فتجتمع إليه الناس و يذكرهم و يروى الحديث، و يشارك فى علم الطب و غيره من العلوم، و له شعر حسن، و روى عن السخاوىّ، و حدّث عن البزاركىّ، و كان له أصحاب يبالغون فى اعتقاده و يغلون فى أمره، و كان لا يراه أحد إلّا أعظم قدره و أجله و أثنى عليه، و حفظت عنه كلمات طعن عليه بسببها، و عمر حتى جاوز الثمانين سنة، فلما مرض أمر أن يخرج به إلى مكان قبره، فلما وقف عليه قال: قبير و حال دبير. و مات بعد ذلك بيوم، فى يوم السبت رابع عشرى المحرّم سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و الجعابرة عدّة منهم.

زاوية أبى السعود

هذه الزاوية خارج باب القنطرة من القاهرة على حافة الخليج، عرفت بالشيخ المبارك أيوب السعودىّ، كان يذكر أنه رأى الشيخ أبا السعود بن أبى العشائر و سلك على يديه، و انقطع بهذه الزاوية و تبرّك الناس به و اعتقدوا إجابة دعائه، و عمّر و صار يحمل لعجزه عن الحركة حتى مات عن مائة سنة، أوّل صفر سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

زاوية الحمصى

هذه الزاوية خارج القاهرة بخط حكر خزائن السلاح و الأوسية على شاطىء خليج الذكر من أرض المقس بجوار الدكة، أنشأها الأمير ناصر الدين محمد، و يدعى طيقوش ابن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصى، أحد الأمراء فى الأيام الناصرية، كان أبوه من أمراء الظاهر بيبرس، و رتب بهذه الزاوية عشرة من الفقراء شيخهم منهم، و وقف عليها عدّة أماكن فى جوارها، و حصة من قرية بورين من قرى ساحل الشام. و غير ذلك، فى سنة تسع و سبعمائة، فلما خرب ما حولها و ارتدم خليج الذكر تعطلت، و هى الآن قد عزم مستحقو ريعها على هدمها لكثرة ما أحاط بها من الخراب من سائر جهاتها، و صار السلوك إليها مخوفا بعد ما كانت تلك الخطة فى غاية العمارة، و فى جمادى سنة عشرين و سبعمائة هدمت.

زاوية المغربل

هذه الزاوية خارج القاهرة بدرب الزراق من الحكر، عرفت بالشيخ المعتقد علىّ المغربل، و مات في يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة اثنتين و تسعين و سبعمائة، و لما كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة خربت الحكورة و هدم درب الزراق و غيره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۴

زاوية القصرى

هذه الزاوية بخط المقس خارج القاهرة، عرفت بالشيخ أبى عبد اللّه محمد بن موسى عبد اللّه بن حسن القصرى الرجل الصالح الفقيه المالكىّ المغربىّ، قدم من قصر كتامة بالمغرب إلى القاهرة و انقطع بهذه الزاوية على طريقة جميلة من العبادة، و طلب العلم إلى أن مات بها في التاسع من شهر رجب سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة.

زاوية الجاكى

هذه الزاوية فى سويقة الريش من الحكورة خارج القاهرة بجانب الخليج الغربىّ، عرفت بالشيخ المعتقد حسين بن إبراهيم بن علىّ الجاكى، و مات بها فى يوم الخميس العشرين من شوّال سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و دفن خارج باب النصر، و كانت جنازته عظيمة جدّا، و أقام الناس يتبرّكون بزيارة قبره إلى أن كانت سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فأقبل الناس إلى زيارة قبره و كان لهم هناك مجتمع عظيم فى كلّ يوم، و يحملون النذور إلى قبره، و يزعمون أن الدعاء عنده لا يردّ فتنة أضلّ الشيطان بها كثيرا من الناس، و هم على ذلك إلى يومنا هذا.

زاوية الأبناسىّ

هذه الزاوية بخط المقس، عرفت بالشيخ الفقيه برهان الدين إبراهيم بن حسين بن موسى بن أيوب الأبناسىّ الشافعىّ، قدم من الريف و برع فى الفقه، و اشتهر بسلامة الباطن، و عرف بالخير و الصلاح، و كتب على الفتوى، و درس بالجامع الأزهر و غيره، و تصدّى لأشغال الطلبة عدّة سنين، و ولى مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، و طلبه الأمير سيف الدين برقوق و هو يومئذ أتابك العساكر حتى يقلده قضاء القضاة بديار مصر، فغيب فرارا من ذلك و تنزها عنه، إلى أن ولى غيره، و كانت ولادته قبيل سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و وفاته بمنزلة المويلح من طريق الحجاز بعد عوده من الحج، فى ثامن المحرّم سنة اثنتين و ثمانمائة، و دفن بعيون القصب.

زاوية اليونسية

هذه الزاوية خارج القاهرة بالقرب من باب اللوق تنزلها الطائفة اليونسية، و أحدهم يونسىّ- بضم الياء المعجمة باثنتين من تحتها و بعد الياء واو ثم نون بعدها سين مهملة فى آخرها ياء آخر الحروف- نسبة إلى يونس، و يونس المنسوب إليه الطائفة اليونسية غير واحد، فمنهم يونس بن عبد الرحمن القمىّ مولى آل يقطين، و هو الذى يزعم أن معبوده على عرشه تحمله ملائكته، و إن كان هو أقوى منها، كالكركىّ تحمله رجلاه و هو أقوى منهما، و قد كفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۵

من زعم ذلك، فإن اللّه تعالى هو الذى يحمل العرش و حملته، و هذه الطائفة اليونسية من غلاة الشيعة و اليونسية أيضا فرقة من المرجئة ينتمون إلى يونس السموىّ، و كان يزعم أن الإيمان هو المعرفة باللّه و الخضوع له، و هو ترك الاستكبار عليه و المحبة له،

فمن اجتمعت فيه هذه الخلال فهو مؤمن، و زعم أن إبليس كان عارفا بالله غير أنه كفر باستكباره عليه، و لهم يونس بن يونس بن مساعد الشيبانيّ، ثم المخارقيّ شيخ الفقراء اليونسية، شيخ صالح له كرامات مشهورة، و لم يكن له شيخ بل كان مجذوبا جذب إلى طريق الخير توفى بأعمال دارا فى سنة تسع عشرة و سبعمائة، و قد ناهز تسعين سنة، و قبره مشهور يزار و يتبرّك به، و إليه تنسب هذه الطائفة اليونسية.

زاوية الخلاطى

هذه الزاوية خارج باب النصر من القاهرة بالقرب من زاوية الشيخ نصر المنجىّ، عرفت ... و كانت لهم وجاهة، منهم ناصر الدين محمد بن علاء الدين علىّ بن محمد بن حسين الخلاطىّ، مات فى نصف جمادى الأولى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة و دفن بها.

الزاوية العدوية

هذه الزاوية بالقرافة، تنسب إلى الشيخ عدىّ بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكارىّ القرشىّ الأموىّ. و كان قد صحب عدّة من المشايخ، كعقيل المنبجىّ، و حماد الدباس، و عبد القادر السهروردىّ، و عبد القادر الجيلىّ. ثم انقطع فى جبل الهكارية من أعمال الموصل، و بنى له زاوية، فمال إليه أهل تلك النواحى كلها ميلا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله، حتى مات سنة سبع و قيل سنة خمس و خمسين و خمسمائة، و دفن فى زاويته، و قدم ابن أخيه إلى هذه البلاد، و هو زين الدين، فأكرم و أنعم عليه بإمرة، ثم تركها و انقطع فى قرية بالشام تعرف ببيت فار، على هيئة الملوك من اقتناء الخيول المسوّمة و المماليك و الجوارى و الملابس، و عمل الأسمطة الملوكية، فافتتن به بعض نساء الطائفة القيمرية. و بالغت فى تعظيمه، و بذلت له أموالا عظيمة، و حاشيتها تلومها فيه، فلا تصغى إلى قولهم، فاحتالوا حتى أوقفوها عليه و هو عاكف على المنكرات، فما زادها ذلك إلّا ضلالا و قالت: أنتم تنكرون هذا عليه. إنما الشيخ يتدلل على ربه، و أتاه الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار و معه الشهاب محمود لتحليفه فى أوّل دولة الأشرف خليل بن قلاون إلى قريته، فإذا هو كالملك فى قلعته، للتجمل الظاهر و الحشمة الزائدة، و الفرش الأطلس، و آنية الذهب و الفضة و النضار الصينىّ، و أشياء تفوت العدّ، إلى غير ذلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۶

الأشربة المختلفة الألوان، و الأطعمة المنوّعة. فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما، و قبّل الأمير سنجريده و هو جالس لم يقم، و بقى قائما قدامه يحدثه، و زين الدين يسأله ساعة، ثم أمره أن يجلس فجلس على ركبتيه متأدّيا بين يديه، فلما حلفاه أنعم عليهما بما يقارب خمسة عشر ألف درهم، و تخلف من طائفته الشيخ عز الدين أميران، و أنعم عليه بإمرة دمشق، ثم نقل إلى إمرة بصفد، ثم أعيد إلى دمشق و ترك الإمرة و انقطع بالمزّة، و تردّد إليه الأكراد من كل قطر و حملوا إليه الأموال، ثم أنه أراد أن يخرج على السلطان بمن معه من الأكراد فى كلّ بلد، فباعوا أموالهم و اشتروا الخيل و الملاح، و وعد رجاله بنيابات البلاد، و نزل بأرض اللجون. فبلغ ذلك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، فكتب إلى الأمير تنكز نائب الشام بكشف أخبارهم، و أمسك السلطان من كان بهذه الزاوية العدوية، و درك على أمير طبر، و اختلفت الأخبار فقيل أنهم يريدون سلطنة مصر، و قيل يريدون ملك اليمن، فقلق السلطان لأمرهم و أهمه إلى أن أمسك الأمير تنكز عز الدين المذكور و سجنه فى سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة حتى مات، و فرّق الأكراد، و لو لم يتدارك لأوشك أن يكون لهم نوبة.

زاوية السدّار

هذه الزاوية برأس حارة الديلم، بناها الفقير المعتقد علىّ بن السدّار فى سنة سبعين و سبعمائة، و توفى سنة ثلاث و سبعين و سبعمائة.

ذكر المشاهد التى يتبرّک الناس بزيارتها مشهد زين العابدين

اشارة

هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونىّ و مدينة مصر، تسميه العامّة مشهد زين العابدين، و هو خطأ، و إنما هو مشهد رأس زيد بن علىّ المعروف بزين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام، و يعرف فى القديم بمسجد محرس الخصىّ.

قال القضاعىّ: مسجد محرس الخصىّ بنى على رأس زيد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب حين أنفذه هشام بن عبد الملک إلى مصر، و نصب على المنبر بالجامع، فسرقه أهل مصر و دفنوه فى هذا الموضع.

و قال الكندىّ فى كتاب الأمراء: و قدم إلى مصر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة أبو الحكم بن أبى الأبيض القيسىّ خطيبا برأس زيد بن علىّ رضوان اللّه عليه، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة، و اجتمع الناس إليه فى المسجد.

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ فى كتاب الجوهر المكنون فى ذكر القبائل و البطون: و بنو زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۷

الشهيد بالكوفة، و لم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطريق جامع ابن طولون و بركة الفيل، و هو من الخطط، يعرف بمسجد محرس الخصىّ، و لما صلب كشفوا عورته فنسج العنكبوت فسترها. ثم إنه بعد ذلک أحرق و ذرى فى الريح و لم يبق منه إلّا رأسه التى بمصر، و هو مشهد صحيح لأنه طيف بها بمصر، ثم نصبت على المنبر بالجامع بمصر فى سنة اثنتين و عشرين و مائة، فسرقت و دفنت فى هذا الموضع إلى أن ظهرت، و بنى عليها مشهد.

و ذكر ابن عبد الظاهر أن الأفضل بن أمير الجيوش لما بلغته حكاية رأس زيد أمر بكشف المسجد، و كان وسط الأكوام، و لم يبق من معالمه إلّا محراب، فوجد هذا العضو الشريف. قال محمد بن منجب بن الصيرفىّ: حدّثنى الشريف فخر الدين أبو الفتوح ناصر الزيدىّ خطيب مصر، و كان من جملة حضر الكشف قال: لما خرج هذا العضو رأيته، و هو هامة وافرة، و فى الجبهة أثر فى سعة الدرهم، فضمّخ و عطّر و حمل إلى دار حتى عمر هذا المشهد، و كان وجد أنه يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأوّل سنة خمس و عشرين و خمسمائة، و كان الوصول به فى يوم الأحد، و وجدانه فى يوم الأحد.

زيد بن على: بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، و كنيته أبو الحسن الإمام، الذى تنسب إليه الزيدية إحدى طوائف الشيعة، سكن المدينة و روى عن أبيه علىّ بن الحسين الملقب زين العابدين، و عن أبان بن عثمان، و عبيد اللّه بن أبى رافع، و عروة بن الزبير و روى عنه محمد بن شهاب الزهرىّ، و زكريا بن أبى زائدة، و خلق ذكره ابن حبان فى الثقات. و قال: رأى جماعة من الصحابة، و قيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة أنهم يتبرّؤن من عمك زيد. فقال: برىء اللّه ممن تبرّأ من عمى، كان و اللّه أقرانا لكتاب اللّه، و أفقهنا فى دين اللّه، و أوصلنا للرحم، و اللّه ما ترک فينا لدينا و لا لآخرة مثله.

و قال أبو إسحاق السبيعىّ: رأيت زيد بن علىّ فلم أر فى أهله مثله، و لا أعلم منه، و لا أفضل، و كان أفصحهم لسانا، و أكثرهم زهدا و بيانا.

و قال الشعبىّ: و اللّه ما ولد النساء أفضل من زيد بن علىّ، و لا أفقه و لا أشجع و لا أزهد. و قال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علىّ كما شاهدت أهله، فما رأيت فى زمانه أفقه منه، و لا أعلم، و لا أسرع جوابا، و لا أبين قولا لقد كان منقطع القرين. و قال الأعمش: ما كان فى أهل زيد بن علىّ مثل زيد، و لا رأيت فيهم أفضل منه، و لا أفصح و لا أعلم و لا أشجع، و لقد و فى له من تابعه لإقامتهم على المنهج الواضح. و سئل جعفر بن محمد الصادق عن خروجه فقال: خرج على ما خرج عليه آباؤه و كان يقال لزيد حليف القرآن، و قال خلوت بالقرآن ثلاث عشرة سنة أقرأه و أتدبره، فما وجدت فى طلب الرزق رخصة، و ما وجدت، ابتغوا من فضل اللّه إلّا العبادة و

الفقه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۸

و قال عاصم بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب: لقد أصيب عندكم رجل ما كان فى زمانكم مثله، و لا أراه يكون بعده مثله، زيد بن علىّ، لقد رأيته و هو غلام حدث، و إنه ليسمع الشيء من ذكر اللّه فيغشى عليه حتى يقول القائل ما هو بعائد إلى الدنيا. و كان نقش خاتم زيد، اصبر تؤجر اصدق تنج، و قرأ مرّة قوله تعالى: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ [محمد/ ۳۸] فقال: إنّ هذا لوعيد و تهديد من اللّه. ثم قال: اللهمّ لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بدلا. و كان إذا كلمه إنسان و خاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثما، قال له: يا عبد اللّه أمسك أمسك، كف كف، إليك إليك، عليك بالنظر لنفسك. ثم يكف عنه و لا يكلمه.

و قد اختلف فى سبب قيام زيد و طلبه الأمر لنفسه، فقيل أن زيد بن علىّ، و داود بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس، و محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب، قدموا على خالد بن عبد اللّه القسرىّ بالعراق فأجازهم و رجعوا إلى المدينة، فلما ولى يوسف بن عمر العراق بعد عزل خالد، كتب إلى هشام بن عبد الملك و ذكر له أن خالد ابتاع أرضا بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار، ثم ردّ الأرض عليه. فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيرهم إليه، ففعل. فسألهم هشام عن ذلك، فأقرّوا بالجائزة و أنكروا ما سوى ذلك، و حلفوا فصدّقهم، و أمرهم بالمسير إلى العراق ليقابلوا خالدا، فساروا على كره و قابلوا خالدا فصدّقهم و عادوا نحو المدينة. فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم، و قيل بل ادّعى خالد القسرىّ أنه أودع زيدا و داود بن علىّ و نفرا من قريش مالا. فكتب يوسف بن عمر بذلك إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأحضرهم هشام من المدينة و سيرهم إلى يوسف ليجمعهم و خالدا، فقدموا عليه، فقال يوسف لزيد: إن خالدا زعم أنه أودع عندك مالا. فقال زيد:

كيف يودعنى و هو يشتم آبائى على منبره؟ فأرسل إلى خالد فأحضره فى عباءة و قال له: هذا زيد قد أنكر أنّك أودعته شيئا. فنظر خالد إليه و إلى داود و قال ليوسف: أ تريد أن تجمع إثمك مع إثمنا فى هذا؟ كيف أودعه و أنا أشتم آباءه و أشتمه على المنبر؟ فقال زيد لخالد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ فقال: شدّد علىّ العذاب فادّعيت ذلك، و أملت أن يأتى اللّه بفرج قبل قدومك.

فرجعوا و أقام زيد و داود بالكوفة، و قيل أن يزيد بن خالد القسرىّ هو الذى ادّعى أن المال وديعة عند زيد، فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف استقالوه خوفا من شرّ يوسف و ظلمه. فقال: أنا أكتب إليه بالكف عنكم و ألزمهم بذلك. فساروا على كره، فجمع يوسف بينهم و بين يزيد فقال يزيد: ليس لى عندهم قليل و لا كثير. فقال له يوسف:

أ تهزأ بأمير المؤمنين؟ فعذبه يومئذ عذابا كاد يهلكه، ثم أمر بالقرشيين فضربوا، و ترك زيدا.

ثم استحلفهم و أطلقهم فلحقوا بالمدينة، و أقام زيد بالكوفة، و كان زيد قال لهشام لما أمره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۱۹

بالمسير إلى يوسف: و اللّه ما آمن من إن بعثتنى إليه أن لا نجتمع أنا و أنت حيبين أبدا. قال:

لا بدّ من المسير إليه. فسار إليه.

و قيل كان السبب فى ذلك أن زيدا كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن علىّ فى وقوف علىّ رضى اللّه عنه، فزيد يخاصم عن بنى حسين، و جعفر يخاصم عن بنى حسن، فكانا يبلغان كل غاية، و يقومان فلا يعيدان مما كان بينهما، حرفا، فلما مات جعفر نازعه عبد اللّه بن الحسن بن الحسن، فتنازعا يوما بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث بالمدينة، فأغلظ عبد اللّه لزيد و قال: يا ابن السندية. فضحك زيد و قال:

قد كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة، و مع ذلك فقد صبرت أمى بعد وفاة سيدها. و لم يصبر غيرها، يعنى فاطمة بنت الحسين أمّ عبد اللّه، فإنها تزوّجت بعد أبيه الحسن بن الحسن. ثم إنّ زيدا ندم و استحيى من فاطمة، فإنها عمته، و لم يدخل إليها زمانا. فأرسلت إليه: يا ابن أخى إنى لأعلم أن أمّك عندك كأمّ عبد اللّه عنده، و قالت لعبد اللّه: بئسما قلت لأمّ زيد، أما و اللّه لنعم دخيلة القوم كانت، و

ذكر أن خالدا قال لهما: اغدوا علينا غدا فلست ابن عبد الملك إن لم أفصل بينكما، فباتت المدينة تغلى كالمرجل. يقول قائل: قال زيد كذا، و يقول قائل: قال عبد اللّه كذا، فلما كان من الغد جلس خالد فى المسجد و اجتمع الناس، فمن بين شامت و مهموم، فدعا بهما خالد و هو يحبّ أن يتشاتما، فذهب عبد اللّه يتكلم، فقال زيد: لا تعجّل يا أبا محمد، أعتق زيد كلّ ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا. ثم أقبل إلى خالد فقال له: لقد جمعت ذرية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر و لا عمر. فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد؟ فتكلم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حزم فقال: يا ابن أبى تراب و ابن حسين السفيه، أما ترى، لوال عليك حقا و لا طاعة؟ فقال زيد: اسكت أيها القحطانىّ، فإنّا لا نجيب مثلك. قال: و لم ترغب عنى؟ فو اللّه إنى لخير منك و خير من أبيك، و أمى خير من أمّك، فتضاحك زيد و قال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب أفتذهب الأحساب؟ فوا اللّه ليذهب دين القوم و ما تذهب أحسابهم. فقام عبد اللّه بن واقد بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب فقال: كذبت و اللّه أيها القحطانىّ، فو اللّه لهو خير منك نفسا و أبا و أمّا و محتدا، و تناوله بكلام كثير و أخذ كفا من حصباء و ضرب بها الأرض و قال: و اللّه إنه ما لنا على هذا من صبر و قام.

ثم شخص زيد إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له، و هو يرفع إليه القصص، فكلما رفع قصة يكتب هشام فى أسفلها ارجع إلى منزلك. فيقول زيد: و اللّه لا أرجع إلى خالد أبدا، ثم إنه أذن له يوما بعد طول حبس، فصعد زيد و كان بائنا فوقف فى بعض الدرج و هو يقول: و اللّه لا يحب الدنيا أحد إلّا ذلّ، ثم صعد و قد جمع له هشام أهل الشام، فسلّم ثم جلس، فرمى عليه هشام طويلة، فحلف لهشام على شىء. فقال هشام: لا أصدّقك. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ اللّه لم يرفع أحدا عن أن يرضى باللّه، و لم يضع أحدا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۰

عن أن لا يرضى بذلك منه. فقال هشام: أنت زيد المؤمّل للخلافة، و ما أنت و الخلافة، لا أمّ لك و أنت ابن أمة. فقال زيد: لا أعلم أحدا عند اللّه أفضل من نبىّ بعثه، و لقد بعث اللّه نبيا و هو ابن أمة، و لو كان به تقصير عن منتهى غاية لم يبعث، و هو إسماعيل بن إبراهيم، و النبوّة أعظم منزلة من الخلافة عند اللّه، ثم لم يمنعه اللّه من أن جعله أبا للعرب، و أبا لخير البشر، محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و ما يقصّر برجل أبوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و بعد أمى فاطمة لا أفخر بأم.

فوثب هشام من مجلسه و تفرّق الشاميون عنه، و قال لحاجبه: لا يبيت هذا فى عسكرى أبدا.

فخرج زيد و هو يقول: ما كره قوم قط جرّ السيوف إلّا ذلوا، و سار إلى الكوفة. فقال:

له محمد بن عمر بن علىّ بن أبى طالب: أذكرك اللّه يا زيد لما لحقت بأهلك و لا تأت أهل الكوفة، فإنهم لا يفون لك، فلم يقبل و قال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العراق، ثم إلى تيس ثقيف، يلعب بنا. و أنشد:

بكرت تخوّفنى الحتوف كأننى أصبحت عن عرض الحياة بمعزل

فأجبتها إنّ المنية منزل لا بدّ أن أسقى بكاس المنهل

إنّ المنية لو تمثل مثّلت مثلى إذا نزلوا بصيق المنزل

فاثنى حبالك لا أبا لك و اعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك اللّه، و إنى أعطى اللّه عهدا، إن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت.

و فارقه و أقبل إلى الكوفة فأقام بها مستخفيا يتنقل فى المنازل، فأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة من وجوه أهل الكوفة، و كانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب اللّه و سنة نبيه، و جهاد الظالمين، و الدفع عن المستضعفين، و إعطاء المحرومين، و قسم هذا الفىء بين أهله بالسواء، و ردّ المظالم، و أفعال الخير، و نصرة أهل البيت، أ تبايعون على ذلك؟ فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم، و يقول: عليك عهد اللّه و ميثاقه و ذمّته و ذمّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، لتؤمنن ببيعتى، و لتقاتلنّ عدوّى، و لتنصحنّ لى فى

السرّ و العلانية، فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال: اللهمّ فاشهد. فبايعه خمسة عشر ألفا، و قيل أربعون ألفا، و أمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفي و يخرج معه يستعدّ و يتهيأ، فشاع أمره في الناس، هذا على قول من زعم أنه أتى الكوفة من الشام و اختفى بها يبايع الناس.

و أما على قول من زعم أنه أتى إلى يوسف بن عمر لمرافعة خالد بن عبد اللّه القسريّ أو ابنه يزيد بن خالد، فإنه قال: أقام زيد بالكوفة ظاهرا و معه داود بن عليّ بن عبد اللّه بن عباس، و أقبلت الشيعة تختلف إليه و تأمره بالخروج و يقولون: إنا لنرجو أن تكون أنت المنصور، و أنّ هذا الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية، فأقام بالكوفة و يوسف بن عمر يسأل عنه فيقال هو هاهنا، و يبعث إليه ليسير فيقول نعم و يعتلّ بالوجع، فمكث ما شاء اللّه، ثم أرسل إليه يوسف بالمسير عن الكوفة، فاحتج بأنه يحاكم آل طلحة بن عبيد اللّه بملك بينهما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۱

بالمدينة، فأرسل إليه ليوكل وكيلا و يرحل عنها، فلما رأى الجدّ من يوسف في أمره سار حتى أتى القادسية، و قيل الثعلبية، فتبعه أهل الكوفة و قالوا له: نحن أربعون ألفا لم يتخلف عنك أحد، نضرب عنك بأسيافنا، و ليس هاهنا من أهل الشام إلّا عدّة يسيرة و بعض قبائلنا يكفيهم بإذن اللّه، و حلفوا له بالأيمان المغلظة، فجعل يقول: إني أخاف أن تخذلوني و تسلموني كفعلكم بأبي و جدّي، فيحلفون له، فقال له داود بن عليّ: لا يغرّك يا ابن عمي هؤلاء، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك، جدّ عليّ بن أبي طالب حتى قتل، و الحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه و انتزعوا رداءه و جرحوه، أو ليس قد أخرجوا جدّك الحسين و حلفوا له ثم خذلوه و أسلموه و لم يرضوا بذلك حتى قتلوه، فلا ترجع معهم.

فقالوا: يا زيد إنّ هذا لا يريد أن تظهر أنت، و يزعم أنه و أهل بيته أولى بهذا الأمر منكم.

فقال زيد لداود: إن عليا كان يقاتله معاوية بذهبه، و إنّ الحسين قاتله يزيد، و الأمر مقبل عليهم. فقال له داود: إني أخاف إن رجعت معهم أن لا يكون أحد أشدّ عليك منهم، و أنت أعلم، و مضى داود إلى المدينة و رجع زيد إلى الكوفة.

فأتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و حقه فأحسن ثم قال له:

نشدتك اللّه كم بايعك؟ قال: أربعون ألفا. قال: فكم بايع جدّك؟ قال: ثمانون ألفا. قال:

فكم حصل معه؟ قال: ثلثمائة. قال: نشدتك اللّه أنت خير أم جدّك؟ قال: جدّي. قال:

فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يفي لك هؤلاء و قد غدر أولئك بجدّك؟ قال: قد بايعوني و وجبت البيعة في عنقي و عنقهم. قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسي. فأذن له فخرج إلى اليمامة.

و كتب عبد اللّه بن الحسن بن الحسن إلى زيد: أما بعد، فإن أهل الكوفة نفج العلانية خور السريرة هوج في الرد، أجزع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم و لا تتابعهم قلوبهم، و لقد تواترت كتبهم إليّ بدعوتهم فصممت عن ندائهم، و ألبست قلبي غشاء عن ذكرهم يأسا منهم و إطراحا لهم، و ما لهم مثل إلّا ما قال عليّ بن أبي طالب صلوات اللّه عليه: إن أهملتم خضتم، و إن خوّرتم خرتم، و إن اجتمع الناس و يتجهز للخروج، و تزوّج بالكوفة امرأتين، و كان ينتقل تارة عند هذه في بني سلمة قومها، و تارة عند هذه في الأزد قومها، و تارة في بني عبس، و تارة في بني تغلب، و غيرهم إلى أن ظهر في سنة اثنتين و عشرين و مائة، فأمر أصحابه بالاستعداد، و أخذ من كان يريد الوفاء بالبيعة يتجهز، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث في طلب زيد فلم يوجد، و خاف زيد أن يؤخذ، فتعجل قبل الأجل الذى جعله بينه و بين أهل الكوفة، و على الكوفة يومئذ الحكم بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۲

الصلت في ناس من أهل الشام، و يوسف بن عمر بالحيرة.

فلما علم أصحاب زيد أن يوسف بن عمر قد بلغه الخبر و أنه يبحث عن زيد، اجتمع إلى زيد جماعة من رؤوسهم فقالوا: رحمك اللّه ما قولك فى أبى بكر و عمر، فقال زيد رحمهما اللّه و غفر لهما، ما سمعت أحدا من أهل بيتى يقول فيهما إلّا خيرا، و إنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من الناس أجمعين، فدفعونا عنه، و لم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا، و قد ولّوا فعدلوا فى الناس و عملوا بالكتاب و السنة. قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا، كان أولئك لم يظلموا، و إذا كان هؤلاء لم يظلموا، فلم تدعو إلى قتالهم؟ فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك، هؤلاء ظالمون لى و لأنفسهم و لكم، و إنما ندعوهم إلى كتاب اللّه و سنة نبيه محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و الى السنن أن تحيى، و إلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، و إن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه و نكثوا بيعته و قالوا: قد سبق الإمام، يعنون محمدا الباقر، و كان قد مات. و قالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسماهم زيد الرافضة، و هم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة حين فارقوه، و كانت طائفة قد أتت جعفر بن محمد الصادق قبل قيام زيد و أخبروه ببيعته فقال: بايعوه، لهو و اللّه أفضلنا و سيدنا. فعادوا و كتموا ذلك، و كان زيد قد واعد أصحابه أوّل ليلة من صفر، فبلغ ذلك يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم عامله على الكوفة يأمره بأن يجمع الناس بالمسجد الأعظم يحصرهم فيه، فجمعهم، و طلبوا زيدا فخرج ليلا من دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارىّ، و كان بها، و رفعوا النيران و نادوا يا منصور حتى طلع الفجر، فلما أصبحوا نادى أصحاب زيد بشعارهم و ثاروا، فأغلق الحكم دروب السوق و أبواب المسجد على الناس، و بعث إلى يوسف بن عمر و هو بالحيرة فأخبره الخبر، فأرسل إليه خمسين فارسا ليعرفوا الخبر، فساروا حتى عرفوا الخبر و عادوا إليه، فسارت الحيرة بأشراف الناس، و بعث ألفين من الفرسان و ثلاثمائة رجالة معهم النشاب، و أصبح زيد فكان جميع من وافاه تلك الليلة مائتى رجل و ثمانية عشر رجلا، فقال: سبحان اللّه أين الناس؟ فقيل إنهم فى المسجد الأعظم محصورون. فقال: و اللّه ما هذا بعذر لمن بايعنا. و أقبل فلقيه على جبانة الصايديين خمسمائة من أهل الشام فحمل عليهم فيمن معه حتى هزمهم، و انتهى إلى دار أنس بن عمر الأزدىّ، و كان فيمن بايعه و هو فى الدار، فنودى فلم يجب، فناداه زيد فلم يخرج إليه. فقال زيد: ما أخلفكم قد فعلتموها، اللّه حسيبكم. ثم سار و يوسف بن عمر ينظر إليه و هو فى مائتى رجل، فلو قصده زيد لقتله، و الريان يتبع آثار زيد بالكوفة فى أهل الشام، فأخذ زيد فى المسير حتى دخل الكوفة، فسار بعض أصحابه إلى الجبانة و واقعوا أهل الشام، فأسر أهل الشام منهم رجلا و مضوا به إلى يوسف بن عمر فقتله، فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال: قد فعلوها، حسبى اللّه، و سار و هو يهزم من لقيه حتى انتهى إلى باب المسجد، فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الباب و يقولون: يا أهل المسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۳

اخرجوا من الذل إلى العز، اخرجوا إلى الدين و الدنيا، فإنكم لستم فى دين و لا دنيا. و زيد يقول: و اللّه ما خرجت و لا قمت مقامى هذا حتى قرأت القرآن، و أتقنت الفرائض، و أحكمت السنن و الآداب، و عرفت التأويل كما عرفت التنزيل، و فهمت الناسخ و المنسوخ، و المحكم و المتشابه، و الخاص و العام، و ما تحتاج إليه الأمّة فى دينها مما لا بدّ لها منه و لا غنى لها عنه، و إنى لعلى بينة من ربى، فرماهم أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد، فانصرف زيد فيمن معه، و خرج إليه ناس من أهل الكوفة، فنزل دار الرزق فأتاه الريان و قاتله، و خرج أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظنا، فلما كان من الغد أرسل يوسف بن عمر عدّة عليهم العباس بن سعد المزنىّ، فلقيهم زيد فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم أصحاب العباس و قتل منهم نحو من سبعين، فلما كان العشىّ عبّى يوسف بن عمر الجيوش و سرّحهم، فالتقاهم زيد بمن معه و حمل عليهم حتى هزمهم و هو يتبعهم، فبعث يوسف طائفة من الماشية فرموا أصحاب زيد و هو يقاتل حتى دخل الليل، فرمى بسهم فى جبهته اليسرى ثبت فى دماغه، فرجع أصحابه، و لا يظنّ أهل الشام أنهم رجعوا للمساء و الليل، فأنزلوا زيدا فى دار و أتوه بطبيب فانتزع النصل فضج زيد و مات، رحمه اللّه، لليلتين خلتا من صفر سنة اثنتين و عشرين و مائة، و عمره اثنتان و أربعون سنة.

و لما مات اختلف أصحابه فى أمره، فقال بعضهم نطرحه فى الماء. و قال بعضهم بل نحز رأسه و نلقيه فى القتلى. فقال ابنه يحيى بن

زيد: و اللّه لا يأكل لحم أبى الكلاب.

و قال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين و نجعل عليه الماء، ففعلوا ذلك و أجروا عليه الماء، و كان معه مولى سندىّ فدلّ عليه، و قيل رآهم قصّار فدل عليه، و تفرّق الناس من أصحاب زيد، و سار ابنه يحيى نحو كربلاء، و تتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور حتى دلّ على زيد فى يوم جمعة، فأخرجه و قطع رأسه و بعث به إلى هشام بن عبد الملك، فدفع لمن وصل به عشرة آلاف درهم، و نصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة و سار منها إلى مصر، و أما جسده فإن يوسف بن عمر صلبه بالكناسة و معه ثلاثة ممن كانوا معه، و أقام الحرس عليه، فمكث زيد مصلوبا أكثر من سنتين حتى مات هشام و ولى الوليد من بعده، و بعث إلى يوسف بن عمر أن أنزل زيدا و أحرقه بالنار، فأنزله و أحرقه و ذرّى رماده فى الريح، و كان زيد لما صلب و هو عريان استرخى بطنه على عورته حتى ما يرى من سوءته شيء، و مرّ زيد مرّة بمحمد ابن الحنفية فنظر إليه و قال: أعيذك بالله أن تكون زيد بن علىّ المصلوب بالعراق، و قال عبد اللّه بن حسين بن عليج بن الحسين بن علىّ: سمعت أبى يقول: اللهمّ إنّ هشاما رضى بصلب زيد فاسلبه ملكه، و إن يوسف بن عمر أحرق زيدا اللهمّ فسلط عليه من لا يرحمه، اللهمّ و أحرق هشاما فى حياته إن شئت، و إلّا فأحرقه بعد موته. قال فرأيت و اللّه هشاما محرقا لما أخذ بنو العباس دمشق، و رأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعا، على كلّ باب من أبواب دمشق منه عضو. فقلت يا أبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۴

فقال لا يا بنىّ، بل صمت ثلاثة أيام من شهر رجب، و ثلاثة أيام من شعبان، و ثلاثة أيام من شهر رمضان، كنت أصوم الأربعاء و الخميس و الجمعة، ثم أدعو اللّه عليهما من صلاة العصر يوم الجمعة حتى أصلى المغرب، و بعد قتل زيد انتقض ملك بنى أمية و تلاشى إلى أن أزالهم اللّه تعالى ببنى العباس.

و هذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر يتبرّك الناس بزيارته و يقصدونه لا سيما فى يوم عاشوراء، و العامّة تسميه زين العابدين، و هو وهم، و إنما زين العابدين أبوه، و ليس قبره بمصر، بل قبره بالبقيع، و لما قتل الإمام زيد سوّدت الشيعة، أى لبست السواد، و كان أوّل من سوّد على زيد شيخ بنى هاشم فى وقته الفضل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، و رثاه بقصيدة طويلة، و شعره حجة احتج به سيبويه، توفى سنة تسع و عشرين و مائة.

مشهد السيدة نفيسة

قال الشريف النقيب النسابة شرف الدين أبو علىّ محمد بن أسعد بن علىّ بن معمر بن عمر الحسينىّ الجوانىّ المالكىّ فى كتاب الروضة الأنيسة بفضل مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها: نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، أمّها أمّ ولد، و أخوتها القاسم و محمد و علىّ و إبراهيم و زيد و عبيد اللّه و يحيى و إسماعيل و إسحاق و أمّ كلثوم، أولاد الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ، فأمّهم أمّ سلمة، و اسمها زينب ابنة الحسن بن الحسن بن علىّ، و أمّها أمّ ولد تزوّج أمّ كلثوم أخت نفيسة، عبد اللّه بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهم، ثم خلف عليها الحسن بن زيد بن علىّ بن الحسن بن علىّ. و أما علىّ و إبراهيم و زيد أخوة نفيسة من أبيها، فأمّهم أمّ ولد تدعى أمّ عبد الحميد، و أما عبيد اللّه بن الحسن بن زيد فأمّه الزائدة بنت بسطام بن عمير بن قيس الشيبانىّ، و أما إسماعيل و إسحاق فهما لأمى ولد، و كان إسماعيل من أهل الفضل و الخير، صاحب صوم و نسك، و كان يصوم يوما و يفطر يوما. و أما يحيى بن زيد فله مشهد معروف بالمشاهد، يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و تزوّج بنفيسة رضى اللّه عنها إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، و كان يقال له إسحاق المؤتمن، و كان من أهل الصلاح و الخير و الفضل و الدين، روى عنه الحديث، و كان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدّثنى الثقة الرضى إسحاق بن جعفر، و كان له عقب بمصر منهم بنو الرقى، و بحلب بنو زهرة. و ولدت نفيسة من إسحاق ولدين هما

القاسم و أمّ كلثوم لم يعقبا.

و أما جدّ نفيسة و هو زيد بن الحسن بن عليّ، فروى عن أبيه و عن جابر و ابن عباس، و روى عنه ابنه، و كانت بينه و بين عبد اللّه بن محمد ابن الحنفية خصومة وفدا لأجلها على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۵

الوليد بن عبد الملک، و كان يأتى الجمعة من ثمانية أميال، و كان إذا ركب نظر الناس إليه و عجبوا من عظم خلقه و قالوا: جدّه رسول اللّه. و كتب إليه الوليد بن عبد الملک يسأله أن يبايع لابنه عبد العزيز و يخلع سليمان بن عبد الملک، ففرق منه و أجابه، فلما استخلف سليمان وجد كتاب زيد بذلک إلى الوليد، فكتب إلى أبى بكر بن حزم أمير المدينة: ادع زيد بن الحسن فأقره الكتاب، فإن عرفه فاكتب إليّ، و إن هو نكل فقدّمه فأصب يمينه عند منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إنه ما كتبه و لا أمر به، فخاف زيدا للّه و اعترف. فكتب بذلک أبو بكر، فكتب سليمان أن يضربه مائة سوط و أن يدرعه عباءة و يمشيه حافيا، فحبس عمر بن عبد العزيز الرسول و قال: حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب به فى حق زيد. فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض. فمات سليمان و أحرق عمر الكتاب.

و أما والد نفيسة و هو الحسن بن زيد، فهو الذى كان والى المدينة النبوية من قبل أبى جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، و كان فاضلا أديبا عالما، و أمّه أمّ ولد. توفى أبوه و هو غلام، و ترک عليه دينا أربعة آلاف دينار، فحلّف الحسن ولده أن لا يظل رأسه سقف إلّا سقف مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أو بيت رجل يكلمه فى حاجة حتى يقضى دين أبيه، فوفاه و قضاه بعد ذلک. و من كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدّب، و هو عامل على المدينة فقال: يا ابن رسول اللّه لا أعود و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم» و أنا ابن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، و قد كان أبى مع أبيک، كما قد علمت. قال: صدقت، فهل أنت عائد؟ قال: لا و اللّه. فأقاله و أمر له بخمسين دينارا و قال له: تزوّج بها وعد إليّ. فتاب الشاب و كان الحسن بن زيد يجرى عليه النفقة.

و كانت نفيسة من الصلاح و الزهد على الحدّ الذى لا مزيد عليه، فيقال أنها حجت ثلاثين حجة، و كانت كثيرة البكاء، تديم قيام الليل و صيام النهار، فقيل لها: ألا ترفقين بنفسک؟ فقالت: كيف أرفق بنفسى و أمامى عقبة لا يقطعها إلّا الفائزون. و كانت تحفظ القرآن و تفسيره، و كانت لا تأكل إلا فى كلّ ثلاث ليال أكلة واحدة، و لا تأكل من غير زوجها شيئا، و قد ذكر أنّ الإمام الشافعيّ محمد بن إدريس كان زارها و هى من وراء الحجاب و قال لها: ادعى لى، و كان صحبته عبد اللّه بن عبد الحكم. و ماتت رضى اللّه عنها بعد موت الإمام الشافعيّ رحمة اللّه عليه بأربع سنين، لأنّ الشافعيّ توفى سلخ شهر رجب سنة أربع و مائتين.

و قيل أنها كانت فيمن صلّى على الإمام الشافعيّ. و توفيت السيدة نفيسة فى شهر رمضان سنة ثمان و مائتين، و دفنت فى منزلها، و هو الموضع الذى به قبرها الآن، و يعرف بخط درب السباع، و درب بزرب. و أراد إسحاق بن الصادق و هو زوجها أن يحملها ليدفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يتركها و يدفنها عندهم لأجل البركة، و قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۳۲۵

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۶

المعروفة بإجابة الدعاء بمصر، و هى أربعة مواضع: سجن نبيّ اللّه يوسف الصدّيق عليه السلام، و مسجد موسى صلوات اللّه عليه، و هو الذى بطرا، و مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها، و المخدع الذى على يسار المصلّى فى قبلة مسجد الإقدام بالقرافة. فهذه المواضع لم يزل المصريون ممن أصابته مصيبة أو لحقته فاقة أو جائحة يمضون إلى أحدها، فيدعون اللّه تعالى فيستجيب لهم، مجرّب ذلک. انتهى.

و يقال أنها حفرت قبرها هذا و قرأت فيه تسعين و مائة ختمة، و أنها لما احتضرت خرجت من الدنيا و قد انتهت فى حزبها إلى قوله

تعالى: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام/ ۱۲] ففاضت نفسها رحمها اللّه تعالى مع قوله الرحمة، و يقال أن الحسن بن زيد والد السيدة نفيسة كان مجاب الدعوة ممدوحا، و أن شخصا و شى به إلى أبى جعفر المنصور أنه يريد الخلافة لنفسه، فإنه كان قد انتهت إليه رياسة بنى حسن، فأحضره من المدينة و سلبه ماله، ثم إنه ظهر له كذب الناقل عنه، فمنّ عليه و ردّه إلى المدينة مكرّما، فلما قدمها بعث إلى الذى و شى به بهدية و لم يعتبه على ما كان منه. و يقال أنه كان مجاب الدعوة، فمرّت به امرأة و هو فى الأبطح، و معها ابن لها على يدها فاختطفه عقاب، فسألت الحسن بن زيد أن يدعو اللّه لها بردّه، فرفع يديه إلى السماء و دعا ربه، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضرّه بشيء، فأخذته أمّه. و كان يعدّ بألف من الكرام.

و لما قدمت السيدة نفيسة إلى مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر نزلت بالمنصوصة، و كان بجوارها دار فيها قوم من أهل الذمّة، و لهم ابنة مقعدة لم تمش قط، فلما كان فى يوم من الأيام ذهب أهلها فى حاجة من حوائجهم و تركوا المقعدة عند السيدة نفيسة، فتوضأت وصبت من فضل وضوئها على الصبية المقعدة و سمت اللّه تعالى، فقامت تسعى على قدميها ليس بها بأس البتة، فلما قدم أهلها و عاينوها تمشى أتوا إلى السيدة نفيسة و قد تيقنوا أنّ مشى ابنتهم كان ببركة دعائها، و أسلموا بأجمعهم على يديها، فاشتهر ذلك بمصر و عرف أنه من بركاتها. و توقف النيل عن الزيادة فى زمنها فحضر الناس إليها و شكوا إليها ما حصل من توقف النيل، فدفعت قناعها إليهم و قالت لهم: ألقوه فى النيل، فألقوه فيه، فزاد حتى بلغ اللّه به المنافع. و أسر ابن لامرأة ذمّية فى بلاد الروم، فأتت إلى السيدة نفيسة و سألتها الدعاء أن يردّ اللّه ابنها عليها، فلما كان الليل لم تشعر الذمّية إلّا بابنها و قد هجم عليها دارها، فسألته عن خبره فقال: يا أمّاه لم أشعر إلّا و يد قد وقعت على القيد الذى كان فى رجليّ و قائل يقول: أطلقوه قد شفعت فيه نفيسة بنت الحسن. فو الذى يحلف به يا أمّاه لقد كسر قيدى و ما شعرت بنفسى إلّا و أنا واقف بباب هذه الدار. فلما أصبحت الذمّية أتت إلى السيدة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۷

نفيسة و قصت عليها الخبر و أسلمت هى و ابنها و حسن إسلامهما.

و ذكر غير واحد من علماء الأخبار بمصر أن هذا قبر السيدة نفيسة بلا خلاف، و قد زار قبرها من العلماء و الصالحين خلق لا يحصى عددهم. و يقال أن أوّل من بنى على قبر السيدة نفيسة عبيد اللّه بن السرى بن الحكم أمير مصر، و مكتوب فى اللوح الرخام الذى على باب ضريحها، و هو الذى كان مصفحا بالحديد بعد البسملة ما نصه، نصر من اللّه و فتح قريب، لعبد اللّه و وليه معدّ أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات اللّه عليه و على آبائه الطاهرين و أبنائه المكرّمين، أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين و هادى دعاة المؤمنين عضّد اللّه به الدين و أمتع بطول بقائه المؤمنين و أدام قدرته و أعلى كلمته، و شدّ عضده بولده الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين، زاد اللّه فى علائه و أمتع المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة، و القبة التى على الضريح جدّدها الخليفة الحافظ لدين اللّه فى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و أمر بعمل الرخام الذى بالمحراب.

مشهد السيدة كلثوم

هى كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، موضعه بمقابر قريش بمصر بجوار الخندق، و هى أمّ جعفر بن موسى بن إسماعيل بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، كانت من الزاهدات العابدات.

سنا و ثنا

يقال أنهما من أولاد جعفر بن محمد الصادق، كانتا تتلوان القرآن الكريم فى كلّ ليلة، فماتت إحداهما، فصارت الأخرى تتلو و تهدى

ثواب قراءتها لأختها حتى ماتت.

ذكر مقابر مصر و القاهرة المشهورة

القبر مدفن الإنسان، و جمعه قبور، و المقبرة موضع القبر. قال سيبويه: المقبرة ليس على الفعل، و لكنه اسم، و قبره يقبره: دفنه. و أقبره جعل له قبرا. و اعلم أنّ لأهل مدينة مصر و لأهل القاهرة عدّة مقابر و هى: القرافة، فما كان منها فى سفح الجبل يقال له القرافة الصغرى، و ما كان منها فى شرقىّ مصر بجوار المساكن يقال له القرافة الكبرى، و فى القرافة الكبرى كانت مدافن أموات المسلمين منذ افتتحت أرض مصر و اختط العرب مدينة الفسطاط، و لم يكن لهم مقبرة سواها، فلما قدم القائد جوهر من قبل المعز لدين اللّه و بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۸

القاهرة و سكنها الخلفاء، اتخذوا بها تربة عرفت بتربة الزعفران، قبروا فيها أمواتهم، و دفن رعيتهم من مات منهم فى القرافة إلى أن اختطت الحارات خارج باب زويلة، فقبر سكانها موتاهم خارج باب زويلة مما يلى الجامع، فيما بين جامع الصالح و قلعة الجبل، و كثرت المقابر بها عند حدوث الشدّة العظمى أيام الخليفة المستنصر، ثم لما مات أمير الجيوش بدر الجمالىّ دفن خارج باب النصر، فاتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم، و كثرت مقابر أهل الحسينية فى هذه الجهة، ثم دفن الناس الأموات خارج القاهرة فى الموضع الذى عرف بميدان القبق، فيما بين قلعة الجبل و قبة النصر، و بنوا هناك الترب الجليلة، و دفن الناس أيضا خارج القاهرة فيما بين باب الفتوح و الخندق، و لكل مقبرة من هذه المقابر أخبار سوف أقص عليك من أنبائها ما انتهت إلى معرفته قدرتى إن شاء اللّه تعالى. و يذكر أهل العناية بالأمور المتقادمة أن الناس فى الدهر الأوّل لم يكونوا يدفنون موتاهم إلى أن كان زمن دوناى الذى يدعى سيد البشر لكثرة ما علّم الناس من المنافع، فشكا إليه أهل زمانه ما يأتذون به من خبث موتاهم، فأمرهم أن يدفنوهم فى خوابى و يسدّوا رؤسها، ففعلوا ذلك، فكان دوناى أوّل من دفن الموتى، و ذكر أن دوناى هذا كان قبل آدم بدهر طويل مبلغه عشرون ألف سنة، و هى دعوى لا تصح، و فى القرآن الكريم ما يقتضى أن قابيل ابن آدم أوّل من دفن الموتى، و اللّه أصدق القائلين. و قد قال الشافعىّ رحمه اللّه: و أكره أن يعظّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا مخافة الفتنة عليه و على من بعده.

ذكر القرافة

روى الترمذىّ من حديث أبى طيبة عبد اللّه بن مسلم، عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه رفعه: من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا و نورا لهم يوم القيامة. قال: و هذا حديث غريب. و قد روى عن أبى طيبة، عن ابن بريدة مرسلا، و هذا أصح، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: حدّثنا عبد اللّه بن صالح، حدّثنا الليث ابن سعد قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار، فعجب عمرو من ذلك و قال: أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين، فكتب بذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك و هى لا تزدرع و لا يستنبط بها ماء. و لا ينتفع بها. فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أنّ فيها غراس الجنة، فكتب بذلك إلى عمر رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر إنّا لا- نعلم غراس الجنة إلّا المؤمنين، فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين و لا تبعه بشىء. فكان أوّل من دفن فيها رجل من المغافر يقال له عامر، فقيل عمرت. فقال المقوقس لعمرو: و ما ذلك، و لا على هذا عاهدتنا، فقطع لهم الحدّ الذى بين المقبرة و بينهم.

و عن ابن لهيعة أن المقوقس قال لعمرو: إنا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۲۹

و حيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة. فكتب بقوله إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقال:

صدق، فاجعلها مقبرة للمسلمين، فقبر فيها ممن عرف من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم خمسة نفر، عمرو بن العاص السهميّ، و عبد اللّه بن حذافة السهميّ، و عبد اللّه بن جزء الزبيدىّ، و أبو بصيرة الغفارىّ، و عقبة بن عامر الجهنىّ. و يقال و مسلمة بن مخلد الأنصارىّ انتهى.

و يقال أن عامرا هو الذى كان أوّل من دفن بالقرافة، قبره الآن تحت حائط مسجد الفتح الشرقىّ. و قالت فيه امرأة من العرب:

قامت بواكيه على قبرهمن لى من بعدك يا عامر

تركتنى فى الدار ذا غربةقد ذلّ من ليس له ناصر

و روى أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر من حديث حرملة بن عمران قال: حدّثنى عمير بن أبى مدرك الخولانىّ عن سفيان بن وهب الخولانىّ قال: بينما نحن نسير مع عمرو بن العاص فى سفح هذا الجبل و معنا المقوقس، فقال له عمرو: يا مقوقس ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات و لا شجر على نحو بلاد الشام؟ فقال: لا أدرى، و لكنّ اللّه أغنى أهله بهذا النيل عن ذلك، و لكنه نجد تحته ما هو خير من ذلك.

قال: و ما هو؟ قال ليدفنن تحته أو ليقبرنّ تحته قوم يبعثهم اللّه يوم القيامة لا حساب عليهم، قال عمرو: اللهمّ اجعلنى منهم. قال حرملة بن عمران: فرأيت قبر عمرو بن العاص، و قبر أبى بصيرة، و قبر عقبة بن عامر فيه. و خرّج أبو عيسى الترمذىّ من حديث أبى طيبة عبد اللّه بن مسلم، عن عبد اللّه بن بريدة، عن أبيه رفعه: «من مات من أصحابى بأرض بعث قائدا لهم و نورا يوم القيامة»، و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعىّ: القرافة هم بنو غض بن سيف بن وائل بن المغافر، و فى نسخة بنو غصن. و قال أبو عمرو الكندىّ: بنو جحض بن سيف بن وائل بن الجيزىّ بن شراحيل بن المغافر بن يغفر. و قيل أن قرافة اسم أمّ عزافر، و جحض ابنى سيف بن وائل بن الجيزىّ. قد صحف القضاعىّ فى قوله غصن بالغين المعجمة، و الأقرب ما قاله الكندىّ، لأنه أقعد بذلك. و قال ياقوت و القرافة- بفتح القاف وراء مخففة و ألف خفيفة و فاء- الأوّل مقبرة بمصر مشهورة مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة، الثانى القرافة محلة بالإسكندرية منسوبة إلى القبيلة أيضا. و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ فى كتاب النقط: و قد ذكر جامع القرافة الذى يقال له اليوم جامع الأولياء، و كان جماعة من الرؤساء يلزمون النوم بهذا الجامع و يجلسون فى ليالى الصيف يتحدّثون فى القمر، فى صحنه، و فى الشتاء ينامون عند المنبر، و كان يحصل لقيمه الأشربة و الحلوى و الجرايات، و كان الناس يحبون هذا الموضع و يلزمونه لأجل من يحضر من الرؤساء، و كانت الطفيلية يلزمون المبيت فيه ليالى الجمع، و كذلك أكثر المساجد التى بالقرافة و الجبل و المشاهد لأجل ما يحمل إليها و يعمل فيها من الحلاوات و اللحومات و الأطعمة، و قال موسى بن محمد بن سعيد فى كتاب المعرب عن أخبار المغرب: و بت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۰

ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط، و هى فى شرقيها بها منازل الأعيان بالفسطاط و القاهرة، و قبور عليها مبان معتنى بها، و فيها القبة العالية العظيمة المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و بها مسجد جامع و ترب كثيرة عليها أوقاف للقرّاء، و مدرسة كبيرة للشافعية، و لا تكاد تخلو من طرب، و لا سيما فى الليالى المقمرة، و هى معظم مجتمعات أهل مصر، و أشهر منتزهاتهم و فيها أقول:

إنّ القرافة قد حوت ضدّين مندنيا و أخرى فهى نعم المنزل

يغشى الخليع بها السماع مواصلاو يطوف حول قبورها المتبتل

كم ليلة بتنا بها و نديمنالحن يكاد يذوب منه الجندل

و البدر قد ملأ البسيطة نورهفكأنما قد فاض منه جدول

و بدا يضاحك أوجها حاكينهلما تكامل وجهه المتهلل

و فوق القرافة من شرقيها جبل المقطم، و ليس له علوّ و لا عليه اخضرار، و إنما يقصد للبركة، و هو نبيه الذكر فى الكتب، و فى سفحه

مقابر أهل الفسطاط و القاهرة، و الإجماع على أنه ليس فى الدنيا مقبرة أعجب منها و لا أبهى و لا أعظم و لا أنظف من أبنيتها و قبابها و حجرها، و لا أعجب تربة منها، كأنها الكافور و الزعفران مقدّسة فى جميع الكتب، و حين تشرف عليها تراها كأنها مدينة بيضاء، و المقطم عال عليها كأنه حائط من ورائها، و قال شافع بن علىّ:

تعجبت من أمر القرافة إذ غدتعلى وحشة الموتى لها قلبنا يصبو

فألفيتها مأوى الأحبة كلهمو مستوطن الأحباب يصبو له القلب

و قال الأديب أبو سعيد محمد بن أحمد العميدىّ:

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لىمقرّ عبادة إلّا القرافه

لئن لم يرحم المولى اجتهادىو قلة ناصرى لم ألف رأفه

و اعلم أن الناس فى القديم إنما كانوا يقبرون موتاهم فيما بين مسجد الفتح و سفح المقطم، و اتخذوا الترب الجليلة أيضا فيما بين مصلّى خولان و خط المغافر التى موضعها الآن كيمان تراب، و تعرف الآن بالقرافة الكبرى. فلما دفن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابنه فى سنة ثمان و ستمائة بجوار قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعىّ، و بنى القبة العظيمة على قبر الشافعىّ، و أجرى لها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها، نقل الناس الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الشافعىّ، و أنشأوا هناك الترب، فعرفت بالقرافة الصغرى، و أخذت عمائرها فى الزيادة و تلاشى أمر تلك، و أما القطعة التى تلى قلعة الجبل فتجدّدت بعد السبعمائة من سنى الهجرة، و كان ما بين قبة الإمام الشافعىّ، رحمة اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۱

عليه، و باب القرافة ميدانا واحدا تتسابق فيه الأمراء و الأجناد، و يجتمع الناس هنالك للتفرّج على السباق، فتصير الأمراء تسابق على حدة، و الأجناد تسابق فى جهة و هم منفردون عن الأمراء، و الشرط فى السباق من تربة الأمير بيدرا إلى باب القرافة، ثم استجدّ أمراء دولة الناصر محمد بن قلاون فى هذه الجهة الترب، فبنى الأمير يلبغا التركمانىّ، و الأمير طقتمر الدمشقىّ، و الأمير قوصون و غيرهم من الأمراء، و تبعهم الجند و سائر الناس، فبنوا الترب و الخوانك و الأسواق و الطواحين و الحمامات، حتى صارت العمارة من بركة الحبش إلى باب القرافة، و من حدّ مساكن مصر إلى الجبل، و انقسمت الطرق فى القرافة و تعدّدت بها الشوارع، و رغب كثير من الناس فى سكناها العظم القصور التى أنشأت بها، و سميت بالترب، و لكثرة تعاهد أصحاب الترب لها و تواتر صدقاتهم و مبرّاتهم لأهل القرافة، و قد صنف الناس فيمن قبر بالقرافة، و أكثروا من التأليف فى ذلك، و لست بصدد شىء مما صنفوا فى ذلك، و إنما غرضى أن أذكر ما تشتمل عليه القرافة. و فى سنة ثلاث و ثلاثين و أربعمائة ظهر بالقرافة شىء يقال له القطربة، تنزل من جبل المقطم، فاختطفت جماعة من أولاد سكانها حتى رحل أكثرهم خوفا منها، و كان شخص من أهل كبارة مصر يعرف بحميد الفوّال خرج من أطفيح على حماره، فلما وصل إلى حلوان عشاء رأى امرأة جالسة على الطريق فشكت إليه ضعفا و عجزا، فحملها خلفه فلم يشعر بالحمار إلّا و قد سقط، فنظر إلى المرأة فإذا بها قد أخرجت جوف الحمار بمخاليبها، ففرّ و هو يعدو إلى والى مصر و ذكر له الخبر، فخرج بجماعته إلى الموضع فوجد الدابة قد أكل جوفها، ثم صارت بعد ذلك تتبع الموتى بالقرافة و تنبش قبورهم و تأكل أجوافهم و تتركهم مطروحين، فامتنع الناس من الدفن فى القرافة زمنا حتى انقطعت تلك الصورة.

ذكر المساجد الشهيرة بالقرافة الكبيرة

اشارة

اعلم أن القرافة بمصر اسم لموضعين، القرافة الكبيرة حيث الجامع الذى يقال له جامع الأولياء، و القرافة الصغيرة و بها قبر الإمام

الشافعیّ، و کانتا فی أوّل الأمر خطتين لقبيلة من اليمن هم من المغافر بن يغفر، يقال لهم بنو قرافة. ثم صارت القرافة الكبيرة جبانة، و هی حيث مصلّی خولان و البقعة و ما هو حول جامع الأولياء، فإنه كان يشتمل على مساجد و ربط و سوق و عدّة مساكن، منها ما خرب و منها ما هو باق، و سترى من ذلك ما يتيسر ذكره.

مسجد الأقدام

هذا المسجد بالقرافة بخط المغافر. قال القضاعیّ: ذكر الكندیّ أن الجند بنوع و ليس من الخطط، و سمی بالأقدام لأنّ مروان بن الحكم لما دخل مصر و صالح أهلها و بايعوه، امتنع من بيعته ثمانون رجلا من المغافر سوى غيرهم، و قالوا لا ننكث بيعة ابن الزبير، فأمر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۲

مروان بقطع أيديهم و أرجلهم و قتلهم على بئر المغافر فی هذا الموضع، فسمی المسجد بهم لأنه بنی على آثارهم. و الآثار الأقدام، يقال جئت على قدم فلان أی على أثره، و قيل بل أمرهم بالبراءة من علیّ بن أبی طالب رضی اللّه عنه فلم يتبرّؤوا منه فقتلهم هناك. و قيل إنما سمی مسجد الأقدام لأنّ قبيلتين اختلفتا فيه، كلّ تدّعی أنه من خطتها، فقيس ما بينه و بين كلّ قبيلة بالأقدام و جعل لأقربهما منه. و القديم من هذا المسجد هو محرابه و الأروقة المحيطة به، و أما خارجه فزيادة الإخشيد، و الزيادة الجديدة التی فی بحريه لسمعون الملقب بسهم الدولة متولی الستارة، و كان من أهل السنة و الخير. و يقال إنما سمی مسجد الأقدام لأنه كان يتداوله العباد، و كانت حجارته كذانا ، فأثر فيها موضع أقدامهم، فسمی لذلك مسجد الأقدام.

مسجد الرصد

هذا المسجد بناه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالیّ بعد بنائه للجامع المعروف بجامع الفيلة، لأجل رصد الكواكب بالآلة التی يقال لها ذات الحلق، كما ذكر فيما تقدّم.

مسجد شقيق الملك

هذا المسجد بجوار مسجد الرصد، بناه شقيق الملك خسروان صاحب بيت المال، أحد خدّام القصر فی أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه فی سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، و عمل فيه للحافظ ضيافة عظيمة حضر فيها بنفسه، و معه الأمراء و الأستاذون و كافة الرؤساء، و كان فيه كرم و سموّ همة، و كان لمساجد القرافة و الجبل عنده روزنامج بأسماء أربابها، فينفذ إليهم فی أيام العنب و التين لكلّ مسجد قفص رطب، و يرسل فی كلّ ليلة من ليالی الوقود لكلّ مسجد خروف شواء و سطل جوذآب و جام حلوى، و لا سيما إذا كان بائتا فی هذا المسجد، فإنه لا يأكل حتى يسير ذلك لمن اسمه عنده، و كان يعمل جفان القطائف المحشوّة باللوز و السكر و الكافور و المسك، و فيها ما فيه بدل اللوز الفستق، و يستدعی من لا يقدر على ذلك من أهل الجبل و القرافة و ذوی البيوت المنقطعين و يأمر إذا حضروا بسكب الحلو و الشيرج عليه بالجرار، و يأمرهم بالأكل منه، و الحمل معهم، و كان أحبهم إليه من يأكل طعامه و يستدعی برّه و أنعامه رحمه اللّه.

مسجد الانطاكیّ

هذا المسجد كان أيضا بالرصد، و ما برحت هذه المساجد الثلاثة بالرصد يسكنها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۳

الناس إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، ثم خربت و صار الرصد من الأماكن المخوفة بعد ما أدركته منتزها للعامّة.

مسجد النارنج

هذا المسجد عامر إلى يومنا هذا فيما بين الرصد و القرافة الكبرى، بجانب سقاية ابن طولون المعروفة بعفصة الكبرى، غربيها إلى البحريّ قليلا، و هو المطلّ على بركة الحبش شرقيّ الكتفى و قبليّ القرافة. بنته الجهة الآمرية المعروفة بجبهة الدار الجديدة فى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة، أخرجت له اثنى عشر ألف دينار على يد الأستاذين افتخار الدولة يمن، و معز الدولة الطويل، المعروف بالوحش. و تولى العمارة و الإنفاق عليه الشريف أبو طالب موسى بن عبد اللّه بن هاشم بن مشرف بن جعفر بن المسلم بن عبيد اللّه بن جعفر بن محمد بن إبراهيم بن محمد اليمانىّ بن عبيد اللّه بن موسى الكاظم الحسينىّ الموسوىّ، المعروف بابن أخى الطيب بن أبى طالب الورّاق، و سمى مسجد النارنج لأنّ نارنجه لا ينقطع أبدا.

مسجد الأندلس

هذا المسجد فى شرقىّ القرافة الصغرى بجانب مسجد الفتح، فى الموضع الذى يعرف عند الزوّار بالبقعة، و هو مصلّى المغافر على الجنائز. و يقال أنه بنى عند فتح مصر، و قيل بنى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، ثم بنته جهة مكنون، و اسمها علم الآمرية أمّ ابنة الآمر التى يقال لها ست القصور، فى سنة ست و عشرين و خمسمائة، على يد المعروف بالشيخ أبى تراب.

و جهة مكنون هذه: كان الخليفة الآمر بأحكام اللّه كتب صداقها و جعل المقدّم منه أربعة عشر ألف دينار، و كان لها صدقات و برّ و خير و فضل، و عندها خوف من اللّه، و كانت تبعث إلى الأشراف بصلات جزيلة، و ترسل إلى أرباب البيوت و المستورين أموالا كثيرة، و لما وهب الآمر لهزار الملوك و لبرغش فى كلّ يوم مائتى ألف دينار عينا، لكل منهما مائة ألف دينار، حضر، إليها عشاء على عادته، فأغلقت باب مقصورتها قبل دخوله و قالت له:

و اللّه ما تدخل إلىّ أو تهب لى مثل ما وهبت لواحد من غلاميك. فقال: الساعة: ثم استدعى بالفرّاشين فحضروا فقال: هاتوا مائة ألف دينار الساعة، و لم يزل واقفا إلى أن حضرت عشرة كيسة فى كل كيس عشرة آلاف دينار، و يحمل عشرة من الفرّاشين. ففتحت له الباب و دخل إليها. و مكنون هذا هو الأستاذ الذى كان برسم خدمتها، و يقال له مكنون القاضى لسكونه و هدئه، و كان فيه خبر و برّ كبير، و بجانب مسجد الأندلس هذا رباط من غريبه بنته جهة مكنون هذه فى سنة ست و عشرين و خمسمائة، برسم العجائز الأرامل. فلما كان فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۴

سنة أربع و سبعين و خمسمائة، بنى الحاجب لؤلؤ العادلىّ برحبة الأندلس و الرباط بستانا و أحواضا و مقعدا، و جمع بين مصلّى الأندلس و بين الرباط بحائط بينهما، و عمل ذلك لحلول العفيف حاتم بن مسلم المقدسىّ الشافعىّ به، و لما مات السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ بدمشق فى المحرّم سنة ست و سبعين و ستمائة، و قام من بعده فى السلطنة ابنه الملك السعيد محمد بركة خان، عمل لأبيه عزاء بالأندلس هذا، فاجتمع هناك القرّاء و الفقهاء و أقيمت المطابخ و هيئت المطاعم الكثيرة و فرّقت على الزوايا و مدّت أسمطة عظيمة بالخيام التى ضربت حول الأندلس، فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم، و قرأ القرّاء ختمة شريفة، و عدّ هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر، و كان ذلك فى المحرّم سنة سبع و سبعين و ستمائة، على رأس سنة من موت الملك الظاهر، فقال فى ذلك القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر.

يا أيها الناس اسمعواقولا بصدق قد كسى

إنّ عزا السلطان فىغرب و شرق ما نسى

أ ليس ذا مأتمه يعمل فى الأندلس

ثم عمل بعد ذلك مجتمع فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعىّ من القرافة، و مجتمع بجامع ابن طولون، و مجتمع بجامع الظاهر من الحسينية خارج القاهرة، و مجتمع بالمدرسة الظاهرية بين القصرين، و مجتمع بالمدرسة الصالحية، و مجتمع بدار الحديث الكاملية، و مجتمع بالخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء، و مجتمع بالجامع الحاكمىّ، و أقيم فى كلّ واحد من هذه المجتمعات الأطعمة الكثيرة، و عمل للتكاررة خوان، و للفقراء خوان، حضره كثير من أهل الخيل و الصلاح فقيل فى ذلك:

فشكرا لها أوقات برّ نقبلتلقد كان فيها الخير و البرّ أجمعا

لقد عمّت النعمى بها كلّ موطن سقتها الغوادى مربعا ثم مربعا

و لما مضى السلطان لما يمض جودهو خلّف فينا برّه متنوّعا

فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

فدام له منّا الدعاء مكرّرامدى دهرنا و اللّه يسمع من دعا

مسجد البقعة

هذا المسجد مجاور لمسجد الفتح من غربيه، بناه الأمير أبو منصور صافى الأفضلى.

مسجد الفتح

هذا المسجد المشهور بجوار قبر الناطق، بناه شرف الإسلام سيف الإمام يانس الرومىّ وزير مصر، و سمى بالفتح لأن منه كان انهزام الروم إلى قصر الشمع حين قدم الزبير بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۵

العوّام، و المقداد بن الأسود فيمن سواهما مددا لعمرو بن العاص، و كان الفتح، و يقال أنّ محرابه اللطيف الذى بجانبه الشرقىّ قديم، و أنّ تحت حائطه الشرقىّ قبر عامر الذى كان أوّل من دفن بالقرافة، و محراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب انحرافا كثيرا، كما ذكر عند ذكر محاريب مصر من هذا الكتاب، و استشهد يومئذ جماعة دفنوا فى مجرى الحصا، فكان يرى على قبورهم فى الليل نور.

مسجد أمّ عباس جهة العادل بن السلار

هذا المسجد كان بجوار مصلّى خولان بالمغافر غربىّ المقابر، بنته بلاوة زوج العادل بن السلار سلطان مصر، فى خلافة الظافر سنة سبع و أربعين و خمسمائة، على يد المعروف بالشريف عز الدولة الرضوىّ بن القفاص، و كانت بلاوة مغربية، و هى أمّ الوزير عباس الصنهاجىّ الباديسىّ و قد دثر هذا المسجد.

مسجد الصالح

هذا المسجد كان بخط جامع القرافة المعروف بجامع الأولياء، عرف بمسجد بنى عبيد اللّه، و بمسجد القبة، و بمسجد العزاء، و الذى بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر، و كان فى أعلاه مناظر و عمارته متقنة الزىّ، و أدركته عامرا إلى ما بعد سنة ثمانمائة.

مسجد ولىّ عهد أمير المؤمنين

هو الأمير أبو هاشم العباس بن شعيب بن داود المهدىّ، أحد الأقارب فى الأيام الحاكمية، كان إلى جانب مسجد الصالح، و بجانبه تربته، و كان المسجد من حجر و بابه محمول على أربع حنايا، و تحت الحنايا باب المسجد، و فى شرقيه أيضا أربع حنايا، و كانت دار أبى هاشم هذا بمصر دار الأفراح، و من ولده الشريف الأمير الكبير أبو الحسن علىّ ابن الأمير عباس بن شعيب بن أبى هاشم المذكور، و يعرف بالشريف الطويل و بالنباش.

مسجد الرحمة

هذا المسجد كان فى صدر القرافة الكبرى بالقرب من تربة ركن الإسلام محمود ابن أخت الملك الصالح طلائع بن رزيك. قال الكندىّ: و منها مسجد القرافة، و هو بنو محصن بن سيف بن وائل بن الجيزىّ، قبلىّ القرافة على يمينك إذا أممت مسجد الأقدام، مقابله فسقية صغيرة، و له منارة، يعرف بمسجد الرحمة، و عرف هذا المسجد بأبى تراب الصوّاف وكيل الجهة التى بنت مسجد الأندلس و رباطه، و مسجد رقية. و أبو تراب هذا تولى بناءه، و كان يقوم بخدمته الشيخ نسيم، و أبو تراب هو الذى أخرج إليه ولد الآمر فى قفة من خوص، فيها حوائج طبيخ من كرّاث و بصل و جزر و هو طفل فى القماط فى أسفل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۶

القفة، و الحوائج فوقه، و وصل به إلى القرافة و أرضعته المرضعة بهذا المسجد و خفى أمره عن الحافظ حتى كبر، و صار يسمى قفيفة. فلما حان نفعه نمّ عليه أبو عبد اللّه الحسين بن أبى الفضل عبد اللّه بن الحسين الجوهرىّ الواعظ، بعد ما مات الشيخ أبو تراب، عند الحافظ. فأخذ الصبىّ و قصده فمات. و خلع على ابن الجوهرىّ، ثم نفى إلى دمياط فمات بها فى جمادى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة.

مسجد مكنون

هو بجانب مسجد الرحمة، بناه الأستاد مكنون القاضى الذى تقدّم ذكره فى مسجد الأندلس.

مسجد جهة ريحان

هذا المسجد كان فى وجه مسجد أبى تراب قبالة دار البقر من القرافة الكبرى، و جدّده أستاذ الجهة الحافظية، و اسمه ريحان، فى سنة اثنتين و أربعين و خمسمائة.

مسجد جهة بيان

هذا المسجد كان فى بطحاء مسجد الأقدام بجوار ترب المادرانيين، بنته الجهة الحافظية المعروفة بجهة بيان الحسامىّ، على يد أبى الفضل الصعيدىّ المعروف بابن الموفق، و حكى الخليفة عن هذه الجهة خبرا عجيبا. قال القاضى المكين أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة: قال لى أمير المؤمنين الحافظ يوما: يا قاضى أبا الطاهر. قلت لبيك يا أمير المؤمنين. قال: أحدّثك بحديث عجيب قلت نعم. قال لما جرى من أبى علىّ بن الأفضل ما جرى بينما أنا فى الموضع الذى كنت معتقلا فيه، رأيت كأنى قد جلست فى مجلس من مجالس القصر أعرفه، و كان الخلافة قد أعيدت إلىّ، و كأنّ المغنيات قد دخلن يهنيننى و يغنين بين يدى، و فى جملتهنّ جارية معها عود، يعنى هذه الجارية المذكورة، فأنشأت تغنى قول أبى العتاهية:

أتته الخلافة منقادةإليه تجرّر أذيالها

فلم تك تصلح إلّا لهو لم يك يصلح إلّا لها

و لو نالها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

و كأنى قمت إلى خزانة بالمجلس أخذت منها حقة فيها جوهر. فملأت فمها منه، ثم استيقظت. فو اللّه يا قاضـى ما كان إلّا يومان حتى كسر علىّ الحبس لما قتل أبو علىّ بن الأفضل و قيل لى السلام على أمير المؤمنين، فلما خرجت و أقمت أياما جلست فى ذلك المجلس الذى رأيته فى النوم، و دخل الجوارى يهنيننى، فغنت إحداهنّ و هى ذات عود ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۷

الصوت بعينه، فقلت لها: على رسلك حتى نقضى نحن أيضا من حقك ما يجب علينا، و قمت إلى الخزانة و أخذت الحق الذى فيه الجوهر، ثم جئت إليها و قلت لها افتحى فاك، ففتحته، و حشوته جوهرا و قلت لها إنّ لك علينا فى كلّ سنة فى مثل هذا اليوم مثل ذلك.

مسجد توبة

هو ابن ميسرة الكتامىّ، مغنى المستنصر، كان فى شرقىّ الأقهوب، و قبالته تربة تنسب إلى الطبالة صاحبة أرض الطبالة، و كلاهما فى القرافة الكبرى.

مسجد درى

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى فى رحبة الأقهوب، بناه شهاب الدولة درى، غلام المظفر أخى الأفضل ابن أمير الجيوش، فى سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة، و كان أرمنيا فأسلم و صار من المتشدّدين فى مذهب الإمامية، و قرأ الجمل للزجاجىّ فى النحو، و اللمع لابن جنى، و كانت له خرائط من القطن الأبيض يلبسها فى يديه و رجليه، و كان يتولى خزائن الكسوات، و لا يدخل على بسط السلاطين و لا على بسط الخليفة الحافظ لدين اللّه، و لا يدخل مجلسه إلّا بالخرائط فى رجليه، و لا يأخذ من أحد رقعة إلّا و فى يده خريطة، يظنّ أنّ من لمسه نجسه، وسوسة منه. فإن اتفق أنه صافح أحدا، أو أمسك رقعة بيده من غير خريطة، لا يمس ثوبه و لا بدنه حتى يغسلها، فإن مس ثوبه غسل الثوب. و كان الأستاذون يعبثون به و يرمون فى بساط الخليفة الحافظ العنب، فإذا مشى عليه و انفجر و وصل ماؤه إلى رجليه سبهم و حرد، فيضحك الخليفة و لا يؤاخذه، و عمل مرّة الوزير رضوان بن ولخشىّ دواة حليتها ألف دينار مرصعة، فدخل عليه شهاب الدولة درى الصغير هذا، و قد أحضرت الدواة المذكورة، فقال له: يا مولانا أحسن من مداد هذه الدواة و وقع على هذه، فيكون ذلك زكاتها إذ للّه فيه رضى و لنبيه، و ناوله رقعة الشريف القاضى سنا الملك أسعد الجوّانىّ النحوىّ، يطلب فيها راتبا لابنه الشريف أبى عبد اللّه محمد فى الشهر ثلاثة دنانير، فوقع عليها. فلما كان فى الليل رأى فى نومه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه و هو يقول: جزاك اللّه خيرا على فعلك اليوم.

مسجد ست غزال

هذا المسجد كان فى القرافة الكبرى بجوار تربة النعمان، بنته ست غزال فى سنة ست و ثلاثين و خمسمائة، و كانت غزال هذه صاحبة دواة الخليفة، لا تعرف شيئا إلّا أحكام الدوى و الليق و مسح الأقلام و الدواة، و كان برسم خدمتها الأستاذ مأمون الدولة الطويل.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۸

مسجد رياض

هو لوقافة الحافظ لدين اللّه، كانت تقف بين يديه بالقصر، و كان بجوار المصنعة الصغرى الطولونية التى يجىء الماء إليها من عفصة

الكبرى، و كان فيه حوش به عدّة بيوت للنساء المنقطعات.

مسجد عظيم الدولة

هذا المسجد كان معلقا بخط سوق القرافة الكبرى، واكن عظيم الدولة هذا صقليا صاحب الستر و حامل المظلة، و كان بجوار هذا المسجد مسجد التمساح، و مسجد السدرة، و مسجد جهة مراد، و كان القاضى أبو عبد اللّه محمد بن أبى الفرج هبة اللّه بن الميسر، لما عمل قدّامة منارة النحاس الرومية ذات السواعد، و اجتاز بها من تحت سدرة المسجد فى ليلة الوقود، نصف شهر رجب سنة ثلاثين و خمسمائة، عاقتها السدرة فأمر بقطع بعضها، فقيل له: لا تفعل، فإنّ قطع السدر محذور. و قد روى أبو داود فى كتاب السنن له، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «من قطع سدرة صوّب اللّه رأسه فى النار» فقطعها على ركوب نصف شعبان، فما أسنى و صرف فىّ المحرّم و فنى إلى تنيس و قتل.

مسجد أبى صادق

هذا المسجد كان غربىّ مسجد الأقدام، بناه ابن سعدون أبو الحسن علىّ بن محمد البغدادىّ، بعد سنة عشرين و أربعمائة، و جدّده أخوه أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن الحسن بن سعدون البغدادىّ سنة ثلاث و أربعين و أربعمائة، و هو مسجد أبى صادق مرشد المدينىّ المالكىّ المحدّث، و كان قارىء المصحف بالجامع، و مصليا به، و مصدّرا فيه لإقراء السبع، و كان فيه حنة على الحيوانات لا سيما على القطط و الكلاب، و كان مشارف الجامع و جعل عليه جاريا من الغدد كلّ يوم لأجل القطط، و كان عند داره بزقاق الأقفال من مصر كلاب يطعمها و يسقيها، و ربما تبع دابته منها شيء يمشى معه فى الأسواق، قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط: حدّثنى الشيخ منجب غلام أبى صادق قال: كان لمولاى الشيخ أبى صادق كلب لا يفارقه أبدا، إذا كان راكبا يمشى خلفه، فإذا وقفت بغلته قام تحت يديها، فإذا رآه الناس قالوا هذا أبو صادق و كلبه.

و حدّثنى قال: ولدت كلبة فى مستوقد حمّام، و كان المؤذن يأتى خلف مولاى سحرا كل يوم لقراءة المصحف، و كان مولاى يأخذ فى كمه كلّ يوم رغيفا، فإذا حاذى موضع الكلبة قلع طيلسانه و قطع الخبز للكلبة و يرمى لها بنفسه إلى أن تأكل، ثم يستدعى الوقاد و يعطيه قيراطا و يقول له: اغسل قدحها و املأه ماء حلوا، و يستحلفه على ذلك. فلما كبر أولادها صار يأخذ بعد رغيفين إلى أن كبروا و تفرّقوا. و حدّثنى قال: كان قد جعل كراء حانوت برسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۳۹

القطاط بالجامع العتيق من الأحباس، و كان يؤتى بالغدد مقطعة، فيجلس و يقسم عليها، و إن قطة كانت تحمل شيئا من ذلك و تمضى به، و فعلت ذلك مرارا، فقال مولاى للشيخ أبى الحسن بن فرج امض خلف هذه القطة و انظر إلى أين تؤدّى ذلك، فمضى ابن فرج فإذا بها تؤدّيه إلى أولادها، فعاد إليه و أخبره، فكان بعد ذلك يقطع غددا صغارا على قدر مساغ القطط الصغار، و غددا كبار للكبار، و يرسل بجزء الصغار إليهم إلى أن كبروا،

مسجد الفرّاش

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، بناه أحمد فرّاش الأفضل بن أمير الجيوش، و بجواره مسجد بناء زيد بن حسام، و مسجد الإجابة القديم، و تربة العطار، و دار البقر، و قناطر الأطفيحىّ، كلّ ذلك بالقرب من جامع القرافة.

مسجد تاج الملوك

هذا المسجد قدّام دار النعمان و تربته من القرافة الكبرى، بناه تاج الملوك بدران بن أبى الهيجاء الكردىّ الماردانىّ، و هو أخو سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزيك، و كان مجتمع أهل مصر عنده فى الأعياد و المواسم و ليالى الوقود.

مسجد الثمار

هذا المسجد كان ملاصقا للزيادة التى فى بحرىّ مسجد الأقدام، و فيه قبور بنى الثمار.

مسجد الحجر

هذا المسجد كان بحرىّ مسجد عمار بن يونس مولى المغافر، و شرقىّ قصر الزجاج من القرافة الكبرى، بنته مولاة علىّ بن يحيى بن طاهر المعروف بابن أبى الخارجىّ الموصلىّ، فى ربيع الأوّل سنة ثلاثين و أربعمائة.

مسجد القاضى يونس

هذا المسجد كان غربىّ مسجد الحجر المذكور، بناه الشيخ عدى الملك بن عثمان صاحب دار الضيافة، ثم صار بيد قاضى القضاة بمصر، الموفق كمال الدين أبى الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المعروف بجوامرد، خطيب القدس القرشىّ، و كان من الأعيان، و لم يشرب قط من ماء النيل بل من ماء الآبار، و لم يأكل قط للسلطان خبزا، و كان يروى الحديث عن جده.
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۰

مسجد الوزيرية

هذا المسجد كان بالقرافة الكبرى، و له منارة بجوار باب رباط الحجازية، و كانت الحجازية واعظة زمانها، و كانت من الخيّرات، لها القبول التام، و تدعى أمّ الخير، و كان لها من الصيت كما كان لابن الجوهرىّ، و كانت على غاية من الكرم و حسن الأخلاق و الشيم، و من مكارم أخلاقها و حسن طباعها و كياسة انطباعها ما حكاه الجوّانىّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط قال: حدّثنى الشيخ أبو الحسن بن السراج المؤذن بالجامع بمصر قال: كان قدّام الباب الأوّل من أبواب جامع مصر يباع رطب يقعد على الأرض و بين يديه اقفاص رطب من أحسن الأرطاب، فبينما الحجازية الواعظة هذه ذات يوم قد قاربت الخروج من باب الجامع، و هى فى حفدتها و جواريها، و إذا ذلك الرطاب ينادى على قفص رطب قدّامه، معاشر الناس اشتروا الطيبة الحجازية على أربعة، على أربعة. يريد على أربعة أرطال رطب بدرهم. فلما سمعته الحجازية وقفت قبل أن تخرج من باب الجامع و أنفذت إليه بعض الجوارى فصاحت به، فلما أتاها قالت له: يا أخى قولك الحجازية على أربعة مشكل، لا ترجع تنادى كذا، و هذا رباعى هدية منى لك ربح هذا القفص، و لا تناد كذا، فأخذه و قبل يدها و قال السمع و الطاعة.

مسجد ابن العكر

هذا المسجد غربىّ مسجد أبى صادق، بحضرة مسجد الأقدام، قبالة قصر الكتفى و بحذاء مسجد النارنج. بناه القاضى العادل بن العكر.

مسجد ابن كباس

هذا المسجد كان مجاور للقناطر الأطفيحية على يسار من أمّ طريق الجامع، بناه القاضى ابن كباس.

مسجد الشهمية

هذا المسجد كان شرقىّ مسجد الأقدام، و غربىّ قناطر ابن طولون، مجاورا لتربة القاضى ابن قابوس، كان يعرف بمسجد الفقاعة من الكلاع، و يعرف أيضا بمسجد شادن الفضلىّ، غلام الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات.

مسجد زنكادة

هذا المسجد كان غربىّ مسجد عمار بن يونس، بناه زنكادة المخنث بعد ما تاب فى سنة خمس و ثلاثين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۱

جامع القرافة

هذا الجامع يعرف اليوم بجامع الأولياء، و هو مسجد بنى عبد اللّه بن مانع بن مزروع، و يعرف بمسجد القبة، و قد ذكر عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب.

مسجد الأطفيحىّ

هذا المسجد كان فى البطحاء، بحرىّ مجرى جامع الفيلة إلى الشرق، مخالطا لخطط الكلاع و رعين و الأكنوع و الأكحول. و يقال له مسجد و حاطة بن سعد الأطفيحىّ، من أهل أطفيح، شيخ له سمت، و كتب الحديث فى سنة ثمان و خمسين و أربعمائة، و ما قبلها، و سمع من الحباك و هو فى طبقته، و هو رفيق الفرّاء و ابن مشرف و ابن الحطيئة و أبى صادق، و سلك طريق أهل القناعة و الزهد و العزلة كأبى العباس ابن الحطيئة و كان الأفضل الكبير شاهنشاه صاحب مصر قد لزمه، و اتخذ السعى إليه مفترضا، و الحديث معه شهوة. و غرضا لا ينقطع عنه. و كان فكه الحديث، قد وقف من أخبار الناس و الدول على القديم و الحديث، و قصده الناس لأجل حلول السلطان عنده لقضاء حوائجهم فقضاها، و صار مسجده موئلا للحاضر و البادى. و صدى لإجابة صوت النادى، و شكا الشيخ إلى الأفضل تعذر الماء و وصوله إليه، فأمر ببناء القناطر التى كانت فى عرض القرافة من المجرى الكبيرة الطولونية، فبنيت إلى المسجد الذى به الأطفيحىّ، و مضى عليها من النفقة خمسة آلاف دينار، و عمل الأطفيحىّ صهريج ماء شرقىّ المسجد، عظيما محكم الصنعة، و حمّاما و بستانا كان به نخلة سقطت بعد سنة خمسين و خمسمائة. و عمل الأفضل له مقعدا بحذاء المسجد إلى الشرق، علو زيادة فى المسجد شرقيه، و قاعة صغيرة مرخمة إذا جاء عنده جلس فيها و خلا بنفسه و اجتمع معه و حادثه، و كان هذا المقعد على هيئة المنظرة بغير ستائر، كلّ من قصد الأطفيحىّ من الكتفى يراه، و كان الأفضل لا يأخذه عنه القرار، يخرج فى أكثر الأوقات من دار الملك باكرا أو ظهرا أو عصرا بغتة، فيترجل و يدق الباب و قارا للشيخ، كما كان الصحابة رضى اللّه عنهم يقرعون أبواب النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم بظفر الإبهام و المسبحة، كما يحصب بهما الحاصب، فإن كان الشيخ يصلى لا يزال واقفا حتى يخرج من الصلاة و يقول من فيقول ولدك شاهنشاه. فيقول نعم. ثم يفتح فيصافحه الأفضل و يمرّ بيده التى لمس بها يد الشيخ على وجهه، و يدخل فيقول الشيخ: نصرك اللّه، أيدك اللّه، سدّدك اللّه، هذه الدعوات الثلاثة لا غير أبدا. فيقول الأفضل آمين، و بنى له الأفضل المصلّى ذات المحاريب الثلاثة شرقىّ المسجد إلى القبلىّ قليلا، و يعرف بمصلّى الأطفيحىّ، كان يصلّى فيه على جنائز موتى القرافة، و كان سبب اختصاص الأفضل بهذا الشيخ، أنه لما كان محاصرا نزار بن المستنصر بالإسكندرية، و ناصر الدولة أفتكين الأرمنىّ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر، و كانت أمّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۲

الأفضل إذ ذاك و هى عجوز لها سمت و وقار، تطوف كلّ يوم و فى الجمعة الجوامع و المساجد و الرباطات و الأسواق، و تستقص الأخبار، و تعلم محب ولدها الأفضل من مبغضه، و كان الأطفيحىّ قد سمع بخبرها، فجاءت يوم جمعة إلى مسجده و قالت له: يا سيدى ولدى فى العسكر مع الأفضل، اللّه يأخذ لى الحق منه، فإنى خائفة على ولدى، فادع اللّه لى أن يسلمه. فقال لها الشيخ: يا أمة اللّه أما تستحيين تدعين على سلطان اللّه فى أرضه، المجاهد عن دينه، اللّه تعالى ينصره و يظفره و يسلّمه، و يسلم ولدك، ما هو إن شاء اللّه إلّا منصور مؤيد مظفر، كأنك به و قد فتح الإسكندرية و أسر أعداءه و أتى على أحسن قضية و أجمل طوية، فلا تشغلى لك سرّا، فما يكون إلّا خيرا إن شاء اللّه تعالى، ثم إنها اجتازت بعد ذلك بالفار الصيرفىّ بالقاهرة بالسرّاجين، و هو والد الأمير عبد الكريم الآمرىّ صاحب السيف، و كان عبد الكريم قد ولى مصر بعد ذلك فى الأيام الحافظية، و كان عبد الكريم هذا له فى أيام الآمر وجاهة عظيمة و صولة، ثم افتقر.

فوقفت أمّ الأفضل على الصيرفىّ تصرف دينارا و تسمع ما يقول، لأنه كان إسماعيليا متغاليا، فقالت له: ولدى مع الأفضل؛ و ما أدرى ما خبره. فقال لها الفار المذكور، لعن اللّه المذكور الأرمنىّ الكلب العبد السوء ابن العبد السوء، مضى يقاتل مولاه و مولى الخلق، كأنك و اللّه يا عجوز برأسه جائزا من هاهنا على رمح قدّام مولاه نزار و مولاى ناصر الدولة إن شاء اللّه تعالى، و اللّه يلطف بولدك، من قال لك تخليه يمضى مع هذا الكلب المنافق، و هو لا يعرف من هى.

ثم وقفت على ابن بابان الحلبىّ و كان بزازا بسوق القاهرة فقالت له مثل ما قالت للفار الصيرفىّ ... و قال لها مثل ما قال لها. فلما أخذ الأفضل نزارا و ناصر الدولة و فتح الإسكندرية، حدّثته والدته الحديث و قالت: إن كان لك أب بعد أمير الجيوش فهذا الشيخ الأطفيحىّ. فلما خلع عليه المستعلى بالقصر و عاد إلى دار الملك بمصر، اجتاز بالبزازين يوما، فلما نظر إلى ابن بابان الحلبىّ قال: انزلوا بهذا فنزلوا به، فقال: رأسه. فضربت عنقه تحت دكانه. ثم قال لعبد على أحد مقدّمى ركابه: قف هاهنا لا يضيع له شىء إلى أن يأتى أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى دكان الفار الصيرفىّ فقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه. فضربت عنقه تحت دكانه. و قال ليوسف الأصغر أحد مقدّمى الركاب اجلس على حانوته إلى أن يأتى أهله و يتسلموا موجوده، و إياك و ماله و صندوقه، و إن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصم أخذناه و قد فعلنا به ما يردع غيره عن فعله، و ما لنا ماله، و لا فقر أهله، ثم أتى الأفضل إلى الشيخ أبى طاهر الأطفيحىّ و قرّبه و خصصه إلى أن كان من أمره مما شرحناه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۳

مسجد الزيات

هذا المسجد مجاور بيت الخوّاص غربيه. و مسجد ابن أبى الردّاد، يعرف بمسجد الأنطاكىّ، و مسجد الفاخورىّ. يعرف بمسجد البطحاء، و مسجد ابن أبى الصغير، قبلىّ مسجد بنى مانع، و هو جامع القرافة، و مسجد الشريفة بنى فى سنة إحدى و خمسمائة، و مسجد ابن أبى كامل الطرابلسىّ، كان بحارة الفرن بناه الأعز بن أبى كامل، و المعبد الذى كان على رأس العقبة التى يتوصل منها إلى الرصد، بناه أبو محمد عبد اللّه الطباخ، و يقال أنه كان بالقرافة اثنا عشر ألف مسجد.

القصر المعروف بباب ليون بالشرف: هذا القصر كان على طرف الجبل بالشرف الذى يعرف اليوم ... و جاء الفتح و هو مبنىّ بالحجارة، ثم صار فى موضعه مسجد عرف بمسجد المقس، و المقس ضيعة كانت تعرف بأمّ دنين، سميت المقس لأنّ العاشر كان يقعد بها، و صاحب المكس، فقلب فقيل المقس، و ليون اسم بلد بمصر بلغة السودان و الروم، و قد ذكر المقس عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر الجواسيق التى بالقرافة

اشارة

قال ابن سيده: الجوسق، الحصن. و قيل هو شبيه بالحصن معرّب، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانيّ النسابة فى كتاب النقط على الخطط: الجواسق بالقرافة و الجبانة كانت تسمى القصور، و كان بالقرافة قصر الكتفىّ، و قصر بنى كعب، و قصر بنى عقبة، و قصر أبى قبيل، و قصر العزيز، و قصر البغدادىّ، و قصر يشب، و قصر ابن كرامة.

جوسق بنى عبد الحكم: كان جوسقا كبيرا له حوش، و كان فى وسط القرافة بحضرة مسجد بنى سريع الذى يقال له الجامع العتيق، و هو أحد الجواسق الثلاثة، و هو جوسق عبد اللّه بن عبد الحكم الفقيه الإمام، و جدّد هذا الجوسق ابن اللهيب المغربى.

جوسق بنى غالب، و يعرف ببنى بابشاد: كان بالمغافر، بنى فى سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة، و إلى جانبه قبر الشيخ أبى الحسن طاهر بن بابشاد.

جوسق ابن ميسر: كان بجوار جوسق بنى غالب، بناه أبو عبد اللّه محمد ابن القاضى أبى الفرج هبة اللّه، و كان أبو الفرج هو الخطيب بجامع مصر، و يوم الغدير، و هو شافعىّ المذهب، و هو هبة اللّه بن الميسر. و ذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و خمسمائة، و أبو عبد اللّه هذا هو الذى كان بعد ذلك قاضى القضاة بمصر، و هو الذى حبس القياسر التى كانت فى القشاشين بمصر، و كان يحمل قدّامه المنارة الرومية النحاس ذات السواعد التى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۴

عليها الشمع ليالى الوقودات، و كان فيه كرم، سمع بأن المادرانىّ عمل فى أيامه الكعك الصغير المحشوّ بالسكر المسمى أفطن له، فأمر هو بعمل لب الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيذ المطيب بالمسك، و عمل منه فى أوّل الحال شيئا عوّض لبه لب ذهب فى صحن واحد، فمضى فيه جملة، و خطف قدّامه، تخاطفه الحاضرون. و لم يعد لعمله بل الفستق الملبس. و هو أوّل من أخرجه بمصر، و كان قد سمع فى سيرة أبى بكر المادرانىّ أنه عمل هذا الأفطن له، و جعل فى كلّ واحد خمسة دنانير، و وقف أستاذ على السماط فقال لأحد الجلساء: افطن له. و كان على السماط عدّة صحون من ذلك الجنس، لكن ما فيها ما فيه دنانير إلّا صحن واحد، فلما رمز الأستاذ لأحد الجلساء على سماط المادرانىّ بقوله افطن له، و أشار إلى الصحن، تناول الرجل منه فأصاب لك، فاعتمد له جملة، و رآه الناس و هو إذا أكل يخرج شيئا من فمه و يجمع بيده و يحط فى حجره، فتنبهوا و تزاحموا عليه. فقيل لذلك المعمول من ذلك الوقت أفطن له، و قتل هذا القاضى فى تنيس فى أيام بهرام الوزير النصرانىّ الأرمنى، سنة ست و عشرين و خمسمائة.

جوسق ابن مقشر: كان جوسقا طويلا ذا تربة إلى جانبه.

جوسق الشيخ أبى محمد: عامل ديوان الأشراف الطالبيين، و جوسق ابن عبد المحسن بخط الأكحول، و جوسق البغدادىّ الجرجراى، كان قبره إلى جانبه، خرب فى سنة عشرين و خمسمائة، و جوسق الشريف أبى إسماعيل إبراهيم بن نسيب الدولة الكلتمىّ الموسوى نقيب مصر.

جوسق المادرانىّ: هذا الجوسق لم يبق من جواسق القرافة غيره، و هو جوسق كبير جدّا على هيئة الكعبة بالقرب من مصلى خولان فى بحريه، على جانبه الممرّ من مقطع الحجارة، بناه أبو بكر محمد بن علىّ المادرانىّ فى وسط قبورهم من الجبانة، و كان الناس يجتمعون عند هذا الجوسق فى الأعياد، و يوقد جميعه فى ليلة النصف من شعبان كل سنة وقودا عظيما، و يتحلق القرّاء حوله لقراءة القرآن، فيمرّ للناس هنالك أوقات فى تلك الليلة و فى الأعياد بديعة حسنة.

جوسق حب الورقة: كان هذا الجوسق بحضرة تربة ابن طباطبا، أدركته عامرا، و قد خرب فيما خرّبه السفهاء من ترب القرافة و جواسقها، زعما منهم أن فيها خبايا، و كان أكابر أمراء المغافر و من بعدهم و من يجرى مجراهم، لكلّ منهم جوسق بالقرافة يتنزه فيه و يعبد اللّه تعالى هناك، و كان من هذه الجواسق ما تحته حوض ماء لشرب الدواب و فسقية و بستان، و كان بالقرافة عدّة قصور، و هى التى تسمى بالجواسق، لها مناظر و بساتين، إلّا أن الجواسق أكثرها بغير بساتين و لا بئر، بل مناظر مرتفعة، و يقال لها كلها قصور.

قصر القرافة: بنته السيدة تغريد أمّ العزيز بالله فى سنة ست و ستين و ثلاثمائة، على يد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۵

الحسن بن عبد العزيز الفارسىّ المحتسب، هو و الحمّام الذى كان فى غربيه، و بنت البئر و البستان المعروف بالتاج، المعروف بحصن أبى المعلوم، و بنت جامع القرافة، ثم جدّده الآمر بأحكام اللّه و بيضه فى سنة عشرين و خمسمائة، و عمل شرقىّ بابه مصطبة للصوفية، و كان مقدّمهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالمادح، و كان الآمر يجلس فى الطاق بالمنظر الذى بناه بأعلى القصر، و يرقص أهل الطريقة قدّامه، و قد ذكر هذا القصر عند ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب، و لم يزل هذا القصر إلى ربيع الآخر سنة سبع و ستين و خمسمائة.

ذكر الرباطات التى كانت بالقرافة

كان بالقرافة الكبيرة عدّة دور يقال للدار منها رباط، على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، يكون فيها العجائز و الأرامل العابدات، و كانت لها الجرايات و الفتوحات، و كان لها المقامات المشهورة من مجالس الوعظ.

رباط بنت الخوّاص: كان تجاه مسجد بيد الفقيه مجلى بن جميع بن نجا الشافعىّ، مؤلف كتاب الذخائر، و قاضى القضاة بمصر.

رباط الأشراف: كان برحبة جامع القرافة، يعرف بالقرّاء، و ببنى عبد اللّه، و بمسجد القبة، و هو شرقىّ بستان ابن نصر، بناه أبو بكر محمد بن علىّ المادرانىّ و وقفه على نساء الأشراف.

رباط الأندلس: بنته الجهة المعروفة بجهة مكنون الآمرية كما تقدّم.

رباط ابن العكارىّ: كان بحضرة مسجد بنى سريع المعروف بالجامع العتيق.

رباط الحجازية: بنته و حبسته على الحجازية، فوز جارية علىّ بن أحمد الجرجراى الوزير، هو و المسجد الذى تقدّم ذكره.

رباط رياض: كان بجوار مسجد الحاجة رياض.

ذكر المصلّيات و المحاريب التى بالقرافة

و كان فى القرافة عدّة مصلّيات و عدّة محاريب.

منها:

مصلّى الشريفة: كان بدرب القرافة بحدرة الجباسين و خطة الصدف، بناه أبو محمد عبد اللّه بن الأرسوفىّ الشامىّ التاجر، سنة سبع و سبعين و خمسمائة.

مصلّى المغافر: و هو الأندلس، جدّده ابن بركك الإخشيدىّ، ثم بنته جهة مكنون الآمرية فى سنة ست و عشرين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۶

مصلّى عقبة القرافة، يعرف بمصلّى الأندلسىّ: كان ذا مصطبة مربعة على يسرة الطالع إلى القرافة، بناه يوسف بن أحمد الأندلسىّ الأنصارىّ، فى شهر رمضان سنة خمس عشرة و خمسمائة.

مصلّى القرافة: جدّده الفقيه ابن الصباغ المالكىّ، فى سنة عشرين و خمسمائة، و كان بحضرة مسجد أبى تراب تجاه دار التبر.

مصلّى الفتح: كان ملاصقا لمسجد الفتح، بناه أبو محمد القلعىّ المغربىّ المنجم الحافظىّ.

مصلّى جهة العادل: أبى الحسن بن السلار وزير مصر.

مصلّى الأطفيحىّ: بجوار مسجد الأطفيحىّ الذى تقدّم ذكره.

مصلّى الجرجانىّ: بناه الوزير علىّ بن أحمد الجرجانىّ، و كانت بالقرافة الكبرى و الجبانة عدّة محاريب خربت كلها.

مصلّى خولان: هذه المصلّى عرفت بطائفة من العرب الذين شهدوا فتح مصر يقال لهم خولان، و هم من قبائل اليمن، و اسمه نكل بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب، و فى هذه المصلّى مشهد الأعياد، و يؤمّ الناس و يخطب لهم بها فى يوم العيد خطيب جامع عمرو بن العاص، و ليست هذه المصلّى هى التى أنشأها المسلمون عند فتح أرض مصر، و إنما كانت مصلّى العيد فى أوّل الإسلام غير هذه.

قال القضاعى: مصلّى العيد كان مصلى عمرو بن العاص مقابل اليحموم، و هو الجبل المطلّ على القاهرة. فلما ولى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح مصر، أمر بتحويله. فحوّل إلى موضعه المعروف اليوم بالمصلّى القديم عند درب السباع، ثم زاد فيه عبد اللّه بن طاهر سنة عشر و مائتين، ثم بناه أحمد بن طولون فى سنة ست و خمسين و مائتين، و اسمه باق عليه إلى اليوم.

قال الكندىّ: و لما قدم شفى الأصبحىّ إلى مصر، و أهل مصر قد اتخذوا مصلّى بحذاء ساقية أبى عون عند العسكر قال: ما لهم وضعوا مصلّاهم فى الجبل الملعون و تركوا الجبل المقدّس، يعنى المقطم. قال: فقدّموا مصلّاهم إلى موضعه الذى هو به اليوم، يعنى المصلّى القديم المذكور. و قال الكندىّ: ثم ضاق المصلّى بالناس فى إمارة عنبسة بن إسحاق الضبىّ على مصر، فى أيام المتوكل على اللّه، فأمر عنبسة بابتناء المصلّى الجديد، فابتدىء ببنائه فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربعين و مائتين، و صلّى فيه يوم النحر من هذه السنة.

و عنبسة هو آخر عربىّ ولى مصر، و آخر أمير صلّى بالناس فى المسجد، و هو المصلّى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۷

الذى بالصحراء عند الجارودىّ، ثم جدّده الحاكم و زاد فيه و جعل له قبة، و ذلك فى سنة ثلاث و أربعمائة، و كان أمراء مصر إذا خرجوا إلى صلاة العيد بالمصلّى أوقفوا جيشا فى سفح الجبل مما يلى بركة الحبش، ليراعى الناس حتى ينصرفوا من الصلاة، خوفا من البجة. فإنهم قدموا غير مرّة ركبانا على النجب حتى كبسوا الناس فى مصلاهم و قتلوا و نهبوا ثم رجعوا من حيث أتوا، فخرج عبد الحميد بن عبد اللّه بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب غضبا للّه و للمسلمين مما أصابهم من البجة، فكمن لهم بالصعيد فى طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم فى أخذ الناس فى مصلّى العيد، فكبسهم و قتل الأعور رئيسهم بعد ما أقبلوا إلى المصلّى فى العيد، فى سنة ست و خمسين و مائتين، و أميره مصر أحمد بن طولون على النجب، و كبسوا الناس فى مصلّاهم و قتلوا و نهبوا منهم و عادوا سالمين، ثم دخل العمرىّ إلى بلاد البجة غازيا، فقتل منهم مقتلة عظيمة و ضايقهم فى بلادهم إلى أن أعطوه الجزية، و لم يكونوا أعطوا أحدا قبله الجزية، و سار فى المسلمين و أهل الذمّة سيرة حسنة، و سالم النوبة إلى أن بدأ النوبة بالغدر فى الموضع المعروف بالمريس، فمال عليهم و حاربهم و خرّب ديارهم و سبى منهم عالما كثيرا، حتى كان الرجل من أصحابه يبتاع الحاجة من الزيات و البقال بنوبىّ أو نوبية لكثرتهم معهم، فجاؤا إلى أحمد بن طولون و شكوا له من العمرىّ، فبعث إليه جيشا ليحاربه، فأوقع بالجيش و هزمهم، و كانت لهم أنباء و قصص إلى أن قتله غلامان من أصحابه و أحضرا رأسه إلى أحمد بن طولون، فأنكر فعلهما و ضرب أعناقهما و غسل الرأس و دفنه.

ذكر المساجد و المعابد التى بالجبل و الصحراء

و كان بجبل المقطم و بالصحراء التى تعرف اليوم بالقرافة الصغرى عدّة مساجد و عدّة مغاير، ينقطع العباد بها، و منها ما قد دثر و منه شىء قد بقى أثره.

مسجد التنور: هذا المسجد فى أعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل فى شرقيها، أدركته عامرا و فيه من يقيم به. قال القضاعىّ: المسجد المعروف بالتنور بالجبل، هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار عملوا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، و كذلك إذا ركب منصرفا من عين شمس. ثم بناه أحمد بن طولون مسجدا فى صفر سنة تسع و خمسين و مائتين، و وجدت فى كتاب قديم أنّ يهودا بن يعقوب أخا يوسف عليه السلام، لما دخل مع إخوته على يوسف و جرى من أمر الصواع ما جرى، تأخر عن إخوته و أقام فى

ذروة الجبل المقطم فى هذا المكان، و كان مقابلا لتنور فرعون الذى كان يوقد له فيه النار. ثم خلا ذلك الموضع إلى زمن أحمد بن طولون، فأخبر بفضل الموضع و بمقام يهودا فيه، فابتنى فيه هذا المسجد و المنارة التى فيه، و جعل فيه صهريجا فيه الماء، و جعل الإنفاق عليه مما وقفه على البيمارستان بمصر و العين التى بالمغافر و غير ذلك. و يقال أنّ تنور فرعون لم يزل فى هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۸

الموضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قوّاد أحمد بن طولون يقال له وصيف قاطرميز، فهدمه و حفر تحته، و قدّر أن تحته مالا فلم يجد فيه شيئا، و زال رسم التنور و ذهب، و أنشد أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر من أبيات لسعيد القاضى:

و تنور فرعون الذى فوق قلةعلى جبل عال على شاهق و عر

بنى مسجدا فيه يروق بناءهو يهدى به فى الليل إن ضلّ من يسرى

تخال سنا قنديله و ضياءهسهيلا إذا ما لاح فى الليل للسفر

القرقوبىّ: قال القضاعىّ المسجد المعروف بالقرقوبىّ، هو على قرنة الجبل المطل على كهف السودان، بناه أبو الحسن القرقوبىّ الشاهد، وكيل التجار بمصر، فى سنة خمس عشرة و أربعمائة، و كان فى موضعه محراب حجارة يعرف بمحراب ابن الفقاعىّ الرجل الصالح، و هو على يسار المحراب.

مسجد أمير الأمراء: رفق المستنصرىّ على قرنة الجبل البحرية المطلة على وادى مسجد موسى عليه السلام.

كهف السودان: مغار فى الجبل لا يعلم من أحدثه، و يقال أن قوما من السودان نقروه فنسب إليهم، و كان صغيرا مظلما، فبناه الأحدب الأندلسىّ القزاز، و زاد فى سفله مواضع نقرها، و بنى علوه. و يقال أنه أنفق فيه أكثر من ألف دينار، و وسع المجاز الذى يسلك منه إليه، و عمل الدرج النقر التى يصعد عليها إليه، و بدأ فى بنيانه مستهل سنة إحدى و عشرين و أربعمائة، و فرغ منه فى شعبان من هذه السنة.

العارض: هذا المكان مغارة فى الجبل، عرفت بأبى بكر محمد جدّ مسلم القارى، لأنه نقرها، ثم عمرت بأمر الحاكم بأمر اللّه، و أنشئت فيها منارة هى باقية إلى اليوم، و تحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه اللّه، و للّه در القائل:

جزبا لقرافة تحت ذيل العارضو قل السلام عليك يا ابن الفارض

و قد ذكر القضاعىّ أربع عشرة مغارة فى الجبل، منها. ما هو باق، و ليس فى ذكرها فائدة.

اللؤلؤة: هذا المكان مسجد فى سفح الجبل منها. باق إلى يومنا هذا، كان مسجدا خرابا، فبناه الحاكم بأمر اللّه و سماه اللؤلؤة، قيل كان بناؤه فى سنة ست و أربعمائة، و هو بناء حسن.

مسجد الهرعاء: فيما بين اللؤلؤة و مسجد محمود، و هو مسجد قديم يتبرّك بالصلاة فيه، و قد ذكر مسجد محمود عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب، لأنه تقام فيه الجمعة.

دكة القضاة: قال القضاعىّ: هى دكة مرتفعة عن المساجد فى الجبل، كان القضاة بمصر يخرجون إليها لنظر الأهلّة كل سنة، ثم بنى عليها مسجد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۴۹

مسجد فائق: مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، كان فى سفح الجبل مما يلى طريق مسجد موسى عليه السلام.

مسجد موسى: بناه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات.

مسجد زهرون بالصحراء: هو مسجد أبى محمد الحسن بن عمر الخولانىّ، ثم عرف بابن المبيض، و كان زهرون قيمه فنسب إليه.

مسجد الفقاعىّ: هو أبو الحسن علىّ بن الحسن بن عبد اللّه، كان أبوه فقاعيا بمصر، و هو مسجد كبير بناه كافور الإخشيدىّ، ثم جدّده و زاد فيه مسعود بن محمد صاحب الوزير أبى القاسم علىّ بن أحمد الجرجراىّ، و كان فى وسط هذا المسجد محراب مبنىّ بطوب

يقال أنه من بناء حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى المقوقس، و يقال أنه أوّل محراب اختط فى مصر، و كان أبو الحسن التميميّ قد زاد فيه ببناء قبل ذلك.

مسجد الكنز: هذا المسجد كان شرقيّ الخندق و بحريّ قبر ذى النون المصرىّ، و كان مسجدا صغيرا يعرف بالزمام، و مات قبل تمامه، فهدمه أبو طاهر محمد بن علىّ القرشىّ القرقوبىّ و وسعه و بناه، و حكى أنه لما هدمه رأى قائلا يقول فى المنام: على أذرع من هذا المسجد كنز، فاستيقظ و قال: هذا من الشيطان، فرأى هذا القائل ثلاث مرّات، فلما أصبح أمر بحفر الموضع فإذا فيه قبر، و ظهر له لوح كبير تحته ميت فى لحد كأعظم ما يكون من الناس جثة و رأسا، و أكفانه طرية لم يبل منها إلا ما يلى جمجمة الرأس، فإنه رأى شعر رأسه قد خرج من الكفن، و إذا له جمة، فراعه ما رأى و قال: هذا هو الكنز بلا شك، و أمر بإعادة اللوح و التراب كما كان، و أخرج القبر عن سائر الحيطان، و أبرزه للناس فصار يزار و يتبرّك به.

مسجد فى غربىّ الخندق: أنشأه أبو الحسن بن النجار الزيات فى سنة إحدى و أربعين و أربعمائة.

مسجد لؤلؤ الحاجب: بالقرافة الصغرى، بنى بجانبه مقبرة، و حفر عندها بئرا حتى انتهى الحفار إلى قرب الماء، فقال الحفار: إنى أجد فى البئر شيئا كأنه حجر. فقال له لؤلؤ تسبب فى قلعه، فلما قلعه فار الماء و أخرجه، و إذا هو اسطام مركب، و هو الخشبة التى تبنى عليها السفينة، و هذا يصدّق ما قاله أرسطاطاليس فى كتاب الآثار العلوية، قال: إن أهل مصر يسكنون فيما انحسر عنه البحر الأحمر، يعنى بحر الشام، و قد ذكر خبر لؤلؤ هذا عند ذكر حمام لؤلؤ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۰

مقام المؤمن: قيل أنه مؤمن آل فرعون، لأنه أقام فيه، و هذا بعيد من الصحة.

قناطر ابن طولون و بئره: هذه القناطر قائمة إلى اليوم من بئر أحمد بن طولون التى عند بركة الحبش، و تعرف هذه البئر عندنا ببئر عفصة، و لا تزال هذه القناطر إلى أثناء القرافة الكبرى، و من هناك خفيت لتهدّمها، و هى من أعظم المبانى.

قال القضاعىّ: قناطر أحمد بن طولون و بئره بظاهر المغافر، كان السبب فى بنائها هذه القناطر أن أحمد بن طولون ركب فمرّ بمسجد الأقدام وحده، و تقدّم عسكره و قد كدّه العطش، و كان فى المسجد خياط فقال: يا خياط أعندك ماء؟ فقال: نعم. فأخرج له كوزا فيه ماء و قال: اشرب و لا تمدّ، يعنى لا تشرب كثيرا، فتبسم أحمد بن طولون و شرب فمدّ فيه حتى شرب أكثره، ثم ناوله إياه و قال: يا فتى سقيتنا و قلت لا تمدّ. فقال: نعم، أعزك اللّه، موضعنا ههنا منقطع، و إنما أخيط جمعتى حتى أجمع ثمن راوية. فقال هل: و الماء عندكم ههنا معوز؟ فقال: نعم. فمضى أحمد بن طولون، فلما حصل فى داره قال:

جيؤنى بخياط فى مسجد الأقدام. فما كان بأسرع من أن جاؤوا به، فلما رآه قال: سر مع المهندسين حتى يخطّوا عندك موضع سقاية و يجروا الماء، و هذه ألف دينار خذها، و ابتدأ فى الأنفاق و أجرى على الخياط فى كلّ شهر عشرة دنانير و قال له: بشرنى ساعة يجرى الماء فيها، فجدّوا فى العمل، فلمّا جرى الماء أتاه مبشرا، فخلع عليه و حمله و اشترى له دارا يسكنها، و أجرى عليه الرزق السنىّ الدارّ، و كان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة بالنعش. فقال: هذه العين لا تعرف أبدا إلّا بأبى خليد، و إنى أريد أن أستنبط بئرا، فعدل عن العين إلى الشرق فاستنبط بئره هذه و بنى عليها القناطر، و أجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم.

و قال جامع السيرة الطولونية: و أما رغبته فى أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة واضحة، فمن ذلك بناء الجامع و البيمارستان، ثم العين التى بناها بالمغافر، و بناها بنية صحيحة و رغبة قوية حتى أنها ليس لها نظير، و لهذا اجتهد المادرانيون و أنفقوا الأموال الخطيرة ليحكوها، فأعجزهم ذلك لأنها وقعت فى موضع جيرانه كلهم محتاجون إليها، و هى مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها، و لمن كان له غلام أو جارية، و الليل للفقراء و المساكين، فهى حياة و معونة. و اتخذ لها مستغلا فيه فضل و كفاية لمصالحها، و الذى تولى لأحمد بن طولون بناء هذه العين رجل نصرانىّ حسن الهندسة حاذق بها، و إنه دخل إلى أحمد بن طولون فى عشية من العشايا فقال له: إذا فرغت مما تحتاج إليه فأعلمنى لنركب إليها فنراها، فقال: يركب الأمير إليها فى غد، فقد فرغت، و تقدّم النصرانىّ

فرأى موضعا بها يحتاج إلى قصرية جير و أربع طوبات، فبادر إلى عمل ذلك، و أقبل أحمد بن طولون يتأمّل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها، ثم أقبل إلى الموضع الذى فيه قصرية الجير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۱

فوقف بالاتفاق عليها، فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد، و لسوء ظنه قدّر أنّ ذلك لمكروه أراده به النصرانيّ، فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب و ضربه خمسمائة سوط، و أمر به إلى المطبق، و كان المسكين يتوقع من الجائزة مثل ذلك دنانير، فاتفق له اتفاق سوء. و انصرف أحمد بن طولون و أقام النصرانيّ إلى أن أراد أحمد بن طولون بناء الجامع، فقدّر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها، أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف و الضياع الخراب، فتحمل ذلك. فأنكره و لم يختره، و تعذب قلبه بالفكر فى أمره، و بلغ النصرانيّ و هو فى المطبق الخبر، فكتب إليه: أنا أبنيه لك كما تحب و تختار بلا عمد إلّا عمودى القبلة، فأحضره و قد طال شعره حتى تدلى على وجهه، فبناه.

قال: و لما بنى أحمد بن طولون هذه السقاية بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها، قال محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم الفقيه: كنت ليلة فى دارى إذ طرقت بخادم من خدّام أحمد بن طولون فقال لى: الأمير يدعوك، فركبت مذعورا مرعوبا، فعدل بى عن الطريق فقلت: أين تذهب بى، فقال: إلى الصحراء و الأمير فيها. فأيقنت بالهلاك و قلت للخادم:

اللّه اللّه فىّ، فإنى شيخ كبير ضعيف مسنّ، فتدرى ما يراد منى فارحمنى. فقال لى: احذر أن يكون لك فى السقاية قول. و سرت معه و إذا بالمشاعل فى الصحراء و أحمد بن طولون راكب على باب السقاية و بين يديه الشمع، فنزلت و سلمت عليه فلم يردّ علىّ، فقلت: أيّها الأمير إنّ الرسول أعنتنى و كدّنى و قد عطشت فيأذن لى الأمير فى الشرب، فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت: أنا آخذ لنفسى، فاستقيت و هو يرانى، و شربت و ازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت: أيها الأمير سقاك اللّه من أنهار الجنة، فلقد أرويت و أغنيت، و لا أدرى ما أصف أطيب الماء، فى حلاوته و برده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية، قال: فنظر إلىّ و قال:

أريدك لأمر و ليس هذا وقته، فاصرفوه. فصرفت. فقال لى الخادم: أصبت. فقلت:

أحسن اللّه جزاءك، فلو لاك لهلكت. و كان مبلغ النفقة على هذه العين فى بنائها و مستغلها أربعين ألف دينار، و أنشد أبو عمرو الكندىّ فى كتاب الأمراء لسعيد القاص أبياتا فى رثاء دولة بنى طولون، منها فى العين و السقاية:

و عين معين الشرب عين زكيةو عين أجاج للرّواة و للطهر

كأنّ وفود النيل فى جنباتهاتروح و تغدو بين مدّ إلى جزر

فأرك بها مستنبطا لمعينهامن الأرض من بطن عميق إلى ظهر

بناء لو أنّ الجنّ جاءت بمثلهلقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

يمرّ على أرض المغافر كلهاو شعبان و الأحمور و الحىّ من بشر

قبائل لا نوء السحاب يمدّهاو لا النيل يرويها و لا جدول يجرى

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانىّ النسابة فى كتاب الجوهر المكنون فى ذكر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۲

القبائل و البطون: سريع فخذ من الأشعريين، هم ولد سريع بن ماتع من بنى الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و هم رهط أبى قبيل التابعىّ، الذى خطته اليوم الكوم، شرقىّ قناطر سقاية أحمد بن طولون، المعروفة بعفصة الكبيرة بالقرافة.

الخندق: هذا الخندق كان بقرافة مصر، قد دثر، و على شفيره الغربىّ قبر الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و كان من النيل إلى الجبل، حفر مرّتين، مرّة فى زمن مروان بن الحكم، و مرّة فى خلافة الأمين محمد بن هارون الرشيد. ثم حفره أيضا القائد جوهر. قال

القضاعیّ: الخندق هو الخندق الذی فی شرقیّ الفسطاط فی المقابر، کان الذی أثار حفره مسیر مروان بن الحکم إلی مصر، و ذلک فی سنهٔ خمس و ستین، و علی مصر یومئذ عبد الرحمن بن عقبهٔ بن جحدم الفهریّ، من قبل عبد اللّه بن الزبیر رضی اللّه عنه. فلما بلغه مسیر مروان إلی مصر أعدّ و استعدّ و شاور الجند فی أمره، فأشاروا علیه بحفر الخندق، و الذی أشار به علیه ربیعهٔ بن حبیش الصدفیّ، فأمر ابن جحدم بإحضار المحاریث من الکور لحفر الخندق علی الفسطاط، فلم تبق قریهٔ من قری مصر إلا حضر من أهلها النفر، و کان ابتداء حفره غرّهٔ المحرّم سنهٔ خمس و ستین، فما کان شیء أسرع من فراغهم منه، حفروه فی شهر واحد. و کانت الحرب من ورائه یغدون إلیها و یروحون، فسمیت تلک الأیام أیام الخندق و التراویح، لرواحهم إلی القتال، و کانت المغافر أکثر قبائل أهل مصر عددا، کانوا عشرین ألفا، و نزل مروان عین شمس لعشر خلون من شهر ربیع الآخر سنهٔ خمس و ستین، فی اثنی عشر ألفا، و قیل فی عشرین ألفا، فخرج أهل مصر إلی مروان فحاربوه یوما واحدا بعین شمس، ثم تحاجزوا و رجع أهل مصر إلی خندقهم فتحصنوا به، و صحبتهم جیوش مروان علی باب الخندق، فاصطف أهل مصر علی الخندق، فکانوا یخرجون إلی أصحاب مروان فیقاتلونهم نوبا نوبا، و أقاموا علی ذلک عشرهٔ أیام و مروان مقیم بعین شمس، و کتب مروان إلی شیعته من أهل مصر، کریب بن أبرههٔ بن الصباح الحمیریّ، و زیاد بن حناطهٔ التجیبیّ، و عابس بن سعید المرادیّ یقول: إنکم ضمنتم لی ضمانا لم تقوموا به، و قد طالت الأیام و الممانعهٔ، فقام کریب و زیاد و عابس إلی ابن جحدم فقالوا له: أیّها الأمیر إنه لا قوام لنا بما تری، و قد رأینا أن نسعی فی الصلح بینک و بین مروان و قد مل الناس الحرب و کرهوها، و قد خفنا أن یسلمک الناس إلی مروان فیکون محکما فیک، فقال: و من لی بذلک؟ فقال کریب: أنا لک به، فسعی کریب و صاحباه فی الصلح علی أمان کتبه مروان لأهل مصر و غیرهم ممن شرب ماء النیل، و علی أن یسلم لابن جحدم من بیت المال عشرهٔ آلاف دینار، و ثلاثمائهٔ ثوب بقطریهٔ، و مائهٔ ریطهٔ، و عشرهٔ أفراس، و عشرین بغلا، و خمسین بعیرا. فتم الصلح علی ذلک، و دخل مروان الفسطاط مستهل جمادی الأولی سنهٔ خمس و ستین، فنزل دار الفلفل و دفع إلی ابن جحدم جمیع ما صالحه علیه، و سار ابن جحدم إلی الحجاز و لم یلق کلّ واحد

منهما الآخر، و تفرّق المصریون و أخذوا فی دفن قتلاهم و البکاء علیهم، فسمع مروان البکاء فقال: ما هذه النوادب؟ فقیل: علی القتلی. قال: لا أسمع نائحهٔ تنوح إلّا أحللت بمن هی فی داره العقوبهٔ. فسکتن عند ذلک و دفن أهل مصر قتلاهم فیما بین الخندق و المقطم، و هی المقابر التی یسمیها المصریون مقابر الشهداء، و دفن أهل الشام قتلاهم فیما بین الخندق و منیهٔ الأصبغ، و کان قتلی أهل مصر ما بین الستمائهٔ إلی السبعمائهٔ، و قتلی أهل الشام نحو الثلاثمائهٔ، و لما برز مروان من الفسطاط سائرا إلی الشام، سمع وجبهٔ النساء یندبن قتلاهنّ، قال: ویحهن ما هذا؟ قالوا: النساء علی مقابرهنّ یندبن قتلاهنّ، فعرّج علیهنّ، فأمر بالانصراف. قالوا: کذا هنّ کلّ یوم. قال: فامنعوهنّ إلّا من سبب، و خرج مروان من مصر إلی الشام لهلال رجب سنهٔ خمس و ستین، و کان مقامه بالفسطاط شهرین، و استخلف ابنه عبد العزیز علی مصر، و ضم إلیه بشر بن مروان، و کان حدثا، ثم ولی عبد الملک بشرا بعد ذلک البصرهٔ، قال: ثم دثر هذا الخندق إلی أیام خلع الأمین بمصر و بیعهٔ المأمون، و ولی البلد عباد بن محمد بن حبان مولی کندهٔ من قبل المأمون، فکتب الأمین بمصر إلی أهل الحوفین فی القیام ببیعته و قتال: عباد و أهل مصر. فتجمع أهل الحوف لذلک و استعدّوا، و بلغ أهل مصر فأشاروا علی عباد بحفر الخندق، فحفروا خندقا من النیل إلی الجبل و احتفروا هذا الخندق العتیق، فکان القتال علیه أیاما متفرّقهٔ إلی أن قتل الأمین و تمت بیعهٔ المأمون، ثم لم یحفر بعد ذلک إلی یومنا هذا.

و ذکر ابن زولاق أن القائد جوهرا لما اختط القاهرهٔ و کثر الإرجاف بمسیر القرامطهٔ إلی مصر، حفر خندق السریّ بن الحکم بباب مدینهٔ مصر، و عمل علیه بابا فی ذی القعدهٔ سنهٔ ستین و ثلاثمائهٔ، و حفر خندقا فی وسط مقبرهٔ مصر، و هو الخندق الذی حفره ابن جحدم، ابتدأ حفره من برکهٔ الحبش حتی وصله بخندق عبد الرحمن بن جحدم، حتی بلغ به قبر محمد بن إدریس الشافعیّ، ثم حفر من الجبل إلی أن وصل الخندق ابن جحدم وسط المقابر، و بدأ به یوم السبت التاسع من شوّال سنهٔ إحدی و ستین و ثلاثمائهٔ، و فرغ

منه فی مدّة یسیرة.

القباب السبع: هذه القباب بآخر القرافة الکبری مما یلی مدینة مصر. قال ابن سعید فی کتاب المغرب: و القباب السبع المشهورة بظاهر الفسطاط، هی مشاهد علی سبعة من بنی المغربیّ قتلهم الخلیفة الحاکم بعد فرار الوزیر أبی القاسم الحسین بن علیّ بن المغربیّ إلی أبی الفتوح حسن بن جعفر بمکة، و فی ذلک یقول أبو القاسم بن المغربیّ:

إذا شئت أن ترنو إلی الطّف باکیافدونک فانظر، نحو أرض المقطّم

تجد من رجال المغربیّ عصابةمضمّخة الأجسام من حلل الدّم

فکم ترکوا محراب آی معطّلو کم ترکوا من سورة لم تختم

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۳۵۴

و قد ذکرت أخبار بنی المغربیّ عند ذکر بساتین الوزیر من برکة الحبش، و یتعلق بهذا الموضع من خبرهم أن أبا الحسن علیّ بن الحسین بن علیّ بن محمد بن المغربیّ، لما خرج من بغداد و صار إلی مصر فی أیام العزیز بالله بن المعز لدین اللّه فی سنة إحدی و ثمانین و ثلاثمائة رتب له فی کلّ سنة ستة آلاف دینار، و صار من شیوخ الدولة. فقال یوما لمؤدّب ولده أبی القاسم حسین، و هو علیّ بن منصور بن طالب، المعروف بأبی الحسن دوخلة بن القادح سرّا: أنا أخاف همة ابنی أبی القاسم أن تنزو به إلی أن یوردنا مورد الأصدر عنه، فإن کانت الأنفاس مما تحفظ و تکتب فاکتبها و احفظها و طالعنی بها. فقال أبو القاسم فی بعض الأیام لمؤدّبه هذا: إلی متی نرضی بالخمول الذی نحن فیه؟ فقال له: و أیّ خمول هذا، تأخذون من مولانا فی کل سنة ستة آلاف دینار، و أبوکم من شیوخ الدولة؟ فقال: أرید أن تصار إلی أبوابنا الکتائب و المواکب و المقانب، و لا أرضی بأن یجری علینا کالولدان و النسوان، فأعاد ذلک علی أبیه فقال: ما أخوفنی أن یخضب أبو القاسم هذه من هذه، و قبض علی لحیته و هامته، و علم ذلک أبو القاسم فصارت بینه و بین مؤدّبه وحشة، و کان ذلک فی خلافة الحاکم بأمر اللّه منصور بن العزیز، و تحدّث القائد أبی عبد اللّه الحسین بن جوهر، و کان الحاکم قد أکثر من قتل رؤساء دولته، و صار یبعث إلی القائد کلما قتل رئیسا برأسه و یقول: هذا عدوّی و عدوّک، فقبض علی أبی الحسن علیّ بن الحسین المغربیّ والد الوزیر أبی القاسم الحسین، و علی أخیه أبی عبد اللّه محمد بن الحسین، و علی محسن و محمد أخوی الوزیر المذکور، لثلاث خلون من ذی القعدة سنة أربعمائة، و فرّ الوزیر أبو القاسم الحسین بن المغربیّ من مصر فی زیّ حمّال، للیال من ذی القعدة، و لحق بحسان بن الجرّاح، و کان من أمره ما کان.

ذکر الأحواض و الآبار التی بالقرافة

حوض القرافة: أمر ببنائه السیدة ست الملک، عمّة الحاکم بأمر اللّه، ابنة المعز لدین اللّه، فی شعبان سنة ست و ستین و ثلاثمائة و اختلّ فی أیام العادل أبی الحسن بن السلار وزیر مصر فی سنة ست و أربعین و خمسمائة، فأمر بعمارته، ثم انشق فی سنة ثمانین و خمسمائة، فجدّده القاضی السعید ثقة الثقات ذو الرّیاستین، أبو الحسن علیّ بن عثمان بن یوسف بن إبراهیم بن یوسف بن أحمد بن یعقوب بن مسلم بن منبه، أحد بنی عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبی ربیعة بن المغیرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم المخزومیّ، صاحب النظر فی دیوان مصر، و مصنف کتاب المنهاج فی أحکام الخراج. و هو کتاب جلیل الفائدة، و لم تزل آثار هذا القاضی حمیدة و مقاصده سدیدة، و عنده نخوة قرشیة، و مروءة و عصبیة، و هو و إن طاب أصولا، فقد زکا فروعا، و إن تفرّقت فی سواه فضائل فقد جمعها اللّه فیه جمیعا، و لم یزل مذ کان یسعی فی الأمانة علی صراط مستقیم، آخذا بقوله تعالی أخبارا عن

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۴، ص: ۳۵۵

الکریم ابن الکریم اجعلنی علی خزائن الأرض إنی حفیظ علیم.

الحوض بجوار قصر القرافة: فی ظهر الحمّام العزیزی بحضرة فرن القرافة، أمرت ببنائه أمّ الخلیفة الظاهر لإعزاز دین اللّه، و اسمها

السيدة رصد، على يد وكيلها الشريف المحدّث أبى إبراهيم أحمد بن القاسم بن الميمون بن حمزة الحسينىّ العبدلىّ شيخ الفرّاء، و ابن الخطاب و الفلكىّ.

حوض بحضرة الأشعوب: و هو قصر بنى عقيب.

حوض فى داخل قصر أبى المعلوم: مجاور للبئر الكبيرة ذات الدواليب، بناه المحتسب الفارسىّ مع عمارة البئر و الميضأة فى أيام السيدة أمّ العزيز، و يقال أن الحوض و البئر من بناء المادرانىّ، و إنما جدّدته عمة الحاكم.

حوض: بقصر بنى كعب و بجانبه بئر، أنشأه الحاجب لؤلؤ، و هو من حقوق قصر بنى كعب، و قد خربت هذه الأحواض و دثرت.

ذكر الآبار التى ببركة الحبش و القرافة

بئر أبى سلامة: و تعرف ببئر الغنم، و هى قبلىّ النوبية، و موضعها أحسن موضع فى البركة، و هى التى عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله:

للّه يومى ببركة الحبش و الأفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

و نحن فى روضة مفوّفة دبج بالنور عطفها و وشى

قد نسجتها يد الغمام لنافنحن من نسجها على فرش

و أثقل الناس كلهم رجل دعاه داعى الهوى فلم يطش

فعاطنى الراح إنّ تاركهامن سورة الهمّ غير منتعش

و اسقنى بالكبار مترعةفهنّ أشفى لشدّة العطش

بئر غربىّ دير مرحنا و بستان العبيدىّ: و دير مرحنا يعرف اليوم فى زماننا بدير الطين، و هو عامر بالنصارى.

بئر الدرج: شرقىّ بساتين الوزير، لها درج ينزل به إليها، عملها الحاكم بأمر اللّه، و شرقيها قبور النصارى، و بعدهم إلى جهة الجبل قبور اليهود، و البستان المجاور لعفصة الصغرى أوّل بركة الحبش على لسان الجبل الخارج إلى البركة، مجاورة لبئر النعش و بئر السقايين، و هى المعروفة ببئر أبى موسى خليد، و قد صار هذا البستان إلى المهذب بن الوزير.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۶

بئر الزقاق: شرقىّ بئر عفصة الصغرى، و الزقاق معروف إذ ذاك فى الجبل، و فى أوّله بئر مربعة كان يسقى منها البقر و الغنم.

ذكر السبعة التى تزار بالقرافة

اعلم أن زيارة القرافة كانت أوّلا يوم الأربعاء، ثم صارت ليلة الجمعة، و أمّا زيارة يوم السبت فقيل إنها قديمة، و قيل متأخرة، و أوّل من زار يوم الأربعاء و ابتدأ بالزيارة من مشهد السيدة نفيسة، الشيخ الصالح أبو محمد عبد اللّه بن رافع بن يزحم بن رافع السارعىّ الشافعىّ المغافرىّ الزوّار، المعروف بعابد، و مولده سنة إحدى و ستين و خمسمائة، و وفاته بالهلالية خارج باب زويلة، فى ليلة الثانى و العشرين من شعبان سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة. و دفن بسفح المقطم على تربة بنى نهار، بحرىّ تربة الردينىّ. و أوّل من زار ليلة الجمعة، الشيخ الصالح المقرى أبو الحسن علىّ بن أحمد بن جوشن المعروف بابن الجباس، والد شرف الدين محمد بن علىّ بن أحمد بن الجباس، فجمع الناس و زار بهم فى ليلة الجمعة فى كلّ أسبوع، و زار معه فى بعض الليالى السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و مشى معه أكابر العلماء. و كان سبب تجرّد أبى الحسن بن الجباس و انقطاعه إلى اللّه تعالى، أنه دولب مطبخ سكّر شركة رجل، فوقف عليهما مال للديوان، فسجنا بالقصر، فقرأ ابن الجباس فى بعض الليالى سورة

الرعد، فسمعه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فقام حتى وقف عليه و سأله عن خبره، فأعلمه بأنه سجن على مبلغ كذا، فأمر بالإفراج عنه، فأبى إلّا أن يفرج عن رفيقه أيضا، فأفرج عنهما جميعا.

و اتفق أنه مرّ فى بعض ليالى الزيارة بزاوية الفخر الفارسىّ، فخرج و قال له: ما هذه البدعة؟

فى غد أبطلها. ثم دخل الزاوية و خرج بعد ساعة و أمر بردّ ابن الجباس، فلما جاءه قال: دم على ما أنت عليه، فإنى رأيت الساعة قوما فقالوا: هل تعطينا ما يعطينا ابن الجباس فى ليالى الجمع؟ فعلمت أن ذلك هو الدعاء و القراءة. و أمّا زيارة يوم السبت، فقد تقدّم أنه اختلف فيها، و حكى الموفق بن عثمان عن القضاعىّ أنه كان يحث على زيارة سبعة قبور، و أن رجلا شكا إليه ضيق حاله. و الدين. فقال له: عليك بزيارة سبعة قبور. أوّلهم: الشيخ أبو الحسن علىّ بن محمد بن سهل بن الصائغ الدينورىّ، و توفى ليلة الثلاثاء، لثلاث عشرة بقيت من شهر رجب سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة. و الثانى: عبد الصمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم البغدادىّ، صاحب الخلفاء، و توفى سنة خمس و ثلاثين و ثلاثمائة.

و الثالث: أبو إبراهيم إسماعيل بن ... المزنىّ، و توفى سنة أربع و ستين و مائتين.

و الرابع: القاضى بكار بن قتيبة، و توفى سنة سبعين و مائتين. و الخامس: القاضى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۷

المفضل بن فضالة، و توفى سنة اثنتين و خمسين و مائتين. و السادس: القاضى أبو بكر عبد الملك بن الحسن القمنىّ، و توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائة. و السابع:

أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصرىّ، و توفى سنة خمس و أربعين و مائتين.

و كانوا أوّلا يزورون بعد صلاة الصبح و هم مشاة على أقدامهم إلى أن كانت أيام شيخ الزوّار محمد العجمىّ السعودىّ، فزار راكبا فى يوم السبت بعد طلوع الشمس، لأنّ رجليه كانتا معوجتين لا يستطيع المشى عليهما، و ذلك فى أواخر سنة ثمانمائة، و توفى فى عاشر شهر رمضان سنة تسع و ثمانمائة. فجاء بعده الزائر شمس الدين محمد بن عيسى المرجوشىّ السعودىّ، و محيى الدين عبد القادر بن علاء الدين محمد بن علم الدين بن عبد الرحمن الشهير بابن عثمان، ففعلا ذلك، و مات ابن عثمان فى سابع شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فاستمرّت الزيارة على ذلك.

و قد حكى صاحب كتاب محاسن الأبرار و مجالس الأخيار سبعة غير من ذكرنا و سماهم المحققين و هم: صلة بن مؤمّل، و أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن علىّ بن جعفر الخوارزمىّ، و سالم العفيف، و أبو الفضل بن الجوهرىّ، و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الحسين، عرف بالبزار، و أبو الحسن علىّ، عرف بطير الوحش، و أبو الحسن علىّ بن صالح الأندلسىّ الكحال، و ذكر أيضا سبعة أخر و هم: عقبة بن عامر الجهنىّ، و الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إدريس الشافعىّ، و أبو بكر الدقاق، و أبو إبراهيم إسماعيل المزنىّ، و أبو العباس أحمد الجزار، و الفقيه ابن دحية، و الفقيه ابن فارس اللخمىّ، و زيارتهم يوم الجمعة بعد صلاة الصبح، و العمل عليها فى الزيارة الآن، إلّا أنهم يجتمعون طوائف، لكلّ طائفة شيخ، و يقيمون مناور كبارا و صغارا و يخرجون فى ليالى الجمع و فى كلّ سبت بكرة النهار، و فى كلّ يوم أربعاء بعد الظهر، و هم يذكرون اللّه، فيزورون. و يجتمع معهم من الرجال و النساء خلائق لا تحصى، و منهم من يعمل ميعاد وعظ، و يقال لشيخ كل طائفة الشيخ الزائر، فتمرّ لهم فى الزيارة أمور منها ما يستحسن و منها ما ينكر، و لكلّ عبد ما نوى.

فمن أشهر مزارات القرافة:

قبر الإمام أبى عبد اللّه محمد بن إدريس الشافعىّ.

رحمة اللّه و رضوانه عليه، و توفى يوم الجمعة آخر يوم من شهر رجب، سنة أربع و مائتين بفسطاط مصر، و حمل على الأعناق حتى دفن فى مقبرة بنى زهرة، أولاد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عوف الزهرىّ رضى اللّه عنه، و عرفت أيضا بتربة أولاد ابن عبد الحكم.

قال القضاعيّ: و قد جرّب الناس خير هذه التربة المباركة و القبر المبارك، و ينقل عن المزنيّ أنه قال فيه:

سقى اللّه هذا القبر من وبل مزنهمن العفو ما يغنيه عن طلل المزن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۸ لقد كان كفؤا للعداة و معقلاو ركنا لهذا الدين بل أيّما ركن

هكذا وقفت عليه، ثم رأيت بعد ذلك أن المزنيّ، رحمه اللّه، لما دفن مرّ رجل على قبره و إذا بهاتف يقول: فذكر البيتين. و قال آخر:

للّه درّ الثرى كم ضمّ من كرمبالشافعيّ حليف العلم و الأثر

يا جوهر الجوهر المكنون من مضرو من قريش و من ساداتها الأخر

لما توليت ولّى العلم مكتئباو ضرّ موتك أهل البدو و الحضر

و لآخر:

أكرم به رجلا ما مثله رجلمشارك لرسول اللّه فى نسبه

أضحى بمصر دفينا فى مقطمهانعم المقطّم و المدفون فى تربة

و مناقب الشافعيّ رحمه اللّه كثيرة، قد صنف الأئمة فيها عدّة مصنفات، و له فى تاريخى الكبير المقفى ترجمة كبيرة، و من أبدع ما حكى من مناقبه: أنّ الوزير نظام الملك أبا عليّ الحسن بن عليّ بن إسحاق، لما بنى المدرسة النظامية ببغداد فى سنة أربع و سبعين و أربعمائة، أحب أن ينقل الإمام الشافعيّ من مقبرته بمصر إلى مدرسته، و كتب إلى أمير الجيوش بدر الجماليّ وزير الإمام المستنصر باللّه معدّ يسأله فى ذلك، و جهز له هدية جليلة، فركب أمير الجيوش فى موكبه و معه أعيان الدولة و وجوه المصريين من العلماء و غيرهم، و قد اجتمع الناس لرؤيته، فلما نبش القبر شق ذلك على الناس، و ماجوا و كثر اللغط و ارتفعت الأصوات و هموا برجم أمير الجيوش و الثورة به، فسكّتهم و بعث يعلم الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بصورة الحال، فأعاد جوابه بإمضاء ما أراد نظام الملك، فقرىء كتابه بذلك على الناس عند القبر و طردت العامّة و الغوغاء من حوله، و وقع الحفر حتى انتهوا إلى اللحد، فعندما أرادوا قلع ما عليه من اللبن خرج من اللحد رائحة عطرة أسكرت من حضر فوق القبر حتى وقعوا صرعى، فما أفاقوا إلّا بعد ساعة، فاستغفروا مما كان منهم و أعادوا ردم القبر كما كان و انصرفوا، و كان يوما من الأيام المذكورة، و تزاحم الناس على قبر الشافعيّ يزورونه مدّة أربعين يوما بلياليها، حتى كان من شدّة الازدحام لا يتوصل إليه إلّا بعناء و مشقة زائدة، و كتب أمير الجيوش محضرا بما وقع و بعث به و بهدية عظيمة مع كتابه إلى نظام الملك، فقرىء هذا المحضر و الكتاب بالنظامية ببغداد، و قد اجتمع العالم على اختلاف طبقاتهم لسماع ذلك، فكان يوما مشهودا ببغداد، و كتب نظام الملك إلى عامّة بلدان المشرق من حدود الفرات إلى ما وراء النهر بذلك، و بعث مع كتبه بالمحضر و كتاب أمير الجيوش، فقرئت فى تلك الممالك بأسرها، فزاد قدر الإمام الشافعيّ عند كافة أهل الأقطار، و عامّة جميع أهل الأمصار بذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۵۹

و قد أوردت فى كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء و الأحوال و الحفدة و المتاع صلّى اللّه عليه و سلّم، نظير هذه الواقعة، وقع لضريح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و لم يزل قبر الشافعيّ يزار و يتبرّك به إلى أن كان يوم الأحد لسبع خلت من جمادى الأولى سنة ثمان و ستمائة، فانتهى بناء هذه القبة التى على ضريحه، و قد أنشأها الملك الكامل المظفر المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ظهير أمير المؤمنين ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، و بلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار مصرية، و أخرج فى وقت بنائها بعظام كثيرة من مقابر كانت هناك، و دفنت فى موضع من القرافة، و بهذه القبة أيضا قبر السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و قبر أمّه شمسة، و قيل فيها عدّة أشعار، منها قول الأديب الكاتب ضياء الدين أبى الفتح موسى بن ملهم:

مررت على قبّة الشافعيّفعاين طرفى عليها العشارى

فقلت لصحبى لا تعجبوافإنّ المراكب فوق البحار

و قال علاء الدين أبو علىّ عثمان بن إبراهيم النابلسى:

لقد أصبح الشافعىّ الإمام فينا له مذهب مذهب

و لو لم يكن بحر علم لماغدا و على قبره مركب

و قال آخر:

أتيت لقبر الشافعىّ أزوره‌تعرّضنا فلك و ما عنده بحر

فقلت تعالى اللّه تلك إشارة‌تشير بأنّ البحر قد ضمّه القبر

و قال شرف الدين أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن حماد البوصيرىّ صاحب البردة:

بقبة قبر الشافعىّ سفينةرست فى بناء محكم فوق جلمود

و مذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودى و منها

قبر الإمام الليث بن سعد: رحمه اللّه، قد اشتهر قبره عند المتأخرين، و أوّل ما عرفته من خبر هذا القبر أنه وجدت مصطبة فى آخر قباب الصدف، و كانت قباب الصدف أربعمائة قبة فيما يقال، عليها مكتوب الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصرىّ مفتى أهل مصر، كما ذكر فى كتاب هادى الراغبين فى زيارة قبور الصالحين، لأبى محمد عبد الكريم بن عبد اللّه بن عبد الكريم بن علىّ بن محمد بن علىّ بن طلحة، و فى كتاب مرشد الزوّار للموفق ابن عثمان. و ذكر الشيخ محمد الأزهرىّ فى كتابه فى الزيارة: أن أوّل من بنى عليه و حيز كبير التجار أبو زيد المصرىّ، بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۰

سنة أربعين و ستمائة، و لم يزل البناء يتزايد إلى أن جدّد الحاج سيف الدين المقدّم عليه قبته فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، قبيل سنة ثمانين و سبعمائة، ثم جدّدت فى أيام الناصر فرج بن الظاهر برقوق، على يد الشيخ أبى الخير محمد ابن الشيخ سليمان المادح، فى محرّم سنة إحدى عشرة و ثمانمائة. ثم جدّدت فى سنة اثنتين و ثلاثين و ثمانمائة على يد امرأة قدمت من دمشق فى أيام المؤيد شيخ، عرفت بمرحبا بنت إبراهيم بن عبد الرحمن، أخت عبد الباسط. و كان لها معروف و برّ، توفيت فى تاسع عشرى ذى القعدة سنة أربعين و ثمانمائة، و يجتمع بهذ القبة فى لية كلّ سبت جماعة من القرّاء، فيتلون القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختسموا ختمة كاملة عند السحر، و يقصد المبيت عندهم للتبرّك بقراءة القرآن عدّة من الناس، ثم تفاحش الجمع، و أقبل النساء و الأحداث و الغوغاء، فصار أمرا منكرا، لا ينصتون لقراءة و لا يتعظون بمواعظ، بل يحدث منهم على القبور ما لا يجوز. ثم زادوا فى التعدّى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور، و بنوا مبانى اتخذوها مراحيض و سقايات ماء، و يزعم من لا علم عنده أن هذه القراءة فى كل ليلة سبت عند قبر الليث بزعمهم قديمة من عهد الإمام الشافعىّ، و ليس ذلك بصحيح، و إنما حدثت بعد السبعمائة من سنى الهجرة، بمنام ذكر بعضهم أنه رآه، و كانوا إذ ذاك يجتمعون للقراءة عند قبر أبى بكر الأدفوىّ.

ذكر المقابر خارج باب النصر

اعلم أن المقابر التى هى الآن خارج باب النصر، إنما حدثت بعد سنة ثمانين و أربعمائة، و أوّل تربة بنيت هناك تربة أمير الجيوش بدر الجمالىّ لما مات و دفن فيها، و كان خطها يعرف برأس الطابية، قال الشريف أمين الدولة أبو جعفر محمد بن هبة اللّه العلوىّ الأفطسىّ، و قد مرّ بتربة الأفضل:

أجرى دما أجفانيه‌جدث برأس الطابيه

صدع الزمان صفاتيه ....

بال و ما بليت أياديه علىّ الباقيه

و يخارج باب النصر فى أوائل المقابر قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن جعفر ابن الحنفية، يزار و تسميه العامّة مشهد الست زينب، ثم تتابع دفن الناس موتاهم فى الجهة التى هى اليوم من بحرى مصلّى الأموات إلى نحو الريدانية، و كان ما فى شرقىّ هذه المقبرة إلى الجبل براحا واسعا يعرف بميدان القبق، و ميدان العيد، و الميدان الأسود، و هو ما بين قلعة الجبل إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر. فلما كان بعد سنة عشرين و سبعمائة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۱

ترك الملك الناصر محمد بن قلاون النزول إلى هذا الميدان و هجره، فأوّل من ابتدأ فيه بالعمارة الأمير شمس الدين قراسنقر، فاختط تربته التى تجاور اليوم تربة الصوفية، و بنى حوض ماء للسبيل، و جعل فوقه مسجدا، و هذا الحوض بجوار باب تربة الصوفية، أدركته عامرا هو و ما فوقه، و قد تهدّم و بقيت منه بقية. ثم عمر بعده نظام الدين آدم أخو الأمير سيف الدين سلار، تجاه تربة قراسنقر مدفنا و حوض ماء للسبيل و مسجدا معلقا، و تتابع الأمراء و الأجناد و سكان الحسينية فى عمارة الترب هناك، حتى انسدّت طريق الميدان، و عمروا الجوّانية أيضا، و أخذ صوفية الخانقاه الصلاحية لسعيد السعداء قطعة قدر فدّانين، و أداروا عليها سورا من حجر، و جعلوها مقبرة لمن يموت منهم، و هى باقية إلى يومنا هذا، و قد وسعوا فيها بعد سنة تسعين و سبعمائة بقطعة من تربة قراسنقر، و ما برح الناس يقصدون تربة الصوفية هذه لزيارة من فيها من الأموات، و يرغبون فى الدفن بها، إلى أن تولى مشيخة الخانقاه الشيخ شمس الدين محمد البلالىّ، فسمح لكلّ أحد أن يقبر ميته بها على مال يأخذه منه، فقبر بها كثير من أعوان الظلمة، و من لم يشكر طريقته، فصارت مجمع نسوان، و مجلس لعب.

و عمر أيضا بجوار تربة الصوفية الأمير مسعود بن خطير تربة، و عمل لها منارة من حجارة لا نظير لها فى هيئتها، و هى باقية. و عمر أيضا مجد الدين السلامىّ تربة، و عمر الأمير سيف الدين كوكاى تربة، و عمر الأمير طاجاى الدوادار على رأس القبق مقابل قبة النصر تربة، و عمر الأمير سيف الدين طشتمر الساقى على الطريق تربة، و بنى الأمراء إلى جانبه عدّة ترب، و بنى الطواشى محسن البهاء تربة عظيمة، و بنت خوند طغاى تربة تجاه تربة طشتمر الساقى، و جعلت لها وقفا. و بنى الأمير طغاى تمر النجمىّ الدوادار تربة، و جعلها خانقاه، و أنشأ بجوارها حمّاما و حوانيت، و أسكنها للصوفية و القرّاء، و بنى الأمير منكلى بغا الفخرىّ تربة، و الأمير طشتمر طلليه تربة، و الأمير أرنان تربة، و بنى كثير من الأمراء و غيرهم الترب، حتى اتصلت العمارة من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية. و ما مات الملك الناصر حتى بطل من الميدان السباق بالخيل، و منعت طريقه من كثرة العمائر، و أدركت بعد سنة ثمانين و سبعمائة عدّة عواميد من رخام منصوبة يقال لها عواميد السباق، فيما بين قبة النصر و قريب من القلعة.

و أوّل من عمر فى البراح الذى كان فيه عواميد السباق، الأمير يونس الدوادار، فى أيام الملك الظاهر، تربته الموجودة هناك. ثم عمر الأمير فجماس ابن عمّ الملك الظاهر برقوق تربة بجانب تربة يونس، و أحيط على قطعة كبيرة حائط، و قبر فيها من مات من مماليك السلطان، و قبر فيها الشيخ علاء الدين السيرامىّ شيخ الخانقاه. الظاهرية، و الشيخ المعتقد طلحة، و الشيخ المعتقد أبو بكر البجائى. فلما مرض الملك الظاهر برقوف أوصى أن يدفن تحت أرجل هؤلاء الفقراء. و أن يبنى على قبره تربة، فدفن حيث أوصى، و أخذت قطعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۲

مساحتها عشرة آلاف ذراع و جعلت خانقاه، و جعل فيها قبة على قبر السلطان و قبور الفقراء المذكورين، و تجدّد من حينئذ هناك عدّة ترب جليلة، حتى صار الميدان شوارع و أزقة، و نقل الملك الناصر فرج بن برقوق سوق الجمال و سوق الحمير من تحت القلعة إلى تجاه التربة التى عمرها على قبر أبيه، فاستمرّ ذلك أياما فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، ثم أعيدت الأسواق إلى مكانها، و كان قصده أن يبنى هناك خانا كبيرا ينزل فيه المسافرون، و يجعل بجانبه سوقا، و بنى طاحونا و حمّاما و فرنا لتعمر تلك الجهة بالناس، فمات قبل بناء الخان، و خلت الحمّام و الطاحون و الفرن بعد قتله.

ذكر كنائس اليهود

اشارة

قال اللّه عز و جل: لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً [الحج/ ۴۰] قال المفسرون: الصوامع للصابئين، و البيع للنصارى، و الصلوات كنائس اليهود، و المساجد للمسلمين. قاله ابن قتيبة: و الكنيس كلمة عبرانية معناها بالعربية الموضع الذى يجتمع فيه للصلاة، و لهم بديار مصر عدة كنائس، منها كنيسة دموة بالجيزة، و كنيسة جوجر من القرى الغربية، و بمصر الفسطاط كنيسة بخط المصاصة فى درب الكرمة، و كنيستان بخط قصر الشمع، و بالقاهرة كنيسة بالجودرية، و فى حارة زويلة خمس كنائس.

كنيسة دموه: هذه الكنيسة أعظم معبد لليهود بأرض مصر، فإنهم لا يختلفون فى أنها الموضع الذى كان يأوى إليه موسى بن عمران صلوات اللّه عليه، حين كان يبلغ رسالات اللّه عز و جلّ إلى فرعون مدّة مقامة بمصر، منذ قدم من مدين إلى أن خرج ببنى إسرائيل من مصر. و يزعم يهود أنها بنيت هذا البناء الموجود بعد خراب بيت المقدس الخراب الثانى على يد طيطش ببعض و أربعين سنة، و ذلك قبل ظهور الملة الإسلامية بما ينيف على خمسمائة سنة، و بهذه الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الكبر لا يشكون فى أنها من زمن موسى عليه السلام، و يقولون أنّ موسى عليه السلام غرس عصاه فى موضعها فأنبت اللّه هناك هذه الشجرة، و أنها لم تزل ذات أغصان نضرة، و ساق صاعد فى السماء، مع حسن استواء، و ثخن فى استقامة، إلى أن أنشأ الملك الأشرف شعبان بن حسين مدرسته تحت القلعة، فذكر له حسن هذه الشجرة، فتقدّم بقطعها لينتفع بها فى العمارة، فمضوا إلى ما أمروا به من ذلك، فأصبحت و قد تكوّرت و تعقفت و صارت شنيعة المنظر فتركوها، و استمرّت كذلك مدّة، فاتفق أن زنى يهودى بيهودية تحتها، فتهدّلت أغصانها و تحاتّ ورقها و جفت حتى لم يبق بها ورقة خضراء، و هى باقية كذلك إلى يومنا هذا و لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود

بأهاليهم إليها فى عيد الخطاب، و هو فى شهر سيوان، و يجعلون ذلك بدل حجهم إلى القدس، و قد كان لموسى عليه السلام أنباء قد قصها اللّه تعالى فى القرآن الكريم و فى التوراة، و روى أهل الكتاب و علماء الأخبار من المسلمين كثيرا منها، و سأقص عليك فى هذا الموضع منها ما فيه كفاية، إذ كان ذلك من شرط هذا الكتاب.

موسى بن عمران: و فى التوراة عمرام بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه و سلامه عليهم، أمّه يوحانذ بنت لاوى، فهى عمة عمران والد موسى، ولد بمصر فى اليوم السابع من شهر آذار سنة ثلاثين و مائة لدخول يعقوب على يوسف عليهما السلام بمصر، و كان بنو إسرائيل منذ مات لاوى بن يعقوب فى سنة أربع و تسعين لدخول يعقوب مصر فى البلاء مع القبط، و ذلك أن يوسف عليه السلام لما مات فى سنة ثمانين من قدوم يعقوب مصر، كان الملك إذ ذاك بمصر دارم بن الريان، و هو الفرعون الرابع عندهم، و تسميه القبط دريموس، فاستوزر بعده رجلا من الكهنة يقال له بلاطس، فحمله على أذى الناس و خالف ما كان عليه يوسف، و ساءت سيرة الملك حتى اغتصب كلّ امرأة جميلة بمدينة منف و غيرها من النواحى، فشق ذلك من فعله على الناس و همّوا بخلعه من الملك، فقام الوزير بلاطس فى الوساطة بينه و بين الناس و أسقط عنهم الخراج لثلاث سنين، و فرّق فيهم مالا حتى سكنوا، و اتفق أن رجلا من الإسرائيليين ضرب بعض سدنة الهياكل فأدماه، و عاب دين الكهنة، فغضب القبط و سألوا الوزير أن يخرج بنى إسرائيل من مصر، فأبى. و كان دارم الملك قد خرج إلى الصعيد، فبعث إليه يخبره بأمر الإسرائيلىّ و ما كان من القبط فى طلبهم إخراج بنى إسرائيل من مصر، فأرسل إليه أن لا يحدث فى القوم حدثا دون موافاته، فشغب القبط و أجمعوا على خلع الملك و إقامة غيره، فسار إليهم الملك و كانت بينه و بينهم حروب قتل فيها خلق كثير، ظفر فيها الملك و صلب ممن خالفه بحافتى النيل طوائف لا تحصى، و عاد إلى أكثر مما كان عليه من ابتزاز النساء و أخذ الأموال و استخدام الأشراف الوجوه من القبط و من بنى

إسرائيل، فأجمع الكلّ على ذمّه.

و اتفق أنه ركب فى النيل فهاجت به الريح و أغرقه اللّه و من معه، و لم توجد جثته إلّا عند شطنوف.

فأقام الوزير من بعده فى الملك ابنه معاديوش، و كان صبيا، و يسميه بعضهم معدان، فاستقام الأمر له و ردّ النساء اللاتى اغتصبهنّ أبوه، و هو خامس الفراعنة، فكثر بنو إسرائيل فى زمنه و لهجوا بثلب الأصنام و ذمّها، و هلك بلاطس الوزير و قام من بعده فى الوزارة كاهن يقال له أملاده، فأمر بإفراد بنى إسرائيل ناحية فى البلد، بحيث لا يختلط بهم غيرهم، فأقطعوا موضعا فى قلبىّ مدينة منف، صاروا إليه و بنوا فيه معبدا كانوا يتلون به صحف إبراهيم عليه السلام، فخطب رجل من القبط بعض نسائهم فأبوا أن ينكحوه، و قد كان هويها. فأكبر القبط فعلهم و صاروا إلى الوزير و شكوا من بنى إسرائيل و قالوا: هؤلاء قوم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۴

يعيبوننا و يرغبون عن مناكحتنا، و لا نحب أن يجاورونا ما لم يدينوا بديننا. فقال لهم الوزير: قد علمتم إكرام طوطيس الملك لجدّهم و نهر اوش من بعده، و قد علمتم بركة يوسف حتى جعلتم قبره وسط النيل فأخصب جانبا مصر بمكانه، و أمرهم بالكف عن بنى إسرائيل، فأمسكوا إلى أن احتجب معدان و قام من بعده فى الملك ابنه اكسامس الذى يسميه بعضهم كاسم ابن معدان بن الريان بن الوليد بن دومع العمليقىّ، و هو السادس من فراعنة مصر، و كان أوّلهم يقال له فرعان، فصار اسما لكلّ من تجبر و علا أمره، و طالت أيام كاسم و مات وزير أبيه، فأقام من بعده رجلا من بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس، و كان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما دهيا متصرّفا فى كل فنّ، و كانت نفسه تنازعه الملك، و يقال أنه من ولد أشمون الملك، و قيل من ولد صا. فأحبه الناس، و عمر الخراب و بنى مدنا من الجانبين، و رأى فى نجومه أنّه سيكون حدث و شدّة، و سكا القبط إليه من الإسرائيليين فقال: هم عبيدكم. فكان القبطىّ إذا أراد حاجة سخّر الإسرائيلىّ و ضربه فلا يغير عليه أحد و لا ينكر عليه ذلك. فإن ضرب الإسرائيلىّ أحدا من القبط قتل البتة، و كذلك كانت تفعل نساء القبط بالنساء الإسرائيليات، فكانت أوّل شدّة و ذلّ أصاب بنى إسرائيل و كثر ظلمهم و أذاهم من القبط، و استبدّ الوزير ظلما بأمر البلد كما كان العزيز مع نهراوش.

و توفى اكسامس الملك، فأنهم ظلمان بأنه سمّه، تركب فى سلاحه و أقام لاطس الملك مكان أبيه، و كان ابنه جريئا معجبا، فصرف ظلما بن قومس عما كان عليه من خلافته، و استخلف رجلا يقال له لاهوق من ولد صا، و أنفذ ظلما عاملا على الصعيد و سير معه جماعة من الإسرائيليين، و زاد تجبره و عتوّه، و أمر الناس جميعا أن يقوموا على أرجلهم فى مجلسه، و مدّ يده إلى الأموال و منع الناس من فضول ما بأيديهم، و قصرهم على القوت، و ابتز كثيرا من النساء و فعل أكثر مما فعله ملك تقدّمه، و استعبد بنى إسرائيل فأبغضه الخاص و العام، و كان ظلما لما صرف عن الوزارة و خرج إلى الصعيد، أراد إزالة الملك و الخروج عن طاعته، فجبى المال و امتنع من حمله، و أخذ المعادن لنفسه و همّ أن يقيم ملكا من ولد قبطرين و يدعو الناس إلى طاعته، ثم انصرف عن ذلك و دعا لنفسه، و كاتب الوجوه و الأعيان، فافترق الناس و تطاول كل واحد من أبناء الملوك إلى الملك و طمع فيه، و يقال أنّ روحانيا ظهر لظلما و قال له: إن أطعتنى قلدتك مصر زمانا طويلا، فأجابه و قرّب إليه أشياء منها غلام من بنى إسرائيل، فصار عونا له، و بلغ الملك خبر خروج ظلما عن طاعته، فوجّه إليه قائدا قلده مكانه و أمره أن يقبض على ظلما. و يبعث به إليه موثقا، فسار إليه و خرج ظلما للقائه و حاربه فظفر به و استولى على ما معه، فجهز إليه الملك قائدا آخر فهزمه و سار فى إثره و قد كثف جمعه، فبرز إليه الملك و احتربا، فكانت لظلما على الملك، فقتله و استولى على مدينة منف و نزل قصر المملكة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۵

و هذا هو فرعون موسى عليه السلام، و بعضهم يسميه الوليد بن مصعب، و قيل هو من العمالقة و هو سابع الفراعنة. و يقال أنه كان قصيرا طويل اللحية أشهل العينين صغير العين اليسرى، فى جبينه شامة، و كان أعرج، و قيل أنه كان يكنّى بأبى مرّة، و أن اسمه الوليد بن مصعب، و أنه أوّل من خضب بالسواد لما شاب، دله عليه إبليس. و قيل أنه كان من القبط، و قيل أنه دخل منف على أتان يحمل

النطرون ليبيعه، و كان الناس قد اضطربوا فى تولية الملك، فحكّموه و رضوا بتولية من يوليه عليهم، و ذلك أنهم خرجوا إلى ظاهر مدينة منف ينتظرون أوّل من يظهر عليهم ليحكّموه، فكان هو أوّل من أقبل بحماره، فلما حكّموه و رضوا بحكمه أقام نفسه ملكا عليهم، و انكر قوم هذا و قالوا: كان القوم أدهى من أن يقلدوا ملكهم من هذه سبيله فلمّا جلس فى الملك اختلف الناس عليه فبذل لهم الأموال، و قتل من خالفه بمن أطاعه حتى اعتدل أمره، و رتب المراتب و شيد الأعمال و بنى المدن و خندق الخنادق و بنى بناحية العريش حصنا، و كذلك على جميع حدود مصر، و استخلف هامان، و كان يقرب منه فى نسبه، و أثار الكنوز و صرفها فى بناء المدائن و العمارات، و حفر خليج سردوس و غيره، و بلغ الخراج بمصر فى زمنه سبعة و تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعونىّ، و هو ثلاثة مثاقيل.

و فرعون هو أوّل من عرّف العرفاء على الناس، و كان ممن صحبه من بنى إسرائيل رجل يقال له أمرى، و هو الذى يقال له بالعبرانية عمرام، و بالعربية عمران بن قاهث بن لاوى، و كان قدم مصر مع يعقوب عليه السلام فجعله حرسا لقصره يتولى حفظه، و عنده مفاتيحه و أغلاقه بالليل، و كان فرعون قد رأى فى كهانته و نجومه أنه يجرى هلاكه على يد مولود من الإسرائيليين، فمنعهم من المناكحة ثلاث سنين التى رأى أن ذلك المولود يولد فيها، فأتت امرأة أمرى إليه فى بعض الليالى بشىء قد أصلحته له فواقعها، فاشتملت منه على هارون، و ولدته لثلاث و سبعين من عمره، فى سنة سبع و عشرين و مائة لقدوم يعقوب إلى مصر، ثم أتته مرّة أخرى فحملت بموسى لثمانين سنة من عمره، و رأى فرعون فى نجومه أنه قد حمل بذلك المولود، فأمر بذبح الذكران من بنى إسرائيل، و تقدّم إلى القوابل بذلك، فولد موسى عليه السلام فى سنة ثلاثين و مائة لقدوم يعقوب إلى مصر، و فى سنة أربع و عشرين و أربعمائة لولادة إبراهيم الخليل عليه السلام، و لمضىّ ألف و خمسمائة و ست سنين من الطوفان، و كان من أمره ما قصه اللّه سبحانه من قذف أمّه له فى التابوت، فألقاه النيل إلى تحت قصر الملك، و قد أرصدت أمّه أخته على بعد لتنظر من يلتقطه، فجاءت ابنة فرعون إلى البحر مع جواريها فرأته و استخرجته من التابوت فرحمته و قالت: هذا من العبرانيين من لنا بظئر ترضعه؟ فقالت لها أخته أنا آتيك بها، و جاءت بأمّه فاسترضعتها له ابنة فرعون إلى أن فصل، فأتت به إلى ابنة فرعون و سمته موسى و تبنته، و نشأ عندها، و قيل بل أخذته امرأة فرعون و استرضعت أمّه و منعت فرعون من قتله إلى أن كبر و عظم شأنه فردّ إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۶

فرعون كثيرا من أمره و جعله من قوّاده، و كانت له سطوة، ثم وجهه لغزو اليونانيين و قد عاثوا فى أطراف مصر، فخرج فى جيش كثيف و أوقع بهم فأظفره اللّه و قتل منهم كثيرا و أسر كثيرا و عاد غانما، فسرّ ذلك فرعون و أعجب به هو و امرأته، و استولى موسى و هو غلام على كثير من أمر فرعون، فأراد فرعون أن يستخلفه، حتى قتل رجلا من أشراف القبط له قرابة من فرعون فطلبه، و ذلك أنه خرج يوما يمشى فى الناس و له صولة بما كان له فى بيت فرعون من المربى و الرضاع، فرأى عبرانيا يضرب، فقتل المصرىّ الذى ضربه و دفنه، و خرج يوما آخر فإذا برجلين من بنى إسرائيل و قد سطا أحدهما على الآخر، فزجره. فقال له: و من جعل لك هذا، أ تريد أن تقتلنى كما قتلت المصرىّ بالأمس، و نما الخبر إلى فرعون فطلبه، و ألقى اللّه فى نفسه الخوف لما يريد من كرامته، فخرج من منف ولحق بمدين عند عقبة أيلة، و بنو مدين أمّة عظيمة من بنى إبراهيم عليه السلام، كانوا ساكنين هناك، و كان فراره و له من العمر أربعون سنة، فنزل عند بيرون، و هو شعيب عليه السلام من ولد مدين بن إبراهيم، و كان من تزويجه ابنته و رعايته غنمه ما كان، فأقام هنالك تسعا و ثلاثين سنة نكح فيها صفوراء ابنة شعيب، و بنوا إسرائيل مع فرعون و أهل مصر كما قال تعالى: «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ و يستعبدونهم» .

فلما مضى من سنة الثمانين لموسى شهر و أسبوع، كلمه اللّه جلّ اسمه، و كان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان، و أمره أن يذهب إلى فرعون، و شدّ عضده بأخيه هارون و أيده بآيات منها قلب العصا حية و بياض يده من غير سوء و غير ذلك من الآيات العشر التى أحلها اللّه بفرعون و قومه، و كان مجىء الوحى من اللّه تعالى إليه و هو ابن ثمانين سنة، ثم قدم مصر فى شهر أيار و لقى

أخاه هارون، فسرّ به و أطعمه جلبانا فيه ثريد، و تنبأ هارون و هو ابن ثلاث و ثمانين سنة، و غدا به إلى فرعون و قد أوحى إليهما أن يأتيا إلى فرعون ليبعث معهما بنى إسرائيل فيستنقذ أنهم من هلكة القبط و جور الفراعنة، و يخرجون إلى الأرض المقدّسة التى وعدهم اللّه بملكها على لسان إبراهيم و إسحاق و يعقوب، فأبلغا ذلك بنى إسرائيل عن اللّه، فأمنوا بموسى و اتبعوه، ثم حضرا إلى فرعون فأقاما ببابه أياما و على كل منهما جبة صوف، و مع موسى عصاه، و هما لا يصلان إلى فرعون لشدّة حجابه، حتى دخل عليه مضحك كان يلهو به فعرّفه أن بالباب رجلين يطلبان الاذن عليك، بزعمان أن إلههما قد أرسلهما إليك، فأمر بإدخالهما. فلما دخلا عليه خاطبه موسى بما قصه اللّه فى كتابه، و أراه آية العصا و آيته فى بياض اليد، فغاظ فرعون ما قاله موسى و همّ بقتله، فمنعه اللّه سبحانه بأن رأى صورة قد أقبلت و مسحت على أعينهم فعموا، ثم أنه لما فتح عن عينيه أمر قوما آخرين بقتل موسى فأتتهم نار أحرقتهم، فازداد غيظه و قال لموسى: من أين ذلك هذه النواميس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۷

العظام؟ اسحرة بلدى علموك هذا أم تعلمته بعد خروجك من عندنا؟ فقال: هذا ناموس السماء و ليس من نواميس الأرض. قال فرعون: و من صاحبه؟ قال: صاحب البنية العليا.

قال: بل تعلمتها من بلدى، و أمر بجمع السحرة و الكهنة و أصحاب النواميس و قال:

اعرضوا علىّ أرفع أعمالكم فإنى أرى نواميس هذا الساحر رفيعة جدّا. فعرضوا عليه أعمالهم فسرّه ذلك، و أحضر موسى و قال له: لقد وقفت على سحرك و عندى من يفوق عليك.

فواعدهم يوم الزينة، و كان جماعة من البلد قد اتبعوا موسى فقتلهم فرعون، ثم إنه جمع بين موسى و بين سحرته، و كانوا مائتى ألف و أربعين ألفا يعملون من الأعمال ما يحير العقول و يأخذ القلوب، من دخن ملوّنات ترى الوجوه مقلوبة مشوّهة، منها الطويل و العريض و المقلوب جبهته إلى أسفل. و لحيته إلى فوق، و منها ما له قرون و منها ما له خرطوم و أنياب ظاهرة كأنياب الفيلة، و منها ما هو عظيم فى قدر الترس الكبير، و منها ما له آذان عظام و شبه وجوه القرود بأجساد عظيمة تبلغ السحاب و أجنحة مركبة على حيات عظيمة تطير فى الهواء، و يرجع بعضها على بعض فيبتلعه، و حيات يخرج من أفواهها نار تنتشر فى الناس، و حيات تطير و ترجع فى الهواء و تنحدر على كلّ من حضر لتبتلعه. فيتهارب الناس منها، و عصى تحلق فى الهواء فتصير حيات برؤس و شعور و أذناب تهمّ بالناس أن تنهشهم، و منها ما له قوائم، و منها تماثيل مهولة، و عملوا له دخنا تغشى أبصار الناس عن النظر فلا يرى بعضهم بعضا، و دخنا تطهر صورا كهيئة النيران فى الجوّ على دواب يصدم بعضها بعضا و يسمع لها ضجيج، و صورا خضرا على دواب خضر، و صورا سودا على دواب سود هائلة.

فلما رأى فرعون ذلك سرّه ما رأى هو و من حضره و اغتم موسى و من آمن به، حتى أوحى اللّه إليه لا تخف إنك أنت الأعلى، و ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا. و كان للحسرة ثلاثة رؤساء، و يقال بل كانوا سبعين رئيسا، فأسرّ إليهم موسى: قد رأيت ما صنعتم، فإن قهرتكم أ تؤمنون بالله؟ فقالوا نفعل. فغاظ فرعون مسارّة موسى لرؤساء السحرة، هذا و الناس يسخرون من موسى و أخيه و يهزؤون بهما، و عليهما دراعتان من صوف و قد احتز ما بليف، فلوّح موسى بعصاه حتى غابت عن الأعين و أقبلت فى هيئة تنين عظيم له عينان يتوقدان، و النار تخرج من فيه و منخريه، فلا يقع على أحد إلّا برص، و وقع من ذلك على ابنة فرعون فبرصت، و صار التنين فاغرا فاه فالتقط جميع ما عملته السحرة، و مائتى مركب كانت مملوءة حبالا و عصيا و سائر من فيها من الملاحين، و كانت فى النهر الذى يتصل بدار فرعون، و ابتلع عمدا كثيرة و حجارة قد كانت حملت إلى هناك ليبنى بها، و مرّ التنين إلى قصر فرعون ليبتلعه، و كان فرعون جالسا فى قبة على جانب القصر ليشرف على عمل السحرة، فوضع نابه تحت القصر و رفع نابه الآخر إلى أعلاه، و لهب النار يخرج من فيه حتى أحرق مواضع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۸

من القصر، فصاح فرعون مستغيثا بموسى عليه السلام، فزجر موسى التنين فانعطف ليبتلع الناس، ففرّوا كلهم من بين يديه، و انساب يريدهم. فأمسكه موسى و عاد فى يده عصا كما كان، و لم ير الناس من تلك المراكب و ما كان فيها من الحبال و العصىّ و الناس، و لا من العمد و الحجارة و ما شربه من ماء النهر حتى بانت أضه أثرا.

فعند ذلك قالت السحرة: ما هذه من عمل الآدميين، و إنّما هو من فعل جبار قدير على الأشياء. فقال لهم موسى: أوفوا بعهدكم و إلّا سلطته عليكم يبتلعكم كما ابتلع غيركم، فآمنوا بموسى و جاهروا فرعون و قالوا: هذا من فعل إله السماء و ليس هذا من فعل أهل الأرض. فقال: قد عرفت أنكم قد واطأتموه علىّ و على ملكى حسدا منكم لى، و أمر فقطعت أيديهم و أرجلهم من خلاف و صلبوا، و جاهرته امرأته و المؤمن الذى كان يكتم إيمانه، و انصرف موسى فأقام بمصر يدعو فرعون أحد عشر شهرا، من شهر أيار إلى شهر نيسان المستقبل و فرعون لا يجيبه، بل اشتدّ جوره على بنى إسرائيل و استعبادهم و اتخاذهم سخريا فى مهنة الأعمال، فأصابت فرعون و قومه الجوائح العشر، واحدة بعد أخرى، و هو يثبت لهم عند وقوعها و يفزع إلى موسى فى الدعاء بانجلائها، ثم يلح عند انكشافها، فإنها كانت عذابا من اللّه عز و جلّ، عذّب اللّه بها فرعون و قومه.

فمنها أنّ ماء مصر صار دما حتى هلك أكثر أهل مصر عطشا، و كثرت عليهم الضفادع حتى و سخت جميع مواضعهم و قذرت عليهم عيشهم و جميع مآكلهم، و كثر البعوض حتى حبس الهواء و منع النسيم، و كثر عليهم ذباب الكلاب حتى جرّح أبدانهم و نغص عليهم حياتهم، و ماتت دوابهم و أغنامهم فجأة، و عمّ الناس الجرب و الجدرىّ حتى زاد منظرهم قبحا على مناظر الجذمىّ، و نزل من السماء برد مخلوط بصواعق أهلك كل ما أدركه من الناس و الحيوانات. و ذهب بجميع الثمار، و كثر الجراد و الجنادب التى أكلت الأشجار و استقصت أصول النبات، و أظلمت الدنيا ظلمة سوداء غليظة حتى كانت من غلظها تحسّ بالأجسام، و بعد ذلك كله نزل الموت فجأة على بكور أولادهم بحيث لم يبق لأحد منهم ولد بكر إلّا فجع به فى تلك الليلة، ليكون لهم فى ذلك شغل عن بنى إسرائيل، و كانت الليلة الخامسة عشر من شهر نيسان سنة إحدى و ثمانين لموسى، فعند ذلك سارع فرعون إلى ترك بنى إسرائيل، فخرج موسى عليه السلام من ليلته هذه و معه بنو إسرائيل من عين شمس، و فى التوراة أنهم أمروا عند خروجهم أن يذبح أهل كل بيت حملا من الغنم إن كان كفايتهم، أو يشتركون مع جيرانهم إن كان أكثر، و أن ينضحوا من دمه على أبوابهم ليكون علامة، و أن يأكلوا شواه رأسه و أطرافه و معاه و لا يكسروا منه عظما، و لا يدعوا منه شيئا خارج البيوت، و ليكن خبزهم فطيرا. و ذلك فى اليوم الرابع عشر من فصل الربيع، و ليأكلوا بسرعة و أوساطهم مشدودة و خفافهم فى أرجلهم و عصيهم فى أيديهم، و يخرجوا ليلا. و ما فضل من عشائهم ذلك أحرقوه بالنار، و شرّع هذا عيدا لهم و لأعقابهم، و يسمى هذا عيد الفصح،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۶۹

و فيها أنهم أمروا أن يستعيروا منهم حليا كثيرا يخرجون به، فاستعاروه و خرجوا فى تلك الليلة بما معهم من الدواب و الأنعام، و أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، استخرجه موسى من المدفن الذى كان فيه بإلهام من اللّه تعالى، و كانت عدّتهم ستمائة ألف رجل محارب سوى النساء و الصبيان و الغرباء، و شغل القبط عنهم بالمآتم التى كانوا فيها على موتاهم، فساروا ثلاث مراحل ليلا و نهارا حتى وافوا إلى فوهة الجبروت، و تسمى نار موسى، و هو ساحل البحر بجانب الطور، فانتهى خبرهم إلى فرعون فى يومين و ليلة، فندم بعد خروجهم و جمع قومه و خرج فى كثرة كفاك عن مقدارها قول اللّه عز و جل أخبارا عن فرعون أنه قال عن بنى إسرائيل و عدّتهم ما قد ذكر على ما جاء فى التوراة، أن هؤلاء لشرذمة قليلون، و أنهم لنا لغائظون، و لحق بهم فى اليوم الحادى و العشرين من نيسان، فأقام العسكران ليلة الواحد و العشرين على شاطىء البحر، و فى صبيحة ذلك اليوم أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه و يقتحمه، ففلق اللّه لبنى إسرائيل البحر اثنى عشر طريقا، عبر كلّ سبط من طريق، و صارت المياه قائمة عن جانبهم كأمثال الجبال، و صيرقاع البحر طريقا مسلوكا لموسى و من معه، و تبعهم فرعون و جنوده، فلما خاض بنو إسرائيل إلى عدوة الطور انطبق البحر على فرعون و قومه، فأغرقهم اللّه جميعا و نجا موسى و قومه، و نزل بنو إسرائيل جميعا فى الطور و سجوا مع موسى بتسبيح طويل

قد ذكر فى التوراة، و كانت مريم أخت موسى و هارون تأخذ الدف بيديها، و نساء بنى إسرائيل فى أثرها بالدفوف و الطبول، و هى ترتل التسبيح لهنّ.

ثم ساروا فى البرّ ثلاثة أيام، و أقفرت مصر من أهلها، و مرّ موسى بقومه ففنى زادهم فى اليوم الخامس من أيار فضجوا إلى موسى، فدعا ربه فنزل لهم المنّ من السماء، فلما كان اليوم الثالث و العشرون من أيار عطشوا و ضجوا إلى موسى، فدعا ربه ففجر له عينا من الصخرة، و لم يزل يسير بهم حتى وافوا طور سينين غرّة الشهر الثالث لخروجهم من مصر، فأمر اللّه موسى بتطهير قومه و استعدادهم لسماع كلام اللّه سبحانه، فطهرهم ثلاثة أيام، فلما كان فى اليوم الثالث و هو السادس من الشهر، رفع اللّه الطور و أسكنه نوره و ظلل حواليه بالغمام و أظهر فى الآفاق الرعود و البروق و الصواعق، و أسمع القوم من كلامه عشر كلمات و هى: أنا اللّه ربكم واحد لا يكن لكم معبود من دونى، لا- تحلف باسم ربك كاذبا، اذكر يوم السبت و احفظه، برّ والديك و أكرمهما، لا- تقتل النفس، لا تزن، لا تسرق، لا- تشهد بشهادة زور، لا تحسد أخاك فيما رزقه. فصاح القوم و ارتعدوا و قالوا لموسى: لا طاقة لنا باستماع هذا الصوت العظيم، كن السفير بيننا و بين ربنا، و جميع ما يأمرنا به سمعنا و أطعنا، فأمرهم بالإنصراف و صعد موسى إلى الجبل فى اليوم الثانى عشر، فأقام فيه أربعين يوما، و دفع اللّه إليه اللوحين الجوهر المكتوب عليهما العشر كلمات و نزل فى اليوم الثانى و العشرين من شهر تموز، فرأى العجل، فارتفع الكتاب و ثقلا على يديه فألقاهما و كسرهما، ثم برد العجل

و ذرّاه على الماء و قتل من القوم من استحق القتل، و صعد إلى الجبل فى اليوم الثالث و العشرين من تموز ليشفع فى الباقين من القوم، و نزل فى اليوم الثانى من أيلول بعد الوعد من اللّه له بتعويضه لوحين آخرين مكتوبا عليهما ما كان فى اللوحين الأوّلين، فصعد إلى الجبل و أقام أربعين ليلة أخرى، و ذلك من ثالث أيلول إلى اليوم الثانى عشر من تشرين، ثم أمره اللّه بإطلاح القبة و كان طولها ثلاثين ذراعا فى عرض عشرة أذرع و ارتفاع عشرة أذرع، و لها سرادق مضروب حواليها مائة ذراع فى خمسين ذراعا و ارتفاع خمسة أذرع. فأخذ القوم فى إصلاحها و ما تزين به من الستور من الذهب و الفضة و الجواهر ستة أشهر الشتاء كله، و لما فرغ منها نصبت فى اليوم الأوّل من نيسان فى أوّل السنة الثانية، و يقال أنّ موسى عليه السلام حارب هنالك العرب، مثل طسم و جديس و العماليق و جرهم و أهل مدين حتى أفناهم جميعا، و أنه وصل إلى جبل فاران، و هو مكة، فلم ينج منهم إلّا من اعتصم بملك اليمن أو انتمى إلى بنى إسماعيل عليه السلام، و فى ثلثى الشهر الباقى من هذه السنة ظعن القوم فى بريّة الطور بعد أن نزلت عليهم التوراة، و جملة شرائعها ستمائة و ثلاث عشرة شريعة، و فى آخر الشهر الثالث حرّمت عليهم أرض الشام أن يدخلوها، و حكم اللّه تعالى عليهم أن يتيهوا فى البرّية أربعين سنة، لقولهم نخاف أهلها لأنهم جبارون، فأقاموا تسع عشرة سنة فى رقيم، و تسع عشرة سنة فى أحد، و أربعين موضعا مشروحة فى التوراة، و فى اليوم السابع من شهر أيلول من السنة الثانية خسف اللّه بقارون و بأوليائه بدعاء موسى عليه السلام عليهم لما كذبوا، و فى شهر نيسان من السنة الأربعين توفيت مريم ابنة عمران أخت موسى عليه السلام، و لها مائة و ست و عشرون سنة.

و فى شهر آب منها مات هارون عليه السلام و له مائة و ثلاث و عشرون سنة، ثم كان حرب الكنعانيين و سيحون و العوج صاحب البثنية من أرض حوران. فى الشهور التى بعد ذلك إلى شهر شباط، فلما أهلّ شباط أخذ موسى فى إعادة التوراة على القوم، و أمرهم بكتب نسختها و قراءتها و حفظ ما شاهدوه من آثاره و ما أخذوه عنه من الفقه، و كان نهاية ذلك فى اليوم السادس من آذار، و قال لهم فى اليوم السابع منه: إنى فى يومى هذا استوفيت عشرين و مائة سنة، و إنّ اللّه قد عرّفنى أنه يقبضنى فيه، و قد أمرنى أن أستخلف عليكم يوشع بن نون و معه السبعون رجلا- الذين اخترتهم قبل هذا الوقت، و معهم العازر بن هارون أخى فاسمعوا له و أطيعوا، و أنا أشهد عليكم اللّه الذى لا إله إلّا هو، و الأرض و السماوات، أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا و لا تبدّلوا شرائع التوراة بغيرها، ثم فارقهم و صعد الجبل فقبضه اللّه تعالى هناك و أخفاه، و لم يعلم أحد منهم قبره و لا شاهده، و كان بين وفاة موسى و بين الطوفان

ألف و ستمائة و ست و عشرون سنة، و ذلك في أيام منوجهر ملك الفرس، و زعم قوم أن موسى كان ألثغ، فمنهم من جعل ذلك خلقة، و منهم من زعم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۱

أنه إنما اعتراه حين قالت امرأة فرعون لفرعون لا تقتل طفلا لا يعرف الجمر من التمر.

فلما دعا له فرعون بهما جميعا تناول جمرة فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه، و ذكر محمد بن عمر الواقديّ: أن لسان موسى كانت عليه شامة فيها شعرات، و لا يدل القرآن على شيء من ذلك، فليس في قوله تعالى: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي [طه/ ۲۷] دليل على شيء من ذلك دون شيء، فأقاموا بعده ثلاثين يوما يبكون عليه إلى أن أوحى اللّه تعالى إلى يوشع بن نون بترحيلهم، فقادهم و عبر بهم الأردن في اليوم العاشر من نيسان، فوافوا أريحا، فكان منهم ما هو مذكور في مواضعه، فهذه جملة خبر موسى عليه السلام.

كنيسة جوجر: هذه الكنيسة من أجلّ كنائس اليهود، و يزعمون أنها تنسب لنبيّ اللّه إلياس عليه السلام، و أنه ولد بها و كان يتعاهدها في طول إقامته بالأرض إلى أن رفعه اللّه إليه الياس: هو فينحاس بن العازر بن هارون عليه السلام، و يقال الياسين بن ياسين عيزار بن هارون، و يقال هو إلياهو، و هي عبرانية معناها قادر أزليّ، و عرّب فقيل إلياس، و يذكر أهل العلم من بني إسرائيل أنه ولد بمصر، و خرج به أبوه العازر من مصر مع موسى عليه السلام و عمره نحو الثلاث سنين، و أنه هو الخضر الذي وعده اللّه بالحياة، و أنه لما خرج بلعام بن باعورا ليدعو على موسى، صرف اللّه لسانه حتى يدعو على نفسه و قومه، و كان من زنا بني إسرائيل بنساء الأمورانيين و أهل مواب ما كان، فغضب اللّه تعالى عليهم و أوقع فيهم الوباء، فمات منهم أربعة و عشرون ألفا إلى أن هجم فينحاس هذا على خباء فيه رجل على امرأة يزني بها، فنظمهما جميعا برمحه و خرج و هو رافعهما و شهرهما غضبا للّه، فرحمهم اللّه سبحانه و رفع عنهم الوباء، و كانت له أيضا آثار مع نبي اللّه يوشع بن نون، و لما مات يوشع قام من بعده فينحاس هذا هو و كالأب بن يوفنا، فصار فينحاس إماما و كالأب يحكم بينهم، و كانت الأحداث في بني إسرائيل، فساح إلياس و لبس المسوح و لزم القفار، و قد وعده اللّه عز و جل في التوراة بدوام السلامة، فأوّل ذلك بعضهم بأنه لا يموت، فامتدّ عمره إلى أن ملك يهوشا فاط بن أسا بن افيا بن رحبم بن سليمان بن داود عليهما السلام على سبط يهودا في بيت المقدس، و ملك أحؤب بن عمرى على الأسباط من بني إسرائيل بمدينة شمرون، المعروفة اليوم بنابلس، و ساءت سيرة أحؤب حتى زادت في القبح على جميع من مضى قبله من ملوك بني إسرائيل، و كان أشدّهم كفرا و أكثرهم ركونا للمنكر، بحيث أربى في الشرّ على أبيه و على سائر من تقدّمه، و كانت له امرأة يقال لها سيصيال ابنة أشاعل ملك صيدا، أكفر منه بالله، و أشدّ عتوّا و استكبارا، فعبدا وثن بعل الذي قال اللّه فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۲

جلّ ذكره أ تدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين اللّه ربكم و ربّ آبائكم الأوّلين، و أقاما له مذبحا بمدينة شمرون، فأرسل اللّه عز و جل إلى أحؤب عبده إلياس رسولا لينهاه عن عبادة وثن بعل، و يأمره بعبادة اللّه تعالى وحده، و ذلك قول اللّه عز و جل من قائل: وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ [الصافات/ ۱۲۳- ۱۲۶] و لما أيس من أيمانهم بالله و تركهم عبادة الوثن، أقسم في مخاطبته أحؤب أن لا يكون مطر و لا ندا، ثم تركه. فأمره اللّه سبحانه أن يذهب ناحية الأردن، فمكث هناك مختفيا، و قد منع اللّه قطر السماء حتى هلكت البهائم و غيرها، فلم يزل إلياس مقيما في استتاره إلى أن جف ما كان عنده من الماء، و في طول إقامته كان اللّه جلّ جلاله يبعث إليه بغربان تحمل له الخبز و اللحم.

فلما جف ماؤه الذي كان يشرب منه لامتناع المطر أمره اللّه أن يسير إلى بعض مدائن صيدا، فخرج حتى وافى باب المدينة، فإذا امرأة تحتطب، فسألها ماء يشربه و خبزا يأكله، فأقسمت له أن ما عندها إلّا مثل غرفة دقيق في إناء، و شيء من زيت في جرّة، و أنها تجمع

الحطب لتقتات منه هی و ابنها، فبشرها إلياس عليه السلام و قال لها لا تجزعی و افعلی ما قلت لك، و اعملی لی خبزا قليلا قبل أن تعملی لنفسك و لولدك، فإن الدقيق لا يعجز من الإناء، و لا الزيت من الجرّة حتى ينزل المطر، ففعلت ما أمرها به و أقام عندها، فلم ينقص الدقيق و لا الزيت بعد ذلك إلى أن مات ولدها و جزعت عليه، فسأل إلياس ربه تعالى فأحيى الولد، و أمره اللّه أن يسير إلى أحؤب ملك بنی إسرائيل لينزل المطر عند إخباره له بذلك، فسار إليه و قال له: أجمع بنی إسرائيل و أبناء بعال. فلما اجتمعوا قال لهم إلياس: إلى متى هذا الضلال، إن كان الرب اللّه فاعبدوه، و إن كان بعال هو اللّه فارجعوا بنا إليه، و قال:

ليقرّب كلّ منا قربانا، فأقرّب أنا للّه، و قرّبوا أنتم لبعال، فمن تقبل منه قربانه و نزلت نار من السماء فأكلته فإلهه الذی يعبد فلما رضوا بذلك أحضروا ثورين و اختاروا أحدهما و ذبحوه، و صاروا ينادون عليه يال بعال يال بعال، و إلياس يسخر بهم و يقول: لو رفعتم أصواتكم قليلا فلعلّ إلهكم نائم أو مشغول، و هم يصرخون و يجرحون أيديهم بالسكاكين، و دماءهم تسيل.

فلما أيسوا من أن تنزل النار و تأكل قربانهم، دعا إلياس القوم إلى نفسه، و أقام مذبحا و ذبح ثوره و جعله على المذبح و صبّ الماء فوقه ثلاث مرّات، و جعل حول المذبح خندقا محفورا، فلم يزل يصب الماء فوق اللحم حتى امتلأ الخندق من الماء، و قام يدعو اللّه عزّ اسمه و قال فی دعائه: اللهمّ أظهر لهذه الجماعة أنك الربّ، و أنی عبدك عامل بأمرك. فأنزل اللّه سبحانه نارا من السماء أكلت القربان و حجارة المذبح التی كان فوقها اللحم و جميع الماء الذی صبّ حوله. فسجد القوم أجمعون و قالوا نشهد أن الربّ اللّه. فقال إلياس: خذوا أبناء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۳

بعال، فأخذوا و جیء بهم فذبحهم كلهم ذبحا، و قال لأحؤب انزل و كل و اشرب، فإن المطر نازل، فنزل المطر على ما قال، و كان الجهد قد اشتدّ لانقطاع المطر مدّة ثلاث سنين و أشهر، و غزر المطر حتى لم يستطع أحؤب أن ينصرف لكثرته.

فغضبت سيصيال امرأة احؤب لقتل أبناء بعال و حلفت بآلهتها لتجعلنّ روح إلياس عوضهم، ففزع إلياس و خرج إلى المفاوز و قد اغتم غما شديدا، فأرسل اللّه إليه ملكا معه خبز و لحم و ماء، فأكل و شرب و قوّاه اللّه حتى مكث بعد هذه الأكلة أربعين يوما لا يأكل و لا يشرب، ثم جاءه الوحی بأن يمضی إلى دمشق، فسار إليها و صحب اليسع بن شابات، و يقال ابن حظور، فصار تلميذ، فخرج من أريحا و معه اليسع حتى وقف على الأردن، فنزع رداءه و لفه و ضرب به ماء الأردن فافترق الماء عن جانبيه، و صار طريقا. فقال إلياس حينئذ لليسع اسأل ما شئت قبل أن يحال بينی و بينك. فقال اليسع: أسأل أن يكون روحك فیّ مضاعفا.

فقال: لقد سألت جسيما، و لكن إن أبصرتنی إذا رفعت عنك يكون ما سألت، و إن لم تبصرنی لم يكن. و بينما هما يتحدّثان إذ ظهر لهما كالنار، فرّق بينهما و رفع إلياس إلى السماء، و اليسع ينظره. فانصرف و قام فی النبوّة مقام إلياس، و كان رفع إلياس فی زمن يهورام بن يهوشافاط، و بين وفاة موسى عليه السلام و بين آخر أيام يهورام خمسمائة و سبعون سنة، و مدّة نبوّة موسى عليه السلام أربعون سنة، فعلى هذا يكون مدّة عمر إلياس من حين ولد بمصر إلى أن رفع بالأردن إلى السماء ستمائة سنة. و بضع سنين، و الذی عليه علماء أهل الكتاب و جماعة من علماء المسلمين، أنّ إلياس حیّ لم يمت، إلّا أنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم أنه هو فينحاس كما تقدّم ذكره، و منع هذا جماعة و قالوا هما اثنان، و اللّه أعلم.

كنيسة المصاصة: هذه الكنيسة يجلّها اليهود، و هی بخط المصاصة من مدينة مصر، و يزعمون أنها رممت فی خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه، و موضعها يعرف بدرب الكرمة، و بنيت فی سنة خمس عشرة و ثلثمائة للإسكندر، و ذلك قبل الملة الإسلامية بنحو ستمائة و إحدى و عشرين سنة، و يزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلسا لنبیّ اللّه إلياس.

كنيسة الشاميين: هذه الكنيسة بخط قصر الشمع من مدينة مصر، و هی قديمة مكتوب على بابها بالخط العبرانیّ حفرا فی الخشب، أنها بنيت فی سنة ست و ثلاثين و ثلاثمائة للإسكندر، و ذلك قبل خراب بيت المقدس الخراب الثانی الذی خرّبه طيطش بنحو خمس و أربعين سنة، و قبل الهجرة بنحو ستمائة سنة، و بهذه الكنيسة نسخة من التوراة لا يختلفون فی أنها كلها بخط عزرا النبیّ الذی يقال له

بالعربية العزيز.

كنيسة العراقيين: هذه الكنيسة أيضا بخط قصر الشمع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۴

كنيسة بالجودرية: هذه الكنيسة بحارة الجودرية من القاهرة، و هى خراب منذ أحرق الخليفة الحاكم بأمر اللّه حارة الجودرية على اليهود، كما تقدّم ذكر ذلك فى الحارات فانظره.

كنيسة القرّائين: هذه الكنيسة كان يسلك إليها من تجاه باب سرّ المارستان المنصورىّ فى حدرة ينتهى إليها بحارة زويلة، و قد سدّت الخوخة التى كانت هناك، فصار لا يتوصل إليها إلّا من حارة زويلة، و هى كنيسة تختص بطائفة اليهود القرّائين.

كنيسة دار الحدرة: هذه الكنيسة بحارة زويلة فى درب يعرف الآن بدرب الرايض، و هى من كنائس ... .

كنيسة الربانيين: هذه الكنيسة بحارة زويلة بدرب يعرف الآن بدرب البنادين، يسلك منه إلى تجاه السبع قاعات، و إلى سويقة المسعودىّ و غيرها، و هى كنيسة تختص بالربانيين من اليهود.

كنيسة ابن شميخ: هذه الكنيسة بجوار المدرسة العاشورية من حارة زويلة، و هى مما يختص به طائفة القرّائين.

كنيسة السمرة: هذه الكنيسة بحارة زويلة فى خط درب ابن الكورانىّ، تختص بالسمرة، و جميع كنائس القاهرة المذكورة محدثة فى الإسلام بلا خلاف.

ذكر تاريخ اليهود و أعيادهم

قد كانت اليهود أوّلا تؤرخ بوفاة موسى عليه السلام، ثم صارت تؤرخ بتاريخ الإسكندر بن فيلبش، و شهور سنتهم اثنا عشر شهرا، و أيام السنة ثلاثمائة و أربعة و خمسون يوما. فأما الشهور فإنها تشرى، مر حشوان، كسليو، طبيث، شفط، آذر، نيس، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول. و أيام سنتهم أيام سنة القمر، و لو كانوا يستعملونها على حالها لكانت أيام سنتهم و عدد شهورهم شيئا واحدا، و لكنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى عليه السلام إلى التيه، و تخلصوا من عذاب فرعون، و ما كانوا فيه من العبودية، و ائتمروا بما أمروا به كما وصف فى السّفر الثانى من التوراة، اتفق ذلك ليلة اليوم الخامس عشر من نيس، و القمر تام الضوء، و الزمان ربيع. فأمروا بحفظ هذا اليوم كما قال فى السفر الثانى من التوراة، احفظوا هذا اليوم سنة لخلوفكم إلى الدهر فى أربعة عشر من الشهر الأوّل، و ليس معنى الشهر الأوّل هذا شهر تشرى، و لكنه عنى به شهر نيس، من أجل أنهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۵

أمروا أن يكون شهر الناسخ رأس شهورهم و يكون أوّل السنة، فقال موسى عليه السلام للشعب: اذكروا اليوم الذى خرجتم فيه من التعبد، فلا تأكلوا خميرا فى هذا اليوم فى الشهر الذى ينضر فيه الشجر. فلذلك اضطرّوا إلى استعمال سنة الشمس ليقع اليوم الرابع عشر من شهر نيس فى أوان الربيع حين تورق الأشجار و تزهو الثمار، و إلى استعمال سنة القمر ليكون جرمه فيه بدرا تام الضوء فى برج الميزان، و أحوجهم ذلك إلى إلحاق الأيام التى يتقدّم بها عن الوقت المطلوب بالشهور إذا استوفيت أيام شهر واحد، فألحقوها بها شهرا تاما سمّوه آذار الأوّل، و سموا آذار الأصل آذار الثانى، لأنه ردف سميا له و تلاه، و سموا السنة الكبسة عبورا، اشتقاقا من معبار، و هى المرأة الحبلى بالعبرانية، لأنهم شبهوا دخول الشهر الزائد فى السنة بحمل المرأة ما ليس من جملتها، و لهم فى استخراج ذلك حسابات كثيرة مذكورة فى الأزباج.

و هم فى عمل الأشهر مفترقون فرقتين، إحداهما الربانية: و استعمالهم إيّاها على وجه الحساب بمسير الشمس و القمر الوسط، سواء رؤى الهلال أو لم ير، فان الشهر عندهم هو مدّة مفروضة تمضى من لدن الاجتماع الكائن بين الشمس و القمر فى كل شهر، و ذلك أنهم كانوا وقت عودهم من الجالية ببابل إلى بيت المقدس ينصبون على رؤس الجبال دبادب، و يقيمون رقباء للفحص عن الهلال، و

ألزموهم بإيقاد النار و تدخين دخان يكون علامة لحصول الرؤية، و كانت بينهم و بين السامرة العداوة المعروفة، فذهبت السامرة و رفعوا الدخان فوق الجبل قبل الرؤية بيوم، و والوا بين ذلك شهورا، اتفق فى أوائلها أن السماء كانت متغيمة، حتى فطن لذلك من فى بيت المقدس، و رأوا الهلال غداة اليوم الرابع أو الثالث من الشهر مرتفعا عن الأفق من جهة المشرق، فعرفوا أن السامرة فتنتهم، فالتجأوا إلى أصحاب التعاليم فى ذلك الزمان ليأمنوا بما يتلقونه من حسابهم مكايد الأعداء، و اعتلوا لجواز العمل بالحساب و نيابته عن العمل بالرؤية بعلل ذكروها، فعمل أصحاب الحساب لهم الأدوار، و علّموهم استخراج الاجتماعات و رؤية الهلال، و أنكر بعض الربانية حديث القرباء و رفعهم الدخان، و زعموا أن سبب استخراج هذا الحساب هو أن علماءهم علموا أن آخر أمرهم إلى الشتات، فخافوا إذا تفرّقوا فى الأقطار و عوّلوا على الرؤية أن تختلف عليهم فى البلدان المختلفة فيتشاجروا، فلذلك استخرجوا هذه الحسبانات و اعتنى بها اليعازر بن فروح، و أمروهم بالتزامها و الرجوع إليها حيث كانوا.

و الفرقة الثانية هم الميلادية الذين يعملون مبادى الشهور من الاجتماع، و يسمّون القرّاء و الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بالنصوص دون الالتفات إلى النظر و القياس، و لم يزالوا على ذلك إلى أن قدم عاتان رأس الجالوت من بلاد المشرق فى نحو الأربعين و مائة من الهجرة إلى دار السلام بالعراق، فاستعمل الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الإسلام، و لم يبال أى أىّ يوم وقع من الأسبوع، و ترك حساب الربانيين، و كبس الشهور بأن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۶

نظر كل سنة إلى زرع الشعير بنواحى العراق و الشام فيما بين أوّل شهر نيسن إلى أن يمضى منه أربعة عشر يوما، فإن وجد باكورة تصلح للفريك و الحصاد ترك السنة بسيطة، و إن وجدها لم تصلح لذلك كبسها حينئذ، و تقدّمت المعرفة بهذه الحالة، و إنّ من أخذ برأيه يخرج لسبعة تبقى من شفط، فينظر بالشام و البقاع المشابهة له فى المزاج إلى زرع الشعير، فإن وجد السفا و هو شوك السنبل قد طلع، عدّ منه إلى الفاسح خمسين يوما، و إن لم يره طالعا كبسها بشهر، فبعضهم يردف الكبس بشفط، فيكون فى السنة شفط و شفط مرّتين، و بعضهم يردفه بآذر فيكون آذر و آذر فى السنة مرّتين، و أكثر استعمال العانانية لشفط دون آذر، كما أن الربانية تستعمل آذر دون غيره.

فمن يعتمد من الربانية عمل الشهور بالحساب يقول: إن شهر تشرى لا يكون أوّله يوم الأحد و الأربعاء، و عدّته عندهم ثلاثون يوما أبدا، و فيه عيد رأس السنة، و هو عيد البشارة بعتق الأرقاء، و هذه العيد فى أوّل يوم منه، و لهم أيضا فى اليوم العاشر منه صوم الكبور، و معناه الاستغفار، و عند الربانيين أن هذا الصوم لا يكون أبدا يوم الأحد و لا الثلاثاء و لا الجمعة، و عند من يعتمد فى الشهور الرؤية أن ابتداء هذا الصوم من غروب الشمس فى ليلة العاشر إلى غروبها من ليلة الحادى عشر، و ذلك أربع و عشرون ساعة. و الربانيون يجعلون مدّة الصوم خمسا و عشرين ساعة، إلى أن تشتبك النجوم، و من لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعا، و هم يعتقدون أن اللّه يغفر لهم فيه جميع الذنوب ما خلا الزنا بالمحصنات، و ظلم الرجل أخاه، و جحد الربوبية، و فيه أيضا عيد المظلة، و هو سبعة أيام يعيدون فى أولها و لا يخرجون من بيوتهم كما هو العمل يوم السبت و عدّة أيام المظلة إلى آخر اليوم الثانى و العشرين، تمام سبعة أيام، و اليوم الثامن يقال له عيد الاعتكاف، و هم يجلسون فى هذه الأيام السبعة التى أوّلها خامس عشر تشرى تحت ظلال سعف النخل الأخضر و أغصان الزيتون و نحوها من الأشجار التى لا- يتناثر ورقها على الأرض، و يرون أن ذلك تذكار منهم لإظلال اللّه آباءهم فى التيه بالغمام، و فيه أيضا عيد القرّائين خاصة صوم فى اليوم الرابع و العشرين منه، يعرف بصوم كدليا، و عند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثه.

و شهر مر حشوان ربما كان ثلاثين يوما، و ربما كان تسعة و عشرين يوما، و ليس فيه عيد.

و كسليو ربما كان ثلاثين يوما، و ربما كان تسعة و عشرين يوما و ليس فيه عيد، إلّا أن الربانيين يسرجون على أبوابهم ليلة الخامس و العشرين منه، و هو مدّة أيام يسمونها الحنكة، و هو أمر محدث عندهم، و ذلك أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس، و قتل من

كان فيه من بنى إسرائيل، و افتض أبكارهم، فوثب عليه أولاد كاهنهم و كانوا ثمانية فقتله

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۷

أصغرهم، و طلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلّا يسيرا، و زعوه على عدد ما يوقدونه من السرج فى كل ليلة إلى ثمان ليال، فاتخذوا هذه الأيام عيدا و سموها أيام الحنكة، و هى كلمة مأخوذة من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار أشياع ذلك الجبار، و القرّاء لا يعملون ذلك لأنهم لا يعوّلون على شىء من أمر البيت الثانى.

و شهر طبيث عدد أيامه تسعة و عشرون يوما، و فى عاشره صوم سببه أنه فى ذلك اليوم كان ابتداء محاصرة بخت نصر لمدينة بيت المقدس، و محاصرة طيطش لها أيضا فى الخراب الثانى.

و شفط أيامه أبدا ثلاثون يوما و ليس فيه عيد. و شهر آذر عند الربانيين كما تقدّم يكون مرّتين فى كلّ سنة فآذر الأوّل عدد أيامه ثلاثون يوما إن كانت السنة كبيسة، و إن كانت بسيطة فأيامه تسعة و عشرون يوما، و ليس فيه عيد عندهم. و آذر الثانى أيامه تسعة و عشرون يوما أبدا و فيه عند الربانيين صوم الفوز فى اليوم الثالث عشر منه، و الفوز فى اليوم الرابع عشر و اليوم الخامس عشر، و أما القرّاؤن فليس عندهم فى السنة شهر آذر سوى مرّة واحدة، و يجعلون صوم الفور فى ثالث عشرة و بعده إلى الخامس عشر، و هذا أيضا محدث، و ذلك أن بخت نصر لما أجلى بنى إسرائيل من بيت المقدس و خرّبه ساقهم جلاية إلى بلاد العراق، و أسكنهم فى مدينة خى التى يقال لها أصبهان، فلما ملك أزد شير بن بابك ملك الفرس، و تسمية اليهود أحشوارش، كان له وزير يسمى هيمون، و كان لليهود حينئذ حبر يقال له مردوخاى، فبلغ أزدشير أن له ابنة عمّ جميلة الصورة، فتزوّجها و حظيت عنده، و استدنى مردوخاى ابن عمها و قرّبه، فحسده الوزير هيمون و عمل على هلاكه و هلاك اليهود الذين فى مملكة أزدشير، و رتب مع نوّاب أزدشير فى سائر أعماله أن يقتلوا كلّ يهودىّ عندهم فى يوم عينه لهم، و هو الثالث عشر من آذر، فبلغ ذلك مردوخاى فأعلم ابنة عمه بما دبره الوزير و حثها على إعمال الحيلة فى تخليص قومها من الهلكة، فأعلمت أزدشير بحسد الوزير لمردوخاى على قربه من الملك و إكرامه، و ما كتب به إلى العمال من قتل اليهود، و ما زالت به تغريه على الوزير إلى أن أمر بقتله، و قتل أهله، و كتب لليهود أمانا، فاتخذ اليهود هذا اليوم من كلّ سنة عيدا و صاموه شكرا للّه تعالى، و جعلوا من بعده يومين اتخذوهما أيام فرح و سرور و لهو و مهاداة من بعضهم لبعض، و هم على ذلك إلى اليوم، و ربما صوّر بعضهم فى هذا اليوم صورة هيمون الوزير، و هم يسمونه هامان، فإذا صوّروه ألقوه بعد العبث به فى النار حتى يحترق.

و شهر نيسن عدد أيامه ثلاثون يوما أبدا، و فيه عيد الفاسح الذى يعرف اليوم عند النصارى بالفسح، و يكون فى الخامس عشر منه، و هو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير و ينظفون بيوتهم من أجل أن اللّه سبحانه خلص بنى إسرائيل من أسر فرعون فى هذه الأيام حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۸

خرجوا من مصر مع نبى اللّه موسى بن عمران عليه السلام، و تبعهم فرعون فأغرقه اللّه و من معه، و سار موسى ببنى إسرائيل إلى التيه، و لما خرجوا من مصر مع موسى كانوا يأكلون اللحم و الخبز و الفطير و هم فرحون بخلاصهم من يد فرعون، فأمروا باتخاذ الفطير و أكله فى هذه الأيام ليذكروا أنه ما منّ اللّه عليهم به من انقاذهم من العبودية، و فى آخر هذه الأيام السبعة كان غرق فرعون، و هو عندهم يوم كبير، و لا يكون أوّل هذا الشهر عند الربانيين أبدا يوم الاثنين و لا يوم الأربعاء و لا يوم الجمعة، و يكون أوّل الخمسينيات من نصفه.

و شهر أيار عدد أيامه تسعة و عشرون يوما، و فيه عيد الموقف، و هو حج الأسابيع، و هى الأسابيع التى فرضت على بنى إسرائيل فيها الفرائض، و يقال لهذا العيد فى زمننا عيد العنصرة، و عيد الخطاب، و يكون بعد عيد الفطر و فيه خوطب بنو إسرائيل فى طور سيناء، و يكون هذا العيد فى السادس منه، و فيه أيضا يوم الخميس و هو آخر الخمسينيات، و لا يكون عيد العنصرة عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء و لا يوم الخميس و لا يوم السبت. و شهر تموز أيامه تسعة و عشرون يوما، و ليس فيه عيد، لكنهم يصومون فى تاسعه لأنّ فيه

هدم سور بيت المقدس عند محاصرة بخت نصر له، و الربانيون خاصة يصومون يوم السابع عشر منه، لأنّ فيه هدم طيطش سور بيت المقدس و خرّب البيت البيت الخراب الثانى.

و شهر آب ثلاثون يوما، و فيه عيد القرّائين، صوم فى اليوم السابع و اليوم العاشر، لأنّ بيت المقدس خرب فيهما على يد بخت نصر، و فيه أيضا كان إطلاق بخت نصر النار فى مدينة القدس و فى الهيكل، و يصوم الربانيون اليوم التاسع منه، لأنّ فيه خرب البيت على يد طنطش الخراب الثانى.

و شهر أيلول تسعة و عشرون يوما أبدا، و ليس فيه عيد و اللّه تعالى أعلم.

ذكر معنى قولهم يهودى

اعلم أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلوات اللّه عليهم أجمعين، سماه اللّه إسرائيل، و معنى ذلك الذى رأسه القادر، و كان له من الولد اثنا عشر ذكرا يقال لكلّ واحد منهم سبط، و يقال لمجموعهم الأسباط، و هذه أسماؤهم روبيل، و شمعون، و لاوى، و يهوذا، و يساخر، و زبولون. و الستة أشقاء، أمّهم ليا بنت لابان بن بتويل بن ناحور أخى إبراهيم الخليل. و كان و اشار، ودان، و نفتالى، و يوسف، و بنيامين. فلما كبر هؤلاء الأسباط الاثنا عشر قدّم عليهم أبوهم يعقوب و هو إسرائيل، ابنه يهوذا، و جعله حاكما على إخوته الأحد عشر سبطا، فاستمرّ رئيسا و حاكما على إخوته إلى أن مات، فورثت أولاد يهوذا رياسة الأسباط من بعده، إلى أن أرسل اللّه تعالى موسى ابن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب إلى فرعون، بعد وفاة يوسف بن يعقوب عليهما السلام، بمائة و أربع و أربعين سنة، و هم رؤساء الأسباط. فلما نجى اللّه موسى و قومه بعد غرق فرعون و من معه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۷۹

رتّب عليه السلام بنى إسرائيل الاثنى عشر سبطا أربع فرق، و قدّم على جميعهم سبط يهوذا، فلم يزل سبط يهوذا مقدّما على سائر الأسباط أيام حياة موسى عليه السلام، و أيام حياة يوشع بن نون. فلما مات يوشع، سأل بنو إسرائيل اللّه تعالى و ابتهلوا إليه فى قبة الشمشار أن يقدّم عليهم واحدا منهم، فجاء الوحى من اللّه بتقديم عثنيال بن قناز من سبط يهوذا، فتقدّم على سائر الأسباط، و صار بنو يهوذا مقدّمين على سائر الأسباط من حينئذ إلى أن ملّك اللّه على بنى إسرائيل نبيه داود، و هو من سبط يهوذا، فورث ملك بنى إسرائيل من بعده ابنه سلمان بن داود عليهما السلام. فلما مات سليمان افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، و صار لمدينة شمرون التى يقال لها اليوم نابلس عشرة أسباط، و بقى بمدينة القدس سبطان. هما سبط يهوذا و سبط بنيامين، و كان يقال لسكان شمرون بنو إسرائيل و يقال لسكان القدس بنو يهوذا، إلى أن انقرضت دولة بنى إسرائيل من مدينة شمرون بعد مائتين و إحدى و خمسين سنة، فصاروا كلهم بالقدس تحت طاعة الملوك من بنى يهودا، إلى أن قدم بخت نصر و خرّب القدس وجلا جميع بنى إسرائيل إلى بابل، فعرفوا هناك بين الأمم ببنى يهوذا، و استمرّ هذا سمة لهم بين الأمم بعد ذلك إلى أن جاء اللّه بالإسلام، فكان يقال للواحد منهم يهوذى بذال معجمة نسبة إلى سبط يهوذا، و تلاعب العرب بذلك على عادتهم فى التلاعب بالأسماء المعجمة، و قالوها بدال مهملة، و سموا طائفة بنى إسرائيل اليهود، و بهذه اللغة نزل القرآن، و يقال أنّ أوّل من سمّى بنى إسرائيل اليهود بخت نصر، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

ذكر معتقد اليهود و كيف وقع عندهم التبديل

اعلم أن اللّه سبحانه لما أنزل التوراة على نبيه موسى عليه السلام، ضمنها شرائع الملة الموسوية، و أمر فيها أن يكتب لكلّ من يلى أمر بنى إسرائيل كتاب يتضمن أحكام الشريعة لينظر فيه. و يعمل به، و سمى هذا الكتاب بالعبرانية مشنا، و معناه استخراج الأحكام من النص الإلهىّ، و كتب موسى عليه السلام، بخط يده مشنا كأنه تفسير لما فى التوراة من الكلام الإلهىّ، فلما مات موسى عليه السلام، و

قام من بعده بأمر بنى إسرائيل يوشع بن نون، و من بعده إلى أن كانت أيام يهوياقيم ملك القدس، غزاهم بخت نصر الغزوة الأولى، و هم يكتبون لكل من ملكهم مشنا، ينقلونها من المشنا التى بخط موسى و يجعلونها باسمه، فلما جلا بخت نصر يهوياقيم الملك و معه أعيان بنى إسرائيل و كبراء بيت المقدس، و هم فى زيادة على عشرة آلاف نفس، ساروا و معهم نسخ المشنا التى كتبت لسائر ملوك بنى إسرائيل بأجمعها إلى بلاد المشرق، فلما سار بخت نصر من باب الكرّة الثانية لغزو القدس، و خرّبه، و جلا جميع من فيه و فى بلاد بنى إسرائيل من الأسباط الاثنى عشر إلى باب أقاموا بها، و بقى القدس خرابا لا ساكن فيه مدّة سبعين سنة، ثم عادوا من بابل بعد سبعين سنة و عمروا القدس، و جدّدوا بناء البيت ثانيا و معهم جميع نسخ المشنا التى خرجوا بها أوّلا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۰

فلما مضت من عمارة البيت الثانى بعد الجلاية ثلاثمائة و نيف من السنين، اختلف بنو إسرائيل فى دينهم اختلافا كثيرا، فخرج طائفة من آل داود عليه السلام من بيت المقدس و ساروا إلى الشرق، كما فعل آباؤهم أوّلا، و أخذوا معهم نسخا من المشنا التى كتبت للملوك من مشنا موسى التى بخطه، و عملوا بما فيها ببلاد الشرق، من حين خرجوا من القدس إلى أن جاء اللّه بدين الإسلام، و قدم عانان رأس الجالوت من المشرق إلى العراق فى خلافة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور، سنة ست و ثلاثين و مائة من سنى الهجرة المحمدية.

و أما الذين أقاموا بالقدس من بنى إسرائيل بعد خروج من ذكرنا إلى الشرق من آل داود، فإنهم لم يزالوا فى افتراق و اختلاف فى دينهم إلى أن غزاهم طيطش، و خرّب القدس الخراب الثانى بعد قتل يحيى بن زكريا و رفع المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، و سبى جميع من فيه و فى بلاد بنى إسرائيل بأسرهم، و غيب نسخ المشنا التى كانت عندهم، بحيث لم يبق معهم من كتب الشريعة سوى التوراة، و كتب الأنبياء، و تفرّق بنو إسرائيل من وقت تخريب طيطش بيت المقدس فى أقطار الأرض، و صاروا ذمّة إلى يومنا هذا، ثم إن رجلين ممن تأخروا إلى قبيل تخريب القدس يقال لهما شماى و هلال، نزلا مدينة طبرية و كتبا كتابا سمياه مشنا، باسم مشنا موسى عليه السلام، و ضمنا هذا المشنا الذى وضعاه أحكام الشريعة، و وافقهما على وضع ذلك عدّة من اليهود، و كان شماى و هلال فى زمن واحد، و كانا فى أواخر مدّة تخريب البيت الثانى، و كان لهلال ثمانون تلميذا، أصغرهم يوحانان بن زكاى، و أدرك يوحانان بن زكاى خراب البيت الثانى على يد طيطش، و هلال و شماى أقوالهما مذكورة فى المشنا، و هى فى ستة أسفار تشتمل على فقه التوراة، و إنما رتبها النوسىّ من ولد داود النبىّ بعد تخريب طيطش للقدس بمائة و خمسين سنة، و مات شماى و هلال و لم يكملا المشنا فأكمله رجل منهم يعرف بيهودا من ذرية هلال و حمل اليهود على العمل بما فى هذا المشنا، و حقيقته أنه يتضمن كثيرا مما كان فى مشنا النبىّ موسى عليه السلام، و كثيرا من آراء أكابرهم. فلما كان بعد وضع هذا المشنا بنحو خمسين سنة، قام طائفة من اليهود يقال لهم السنهدوين، و معنى ذلك الأكابر، و تصرّفوا فى تفسير هذا المشنا برأيهم، و عملوا عليه كتابا اسمه التلمود، أخفوا فيه كثيرا مما كان فى ذلك المشنا، و زادوا فيه أحكاما من رأيهم، و صاروا منذ وضع هذا التلمود الذى كتبوه بأيديهم و ضمنوه ما هو من رأيهم ينسبون ما فيه إلى اللّه تعالى، و لذلك ذمّهم اللّه فى القرآن الكريم بقوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [البقرة/ ۷۹] و هذا التلمود نسختان مختلفتان فى الأحكام، و العمل إلى اليوم على هذا التلمود عند فرقة الربانيين بخلاف القرّائين، فإنهم لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۱

يعتقدون العمل بما فى هذا التلمود. فلما قدم عانان رأس الجالوت إلى العراق، أنكر على اليهود عملهم بهذا التلمود، و زعم أن الذى بيده هو الحق، لأنه كتب من النسخ التى كتبت من مشنا موسى عليه السلام الذى بخطه، و الطائفة الربانيون، و من وافقهم لا يعوّلون من التوراة التى بأيديهم إلّا على ما فى هذا التلمود، و ما خلف ما فى التلمود لا يعبأون به، و لا يعوّلون عليه، كما أخبر تعالى إذ يقول حكاية عنهم: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف/ ۲۲] و من اطلع على ما بأيديهم و ما عندهم من التوراة

تبين له أنهم ليسوا على شيء، و أنهم إن يتبعون إلّا الظنّ و ما تهوى الأنفس، و لذلك لما نبغ فيهم موسى بن ميمون القرطبىّ، عوّلوا على رأيه، و عملوا بما فى كتاب الدلالة و غيره من كتبه، و هم على رأيه إلى زمننا.

ذكر فرق اليهود الآن

اعلم أن اليهود الذين قطعهم اللّه فى الأرض أمما أربع فرق، كلّ فرقة تخطّىء الطوائف الأخر، و هى طائفة الربانيين، و طائفة القرّائين، و طائفة العانانية، و طائفة السمرة. و هذا الاختلاف حدث لهم بعد تخريب بخت نصر بيت المقدس و عودهم من أرض بابل بعد الجلاية إلى القدس، و عمارة البيت ثانيا. و ذلك أنهم فى إقامتهم بالقدس أيام العمارة الثانية افترقوا فى دينهم، و صاروا شيعا. فلما ملكهم اليونان بعد الإسكندر بن فيلبش، و قام بأمرهم فى القدس هور قانوس بن شمعون بن مشيثا، و استقام أمره فسمى ملكا، و كان قبل ذلك هو و جميع من تقدّمه ممن ولى أمر اليهود فى القدس بعد عودهم من الجلاية إنما يقال له الكوهن الأكبر، فاجتمع لهور قانوس منزلة الملك و منزلة الكهونية، و اطمأنّ اليهود فى أيامه و أمنوا سائر أعدائهم من الأمم، فبطروا معيشتهم و اختلفوا فى دينهم و تعادوا بسبب الاختلاف، و كان من جملة فرقهم إذ ذاك طائفة يقال لهم الفروشيم، و معناه المعتزلة، و من مذهبهم القول بما فى التوراة على معنى ما فسره الحكماء من أسلافهم. و طائفة يقال لهم الصدوفية بفاء، نسبوا إلى كبير لهم يقال له صدوف، و مذهبهم القول بنص التوراة و ما دلّ عليه القول الإلهىّ فيها دون ما عداه من الأقوال، و طائفة يقال لهم الجسديم، و معناه الصلحاء، و مذهبهم الاشتغال بالنسك و عبادة اللّه سبحانه و الأخذ بالأفضل و الأسلم فى الدين، و كانت الصدوفية تعادى المعتزلة عداوة شديدة، و كان الملك هور قانوس أوّلا على رأى المعتزلة، و هو مذهب آبائه، ثم إنه رجع إلى مذهب الصدوفية و باين المعتزلة و عاداهم، و نادى فى سائر مملكته بمنع الناس جملة من تعلم رأى المعتزلة، و الأخذ عن أحد منهم، و تتبعهم و قتل منهم كثيرا. و كانت العامّة بأسرها مع المعتزلة، فثارت الشرور بين اليهود و اتصلت الحروب بينهم، و قتل بعضهم بعضا إلى أن خرب البيت على يد طيطش الخراب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۲

الثانى بعد رفع عيسى صلوات اللّه عليه، و تفرّق اليهود من حينئذ فى أقطار الدنيا و صاروا ذمّة، و النصارى تقتلهم حيثما ظفرت بهم إلى أن جاء اللّه بالملة الإسلامية، و هم فى تفرّقهم ثلاث فرق، الربانيون و القرّاء و السمرة.

فأما الربانية: فيقالهم بنو مشنو، و معنى مشنو الثانى، و قيل لهم ذلك لأنهم يعتبرون أمر البيت الذى بنى ثانيا بعد عودهم من الجلاية و خرّبه طيطش و ينزلونه فى الاحترام و الإكرام و التعظيم منزلة البيت الأوّل الذى ابتدأ عمارته داود و أتمه ابنه سليمان عليهما السلام، و خرّبه بخت نصر. فصار كأنه يقال لهم أصحاب الدعوة الثانية، و هذه الفرقة هى التى كانت تعمل بما فى المشنا الذى كتب بطبرية بعد تخريب طيطش القدس، و تعوّل فى أحكام الشريعة على ما فى التلمود إلى هذا الوقت الذى نحن فيه، و هى بعيدة عن العمل بالنصوص الإلهية متبعة لآراء من تقدّمها من الأحبار، و من اطلع على حقيقة دينها، تبين له أن الذى ذمّهم اللّه به فى القرآن الكريم حق لا مرية فيه، و أنه لا يصح لهم من اسم اليهودية إلّا مجرّد الانتماء فقط، لا إنهم فى الإتباع على الملة الموسوية، لا سيما منذ ظهر فيهم موسى بن ميمون القرطبىّ بعد الخمسمائة من سنى الهجرة المحمدية، فإنه ردّهم مع ذلك معطلة، فصاروا فى أصول دينهم و فروعه أبعد الناس عما جاء به أنبياء اللّه تعالى من الشرائع الإلهية.

و أما القرّاء: فإنهم بنو مقرا، و معنى مقرا الدعوة، و هم لا يعوّلون على البيت الثانى جملة، و دعوتهم إنما هى لما كان عليه العمل مدّة البيت الأوّل، و كان يقال لهم أصحاب الدعوة الأولى، و هم يحكمون نصوص التوراة و لا يلتفتون إلى قول من خالفها، و يقفون مع النص دون تقليد من سلف، و هم مع الربانيين من العداوة بحيث لا يتناكحون و لا يتجاورون و لا يدخل بعضهم كنيسة بعض، و يقال للقرّائين أيضا المبادية، لأنهم كانوا يعملون مبادى الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس و القمر، و يقال لهم أيضا الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس و التقليد.

و أما العانانية: فإنهم ينسبون إلى عانان رأس الجالوت الذى قدم من المشرق فى أيام الخليفة أبى جعفر المنصور، و معه نسخ المشنا الذى كتب من الخط الذى كتب من خط النبىّ موسى، و أنه رأى ما عليه اليهود من الربانيين و القرّائين يخالف ما معه، فتجرّد لخلافهم و طعن عليهم فى دينهم، و ازدرى بهم، و كان عظيما عندهم يرون أنه من ولد داود عليه السلام، و على طريق فاضلة من النسك على مقتضى ملتهم، بحيث يرون أنه لو ظهر فى أيام عمارة البيت لكان نبيا، فلم يقدروا على مناظرته، لما أوتى مع ما ذكرنا من تقريب الخليفة له و إكرامه، و كان مما خالف فيه اليهود استعمال الشهور برؤية الأهلة على مثل ما شرع فى الملة الإسلامية، و لم يبال فى أىّ يوم وقع من الأسبوع، و ترك حساب الربانيين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۳

و كبس الشهور و خطأهم فى العمل بذلك، و اعتمد على كشف زرع الشعير، و أجمل القول فى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، و أثبت نبوّة نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و قال: هو نبىّ أرسل إلى العرب، إلّا أن التوراة لم تنسخ، و الحق أنه أرسل إلى الناس كافة صلّى اللّه عليه و سلّم.

ذكر السمرة: اعلم أن طائفة السمرة ليسوا من بنى إسرائيل البتة، و إنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق و سكنوا بلاد الشام و تهوّدوا، و يقال أنهم من بنى سامرك بن كفركا بن رمى، و هو شعب من شعوب الفرس، خرجوا إلى الشام و معهم الخيل و الغنم و الإبل و القسىّ و النشاب و السيوف و المواشى، و منهم السمرة الذين تفرّقوا فى البلاد. و يقال أن سليمان بن داود لما مات افترق ملك بنى إسرائيل من بعده، فصار رحبعم بن سليمان على سبط يهودا بالقدس، و ملك يربعم بن نياط على عشرة أسباط من بنى إسرائيل، و سكن خارجا عن القدس، و اتخذ عجلين دعا الأسباط العشرة إلى عبادتهما من دون اللّه إلى أن مات، فولىّ ملك بنى إسرائيل من بعده عدّة ملوك على مثل طريقته فى الكفر بالله و عبادة الأوثان، إلى أن ملكهم عمرى بن نوذب من سبط منشا بن يوسف، فاشترى مكانا من رجل اسمه شامر بقنطار فضة، و بنى فيه قصرا و سماه باسم اشتقه من اسم شامر الذى اشترى منه المكان، و صير حول هذا القصر مدينة و سماها مدينة شمرون، و جعلها كرسىّ ملكه إلى أن مات، فاتخذها ملوك بنى إسرائيل من بعده مدينة للملك، و ما زالوا فيها إلى أن ولى هو شاع بن إيلاء و هم على الكفر بالله، و عبادة وثن بعل و غيره من الأوثان، مع قتل الأنبياء، إلى أن سلط اللّه عليهم سنجاريب ملك الموصل، فحاصرهم بمدينة شمرون ثلاث سنين، و أخذ هو شاع أسيرا و جلاه و معه جميع من فى شمرون من بنى إسرائيل، و أنزلهم بهراه و بلخ و نهاوند و حلوان، فانقطع من حينئذ ملك بنى إسرائيل من مدينة شمرون بعد ما ملكوا من بعد سليمان عليه السلام مدّة مائتى سنة و إحدى و خمسين سنة، ثم إن سنجاريب ملك الموصل نقل إلى شمرون كثيرا من أهل كوشا و بابل و حماه، و أنزلهم فيها ليعمروها، فبعثوا إليه يشكون من كثرة هجوم الوحش عليهم بشمرون، فسير إليهم من علمهم التوراة، فتعلموها على غير ما يجب، و صاروا يقرءونها ناقصة أربعة أحرف، الألف و الهاء و الخاء و العين، فلا ينطقون بشىء من هذه الأحرف فى قراءتهم التوراة، و عرفوا بين الأمم بالسامرة لسكناهم بمدينة شمرون.

و شمرون هذه هى مدينة نابلس، و قيل لها سمرون بسين مهملة، و لسكانها سامرة، و يقال معنى السمرة حفظة و نواطير، فلم تزل السمرة بنابلس إلى أن غزا بخت نصر القدس و أجلى اليهود منه إلى بابل، ثم عادوا بعد سبعين سنة و عمروا البيت ثانيا إلى أن قام الإسكندر من بلاد اليونان، و خرج يريد غزو الفرس، فمرّ على القدس و خرج منه يريد عمان، فاجتاز على نابلس و خرج إليه كبير السمرة بها، و هو سنبلاط السامرىّ، فأنزله و صنع له و لقوّاده و عظماء أصحابه صنيعا عظيما، و حمل إليه أموالا جمة و هدايا جليلة، و استأذنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۴

فى بناء هيكل للّه على الجبل الذى يسمى عندهم طوربريك، فأذن له و سار عنه إلى محاربة دارا ملك الفرس، فبنى سنبلاط هيكلا شبيها بهيكل القدس، ليستميل به اليهود، و موّه عليهم بأن طوربريك هو الموضع الذى اختاره اللّه تعالى و ذكره فى التوراة بقوله فيها:

اجعل البركة على طوربريك، و كان سنبلاط قد زوّج ابنته بكاهن من كهان بيت المقدس يقال له منشا، فمقت اليهود منشا على ذلك، و أبعدوه و حطوه عن مرتبته عقوبة له على مصاهرة سنبلاط، فأقام سنبلاط منشا زوج ابنته كاهنا فى هيكل طوربريك، و آتته طوائف من اليهود و ضلوا به، و صاروا يحجون إلى هيكله فى الأعياد، و يقرّبون قرا بينهم إليه، و يحملون إليه نذورهم و أعشارهم، و تركوا قدس اللّه و عدلوا عنه فكثرت الأموال فى هذا الهيكل، و صار ضدّ البيت المقدس، و استغنى كهنته و خدّامه و عظم أمر منشا و كبرت حالته. فلم تزل هذه الطائفة تحج إلى طور بريك حتى كان زمن هور قانوس بن شمعون الكوهن، من بنى حثمتاى فى بيت المقدس، فسار إلى بلاد السمرة و نزل على مدينة نابلس و حصرها مدّة و أخذها عنوة، و خرّب هيكل طور بريك إلى أساسه، و كانت مدّة عمارته مائتى سنة، و قتل من كان هناك من الكهنة، فلم تزل السمرة بعد ذلك إلى يومنا هذا تستقبل فى صلاتها حيثما كانت من الأرض طور بريك بجبل نابلس، و لهم عبادات تخالف ما عليه اليهود، و لهم كنائس فى كل بلد تخصهم، و السمرة ينكرون نبوّة داود و من تلاه من الأنبياء، و أبوا أن يكون بعد موسى عليه السلام نبىّ و جعلوا رؤساءهم من ولد هارون عليه السلام، و أكثرهم يسكن فى مدنية نابلس، و هم كثير فى مدائن الشام، و يذكر أنهم الذين يقولون لا مساس، و يزعمون أن نابلس هى بيت المقدس، و هى مدينة يعقوب عليه السلام، و هناك مراعيه.

و ذكر المسعودىّ أن السمرة صنفان متباينان، أحدهما يقال له الكوشان، و الآخر الروشان، أحد الصنفين يقول بقدم العالم. و السامرة تزعم أن التوراة التى فى أيدى اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى عليه السلام و يقولون توراة موسى حرّفت و غيّرت و بدّلت، و أن التوراة هى ما بأيديهم دون غيرهم. و ذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيروتىّ أنّ السامرة تعرف بالأمساسية. قال: و هم الأبدال الذين بدّلهم بخت نصر بالشام حين أسر اليهود و أجلاها، و كانت السامرة أعانوه و دلوه على عورات بنى إسرائيل، فلم يحربهم و لم يقتلهم و لم يسبهم و أنزلهم فلسطين من تحت يده، و مذاهبهم ممتزجة من اليهودية و المجوسية، و عامّتهم يكونون بموضع من فلسطين يسمى نابلس، و بها كنائسهم، و لا يدخلون حدّ بيت المقدس منذ أيام داود النبى عليه السلام، لأنهم يدّعون إنه ظلم و اعتدى و حوّل الهيكل المقدّس من نابلس إلى إيليا، و هو بيت المقدس، و لا يمسون الناس، و إذا مسوهم اغتسلوا، و لا يقرّون بنبوّة من كان بعد موسى عليه السلام من أنبياء بنى إسرائيل.

و فى شرح الإنجيل: إنّ اليهود انقسمت بعد أيام داود إلى سبع فرق.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۵

الكتاب: و كانوا يحافظون على العادات التى أجمع عليها المشايخ مما ليس فى التوراة.

و المعتزلة: و هم الفريسيون، و كانوا يظهرون الزهد و يصومون يومين فى الأسبوع، و يخرجون العشر من أموالهم، و يجعلون خيوط القرمز فى رؤس ثيابهم، و يغسلون جميع أوانيهم، و يبالغون فى إظهار النظافة.

و الزنادقة: و هم من جنس السامرة، و هم من الصدوقية، فيكفرون بالملائكة و البعث بعد الموت و بجميع الأنبياء ما خلا موسى فقط، فإنهم يقرّون بنبوّته.

و المتظهرون: و كانوا يغتسلون كلّ يوم و يقولون لا يستحق حياة الأبد إلّا من يتطهر كلّ يوم.

و الإسابيون: و معناه الغلاظ الطباع، و كانوا يوجبون جميع الأوامر الإلهية، و ينكرون جميع الأنبياء سوى موسى عليه السلام، و يتعبدون بكتب غير الأنبياء.

و المتقشفون: و كانوا يمنعون أكثر المآكل و خاصة اللحم، و يمنعون من التزوّج بحسب الطاقة، و يقولون بأن التوراة ليست كلها لموسى، و يتمسكون بصحف منسوبة إلى أخنوخ و إبراهيم عليه السلام، و ينظرون فى علم النجوم و يعملون بها.

و الهيرذوسيون: سموا أنفسهم بذلك لموالاتهم هيرذوس ملكهم، و كانوا يتبعون التوراة و يعملون بما فيها انتهى.

و ذكر يوسف بن كريون فى تاريخه أن اليهود كانوا فى زمن ملكهم هور قانوس، يعنى فى زمن بناء البيت بعد عودهم من الجلاية

ثلاث فرق: الفروشيم: و معناه المعتزلة، و مذهبهم القول بما فى التوراة و ما فسره الحكماء من سلفهم. و الصدوقية: أصحاب رجل من العلماء يقال له صدوف، و مذهبهم القول بنص التوراة و ما دلت عليه دون غيره.

و الجسديم و معناه الصلحاء، و هم المشتغلون بالعبادة و النسك، الآخذون فى كل أمر بالأفضل و الأسلم فى الدين انتهى. و هذه الفرقة هى أصل فرقتى الربانيين و القرّاء.

فصل: زعم بعضهم أن اليهود عانانية و شمعونية، نسبة إلى شمعون الصدّيق، ولى القدس عند قدوم أبى الإسكندر، و جالوتية و فيومية و سامرية و عكبرية و أصبهانية و عراقية و مغاربة و شرشتانية و فلسطينية و مالكية و ربانية. فالعانانية تقول بالتوحيد و العدل و نفى التشبيه، و الشمعونية تشبه، و تبالغ الجالوتية فى التشبيه، و أما الفيومية فإنها تنسب إلى أبى سعيد الفيومىّ، و هم يفسرون التوراة على الحروف المقطعة. و السامرية ينكرون كثيرا من شرائعهم و لا يقرّون بنبوّة من جاء بعد يوشع، و العكبرية أصحاب أبى موسى البغدادىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۶

العبكرىّ، و إسماعيل العكبرىّ، يخالفون أشياء من السبت و تفسير التوراة، و الأصبهانية أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، و ادّعى النبوّة و أنه عرج به إلى السماء فمسح الرب على رأسه، و إنه رأى محمدا صلّى اللّه عليه و سلّم فآمن به، و يزعم يهود أصبهان أنه الدجال، و أنه يخرج من ناحيتهم، و العراقية تخالف الخراسانية فى أوقات أعيادهم و مدد أيامهم، و الشرشتانية أصحاب شرشتان، زعم أنه ذهب من التوراة ثمانون سوقة، أى آية، و ادّعى أن للتوراة تأويلا باطنا مخالفا للظاهر، و أما يهود فلسطين فزعموا أن العزير ابن اللّه تعالى، و أنكر أكثر اليهود هذا القول، و المالكية تزعم أن اللّه تعالى لا- يحيى يوم القيامة من الموتى إلّا من احتج عليه بالرسل و الكتب، و مالك هذا هو تلميذ عانان. و الربانية تزعم أن الحائض إذا مست ثوبا بين ثياب وجب غسل جميعها، و العراقية تعمل رؤس الشهور بالأهلة، و آخرون بالحساب يعملون و اللّه أعلم.

فصل: و هم يوجبون الإيمان باللّه وحده و بموسى عليه السلام و بالتوراة، و لا بدّ لهم من درسها و تعلمها، و يغتسلون و يتوضؤون و لا يمسحون رؤوسهم فى وضوئهم، و يبدؤون بالرجل اليسرى، و فى شىء منه خلاف بينهم، و عانان يرى أن الاستنجاء قبل الوضوء، و يرى أشمعث أن الاستنجاء بعد الوضوء، و لا- يتوضؤون بما تغير لونه أو طعمه أو ريحه، و لا- يجيزون الطهارة من غدير ما لم يكن عشرة أذرع فى مثلها، و النوم قاعدا لا ينقض الوضوء عندهم ما لم يضع جنبه الأرض، إلّا العانانية فإن مطلق النوم عندهم ينقض، و من أحدث فى صلاته من قىء أو رعاف أو ريح انصرف و توضأ و بنى على صلاته، و لا تجوز صلاة الرجل فى أقلّ من ثلاثة أثواب، قميص و سراويل و ملاءة يتردّى بها، فإن لم يجد الملاءة صلّى جالسا، فإن لم يجد القميص و السراويل صلّى بقلبه، و لا تجوز صلاة المرأة فى أقل من أربعة أثواب، و عليهم فريضة ثلاث صلوات فى اليوم و الليلة، عند الصبح و بعد الزوال إلى غروب الشمس و وقت العتمة إلى ثلث الليل، و يسجدون فى دبر كل صلاة سجدة طويلة، و فى يوم السبت و أيام الأعياد يزيدون خمس صلوات على تلك الثلاث. و لهم خمسة أعياد:

عيد الفطر: و هو الخامس عشر من نيسن، يقيمون سبعة أيام لا يأكلون سوى الفطير، و هى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون و أغرقه اللّه.

و عيد الأسابيع: بعد الفطير بسبعة أسابيع، و هو اليوم الذى كلم اللّه تعالى فيه بنى إسرائيل من طور سيناء.

وعيد رأس الشهر: و هو أوّل تشرى، و هو الذى فدى فيه إسحاق عليه السلام من الذبح، و يسمونه عيد رأس هشايا، أى رأس الشهر. و عيد صوماريا: يعنى الصوم العظيم.

و عيد المظلة: يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس و الخلاف. و يجب عليهم الحج فى كل سنة ثلاث مرّات لما كان الهيكل عامرا، و يوجبون صوم أربعة أيام. أوّلها: سابع عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۷

تموز من الغروب إلى الغروب، و عند العانانية هو اليوم الذى أخذ فيه بخت نصر البيت.

و الثانى: عشر آب. و الثالث: عاشر كانون الأول. و الرابع: ثالث عشر آذار. و يتشدّدون فى أمر الحائض بحيث يعتزلونها و ثيابها و أوانيها و ما مسته من شىء فإنه ينجّس و يجب غسله، فإن مست لحم القربان أحرق بالنار، و من مسها أو شيئا من ثيابها وجب عليه الغسل، و ما عجنته أو خبزته أو طبخته أو غسلته فكله نجس حرام على الطاهرين حلّ للحيض، و من غسل ميتا نجس سبعة أيام لا يصلى فيها، و هم يغسلون موتاهم و لا يصلون عليهم، و يوجبون إخراج العشر من جميع ما يملك، و لا يجب حتى يبلغ وزنه أو عدده مائة، و لا يخرج العشر إلّا مرّة واحدة، ثم لا يعاد إخراجه، و لا يصح النكاح عندهم إلّا بولىّ و خطبة و ثلاثة شهود و مهر مائتى درهم للبكر، و مائة للثيب لا أقل من ذلك، و يحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقة مرسين، فيأخذ الإمام الكأس و يبارك عليه و يخطب خطبة النكاح ثم يدفعه إلى الختن و يقول: قد تزوّجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب و هو خاتم فى يده، و بهذا الكأس من الخمر، و بمهر كذا، و يشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة و يأمرونها أن تأخذ الخاتم و المرسلين و الكأس من يد الختن، فإذا أخذت و شربت جرعة وجب عقد النكاح، و يضمن أولياء المرأة البكارة، فإذا زفت إليه وكّل الولىّ من يقف بباب الخلوة و قد فرشت ثياب بيض حتى يشاهد الوكيل الدم، فإن لم توجد بكرا رجمت، و لا يجوز عندهم نكاح الإماء حتى يعتقن، ثم ينكحن، و العبد يعتق بعد خدمته لسنين معلومة، و هى ست سنين، و منهم من يجوّز بيع صغار أولاده إذا احتاج، و لا يجوّزون الطلاق إلا بفاحشة أو سحر أو رجوع عن الدين، و على من طلق خمسة و عشرون درهما للبكر، و نصف ذلك للثيب، و ينزل فى كتابها طلاقها بعد أن يقول الزوج أنت طالق منى مائة مرّة، و مختلعة منى، و فى سعة أن تتزوّجى من شئت، و لا يقع طلاق الحامل أبدا، نعم، إلّا أن يجوّزوه و يراجع الرجل امرأته ما لم تتزوج، فإن تزوّجت حرّمت عليه إلى الأبد. و الخيار بين المتبايعين ما لم ينقل المبيع إلى البائع. و الحدود عندهم على خمسة أوجه، حرق و رجم و قتل و تعزير و تغريم، فالحرق على من زنى بأمّ امرأته أو ربيبته أو بامرأة أبيه أو امرأة ابنه، و القتل على من قتل. و الرجم على المحصن إذا زنى أو لاط، و على المرأة إذا مكنت من نفسها بهيمة. و التعزير على من قذف، و التغريم على من سرق، و يرون أن البينة على المدّعى، و اليمين على من أنكر.

و عندهم أنّ من أتى بشىء من سبعة و ثلاثين عملا- فى يوم السبت أو ليلته استحق القتل و هى: كرب الأرض، و زرعها، و حصاد الزرع، و سياقة الماء إلى الزرع، و حلب اللبن، و كسر الحطب، و إشعال النار، و عجن العجين، و خبزه، و خياطة الثوب، و غسله، و نسج

سلكين، و كتابة حرفين أو نحوهما، و أخذ الصيد، و ذبح الحيوان، و الخروج من القرية، و الانتقال من بيت إلى آخر، و البيع، و الشراء، و الدق، و الطحن، و الاحتطاب، و قطع الخبز، و دق اللحم، و إصلاح النعل إذا انقطعت، و خلط علف الدابة، و لا- يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت من منزله و معه قلمه، و لا الخياط و معه إبرته، و كل من عمل شيئا استحق به القتل فلم يسلم نفسه فهو ملعون .

ذكر قبط مصر و دياناتهم القديمة، و كيف تنصروا ثم صاروا ذمّة للمسلمين، و ما كان لهم فى ذلك من القصص و الأنباء، و ذكر الخبر عن كنائسهم و دياراتهم، و كيف كان ابتداؤها و مصير أمرها

اشارة

اعلم أن جميع أهل الشرائع اتباع الأنبياء عليهم السلام من المسلمين و اليهود و النصارى قد أجمعوا على أن نوحا عليه السلام هو الأب الثانى للبشر، و أن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه، و منه ذرأ اللّه تعالى جميع أولاد آدم، فليس أحد من بنى آدم إلّا و هو من أولاد نوح، و خالفت القبط و المجوس و أهل الهند و الصين ذلك، فأنكروا الطوفان و زعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم

بابل و ما وراءه من البلاد الغربية فقط، و أن أولاد كيومرت الذى هو عندهم الإنسان الأوّل كانوا بالبلاد الشرقية من بابل، فلم يصل الطوفان إليهم و لا إلى الهند و الصين. و الحق ما عليه أهل الشرائع، و أن نوحا عليه السلام لما أنجاه اللّه و من معه بالسفينة نزل بهم و هم ثمانون رجلا سوى أولاده، فماتوا بعد ذلك و لم يعقبوا، و صار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة، و يؤيد هذا قول اللّه تعالى عن نوح:

وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ [الصافات/ ۷۷] و كان من خبر ذلك أن أولاد نوح الثلاثة، و هم سام و حام و يافث اقتسموا الأرض. فصار لبنى سام بن نوح أرض العراق و فارس إلى الهند، ثم إلى حضرموت و عمان و البحرين. و عالج و يبرين و وبار و الدو والدهنا و جميع أرض اليمن و أرض الحجاز.

و صار لبنى حام بن نوح جنوب الأرض مما يلى أرض مصر مغربا إلى بلاد المغرب الأقصى.

و صار لبنى يافث بن نوح بحر الخزر مشرقا إلى الصين.

فكان من ذرية سام بن نوح القضاعيون و الفرس و السريانيون و العبرانيون و العرب المستعربة و النبط و عاد و ثمود و الأمورانيون و العماليق و أمم الهند و أهل السند و عدّة أمم قد بادت.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۸۹

و كانت ذرية حام بن نوح من أربعة أولاده الذين هم: كوش و مصرايم و قفط و كنعان، فمن كوش الحبشة و الزنج، و من مصرايم قبط مصر و النوبة، و من قفط الأفارقة أهل إفريقية و من جاورهم إلى المغرب الأقصى، و من كنعان أمم كانت بالشام حاربهم موسى بن عمران عليه السلام و قومه من بنى إسرائيل، و منهم أجناس عديدة من البربر درجوا. و كانت مساكن بنى حام من صيدا إلى أرض مصر، ثم إلى آخر إفريقية نحو البحر المحيط، و انتشروا فيما بين ذلك إلى الجنوب و هم ثلاثون جنسا.

و كان من ذرية يافث بن نوح: الصقلب و الفرنجة و الغالليون من قبائل الروم و الغوط و أهل الصين و قوم عرفوا بالمادنيين و اليونانيون و الروم الفريقيون و قبائل الأتراك و يأجوج و مأجوج و أهل قبرس و ردوس، و عدّة بنى يافث خمسة عشر جنسا، سكنوا القطر الشمالىّ إلى البحر المحيط، فضاقت بهم بلادهم و لم تسعهم لكثرتهم، فخرجوا منها و تغلبوا على كثير من بلاد بنى سام بن نوح.

و ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب، أنّ القبط تنسب إلى قبطيم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح، و أن قبطيم أوّل من عمل العجائب بمصر و أثار بها المعادن و شق الأنهار لما ولى أرض مصر بعد أبيه مصرايم، و أنه لحق ببلبلة الألسن، و خرج منها و هو يعرف اللغة القبطية، و أنه ملك مدّة ثمانين سنة و مات، فاغتمّ لموته بنوه و أهله و دفنوه فى الجانب الشرقىّ من النيل بسرب تحت الجبل الكبير، فقام من بعده فى ملك مصر ابنه قفطيم بن قبطيم، و زعم بعض النسابة أن مصر بن حام بن نوح، و يقال له مصرايم، و يقال بل مصريم بن هرمس بن هردوس جدّ الإسكندر، و قيل بل قفط بن حام بن نوح نكح بخت بنت يتاويل بن ترسل بن يافث بن نوح، فولدت له بوقير، و قبط أبا قبط مصر. قال ابن إسحاق: و من هاهنا قالوا إن مصر بن حام بن نوح، و إنما هو مصر بن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان، و به سميت مصر، فهى مقدونية، و قيل القبط من ولد قبط بن مصر بن قفط بن حام بن نوح، و بمصر هذا سميت مصر.

ذكر ديانة القبط قبل تنصرهم

اعلم أن قبط مصر كانوا فى غابر الدهر أهل شرك بالله، يعبدون الكواكب و يقرّبون قرابينهم و يقيمون على أسمائها التماثيل، كما هى أفعال الصابئة. و ذكر ابن وصيف شاه: أن عبادة الأصنام أوّل ما عرفت بمصر أيام قفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح، و ذلك أن إبليس أثار الأصنام التى غرّقها الطوفان و زين للقبط عبادتها، و أن البودشير بن قبطيم أوّل من تكهن و عمل بالسحر، و أن مناوش بن منقاوش أوّل من عبد البقر من أهل مصر. و ذكر الموفق أحمد بن أبى القاسم بن خليفة المعروف بابن أبى أصيبعة أنه

كان للقبط مذهب مشهور من مذاهب الصابئة، و لهم هياكل على أسماء الكواكب يحج إليها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۰

الناس من أقطار الأرض، و كانت الحكماء و الفلاسفة ممن سواهم تتهافت عليهم و تريد التقرّب إليهم، لما كان عندهم من علوم السحر و الطلسمات و الهندسة و النجوم و الطب و الحساب و الكيمياء، و لهم فى ذلك أخبار كثيرة، و كانت لهم لغة يختصون بها، و كانت خطوطهم ثلاثة أصناف: خط العامّة، و خط الخاصة، و هو خط الكهنة المختصر، و خط الملوك. و قال ابن وصيف شاه: كانت كهنة مصر أعظم الكهان قدرا و أجلها علما بالكهانة، و كانت حكماء اليونانيين تصفهم بذلك و تشهد لهم به، فيقولون اختبرنا حكماء مصر بكذا و كذا، و كانوا ينحون بكهانتهم نحو الكواكب و يزعمون أنها هى التى تفيض عليهم العلوم و تخبرهم بالغيوب، و هى التى تعلمهم أسرار الطوالع و صفة الطلاسم، و تدلهم على العلوم المكتومة و الأسماء الجليلة المخزونة، فعملوا الطلسمات المشهورة و النواميس الجليلة، و ولدوا الأشكال الناطقة و صوّروا الصور المتحرّكة، و بنوا العالى من البنيان، و زبروا علومهم فى الحجارة، و عملوا من الطلسمات ما دفعوا به الأعداء عن بلادهم، فحكمهم باهرة، و عجائبهم ظاهرة، و كانت أرض مصر خمسا و ثمانين كورة منها: أسفل الأرض خمس و أربعون كورة، و منها بالصعيد أربعون كورة، و كان فى كل كورة رئيس من الكهنة و هم السحرة، و كان الذى يتعبد منهم للكواكب السبعة السيارة سبع سنين يسمونه باهر، و الذى يتعبد منهم لها تسعا و أربعين سنة لكلّ كوكب سبع سنين يسمونه قاطر، و هذا يقوم له الملك إجلالا و يجلسه معه إلى جانبه، و لا يتصرّف إلّا برأيه، و تدخل الكهنة و معهم أصحاب الصنائع فيقفون حذاء القاطر، و كان كلّ كاهن منهم ينفرد بخدمة كوكب من الكواكب السبعة السيارة لا يتعدّاه إلى سواه، و يدعى بعبد ذلك الكوكب فيقال: عبد القمر، عبد عطارد، عبد الزهرة، عبد الشمس، عبد المريخ، عبد المشترى، عبد زحل. فإذا وقفوا جميعا قال القاطر لأحدهم: أين صاحبك اليوم؟ فيقول فى برج كذا و درجة كذا و دقيقة كذا. ثم يقول للآخر كذلك، فيجيبه حتى يأتى على جميعهم، و يعرف أماكن الكواكب من فلك البروج ثم يقول للملك ينبغى أن تعمل اليوم كذا، أو تأكل كذا، أو تجامع فى وقت كذا، أو تركب وقت كذا، إلى آخر ما يحتاج إليه، و الكاتب قائم بين يديه يكتب ما يقول، ثم يلتفت القاطر إلى أهل الصناعات و يخرجهم إلى دار الحكمة فيضعون أيديهم فى الأعمال التى يصلح عملها فى ذلك اليوم، ثم يؤرخ ما جرى فى ذلك اليوم فى صحيفة و تخزن فى خزائن الملك، و كان الملك إذا همه أمر جمع الكهان خارج مدينة منف، و قد اصطف الناس لهم بشارع المدينة، ثم يدخل الكهان ركبانا على قدر مراتبهم و الطبل بين أيديهم، و ما منهم إلّا من أظهر أعجوبة قد عملها، فمنهم من يعلو وجهه نور كهيئة نور الشمس لا يقدر أحد على النظر إليه، و منهم من على بدنه جواهر مختلفة الألوان قد نسجت على ثوب، و منهم من يتوشح بحيات عظيمة، و منهم من يعقد فوقه قبة من نور، إلى غير ذلك من بديع أعمالهم، و يصيرون كذلك إلى حضرة الملك فيخبرهم بما نزل به، فيجيلون رأيهم فيه حتى يتفقوا على ما يصرفونه به،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۱

و هذا أعزك اللّه من خبرهم لما كان الملك فيهم، فلما استولت العماليق على ملك مصر و ملكتها الفراعنة، ثم تداولتها من بعدهم أجناس أخر، تناقصت علوم القبط شيئا بعد شىء إلى أن تنصروا، فغادروا عوائد أهل الشرك، و اتبعوا ما أمروا به من دين النصرانية، كما ستقف عليه تلو هذا إن شاء اللّه تعالى.

ذكر دخول قبط مصر فى دين النصرانية

اعلم أن النصارى اتباع عيسى نبىّ اللّه ابن مريم عليه السلام، سموا نصارى، لأنهم ينتسبون إلى قرية الناصرة من جبل الجليل، بالجيم، و يعرف هذا الجبل بجبل كنعان، و هو الآن فى زمننا من جملة معاملة صفد، و الأصل فى تسميتهم نصارى: أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام لما ولدته أمّه مريم ابنة عمران ببيت لحم خارج مدينة بيت المقدس، ثم سارت به إلى أرض مصر و سكنتها زمانا، ثم عادت به

إلى أرض بنى إسرائيل قومها، نزلت قرية الناصرة، فنشأ عيسى بها و قيل له يسوع الناصرىّ، فلما بعثه اللّه تعالى رسولا إلى بنى إسرائيل، و كان من شأنه ما ستراه، إلى أن رفعه اللّه إليه، تفرّق الحواريون، و هم الذين آمنوا به، فى أقطار الأرض يدعون الناس إلى دينه، فنسبوا إلى ما نسب إليه نبيهم عيسى ابن مريم، و قيل لهم الناصرية، ثم تلاعب العرب بهذه الكلمة و قالوا نصارى.

قال ابن سيده: و نصرى و ناصرة و نصورية: قرية بالشام، و النصارى منسوبون إليها، هذا قول أهل اللغة، و هو ضعيف. إلّا أن نادر النسب يسيغه، و أما سيبويه فقال: أما النصارى فذهب الخليل إلى أنه جمع نصرى و نصران، كما قالوا ندمان و ندامى و لكنهم حذفوا إحدى اليائين كما حذفوا من أثقية و أبدلوا مكانها ألفا. قال: و أما الذى نوجهه نحن عليه فإنه جاء على نصران، لأنه قد تكلم به، فكأنك جمعت و قلت نصارى كما قلت ندامى، فهذا أقيس، و الأوّل مذهب، و إنما كان أقيس لأنا لم نسمعهم قالوا نصرى، و التنصر الدخول فى دين النصرانية، و نصره جعله كذلك، و الأنصر الأقلف، و هو من ذلك، لأنّ النصارى قلف، و فى شرح الإنجيل أن معنى قرية ناصرة الجديدة، و النصرانية التجدّد، و النصرانىّ المجدّد، و قيل نسبوا إلى نصران، و هو من أبنية المبالغة، و معناه أن هذا الدين فى غير عصابة صاحبه، فهو دين من ينصره من أتباعه. و إذا تقرّر هذا فاعلم «أنّ المسيح روح اللّه و كلمته ألقاها إلى مريم» (عيسى) و أصل اسمه بالعبرانية التى هى لغة أمّه و آبائها إنما هو ياشوع، و سمته النصارى يسوع، و سماه اللّه تعالى و هو أصدق القائلين عيسى، و معنى يسوع فى اللغة السريانية المخلّص، قاله فى شرح الإنجيل، و نعته بالمسيح، و هو الصدّيق، و قيل لأنه كان لا يمسح بيده صاحب عاهة إلّا برأ، و قيل لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، و قيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۲

لأنه خرج من بطن أمّه ممسوحا بالدهن، و قيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه عند ولادته صونا له من مس الشيطان، و قيل المسيح اسم مشتق من المسح، أى الدهن، لأنّ روح القدس قام بجسد عيسى مقام الدهن الذى كان عند بنى إسرائيل يمسح به الملك، و يمسح به الكهنوت، و قيل لأنه مسح بالبركة، و قيل لأنه أمسح الرجلين، ليس لرجليه أخمص، و قيل لأنه يمسح الأرض بسياحته، لا يستوطن مكانا، و قيل هى كلمة عبرانية أصلها ماسيح، فتلاعبت بها العرب و قالت مسيح.

و كان من خبره عليه السلام أن مريم ابنة عمران بينما هى فى محرابها إذ بشرها اللّه تعالى بعيسى، فخرجت من بيت المقدس و قد اغتسلت من المحيض فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب النجار أحد خدّام القدس، فنفخ فى جيبها فسرت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى كما تحمل النساء، بغير ذكر، بل حلت نفخة الملك منها محل اللقاح، ثم وضعت بعد تسعة أشهر و قيل بل وضعت فى يوم حملها بقرية بيت لحم من عمل مدينة القدس فى يوم الأربعاء خامس عشرى كانون الأوّل، و تاسع عشرى كيهك سنة تسع عشرة و ثلاثمائة للإسكندر، فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه و معهم هدية لها فيها ذهب و مرّ و لبان، فطلبه هيرودس ملك اليهود بالقدس ليقتله، و قد أنذر به، فسارت أمه مريم به و عمره سنتان على حمار و معها يوسف النجار حتى قدموا إلى أرض مصر فسكنوها مدّة أربع سنين، ثم عادوا، و عمر عيسى ست سنين، فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل فاستوطنتها فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة، فسار هو و ابن خالته يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى نهر الأردن، فاغتسل عيسى فيه فحلت عليه النبوّة، فمضى إلى البرّية و أقام بها أربعين يوما لا يتناول طعاما و لا شرابا فأوحى اللّه إليه بأن يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة اللّه تعالى، فطاف القرى و دعا الناس إلى اللّه تعالى، و أبرأ الأكمه و الأبرص و أحيى الموتى بإذن اللّه، و بكّت اليهود و أمرهم بالزهد فى الدنيا و التوبة من المعاصى، فآمن به الحواريون و كانوا قوما صيادين و قيل قصارين و قيل ملاحين و عددهم اثنا عشر رجلا و صدقوا بالإنجيل الذى أنزله اللّه تعالى عليه، و كذّبه عامّة اليهود و ضللوه و اتهموه بما هو برىء منه، فكانت له و لهم عدّة مناظرات آلت بهم إلى أن اتفق أحبارهم على قتله، و طرقوه ليلة الجمعة، فقيل أنه رفع عند ذلك، و قيل بل أخذوه و أتوا به إلى بلاطس النبطىّ شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر، و راودوه على قتله و هو يدفعهم عنه حتى غلبوه على رأيه، بأن دينهم اقتضى قتله، فأمكنهم منه، و عندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه اللّه إليه، و ذلك فى الساعة السادسة من يوم الجمعة خامس عشر شهر نيسن، و تاسع عشرى شهر

برمهات، و خامس عشر شهر آذار، و سابع عشر شهر ذى القعدة، و له من العمر ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۳

و ثلاثون سنة و ثلاثة أشهر، فصلبوا الذى شبه لهم، و صلبوا معه لصين و سمروهم بمسامير الحديد، و اقتسم الجند ثياب المصلوب، فغشيت الأرض ظلمة دامت ثلاث ساعات حتى صار النهار شبه الليل و رؤيت النجوم، و كان مع ذلك هزة و زلزلة، ثم أنزل المصلوب عن الخشبة بكرة يوم السبت و دفن تحت صخرة فى قبر جديد، و وكل بالقبر من يحرسه لئلا يأخذ المقبور أصحابه، فزعم النصارى أن المقبور قام من قبره ليلة الأحد سحرا، و دخل عشية ذلك اليوم على الحواريين و حادثهم و وصاهم، ثم بعد الأربعين يوما من قيامه صعد إلى السماء و الحواريون يشاهدونه، فاجتمعوا بعد رفعه بعشرة أيام فى علية صيون التى يقال لها اليوم صهيون خارج القدس، و ظهرت لهم خوارق، فتكلموا بجميع الألسن فآمن بهم فيما يذكر زيادة على ثلاثة آلاف إنسان . فأخذهم اليهود و حبسوهم، فظهرت كرامتهم و فتح اللّه لهم باب السجن ليلا ، فخرجوا إلى الهيكل و طفقوا يدعون الناس، فهمّ اليهود بقتلهم، و قد آمن بهم نحو الخمسة آلاف إنسان، فلم يتمكنوا من قتلهم، فتفرّق الحواريون فى أقطار الأرض يدعون إلى دين المسيح ، فسار بطرس رأس الحواريين و معه شمعون الصفا إلى أنطاكية و رومية، فاستجاب لهم بشر كثير، و قتل فى خامس أبيب، و هو عيد القصرية. و سار أندراوس أخوه إلى نيقية و ما حولها، فآمن به كثير، و مات فى برنطية فى رابع كيهك، و سار يعقوب بن زبدى أخو يوحنا الإنجيلىّ إلى بلد ابدينية، فتبعه جماعة و قتل فى سابع عشر برمودة، و سار يوحنا الإنجيلىّ إلى آسيا و أفسيس و كتب انجيله باليونانىّ بعد ما كتب متى و مرقص و لوقا أناجيلهم، فوجدهم قد قصروا فى أمور فتكلم عليها، و كان ذلك بعد رفع المسيح بثلاثين سنة، و كتب ثلاث رسائل و مات، و قد أناف على مائة سنة، و سار فيلبس إلى قيسارية و ما حولها و قتل بها فى ثامن هاتور، و قد اتبعه جماعات من الناس.

و سار برتولوماوس إلى أرمينية و بلاد البربر و واحات مصر، فآمن به كثير، و قتل و سار توما إلى الهند فقتل هناك. و سار متى العشار إلى فلسطين و صور و صيدا و مدينة بصرى و كتب إنجيله بالعبرانىّ بعد رفع المسيح بتسع سنين، و نقله يوحنا إلى اللغة الرومية، و قتل متى بقرطاجنة فى ثامن عشر بابه بعد ما استجاب له بشر كثير. و سار يعقوب بن حلفا إلى بلاد الهند و رجع إلى القدس و قتل فى عاشر امشير. و سار يهوذا بن يعقوب من أنطاكية إلى الجزيرة فآمن به كثير من الناس و مات فى ثانى أبيب. و سار شمعون إلى سميساط و حلب و منبج و بزنطية و قتل فى سابع أبيب. و سارميتاس إلى بلاد الشرق و قتل فى ثامن عشر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۴

برمهات. و سار بولص الطرسوسىّ إلى دمشق و بلاد الروم و رومية فقتل فى خامس أبيب.

و تفرّق أيضا سبعون رسولا أخر فى البلاد، فآمن بهم الخلائق، و من هؤلاء السبعين:

مرقص الإنجيلىّ، و كان اسمه أوّلا يوحنا، فعرف ثلاثة ألسن، الفرنجىّ و العبرانىّ و اليونانىّ، و مضى إلى بطرس برومية و صحبه و كتب الإنجيل عنده بالفرنجية بعد رفع المسيح باثنتى عشرة سنة، و دعا الناس برومية و مصر و الحبشة و النوبة، و أقام حنانيا أسقفا على الإسكندرية، و خرج إلى برقة فكثرت النصارى فى أيامه، و قتل فى ثانى عيد الفسح بالإسكندرية. و من السبعين أيضا لوقا الإنجيلىّ الطبيب، تلميذ بولص، كتب الإنجيل باليونانية عن بولص بالإسكندرية بعد رفع المسيح بعشرين سنة، و قيل باثنتين و عشرين سنة، و لما فرّ بطرس رأس الحواريين من حبس رومية و نزل بأنطاكية أقام بها داريوس بطركا، و أنطاكية أحد الكراسى الأربعة التى للنصارى و هى: رومية و الإسكندرية و القدس و أنطاكية، فأقام داريوس بطرك أنطاكية سبعا و عشرين سنة و هو أوّل بطاركتها، و توارث من بعده البطاركة بها البطركية واحدا بعد واحد. و دعا شمعون الصفا برومية خمسا و عشرين سنة، فآمنت به بطركية و سارت إلى القدس، و كشفت عن خشبات الصليب و سلمتها إلى يعقوب بن يوسف الأسقف و بنت هناك كنيسة و عادت إلى رومية، و قد اشتدّت على دين النصرانية، فآمن معها عدّة من أهلها. و اجتمع الرسل بمدينة رومية و وضعوا القوانين و أرسلوها على يد قليموس تلميذ بطرس، فكتبوا فيها عدد الكتب التى يجب قبولها من العتيقة و الجديدة، فأمّا العتيقة فالتوراة، و كتاب يوشع بن نون، و كتاب القضاة، و كتاب

راغون، و كتاب يهوديت، و سير الملوك، و سفر بنيامين، و كتب المقانين، و كتاب عزرة، و كتاب أستير، و قصة هامان، و كتاب أيوب، و كتاب مزامير داود، و كتب سليمان بن داود، و كتب الأنبياء و هى ستة عشر كتابا، و كتاب يوشع بن شيراخ، و أما الكتب الحديثة:

فالأناجيل الأربعة، و كتاب القليتليقون، و كتاب بولص، و كتاب الأبركسيس، و هو قصص الحواريين، و كتاب قليموس، و فيه ما أمر به الحواريون و ما نهوا عنه.

و لما قتل الملك نيرون قيصر بطرس رأس الحواريين برومية، أقيم من بعده أريوس بطرك رومية، و هو أوّل بطرك صار على رومية، فأقام فى البطركية اثنتى عشرة سنة، و قام من بعده البطاركة بها واحدا بعد واحد إلى يومنا هذا الذى نحن فيه.

و لما قتل يعقوب اسقف القدس على يد اليهود، هدموا بعده البيعة و أخذوا خشبة الصليب و الخشبتين معها و دفنوها و ألقوا على موضعها ترابا كثيرا، فصار كوما عظيما حتى أخرجتها هيلانة أم قسطنطين كما ستراه قريبا إن شاء اللّه تعالى. و أقيم بعد قتل يعقوب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۵

سمعان ابن عمه أسقف القدس، فمكث اثنتين و أربعين سنة أسقفا. و مات، فتداول الأساقفة بعده الأسقفية بالقدس واحدا بعد آخر.

و لما أقام مرقص حنانيا و يقال أنانيو بطرك الإسكندرية، جعل معه اثنى عشر قسا و أمرهم إذا مات البطرك أن يجعلوا عوضه واحدا منهم، و يقيموا بدل ذلك القس واحدا من النصارى حتى لا يزالوا أبدا اثنى عشر قسا، فلم تزل البطاركة تعمل من القسوس إلى أن اجتمع ثلاثمائة و ثمانية عشر كما ستراه إن شاء اللّه تعالى، و كان بطرك الإسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا أوّل بطاركة الإسكندرية إلى أن أقيم ديمتريوس، و هو الحادى عشر من بطاركة الإسكندرية، و لم يكن بأرض مصر أساقفة، فنصب الأساقفة بها و كثروا، فغزاها فى بطركيته هرقل، و صار الأساقفة يسمون البطرك الأب، و القسوس و سائر النصارى يسمون الأسقف الأب، و يجعلون لفظة البابا تختص ببطرك الإسكندرية، و معناها أبو الآباء، ثم انتقل هذا الاسم عن كرسى الإسكندرية إلى كرسى رومية، من أجل أنه كرسى بطرس رأس الحواريين، فصار بطرك رومية يقال له البابا، و استمرّ على ذلك إلى زمننا الذى نحن فيه، و أقام أنانيو و هو حنانيا فى بطركية الإسكندرية اثنتين و عشرين سنة و مات فى عشرى هاتور، سنة سبع و ثمانين لظهور المسيح، فأقيم بعده مينيو، فأقام اثنتى عشرة سنة و تسعة أشهر و مات، و فى أثناء ذلك ثار اليهود على النصارى و أخرجوهم من القدس، فعبروا الأردن و سكنوا تلك الأماكن، فكان بعد هذا بقليل خراب القدس و جلاية اليهود و قتلهم على يد طيطش. و يقال طيطوس، بعد رفع المسيح بنحو أربع و أربعين سنة، فكثرت النصارى فى أيام بطركية مينيو و عاد كثير منهم إلى مدينة القدس بعد تخريب طيطش لها و بنوا بها كنيسة و أقاموا عليها سمعان أسقفا، ثم أقيم بعد مينيو فى الإسكندرية فى البطركية كرتيانو، و فى أيام الملك انديانوس قيصر أصاب النصارى منه بلاء كثير، و قتل منهم جماعة كثيرة، و استعبد باقيهم، فنزل بهم بلاء لا يوصف فى العبودية حتى رحمهم الوزراء و أكابر الروم و شفعوا فيهم، فمنّ عليهم قيصر و أعتقهم، و مات كرتيانو بطرك الإسكندرية فى حادى عشر برمودة بعد ما دبر الكرسيّ إحدى عشرة سنة، و كان حميد السيرة، فقدم بعده ايريمو، فأقام اثنتى عشرة سنة، و مات فى ثالث مسرى، و اشتدّ الأمر على النصارى فى أيام الملك أريدويانوس و قتل منهم خلائق لا يحصى عددهم، و قدم مصر فأفنى من بها من النصارى، و خرّب ما بنى فى مدينة القدس من كنيسة النصارى و منعهم من التردّد إليها، و أنزل عوضهم بالقدس اليونانيين، و سمى القدس إيليا، فلم يتجاسر نصرانى أن يدنو من القدس، و أقيم بعد موت إيريمو بطرك الإسكندرية بسطس، فأقام إحدى عشرة سنة، و مات فى ثانى عشر بؤنة، فخلف بعده أرمانيون فأقام عشر سنين و أربعة أشهر و مات فى عاشر بابة، فأقيم بعده موقيانو بطرك الإسكندرية تسع سنين و ستة أشهر و مات فى سادس طوبه، فقدم بعده على الإسكندرية كلوتيانو فأقام أربع عشرة سنة و مات فى تاسع أبيب، و فى أيامه اشتدّ الملك أوليانوس قيصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۶

على النصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، و قدّم على كرسيّ الإسكندرية بعد كلوتيانو غرنبو بطركا، فأقام اثنتى عشرة سنة و مات فى

خامس أمشير، و فى أيام بطركيته اتفق رأى البطاركة بجميع الأمصار على حساب فصح النصارى و صومهم، و رتبوا كيف يستخرج، و وضعوا حساب الأبقطى، و به يستخرجون معرفة وقت صومهم و فصحهم، و استمرّ الأمر على ما رتبوه فيما بعد، و كانوا قبل ذلك يصومون بعد الغطاس أربعين يوما كما صام المسيح عليه السلام، و يفطرون. و فى عيد الفسح يعملون الفسح مع اليهود فنقل هؤلاء البطاركة الصوم و أوصلوه بعيد الفسح، لأنّ عيد الفسح كانت فيه قيامة المسيح من الأموات بزعمهم، و كان الحواريون قد أمروا أن لا يغير عن وقته و أن يعملوه كلّ سنة فى ذلك الوقت، ثم أقيم بكرسى الإسكندرية بعد غرنبو فى البطركية بوليانوس، فأقام عشر سنين و مات فى ثامن برمهات، فاستخلف بعده ديمتريوس، فأقام بعده فى البطركية ثلاثا و ثلاثين سنة و مات، و كان فلاحا أميّا و له زوجة ذكر عنه أنه لم يجامعها قط، و فى أيامه أثار الملك سوريانوس قيصر على النصارى بلاء كبيرا فى جميع مملكته، و قتل منهم خلقا كثيرا، و قدم مصر و قتل جميع من فيها من النصارى و هدم كنائسهم، و بنى بالإسكندرية هكيلا لأصنامه، ثم أقيم بعده فى بطركية الإسكندرية باركلا، فأقام ست عشرة سنة و مات فى ثامن كيهك، فلقى النصارى من الملك مكسيموس قيصر شدّة عظيمة، و قتل منهم خلقا كثيرا، فلما ملك فيلبش قيصر، أكرم النصارى و قدّم على بطركية الإسكندرية ديوسيوس، فأقام تسع عشرة سنة و مات فى ثالث توت، و فى أيامه كان الراهب انطونيوس المصرىّ، و هو أوّل من ابتدأ بلبس الصوف، و ابتدأ بعمارة الديارات فى البرارى، و أنزل بها الرهبان، و لقى النصارى من الملك داقيوس قيصر شدّة، فإنه أمرهم أن يسجدوا لأصنامه، فأبوا من السجود لها فقتلهم أبرح قتلة، و فرّ منه الفتية أصحاب الكهف من مدينة أفسس و اختفوا فى مغارة فى جبل شرقىّ المدينة، و ناموا فضرب اللّه على آذانهم فلم يزالوا نائمين ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعا، فقام من بعده بالإسكندرية مكسيموس و أقام بطركا اثنتى عشرة سنة و مات فى رابع عشر برمودة، فأقيم بعده تؤوبا بطركا مدّة سبع سنين و تسعة أشهر و مات، و كانت النصارى قبله تصلّى بالإسكندرية خفية من الروم خوفا من القتل، فلاطف تؤوبا الروم و أهدى إليهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة مريم بالإسكندرية، فصلى بها النصارى جهرا، و اشتدّ الأمر على النصارى فى أيام الملك طيباريوس قيصر، و قتل منهم خلقا كثيرا، فلما كانت أيام دقلطيانوس قيصر خالف عليه أهل مصر و الإسكندرية، فقتل منهم خلقا كثيرا، و كتب بغلق كنائس النصارى، و أمر بعبادة الأصنام، و قتل من امتنع منها، فارتدّ خلائق كثيرة جدّا، و أقام فى البطركية بعد تؤوبا بطرس، فأقام إحدى عشرة سنة و قتل فى الإسكندرية بالسيف، و قتل معه امرأته و ابنتاه لامتناعهم من السجود للأصنام، فقام بعده تلميذه ارشلاوش، فأقام ستة أشهر و مات، و بدقلطيانوس هذا و قتله لنصارى مصر يؤرخ قبط مصر إلى يومنا هذا، كما قد ذكرناه فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۷

تاريخ القبط عند ذكر التواريخ من هذا الكتاب، فراجعه. ثم قام من بعده مكسيمانوس قيصر، فاشتدّ على النصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، حتى كانت القتلى منهم تحمل على العجل و ترمى فى البحر، ثم قام بعد أرشلاوش فى بطركية الإسكندرية اسكندروس تلميذ بطرس الشهيد، فأقام ثلاثا و عشرين سنة و مات فى ثانى عشرى برمودة، و فى بطركيته كان مجمع النصارى بمدينة نيقية، و فى أيامه كتب النصارى و غيرهم من أهل رومية إلى قسطنطين، و كان على مدينة بزنطية يحثونه على أن ينقذهم من جور مكسيمانوس، و شكوا إليه عتوّه، فأجمع على المسير لذلك، و كانت أمّه هيلانى من أهل قرى مدينة الرها قد تنصرت على يد أسقف الرها، و تعلمت الكتب، فلما مرّ بقريتها قسطس صاحب شرطة دقلطيانوس رآها فأعجبته فتزوّجها و حملها إلى بزنطية، مدينته، فولدت له قسطنطين، و كان جميلا، فأنذر دقلطيانوس منجموه بأن هذا الغلام قسطنطين سيملك الروم و يبدّل دينهم، فأراد قتله، ففرّ منه إلى الرها و تعلم بها الحكمة اليونانية حتى مات دقلطيانوس، فعاد إلى بزنطية فسلمها له أبوه قسطس و مات، فقام بأمرها بعد أبيه إلى أن استدعاه أهل رومية، فأخذ يدبر فى مسيره، فرأى فى منامه كواكب فى السماء على هيئة الصليب، و صوت من السماء يقول له احمل هذه العلامة تنتصر على عدوّك، فقص رؤياه على أعوانه و عمل شكل الصليب على أعلامه و بنوده و سار لحرب مكسيمانوس برومية، فبرز إليه و حاربه فانتصر قسطنطين عليه و ملك رومية و تحوّل منها فجعل دار ملكه قسطنطينية، فكان هذا ابتداء رفع الصليب و ظهوره فى الناس،

فاتخذه النصارى من حينئذ و عظموه حتى عبدوه، و أكرم قسطنطين النصارى و دخل فى دينهم بمدينة نيقومديا فى السنة الثانية عشرة من ملكه على الروم، و أمر ببناء الكنائس فى جميع ممالكه و كسر الأصنام، و هدم بيوتها، و عمل المجمع بمدينة نيقية، و سببه أن الإسكندروس بطرك الإسكندرية منع آريوس من دخول الكنيسة و حرمه لمقاتلته، و نقل عن بطرس الشهيد بطرك إسكندرية أنه قال عن آريوس أنّ إيمانه فاسد، و كتب بذلك إلى جميع البطاركة، فمضى آريوس إلى الملك قسطنطين و معه أسقفان، فاستغاثوا به و شكوا الإسكندروس فأمر بإحضاره من الإسكندرية، فحضر هو و آريوس و جمع له الأعيان من النصارى ليناظروه، فقال آريوس كان الأب إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الابن فصار كلمة له، فهو محدث مخلوق فوّض إليه الأب كلّ شيء، فخلق الابن المسمى بالكلمة كلّ شيء من السماوات و الأرض و ما فيهما، فكان هو الخالق بما أعطاه الأب، ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم و روح القدس فصار ذلك مسيحا، فإذا المسيح معنيان كلمة و جسد، و هما جميعا مخلوقان. فقال الإسكندروس أيما أوجب، عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا؟

فقال آريوس بل عبادة من خلقنا أوجب. فقال الإسكندروس: فإن كان الابن خلقنا كما وصفت و هو مخلوق فعبادته أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق، بل تكون عبادة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۸

الخالق كفرا و عبادة المخلوق إيمانا، و هذا أقبح القبيح، فاستحسن الملك قسطنطين كلام اسكندروس و أمره أن يحرم آريوس فحرمه. و سأل اسكندروس الملك أن يحضر الأساقفة، فأمر بهم فأتوه من جميع ممالكه، و اجتمعوا بعد ستة أشهر بمدينة نيقية و عدّتهم ألفان و ثلاثمائة و أربعون أسقفا مختلفون فى المسيح، فمنهم من يقول الابن من الأب بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة أخرى فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، و هذه مقالة سيليوس الصعيديّ و من تبعه، و منهم من قال إن مريم لم تحمل بالمسيح تسعة أشهر بل مرّ بأحشائها كمرور الماء بالميزاب، و هذا قول إليان و من تبعه، و منهم من قال المسيح بشر مخلوق و أن ابتداء الابن من مريم، ثم إنه اصطفى فصحبته النعمة الإلهية بالمحبة و المشيئة، و لذلك سمى ابن اللّه تعالى عن ذلك، و مع ذلك فاللّه واحد قيوم و أنكر هؤلاء الكلمة و الروح فلم يؤمنوا بهما، و هذا قول بولص السميساطىّ بطرك أنطاكية و أصحابه، و منهم من قال الآلهة ثلاثة صالح و طالح و عدل بينهما، و هذا قول مرقيون و أتباعه، و منهم من قال المسيح و أمه إلهان من دون اللّه، و هذا قول المرائمة من فرق النصارى، و منهم من قال بل اللّه خلق الابن و هو الكلمة فى الأزل كما خلق الملائكة روحا طاهرة مقدّسة بسيطة مجرّدة عن المادّة، ثم خلق المسيح فى آخر الزمان من أحشاء مريم البتول الطاهرة، فاتحد الابن المخلوق فى الأزل بإنسان المسيح فصارا واحدا، و منهم من قال الابن مولود من الأب قبل كل الدهور، غير مخلوق، و هو جوهر من جوهره، و نور من نوره، و أن الابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا و هو المسيح، و هذا قول الثلاثمائة و ثمانية عشر، فتحير قسطنطين فى اختلافهم و كثر تعجبه من ذلك و أمر بهم فأنزلوا فى أماكن و أجرى لهم الأرزاق و أمرهم أن يتناظروا حتى يتبين له صوابهم من خطأهم، فثبت الثلاثمائة و ثمانية عشر على قولهم المذكور و اختلف باقيهم فمال قسطنطين إلى قول الأكثر و أعرض عما سواه و أقبل على الثلاثمائة و أمر لهم بكراسى و أجلسهم عليها، و دفع إليهم سيفه و خاتمه، و بسط أيديهم فى جميع مملكته، فباركوا عليه و وضعوا له كتاب قوانين الملوك و قوانين الكنيسة، و فيه ما يتعلق بالمحاكمات و المعاملات و المناكحات، و كتبوا بذلك إلى سائر المماليك، و كان رئيس هذا المجمع الإسكندروس بطرك الإسكندرية، و اسطارس بطرك أنطاكية، و مقاريوس أسقف القدس، و وجه سلطوس بطرك رومية بقسيسين اتفقا معهم على حرمان آريوس فحرموه و نفوه، و وضع الثلاثمائة و ثمانية عشر الأمانة المشهورة عندهم، و أوجبوا أن يكون الصوم متصلا بعيد الفسح على ما رتبه البطاركة فى أيام الملك أوراليانوس قيصر كما تقدّم، و منعوا أن يكون للأسقف زوجة، و كان الأساقفة قبل ذلك إذا كان مع أحدهم زوجة لا يمنع منها إذا عمل أسقفا بخلاف البطرك، فإنه لا يكون له امرأة البتة، و انصرفوا من مجلس قسطنطين بكرامة جليلة، و الإسكندروس هذا هو الذى كسر الصنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالإسكندرية، و كانوا

يعبدونه و يجعلون له عيدا فى ثانى عشر هتور، و يذبحون له الذبائح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۳۹۹

الكثيرة، فأراد الإسكندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الإسكندرية، فاحتال عليهم و تلطف فى حيلته إلى أن قرب العيد، فجمع الناس و وعظهم و قبح عندهم عبادة الصنم و حثهم على تركه، و أن يعمل هذا العيد لميكائيل رئيس الملائكة الذى يشفع فيهم عند الإله، فإن ذلك خير من عمل العيد للصنم، فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلد بعمله، و لا تبطل ذبائحهم فيه، فرضى الناس بهذا و وافقوه على كسر الصنم، فكسره و أحرقه و عمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل، فلم تزل هذه الكنيسة بالإسكندرية إلى أن حرّقها جيوش الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، لما قدموا فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة و استمرّ عيد ميكائيل عند النصارى بديار مصر باقيا يعمل فى كلّ سنة.

و فى السنة الثانية و العشرين من ملك قسطنطين سارت أمّه هيلانى إلى القدس و بنت به كنائس للنصارى، فدلها مقاريوس الأسقف على الصليب و عرّفها ما عملته اليهود، فعاقبت كهنة اليهود حتى دلوها على الموضع، فحفرته فإذا قبر و ثلاث خشبات، زعموا أنهم لم يعرفوا الصليب المطلوب من الثلاث خشبات إلّا بأن وضعت كل واحدة منها على ميت قد بلى، فقام حيا عندما وضعت عليه خشبة منها، فعملوا لذلك عيدا مدّة ثلاثة أيام عرف عندهم بعيد الصليب، و من حينئذ عبد النصارى الصليب، و عملت له هيلانى غلافا من ذهب و بنت كنيسة القيامة التى تعرف اليوم بكنيسة قمامة، و أقامت مقاريوس الأسقف على بناء بقية الكنائس، و عادت إلى بلادها، فكانت مدّة ما بين ولادة المسيح و ظهور الصليب ثلاثمائة و ثمان و عشرين سنة، ثم قام فى بطركية الإسكندرية بعد اسكندروس تلميذه ايناسيوس الرسولىّ، فأقام ستا و أربعين سنة و مات بعد ما ابتلى بشدائد، و غاب عن كرسيه ثلاث مرّات، و فى أيامه جرت مناظرات طويلة مع أوسانيوس للأسقف آلت إلى ضربه و فراره، فإنه تعصب لآريوس و قال: إنه لم يقل إن المسيح خلق الأشياء، و إنما قال به خلق كل شيء لأنه كلمة اللّه التى بها خلق السماوات و الأراض، و إنما خلق اللّه تعالى جميع الأشياء بكلمته، فالأشياء به كوّنت لا أنه كوّنها، و إنما الثلاثمائة و ثمانية عشر تعدّوا عليه، و فى أيامه تنصر جماعة من اليهود و طعن بعضهم فى التوراة التى بأيدى اليهود، و أنهم نقصوا منها، و أن الصحيحة هى التى فسرها السبعون، فأمر قسطنطين اليهود بإحضارها، و عاقبهم على ذلك حتى دلوه على موضعها بمصر، فكتب بإحضارها فحملت إليه، فإذا بينها و بين توراة اليهود نقص ألف و ثلاثمائة و تسع و ستين سنة، زعموا أنهم نقصوها من مواليد من ذكر فيها لأجل المسيح، و فى أيامه بعثت هيلانى بمال عظيم إلى مدينة الرها فبنى به كنائسها العظيمة، و أمر قسطنطين بإخراج اليهود من القدس و ألزمهم بالدخول فى دين النصرانية، و من امتنع منهم قتل، فتنصر كثير منهم و امتنع أكثرهم فقتلوا، ثم امتحن من تنصر منهم بأن جمعهم يوم الفسح فى الكنيسة و أمرهم بأكل لحم الخنزير، فأبى أكثرهم أن يأكل منه، فقتل منهم فى ذلك اليوم خلائق كثيرة جدّا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۰

و لما قام قسطنطين بن قسطنطين فى الملك بعد أبيه، غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية و أنطاكية و الإسكندرية، و صار أكثر أهل الإسكندرية و أرض مصر آريوسيين و منانيين، و استولوا على ما بها من الكنائس، و مال الملك إلى رأيهم، و حمل الناس عليه، ثم رجع عنه و زعم ابريس أسقف القدس أنه ظهر من السماء على القبر الذى بكنيسة القيامة شبه صليب من نور فى يوم عيد العنصرة، لعشرة أيام من شهر أيار فى الساعة الثالثة من النهار، حتى غلب نوره على نور الشمس، و رآه جميع أهل القدس عيانا، فأقام فوق القبر عدّة ساعات و الناس تشاهده، فآمن يومئذ من اليهود و غيرهم عدّة آلاف كثيرة. ثم لما ملك موليهانوس ابن عم قسطنطين اشتدّت نكايته للنصارى و قتل منهم خلقا كثيرا، و منعهم من النظر فى شيء من الكتب، و أخذ أوانى الكنائس و الديارات، و نصب مائدة كبيرة عليها أطعمة مما ذبحه لأصنامه، و نادى من أراد المال فليضع البخور على النار، و ليأكل من ذبائح الحنفاء، و يأخذ ما يريد من المال، فامتنع كثير من الروم و قالوا نحن نصارى، فقتل منهم خلائق و محا الصليب من أعلامه و بنوده، و فى أيامه سكن القدّيس

أريانوس برّية الأردن و بنى بها الديارات، و هو أوّل من سكن برّية الأردن من النصارى. فلما ملك يوسيانوس على الروم و كان متنصرا، عاد كل من كان فرّ من الأساقفة إلى كرسيه، و كتب إلى أبناسيوس بطرك الإسكندرية أن يشرح له الأمانة المستقيمة، فجمع الأساقفة و كتبوا له أن يلزم أمانة الثلاثمائة و ثمانية عشر. فثار أهل الإسكندرية على إيناسيوس ليقتلوه، ففرّ. و أقاموا بدله لوقيوس، و كان آريوسيا، فاجتمع مع الأساقفة بعد خمسة أشهر و حرموه و نفوه، و أعادوا ايناسيوس إلى كرسيه، فأقام بطركا إلى أن مات، فخلفه بطرس ثم وثب الآريسيون عليه بعد سنتين ففرّ منهم و أعادوا لوقيوس، فأقام بطركا ثلاث سنين، و وثب عليه أعداؤه ففرّ منهم، فردّوا بطرس فى العشرين من أمشير، فأقام سنة. و قدم فى أيام واليس ملك الروم آريوس أسقف أنطاكية إلى الإسكندرية بإذن الملك، و أخرج منها جماعة من الروم، و حبس بطرس بطركها و نصب بدله آريوس السميساطىّ، ففرّ بطرس من الحبس إلى رومية و استجار ببطركها، و كان واليس آريوسيا، فسار إلى زيارة كنيسة مارتوما بمدينة الرها و نفى أسقفها و جماعة معه إلى جزيرة رودس، و نفى سائر الأساقفة لمخالفتهم لرأيه ما عدا اثنين، و أقام فى بطركية الإسكندرية طيماتاوس، فأقام سبع سنين و مات. و فى أيامه كان المجمع الثانى من مجامع النصارى بقسطنطينية فى سنة اثنتى عشرة و مائة لدقلطيانوس، فاجتمع مائة و خمسون أسقفا و حرموا مقدينون عدوّ روح القدس، و كلّ من قال بقوله. و سبب ذلك أنه قال أنّ روح القدس مخلوق، و حرموا معه غير واحد لعقائد شنيعة تظاهروا بها فى المسيح، و زاد الأساقفة فى الأمانة التى رتبها الثلاثمائة و ثمانية عشر: و نؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب، قلت تعالى اللّه عما يقولون علوّا كبيرا، و حرّموا أن يزاد فيها بعد ذلك شىء أو ينقص منها شىء، و كان هذا المجمع بعد مجمع نيقية بثمان و خمسين سنة، و فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۱

أيامه بنيت عدّة كنائس بالإسكندرية، و استتيب جماعة كثيرة من مقالة آريوس، و فى أيامه أطلق للأساقفة و الرهبان أكل اللحم يوم الفسح ليخالفوا الطائفة المنانية، فإنهم كانوا يحرّمون أكل اللحم مطلقا، و ردّ الملك أغراديانوس كلّ من نفاه واليس من الأساقفة، و أمر أن يلزم كلّ واحد دينه ما خلا المنانية، ثم أقيم بكرسى الإسكندرية تاوفيلا، فأقام سبعا و عشرين سنة و مات فى ثامن عشر بابه، و فى أيامه ظهر الفتية أهل الكهف، و كان تاوداسيوس إذ ذاك ملكا على الروم، فبنى عليهم كنيسة و جعل لهم عيدا فى كل سنة، و اشتدّ الملك تاوداسيوس على الأريسيين و ضيّق عليهم، و أمر فأخذت منهم كنائس النصارى بعد ما حكموها نحو أربعين سنة، و أسقط من جيشه من كان آريوسيا، و طرد من كان فى ديوانه و خدمه منهم، و قتل من الحنفاء كثيرا، و هدم بيوت الأصنام بكلّ موضع، و فى أيامه بنيت كنيسة مريم بالقدس، و فى أيام الملك ارغاديوس بنى دير القصر المعروف الآن بدير البغل فى جبل المقطم شرقىّ طرا خارج مدينة فسطاط مصر. ثم أقيم فى بطركية الإسكندرية كرلص، فأقام اثنتين و ثلاثين سنة و مات فى ثالث أبيب، و هو أوّل من أقام القومة فى كنائس الإسكندرية و أرض مصر. و فى أيامه كان المجمع الثالث من مجامع النصارى بسبب نسطورس بطرك قسطنطين، فإنه منع أن تكون مريم أمّ عيسى و قال: إنما ولدت مريم إنسانا اتحد بمشيئة الإله، يعنى عيسى، فصار الاتحاد بالمشيئة خاصة لا بالذات، و أن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة و الكرامة، و قال: إن المسيح حلّ فيه الابن الأزلىّ و إنى أعبده لأنّ الإله حلّ فيه، و إنه جوهران و أقنومان و مشيئة واحدة، و قال فى خطبته يوم الميلاد: أن مريم ولدت إنسانا، و أنا لا أعتقد فى ابن شهرين و ثلاثة الإلهية، و لا أسجد له سجودى للإله، و كان هذا هو اعتقاد تادروس و ديوادارس الأسقفين، و كان من قولهما أن المولود من مريم هو المسيح، و المولود من الأب هو الابن الأزلىّ، و أنه حلّ فى المسيح فسمى ابن اللّه بالموهبة و الكرامة، و أن الاتحاد بالمشيئة و الإرادة، و أثبتوا للّه تعالى عن قولهم ولدين، أحدهما بالجوهر و الآخر بالنعمة، فلما بلغ كرلص بطرك الإسكندرية مقالة نسطورس كتب إليه يرجعه عنها فلم يرجع، فكتب إلى أكليمس بطرك رومية، و إلى يوحنا بطرك أنطاكية، و إلى يوناليوس أسقف القدس يعرّفهم بذلك، فكتبوا بأجمعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف، و لم يحضر يوحنا بطرك أنطاكية، و امتنع نسطورس من المجىء إليهم بعد ما كرّروا الإرسال فى

طلبه غير مرّة، فنظروا فى مقالته و حرموه و نفوه، فحضر بعد ذلك يوحنا فعز عليه فصل الأمر قبل قدومه و انتصر لنسطورس و قال قد حرموه بغير حق، و تفرّقوا من أفسس على شرّ، ثم اصطلحوا و كتب المشرقيون صحيفة بأمانتهم و بحرمان نسطورس، و بعثوا بها إلى كرلص فقبلها و كتب إليهم بأن أمانته على ما كتبوا، فكان بين المجمع الثانى و بين هذا المجمع خمسون، و قيل خمس و خمسون سنة، و أما نسطورس فإنه نفى إلى صعيد مصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۲

فنزل مدينة اخميم و أقام بها سبع سنين و مات، فدفن بها، و ظهرت مقالته فقبلها برصوما أسقف نصيبين، و دان بها نصارى أرض فارس و العراق و الموصل و الجزيرة إلى الفرات، و عرفوا إلى اليوم بالنسطورية.

ثم قدّم تاوداسيوس ملك الروم فى الثانية من ملكه ديسقورس بطركا بالإسكندرية، فظهر فى أيامه مذهب أوطاخى، أحد القنومين بالقسطنطينية، و زعم أن جسد المسيح لطيف غير مساو لأجسادنا، و أن الابن لم يأخذ من مريم شيئا، فاجتمع عليه مائة و ثلاثون أسقفا و حرموه، و اجتمع بالإسكندرية كثير من اليهود فى يوم الفسح و صلبوا صنما على مثال المسيح و عبثوا به، فثار بينهم و بين النصارى شرّ قتل فيه بين الفريقين خلق كثير، فبعث إليهم ملك الروم جيشا قتل أكثر يهود الإسكندرية، و كان المجمع الرابع من مجامع النصارى بمدينة خلقدونية، و سببه أن ديسقورس بطرك الإسكندرية قال أن المسيح جوهر من جوهرين، و قنوم من قنومين، و طبيعة من طبيعتين، و مشيئة من مشيئتين، و كان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد، و أهل مملكته أنه جوهران و طبيعتان و مشيئتان و قنوم واحد، فلما رأى الأساقفة أن هذا رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه ما خلا ديسقورس و ستة أساقفة، فإنهم لم يوافقوا الملك، و كتب من عداهم من الأساقفة خطوطهم بما اتفقوا عليه، فبعث ديسقورس يطلب منهم الكتاب ليكتب فيه، فلما وصل إليه كتابهم كتب فيه أمانته هو، و حرمهم و كل من يخرج عنها، فغضب الملك مرقيانوس و همّ بقتله، فأشير عليه بإحضاره و مناظرته، فأمر به فحضر و حضر ستمائة و أربعة و ثلاثون أسقفا، فأشار الأساقفة و البطاركة على ديسقورس بموافقة رأى الملك، و استمراره على رياسته، فدعا للملك، و قال لهم:

الملك لا- يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته و تدبيرها، و يدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة، فإنهم يعرفون الكتب، و لا يكون له هوى مع أحد، و يتبع الحق، فقالت بلخارية زوجة الملك مرقيانوس و كانت جالسة بإزائه، ياديسقورس قد كان فى زمان أمى إنسان قوىّ الرأس مثلك، و حرموه و نفوه عن كرسيه، تعنى يوحنا فم الذهب بطرك قسطنطينية، فقال لها قد عملت ما جرى لأمّك و كيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه إلى أن مضت إلى جسد يوحنا فم الذهب و استغفرت فعوفيت، فحنقت من قوله و لكمته فانقلع له ضرسان، و تناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته، و أمر الملك بحرمانه و نفيه عن كرسيه، فاجتمعوا عليه و حرموه و نفوه، و أقيم عوضه برطاوس، و من هذا المجمع افترق النصارى و صاروا ملكية على مذهب مرقيانوس الملك، و يعقوبية على رأى ديسقورس، و ذلك فى سنة ثلاث و تسعين و مائة لدقلطيانوس، و كتب مرقيانوس إلى جميع مملكته أن كل من لا يقول بقوله يقتل، فكان بين المجمع الثالث و بين هذا المجمع إحدى و عشرون سنة، و أما ديسقورس فإنه أخذ ضرسيه و شعر لحيته و أرسلها إلى الإسكندرية و قال: هذه ثمرة تعبى على الأمانة، فتبعه أهل إسكندرية و مصر، و توجه فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۳

نفيه فعبر على القدس و فلسطين و عرّفهم مقالته فتبعوه، و قالوا بقوله، و قدّم عدّة أساقفة يعقوبية، و مات و هو منفىّ فى رابع توت، فكانت مدّة بطركيته أربع عشرة سنة، و بقى كرسىّ المملكة بغير بطرك مدّة مملكة مرقيانوس، و قيل بل قدّم برطاوس، و قد اختلف فى تسمية اليعقوبية بهذا، فقيل إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركية يعقوب، و أنه كان يكتب و هو منفىّ إلى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفىّ يعقوب، و قيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، و كان يرسله و هو منفىّ إلى أصحابه فنسبوا إليه، و قيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية، و كان على رأى ديسقورس، فكان ساويرس يبعث يعقوب إلى النصارى و يثبتهم على أمانة

ديسقورس فنسبوا إليه، و قيل بل كان يعقوب كثير العبادة و الزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعيّ من أجل ذلك، و أنه كان يطوف البلاد و يردّ الناس إلى مقالة ديسقورس، فنسب من اتبع رأيه إليه و سموا يعقوبية. و يقال ليعقوب أيضا يعقوب السروجيّ. و في أيام مرقيانوس كان سمعان الحبيس صاحب العمود، و هو أوّل راهب سكن صومعة، و كان مقامه بمغارة في جبل أنطاكية، و لما مات مرقيانوس وثب أهل الإسكندرية على برطاوس البطرك و قتلوه في الكنيسة و حملوا جسده إلى الملعب الذي بناه بطليموس و أحرقوه بالنار من أجل أنه ملكيّ الاعتقاد فكانت مدّة بطركيته ست سنين، و أقاموا عوضه طيماتاوس، و كان يعقوبيا، فأقام ثلاث سنين، و قدم قائد من قسطنطينية فنفاه، و أقام عوضه ساويرس، و كان ملكيا، فأقام اثنتين و عشرين سنة و مات في سابع مسرى. فلما ملك زنبون بن لاون الروم، أكرم اليعقوبية و أعزهم لأنه كان يعقوبيا، و كان يحمل إلى دير يوقنا كلّ سنة ما يحتاج إليه من القمح و الزيت، و هرب ساويرس من كرسيّ الإسكندرية إلى وادي هيب، و رجع طيماتاوس من نفيه، فأقام بطركا سنتين و مات. فأقيم بعده بطرس فأقام ثماني سنين و سبعة أشهر و ستة أيام و مات في رابع هتور، فأقيم بعده اثناسيوس، فأقام سبع سنين و مات في العشرين من توت، و في أيامه احترق الملعب الذي بناه بطلميوس. و أقيم يوحنا في بطركية الإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام تسع سنين و مات في رابع بشنس، فخلا الكرسيّ بعده سنة، ثم أقيم يوحنا الحبيس، فأقام إحدى و عشرين سنة و مات في سابع عشرى بشنس. فأقيم بعده ديسقورس الجديد، فأقام سنتين و خمسة أشهر و مات في سابع عشر بابه، و كتب إيليا بطرك القدس إلى نسطاس ملك الروم بأن يرجع عن مقالة اليعقوبية إلى مقالة الملكية، و بعث إليه جماعة من الرهبان بهدية سنية، فقبل هديته و أجاز الرهبان بجوائز جليلة و جهز له مالا جزيلا لعمارة الكنائس و الديارات و الصدقات، فتوجه ساويرس إلى نسطاس و عرّفه أن الحق هو اعتقاد اليعقوبية، فأمر أن يكتب إلى جميع مملكته بقبول قول ديسقورس و ترك المجمع الخلقدونيّ، فبعث إليه بطرك أنطاكية بأن هذا الذي فعلته غير واجب، و أن المجمع الخلقدونيّ هو الحق، فغضب الملك و نفاه و أقام بدله، فأمر إيليا

بطرك القدس بجمع الرهبان و رؤساء الديارات، فاجتمع له منهم عشرة آلاف نفس و حرموا نسطاس الملك، و من يقول بقوله، فأمر نسطاس بنفي إيليا إلى مدينة إيلة، فاجتمع بطاركة الملكية و أساقفتهم و حرموا الملك نسطاس و من يقول بقوله، و في أيام نسطايوس الملك ألزم الحنفاء أهل حرّان و هم الصابئة بالتنصر، فتنصر كثير منهم، و قتل أكثرهم على امتناعهم من دين النصرانية، و ردّ جميع من نفاه نسطاس من الملكية، فإنه كان ملكيا، و أقيم طيماتاوس في بطركية الإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام ثلاث سنين و نفى، و أقيم بدله أبو ليناريوس و كان ملكيا، فجدّ في رجوع النصارى بأجمعهم إلى رأى الملكية، و بذل جهده في ذلك و ألزم نصارى مصر بقبول الأمانة المحدثة. فوافقوه و وافقه رهبان ديارات بومقار بوادي هبيب، هذا و يعقوب البراذعيّ يدور في كلّ موضع و يثبت أصحابه على الأمانة التي زعم أنها مستقيمة، و أمر الملك جميع الأساقفة بعمل الميلاد في خامس عشرى كانون الأوّل، و بعمل الغطاس لست تخلو من كانون الثاني، و كان كثير منهم يعمل الميلاد و الغطاس في يوم واحد، و هو سادس كانون الثاني، و على هذا الرأي الأرمن إلى يومنا هذا، و في هذه الأيام ظهر يوحنا النحويّ بالإسكندرية و زعم أن الأب و الابن و روح القدس ثلاثة آلهة و ثلاث طبائع و جوهر واحد، و ظهر يوليان و زعم أن جسد المسيح نزل من السماء و أنه لطيف روحانيّ لا يقبل الآلام إلّا عند مقارفة الخطيئة، و المسيح لم يقارف خطيئته، فلذلك لم يصلب حقيقة و لم يتألم و لم يمت، و إنما ذلك كله خيال، فأمر الملك البطرك طيماتاوس أن يرجع إلى مذهب الملكية فلم يفعل، فأمر بقتله. ثم شفع فيه و نفى و أقيم بدله بولص، و كان ملكيا، فأقام سنتين فلم يرضه اليعاقبة، و قيل أنهم قتلوه و صيروا عوضه بطركا ديلوس، و كان ملكيا فأقام خمس سنين في شدّة من التعب و أرادوا قتله فهرب، و أقام في هربه خمس سنين و مات، فبلغ ملك الروم يوسطيانوس أن اليعقوبية قد غلبوا على الإسكندرية و مصر، و أنهم لا يقبلون بطاركته، فبعث أثوليناريوس أحد قوّاده و ضم إليه عسكرا كبيرا إلى الإسكندرية، فلما قدمها و دخل الكنيسة نزع عنه ثياب الجند و لبس ثياب البطاركة و قدّس، فهمّ ذلك الجمع برجمه فانصرف. و جمع عسكره و أظهر أنه قد أتاه كتاب الملك ليقرأه على الناس، و

ضرب الجرس فى الإسكندرية يوم الأحد، فاجتمع الناس إلى الكنيسة حتى لم يبق أحد، فطلع المنبر و قال: يا أهل الإسكندرية، إن تركتم مقالة اليعقوبية و إلّا أخاف أن يرسل الملك فيقتلكم و يستبيح أموالكم و حريمكم، فهموا برجمه، فأشار إلى الجند فوضعوا السيف فيهم، فقتل من الناس ما لا يحصى عدده، حتى خاض الجند فى الدماء، و قيل إنّ الذى قتل يومئذ مائتا ألف إنسان، و فرّ منهم خلق إلى الديارات بوادى هبيب، و أخذ الملكية كنائس اليعاقبة، و من يومئذ صار كرسيّ اليعقوبية فى دير بومقار بوادى هبيب.

و فى أيامه ثارت السامرة على أرض فلسطين و هدموا كنائس النصارى، و أحرقوا ما فيها، و قتلوا جماعة من النصارى، فبعث الملك جيشا قتلوا من السامرة خلقا كثيرا، و وضع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۵

من خراج فلسطين جملة، و جدّد بناء الكنائس و أنشأ مارستانا ببيت المقدس للمرضى، و وسع فى بناء كنيسة بيت لحم، و بنى ديرا بطور سيناء، و عمل عليه حصنا حوله عدّة قلالى و رتب فيها حرسا لحفظ الرهبان. و فى أيامه كان المجمع الخامس من مجامع النصارى، و سببه أن أريجانس أسقف مدينة منبج قال بتناسخ الأرواح، و قال كلّ من أسقف أنقرة و أسقف المصيصة و أسقف الرها أن جسد المسيح خيال لا حقيقيّ، فحملوا إلى القسطنطينية و جمع بينهم و بين بطركها أوطس و ناظرهم و أوقع عليهم الحرمان، فأمر الملك أن يجمع لهم مجمع، و أمر بإحضار البطاركة و الأساقفة، فاجتمع مائة و أربعون أسقفا و حرموا هؤلاء الأساقفة و من يقول بقولهم، فكان بين المجمع الرابع الخلقدونيّ و بين هذا المجمع مائة و ثلاث و ستون سنة. و لما مات القائد الذى عمل بطرك الإسكندرية بعد سبع عشرة سنة، أقيم بعده يوحنا، و كان منانيا، فأقام ثلاث سنين و مات، و قدّم اليعاقبة بطركا اسمه تاوداسيوس، أقام مدّة اثنتين و ثلاثين سنة، و قدّم الملكية بطركا اسمه داقيوس، فكتب الملك إلى متولى الإسكندرية أن يعرض على بطرك اليعاقبة أمانة المجمع الخلقدونيّ، فإن لم يقبلها أخرجه، فعرض عليه ذلك فلم يقبله، فأخرجه و أقام بعده بولص التنيسيّ فلم يقبله أهل الإسكندرية، و مات فغلقت كنائس القبط اليعاقبة، و أصابهم من الملكية شدائد كثيرة، و استجدّ اليعاقبة بالإسكندرية كنيستين فى سنة ثمان و أربعين و مائتين لدقلطيانوس، و مات تاوداسيوس ثامن عشرى بؤنة بعد اثنتين و ثلاثين سنة من بطركيته، منها مدة أربع سنين مدة نفيه فى صعيد مصر و أقيم بعده بطرس و كان يعقوبيا فى خفية بدير الزجاج بالإسكندرية قدّمه ثلاثة أساقفة، فأقام سنتين و مات فى خامس عشرى بؤنة ... من اليعاقبة سنة واحدة.

و فى سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة، أقيم داميانو بطركا بالإسكندرية، و كان يعقوبيا، فأقام ستا و ثلاثين سنة و مات، فى ثامن عشرى بؤنة، و فى أيامه خربت الديارات، و أقام الملكية لهم بالإسكندرية بطركا منانيا اسمه أثناس، فأقام خمس سنين و مات، فأقيم بعده يوحنا و كان منانيا، و لقب القائم بالحق، فأقام خمسة أشهر و مات، فأقيم بعده يوحنا القائم بالأمر، و كان ملكيا فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و فى أيام الملك طيباريوس ملك الروم بنى النصارى بالمدائن، مدائن كسرى، هيكلا، و بنوا أيضا بمدينة واسط هيكلا آخر.

و فى أيام الملك موريق قيصر، زعم راهب اسمه مارون، أن المسيح عليه السلام طبيعتان و مشيئة واحدة و اقنوم واحد، فتبعه على رأيه أهل حماه و قنسرين و العواصم و جماعة من الروم و دانوا بقوله، فعرفوا بين النصارى بالمارونية، فلما مات مارون بنوا على اسمه دير مارون بحماه.

و فى أيام فوقا ملك الروم بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام و مصر، فخرّبوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۶

كنائس القدس و فلسطين و عامّة بلاد الشام، و قتلوا النصارى بأجمعهم، و أتوا إلى مصر فى طلبهم، فقتلوا منهم أمّة كبيرة و سبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر، و ساعدهم اليهود فى محاربة النصارى و تخريب كنائسهم، و أقبلوا نحو الفرس من طبرية و جبل الجليل و قرية الناصرة و مدينة صور و بلاد القدس، فنالوا من النصارى كلّ منال، و أعظموا النكاية فيهم، و خرّبوا لهم كنيستين بالقدس، و حرّقوا أماكنهم، و أخذوا قطعة من عود الصليب، و أسروا بطرك القدس و كثيرا من أصحابه، ثم مضى كسرى بنفسه من العراق لغزو

قسطنطينية تخت ملك الروم، فحاصرها أربع عشرة سنة، و فى أيام فوقا أقيم يوحنا الرحوم بطرك الإسكندرية على الملكية، فدبر أرض مصر كلها عشر سنين و مات بقبرص، و هو فارّ من الفرس، فخلا كرسيّ اسكندرية من البطركية سبع سنين لخلوّ أرض مصر و الشام من الروم، و اختفى من بقى بها من النصارى خوفا من الفرس، و قدّم اليعاقبة نسطاسيوس بطركا، فأقام اثنتى عشرة سنة و مات فى ثانى عشرى كيهك، سنة ثلاثين و ثلاثمائة لدقلطيانوس، فاستردّ ما كانت الملكية قد استولت عليه من كنائس اليعاقبة، و رمّ ما شعثه الفرس منها، و كانت إقامته بمدينة الإسكندرية، فأرسل إليه اناسيوس بطرك أنطاكية هدية صحبة عدّة كثيرة من الأساقفة، ثم قدم عليه زائرا فتلقاه و سرّ بقدومه، و صارت أرض مصر فى أيامه جميعها يعاقبة لخلوّها من الروم، فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور و راسلوا بقيتهم فى بلادهم، و تواعدوا على الإيقاع بالنصارى و قتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا، و هدموا كنائس النصارى خارج صور، فقوى النصارى عليهم و كاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة و قتل منهم خلق كثير، و كانه هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية و غلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام و مصر و يجدّد ما خرّبه الفرس منها، فخرج إليه اليهود من طبرية و غيرها و قدّموا له الهدايا الجليلة و طلبوا منه أن يؤمّنهم و يحلف لهم على ذلك، فأمّنهم و حلف لهم، ثم دخل القدس و قد تلقاه النصارى بالأناجيل و الصلبان و البخور و الشموع المشعلة، فوجد المدينة و كنائسها و قمامتها خرابا، فساءه ذلك و توجع له، و أعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس و إيقاعهم بالنصارى و تخريبهم الكنائس، و أنهم كانوا أشدّ نكاية لهم من الفرس، و قاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم، و حثوا هرقل على الوقيعة بهم، و حسنوا له ذلك، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم و حلفه، فأفتاه رهبانهم و بطارکتهم و قسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمّنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، و أنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا و يلزموا النصارى بصوم جمعة فى كلّ سنة عنه على ممرّ الزمان و الدهور، فمال إلى قولهم و أوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر و الشام منهم إلّا من فرّ و اختفى، فكتب البطارقة و الأساقفة إلى جميع البلاد بإلزام النصارى بصوم أسبوع فى السنة، فالتزموا صومه إلى اليوم، و عرفت عندهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۷

بجمعة هرقل، و تقدّم هرقل بعمارة الكنائس و الديارات و أنفق فيها مالا كبيرا. و فى أيامه أقيم ادراسلون بطرك اليعاقبة بالإسكندرية، فأقام ست سنين و مات فى ثامن طوبه، فخربت الديارات فى مدّة بطركيته، و أقيم بعده على اليعاقبة بنيامين، فعمر الدير الذى يقال له دير أبو بشاى، و دير سيدة أبو بشاى، و هما فى وادى هبيب، فأقام تسعا و ثلاثين سنة، ملك الفرس منها مصر عشر سنين، ثم قدم هرقل فقتل الفرس بمصر و أقام فيرش بطرك الإسكندرية، و كان منانيا، و طلب بنيامين ليقتله فلم يقدر عليه لفراره منه، و كان هرقل مارونيا فظفر بمينا أخى بنيامين فأحرقه بالنار عداوة لليعاقبة، و عاد إلى القسطنطينية فأظهر اللّه دين الإسلام فى أيامه، و خرج ملك مصر و الشام من يد النصارى، و صار النصارى ذمّة للمسلمين، فكانت مدّة النصارى منذ رفع المسيح إلى أن فتحت مصر و صار النصارى من القبط ذمّة للمسلمين ... منها مدّة كونهم تحت أيدى الروم يقتلونهم أبرح قتل بالصلب و التحريق بالنار و الرجم بالحجارة و تقطيع الأعضاء ... و منها مدّة استيلائهم بتنصر الملوك.

ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين و أدائهم الجزية، و اتخاذهم ذمّة لهم، و ما كان فى ذلك من الحوادث و الأنباء

اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، و هم على قسمين متباينين فى أجناسهم و عقائدهم، أحدهما أهل الدولة و كلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، و رأيهم و ديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، و كانت عدّتهم تزيد على ثلاثمائة ألف روميّ. و القسم الآخر عامّة أهل مصر، و يقال لهم القبط، و أنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطيّ من الحبشيّ من النوبيّ من الإسرائيليّ الأصل من غيره، و كلهم يعاقبة، فمنهم كتاب المملكة و منهم التجار و الباعة، و منهم الأساقفة و

القسوس و نحوهم، و منهم أهل الفلاحة و الزرع، و منهم أهل الخدمة و المهنة، و بينهم و بين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم، و يوجب قتل بعضهم بعضا، و يبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جدّا، فإنهم فى الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها و أسفلها، فلما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم و دفعا لهم عن بلادهم، فقاتلهم المسلمون و غلبوهم على الحصن كما تقدّم ذكره، فطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية فصالحهم عليها و أقرّهم على ما بأيديهم من الأراضى و غيرها، و صاروا معه عونا للمسلمين على الروم، حتى هزمهم اللّه تعالى و أخرجهم من أرض مصر، و كتب عمرو لبنيامين بطرك اليعاقبة أمانا فى سنة عشرين من الهجرة، فسرّه ذلك و قدم على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۸

عمرو و جلس على كرسيّ بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة، منها فى ملك فارس لمصر عشر سنين، و باقيها بعد قدوم هرقل إلى مصر، فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر و دياراتها كلها، و انفردوا بها دون الملكية، و يذكر علماء الأخبار من النصارى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أمانا على أنفسهم و أولادهم و نسائهم و أموالهم و جميع كنائسهم لا تهدم و لا تسكن، و أنه جلس فى وسط صحن كنيسة القمامة، فلما حان وقت الصلاة خرج و صلّى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده، ثم جلس و قال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى، و قالوا ههنا صلّى عمر، و كتب كتابا يتضمن أنه لا يصلى أحد من المسلمين على الدرجة إلّا واحد واحد، و لا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها، و لا يؤذنون عليها، و أنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجدا، و كان فوقها تراب كثير، فتناول عمر رضى اللّه عنه من التراب فى ثوبه، فبادر المسلمون لرفعه حتى لم يبق منه شىء، و عمر المسجد الأقصى أمام الصخرة، فلما كانت أيام عبد الملك بن مروان أدخل الصخرة فى حرم الأقصى، و ذلك سنة خمس و ستين من الهجرة، ثم إن عمر رضى اللّه عنه أتى بيت لحم و صلّى فى كنيسته عند الخشبة التى ولد فيها المسيح، و كتب سجلا بأيدى النصارى أن لا يصلى فى هذا الموضع أحد من المسلمين إلّا رجل بعد رجل، و لا يجتمعوا فيه للصلاة، و لا يؤذنوا عليه، و لما مات البطرك بنيامين فى سنة تسع و ثلاثين من الهجرة بالإسكندرية فى إمارة عمرو الثانية، قدّم اليعاقبة بعده أغاثو فأقام سبع عشرة سنة و مات سنة ست و خمسين، و هو الذى بنى كنيسة مرقص بالإسكندرية، فلم تزل إلى أن هدمت فى سلطنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و كان فى أيامه الغلاء مدّة ثلاث سنين، و كان يهتم بالضعفاء، فأقيم بعده إيساك و كان يعقوبيا، فأقام سنتين و أحد عشر شهرا و مات، فقدّم اليعاقبة بعده سيمون السريانىّ، فأقام سبع سنين و نصفا و مات، و فى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم، فامتنع من ذلك حتى يأذن له السلطان، و أقام غيره و خلا بعد موته كرسى الإسكندرية ثلاث سنين بغير بطرك، ثم قدّم اليعاقبة فى سنة إحدى و ثمانين الإسكندروس، فقام أربعا و عشرين سنة و نصفا، و قيل خمسا و عشرين سنة و مات سنة ست و مائة، و مرّت به شدائد صودر فيها مرّتين، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار، و فى أيامه أمّر عبد العزيز بن مروان، فأمر بإحصاء الرهبان فأحصوا و أخذت منهم الجزية عن كلّ راهب دينار، و هى أوّل جزية أخذت من الرهبان.

و لما ولى مصر عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان اشتدّ على النصارى، و اقتدى به قرّة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر، و أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها، و كان عبد اللّه بن الحبحاب متولى الخراج قد زاد على القبط قيراطا فى كلّ دينار، فانتقض عليه عامّة الحوف الشرقىّ من القبط، فحاربهم المسلمون و قتلوا منهم عدّة وافرة فى سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۰۹

سبع و مائة، و اشتدّ أيضا أسامة بن زيد التنوخىّ متولى الخراج على النصارى، و أوقع بهم و أخذ أموالهم، و وسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب و اسم ديره و تاريخه، فكل من وجده بغير و سم قطع يده، و كتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى و ليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير، ثم كبس الديارات و قبض على عدّة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم و ضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب، ثم هدمت الكنائس و كسرت الصلبان و محيت التماثيل و كسرت الأصنام بأجمعها، و كانت كثيرة

فى سنة أربع و مائة، و الخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك، فلما قام هشام بن عبد الملك فى الخلافة، كتب إلى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم و ما بأيديهم من العهد، فقدم حنظلة بن صفوان أميرا على مصر فى ولايته الثانية، فتشدّد على النصارى و زاد فى الخراج، و أحصى الناس و البهائم، و جعل على كلّ نصرانىّ و سما صورة أسد، و تتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، ثم أقام اليعاقبة بعد موت الإسكندروس بطركا اسمه قسيما، فأقام خمسة عشر شهرا و مات، فقدّموا بعده تادرس فى سنة تسع و مائة بعد إحدى عشرة سنة. و فى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمراء ظاهر مدينة مصر، فى سنة سبع عشرة و مائة، فقام جماعة من المسلمين على الوليد بن رفاعة أمير مصر بسببها.

و فى سنة عشرين و مائة قدّم اليعاقبة ميخائيل بطركا، فأقام ثلاثا و عشرين سنة و مات.

و فى أيامه انتقض القبط بالصعيد و حاربوا العمال فى سنة إحدى و عشرين، فحوربوا و قتل كثير منهم، ثم خرج بجنس بسمنود و حارب و قتل فى الحرب، و قتل معه قبط كثير فى سنة اثنتين و ثلاثين و مات، ثم خالفت القبط برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد لما قدم مصر و هزمهم و قبض عبد الملك بن موسى بن نصير أمير مصر على البطرك ميخائيل، فاعتقله و ألزمه بمال، فسار بأساقفته فى أعمال مصر يسأل أهلها، فوجدهم فى شدائد، فعاد إلى الفسطاط و دفع إلى عبد الملك ما حصل له، فأفرج عنه، فنزل به بلاء كبير من مروان، و بطش به و بالنصارى، و أحرق مصر و غلاتها و أسر عدّة من النساء المترهبات ببعض الديارات، و راود واحدة منهنّ عن نفسها، فاحتالت عليه و دفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها إذا ادّهن به الإنسان لا يعمل فيه السلاح، و أوثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها، فتمت حيلتها عليه، و أخرجت زيتا ادّهنت به، ثم مدّت عنقها فضربها بسيفه أطار رأسها، فعلم أنها اختارت الموت على الزنا، و ما زال البطرك و النصارى فى الحديد مع مروان إلى أن قتل ببوصير، فأفرج عنهم. و أما الملكية فإن ملك الروم لاون أقام قسيما بطرك الملكية بالإسكندرية فى سنة سبع و مائة، فمضى و معه هدية إلى هشام بن عبد الملك، فكتب له بردّ كنائس الملكية إليهم، فأخذ من اليعاقبة كنيسة البشارة، و كان الملكية أقاموا سبعا و سبعين سنة بغير بطرك فى مصر، من عهد عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إلى خلافة هشام بن عبد الملك، فغلب اليعاقبة فى هذه المدّة على جميع كنائس مصر و أقاموا بها منهم أساقفة،

و بعث إليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة، فبعثوا إليهم من أساقفة اليعاقبة، فصارت النوبة من ذلك العهد يعاقبة.

ثم لما مات ميخائيل قدّم اليعاقبة فى سنة ست و أربعين و مائة انبامسنا، فأقام سبع سنين و مات. و فى أيامه خرج القبط بناحية سخا و أخرجوا العمال فى سنة خمسين و مائة و صاروا فى جمع، فبعث إليهم يزيد بن حاتم بن قبيصة أمير مصر عسكرا، فأتاهم القبط ليلا و قتلوا عدّة من المسلمين و هزموا باقيهم، فاشتدّ البلاء على النصارى و احتاجوا إلى أكل الجيف، و هدمت الكنائس المحدثة بمصر، فهدمت كنيسة مريم المجاورة لأبى شنودة بمصر، و هدمت كنائس محارس قسطنطين، فبذل النصارى لسليمان بن علىّ أمير مصر فى تركها خمسين ألف دينار، فأبى، فلما ولى بعده موسى بن عيسى أذن لهم فى بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة قاضى مصر، و احتجا بأنّ بناءها من عمارة البلاد، و بأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلّا فى الإسلام فى زمن الصحابة و التابعين، فلما مات انبامسنا قدّم اليعاقبة بعده يوحنا، فأقام ثلاثا و عشرين سنة و مات. و فى أيامه خرج القبط ببلهيت سنة ست و خمسين فبعث إليهم موسى بن علىّ أمير مصر و هزمهم، و قدّم بعده اليعاقبة مرقص الجديد، فأقام عشرين سنة و سبعين يوما و مات. و فى أيامه كانت الفتنة بين الأمين و المأمون، فانتهبت النصارى بالإسكندرية و أحرقت لهم مواضع عديدة، و أحرقت ديارات وادى هبيب و نهبت، فلم يبق بها من رهبانها إلّا نفر قليل. و فى أيامه مضى بطرك الملكية إلى بغداد و عالج بعض خطايا أهل الخليفة، فإنه كان حاذقا بالطب، فلما عوفيت كتب له بردّ كنائس الملكية التى تغلب عليها اليعاقبة بمصر، فاستردّها منهم، و أقام فى بطركية الملكية أربعين سنة و مات، ثم قدّم اليعاقبة بعد مرقص يعقوب فى سنة إحدى عشرة و مائتين، فأقام عشر سنين و ثمانية أشهر و مات. و فى أيامه عمرت الديارات و عاد الرهبان إليها، و عمرت كنيسة بالقدس لمن يرد من نصارى مصر، و قدم عليه ديونوسيس بطرك أنطاكية، فأكرمه حتى عاد إلى

كرسيه، و فى أيامه انتقض القبط فى سنة ست عشرة و مائتين، فأوقع بهم الأفشين حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد اللّه المأمون، فحكم فيهم بقتل الرجال و بيع النساء و الذرية فبيعوا، و سبى أكثرهم، و من حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر، و لم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، و غلبهم المسلمون على عامّة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة و استعمال المكر و الحيلة و مكايدة المسلمين، و عملوا كتاب الخراج، فكانت لهم و للمسلمين أخبار كثيرة يأتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى.

ثم قدّم اليعاقبة سيماون بطركا فى سنة اثنتين و عشرين و مائتين، فأقام سنة و مات، و قيل بل أقام سبعة أشهر و ستة عشر يوما، فخلا كرسيّ البطاركة بعده سنة و سبعة و عشرين يوما، و قدّم اليعاقبة يوساب فى دير بومقار بوادى هبيب فى سنة سبع و عشرين و مائتين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۱

فأقام ثمانى عشرة سنة و مات. و فى أيامه قدم مصر يعقوب مطران الحبشة و قد نفته زوجة ملكهم. و أقامت عوضه أسقفا، فبعث ملك الحبشة يطلب إعادته من البطرك، فبعث به إليه و بعث أيضا عدّة أساقفة إلى إفريقية. و فى أيامه مات بطرك أنطاكية الوارد إلى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطركيته. و فى أيامه أمر المتوكل على اللّه فى سنة خمس و ثلاثين و مائتين أهل الذمّة بلبس الطيالسة العسلية و شدّ الزنانير و ركوب السروج بالركب الخشب، و عمل كرتين فى مؤخر السرج، و عمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب، قدر كلّ واحدة منهما أربع أصابع، و لون كلّ واحدة منهما غير لون الأخرى، و من خرج من نسائهم تلبس إزارا عسليا، و منعهم من لباس المناطق، و أمر بهدم بيعهم المحدثة، و بأخذ العشر من منازلهم، و أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب، و نهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان، و لا يعلمهم مسلم، و نهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا، و أن لا يشعلوا فى الطريق نارا، و أمر بتسوية قبورهم مع الأرض، و كتب بذلك إلى الآفاق، ثم أمر فى سنة تسع و ثلاثين أهل الذمّة بلبس دراعتين عسليتين على الذراريع و الأقبية، و بالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال و الحمير دون الخيل و البراذين. فلما مات يوساب فى سنة اثنتين و أربعين و مائتين خلا الكرسيّ بعده ثلاثين يوما، و قدّم اليعاقبة قسيسا بدير بحنس يدعى بميكائيل فى البطركية، فأقام سنة و خمسة أشهر و مات، فدفن بدير بومقار، و هو أوّل بطرك دفن فيه، فخلا الكرسيّ بعده أحدا و ثمانين يوما، ثم قدّم اليعاقبة فى سنة أربع و أربعين و مائتين شماسا بدير بومقار اسمه قسيما، فأقام فى البطركية سبع سنين و خمسة أشهر و مات، فخلا الكرسيّ بعده أحدا و خمسين يوما. و فى أيامه أمر نوفيل بن ميخائيل ملك الروم بمحو الصور من الكنائس، و أن لا تبقى صورة فى كنيسة، و كان سبب ذلك أنه بلغه عن قيم كنيسة أنه عمل فى صورة مريم عليها السلام شبه ثدى يخرج منه لبن ينقط فى يوم عيدها، فكشف عن ذلك فإذا هو مصنوع ليأخذ به القيم المال، فضرب عنقه و أبطل الصور من الكنائس، فبعث إليه قسيما بطرك اليعاقبة و ناظره حتى سمح بإعادة الصور على ما كانت عليه، ثم قدّم اليعاقبة ساتير بطركا، فأقام تسع عشرة سنة و مات، فأقيم يوسانيوس فى أوّل خلافة المعتز، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و عمل فى بطركيته مجارى تحت الأرض بالإسكندرية يجرى بها الماء من الخليج إلى البيوت.

و فى أيامه قدم أحمد بن طولون مصر أميرا عليها، ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل فأقام خمسا و عشرين سنة و مات بعد ما ألزمه أحمد بن طولون بحمل عشرين ألف دينار، باع فيها رباع الكنائس الموقوفة عليها، و أرض الحبش ظاهر فسطاط مصر، و باع الكنيسة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود، و قرّر الديارية على كلّ نصرانيّ قيراطا فى السنة، فقام بنصف المقرّر عليه. و فى أيامه قتل الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، فلما مات شغر كرسيّ الإسكندرية بعده من البطاركة أربع عشرة سنة، و فى يوم الاثنين ثالث شوّال سنة ثلاثمائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۲

أحرقت الكنيسة الكبرى المعروفة بالقيامة فى الإسكندرية، و هى التى كانت هيكل زحل، و كانت من بناء كلابطرة. و فى سنة إحدى و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة غبريال بطركا، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، و أخذت فى أيامه الديارية على الرجال و النساء، و قدّم بعده اليعاقبة فى سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة قسيما فأقام اثنتى عشرة سنة و مات. و فى يوم السبت النصف من شهر رجب سنة اثنتى عشرة و

ثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق، و نهبوا ما فيها من الآلات و الأوانى و قيمتها كثيرة جدّا، و نهبوا ديرا للنساء بجوارها، و شعثوا كنائس النسطورية و اليعقوبية. و فى سنة ثلاث عشرة و ثلاثمائة قدم الوزير علىّ بن عيسى بن الجرّاح إلى مصر، فكشف البلد و ألزم الأساقفة و الرهبان و ضعفاء النصارى بأداء الجزية، فأدّوها، و مضى طائفة منهم إلى بغداد و استغاثوا بالمقتدر بالله، فكتب إلى مصر بأن لا يؤخذ من الأساقفة و الرهبان و الضعفاء جزية، و أن يجروا على العهد الذى بأيديهم. و فى سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة بطركا اسمه ... فأقام عشرين سنة و مات، و فى أيامه ثار المسلمون بالقدس سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة و حرّقوا كنيسة القيامة و نهبوها و خرّبوا منها ما قدروا عليه. و فى يوم الاثنين آخر شهر رجب سنة ثمان و عشرين و ثلاثمائة مات سعيد بن بطريق بطرك الإسكندرية على الملكية بعد ما أقام فى البطركية سبع سنين و نصفا فى شرور متصلة مع طائفته، فبعث الأمير أبو بكر محمد بن طفج الإخشيد أبا الحسين من قوّاده فى طائفة من الجند إلى مدينة تنيس، حتى ختم على كنائس الملكية و أحضر آلاتها إلى الفسطاط، و كانت كثيرة جدّا فافتكها الأسقف بخمسة آلاف دينار باعوا فيها من وقف الكنائس، ثم صالح طائفته و كان فاضلا و له تاريخ مفيد، و ثار المسلمون أيضا بمدينة عسقلان و هدموا كنيسة مريم الخضراء، و نهبوا ما فيها، و أعانهم اليهود حتى أحرقوها، ففرّ أسقف عسقلان إلى الرملة و أقام بها حتى مات، و قدّم اليعاقبة فى سنة خمس و أربعين و ثلاثمائة تاوفانيوس بطركا، فأقام أربع سنين و ستة أشهر و مات، فأقيم بعده مينا، فأقام إحدى عشرة سنة و مات، فخلا الكرسىّ بعده سنة، ثم قدّم اليعاقبة افراهام بعده مينا، فأقام ست و ستين و ثلاثمائة فأقام ثلاث سنين و ستة أشهر و مات مسموما من بعض كتاب النصارى، و سببه أنه منعه من التسرّى، فخلا الكرسى بعده ستة أشهر، و أقيم فيلاياوس فى سنة تسع و ستين، فأقام أربعا و عشرين سنة و مات، و كان مترفا. و فى أيامه أخذت الملكية كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك، تسلمها منهم بطرك الملكية أرسانيوس فى أيام العزيز بالله نزار بن المعز، و فى سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة قدّم اليعاقبة زخريس بطركا، فأقام ثمانى و عشرين سنة، منها فى البلايا مع الحاكم بأمر اللّه أبى علىّ منصور بن العزيز بالله تسع سنين، اعتقله فيها ثلاثة أشهر، و أمر به فألقى للسباع هو و سوسنة النوبىّ، فلم تضرّه، فيما زعم النصارى. و لما مات خلا الكرسىّ بعده أربعة و سبعين يوما، و فى بطركيته نزل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۳

بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها، و ذلك أن كثيرا منهم كان قد تمكن فى أعمال الدولة حتى صاروا كالوزراء و تعاظموا لاتساع أحوالهم و كثرة أموالهم، فاشتدّ بأسهم و تزايد ضررهم و مكايدتهم للمسلمين، فأغضب الحاكم بأمر اللّه ذلك، و كان لا يملك نفسه إذا غضب، فقبض على عيسى بن نسطورس النصرانىّ، و هو إذ ذاك فى رتبة تضاهى رتب الوزراء و ضرب عنقه، ثم قبض على فهد بن إبراهيم النصرانىّ كاتب الأستاذ برجوان و ضرب عنقه، و تشدّد على النصارى و ألزمهم بلبس ثياب الغيار، و شدّ الزنار فى أوساطهم و منعهم من عمل الشعانين و عيد الصليب و التظاهر بما كانت عادتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع و اللهو، و قبض على جميع ما هو محبس على الكنائس و الديارات و أدخله فى الديوان، و كتب إلى أعماله كلها بذلك، و أحرق عدّة صلبان كثيرة، و منع النصارى من شراء العبيد و الإماء، و هدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر، و أخرب كنائس المقس خارج القاهرة، و أباح ما فيها للناس، فانتهبوا منها ما يجل وصفه، و هدم دير القصير و انهب العامة ما فيه، و منع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر، و أبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو، و ألزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم، و منعهم من ركوب الخيل، و جعل لهم أن يركبوا البغال و الحمير بسروج و لجم غير محلاة بالذهب و الفضة، بل تكون من جلود سود، و ضرب بالحرس فى القاهرة و مصر أن لا يركب أحد من المكارية ذمّيا، و لا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة، و أن تكون ثياب النصارى و عمائمهم شديدة السواد، و ركب سروجهم من خشب الجميز، و أن يعلق اليهود فى أعناقهم خشبا مدوّرا زنة الخشبة منها خمسة أرطال، و هى ظاهرة فوق ثيابهم، و أخذ فى هدم الكنائس كلها و أباح ما فيها، و ما هو محبس عليها للناس نهبا و إقطاعا، فهدمت بأسرها و نهب جميع أمتعتها و أقطع أحباسها، و بنى فى مواضعها المساجد، و أذن بالصلاة فى كنيسة

شنودة بمصر، و أحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع، و أكثر الناس من رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر و دياراتها، فلم يردّ قصة منها إلّا و قد وقع عليها بإجابة رافعها لما سأل، فأخذوا أمتعة الكنائس و الديارات و باعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أوانى الذهب و الفضة و غير ذلك، و تصرّفوا فى أحباسها، و وجد بكنيسة شنودة مال جليل، و وجد فى المعلقة من المصاغ و ثياب الديباج أمر كثير جدّا إلى الغاية، و كتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس و الديارات فعمّ الهدم فيها من سنة ثلاث و أربعمائة حتى ذكر من يوثق به فى ذلك أن الذى هدم إلى آخر سنة خمس و أربعمائة بمصر و الشام و أعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيث و ثلاثون ألف بيعة، و نهب ما فيها من آلات الذهب و الفضة، و قبض على أوقافها، و كانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة، و ألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم إذا دخلوا الحمام، و ألزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس إذا دخلوا الحمام، ثم ألزم اليهود و النصارى بخروجهم كلهم من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۴

أرض مصر إلى بلاد الروم، فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة و استغاثوا و لاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى، و فى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى.

و فى سنة سبع و أربعمائة و ثب بعض أكابر البلغر على ملكهم قمطورس فقتله و ملك عوضه، و كتب إلى باسيل ملك قسطنطينية بطاعته فأقرّه، ثم قتل بعد سنة فسار الملك باسيل إليهم فى شوّال سنة ثمان و أربعمائة و استولى على مملكة البلغر و أقام فى قلاعها عدّة من الروم، و عاد إلى قسطنطينية فاختلط الروم بالبلغر و نكحوا منهم و صاروا يدا واحدة بعد شدّة العداوة، و قدّم اليعاقبة عليهم سابونين بطركا بالإسكندرية فى سنة إحدى و عشرين و أربعمائة، فى يوم الأحد ثالث عشرى برمهات، فأقام خمس عشرة سنة و نصفا و مات فى طوبه، و كان محبا للمال، و أخذ الشرطونية فخلا الكرسىّ بعده سنة و خمسة أشهر، ثم قدّم اليعاقبة أخر سطوديس بطركا فى سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة، فأقام ثلاثين سنة و مات بالمعلقة من مصر، و هو الذى جعل كنيسة بومرقوره بمصر، و كنيسة السيدة بحارة الروم من القاهرة فى أيام بطركيته، فلم يقم بعده بطرك اثنين و سبعين يوما، ثم أقام اليعاقبة كيرلص، فأقام أربع عشرة سنة و ثلاثة أشهر و نصفا و مات بكنيسة المختار من جزية مصر المعروفة بالروضة، فى سلخ ربيع الآخر سنة خمس و ثمانين و أربعمائة، و عمل بدلة للبطاركة من ديباج أزرق و بلارية ديباج أحمر بتصاوير ذهب، و قطع الشرطونية فلم يول بعده بطرك مدّة مائة و أربعة و عشرين يوما، ثم أقيم ميخائيل الحبيس بسنجار فى سنة اثنتين و ثمانين و أربعمائة، فأقام تسع و سنين و ثمانية أشهر و مات فى المعلقة بمصر، و كان المستنصر بالله لما نقص نيل مصر بعثه إلى بلاد الحبشة بهدية سنية، فتلقاه ملكها و سأله عن سبب قدومه، فعرّفه نقص النيل و ضرر أهل مصر بسبب ذلك، فأمر بفتح سدّ يجرى منه الماء إلى أرض مصر، ففتح و زاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع، و استمرّت الزيادة حتى رويت البلاد و زرعت، ثم عاد البطرك فخلع عليه المستنصر و أحسن إليه.

و فى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة قدّم اليعاقبة مقارى بطركا بدير بومقار، و كمل بالإسكندرية و عاد إلى مصر، ثم مضى إلى دير بومقار فقدّس به ثم جاء إلى مصر فقدّس بالمعلقة، فأقام ستا و عشرين سنة و أحدا و أربعين يوما و مات. فخلت مصر من بطرك اليعاقبة سنتين و شهرين، و فى أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر هدم فيها كنيسة المختار بالروضة، و اتهم الأفضل بن أمير الجيوش بهدمها، فإنها كانت فى بستانه. و فى أيامه أبطل عوايد كثيرة للنصارى، فبطلت بعده. ثم قدّم اليعاقبة غبريال المكنى بأبى العلا صاعد بن تربك الشماس بكنيسة مرقوريوس فى سنة خمس و عشرين و خمسمائة بالمعلقة، و كمل بالإسكندرية و قدّس بالأديرة بوادى هبيب، و أقام أربع عشرة سنة و مات، فخلا بعده كرسىّ اليعاقبة ثلاثة أشهر.

ثم قدّم اليعاقبة ميخائيل بن التقدوسىّ الراهب بقلاية دمشرى بطركا، فأقام مدّة سنة و سبعين يوما، ثم أقيم يونس أبو الفتح بطركا بالمعلقة، و كمل بالإسكندرية، فأقام تسع عشرة سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۵

و مات، فى سابع عشرى جمادى الآخرة، سنة إحدى و خمسين و خمسمائة، فخلا الكرسىّ بعده ثلاثة و أربعين يوما، و قدم مرقص بن زرعة المكنى بأبى الفرج بطرك اليعاقبة بمصر، و كمل بالإسكندرية، فأقام اثنتين و عشرين سنة و ستة أشهر و خمسة و عشرين يوما و مات، و فى أيامه انتقل مرقص بن قنبر و جماعة من القنابرة إلى رأى الملكية، ثم عاد إلى اليعقوبية، فقبل. ثم عاد إلى الملكية و رجع فلم يقبل، و كان هذا البطرك له همة و مروءة. و فى أيامه كان حريق شاور الوزير لمصر، فى ثامن عشر هتور، فاحترقت كنيسة بومرقورة، و خلا بعده كرسىّ البطاركة سبعة و عشرين يوما، ثم قدّم اليعاقبة يونس بن أبى غالب بطركا فى يوم الأحد عاشر ذى الحجة سنة أربع و ثمانين و خمسمائة، و كمل بالإسكندرية، فأقام ستا و عشرين سنة و أحد عشر شهرا و ثلاثة عشر يوما، و مات يوم الخميس رابع عشر شهر رمضان سنة اثنتى عشرة و ستمائة بالمعلقة بمصر، و دفن بالحبش، و كان فى ابتداء أمره تاجرا يتردّد إلى اليمن فى البحر حتى كثر ماله، و كان معه مال لأولاد الخباب فاتفق أنه غرق فى بحر الملح، و ذهب ماله و نجا بنفسه إلى القاهرة، و قد آيس أولاد الخباب من مالهم، فلما لقيهم أعلمهم أن مالهم قد سلّم، فإنه كان قد عمله فى نقائر خشب مسمرة فى المركب، فصار لهم به عناية، فلما مات مرقص بن زرعة سعى يونس هذا للقس أبى ياسر فقال له أولاد الخباب: خذ أنت البطركية و نحن نزكيك، فوافقهم و أقيم بطركا، فشق ذلك على أبى ياسر و هجره بعد صحبة طويلة، و كان معه لما استقرّ فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية، أنفقها على الفقراء، و أبطل الديارية و منع الشرطونية، و لم يأكل لأحد من النصارى خبزا و لا قبل من أحد هدية.

فلما مات قام أبو الفتوح نشو الخليفة بن الميقاط كاتب الجيش مع السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومىّ، فإنه كان خصيصا به، فأجابه و كتب توقيعه من غير أن يعلم الملك الكامل محمد ابن السلطان، فشق ذلك على النصارى، و قام منهم الأسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر و معه جماعة، و توجهوا سحرا و معهم الشموع إلى تحت قلعة الجبل حيث كان سكن الملك الكامل و استغاثوا به، و وقعوا فى القس و قالوا لا يصلح، و فى شريعتنا أنه لا يقدّم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه، فبعث الملك الكامل يطيب خواطرهم، و كان القس قد ركب بكرة و معه الأساقفة و عالم كثير من النصارى ليقدّموه بالمعلقة بمصر، و ذلك يوم الأحد، فركب الملك الكامل بشجو كبير من القلعة إلى أبيه بدار الوزارة من القاهرة حيث سكنه، و أوقف ولاية القس، فبعث السلطان فى طلب الأساقفة ليتحقق الأمر منهم، فوافقهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم، و دخل القس إلى كنيسة بوجرج التى بالحمراء و بطلت بطركيته، و أقامت مصر بغير بطرك تسع عشرة سنة و مائة و ستين يوما. ثم قدّم هذا القس بطركا فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر رمضان سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، فأقام سبع سنين و تسعة أشهر و عشرة أيام و مات يوم الثلاثاء

سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين و ستمائة، و دفن بدير الشمع بالجيزة، و كان عالما بدينه محبا للرياسة، و أخذ الشرطونية فى بطركيته، و كانت الديارات بأرض مصر قد خلت من الأساقفة، فقدم جماعة أساقفة كثيرة بمال كثير أخذه منهم و قاسى شدائد، و رافعه الراهب عماد المرشال و وكل عليه و على أقاربه و ألزامه، و ساعده الراهب السنى بن الثعبان، و أشاع مثالبه و قال لا يصح له كونية لأنه يقدّم بالرشوة، و أخذ الشرطونية و جمع عليه طائفة كثيرة، و عقد مجلسا عند الصاحب معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، و أثبت على البطرك قوادح، فقام الكتاب النصارى فى أمره مع الصاحب بمال يحمله إلى السلطان حتى استمر على بطركيته، و خلا كرسىّ البطاركة بعده سبع سنين و ستة أشهر و ستة و عشرين يوما.

ثم قدّم اليعاقبة ابناسيوس ابن القس أبى المكارم بن كليل بالمعلقة فى يوم الأحد رابع شهر رجب سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و كمل بالإسكندرية، فأقام إحدى عشرة سنة و خمسة و خمسين يوما، و مات يوم الأحد ثالث المحرّم سنة ستين و ستمائة، فخلت مصر من البطركية خمسة و ثمانين يوما. و فى أيامه أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزى الجوالى من النصارى مضاعفة، و فى أيامه ثارت عوامّ دمشق و خربت كنيسة مريم بدمشق بعد إحراقها و نهب ما فيها، و قتل جماعة من النصارى بدمشق، و نهب دورهم، و خرابها فى سنة ثمان و خمسين و ستمائة بعد وقعة عين جالوت و هزيمة المغل. فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز

إلى دمشق قرّر على النصارى بها مائة ألف و خمسين ألف درهم، جمعوها من بينهم و حملوها إليه بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب، أتابك العسكر.

و فى سنة اثنتين و ثمانين و ستمائة كانت واقعة النصارى، و من خبرها أن الأمير سنجر الشجاعىّ كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاون، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم، و لا يجسر نصرانىّ يحدّث مسلما و هو راكب، و إذا مشى فبذلة، و لا يقدر أحد منهم يلبس ثوبا مصقولا، فلما مات الملك المنصور و تسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية و قوّوا نفوسهم على المسلمين، و ترفعوا فى ملابسهم و هيآتهم، و كان منهم كاتب عند خاصكىّ يعرف بعين الغزال، فصدف يوما فى طريق مصر سمسار شونة مخدومه، فنزل السمسار عن دابته و قبّل رجل الكاتب، فأخذ يسبه و يهدّده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير، و هو يترفق له و يعتذر، فلا يزيده ذلك عليه إلّا غلظة، و أمر غلامه فنزل و كتف السمسار و مضى به و الناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون، و معه عالم كبير، و ما منهم إلّا من يسأله أن يخلى عن السمسار و هو يمتنع عليهم، فتكاثروا عليه و ألقوه عن حماره و أطلقوا السمسار، و كان قد قرب من بيت أستاذه، فبعث غلامه لينجده بمن فيه، فأتاه بطائفة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۷

غلمان الأمير و أوجاقيته فخلصوه من الناس و شرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم، فصاحوا عليهم ما يحل و مرّوا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة، و استغاثوا نصر اللّه السلطان، فأرسل يكشف الخبر فعرّفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانىّ على السمسار، و ما جرى لهم، فطلب عين الغزال و رسم للعامّة بإحضار النصارى إليه، و طلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب، و الأمير سنجر الشجاعىّ، و تقدّم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم، فما زالا به حتى استقرّ الحال على أن ينادى فى القاهرة و مصر، أن لا يخدم أحد من النصارى و اليهود عند الأمير، و أمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه، و من أسلم استخدموه عندهم، و رسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان و يفعل فيهم ذلك، فنزل الطلب لهم و قد اختفوا، فصارت العامّة تسبق إلى بيوتهم و تنهبها، حتى عمّ النهب بيوت النصارى و اليهود بأجمعهم، و أخرجوا نساءهم مسبيات، و قتلوا جماعة بأيديهم، فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامّة، و تلطف به حتى ركب و إلى القاهرة و نادى من نهب بيت نصرانىّ شنق، و قبض على طائفة من العامّة و شهرهم بعد ما ضربهم، فانكفوا عن النهب بعد ما نبهوا كنيسة المعلقة بمصر و قتلوا منها جماعة، ثم جمع النائب كثيرا من النصارى كتاب السلطان و الأمراء و أوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه، فرسم للشجاعىّ و أمير جاندار أن يأخذا عدّة معهما و ينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة، و يحفروا حفيرة كبيرة و يلقوا فيها الكتاب الحاضرين، و يضرموا عليهم الحطب نارا، فتقدّم الأمير بيدرا و شفع فيهم فأبى أن يقبل شفاعته و قال: ما أريد فى دولتى ديوانا نصرانيا، فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقرّ فى خدمته، و من امتنع ضربت عنقه، فأخرجهم إلى دار النيابة و قال لهم: يا جماعة ما وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم إلّا على شرط، و هو أن من اختار دينه قتل، و من اختار الإسلام خلع عليه و باشر، فابتدره المكين بن السقاعىّ أحد المستوفين و قال: يا خوند و أينا قوّاد يختار القتل على هذا الدين الخراء، و اللّه دين نقتل و نموت عليه يروح، لا كتب اللّه عليه سلامة، قولوا لنا الذى تختاروه حتى نروح إليه، فغلب بيدرا الضحك و قال له: ويلك، أ نحن نختار غير دين الإسلام؟ فقال يا خوند: ما نعرف، قولوا و نحن نتبعكم، فأحضر العدول و استسلمهم، و كتب بذلك شهادات عليهم، و دخل بها على السلطان فألبسهم تشاريف و خرجوا إلى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس، فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعىّ و ناوله ورقة ليكتب عليها و قال: يا مولانا القاضى اكتب على هذه الورقة. فقال: يا بنىّ ما كان لنا هذا القضاء فى خلد، فلم يزالوا فى مجلس الوزير إلى العصر، فجاءهم الحاجب و أخذهم إلى مجلس النائب و قد جمع به القضاة فجدّدوا إسلامهم بحضرتهم، فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزا، يبدى من إذلال المسلمين و التسلط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره، و ما هو

إلا كما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۸

كتب به بعضهم إلى الأمير بيدرا النائب:

أسلم الكافرون بالسيف قهراو إذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال و روحفهم سالمون لا مسلمونا

و فى أخريات شهر رجب سنة سبعماءة قدم وزير متملك المغرب إلى القاهرة حاجا، و صار يركب إلى الموكب السلطانىّ و بيوت الأمراء، فبينما هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة، إذا هو برجل راكب على فرس و عليه عمامة بيضاء و فرجية مصقولة، و جماعة يمشون فى ركابه و هم يسألونه و يتضرّعون إليه و يقبلون رجليه، و هو معرض عنهم و ينهرهم و يصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه. فقال له بعضهم يا مولاى الشيخ بحياة ولدك النشو تنظر فى حالنا، فلم يزده ذلك إلّا عتوّا و تحامقا، فرقّ المغربىّ لهم و همّ بمخاطبته فى أمرهم، فقيل له و أنه مع ذلك نصرانىّ، فغضب لذلك و كاد أن يبطش به، ثم كف عنه و طلع إلى القلعة و جلس مع الأمير سلار نائب السلطان، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و أخذ يحادثهم بما رآه و هو يبكى رحمة للمسلمين بما نالهم من قسوة النصارى، ثم وعظ الأمراء و حذرهم نقمة اللّه، و تسليط عدوّهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل، و تسلطهم على المسلمين و إذلالهم إياهم، و أن الواجب إلزامهم الصغار، و حملهم على العهد الذى كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فمالوا إلى قوله و طلبوا بطرك النصارى و كبراءهم و ديان اليهود، فجمعت نصارى كنيسة المعلقة و نصارى دير البغل و نحوهم، و حضر كبراء اليهود و النصارى، و قد حضر القضاة الأربعة و ناظروا النصارى و اليهود، فأذعنوا إلى التزام العهد العمرىّ، و ألزم بطرك النصارى طائفته النصارى بلبس العمائم الزرق و شدّ الزنار فى أوساطهم، و منعهم من ركوب الخيل و البغال، و التزام الصغار، و حرّم عليهم مخالفة ذلك أو شىء منه، و أنه برىء من النصرانية إن خالف. ثم اتبعه ديان اليهود بأن أوقع الكلمة على من خالف من اليهود ما شرط عليه، من لبس العمائم الصفر و التزام العهد العمرىّ، و كتب بذلك عدّة نسخ سيرت إلى الأعمال، فقام المغربىّ فى هدم الكنائس، فلم يمكنه قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد من ذلك، و كتب خطه بأنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلّا ما استجدّ بناؤه، فغلقت عدّة كنائس بالقاهرة و مصر مدّة أيام، فسعى بعض أعيان النصارى فى فتح كنيسة حتى فتحها، فثارت العامة و وقفوا للنائب و الأمراء و استغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير إذن، و فيهم جماعة تكبروا عن لبس العمائم الزرق، و احتمى كثير منهم بالأمراء، فنودى فى القاهرة و مصر أن يلبس النصارى بأجمعهم العمائم الزرق، و يلبس اليهود بأسرهم العمائم الصفر، و من لم يفعل ذلك نهب ماله و حلّ دمه، و منعوا جميعا من الخدمة فى ديوان السلطان و دواوين الأمراء حتى يسلموا، فتسلطت الغوغاء عليهم و تتبعوهم، فمن رأوه بغير الزىّ الذى رسم به ضربوه بالنعال و صفعوا عنقه حتى يكاد يهلك، و من مرّ بهم و قد ركب و لا يثنى رجله ألقوه عن دابته و أوجعوه ضربا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۱۹

فاختفى كثير منهم، و ألجأت الضرورة عدّة من أعيانهم إلى إظهار الإسلام أنفة من لبس الأزرق و ركوب الحمير، و قد أكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زىّ أهل الذمّة، فقال علاء الدين علىّ بن مظفر الوداعىّ:

لقد ألزم الكفار شاشات ذلةتزيدهم من لعنة اللّه تشويشا

فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماو لكنهم قد ألزموكم براطيشا

و قال شمس الدين الطيبى:

تعجبوا للنصارى و اليهود معاو السامريين لما عمموا الخرقا

كأنما بات بالأصباغ منسهلانسر السماء فأضحى فوقهم زرقا

فبعث ملك برشلونة فى سنة ثلاث و سبعمائة هدية جليلة زائدة عن عادته، عمّ بها جميع أرباب الوظائف من الأمراء مع ما خص به السلطان، و كتب يسأل فى فتح الكنائس، فاتفق الرأى على فتح كنيسة حارة زويلة لليعاقبة، و فتح كنيسة البندقانيين من القاهرة، ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، هدمت كنائس أرض مصر فى ساعة واحدة، كما ذكر فى أخبار كنيسة الزهرىّ، و فى سنة خمس و خمسين و سبعمائة، رسم بتحرير ما هو موقوف على الكنائس من أراضى مصر، فأناف على خمسة و عشرين ألف فدان، و سبب الفحص عن ذلك، كثرة تعاظم النصارى و تعدّيهم فى الشرّ و الإضرار بالمسلمين، لتمكنهم من أمراء الدولة و تفاخرهم بالملابس الجليلة، و المغالاة فى أثمانها، و التبسط فى المآكل و المشارب، و خروجهم عن الحدّ فى الجراءة و السلاطة، إلى أن اتفق مرور بعض كتاب النصارى على الجامع الأزهر من القاهرة، و هو راكب بخف و مهماز و بقباء إسكندرىّ طرح على رأسه، و قدّامه طرّادون يمنعون الناس من مزاحمته، و خلفه عدّة عبيد بثياب سرية على أكاديش فارهة، فشق ذلك على جماعة من المسلمين، و ثاروا به و أنزلوه عن فرسه و قصدوا قتله، و قد اجتمع عالم كبير، ثم خلوا عنه، و تحدّد جماعة مع الأمير طاز فى أمر النصارى و ما هم عليه، فوعدهم بالإنصاف منهم، فرفعوا قصة على لسان المسلمين قرئت على السلطان الملك الصالح صالح بحضرة الأمراء و القضاة و سائر أهل الدولة، تتضمن الشكوى من النصارى، و أن يعقد لهم مجلس ليلتزموا بما عليهم من الشروط، فرسم بطلب بطرك النصارى و أعيان أهل ملتهم، و بطلب رئيس اليهود و أعيانهم، و حضر القضاة و الأمراء بين يدى السلطان، و قرأ القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه كاتب السرّ العهد الذى كتب بين المسلمين و بين أهل الذمّة، و قد أحضروه معهم، حتى فرغ منه، فالتزم من حضر منهم بما فيه و أقرّوا به، فعدّدت لهم أفعالهم التى جاهروا بها و هم عليها، و أنهم لا يرجعون عنها غير قليل، ثم يعودون إليها كما فعلوه غير مرّة فيما سلف، فاستقرّ الحال على أن يمنعوا من المباشرة بشىء من ديوان السلطان و دواوين الأمراء

و لو أظهروا الإسلام، و أن لا يكره أحد منهم على إظهار الإسلام، و يكتب بذلك إلى الأعمال. فتسلطت العامّة عليهم و تتبعوا آثارهم و أخذوهم فى الطرقات، و قطعوا ما عليهم من الثياب، و أوجعوهم ضربا، و لم يتركوهم حتى يسلموا، و صاروا يضرمون لهم النار ليلقوهم فيها، فاختفوا فى بيوتهم و لم يتجاسروا على المشى بين الناس، فنودى بالمنع من التعرّض لأذاهم، فأخذت العامّة فى تتبع عوراتهم و ما علوه من دورهم على بناء المسلمين فهدموه، و اشتدّ الأمر على النصارى باختفائهم، حتى أنهم فقدوا من الطرقات مدّة، فلم ير منهم و لا من اليهود أحد، فرفع المسلمون قصة قرئت فى دار العدل فى يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب، تتضمن أن النصارى قد استجدّوا عمارات فى كنائسهم و وسعوها، هذا و قد اجتمع بالقلعة عالم عظيم و استغاثوا بالسلطان من النصارى، فرسم بركوب والى القاهرة و كشفه على ذلك، فلم تتمهل العامّة و مرّت بسرعة فخرّبت كنيسة بجوار قناطر السباع، و كنيسة بطريق مصر للأسرى، و كنيسة الفهادين بالجوّانية من القاهرة، و دير نهيا من الجيزة، و كنيسة بناحية بولاق التكرورىّ، و نهبوا حواصل ما خرّبوه من ذلك، و كانت كثيرة، و أخذوا أخشابها و رخامها و هجموا كنائس مصر و القاهرة، و لم يبق إلّا أن يخرّبوا كنيسة البندقانيين بالقاهرة، فركب الوالى و منعهم منها، و اشتدّت العامة و عجز الحكام عن كفهم، و كان قد كتب إلى جميع أعمال مصر و بلاد الشام أن لا يستخدم يهودىّ و لا نصرانىّ و لو أسلم، و أنه من أسلم منهم لا يمكن من العبور إلى بيته و لا من معاشرة أهله إلّا أن يسلموا و أن يلزم من أسلم منهم بملازمة المساجد و الجوامع لشهود الصلوات الخمس و الجمع، و أنّ من مات من أهل الذمة يتولى المسلمون قسمة تركته على ورثته إن كان له وارث، و إلّا فهى لبيت المال، و كان يلى ذلك البطرك، و كتب بذلك مرسوم قرىء على الأمراء، ثم نزل به الحاجب فقرأه فى يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الآخرة بجوامع القاهرة و مصر، فكان يوما مشهودا.

ثم أحضر فى أخريات شهر رجب من كنيسة شبرا بعدما هدمت، إصبع الشهيد الذى كان يلقى فى النيل حتى يزيد، بزعمهم، و هو فى صندوق، فأحرق بين يدى السلطان بالميدان من قلعة الجبل و ذرى رماده فى البحر خشية من أخذ النصارى له، فقدمت الأخبار بكثرة دخول النصارى من أهل الصعيد و الوجه البحرىّ فى الإسلام. و تعلمهم القرآن، و إن أكثر كنائس الصعيد هدمت و بنيت مساجد، و

أنه أسلم بمدينة قليوب فى يوم واحد أربعمائة و خمسون نصرانيا، و كذلك بعامة الأرياف، مكرا منهم و خديعة حتى يستخدموا فى المباشرات، و ينكحوا المسلمات، فتم لهم مرادهم و اختلطت بذلك الأنساب حتى صار أكثر الناس من أولادهم، و لا يخفى أمرهم على من نوّر اللّه قلبه، فإنه يظهر من آثارهم القبيحة إذا تمكنوا من الإسلام و أهل ما يعرف به الفطن سوء أصلهم، و قديم معاداة أسلافهم للدين و حملته.

النصارى فرق كثيرة، الملكانية، و النسطورية، و اليعقوبية، و البرذعانية، و المرقولية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۱

و هم الرهاويون الذين كانوا بنواحى حرّان و غير هؤلاء. فمنهم من مذهبه مذهب الحرّانية، و منهم من يقول بالنور و الظلمة، و الثنوية كلهم يقرّون بنبوّة المسيح عليه السلام و منهم من يعتقد مذهب أرسطاطاليس. و الملكانية و اليعقوبية و النسطورية متفقون على أن معبودهم ثلاثة أقانيم ، و هذه الأقانيم الثلاثة شيء واحد، و هو جوهر قديم، و معناه أب و ابن و روح القدس إله واحد، و أن الابن نزل من السماء فتدرّع جسدا من مريم، و ظهر للناس يحيى و يبروئ و ينبى، ثم قتّل و صلب و خرج من القبر لثلاث، فظهر لقوم من أصحابه فعرفوه حق معرفته، ثم صعد إلى السماء فجلس عن يمين أبيه هذا الذى يجمعهم اعتقاده، ثم إنهم يختلفون فى العبارة عنه.

فمنهم من يزعم أنّ القديم جوهر واحد يجمعه ثلاثة أقانيم، كل أقنوم منها جوهر خاص، فأحد هذه الأقانيم أب واحد غير مولود، و الثالث روح فائضة منبثقة بين الأب و الابن، و أن الابن لم يزل مولودا من الأب، و أن الأب لم يزل والدا للابن، لا على جهة النكاح و التناسل، لكن على جهة تولد ضياء الشمس من ذات الشمس، و تولد حرّ النار من ذات النار.

و منهم من يزعم أن معنى قولهم إن الإله ثلاثة أقانيم، أنها ذات لها حياة و نطق، فالحياة هى روح القدس، و النطق هو العلم و الحكمة، ... و النطق و العلم و الحكمة و الكلمة عبارة عن الابن، كما يقال الشمس و ضياؤها، و النار و حرّها، فهو عبارة عن ثلاثة أشياء ترجع إلى أصل واحد.

و منهم من يزعم أنه لا يصحّ له أن يثبت الإله فاعلا حكيما، إلّا أنه يثبته حيا ناطقا، و معنى الناطق عندهم العالم المميز، لا الذى يخرج الصوت بالحروف المركبة، و معنى الحيّ عندهم من له حياة بها يكون حيا، و معنى العالم من له علم به يكون عالما. قالوا فذاته و علمه و حياته ثلاثة أشياء و الأصل واحد، فالذات هى العلة للاثنين اللذين هما العلم و الحياة، و الاثنان هما المعلولان للعلة، و منهم من يتنزه عن لفظ العلة و المعلول فى صفة القديم، و يقول أب و ابن و والدة و روح و حياة و علم و حكمة و نطق. قالوا و الابن اتحد بإنسان مخلوق، فصار هو و ما اتحد به مسيحا واحدا، و أن المسيح هو إله العباد و ربهم، ثم اختلفوا فى صفة الاتحاد، فزعم بعضهم أنه وقع بين جوهر لاهوتيّ و جوهر ناسوتيّ اتحاد، فصارا مسيحا واحدا، و لم يخرج الاتحاد كلّ واحد منهما عن جوهريته و عنصره، و أن المسيح إله معبود، و أنه ابن مريم الذى حملته و ولدته، و أنه قتل و صلب، و زعم قوم أن المسيح بعد الاتحاد جوهران، أحدهما لاهوتيّ و الآخر ناسوتيّ، و أن القتل و الصلب وقعا به من جهة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۲

ناسوته لا من جهة لاهوته، و أن مريم حملت بالمسيح و ولدته من جهة ناسوته، و هذا قول النسطورية، ثم يقولون أن المسيح بكماله إله معبود، و أنه ابن اللّه، تعالى اللّه عن قولهم، و زعم قوم أنّ الاتحاد وقع بين جوهرين لاهوتيّ و ناسوتيّ، فالجوهر اللاهوتيّ بسيط غير منقسم و لا متجزئ، و زعم قوم أن الاتحاد على جهة حلول الابن فى الجسد و مخالطته إياه، و منهم من زعم أن الاتحاد على جهة الظهور، كظهور كتابة الخاتم و النقش إذا وقع على طين أو شمع، و كظهور صورة الإنسان فى المرآة، إلى غير ذلك من الاختلاف الذى لا يوجد مثله فى غيرهم، حتى لا تكاد تجد اثنين منهم على قول واحد.

و الملكانية تنسب إلى ملك الروم، و هم يقولون أنّ اللّه اسم لثلاثة معان، فهو واحد ثلاثة و ثلاثة واحد. و اليعقوبية تقول أنه واحد قديم، و أنه كان لا جسم و لا إنسان، ثم تجسم و تأنس. و المرقولية قالوا اللّه واحد و علمه غيره قديم معه، و المسيح ابنه على جهة

الرحمة، كما يقال إبراهيم خليل اللّه، و المرقولية تزعم أن المسيح يطوف عليهم كل يوم و ليلة، و البوزغانية تزعم أن المسيح هو الذى يحشر الموتى من قبورهم و يحاسبهم.

و عندهم لا بدّ من تنصير أولادهم، و ذلك أنهم يغمسون المولود فى ماء قد أغلى بالرياحين و ألوان الطيب فى إجانة جديدة، و يقرءون عليه من كتابهم، فيزعمون أنه حينئذ ينزل عليه روح القدس، و يسمون هذا الفعل المعمودية، و طهارتهم إنما هى غسل الوجه و اليدين فقط، و لا يختتن منهم إلّا اليعقوبية، و لهم سبع صلوات يستقبلون فيها المشرق، و يحجون إلى بيت المقدس، و زكاتهم العشر من أموالهم، و صيامهم خمسون يوما، فالثانى و الأربعون منه عيد الشعانين، و هو اليوم الذى نزل فيه المسيح من الجبل و دخل بيت المقدس، و بعده بأربعة أيام عيد الفصح، و هو اليوم الذى خرج فيه موسى و قومه من مصر، و بعده بثلاثة أيام عيد القيامة، و هو اليوم الذى خرج فيه المسيح من القبر بزعمهم، و بعده بثمانية أيام عيد الجديد، و هو اليوم الذى ظهر فيه المسيح لتلامذته بعد خروجه من القبر، و بعده بثمانية و ثلاثين يوما عيد السلاق، و هو اليوم الذى صعد فيه المسيح إلى السماء. و لهم عيد الصليب، و هو اليوم الذى وجدوا فيه خشبة الصليب، و زعموا أنها وضعت على ميت فعاش، و لهم أيضا عيد الميلاد و عيد الذبح، و لهم قرابين و كهنة، فالشماس فوقه القس، و فوق القس الأسقف، و فوق الأسقف المطران، و فوق المطران البطريق، و السكر عندهم حرام، و لا يحلّ لهم أكل اللحم و لا الجماع فى الصوم، و كل ما يباع فى السوق و لم تعفه أنفسهم يباح أكله، و لا يصحّ النكاح إلّا بحضور شماس و قس و عدول و مهر، و يحرّمون من النساء ما يحرّمه المسلمون، و لا يحلّ الجمع بين امرأتين، و لا التسرّى بالإماء إلّا أن يعتقن و يتزوّج بهنّ، و إذا خدم العبد سبع سنين عتق، و لا يحل طلاق المرأة إلّا أن تأتى بفاحشة مبينة فتطلق، و لا تحل للزوج أبدا، و حدّ المحصن إذا زنى الرجم، فإن زنى غير محصن و حملت منه المرأة تزوّج بها، و من قتل عمدا قتل، و من قتل خطأ يهرّب و لا يحل طلبه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۳

و أكثر أحكامهم من التوراة، و قد لعن منهم من لاط أو شهد بالزور أو قامر أو زنى أو سكر.

ذكر ديارات النصارى

اشارة

قال ابن سيده: الدير خان النصارى، و الجمع أديار، و صاحبه ديار و ديرانىّ. قلت الدير عند النصارى يختص بالنساك المقيمين به، و الكنيسة مجتمع عامتهم للصلاة.

القلاية بمصر: هذه القلاية بجانب المعلقة التى تعرف بقصر الشمع فى مدينة مصر، و هى مجمع أكابر الرهبان و علماء النصارى، و حكمها عندهم حكم الأديرة.

دير طرا: و يعرف بدير أبى جرج، و هو على شاطىء النيل. و أبو جرج هذا هو جرجس، و كان ممن عذبه الملك دقلطيانوس ليرجع عن دين النصرانية، و نوّع له العقوبات من الضرب و التحريق بالنار، فلم يرجع، فضرب عنقه بالسيف فى ثالث تشرين و سابع بابه.

دير شعران: هذا الدير فى حدود ناحية طرا، و هو مبنىّ بالحجر و اللبن، و به نخل و به عدّة رهبان، و يقال إنما هو دير شهران بالهاء، و أنّ شهران كان من حكماء النصارى، و قيل بل كان ملكا، و كان هذا الدير يعرف قديما بمرقوريوس الذى يقال له مرقورة، و أبو مرقورة، ثم لما سكنه برصوما بن التبان عرف بدير برصوما، و له عيد يعمل فى الجمعة الخامسة من الصوم الكبير، فيحضره البطرك و أكابر النصارى، و ينفقون فيه مالا كبيرا. و مرقوريوس هذا كان ممن قتله دقلطيانوس فى تاسع عشر تموز، و خامس عشرى أبيب، و كان جنديا.

دير الرسل: هذا الدير خارج ناحية الصف و الودى، و هو دير قديم لطيف.

دير بطرس و بولص: هـذا الدير خارج اطفيح من قبليها، و هو دير لطيف و له عيد فى خامس أبيب يعرف بعيد القصرية. و بطرس هذا هو أكبر الرسل الحواريين، و كان دباغا، و قيل صيادا، قتله الملك نبرون فى تاسع عشرى حزيران، و خامس أبيب. و بولص هذا كان يهوديا فتنصر بعد رفع المسيح عليه السلام، و دعا إلى دينه، فقتله الملك نيرون بعد قتله بطرس بسنة.

دير الجميزة: و يعرف بـدير الجود، و يسمى موضعه البحارة جزائر الـدير، و هو قبالـة الميمون، و هو عزبـة لدير العزبة، بنى على اسم انطونيوس، و يقـال انطونـة، و كـان من أهـل قمن، فلمـا انقضت أيـام الملك دقلطيانوس و فاتته الشـهادة أحب أن يتعوّض عنها بعبادة توصـل ثوابهـا أو قريبـا من ذلـك، فترهب، و كان أوّل من أحـدث الرهبانيـة للنصارى عوضا عن الشـهادة، و واصل أربعين يوما ليلا و نهارا طاويا لا يتناول طعاما و لا شرابا مع قيام الليل، و كان هكذا يفعل فى الصيام الكبير كل سنة.

دير العزبة: هذا الدير يسار إليه فى الجبل الشرقىّ ثلاثة أيام بسير الإبل، و بينه و بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۴

بحر القلزم مسافة يوم كامل، و فيه غالب الفواكه مزدرعة، و به ثلاثة أعين تجرى، و بناه أنطونيوس المقدّم ذكره، و رهبان هذا الدير لا يزالون دهرهم صائمين، لكن صومهم إلى العصر فقط ثم يفطرون، ما خلا الصوم الكبير و البرمولات، فإن صومهم فى ذلك إلى طلوع النجم، و البرمولات هى الصوم كذلك بلغتهم.

دير أنبابولا: و كان يقال له أوّلا دير بولص، ثم قيل له دير بولا، و يعرف بـدير النمورة أيضا، و هذا الدير فى البرّ الغربىّ من الطور على عين ماء يردها المسافرون، و عنـدهم أن هذه العين تطهرت منها مريم أخت موسـى عليهما السـلام عند نزول موسـى ببنى إسـرائيل فى برّية القلزم. و انبابولا هذا كان من أهل الإسكندرية، فلما مات أبوه ترك له و لأخيه مالا جما، فخاصمه أخوه فى ذلك و خرج مغاضبا له، فرأى ميتـا يقبر، فـاعتبر به و مرّ على وجهه سائحـا حتى نزل على هـذه العين، فأقـام هنـاك و اللّه تعـالى يرزقه، فمرّ به انطونيوس و صحبه حتى مات، فبنى هـذا الـدير على قبره، و بين هـذا الدير و البحر ثلاث ساعات، و فيه بستـان فيه نخل و عنب و به عين ماء تجرى أيضا.

دير القصـير: قال أبو الحسن علىّ بن محمـد الشابشتى فى كتاب الـديارات: و هـذا الدير فى أعلى الجبل على سـطح فى قلته، و هو دير حسن البناء محكم الصـنعة نزه البقعة، و فيه رهبان مقيمون به، و له بئر منقورة فى الحجر يستقى له منها الماء، و فى هيكله صورة مريم عليها السـلام فى لوح، و النـاس يقصـدون الموضع للنظر إلى هـذه الصورة، و فى أعلاه غرفـة بناها أبو الجيش خمارويه بن أحمـد بن طولون، لها أربع طاقات إلى أربع جهات، و كان كثير الغشـيان لهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه، يستحسنها و يشرب على النظر إليها، و فى الطريق إلى هـذا الـدير من جهـة مصـر صـعوبة، و أما من قبليه فسـهل الصـعود و النزول، و إلى جانبه صومعـة لا تخلو من حبيس يكون فيها، و هو مطلّ على القريـة المعروفـة بشـهران، و على الصـحراء و البحر، و هى قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر، و يذكرون أن موسـى صلوات اللّه عليه ولد فيها، و منها ألقته أمّه إلى البحر فى التابوت، و به أيضا دير يعرف بدير شهران، و دير القصير هذا أحد الديارات المقصودة، و المنتزهات المطروقة لحسن موضـعه و إشـرافه على مصـر و أعمالها، و قد قال فيه شعراء مصر و وصفوه فذكروا طيبه و نزهته، و لأبى هريرة بن أبى عاصم فيه من المنسرح:

كم لى بدير القصير من قصفمع كل ذى صبوة و ذى ظرف

لهوت فيه بشادن غنجتقصر عنه بدائع الوصف

و قال ابن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر: و قد اختلف فى القصير فعن ابن لهيعة قال: ليس بقصير موسى النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم، و لكنه موسـى السـاحر، و عن المفضـل بن فضالـة عن أبيه قـال: دخلنا على كعب الأحبار فقال لنا: ممن أنتم؟ قلنا فتيان من أهل مصـر. فقال: ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۵

تقولون في القصير؟ قلنا قصير موسى. فقال: ليس بقصير موسى، و لكنه قصير عزيز مصر، كان إذا جرى النيل يترفع فيه. و على ذلك إنه لمقدّس من الجبل إلى البحر. قال: و يقال بل كان موقدا يوقد فيه لفرعون إذا هو ركب من منف إلى عين شمس، و كان على المقطم موقد آخر، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فأعدّوا له ما يريد، و كذلك إذا ركب منصرفا من عين شمس، و اللّه أعلم، و ما أحسن قول كشاجم:

سلام على دير القصير و سفحه بجنات حلوان إلى النخلات

منازل كانت لى بهنّ مآرب و كنّ مواخيرى و منتزهاتى

إذا جئتها كان الجياد مراكبى و منصرفى فى السفن منحدرات

فأقبض بالأسحار وحشيّ عينها و أقتنص الأنسيّ فى الظلمات

معى كلّ بسام أغرّ مهذب على كل ما يهوى النديم مواتى

و لحمان مما أمسكته كلابنا علينا و مما صيد فى الشبكات

و كأس و ابريق و ناى و مزهر و ساق غرير فاتر اللحظات

كأنّ قضيب البان عند اهتزازه تعلم من أعطافه الحركات

هنالك تصفو لى مشارب لذتى و تصحب أيام السرور حياتى

و قال علماء الأخبار من النصارى: إن أرقاديوس ملك الروم طلب أرسانيوس ليعلّم ولده، فظنّ أنه يقتله، ففرّ إلى مصر و ترهب، فبعث إليه أمانا و أعلمه أن الطلب من أجل تعليم ولده، فاستعفى و تحوّل إلى الجبل المقطم شرقيّ طرا، و أقام فى مغارة ثلاث سنين و مات، فبعث إليه أرقاديوس فإذا هو قد مات، فأمر أن يبنى على قبره كنيسة، و هو المكان المعروف بدير القصير، و يعرف الآن بدير البغل، من أجل أنه كان به بغل يستقى عليه الماء، فإذا خرج من الدير أتى الموردة، و هناك من يملأ عليه، فإذا فرغ من الماء تركه فعاد إلى الدير. و فى رمضان سنة أربعمائة أمر الحاكم بأمر اللّه بهدم دير القصير، فأقام الهدم و النهب فيه مدّة أيام.

دير مرحنا: قال الشابشتى: دير مرحنا على شاطىء بركة الحبش، و هو قريب من النيل، و إلى جانبه بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز، و مجلس على عمد، حسن البناء مليح الصنعة مسوّر، أنشأه الأمير تميم أيضا، و بقرب الدير بئر تعرف ببئر مماتى، عليها جميزة كبيرة يجتمع الناس إليها و يشربون تحتها، و هذا الموضع من مغانى اللعب و مواطن القصف و الطرب، و هو نزه فى أيام النيل و زيادة البحر و امتلاء البركة، حسن المنظر فى أيام الزرع و النواوير، لا يكاد حينئذ يخلو من المتنزهين و المتطربين، و قد ذكرت الشعراء حسنه و طيبه، و هذا الدير يعرف اليوم بدير الطين بالنون.

دير أبى النعناع: هذا الدير خارج انصنا، و هو من جملة عماراتها القديمة، و كنيسته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۶

فى قصره لا فى أرضه، و هو على اسم أبى بخنس القصير، و عيده فى العشرين من بابه، و سيأتى ذكر أبى بخنس هذا.

دير مغارة شقلقيل: هو دير لطيف معلق فى الجبل، و هو نقر فى الحجر على صخرة تحتها عقبة لا يتوصل إليه من أعلاه و لا من أسفله و لا سلّم له، و إنما جعلت له نقور فى الجبل، فإذا أراد أحد أن يصعد إليه أرخيت له سلبة فأمسكها بيده و جعل رجليه فى تلك النقور و صعد، و به طاحونة يديرها حمار واحد، و يطلّ هذا الدير على النيل تجاه منفلوط و تجاه أمّ القصور، و تجاهه جزيرة يحيط بها الماء، و هى التى يقال لها شقلقيل، و بها قريتان إحداهما شقلقيل و الأخرى بنى شقير، و لهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى، و هو على اسم يومينا، و هو من الأجناد الذين عاقبهم ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية و يسجد للأصنام، فثبت على دينه، فقتله فى عاشر حزيران و سادس عشر بابه.

دير بقطر: بحاجر أبنوب من شرقىّ بنى مرّ تحت الجبل، على مائتى قصبة منه، و هو دير كبير جدّا، و له عيد يجتمع فيه نصارى البلاد

شرقا و غربا، و يحضره الأسقف. و بقطر هذا هو ابن رومانوس، كان أبوه من وزراء ديقلطيانوس، و كان هو جميلا شجاعا له منزلة من الملك، فلما تنصر وعده الملك و مناه ليرجع إلى عبادة الأصنام فلم يفعل، فقتله فى ثانى عشرى نيسان، و سابع عشرى برمودة.

دير بقطرشق: فى بحرىّ أبنوب، و هو دير لطيف خال، و إنما تأتيه النصارى مرّة فى كل سنة. و بقطرشق ممن عذبه ديقلطيانوس ليرجع عن النصرانية فلم يرجع، فقتله فى العشرين من هتور، و كان جنديا.

دير بوجرج: بنى على اسم بوجرج، و هو خارج المعيصرة بناحية شرق بنى مرّو، تارة يخلو من الرهبان و تارة يعمر بهم، و له وقت يعمل العيد فيه.

دير حماس: و حماس اسم بلد هو بحربها، و له عيدان فى كل سنة و جموعات متعدّدة.

دير الطير: هذا الدير قديم، و هو مطلّ على النيل، و له سلالم منحوتة فى الجبل، و هو قبالة سملوط. و قال الشابشتى و بنواحى أخميم دير كبير عامر يقصد من كل موضع، و هو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف، و فى موضع من الجبل شق فإذا كان يوم عيد هذا الدير لم يبق فى البلد بوقير حتى يجىء إلى هذا الموضع، فيكون أمرا عظيما بكثرتها و اجتماعها و صياحها عند الشق، و لا يزال الواحد بعد الواحد يدخل رأسه فى ذلك الشق و يصيح و يخرج، و يجىء غيره إلى أن يعلق رأس أحدها و ينشب فى الموضع، فيضطرب حتى يموت، و تتفرّق حينئذ الباقية فلا يبقى منها طائر. و قال القاضى: أبو جعفر القضاعىّ: و من عجائبها يعنى مصر، شعب البوقيرات بناحية أشموم من أرض الصعيد، و هو شعب فى جبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۷

فيه صدع تأتيه البوقيرات فى يوم من السنة كان معروفا، فتعرض أنفسها على الصدع، فكلما أدخل بوقير منها منقاره فى الصدع مضى لطيته، فلا تزال تفعل ذلك حتى يلتقى الصدع على بوقير منها فيحبسه، و تمضى كلها و لا يزال ذلك الذى تحبسه معلقا حتى يتساقط.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: و قد بطل هذا. فى جملة ما بطل.

دير أبى هرمينة: بحرىّ فاو الخراب، و بحريه برباقاو، و هى مملوءة كتبا و حكما، و بين دير الطين و هذا الدير نحو يومين و نصف، و أبو هرمينة هذا من قدماء الرهبان المشهورين عند النصارى.

دير السبعة جبال باخميم: هذا الدير داخل سبعة أودية، و هو دير عال بين جبال شامخة، و لا تشرق عليه الشمس إلّا بعد ساعتين من الشروق لعلوّ الجبل الذى هو فى لحفه، و إذا بقى للغروب نحو ساعتين خيل لمن فيه أن الشمس قد غابت و أقبل الليل، فيشعلون حينئذ الضوء فيه، و على هذا الدير من خارجه عين ماء تظلها صفصافة، و يعرف هذا الموضع الذى فيه دير الصفصافة بوادى الملوك، لأن فيه نباتا يقال له الملوكة، و هو شبه الفجل، و ماؤه أحمر قان يدخل فى صناعة علم أهل الكيمياء، و من داخل هذا الدير دير القرقس: و هو فى أعلى جبل، قد نقر فيه، و لا يعلم له طريق، بل يصعد إليه فى نقور فى الجبل، و لا يتوصل إليه إلّا كذلك، و بين دير الصفصافة و دير القرقس ثلاث ساعات، و تحت دير القرقس عين ماء عذب و أشجار بان.

دير صبرة: فى شرقىّ اخميم، عرف بعرب يقال لهم بنى صبرة، و هو على اسم ميخائيل الملك، و ليس به غير راهب واحد. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۴ ؛ ص۴۲۷

ر أبى بشادة الأسقف: قريب من ناحية انقه، و هو بالحاجر، و تجاهه فى الغرب منشأة اخميم، و كان أبو بشادة هذا من علماء النصارى.

دير بوهر الراهب: و يعرف بدير سوادة، و سوادة عرب تنزل هناك، و هو قبالة منية بنى خصيب، خرّبته العرب، و هذه الأديرة كلها فى الشرق من النيل، و جميعها لليعاقبة، و ليس فى الجانب الشرقىّ الآن سواها، و أما الجانب الغربىّ من النيل فإنه كثير الديارات لكثرة عمارته.

دير دموة بالجيزة: و تعرف بدموة السباع، و هو على اسم قزمان و دميان، و هو دير لطيف، و تزعم النصارى أن بعض الحكماء كان يقال له سبع أقام بدموة، و أن كنيسة دموة التى بأيدى اليهود الآن كانت ديرا من ديارات النصارى، فابتاعته منهم اليهود فى ضائقة

نزلت بهم، و قد تقدّم ذكر كنيسة دموة و قزمان و دميان من حكماء النصارى و رهبانهم العباد، و لهما أخبار عندهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۸

دير نهيا: قال الشابشتى: و نهيا بالجيزة، و ديرها هذا من أحسن ديارات مصر، و أنزهها و أطيبها موضعا، و أجلها موقعا، عامر برهبانه و سكانه، و له فى أيام النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا انصرف الماء و زرعت الأرض أظهرت أراضيه غرائب النواوير و أصناف الزهر، و هو من المنتزهات الموصوفة و البقاع المستحسنة، و له خليج يجتمع فيه سائر الطير، فهو أيضا متصيد ممنع، و قد وصفته الشعراء و ذكرت حسنه و طيبه، قلت و قد خرب هذا الدير.

دير طمويه: قال ياقوت: طمويه- بفتح الطاء و سكون الميم و فتح الواو ساكنة- قريتان بمصر، إحداهما فى كورة المرتاحية، و الأخرى بالجيزة، قال الشابشتى: و طمويه فى الغرب بإزاء حلوان، و الدير راكب البحر، حوله الكروم و البساتين و النخل و الشجر، و هو نزه عامر آهل، و له فى النيل منظر حسن، و حين تخضرّ الأرض يكون فى بساطين من البحر و الزرع، و هو أحد منتزهات أهل مصر المذكورة، و مواضع لهوها المشهورة. و لابن أبى عاصم المصرىّ فيه من البسيط:

و اشرب بطمويه من صهباء صافيةتزرى بخمر قرى هيت و عانات

على رياض من النوّار زاهرةتجرى الجداول فيها بين جنات

كأن نبت الشقيق العصفرىّ بهاكاسات خمر بدت فى إثر كاسات

كأنّ نرجسها من حسنه حدقفى خفية يتناجى بالإشارات

كأنما النيل فى مرّ النسيم بهمستلئم فى دروع سابريات

منازل كنت مفتونا بها شغفاو كنّ قدما مواخيرى و حاناتى

إذ لا أزال ملما بالصبوح علىضرب النواقيس صبّا بالديارات

قلت هذا الدير عند النصارى على اسم بوجرج و يجتمع فيه النصارى من النواحى:

دير أقفاص: و صوابها أقفهس و قد خرب.

دير خارج ناحية منهرى: خامل الذكر لأنهم لا يطعمون فيه أحدا.

دير الخادم: على جانب المنهى بأعمال البهنسا، على اسم غبريال الملك، به بستان فيه نخل و زيتون.

دير أشنين: عرف بناحية أشنين، فإنه فى بحريها، و هو لطيف على اسم السيدة مريم، و ليس به سوى راهب واحد.

دير ايسوس: و معنى ايسوس يسوع، و يقال له دير أرجنوس، و له عيد فى خامس عشرى بشنس، فإذا كان ليلة هذا اليوم سدّت بئر فيه تعرف ببئر ايسوس، و قد اجتمع الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۲۹

إلى الساعة السادسة من النهار، ثم كشفوا الطابق عن البئر فإذا بها قد فاض ماؤها ثم ينزل، فحيث وصل الماء قاسوا منه إلى موضع استقرّ فيه الماء، فما بلغ كانت زيادة النيل فى تلك السنة من الأذرع.

دير سدمنت: على جانب المنهى بالحاجر بين الفيوم و الريف على اسم بوجرج، و قد ضعفت أحواله عما كان عليه و قل ساكنه.

دير النقلون: و يقال له دير الخشبة، و دير غبريال الملك، و هو تحت مغارة فى الجبل الذى يقال له طارف الفيوم، و هذه المغارة تعرف عندهم بمظلة يعقوب، يزعمون أن يعقوب عليه السلام لما قدم مصر كان يستظل بها، و هذا الجبل مطلّ على بلدين يقال لهما اطفيح شيلا، و شلا. و يملأ الماء لهذا الدير من بحر المنهى و من تحت دير سدمنت، و لهذا الدير عيد يجتمع فيه نصارى الفيوم و غيرهم، و هو على السكة التى تنزل إلى الفيوم و لا يسكلها إلّا القليل من المسافرين.

دير القلمون: هذا الدير فى برّية تحت عقبة القلمون، يتوصل المسافر منها إلى الفيوم، يقال لها عقبة الغريق، و بنى هذا الدير على اسم

صمويل الراهب، و كان فى زمن الفترة ما بين عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، و مات فى ثامن كيهك، و فى هذا الدير نخل كثير يعمل من تمره العجوة، و فيه أيضا شجر البلخ، و لا يوجد إلّا فيه، و ثمره بقدر الليمون، طعمه حلو فى مثل طعم الرامخ، ولنواه عدّة منافع، و قال أبو حنيفة فى كتاب النبات: و لا ينبت اللبخ إلّا بأنصنا، و هو عود تنشر منه ألواح السفن، و ربما أرعف ناشرها، و يباع اللوح منها بخمسين دينارا و نحوها، و إذا شدّ لوح منها بلوح و طرحا فى الماء سنة التأما و صارا لوحا واحدا، و فى هذا الدير قصران مبنيان بالحجارة، و هما عاليان كبيران لبياضهما إشراق، و فيه أيضا عين ماء تجرى، و فى خارجه عين أخرى، و بهذا الوادى عدّة معابد قديمة، و ثمّ واد يقال له الأميلح فيه عين ماء تجرى و نخيل مثمرة تأخذ العرب ثمرها، و خارج هذا الدير ملّاحة يبيع رهبان الدير ملحها فيعم تلك الجهات.

دير السيدة مريم: خارج طنبدى، ليس فيه سوى راهب واحد و هو على غير الطريق المسلوك، و كان بأعمال البهنسا عدّة ديارات خربت.

دير برقانا: بحرىّ بنى خالد، و هو مبنىّ بالحجر و عمارته حسنة، و هو من أعمال المنية، و كان به فى القديم ألف راهب، و ليس به الآن سوى راهبين، و هو فى الحاجر تحت الجبل.

دير بالوجه: على جنب المنهى، و هو لأهل دلجة، و هو من الأديرة الكبار، و قد خرب حتى لم يبق به سوى راهب أو راهبين، و هو بإزاء دلجة بينه و بينها نحو ساعتين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۰

دير مرقورة: و يقال أبو مرقورة، هذا الدير تحت دلجة بخارجها من شرقيها و ليس به أحد.

دير صنبو: فى خارجها من بحريها على اسم السيدة مريم و ليس به أحد.

دير تادرس: قبلىّ صنبو و قد تلاشى أمره لاتضاع حال النصارى.

دير الريرمون: فى شرقىّ ناحية الريرمون، و هو شرقىّ ملوى و غربىّ أنصنا، و هو على اسم الملك غبريال.

دير المحرق: تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام فى موضعه ستة أشهر و أياما، و له عيد عظيم يعرف بعيد الزيتونة و عيد العنصرة يجتمع فيه عالم كثير.

دير بنى كلب: عرف بذلك لنزول بنى كلب حوله، و هو على اسم غبريال، و ليس فيه أحد من الرهبان و إنما هو كنيسة لنصارى منفلوط و هو غربيها.

دير الجاولية: هذا الدير ناحية الجاولية من قبليها، و هو على اسم الشهيد مرقورس الذى يقال له مرقورة، و عليه رزق محبسة، و تأتيه النذورات و العوائد و له عيدان فى كل سنة.

دير السبعة جبال: هذا الدير على رأس الجبل الذى غربىّ سيوط، على شاطىء النيل، و يعرف بدير بخنس القصير، و له عدّة أعياد، و خرب فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة من منسر طرقه ليلا. بخنس: و يقال أبو بخنس القصير، كان راهبا قمصا، له أخبار كثيرة منها: أنه غرس خشبة يابسة فى الأرض بأمر شيخه له، و سقاها الماء مدّة فصارت شجرة مثمرة تأكل منها الرهبان، و سميت شجرة الطاعة و دفن فى ديره.

دير المطل: هذا الدير على اسم السيدة مريم، و هو على طرف الجبل تحت دير السبعة جبال قبالة سيوط، و له عيد يحضره أهل النواحى و ليس به أحد من الرهبان.

أديرة أدرنكة

اعلم أن ناحية أدرنكة هى من قرى النصارى الصعايدة، و نصاراها أهل علم فى دينهم، و تفاسيرهم فى اللسان القبطىّ، و لهم أديرة

كثيرة في خارج البلد من قبليها مع الجبل، و قد خرب أكثرها و بقى منها:

دير بوجرج: و هو عامر البناء و ليس به أحد من الرهبان و يعمل فيه عيد في أوانه.

دير أرض الحاجر و دير ميكائيل و دير كرفونه: على اسم السيدة مريم، و كان يقال له ارافونه و اغرافونا و معناه النساخ، فإن نساخ علوم النصارى كانت في القديم تقيم به و هو على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۱

طرف الجبل، و فيه مغاير كثيرة منها ما يسير الماشي بجنبه نحو يومين.

دير أبي بغام: تحت دير كرفونة بالحاجر، و قد كان أبو بغام جنديا في أيام ديقلطيانوس فتنصر و عذب ليرجع عن دينه، ثم قتل في ثامن عشرى كانون الأوّل، و ثاني كيهك.

ديربوساويرس: بحاجر أدرنكة، كان على اسم السيدة مريم، و كان ساويرس من عظماء الرهبان فعمل بطركا، و ظهرت آية عند موته، و ذلك أنه أنذرهم لما سار إلى الصعيد بأنه إذا مات ينشق الجبل و تقع منه قطعة عظيمة على الكنيسة فلا تضرّها، فلما كان في بعض الأيام سقطت قطعة عظيمة من الجبل كما قال، فعلم رهبان هذا الدير بأن ساويرس قد مات، فأرخوا ذلك فوجدوه وقت موته فسموا الدير حينئذ باسمه.

دير تادرس: تحت دير بوساويرس، و تادرس اثنان كانا من أجناد ديقلطيانوس، أحدهما يقال له قاتل التنين و الآخر الاسفهسلار، و قتلا كما قتل غيرهما.

دير منسى آك: و يقال منساك، و بنى ساك وايساآك، و معنى ذلك إسحاق، و كان على اسم السيدة ماريهام يعنى مار مريم، ثم عرف بمنساك، و كان راهبا قديما له عندهم شهرة، و بهذا الدير بئر تحته في الحاجر منها شرب الرهبان فإذا زاد النيل شربوا من مائه.

دير الرسل: تحت دير منساك، و يعرف بدير الأثل، و هو لأعمال بوتيج، و دير منساك لأهل ربقة هو و دير ساويرس، و دير كرفونة لأهل سيوط، و دير بوجرج لأهل أدرنكة، و دير الأثل كان في خراب فعمر بجانبه كفر لطيف عرف بمنشأة الشيخ، لأن الشيخ أبا بكر الشاذليّ أنشأه و أنشأ بستانا كبيرا، و قد وجد موضعه بئرا كبيرة وجد بها كنزا، أخبرني من شاهد من ذهبه دنانير مربعة بأحد وجهيها صليب وزنة الدينار مثقال و نصف. و أديرة أدرنكة المذكورة قريب بعضها من بعض، و بينها مغاير عديدة منقوش على ألواح فيها نقوشات من كتابة القدماء كما على البرابي، و هي مزخرفة بعدّة أصباغ، ملوّنة تشتمل على علوم شتى، و دير السبعة جبال و دير المطل و دير النساخ خارج سيوط في المقابر، و يقال أنه كان في الحاجرين ثلاثمائة و ستون ديرا، و أن المسافر كان لا يزال من البدرشين إلى أصفون في ظل البساتين، و قد خرب ذلك و باد أهله.

دير موشه: و موشه خارج سيوط من قبليها بني على اسم توما الرسول الهندى، و هو بين الغيطان قريب من ربقة، و في أيام النيل لا يوصل إليه إلّا في مركب، و له أعياد و الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطيّ الصعيدىّ، و هو أصل اللغة القبطية، و بعدها اللغة القبطية البحرية، و نساء نصارى الصعيد و أولادهم لا يكادون يتكلمون إلّا بالقبطية الصعيدية، و لهم أيضا معرفة تامّة باللغة الرومية.

دير أبي مقروفة: و أبو مقروفة اسم للبلدة التي بها هذا الدير، و هو منقور في لحف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۲

الجبل و فيه عدّه مغاير و هو على اسم السيدة مريم، و بمقروفة نصارى كثيرة غنامة و رعاة أكثرهم همج، و فيهم قليل من يقرأ و يكتب، و هو دير معطش.

دير بومغام: خارج طما و أهلها نصارى و كانوا قديما أهل علم.

دير بوشنوده: و يعرف بالدير الأبيض، و هو غربيّ ناحية سوهاى و بناؤه بالحجر و قد خرب و لم يبق منه إلا كنيسته، و يقال إن مساحته

أربعة فدادين و نصف و ربع، و الباقى منه نحو فدّان و هو دير قديم.

الدير الأحمر: و يعرف بدير أبى بشاى، و هو بحرىّ الدير الأبيض بينهما نحو ثلاث ساعات، و هو دير لطيف مبنىّ بالطوب الأحمر، و أبو بشاى هذا من الرهبان المعاصرين لشنوده، و هو تلميذه، و صار من تحت يده ثلاث آلاف راهب، و له دير آخر فى برّية شبهات.

دير أبى ميساس: و يقال أبو ميسيس، و اسمه موسى، و هذا الدير تحت البلينا و هو دير كبير. و أبو ميسيس هذا كان راهبا من أهل البلينا و له عندهم شهرة، و هم ينذرونه و يزعمون فيه مزاعم، و لم يبق بعد هذا الدير إلا أديرة بحاجر اسنا و نقادة قليلة العمارة، و كان بأصفون دير كبير و كانت أصفون من أحسن بلاد مصر و أكثر نواحى الصعيد فواكه، و كان رهبان ديرها معروفين بالعلم و المهارة، فخربت أصفون و خرب ديرها. و هذا آخر أديرة الصعيد و هى كلها يحمل متلاشية آئلة إلى الدثور بعد كثرة عمارتها و وفور أعداد رهبانها وسعة أرزاقهم، و كثرة ما كان يحمل إليهم.

و أما

الوجه البحرى: فكان فيه أديرة كثيرة خربت و بقى منها بقية، فكان بالمقس خارج القاهرة من بحريها عدّة كنائس هدمها الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور فى تاسع عشر ذى الحجة سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة و أباح ما كان فيها، فنهب منها شيء كثير جدّا بعد ما أمر فى شهر ربيع الأوّل منها بهدم كنائس راشدة خارج مدينة مصر من شرقيها، و جعل موضعها الجامع المعروف براشدة، و هدم أيضا فى سنة أربع و تسعين كنيستين هناك، و ألزم النصارى بلبس السواد و شدّ الزنار، و قبض على الأملاك التى كانت محبسة على الكنائس و الأديرة و جعلها فى ديوان السلطان، و أحرق عدّة كثيرة من الصلبان، و منع النصارى من إظهار زينة الكنائس فى عيد الشعانين، و تشدّد عليهم و ضرب جماعة منهم، و كانت بالروضة كنيسة بجوار المقياس فهدمها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة، و كان فى ناحية أبى النمرس من الجيزة كنيسة قام فى هدمها رجل من الزيالعة، لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها فى ليلة الجمعة بهذه الكنيسة، فلم يتمكن من ذلك فى أيام الأشرف شعبان بن حسين لتمكن الأقباط فى الدولة، فقام فى ذلك مع الأمير الكبير برقوق، و هو يومئذ القائم بتدبير الدولة، حتى هدمها على يد القاضى جمال الدين محمود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۳

العجمىّ محتسب القاهرة فى ثامن عشر رمضان سنة ثمانين و سبعمائة، و عملت مسجدا.

دير الخندق: ظاهر القاهرة من بحريها، عمره القائد جوهر عوضا عن دير هدمه فى القاهرة، كان بالقرب من الجامع الأقمر حيث البئر التى تعرف الآن ببئر العظمة، و كانت إذ ذاك تعرف ببئر العظام من أجل أنه نقل عظاما كانت بالدير و جعلها بدير الخندق، ثم هدم دير الخندق فى رابع عشرى شوّال سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فى أيام المنصور قلاون، ثم جدّد هذا الدير الذى هناك بعد ذلك، و عمل كنيستين يأتى ذكرهما فى الكنائس.

دير سرياقوس: كان يعرف بأبى هور، و له عيد يجتمع فيه الناس، و كان فيه أعجوبة ذكرها الشابشتى، و هو أن من كان به خنازير أخذه رئيس هذا الدير و أضجعه و جاءه بخنزير فلحس موضع الوجع، ثم أكل الخنازير التى فيه فلا- يتعدّى ذلك إلى الموضع الصحيح، فإذا نظف الموضع ذرّ عليه رئيس الدير من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل و دهنه بزيت قنديل البيعة، فإنه يبرأ ثم يؤخذ ذلك الخنزير الذى أكل خنازير العليل فيذبح و يحرق، و يعدّ رماده لمثل هذه الحالة، فكان لهذا الدير دخل عظيم ممن يبرأ من هذه العلة، و فيه خلق من النصارى.

دير اتريب: و يعرف بمارى مريم، و عيده فى حادى عشرى بؤنه، و ذكر الشابشتى أن حمامة بيضاء تأتى فى ذلك العيد فتدخل المذبح، لا يدرون من أين جاءت و لا يرونها إلى يوم مثله. و قد تلاشى أمر هذا الدير حتى لم يبق به إلّا ثلاثة من الرهبان، لكنهم يجتمعون فى عيده، و هو على شاطىء النيل قريب من بنها العسل.

دير المغطس: عند الملاحات قريب من بحيرة البراس، و تحج إليه النصارى من قبلىّ أرض مصر، و من بحريها، مثل حجهم إلى كنيسة

القيامة، و ذلك يوم عيده، و هو فى بشنس و يسمونه عيد الظهور من أجل أنهم يزعمون أن السيدة مريم تظهر لهم فيه مزاعم كلها من أكاذيبهم المختلفة، و ليس بحذاء هذا الدير عمارة سوى منشأة صغيرة فى قبليه بشرق، و بقربه الملاحة التى يؤخذ منها الملح الرشيدىّ، و قد هدم هذا الدير فى شهر رمضان سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة بقيام بعض الفقراء المعتقدين.

دير العسكر: فى أرض السباخ على يوم من دير المغطس، على اسم الرسل، و بقربه ملاحة الملح الرشيدىّ و لم يبق به سوى راهب واحد.

دير جميانة: على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاث ساعات منه، و عيده عقب عيد دير المغطس و ليس به الآن أحد.

دير الميمنة: بالقرب من دير العسكر، كانت له حالات جليلة، و لم يكن فى القديم دير بالوجه البحرىّ أكثر رهبانا منه، إلّا أنه تلاشى أمره و خرب، فنزله الحبش و عمروه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۴

و ليس فى السباخ سوى هذه الأربعة الأديرة. و أما وادى هبيب و هو وادى النطرون، و يعرف ببرّية شيهات و ببرّية الأسقط و بميزان القلوب، فإنه كان بها فى القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدّة غربا على جانب البرّية القاطعة بين بلاد البحيرة و الفيوم، و هى فى رمال منقطعة و سباخ مالحة و برار منقطعة معطشة و قفار مهلكة، و شارب أهلها من حفائر، و تحمل النصارى إليهم النذور و القرابين، و قد تلاشت فى هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه و أنه كتب لهم كتابا هو عندهم.

فمنها

دير أبى مقار الكبير: و هو دير جليل عندهم، و بخارجه أديرة كثيرة خربت، و كان دير النساك فى القديم، و لا يصح عندهم بطركية البطرك حتى يجلسوه فى هذا الدير بعد جلوسه بكرسىّ اسكندرية، و يذكر أنه كان فيه من الرهبان ألف و خمسمائة لا تزال مقيمة به، و ليس به الآن إلّا قليل منهم، و المقارات ثلاثة: أكبرهم صاحب هذا الدير، ثم أبو مقار الإسكندرانىّ، ثم أبو مقار الأسقف. و هؤلاء الثلاثة قد وضعت رممهم فى ثلاث أنابيب من خشب، و تزورها النصارى بهذا الدير، و به أيضا الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لرهبان وادى هبيب بجرانة نواحى الوجه البحرى على ما أخبرنى من أخبر برؤيته فيه.

أبو مقار الأكبر: هو مقاريوس، أخذ الرهبانية عن أنطونيوس، و هو أوّل من لبس عندهم القلنسوة و الاشكيم، و هو سير من جلد فيه صليب يتوشح به الرهبان فقط، و لقى انطونيوس بالجبل الشرقىّ من حيث دير العزبة، و أقام عنده مدّة، ثم ألبسه لباس الرهبانية و أمره بالمسير إلى وادى النطرون ليقيم هناك، ففعل ذلك و اجتمع عنده الرهبان الكثيرة العدد، و له عندهم فضائل عديدة منها: أنه كان لا يصوم الأربعين إلّا طاويا فى جميعها لا يتناول غذاء و لا شرابا البتة، مع قيام ليلها. و كان لا يعمل الخوص و يتقوّت منه، و ما أكل خبزا طريا قط، بل يأخذ القراقيش فيبلها فى نقاعة الخوص و يتناول منها هو و رهبان الدير ما يمسك الرمق من غير زيادة، هذا قوتهم مدّة حياتهم حتى مضوا لسبيلهم، و أما أبو مقار الإسكندرانىّ فإنه ساح من الإسكندرية إلى مقاريوس المذكور و ترهب على يديه، ثم كان أبو مقار الثالث و صار أسقفا.

دير أبى بخنس القصير: يقال أنه عمر فى أيام قسطنطين بن هيلانة، و لأبى بخنس هذا فضائل مذكورة، و هو من أجل الرهبان، و كان لهذا الدير حالات شهيرة و به طوائف من الرهبان، و لم يبق به الآن إلّا ثلاثة رهبان.

دير الياس: عليه السلام، و هو دير للحبشة، و قد خرب دير بخنس كما خرب دير الياس، أكلت الأرضة أخشابهما فسقطا، و صار الحبشة إلى دير سيدة بوبخنس القصير، و هو دير لطيف بجوار دير بوبخنس القصير. و بالقرب من هذه الأديرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۵

دير انبانوب: و قد خرب هذا الدير أيضا انبانوب هذا من أهل سمنود قتل فى الإسلام و وضع جسده فى بيت بسمنود.

دير الأرمن: قريب من هذه الأديرة و قد خرب. و بجوارها أيضا:

دير بوبشاى: و هو دير عظيم عندهم، من أجل أن بوبشاى هذا كان من الرهبان الذين فى طبقة مقاريوس و بخنس القصير، و هو دير كبير جدّا.

دير بإزاء دير بوبشاى: كان بيد اليعاقبة، ثم ملكته رهبان السريان من نحو ثلاثمائة سنة، و هو بيدهم الآن، و مواضع هذه الأديرة يقال لها بركة الأديرة.

دير سيدة برموس: على اسم السيدة مريم فيه بعض رهبان. و بإزائه:

دير موسى: و يقال أبو موسى الأسود، و يقال برمؤس، و هذا الدير لسيدة برمؤس، فبرموس اسم الدير و له قصة حاصلها أن مكسيموس و دوماديوس كانا ولدى ملك الروم، و كان لهما معلم يقال له ارسانيوس، فسار المعلم من بلاد الروم إلى أرض مصر، و عبر برّية شيهات هذه، و ترهب و أقام بها حتى مات، و كان فاضلا. و أتاه فى حياته ابنا الملك المذكوران و ترهبا على يديه، فلما ماتا بعث أبوهما فبنى على اسمهما كنيسة برموس. و أبو موسى الأسود كان لصا فاتكا قتل مائة نفس، ثم إنه تنصر و ترهب و صنف عدّة كتب، و كان ممن يطوى الأربعين فى صومه و هو بربرىّ.

دير الزجاج: هذا الدير خارج مدينة الإسكندرية، و يقال له الهايطون، و هو على اسم بوجرج الكبير، و من شرط البطرك أنه لا بدّ أن يتوجه من المعلقة بمصر إلى دير الزجاج هذا، ثم إنهم فى هذا الزمان تركوا ذلك، فهذه أديرة اليعاقبة.

و للنساء ديارات تختص بهنّ: فمنها دير الراهبات بحارة زويلة من القاهرة، و هو دير عامر بالإبكار المترهبات و غيرهنّ من نساء النصارى.

دير البنات: بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات.

دير المعلقة: بمدينة مصر، و هو أشهر ديارات النساء عامر بهنّ.

دير بربارة: بمصر بجوار كنيسة بربارة عامر بالبنات المترهبات بربارة: كانت قدّيسة فى زمان دقلطيانوس، فعذبها لترجع عن ديانتها و تسجد للأصنام، فثبتت على دينها و صبرت على عذاب شديد و هى بكر لم يمسها رجل، فلما يئس منها ضرب عنقها و عنق عدّة من النساء معها و للنصارى الملكية قلاية بطركهم بجوار كنيسة ميكائيل بالقرب من جسر الأفرم خارج مصر، و هى مجمع الرهبان الواردين من بلاد الروم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۶

دير بخنس القصير: المعروف بالقصيّر، و صوابه عندهم دير القصير على وزن شهيد، و حرّف فقيل دير القصيّر، بضم القاف و فتح الصاد و تشديد الياء، فسماه المسلمون دير القصير بضم القاف و فتح الصاد و إسكان الياء آخر الحروف، كأنه تصغير قصير، و أصله كما عرّفتك دير القصير الذى هو ضدّ الطويل، و سمى أيضا دير هر قل، و دير البغل، و قد تقدّم ذكره. و كان من أعظم ديارات النصارى و ليس به الآن سوى واحد يحرسه، و هو بيد الملكية.

دير الطور: قال ابن سيده: الطور الجبل، و قد غلب على طور سيناء جبل بالشام، و هو بالسريانية طورى و النسب إليه طورىّ و طوارى. و قال ياقوت: طور سبعة مواضع:

الأوّل طور زيتا بلفظ الزيت من الأدهان مقصور علم لجبل بقرب رأس عين. الثانى طور زيت أيضا جبل بالبيت المقدّس، و هو شرقىّ سلوان. الثالث الطور علم لجبل بعينه مطلّ على مدينة طبرية بالأردن. الرابع الطور علم لجبل كورة تشتمل على عدّة قرى بأرض مصر من الجهة القبلية بين مصر و جبل فاران. الخامس طور سيناء اختلفوا فيه فقيل هو جبل بقرب إيلة، و قيل جبل بالشام، و قيل سيناء حجازية، و قيل سحرتية. السادس طور عبدين بفتح العين و سكون الباء الموحدة و كسر الدال المهملة و ياء آخر الحروف و نون، اسم لبلدة من نواحى نصيبين فى بطن الجبل المشرف عليها المتصل بجبل جودىّ. السابع طور هارون أخى موسى عليهما السلام. و قال

الواحدىّ: فى تفسيره، و قال الكلبىّ و غيره: و الجبل فى قوله تعالى، و لكن انظر إلى الجبل أعظم جبل بمدين يقال له زبير، و ذكر الكلبىّ أن الطور سمى بيطور بن إسماعيل. قال السهيلىّ: فلعله محذوف الياء إن كان صح ما قاله.

و قال عمر بن شيبة: أخبرنى عبد العزيز عن أبى معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: «أربعة أنهار فى الجنة و أربعة أجبل و أربع ملاحم فى الجنة، فأما الأنهار فسيحان و جيحان و النيل و الفرات، و أما الأجبل فالطور و لبنان و أحد و ورقان، و سكت عن الملاحم». و عن كعب الأحبار معاقل المسلمين ثلاثة: فمعقلهم من الروم دمشق، و معقلهم من الدجال الأردن، و معقلهم من يأجوج و مأجوج الطور. و قال شعبة عن أرطاة بن المنذر: إذا خرج يأجوج و مأجوج أوحى اللّه تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنى قد أخرجت خلقا من خلقى لا يطيقهم أحد غيرى. فمرّ بمن معك إلى جبل الطور، فيمرّ و معه من الذرارى اثنا عشر ألفا. و قال طلق بن حبيب عن زرعة: أردت الخروج إلى الطور فأتيت عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما فقلت له: فقال إنما تشدّ الرحال إلى ثلاثة مساجد: إلى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و المسجد الحرام، و المسجد الأقصى. فدع عنك الطور فلا تأته. و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعىّ، و قد ذكر كور أرض مصر: و من كور القبلة قرى الحجاز و هى: كورة الطور و فاران، و كورة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۷

راية و القلزم، و كورة إيلة و حيزها، و مدين و حيزها، و العويند و الحوراء و حيزهما، ثم كورة بدا و شعيب. قلت لا خلاف بين علماء الأخبار من أهل الكتاب أن جبل الطور هذا هو الذى كلم اللّه تعالى نبيه موسى عليه السلام عليه، أو عنده، و به إلى الآن دير بيد الملكية و هو عامر و فيه بستان كبير به نخل و عنب و غير ذلك من الفواكه. و قال الشابشتىّ: و طور سينا هو الجبل الذى تجلّى فيه النور لموسى بن عمران عليه السلام، و فيه صعق، و الدير فى أعلى الجبل مبنىّ بحجر أسود، عرض حصنه سبع أذرع، و له ثلاثة أبواب حديد، و فى غربيه باب لطيف، و قدّامه حجر أقيم إذا أرادوا رفعه رفعوه، و إذا قصدهم أحد أرسلوه فانطبق على الموضع فلم يعرف مكان الباب، و داخل الدير عين ماء، و خارجه عين أخرى، و زعم النصارى أن به نارا من أنواع النار التى كانت ببيت المقدس، يقدمون منها فى كلّ عشية، و هى بيضاء لطيفة ضعيفة الحرّ لا تحرق، ثم تقوى إذا أوقد منها السراج، و هو عامر بالرهبان، و الناس يقصدونه، و هو من الديارات الموصوفة. قال ابن عامر فيه:

يا راهب الدير ما ذا الضوء و النورفقد أضاء بما فى ديرك الطور

هل حلّت الشمس فيه دون أبرجهاأو غيّب البدر فيه و هو مستور

فقال ما حلّه شمس و لا قمرلكن تقرّب فيه اليوم قورير

قلت ذكر مؤرخو النصارى أنّ هذا الدير أمر بعمارته يوسطيانوس ملك الروم بقسطنطينية، فعمل عليه حصن فوقه عدّة قلالى، و أقيم فيه الحرس لحفظ رهبانه من قوم يقال لهم بنو صالح من العرب، و فى أيام هذا الملك كان المجمع الخامس من مجامع النصارى، و بينه و بين القلزم، و كانت مدينة، طريقان إحداهما فى البرّ و الأخرى فى البحر، و هما جميعا يؤدّيان إلى مدينة فاران، و هى من مدائن العمالقة، ثم منها إلى الطور مسيرة يومين، و من مدينة مصر إلى القلزم ثلاثة أيام، و يصعد إلى جبل الطور بستة آلاف و ستمائة و ست و ستين مرقاة، و فى نصف الجبل كنيسة لإيلياء النبىّ، و فى قلته كنيسة على اسم موسى عليه السلام بأساطين من رخام، و أبواب من صفر، و هو الموضع الذى كلم اللّه تعالى فيه موسى، و قطع منه الألواح و لا يكون فيها إلّا راهب واحد للخدمة، و يزعمون أنه لا يقدر أحد أن يبيت فيها، بل يهيأ له موضع من خارج يبيت فيه، و لم يبق لهاتين الكنيستين وجود.

دير البنات بقصر الشمع بمصر: و هو على اسم بوجرج، و كان مقياس النيل قبل الإسلام، و به آثار ذلك إلى اليوم، فهذا ما للنصارى اليعاقبة، و الملكية رجالهم و نسائهم من الديارات بأرض مصر قبليها و بحريها، و عدّتها ستة و ثمانون ديرا منها لليعاقبة ... ديرا و للملكية ... .

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۸

ذكر كنائس النصارى

اشارة

قال الأزهرىّ: كنيسة اليهود جمعها كنائس، و هى معرّبة أصلها كنشت. انتهى. و قد نطقت العرب بذكر الكنيسة. قال العباس بن مرداس السلمىّ:

بدورون بى فى ظل كلّ كنيسةو ما كان قومى يبنون الكنائسا

و قال ابن قيس الرقيات: كأنها دمية مصوّرة فى بيعة من كنائس الروم.

كنيستا الخندق: ظاهر القاهرة، إحداهما على اسم غبريال الملاك، و الأخرى على اسم مرقوريوس، و عرفت برويس، و كان راهبا مشهورا بعد سنة ثمانمائة، و عند هاتين الكنيستين يقبر النصارى موتاهم، و تعرف بمقبرة الخندق، و عمرت هاتان الكنيستان عوضا عن كنائس المقس فى الأيام الإسلامية.

كنيسة حارة زويلة بالقاهرة: كنيسة عظيمة عند النصارى اليعاقبة، و هى على اسم السيدة، و زعموا أنها قديمة تعرف بالحكيم زايلون، و كان قبل الملة الإسلامية بنحو مائتين و سبعين سنة، و أنه صاحب علوم شتى، و أن له كنزا عظيما يتوصل إليه من بئر هناك.

كنيسة تعرف بالمغيثة: بحارة الروم من القاهرة على اسم السيدة مريم، و ليس لليعاقبة بالقاهرة سوى هاتين الكنيستين، و كان بحارة الروم أيضا كنيسة أخرى يقال لها كنيسة بربارة هدمت فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و سبب ذلك أن النصارى رفعوا قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون يسألون الإذن فى إعادة ما تهدّم منها، فأذن لهم فى ذلك فعمروها أحسن ما كانت، فغضبت طائفة من المسلمين و رفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن، والى القاهرة بهدم ما جدّدوه، فركب و قد اجتمع الخلائق، فبادروا و هدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت، و أقاموا فى موضعها محرابا و أذنوا و صلوا و قرؤا القرآن، كل ذلك بأيديهم، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة، فاشتدّ الأمر على النصارى و شكوا أمرهم للقاضى كريم الدين ناظر الخاص، فقام و قعد غضبا لدين أسلافه، و ما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب فهدم، و صار موضعه كوم تراب و مضى الحال على ذلك.

كنيسة بومنا: هذه الكنيسة قريبة من السدّ فيما بين الكيمان بطريق مصر، و هى ثلاث كنائس متجاورة، إحداها لليعاقبة، و الأخرى للسريان، و أخرى للأرمن، و لها عيد فى كل سنة تجتمع إليه النصارى.

كنيسة المعلقة: بمدينة مصر فى خط قصر الشمع، على اسم السيدة، و هى جليلة القدر عندهم، و هى غير القلاية التى تقدّم ذكرها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۳۹

كنيسة شنوده: بمصر، نسبت لأبى شنودة الراهب القديم، و له أخبار منها: أنه كان ممن يطوى فى الأربعين إذا صام، و كان تحت يده ستة آلاف راهب يتقوّت هو و إياهم من عمل الخوص، و له عدّة مصنفات.

كنيسة مريم: بجوار كنيسة شنودة، هدمها علىّ بن سليمان بن علىّ بن عبد اللّه بن عباس أمير مصر لما ولى من قبل أمير المؤمنين الهادى موسى، فى سنة تسع و ستين و مائة، و هدم كنائس محرس قسطنطين، و بذل له النصارى فى تركها خمسين ألف دينار فامتنع، فلما عزل بموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس فى خلافة هارون الرشيد، أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها علىّ بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد، و عبد اللّه بن لهيعة. و قالا هو من عمارة

البلاد، و احتجا بأن الكنائس التى بمصر لم تبن إلّا فى الإسلام فى زمن الصحابة و التابعين.

كنيسة بوجرج الثقة: هذه الكنيسة فى درب بخط قصر الشمع بمصر يقال له درب الثقة، و يجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

الثقة، و يجاورها كنيسة سيدة بوجرج.

كنيسة بربارة: بمصر، كبيرة جليلة عندهم، و هى تنسب إلى القديسة بربارة الراهبة، و كان فى زمانها راهبتان بكران، و هما ايسى و تكلة، و يعمل لهنّ عيد عظيم بهذه الكنيسة يحضره البطريق.

كنيسة بوسرجه: بالقرب من بربارة بجوار زاوية ابن النعمان، فيها مغارة يقال أن المسيح و أمّه مريم عليها السلام جلسا بها.

كنيسة بابليون: فى قبلىّ قصر الشمع بطريق جسر الأفرم، و هذه الكنيسة قديمة جدّا، و هى لطيفة، و يذكر أن تحتها كنز بابليون و قد خرب ما حولها.

كنيسة تاودورس الشهيد: بجوار بابليون، نسبت للشهيد تاودورس الإسفهسلار.

كنيسة بومنا بجوار بابليون أيضا: و هاتان الكنيستان مغلوقتان لخراب ما حولهما.

كنيسة بومنا: بالحمراء، و تعرف الحمراء اليوم بخط قناطر السباع، فيما بين القاهرة و مصر، و أحدثت هذه الكنيسة فى سنة سبع عشرة و مائة من سنى الهجرة بإذن الوليد بن رفاعة أمير مصر، فغضب و هيب اليحصبىّ و خرج على السلطان و جاء إلى ابن رفاعة ليفتك به، فأخذ و قتل، و كان وهيب مدريا من اليمن، قدم إلى مصر فخرج القرّاء على الوليد بن رفاعة غضبا لوهيب و قاتلوه، و صارت معونة امرأة وهيب تطوف ليلا على منازل القرّاء تحرّضهم على الطلب بدمه، و قد حلقت رأسها، و كانت امرأة جزلة، فأخذ ابن رفاعة أبا عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبىّ بالقرّاء، فاعتذر و خلى ابن رفاعة عنهم، فسكنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۰

الفتنة بعد ما قتل جماعة، و لم تزل هذه الكنيسة بالحمراء إلى أن كانت واقعة هدم الكنائس فى أيام الناصر محمد بن قلاون على ما يأتى ذكر ذلك، و الخبر عن هدم جميع كنائس أرض مصر و ديارات النصارى فى وقت واحد.

كنيسة الزهرى: كانت فى الموضع الذى فيه اليوم البركة الناصرية بالقرب من قناطر السباع فى برّ الخليج الغربىّ، غربىّ اللوق، و اتفق فى أمرها عدّة حوادث، و ذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أنشأ ميدان المهارى المجاور لقناطر السباع، فى سنة عشرين و سبعمائة، قصد بناء زريبة على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسىّ، فأمر بنقل كوم تراب كان هناك، و حفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة، و أجرى الماء إلى مكان الحفر، فصار يعرف إلى اليوم بالبركة الناصرية، و كان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأوّل سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرىّ، و كان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها، و بجانبها أيضا عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر أقبغا، ما بين السبع سقايات و بين قنطرة السدّ خارج مدينة مصر، أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرىّ حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر، و هو اليوم بركة الناصرية، و زاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة، و كان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها، و صارت العامّة من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر و غيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها و هم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة، و العمل من الحفر بطال، فتجمع عدّة من غوغاء العامّة بغير مرسوم السلطان و قالوا بصوت عال مرتفع اللّه أكبر، و وضعوا أيديهم بالمساحى و نحوها فى كنيسة الزهرى و هدموها حتى بقيت كوما، و قتلوا من كان فيها من النصارى، و أخذوا جميع ما كان فيها، و هدموا كنيسة بومنا التى كانت بالحمراء، و كانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان، و بها عدّة من النصارى قد انقطعوا فيها، و يحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه، و يبعث إليها بالنذور الجليلة و الصدقات الكثيرة، فوجد فيها مال كثير ما بين نقد و مصاغ و غيره، و تسلق العامّة إلى أعلاها و فتحوا أبوابها و أخذوا منها مالا و قماشا و جرار خمر، فكان أمرا مهولا.

ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات، كان يسكنها بنات النصارى و عدّة من الرهبان، فكسروا أبواب الكنيستين و سبوا البنات و كنّ زيادة على ستين بنتا، و أخذوا ما عليهنّ من الثياب و نهبوا سائر ما ظفروا به، و حرّقوا و هدموا تلك الكنائس كلها، هذا و الناس فى صلاة الجمعة، فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار و دخان الحريق و مرج الناس و شدّة حركاتهم، و معهم ما نهبوه، فما شبه الناس الحال لهوله إلّا بيوم القيامة، و انتشر الخبر و طار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل، فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۱

فبعث لكشف الخبر، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما و غضب من تجرى العامّة و إقدامهم على ذلك بغير أمره، و أمر الأمير أيدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الأوشاقية و يتدارك هذا الخلل، و يقبض على من فعله، فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب و إذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامّة ثارت فى القاهرة و خرّبت كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بحارة زويلة، و جاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامّة قامت بمصر فى جمع كثير جدّا و زحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فأغلقها النصارى و هم محصورون بها و هى على أن توخذ، فتزايد غضب السلطان و همّ أن يركب بنفسه و يبطش بالعامّة، ثم تأخر لمّا راجعه الأمير أيدغمش و نزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر، و ركب الأمير بيبرس الحاجب، و الأمير الماس الحاجب إلى موضع الحفر، و ركب الأمير طينال إلى القاهرة، و كل منهم فى عدّة وافرة، و قد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامّة، بحيث لا يعفو عن أحد، فقامت القاهرة و مصر على ساق، و فرّت النهابة، فلم يظفر الأمراء منهم إلّا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس، و لحق الأمير أيدغمش بمصر و قد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فرّ منهم، و لم يبق إلّا أن يحرق باب الكنيسة، فجرّد أيدغمش و من معه السيوف يريدون الفتك بالعامّة، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر، و خاف سوء العاقبة، فأمسك عن القتل و أمر أصحابه بإرجاف العامّة من غير إهراق دم، و نادى منادية: من وقف حلّ دمه.

ففرّ سائر من اجتمع من العامّة و تفرّقوا، و صار أيدغمش واقفا إلى أن أذّن العصر خوفا من عود العامّة، ثم مضى و ألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هناك، و ترك معه خمسين من الأوشاقية.

و أما الأمير الماس فإنه وصل إلى كنائس الحمراء و كنائس الزهرىّ ليتداركها، فإذا بها قد بقيت كيمانا ليس بها جدار قائم، فعاد و عاد الأمراء، فردّوا الخبر على السلطان و هو لا يزداد إلّا حنقا، فما زالوا به حتى سكن غضبه، و كان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجبا من العجب، و هو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل، فعندما فرغوا من الصلاة قام رجل موله و هو يصيح من وسط الجامع: اهدموا الكنيسة التى فى القلعة، اهدموها. و أكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحدّ، ثم اضطرب. فتعجب السلطان و الأمراء من قوله، و رسم لنقيب الجيوش و الحاجب بالفحص عن ذلك، فمضيا من الجامع إلى خرائب التتر من القلعة، فإذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها، و لم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء و القاهرة، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير، و طلب فلم يوقف له على خبر، و اتفق أيضا بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة، أخذ شخصا من الفقراء مثل الرعدة، ثم قام بعد ما أذن قبل أن يخرج الخطيب و قال: اهدموا كنائس الطغيان و الكفرة، نعم اللّه أكبر، فتح اللّه و نصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۲

و صار يزعج نفسه و يصرخ من الأساس إلى الأساس، فحدّق الناس بالنظر إليه و لم يدروا ما خبره، و افترقوا فى أمره. فقائل هذا مجنون، و قائل هذه إشارة لشىء. فلما خرج الخطيب أمسك عن الصياح، و طلب بعد انقضاء الصلاة فلم يوجد. و خرج الناس إلى باب الجامع فرأوا النهابة و معهم أخشاب الكنائس و ثياب النصارى و غير ذلك من النهوب، فسألوا عن الخبر فقيل: قد نادى السلطان بخراب الكنائس، فظنّ الناس الأمر كما قيل، حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر إنما كان من غير أمر السلطان، و كان الذى هدم فى هذا

اليوم من الكنائس بالقاهرة، كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بالبندقانيين، و كنيستين بحارة زويلة. و فى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة الكائن فيه هدم كنائس القاهرة و مصر، ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنىّ والى الإسكندرية، بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة، وقع فى الناس هرج، و خرجوا من الجامع و قد وقع الصياح: هدمت الكنائس- فركب المملوك من فوره فوجد الكنائس قد صارت كوما، و عدّتها أربع كنائس، و أن بطاقة وقعت من والى البحيرة بأن كنيستين فى مدينة دمنهور هدمتا و الناس فى صلاة الجمعة من هذا اليوم، فكثر التعجب من ذلك، إلى أن ورد فى يوم الجمعة سادس عشرة الخبر من مدينة قوص بأن الناس عند ما فرغوا من صلاة الجمعة فى اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر، قام رجل من الفقراء و قال يا فقراء اخرجوا إلى هدم الكنائس، و خرج فى جمع من الناس فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس، فهدمت ست كنائس كانت بقوص و ما حولها فى ساعة واحدة، و تواتر الخبر من الوجه القبلىّ و الوجه البحرىّ بكثرة ما هدم فى هذا اليوم وقت صلاة الجمعة و ما بعدها من الكنائس و الأديرة، فى جميع إقليم مصر كله، ما بين قوص و الإسكندرية و دمياط، فاشتدّ حنق السلطان على العامّة خوفا من فساد الحال، و أخذ الأمراء فى تسكين غضبه و قالوا: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله، و لو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه، و ما هذا إلّا بأمر اللّه سبحانه، و بقدره لما علم من كثرة فساد النصارى و زيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نقمة و عذابا لهم، هذا و العامّة بالقاهرة و مصر قد اشتدّ خوفهم من السلطان لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل، ففرّ عدّة من الأوباش و الغوغاء، و أخذ القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى ترجيع السلطان عن الفتك بالعامّة و سياسة الحال معه، و أخذ كريم الدين الكبير ناظر الخاص يغريه بهم إلى أن أخرجه السلطان إلى الإسكندرية بسبب تحصيل المال، و كشف الكنائس التى خربت بها.

فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة و مصر فى عدّة مواضع، و حصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس، فوقع الحريق فى ربع بخط الشوّايين من القاهرة، فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى، و سرت النار إلى ما حوله و استمرّت إلى آخر يوم الأحد، فتلف فى هذا الحريق شىء كثير، و عند ما أطفىء وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص، فى خامس عشرى

جمادى الأولى، و كانت ليلة شديدة الريح، فسرت النار من كلّ ناحية حتى وصلت إلى بيت كريم الدين، و بلغ ذلك السلطان فانزعج انزعاجا عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية، و سيّر طائفة من الأمراء لإطفائه، فجمعوا الناس لإطفائه و تكاثروا عليه و قد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء، فتزايد الحال فى اشتعال النار و عجز الأمراء و الناس عن إطفائها لكثرة انتشارها فى الأماكن و قوّة الريح التى ألقت باسقات النخل، و غرّقت المراكب، فلم يشكّ الناس فى حريق القاهرة كلّها، و صعدوا المآذن، و برز الفقراء و أهل الخير و الصلاح و ضجوا بالتكبير و الدعاء، و جأروا و كثر صراخ الناس و بكاؤهم، و صعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدّة الريح، و استمرّ الحريق و الاستحثاث يرد على الأمراء من السلطان فى إطفائه إلى يوم الثلاثاء، فنزل نائب السلطان و معه جميع الأمراء و سائر السقائين، و نزل الأمير بكتمر الساقى، فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم منه و لا أشدّ هولا، و وكل بأبواب القاهرة من يردّ السقائين إذا خرجوا من القاهرة لأجل إطفاء النار، فلم يبق أحد من سقائى الأمراء و سقائى البلد إلّا و عمل، و صاروا ينقلون الماء من المدارس و الحمامات، و أخذ جميع النجارين و سائر البنائين لهدم الدور، فهدم فى هذه النوبة ما شاء اللّه من الدور العظيمة و الرباع الكبيرة، و عمل فى هذا الحريق أربعة و عشرون أميرا من الأمراء المقدّمين، سوى من عداهم من أمراء الطبلخانات و العشراوات و المماليك، و عمل الأمراء بأنفسهم فيه، و صار الماء من باب زويلة إلى حارة الديلم فى الشارع بحرا من كثرة الرجال و الجمال التى تحمل الماء، و وقف الأمير بكتمر الساقى و الأمير أرغون النائب على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده بدرب الرصاصىّ، و خرّبوا ستة عشر دارا من جوار الدار و قبالتها، حتى تمكنوا من نقل الحواصل، فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق و نقل الحواصل، و إذا بالحريق قد وقع فى ربع الظاهر خارج باب زويلة، و كان يشتمل على مائة و عشرين

بيتا، و تحته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء، وهب مع الحريق ريح قوية، فركب الحاجب و الوالى لإطفائه و هدموا عدّة دور من حوله حتى انطفأ، فوقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار فى خط بين القصرين، ابتدأ من الباذهنج، و كان ارتفاعه عن الأرض مائة ذراع بالعمل، فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفىء، فأمر السلطان الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة، و الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، بالاحتراز و اليقظة، و نودى بأن يعمل عند كلّ حانوت دنّ فيه ماء، أو زير مملوء بالماء، و أن يقام مثل ذلك فى جميع الحارات و الأزقة و الدروب، فبلغ ثمن كل دنّ خمس دراهم بعد درهم، و ثمن الزير ثمانية دراهم، و وقع حريق بحارة الروم و عدّة مواضع، حتى أنه لم يخل يوم من وقوع الحريق فى موضع، فتنبه الناس لما نزل بهم، و ظنوا أنه من أفعال النصارى، و ذلك أن النار كانت ترى فى منابر الجوامع و حيطان المساجد و المدارس، فاستعدّوا للحريق و تتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت و قطران. فلما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۴

ليلة الجمعة النصف من جمادى، قبض على راهبين عند ما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة، و قد اشتعلت النار فى المدرسة، و رائحة الكبريت فى أيديهما، فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن والى القاهرة، فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما، فما هو إلّا أن نزل من القلعة و إذا بالعامّة قد أمسكوا نصرانيا وجد فى جامع الظاهر و معه خرق على هيئة الكعكة، فى داخلها قطران و نفط، و قد ألقى منها واحدة بجانب المنبر، و ما زال واقفا إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع، و كان قد فطن به شخص و تأمّله من حيث لم يشعر به النصرانىّ، فقبض عليه و تكاثر الناس فجرّوه إلى بيت الوالى و هو بهيئة المسلمين، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط و تفريقه مع جماعة من أتباعهم، و أنه ممن أعطى ذلك و أمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر، ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل، و أنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة، غيرة و حنقا من المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس، و أن طائفة النصارى تجمعوا و أخرجوا من بينهم مالا- جزيلا- لعمل هذا النفط. و اتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرّفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال: النصارى لهم بطرك يرجعون إليه و يعرف أحوالهم، فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدّث معه فى أمر الحريق و ما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك، فجاء فى حماية والى القاهرة فى الليل خوفا من العامّة، فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم و أحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى، قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك و الوالى جميع ما اعترفوا به قبل ذلك، فبكى البطرك عند ما سمع كلامهم و قال: هؤلاء سفهاء النصارى، قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس، و انصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرّما، فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها، فركبها و سار، فعظم ذلك على الناس و قاموا عليه يدا واحدة، فلو لا أن الوالى كان يسايره و إلّا هلك، و أصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة، فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامّة ما يحلّ لك يا قاضى تحامى للنصارى و قد أحرقوا بيوت المسلمين و تركبهم بعد هذا البغال، فشق عليه ما سمع و عظمت نكايته، و اجتمع بالسلطان، فأخذ يهوّن أمر النصارى الممسوكين و يذكر أنهم سفهاء و جهال، فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم، فنزل و عاقبهم عقوبة مؤلمة، فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها، و فيهم راهب يصنع النفط، و أنهم اقتسموا القاهرة و مصر، فجعل للقاهرة ثمانية، و لمصر ستة، فكبس دير البغل و قبض على من فيه و أحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع ابن طولون فى يوم الجمعة، و قد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم، فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى و فتكوا بهم، و صاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر و تجاوزوا فيهم المقدار، فغضب السلطان من ذلك و همّ أن يوقع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۵

بالعامّة، و اتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت، فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات و هم يصيحون

نصر اللّه الإسلام، أنصر دين محمد بن عبد اللّه.

فخرج من ذلك، و عندما نزل الميدان أحضر إليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما و هما يحرقان الدور، فأمر بتحريقهما، فأخرجا و عمل لهما حفرة و أحرقا بمرأى من الناس، و بينا هم فى إحراق النصرانيين إذا بديوان الأمير بكتمر الساقى قد مرّ يريد بيت الأمير بكتمر، و كان نصرانيا، فعندما عاينه العامّة ألقوه عن دابته إلى الأرض و جرّدوه من جميع ما عليه من الثياب و حملوه ليلقوه فى النار، فصاح بالشهادتين و أظهر الإسلام، فأطلق.

و اتفق مع هذا مرور كريم الدين، و قد لبس التشريف، من الميدان، فرجمه من هنالك رجما متتابعا و صاحوا به: كم تحامى للنصارى و تشدّ معهم، و لعنوه و سبّوه، فلم يجد بدّا من العود إلى السلطان و هو بالميدان، و قد اشتدّ ضجيج العامّة و صياحهم حتى سمعهم السلطان، فلما دخل عليه و أعلمه الخبر امتلأ غضبا و استشار الأمراء، و كان بحضرته منهم الأمير جمال الدين نائب الكرك، و الأمير سيف الدين البوبكرىّ، و الخطيرىّ، و بكتمر الحاجب فى عدّة أخرى، فقال الأبوبكرىّ: العامة عمى و المصلحة أن يخرج إليهم الحاجب و يسألهم عن اختيارهم حتى يعلم. فكره هذا من قوله السلطان، و أعرض عنه. فقال نائب الكرك: كل هذا من أجل الكتاب النصارى، فإن الناس أبغضوهم، و الرأى أن السلطان لا يعمل فى العامة شيئا، و إنما يعزل النصارى من الديوان. فلم يعجبه هذا الرأى أيضا، و قال للأمير الماس الحاجب: امض و معك أربعة من الأمراء وضع السيف فى العامّة من حين تخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة، و اضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر، بحيث لا ترفع السيف عن أحد البتة. و قال لوالى القاهرة: اركب إلى باب اللوق و إلى باب البحر، و لا تدع أحدا حتى تقبض عليه و تطلع به إلى القلعة، و متى لم تحضر الذين رجموا وكيلى، يعنى كريم الدين، و إلّا و حياة رأسى شنقتك عوضا عنهم، و عين معه عدّة من المماليك السلطانية، فخرج الأمراء بعد ما تلكئوا فى المسير حتى اشتهر الخبر، فلم يجدوا أحدا من الناس حتى و لا غلمان الأمراء و حواشيهم، و وقع القول بذلك فى القاهرة، فغلقت الأسواق جميعها، و حل بالناس أمر لم يسمع بأشدّ منه، و سار الأمراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا إلى أن بلغوا باب النصر، و قبض الوالى من باب اللوق و ناحية بولاق و باب البحر كثيرا من الكلابزية و النواتية و أسقاط الناس، فاشتدّ الخوف و عدّى كثير من الناس إلى البرّ الغربىّ بالجيزة، و خرج السلطان من الميدان فلم يجد فى طريقه إلى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامّة، و عند ما استقرّ بالقلعة سيّر إلى الوالى يستعجل حضوره، فما غربت الشمس حتى أحضر ممن أمسك من العامّة نحو مائتى رجل، فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم، و جماعة رسم بتوسيطهم، و جماعة رسم بقطع أيديهم، فصاحوا بأجمعهم: يا خوند ما يحلّ لك، ما نحن الذين رجمنا، فبكى الأمير بكتمر الساقى و من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۶

حضر من الأمراء رحمة لهم، و ما زالوا بالسلطان إلى أن قال للوالى: اعزل منهم جماعة، و انصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل، و علّق هؤلاء بأيديهم. فلما أصبح يوم الأحد علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل، و كان فيهم من له بزة و هيئة، و مرّ الأمراء بهم فتوجعوا لهم و بكوا عليهم، و لم يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة و مصر فى هذا اليوم حانوتا، و خرج كريم الدين من داره يريد القلعة على العادة فلم يستطع المرور على المصولبين، و عدل عن طريق باب زويلة، و جلس السلطان فى الشباك و قد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى و أرجل ثلاثة منهم و الأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدّة حنقه، فتقدّم كريم الدين و كشف رأسه و قبّل الأرض و هو يسأل العفو، فقبل سؤاله و أمر بهم أن يعملوا فى حفير الجيزة، فأخرجوا و قد مات ممن قطع أيديهم اثنان، و أنزل المعلقون من على الخشب.

و عند ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون، و فى قلعة الجبل، و فى بيت الأمير ركن الدين الأحمدىّ بحارة بهاء الدين، و بالفندق خارج باب البحر من المقس و ما فوقه من الربع، و فى صبيحة يوم هذا الحريق قبض على ثلاثة من النصارى و جد معهم فتائل النفط، فأحضروا إلى السلطان و اعترفوا بأن الحريق كان منهم، و استمرّ الحريق فى الأماكن إلى يوم

السبت، فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامّة قد صبغوا خرقا بلون أزرق و علموا فيها صلبانا بيضا، و عند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين إلّا دين الإسلام، نصر اللّه دين محمد بن عبد اللّه، يا ملك الناصر، يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر، و لا تنصر النصارى. فارتجت الدنيا من هول أصواتهم، و أوقع اللّه الرعب فى قلب السلطان و قلوب الأمراء، و سار و هو فى فكر زائد حتى نزل بالميدان و صراخ العامة لا يبطل، فرأى أن الرأى فى استعمال المداراة، و أمر الحاجب أن يخرج و ينادى بين يديه: من وجد نصرانيا فله ماله و دمه. فخرج و نادى بذلك، فصاحت العامّة و صرخت: نصرك اللّه. و ضجوا بالدعاء، و كان النصارى يلبسون العمائم البيض، فنودى فى القاهرة و مصر من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حلّ له دمه و ماله، و من وجد نصرانيا راكبا حلّ له دمه و ماله، و خرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء، و أن لا يركب أحد منهم فرسا و لا بغلا، و من ركب حمارا فليركبه مقلوبا، و لا يدخل نصرانىّ الحمام إلّا و فى عنقه جرس، و لا يتزيا أحد منهم بزىّ المسلمين، و منع الأمراء من استخدام النصارى، و أخرجوا من ديوان السلطان. و كتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى، و كثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات، و أسلم منهم جماعة كثيرة، و كان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدّة، فكان النصرانىّ إذا أراد أن يخرج من منزله يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود و يلبسها، حتى يسلم من العامّة، و اتفق أن بعض دواوين النصارى كان له عند يهودىّ مبلغ أربعة آلاف درهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۷

نقرة، فصار إلى بيت اليهودىّ و هو متنكر فى الليل ليطالبه، فأمسكه اليهودى و قال: أنا بالله و بالمسلمين، و صاح. فاجتمع الناس لأخذ النصرانىّ، ففرّ إلى داخل بيت اليهودىّ و استجار بامرأته، و أشهد عليه بإبراء اليهودىّ حتى خلص منه، و عثر على طائفة من النصارى بدير الخندق يعملون النفط لإحراق الأماكن، فقبض عليهم و سمروا و نودى فى الناس بالأمان، و أنهم يتفرّجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان، و ذلك أنهم كانوا قد تخوّفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى، و زادوا فى الخروج عن الحدّ، فاطمأنوا و خرجوا على العادة إلى جهة الميدان، و دعوا للسلطان، و صاروا يقولون نصرك اللّه يا سلطان الأرض، اصطلحنا اصطلحنا، و أعجب السلطان ذلك و تبسم من قولهم، و فى تلك الليلة وقع حريق فى بيت الأمير الماس الحاجب من القلعة، و كان الريح شديدا، فقويت النار و سرت إلى بيت الأمير ايتمش، فانزعج أهل القلعة و أهل القاهرة و حسبوا أن القلعة جميعها احترقت، و لم يسمع بأشنع من هذه الكائنة، فإنه احترق على يد النصارى بالقاهرة ربع فى سوق الشوّايين، و زقاق العريسة بحارة الديلم، و ستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين، و عدّة أماكن بحارة الروم، و دار بهادر بجوار المشهد الحسينىّ، و أماكن باصطبل الطارمة و بدرب العسل، و قصر أمير سلاح، و قصر سلار بخط بين القصرين، و قصر بيسرى، و خان الحجر، و الجملون، و قيسارية الادم، و دار بيبرس بحارة الصالحية، و دار ابن المغربىّ بحارة زويلة، و عدّة أماكن بخط بئر الوطاويط و بيشكر و فى قلعة الجبل و فى كثير من الجوامع و المساجد إلى غير ذلك من الأماكن بمصر و القاهرة يطول عددها.

و خرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل، و كنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية، و كنيسة الحمراء، و كنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات، و كنيسة أبى المنيا، و كنيسة الفهادين بالقاهرة، و كنيسة بحارة الروم، و كنيسة بالبندقانيين، و كنيستان بحارة زويلة، و كنيسة بخزانة البنود، و كنيسة بالخندق، و أربع كنائس بثغر الإسكندرية، و كنيستان بمدينة دمنهور الوحش، و أربع كنائس بالغربية، و ثلاث كنائس بالشرقية، و ست كنائس بالبهنساوية، و بسيوط و منفلوط و منية الخصيب ثمان كنائس، و بقوص و أسوان إحدى عشرة كنيسة، و بالأطفيحية كنيسة، و بسوق وردان من مدينة مصر، و بالمصاصة و قصر الشمع من مصر ثمان كنائس، و خرب من الديارات شىء كثير، و أقام دير البغل و دير شهران مدّة ليس فيهما أحد، و كانت هذه الخطوب الجليلة فى مدّة يسيرة. قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة، هلك فيها من الأنفس و تلف فيها من الأموال و خرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته، و للّه عاقبة الأمور.

كنيسة ميكائيل: هذه الكنيسة كانت عند خليج بنى وائل خارج مدينة مصر قبلىّ عقبة يحصب، و هى الآن قريبة من جسر الأفرم، أحدثت فى الإسلام و هى مليحة البناء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۸

كنيسة مريم: فى بساتين الوزير قبلىّ بركة الحبش خالية ليس بها أحد.

كنيسة مريم: بناحية العدوية من قبليها قديمة و قد تلاشت.

كنيسة أنطونيوس: بناحية بياض قبلىّ اطفيح، و هى محدثة. و كان بناحية شرنوب عدّة كنائس خربت، و بقى بناحية أهريت الجبل قبلىّ بياض بيومين. كنيسة السيدة: بناحية أشكر و على بابها برج مبنىّ بلبن كبار يذكر أنه موضع ولد موسى بن عمران عليه السلام.

كنيسة مريم: بناحية الخصوص و هى بيت فعملوه كنيسة لا يعبأ بها.

كنيسة مريم و

كنيسة بخنس القصير و

كنيسة غبريال: هذه الكنائس الثلاث بناحية أبنوب.

كنيسة أسبوطير و معناه المخلص: هذه الكنيسة بمدينة اخميم، و هى كنيسة معظمة عندهم، و هى على اسم الشهداء، و فيها بئر إذا جعل ماؤها فى القنديل صار أحمر قانيا كأنه الدم.

كنيسة ميكائيل: بمدينة أخميم أيضا، و من عادة النصارى بهاتين الكنيستين إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين أن يخرج القسوس و الشمامسة بالمجامر و البخور و الصلبان و الأناجيل و الشموع المشتعلة و يقفوا على باب القاضى، ثم أبواب الأعيان من المسلمين، فيبخروا و يقرءوا فصلا من الإنجيل، و يطرحوا له طرحا، يعنى يمدحونه.

كنيسة بوبخوم: بناحية اتفه، و هى آخر كنائس الجانب الشرقىّ، و بخوم و يقال بخوميوس، كان راهبا فى زمن بوشنودة، و يقال له أبو الشركة من أجل أنه كان يربى الرهبان، فيجعل لكل راهبين معلما، و كان لا يمكن من دخول الخمر و لا اللحم إلى ديره، و يأمر بالصوم إلى آخر التاسعة من النهار، و يطعم رهبانه الحمص المصلوق، و يقال له عندهم حمص القلة، و قد خرب ديره و بقيت كنيسته هذه باتفه قبلىّ اخميم.

كنيسة مرقص الإنجيلىّ: بالجيزة، خربت بعد سنة ثمانمائة ثم عمرت. و مرقص هذا أحد الحواريين، و هو صاحب كرسىّ مصر و الحبشة.

كنيسة بوجرج: بناحية أبى النمرس من الجيزة، هدمت فى سنة ثمانين و سبعمائة، كما تقدّم ذكره ثم أعيدت بعد ذلك.

كنيسة بوفار: آخر أعمال الجيزة.

كنيسة شنودة: بناحية هربشت.

كنيسة بوجرج: بناحية ببا، و هى جليلة عندهم يأتونها بالنذور و يحلفون بها، و يحكون لها فضائل متعدّدة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۴۹

كنيسة ماروطا القدّيس: بناحية شمسطا، و هم يبالغون فى ماروطا هذا، و كان من عظماء رهبانهم، و جسده فى انبوبة بدير بوبشاء من برّية شيهات، يزورونه إلى اليوم.

كنيسة مريم بالبهناس: و يقال أنه كان بالبهنسا ثلاثمائة و ستون كنيسة خربت كلها، و لم يبق بها إلّا هذه الكنيسة لا غير.

كنيسة صمويل: الراهب بناحية شبرى.

كنيسة مريم: بناحية طنبدى و هى قديمة.

كنيسة ميخائيل: بناحية طنبدى و هى كبيرة قديمة، و كان هناك كنائس كثيرة خربت، و أكثر أهل طنبدى نصارى أصحاب صنائع.

كنيسة الأيصطولى: أعنى الرسل، بناحية أشنين، و هى كبيرة جدّا.

كنيسة مريم: بناحية اشنين أيضا و هى قديمة.

كنيسة ميخائيل و

كنيسة غبريال: بناحية اشنين أيضا، و كان بهذه الناحية مائة و ستون كنيسة خربت كلها إلّا هذه الكنائس الأربع، و أكثر أهل اشنين نصارى، و عليهم الدرك فى الخفارة، و بظاهرها آثار كنائس يعملون فيها أعيادهم، منها كنيسة بوجرج، و كنيسة مريم، و كنيسة ماروطا، و كنيسة بربارة، و كنيسة كفريل، و هو جبريل عليه السلام.

و فى منية ابن خصيب ست كنائس: كنيسة المعلقة و هى كنيسة السيدة، و كنيسة بطرس و بولص، و كنيسة ميكائيل، و كنيسة بوجرج، و كنيسة انيابولا الطمويهىّ، و كنيسة الثلاث فتية، و هم حنانيا و عزاريا و ميصائيل، و كانوا أجنادا فى أيام بخت نصر فعبدوا اللّه تعالى خفية، فلما عثروا عليهم راودهم بخت نصر أن يرجعوا إلى عبادة الأصنام فامتنعوا من ذلك، فسجنهم مدّة ليرجعوا فلم يرجعوا، فأخرجهم و ألقاهم فى النار فلم تحرقهم، و النصارى تعظمهم، و إن كانوا قبل المسيح بدهر.

كنيسة بناحية طحا: على اسم الحواريين الذين يقال لهم عندهم الرسل.

كنيسة مريم: بناحية طحا أيضا.

كنيسة الحكيمين: بناحية منهرى، لها عيد عظيم فى بشنس يحضره الأسقف، و يقام هناك سوق كبير فى العيد، و هذان الحيكمان هما قزمان و دميان الراهبان.

كنيسة السيدة: بناحية بقرقاس قديمة كبيرة.

و بناحية ملوى كنيسة الرسل، و كنيستان خراب، إحداهما على اسم بوجرج، و الأخرى على اسم الملك ميخائيل. و بناحية دلجة كنائس كثيرة لم يبق منها إلّا ثلاث

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۰

كنائس: كنيسة السيدة، و هى كبيرة. و كنيسة شنودة، و كنيسة مرقورة، و قد تلاشت كلها.

و بناحية صنبو كنيسة انابولا، و كنيسة بوجرج، و صنبو كثيرة النصارى. و بناحية ببلاو و هى بحرىّ صنبو كنيسة قديمة بجانبها الغربىّ على اسم جرجس، و بها نصارى كثيرون فلاحون.

و بناحيا دروط كنيسة و فى خارجها شبه الدير على اسم الراهب ساراماتون، و كان فى زمان شنودة، و عمل أسقفا، و له أخبار كثيرة. و بناحية بوق بنى زيد كنيسة كبيرة على اسم الرسل، و لها عيد. و بالقوصية كنيسة مريم، و كنيسة غبريال، و بناحية دمشير كنيسة الشهيد مرقوريوس، و هى قديمة و بها عدّة نصارى. و بناحية أمّ القصور كنيسة بوبخنس القصير و هى قديمة. و بناحية بلوط من ضواحى منفلوط كنيسة ميخائيل و هى صغيرة. و بناحية البلاعزة من ضواحى منفلوط كنيسة صغيرة يقيم بها القسيس بأولاده. و بناحية شقلقيل ثلاث كنائس كبار قديمة إحداها على اسم الرسل، و أخرى باسم ميخائيل، و أخرى باسم بومنا. و بناحية منشأة النصارى كنيسة ميخائيل. و بمدينة سيوط كنيسة بوسدرة و كنيسة الرسل، و بخارجها كنيسة بومينا. و بناحية درنكة كنيسة قديمة جدّا على اسم الثلاثة فتية حنانيا و عزاريا و ميصائيل، و هى مورد لفقراء النصارى، و درنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية، فيتحدّث صغيرهم و كبيرهم بها، و يفسرونها بالعربية. و بناحية ريفة كنيسة بوقلتة الطبيب الراهب صاحب الأحوال العجيبة فى مداواة الرمدى من الناس، و له عيد يعمل بهذه الكنيسة. و بها كنيسة ميخائيل أيضا، و قد أكلت الأرضة جانب ريفة الغربىّ. و بناحية موشة كنيسة مركبة على حمام على اسم الشهيد بقطر، و بنيت فى أيام قسطنطين ابن هيلانة، و لها رصيف عرضه عشرة أذرع، و لها ثلاث قباب ارتفاع كل منها نحو الثمانين ذراعا، مبنية بالحجر الأبيض كلها، و قد سقط نصفها الغربىّ، و يقال أنّ هذه الكنيسة على كنز تحتها، و يذكر أنه كان من سيوط إلى موشة هذه ممشاة تحت الأرض.

و بناحية بقور من ضواحى بوتيج كنيسة قديمة للشهيد اكلوديس، و هو يعدل عندهم مرقوريوس، و جاأرجيوس، و هو أبو جرج و الإسفهسلارتا أدروس و ميتاوس، و كان أكلوديوس أبوه من قوّاد ديقلطيانوس، و عرف هو بالشجاعة فتنصر، فأخذه الملك و عذبه ليرجع إلى عبادة الأصنام، فثبت حتى قتل و له أخبار كثيرة.

و بناحية القطيعة كنيسة على اسم السيدة، و كان بها أسقف يقال له الدوين، بينه و بينهم منافرة فدفنوه حيا، و هم من شرار النصارى معروفون بالشرّ، و كان منهم نصرانىّ يقال له جرجس ابن الراهبة، تعدّى طوره فضرب رقبته الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بالقاهرة فى أيام الناصر فرج بن برقوق.

و بناحية بوتيج كنائس كثيرة قد خربت، و صار النصارى يصلون فى بيت لهم سرّا، فإذا طلع النهار خرجوا إلى آثار كنيسة و عملوا لها سياجا من جريد شبه القفص و أقاموا هناك عباداتهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۱

و بناحية مقروفه كنيسة قديمة لميخائيل، و لها عيد فى كل سنة، و أهل هذه الناحية نصارى، أكثرهم رعاة غنم و هم همج رعاع.

و بناحية دوينة كنيسة على اسم بوبخنس القصير، و هى قبة عظيمة و كان بها رجل يقال له يونس، عمل أسقفا و اشتهر بمعرفة علوم عديدة فتعصبوا عليه حسدا منهم له على علمه و دفنوه حيا، و قد توعك جسمه.

و بالمراغة التى بين طهطا و طما كنيسة.

و بناحية قلفا كنيسة كبيرة، و تعرف نصارى هذه البلدة بمعرفة السحر و نحوه، و كان بها فى أيام الظاهر برقوق شماس يقال له أبصاطيس له فى ذلك يد طولى، و يحكى عنه ما لا أحب حكايته لغرابته، و بناحية فرشوط كنيسة ميخائيل، و كنيسة السيدة مارت مريم، و بمدينة هوّ كنيسة السيدة و كنيسة بومنا. و بناحية بهجورة كنيسة الرسل. و باسنا كنيسة مريم و كنيسة ميخائيل و كنيسة يوحنا المعمدانىّ، و هو يحيى بن زكريا عليهما السلام. و بنقادة كنيسة السيدة، و كنيسة يوحنا المعمدانىّ، و كنيسة غبريال، و كنيسة يوحنا الرحوم، و هو من أهل أنطاكية ذوى الأموال، فزهد و فرّق ماله كله فى الفقراء و ساح و هو على دين النصرانية فى البلاد، فعمل أبواه عزاءه و ظنوا أنه قد مات، ثم قدم أنطاكية فى حالة لا يعرف فيها، و أقام فى كوخ على مزبلة، و أقام رمقه بما يلقى على تلك المزبلة حتى مات، فلما عملت جنازته كان ممن حضرها أبوه، فعرف غلاف إنجيله، ففحص عنه حتى عرف أنه ابنه، فدفنه و بنى عليه كنيسة أنطاكية. و بمدينة قفط كنيسة السيدة، و كان بأصفون عدّة كنائس خربت بخرابها، و بمدينة قوص عدّة أديرة و عدّة كنائس خربت بخرابها، و بقى بها كنيسة السيدة و لم يبق بالوجه القبلىّ من الكنائس سوى ما تقدّم ذكرنا له.

و أما الوجه البحرىّ:

ففى منية صرد من ضواحى القاهرة كنيسة السيدة مريم، و هى جليلة عندهم. و بناحية سندوة كنيسة محدثة على اسم بوجرج، و بمر صفا كنيسة مستجدّة على اسم بوجرج أيضا، و بسمنود كنيسة على اسم الرسل عملت فى بيت، و بسنباط كنيسة جليلة عندهم على اسم الرسل، و بصندفة كنيسة معتبرة عندهم على اسم بوجرج، و بالريدانية كنيسة السيدة و لها قدر جليل عندهم، و فى دمياط أربع كنائس للسيدة و لميخائيل و ليوحنا المعمدانىّ و لمارى جرجس، و لها مجد عندهم. و بناحية سبك العبيد كنيسة محدثة فى بيت مخفىّ على اسم السيدة، و بالنحراوية كنيسة محدثة فى بيت مخفى، و فى لقانة كنيسة بوبخنس القصير، و بدمنهور كنيسة محدثة فى بيت مخفى على اسم ميخائيل، و بالإسكندرية المعلقة على اسم السيدة و كنيسة بوجرج و كنيسة يوحنا المعمدانى و كنيسة الرسل، فهذه كنائس اليعاقبة بأرض مصر، و لهم بغزة كنيسة مريم، و لهم بالقدس القمامة و كنيسة صهيون.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۲

و أما الملكية فلهم بالقاهرة كنيسة مارى نقولا بالبندقانيين، و بمصر كنيسة غبريال الملاك بخط قصر الشمع، و بها قلاية لبطركهم، و كنيسة السيدة بقصر الشمع أيضا، و كنيسة الملاك ميخائيل بجوار بربارة بمصر، و كنيسة مار يوحنا بخط دير الطين، و اللّه أعلم.

و هذا أخر الجزء الثانى و بتمامه تم الكتاب و الحمد للّه وحده و صلّى اللّه على من لا نبىّ بعده و سلّم و رضى اللّه عن أصحاب رسول اللّه أجمعين و حسبنا اللّه و نعم الوكيل، و لا عدوان إلّا على الظالمين.

قول المستعين بربه القوىّ، محمد ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن قطة العدوى، مصحح دار الطباعة المصرية، بلغه اللّه من الخير كلّ أمنية: إن من جملة المحاسن الممدوحة بكلّ لسان، و أحاسن الآثار الغنىّ فضلها عن البيان، التى ظهرت فى أيام صاحب العز و الإقبال، من طبع على المرحمة و العدالة فى الأقوال و الأفعال، و اختص بحسن التبصر و سداد النظر، و رعاية المصالح العامّة لأهل البدو و الحضر، و وهب من صفات الكمال و كمال الصفات، ما تقصر دون تعداده العبارات و الإشارات، من هو الفرقد الثانى، فى أفق الصدارة العثمانىّ، عزيز الديار المصرية، ذى المناقب الفاخرة السنية، حضرة أفندينا الحاج عباس باشا، لا زال بصولة عدله جيش المظالم يتلاشى، و لا برح قرير العين بأنجاله، محفوظ الجناب نافذ القول فى حاله و استقباله، و لا فتىء لواء عزه منشورا، و لا انفك سعيه مشكورا، طبع كتاب الخطط للعلامة المقريزىّ الشهير، المجمع على فضله و عموم نفعه بلا نكير، كيف لا وقد جمع من تخطيط الحكومة المصرية، و ما يتعلق بها من الموادّ الجغرافية و التاريخية، و ذكر أصناف أهلها و ولاتها، و ما عرض لها من تقلبات الأزمان و تغيراتها، و ما تضمنته من الأخلاق و العوائد، الصحيح منها و الفاسد، و ما توارد عليها من الدول و الحكومات، و اختلاف الملل و الديانات، و غير ذلك من الفوائد، و صحيح الأدلة و الشواهد، و عجائب الأخبار، و غرائب الآثار، ما يغنى الحاذق اللبيب، و يكفى الماهر الأريب، و يعتبر به المعتبرون، و يتفكه به المتآمرون، بل هو النديم الذى لا يمل، و الأنيس الذى فى استصحابه تهون الكرائم و تبذل، بيد أنه يتحفك من تاريخ مصر بأظرف تحفه، و يمنحك من طريف جغرافيتها و تليدها ألطف طرقه، و يسكنك من قصور أنبائها على غرفه، و ينشقك من زهر روض أخبارها شميمه و عرفه، غير أنه لما كان فنّ التاريخ مع جليل نفعه، و جزيل فائدته عند أرباب المعارف و عظيم وقعه، قد رميت سوقه فى هذه الأزمان بالكساد، و تقاصرت عنه الهمم من كل حاضر و باد، كان هذا الكتاب مما خيمت عليه عناكب النسيان، و عزت نسخه فى ديارنا حتى كاد لا يعثر بها إنسان، فإنها فيها قليلة محصورة، متروكة الاستعمال مهجورة، فكانت مع قلتها عارية عن صحتها، فكم فيها من تحريف فاحش و سقط متفاحش، و غلط مخل، و خطا مضجر و ممل، و يفضى بالقارى إلى الملل، و يعوّضه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۳

عن النشاط الكسل، لكن بحمد اللّه و عونه، و عظيم فضله و منه، و بذل المجهود فى التصحيح، و استفراغ الوسع فى التحرير و التنقيح، جاءت النسخة المطبوعة صحيحة حسب الإمكان، جديرة بأن تحل محل القبول و الاستحسان، فإنّ ما كان من عباراته بالتحريف سقيما، و لم يفهم معنى مستقيما، أجلت فيه ذهنى مع قصوره، و كلفته التسلق على قصوره، فإن فتح له باب الرشاد، و ألهم المعنى المراد، حمدت ربى، حيث نلت أربى، و إن كانت الأخرى، و كبا زند الفهم و ما أورى، نبهت على وجه التوقف فى الحاشية بالعبارة، أو رقمت فيها رقما هنديا ليكون إلى التوقف إشارة، و ربما أشرت إلى الصواب، لكن على سبيل الرجاء فى الاستصواب، و ربما مرّ بك تعداد بعض أشياء يشم منها مخالفة العربية، و تفصيل أمور تأباه بحسب الظاهر القواعد النحوية، و عذرنا فى ذلك، أن المؤلف تقلها كذلك، عمن نقلها عن جريدة حساب، و أثبتها على ما هى عليه فى تقييدات الكتاب، فأبقيناها على حالها، و لم ننسجها على غير منوالها، حرصا على عدم التغيير فى عبارات المؤلفين، حسبما نص عليه أئمة الدين، لا سيما و المعنى معه ظاهر، لا يخفى على السامع و الناظر، ثم إنه لبعض الأسباب، فاتنى تصحيح نحو اثنتين و عشرين ملزمة من أول الجزء الأوّل، و مثلها من أوّل الثانى من هذا الكتاب، لكن إن شاء اللّه تعالى يحصل الاطلاع عليها، و النظر بعين التأمل إليها، فإن عثر فيها على ما يلزم التنبيه عليه، و الإشارة إليه، نبهت عليه و أثبت ما يخص كلّ جزء بلصقه، ليكون كلّ منهما مستوفيا لحقه، هذا و كأنى بمتشقشق متشدّق، يعجل ببذاءة اللسان و لا يحقق، قد

استولى عليه الحسد فأعمى بصيرته، و رفع بالذمّ و التشنيع عقيرته، قائلا ما لا يليق إلا به، مذيعا ما هو أولى به، و ما درى الجهول أن فنّ التصحيح خطر دقيق، و صاحبه بضدّ ما تبجح به جدير حقيق، و لو ذاق لعرف، و بالعجز أقرّ و اعترف، و بالجملة فذمّه يشهد لى بالكمال، أخذا بقول من قول:

و إذا أتتك مذمّتى من ناقص‌فهى الشهادة لى بأنى كامل

على أنى و اللّه معترف بقلة البضاعة، و عدم الأهلية لهذه الصناعة، و لكنما هى إقامات، و إنما الأعمال بالنيات.

و أفوّض أمرى إلى اللطيف الخبير، فإنه نعم المولى و نعم النصير، و كان طبع هذا الكتاب بدار الطباعة المصرية، المنشأة ببولاق القاهرة المعزية، لا زالت بأنفاس الحضرة الآصفية، منبعا لنشر الكتب النافعة العلمية، تحت ملاحظة صاحب نظارتها، القائم بتدبيرها و إدارتها، رب القلم الذى لا يبارى، و الإنشاء الذى لا يجارى، من أحرز قصب السبق فى ميدان البراعة، و انقاد له كلّ معنى أبىّ و أطاعه، حضرة علىّ أفندى جودة، بلغه اللّه فى الدارين مأموله و قصده، و كان طبعه على ذمة ملتزمة، المتسبب بعد الطىّ فى نشر علمه، و اشتهاره فى الأقطار، و استعماله عند أهل القرى و الأمصار، الباذل فى ذلك نفائس الكرائم،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۴، ص: ۴۵۴

المستصغر فى استحصاله الصعائب و العظائم، المستنصر بمولاه فى حالتى الضعف و الأيد الخواجة رفائيل عبيد، و قد وافق تاريخ تمامه، و انتهاء الطبع إلى حدّ ختامه، يوم الاثنين التاسع عشر، من شهر اليمن و الخير صفر، الذى هو من شهور سنة ألف و مائتين و سبعين، من هجرة سيد النبيين و المرسلين صلّى اللّه و سلّم عليه و عليهم أجمعين، و على كلّ الصحابة و التابعين، و رزقنا بجاههم الاعتصام بحبله على الدوام، و منحنا التوفيق لما يرضيه، و الفوز بحسن الختام. آمين.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َيَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ- فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة - فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجم المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلک، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم - إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.

مركز القائمية اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹